هداسا بن عيتو

أكذوبة تأبى الموت

مائة عام على

بروتوكولات حكماء صهيون

ترجمها عن العبرية:

جورج جريس فرح

إصدار: مكتبة كل شيء للطباعة والنشر – حيفا

صف وتنضيد: المتوسط للخدمات التجارية
شفاعمرو. تلفاكس: 9869926 - 04
Email:gjfarah@gmail.com

لذِكْرَى جَميعِ أفرادِ عائلتي

الَّذِيْنَ قَضَوا ضَحِيَّةَ الكَارِثَةِ

ولم يُعرَفْ مَوْضِعُ مَثْوَاهُم

ليكُنْ كتابي هذا

شاهدَ أَضْرِحَتِهِم

الفهرست

	كلمة المؤلفة للقارئ العربي	1
	مدخل	2
الفصل الأول	لقاءات مع حكماء صهيون	6
الفصل الثاني	سلالة رومانوف والبروتوكولات	37
الفصل الثالث	البروتوكولات في قفص الاتهام	76
الفصل الرابع	الكشف - 1921	113
الفصل الخامس	كيف يدافعون عن الكذب	152
الفصل السادس	قرارات صعبة	178
الفصل السابع	الشهود	209
الفصل الثامن	بصمات فرنسية على إنتاج روسي	246
الفصل التاسع	المزيّفون	288
الفاصل العاشر	فرية في جنوب أفريقيا	322
الفصل الحادي عشر	شهادة حيَّة	373
الفصل الثاني عشر	الكذبة حيَّة تُرزق	485
	المراجع والمصادر	524

كلمة المؤلفة للقارئ العربي:

لسنوات عديدة تسنى لي الظهور في مختلف المحافل الدولية، فتعرَّضَت لي خلالها "بروتوكولات حكماء صهيون" كوثيقة أصلية تطرح خطة سياسية يهودية للسيطرة على العالم. وإذ تأكّد لي أن المتحدثين لا يعتبرون الأمر أسطورة عفا عليها الزمن، بل يرون فيه مؤامرة جنائية تهدّد سلام وأمن العالم، يجري تنفيذها في الوقت الحاضر – حسب ادعاءات تصدر بالأساس من أفواه ممثلي الدول الإسلامية – دَفَعني فضولي إلى دراسة الموضوع.

إن ما توصّلتُ إليه جعلني أعتزل كرسيَّ القضاء لأكرّس ستَّ سنوات من البحث الشامل لبروتوكولات حكماء صهيون، مما تمخّض عن إصدار هذا الكتاب.

نظرًا لكوني قاضية، فقد تعلمتُ التوصل إلى الاستنتاجات استنادًا إلى الحقائق الدامغة فحسب، وعليه، فقد حرصتُ على أن أقوم بالبحث بمفردي، وأن اتفحّص شخصيًّا كل مستند وكل حقيقة، وأن أقوم عمليًّا بزيارة كل الأماكن ذات العلاقة.

الكمَّ الهائل من المواد التي عثرتُ عليها في تنقلاتي بين مختلف الدول، جعل البحث يمتدُّ طوال ست سنوات.

يعتمد الكتاب في مجمله على ما اكتشفتُ من الحقائق، وقد صدر حتى الآن في تسع لغات: العبرية، الإنجليزية، الألمانية، الروسية، الإسبانية، الهولندية، الرومانية، الهنغارية والبلغارية.

تم عرض الكتاب في مختلف المحافل العامة في كل الدول التي صدر فيها، بما في ذلك وسائل الإعلام والمرافق الأكاديمية، وقد حظي بالنقد الإيجابي؛ فرغم ما ورد في الكتاب من وصف لأحداث هي جزء من تاريخ تلك الدول (مثل روسيا وألمانيا

وسويسرا وبريطانيا والولايات المتحدة) لم يكن هناك أي طعن في دقة تفاصيل الحقائق.

يتكرر إصدار البروتوكولات باللغة العربية، ويردُ ذكرها ويُقتبس عنها في المقالات، وفي المسلسلات المصوَّرة والبرامج التلفزيونية، وتحظى بالانتشار الواسع. ورغم أن قلة من المفكرين العرب يقومون من حين لآخر بنشر مقالات تشهد بزيف البروتوكولات، يبدو لي أن الغالبية الغالبة من الناطقين بالضاد لم تقف بعد على الحقائق التي أوردتُها في كتابي هذا، وتنظر إلى البروتوكولات، وما تحتويه من ادعاءات عن المؤامرة اليهودية، كحقيقة محضة لا جدل فيها. من هذا المنطلق، يسعدني أن تتاح للقارئ العربي فرصة معرفة هذه القصة الدرامتيكية، ليحكم بنفسه.

أدينُ بالشكر الخاص للمترجم جورج فرح الذي أخذ على نفسه مهمة ترجمة هذا الكتاب، ودأب بلا كلل على دقة الترجمة، فقد أشركني جورج أثناء عمله بكل إرباكاته الناجمة عن توخّيه الدقة القصوى، من خلال اهتمامه بتقديم المفهوم النصّي إلى القارئ بالمعنى الصحيح بعيدًا عن الترجمة المعجمية الآلية.

أتحمّل شخصيًّا كل المسؤولية عن مضمون الكتاب.

كذلك أوجه عميق شكري إلى السيد صالح عباسي الذي اختار أن تتبنّى دار النشر التي يديرها إصدار هذا الكتاب ليكون في متناول القارئ العربي حيثما وُجِد.

هداسا بن عيتو

مَدخل

مرَّ مائة عام على تأليف **بروتوكولات حُكماء صهيون** (وتُعرفُ أيضًا بـــ: بروتوكولات شيوخ صهيون) وهي من أشهر التزييفات التي عرفها التاريخ، وما زالت تنتشر في أيامنا هذه بإصدارات جديدة في أنحاء العالم. وخلافًا للاعتقاد السائد، فإن الموضوع ليس موضوع "التأثير اليهودي" أو "اللوبي اليهودي"، كما أنه ليس موضوع احتلال اليهود لمراكز السيطرة والمناصب القيادية، بل إنه يتعدّاه إلى فِريَةٍ بأن ثمَّة "مؤامرة يهودية" عالمية، خطّة يهودية شيطانية، الهدفُ منها الإطاحة بالحكومات الشرعية في مختلف البلدان وتسليط حكومة يهودية يرأسها حاكم أعلى، وبأن الخطة مفصَّلة بحذافيرها في البروتوكولات التي يدّعون أنها تشمل توثيقًا لمداولات حكومة يهودية سريّة توجّه تاريخ العالم. بقَدر ما يبدو الأمر خياليًا ومرفوضًا، فالواقع هو أنه قد تم استغلال هذه الفِرية على مدار مائة عام لأهداف سياسية، بُغية تذنيب اليهود بكل ما حلَّ بالبشرية من الويلات، بما فيها الحروب والثورات والإرهاب العالمي والأزمات الاقتصادية والأوبئة على أنواعها، وحتى نشر فيروس الإيدز. هنالك من يقول إن مدى انتشار البروتوكولات إبّان القرن العشرين لا يقل عن مدى انتشار التوراة، ويتم نشرها في هذه الأيام بمختلف اللغات والألسنة، وحتى في البلدان التي تخلو من اليهود، مرفَقة بـــ "الأدِلَّة" على أن تنفيذها جارٍ الآن وفي الوقت الراهن.

المصطلَح "حُكماء صهيون" قد تغلغلَ أيضًا في لغتنا المحكية، وأصبح تعبيرًا لغويًا دارجًا، يستعمله اليهود عادةً على سبيل التفكّه، تلازمُه غمزة عين، غير انَّ القليلين يعرفون القصّة الحقيقية وراء البروتوكولات واستغلالها الواسع والمتكرِّر من أجل اغتيال اليهود وإبادتهم.

لو لم تكن هذه القصة موثَّقة لصعب تصديقها. وقد شارك فيها الساسَة والملوك، الكتاب والصحافيون، النبلاء ورجال البوليس

السري، وأميرات مارسن السحر، ورجال سياسة ماجنون. تشمل القصّة بلدانًا كثيرة وتتصل بأحداث القرن العشرين الرئيسية.

يشرح هذا الكتاب كيف تم تزوير البروتوكولات وكيف كان استغلالُها، وكيف تم كشف التزوير وإظهار الحقيقة. كما يصف هذا الكتاب كيفَ عمَّرَ هذا التزوير، وكيف دامت الفريَة وما زالت تغذّي الكراهية وتخلّد تعاليمَ أدّت في الماضي إلى إبادة يهود، وكيف أنها تشكّل اليومَ أساسًا لادِّعاءات مُنكِري الكارثة ولإعداد الإرهابيين من أجل القيام بعمليات الإيذاء الانتحارية.

هنا يردُ، وللمرّة الأولى، وصفٌ وافٍ ومفصَّل لمحاكماتٍ هامةٍ جرت في بلدان مختلفة في موضوع البروتوكولات، تتخلله حكايات عن المحامين المتفانين الذين أداروا تلك القضايا، وعن الشهود الذين قبلوا الظهور والانكشاف في سبيل إظهار الحقيقة، وعن قُضاة شجعان، من مختلف البلدان، ممن أقرّوا بشكل قاطع بأن البروتوكولات ليست سوى تزوير خطير.

ما اليهود إلاّ إحدى ضحايا الدعاية المُوجِّهَة للحقد والكراهية ضد الجماعات والأقليات، وقد أصبحت مشكلة عالمية، وباتت دائمة التواجد على جدول أعمال دور التشريع والمنظمات العالمية، كالأمم المتحدة والمجلس الأوروبي. يدور الجدل في المحافل الأكاديمية والقضائية ووسائل الإعلام، حول السؤال ما إذا كان من المناسب أن تتمتّع الافتراءات الكاذبة، النابعة من الحقد والكراهية، بحماية القانون الذي ينصُّ على حرّية التعبير بكافة أشكالها. في نطاق هذا الجدل ورد أحيانًا المصطلح " fighting words" حيث أن الكلمات قد تتحوّل أحيانًا إلى أداة حربية، وقد تُشكّل خطرًا لا يقلُّ عن خطر الأسلحة الأخرى. إن كلّ من يعارض منعَ نشرِ الافتراءات المغرضة يسهم، من حيث لا يدري، في ما ينتج عنها من أضرار.

إن الادّعاء بضرورة مناقشة الكذابين والمزوّرين، في نطاق ما يسمّى "سوق الفكر"، يتجاهل حقيقة أن الكذب ليس "فِكرًا". من هنا، لا يجب السماح لمروّجيه بالدخول إلى حيث يتم الجدل الموضوعي.
إن القصّة التي نسوقها في هذا الكتاب تشهد على ما يمكن أن تُلحقَه فِرية تدمغُ مجموعة من البشر فتجعلهم ضحية محتملة.

لن يواجه المؤرخون والباحثون المهتمون بالبروتوكولات أية صعوبة في الوصول إلى الكتب والمنشورات التي تملأ الرفوف في المكتبات. هذا الكتاب مُوجَّه إلى جمهور واسع من القراء، لذا فقد تمت كتابته بأسلوب قصصي، وبدون ملاحظات هامشية. الأحداث والأشخاص فيه ليسوا من إنتاجي، وكل ما ورد فيه يستندُ إلى بحث واسع، استغرق ما يقارب ستَّ سنوات، من خلال قراءة العديد من الكتب والمنشورات، ومسح الأرشيفات في مختلف البلدان، ومقابلة أناسٍ أحياء، ومراجعة آلاف المستندات. غير أني، وبغية إضافة اللون على القصة، ضمَّنتُ الوصف والأحاديث والخواطرَ غير الموثَّقة، لكنها أيضًا لم تأتِ من فراغ، بل تستند إلى مراسلات وذكريات لمختلف الناس، كما تستند إلى الصحف التي صدرت في الفترات المتعلقة، وإلى مستندات شخصية وُضِعَت تحت تصرّفي. في خاتمة الكتاب يجد القارئ قائمة بالمواد والمصادر التي استعنتُ بها.
إن هذا البحث هو بحث شخصي في موضوع أقلق راحتي، وقد بذلتُ جهدي لسرد القصة كما بدت لنظري في غاية الدقة، وللقارئ أن يستنتج.

هداسا بن عيتو
تل أبيب، ديسمبر 1997

الفصل الأول

لقاءات مع "حكماء صهيون"

توطئة

كان ذلك آخر يومٍ لي على كرسيّ القضاء.

قبل خمس سنوات، كان الكلُّ يشجبُ بإشارة استنكار كلَّ تلميح حول احتمال خروجي المبكّر من جهاز القضاء إلى التقاعد لكي أتفرّغ لتعقّبِ آثار كتاب؛ فعلى مدار الثلاثين عامًا في دار القضاء كان لقبي كقاضية جزءًا من هويتي، لا يقل عن كوني امرأة؛ فعندما لم ينادوني باسمي الشخصي، كما هو مألوف بين الزملاء، توجّه الناسُ إليَّ بقولهم: "حضرة القاضية" أكثر من قولهم "حضرة السيدة".

إن تقاعدي الاختياري وتنازلي عن وظيفةٍ هي جزء من كياني، قبل سنوات من وقوع الفأس القاضية بالتقاعد الإلزامي في سن معينة، كان بمثابة عملية انتحارية.

وجدتُ نفسي في الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر 1991 أرأس للمرّة الأخيرة جلسة من على منبر المحكمة اللوائية في تل أبيب. تجمّع المحامون من القاعات الأخرى، متدثرين بالعباءات السوداء، ليبثوني الوداع وتمنيات النجاح في طريقي الجديد، وقد سرّني أن أرى بينهم الكثيرين ممن تدرّبوا على يدي. وكما هو مُتعارَفٌ، يتم توديع القاضي عن طريق الحضور إلى قاعته لحظة قراءة قرار حُكمه الأخير. "هذا جميل"، قلت في نفسي، واجتهدتُ في قراءة القرار بصوت واضح وهادئ.

لقد قضيتُ خيرةَ سنوات عمري بين هذه الجدران. هنا أصغيتُ ساعاتٍ وأيامًا طويلة للادعاءات والشهادات. من هنا راقبتُ عروضًا لا نهاية لها للناس في لحظات قوتهم وضعفهم، في ساعات شدَّتهم وفرحهم. رأيتُ أناسًا يخفضون الطرفَ، إمّا لأنهم لم يعتادوا على الكذب أو لأن الحقيقة التي نطقوا بها تفوق

مرارتها احتمالهم. كان من بينهم من اقتادته الشرطة وأدخلته من الباب الجانبي المؤدي إلى حجرة التوقيف، لكنه خرج من هنا حرًّا طليقًا. وكان مَن جاء حُرًّا، محاطًا بأبناء عائلته المتوترين، وخرج من هنا إلى السجن حاملاً كيسًا كئيبًا يحتوي حاجياته الخاصة التي أعدّوها له مُسبَقًا. من هذه القاعة أرسلتُ البعضَ إلى السجن المؤبَّد، وفيها استمعتُ إلى شكوى آباء وأمهات حُرموا من حق رعاية أطفالهم.

كنت جزءًا لا يتجزأ من قاعة المحكمة هذه. عرفتُ أي النوافذ لم يُحكَم إغلاقُها وأي المقاعد يُصدر صَريرًا. كان بمقدوري تمييز البقعة على الأرضية الشمعية، حيثُ أُفرغ كيس حشيش كانوا قد أحضروه كإثبات إلى المحكمة. قربَ منصة الشهود ما يزال أثر تركه عجوز حين انهار وفارق الحياة أثناء استجواب طويل أجراه معه مُدَّعٍ عنيد. كان زجاج النوافذ ما يزال يحمل شبكات اللاصقات العريضة التي ألصقتُها بمعية أحد المتدربين عندي، أيام حرب الخليج، حين كانت تل أبيب هدفًا للصواريخ العراقية.

أحسَستُ أن جزءًا من ذاتي سيبقى في هذه القاعة إلى الأبد، لكني حملتُ شعورًا غريبًا من الرضى والتطلّع إلى المستقبل. أدركتُ أني سأعتزل الكرسيّ وليس العمل. سأبقى أعمل، لكن بدون قاعة، وعبر التخلّي عن الصلاحية والتحرّر من قيود النظام. نصَّبت نفسي قاضية باحثة، ومضيتُ في طريقي لاكتشاف الحقيقة وإصدار الحكم، بينما في قفص الاتهام ينتصبُ كتابٌ!

سألني أحد السائحين الأمريكان ذات مرَّة إن كنت أزاول "أعمال العدالة"، وكأنه يسأل "هل تزاولين أعمال التأمين؟" أو "هل تزاولين أعمال الصيرَفة". أجل، قلتُ في نفسي، أنا في أعمال العدالة، أو على الأقل اجتهدتُ أن أصنع العدالة. ربما أخفقتُ أحيانًا، كسائر زملائي القضاة، لكن، هل ارتكبتُ خطأ ساذجًا حين قررت اعتزال قاعة القضاء من أجل البحث عن حقيقة من نوع آخر؟ ومن أجل السعي في طلب نوع آخر من العدالة؟

الغريب أن القرار لم يكن قرارًا إدراكيًا، بل إن سلسلة من الأحداث ساقتني إلى هذه اللحظة بشكل يستحيل دَرؤه. في ردّي على سؤال: متى داهمني هذا "الجنون" للمرّة الأولى؟ أجبتُ: إن ذلك يعود إلى ما قبل ستة وعشرين عامًا، حين جلستُ في غرفة الطعام الخاصة بالمندوبين في بناية الأمم المتحدة في نيويورك.

الجمعية العامة للأمم المتحدة – 1965

تميّز المطعم الخاص بالمندوبين، في الطابق العلوي من عمارة الجمعية العامة، بالأناقة الهادئة. كان حجز المائدة لوجبة الغداء يتم عادة في موعد سابق، وكان المضيف يسبق ضيوفه إلى غرفة الانتظار لاستقبالهم هناك. أمّا الضيف المدعو فقد كان يتعمّد التأخر قليلاً حتى لا يتواجد في موقف محرج بانتظار مضيفه. كان بالإمكان تمييز منزلة المضيف قبل الوصول إلى المائدة المعدّة، المكسوة بغطاء أبيض ناصع كالثلج؛ فقد كانت الموائد الفاخرة، المجاورة للنوافذ المطلّة على مناظر نيويورك، من نصيب سفراء الدول الهامة. قلتُ في نفسي: لعلَّ السكرتيرات هنَّ اللواتي يُسارعنَ إلى حجز المكان!

كنتُ لا أزال حديثة العهد في البناية الزجاجية، أحاول أن أستذكر القواعد السلوكية السارية في ذلك المكان الغريب. كانت تُربكُني كل هفوة، مهما كانت صغيرة. فكّرتُ وأنا بانتظار ضيفي الذي دعوته في ذلك اليوم للغداء: ربما كان عليهم إعدادي بشكل أفضل لهذه البعثة!

في عام 1965 كان الرجال في الخارج ما يزالون يرفضون أن تقوم النساء بالدفع عنهم في المطاعم، لكنَّ الحال لم يكن كذلك في عمارة الأمم المتحدة؛ فهناك خُصِّصَت المصروفات على أساس المقام وليس الجنس. مع ذلك، كانت المرأة، حتى لو كانت هي المضيفة، تتعرّض لملاحظات وتلميحات ربما تعتبر في أيامنا هذه نوعًا من المشاكسة المنبوذة. دارت الأقاويل عن أمور كثيرة

تجري وراء كواليس التقارير الرسمية. "النساء لا تتذمَّرنَ، طالما أن ذلك لا يحدث لغولدا" قال رفقائي في البعثة ضاحكين، في غفلة منها طبعًا.
كانت غولدا مئير وزيرة للخارجية، وقد ترأست الوفدَ إلى الجمعية العامة، وهي التي دعتني للاشتراك في الوفد في تلك السنة، من أجل المساهمة في النص النهائي لمعاهدة مقاومة التمييز العنصري. "نحن اليهود لنا شأن خاص بهذه الاتفاقية"، قالت لي.

كان ضيفي في ذلك اليوم أحد الدبلوماسيين من أمريكا اللاتينية، مُظاهرٌ بالآداب، لم يكتفِ بسلام اليد المألوف، بل إنه قبَّل يدي، وقد سبق النادل بجُزَيءٍ من الثانية في إزاحة كرسيّي. في بلادنا نرى هذه الآداب في الأفلامِ فقط، لكن ما يبدو مثيرًا للسخرية في تل أبيب كان أمرًا طبيعيًا جدًا في تلك البناية الزجاجية المنعزلة، والتي تسود فيها قواعد لعبٍ لا شبيه لها في العالم الخارجي. ضجَّت البناية بالنشاط، الكل يتسارعُ من مكان إلى آخر وأمارات الجدّية تبدو على وجوههم. بينما قام الممثلون في القاعات بإلقاء الخطابات الفارغة، والتي تخللتها رموز لا يفهمها إلاّ من كان خبيرًا بلغة هيئة الأمم المتحدة، جرت الصفقات الدبلوماسية على كأس شراب في البار، أو في الأروقة الفسيحة أو حتى في المراحيض!

كانت الحركة في المؤتمر العشرين للجمعية العامة على أشدّها. في الأسابيع الستة السابقة تحدّد الجو السائد. في تلك السنة عُرِفَت انقسامات رئيسية. عاد وزراء الخارجيات إلى بيوتهم بعد أن ألقوا خطاباتهم بانفعال عظيم في قاعة المؤتمر. أما السفراء وأعضاء الوفود فقد بعثوا بالتقارير اليومية عن كل اتصالاتهم وجدالاتهم. ومن كان مثلي من الممثلين "الجدد" كان يستظهر لنفسه لغة الأمم المتحدة، ويتعلم أولاً بأول قواعد السلوك غير المكتوبة التي فرضتها الأجيال السابقة من الدبلوماسيين الذين ساعدهم الحظ

بالعودة إلى هذه العمارة مرارًا وتكرارًا، مزوَّدين بشهادات تمنحهم امتيازات لا يُستهانُ بها.

كممثلة لإسرائل، أُلقيَت على كاهلي مهمة إضافية: تعلمتُ تمييز وجوه المندوبين من مختلف البلاد المعادية، والذين تجاهلوا التحية والسلام من الإسرائيلي. كانوا ينظرون إليَّ داخل المصعدِ وكأنني "شفافة". أمتنعَتْ كل الوفود العربية، بحسب أوامر عليا، عن ذكر كلمة "إسرائيل"، وعن كل حركة أو إيماءة باتجاه من يصادفهم من الإسرائيليين. لم يكن الحال كذلك في قاعات الاجتماع، فهناك هوجمنا يوميًا، بعبارات لا سامية أحيانًا، وباقتباسات مشوّهة من التلمود. دَعَوني أحيانًا: "ممثلة فلسطين المحتلة". وذات مرة، حين ظهرتُ بثوب أصفر، دعاني أحد المندوبين: "السيدة التي بالأصفر". سألني المندوب الهنغاري إن لم يكن في ذلك تلميح إلى "الرقعة الصفراء".

اقتبس بعض المندوبين فقراتٍ من **بروتوكولات حُكماء صهيون**. لم يجرؤ أحد على مخالفة أصول الآداب تجاه أي وفد، ما عدا الإسرائيلي، لكن رؤساء الجلسات ملأوا أفواههم بالماء. في الأروقة تحدثوا بتهكم عن انعقاد جلسات يومية يشارك فيها الكثيرون، يتقرَّر فيها من سيهاجم إسرائيل في ذلك اليوم في كل صالة من صالات المؤتمر، ودون أية علاقة بموضوع البحث. إن حرية التعبير التي يتمتع بها ممثلو الدول في الجمعية العامة للأمم المتحدة غير محدودة، وغير مقيّدة بالعلاقة بالموضوع، وليس لأحد حق التدخّل.

كان مضيفي دبلوماسيًا مُجَرِّبًا، وعضوًا دائمًا في بعثة بلاده. كان الهدف من الغداء التداول في عدة أمور، في نطاق الاتفاقات التي تتم يوميًا بين الوفود، على غرار: "سوف نصوّت لصالحكم على الموضوع الذي تختارونه في هذه اللجنة، شريطة أن تدعمونا في الموضوع الفلاني في اللجنة الفلانية". لكن، وكما هو مألوف، فقد أرجِئت هذه الأمورإلى ما بعد الوجبة الأخيرة، وفي الأثناء تحدثنا

عن عائلتينا، عن أعمالنا، تبادلنا انطباعاتنا عن المؤتمر. لم يكفّ ضيفي عن كيل المديح لي بلغة تصويرية تناولت مظهري وخطابي الأخير. ذلك أيضًا كان جزءًا من الطقوس والأصول.
سألني فجأة: "لماذا امتنعتِ عن التعليق على موضوع البروتوكولات في ردك على المندوب الروسي الذي تميّزت كلمته هذه المرّة بسمّها العظيم؟ ألم تكن تلك مناسبة لتوضيح الأمر؟ الغريب أن الروس بالذات يجرؤون على ذكر هذا المستند الزائف!"

معظم الوفود ليست بحاجة لاستعمال "حق الرد"، أما مندوب إسرائيل فقد كان يضطرُّ إلى الرد في نهاية كل جلسة. كان ردّي دائمًا يقتصر على المواضيع التي تتعلّق بإسرائيل. حاولتُ تجاهل التفوّهات اللاسامية، رغم كونها لا تُحتَمَل. صُعِقتُ في الأيام الأولى حين سمعت في الجمعية العامة أن اليهود "مُرابون يقرضون بالفائدة، يستغلون الطبقات الضعيفة في العالم الرأسمالي، يسيطرون على البنوك والبورصات، يمسكون بالخيوط التي توجّهُ وسائل الإعلام، مُدانون بالفصل العنصري، يروّجون المواد الإباحية (بورنوغرافيا)". حتى أن أحد المندوبين لم يتورّع عن ذكر تلفيقة الدم حين قال إن التلمود يأمر اليهود بشرب دم الأغيار.

قلتُ لضيفي إن الرد على مثل هذه الترّهات يقلّل من القيمة، لذا فأنا أتعامى عنها بصورة تظاهرية. لكنه باغتني في معارضته. قال إنه، بحسب تجربته، يؤمن أن تكرار كيل مثل هذه الاتهامات على العلن، دون التصدي لها وتكذيبها، يخلق رأيا عامًّا مشوَّهًا. وأضاف بصوت المعتَذِر: "أنتم اليهود، عليكم أن تتعلّموا من الماضي. تجاهلتم في الماضي ما كتب هتلر في كتابه "كفاحي" (Mein Kampf). ممنوع أن تتجاهلوا التلفيقات اللاسامية، وفوق كل شيء يجب ألاّ تستخفّوا بالفرية القائلة بوجود مؤامرة يهودية جنائية من أجل السيطرة على العالم، كما ورد في **بروتوكولات حُكماء صهيون**.

لقد فاجأني حين روى لي أن البروتوكولات، كما يسميها الناس، تنتشر في بلاده، وأنه قرأها بنفسه وأن الكثيرين يؤمنون بصحتها. بمزيد من الخجل اضطررت أن أعترف أني لم أحاول أبدًا أن أقرأ البروتوكولات، لكني قطعتُ على نفسي عهدًا أن أفعل. بانتهاء المؤتمر عدتُ إلى تل أبيب وغرقتُ في عملي في المحكمة، والوعد الذي قطعته على نفسي لم أحققه إلاّ بعد مضي عشرين عامًا، وبعد أن كانت لي عدة مواجهات مع البروتوكولات.

باريس – 1973

في ليلة ماطرة من آذار 1973، تناولتُ ومحامٍ زميل لي وجبة العشاء في باريس. دار حديثنا حول قانون جديد صدر في فرنسا في الصيف الأخير.

منذ اشتراكي في المداولات، حول نص المعاهدة ضد التمييز العنصري، في الجمعية العامة للأمم المتحدة، ازداد اهتمامي بتطبيق المعاهدة التي ألزمَتْ جميع الدول المشاركة بسنّ القوانين لمكافحة العنصرية. القانون الذي سُنَّ في فرنسا في شهر يوليو عام 1972 حظر فيما حظرَ التحريض على فئات أو أقليات بسبب انتمائها القومي، والإثني، والعرقي والديني. خلال الحديث وصفتُ المواجهة التي كانت في الجمعية العامة بين الوفد الإسرائيلي ووفد الاتحاد السوفياتي، الذي استطاع منع شمل "اللاسامية" في تعريف "التمييز العنصري".

في الستينيات من القرن العشرين انتهج الاتحاد السوفياتي سياسة متطرفة مناوئة للصهيونية، وشجّع انفلات اللاسامية في أرجائه؛ وبحسب المفهوم السوفياتي، فإن الصهيونية واليهودية تشكلان الواحدة بديلاً للأخرى، فكان التشهير العلني باليهود، واتهموهم بكل ويلات العالم، وأصبح الإعلام السوفياتي مصدرًا رئيسيًا لانتشار اللاسامية الصارخة.

قلتُ لصديقي إن السوفيات دأبوا على دعم المعاهدة ضد التمييز العنصري، فعلى ضوء واقع سنوات الستين، ومع تعاظم قوة دول عدم الانحياز في "العالم الثالث"، أخذت كل الدول تستنكر التفرقة العنصرية في كل مناسبة، أما السوفيات فلم يكن ليزعجهم وصفهم باللاساميين، لكنهم لا يحتملون أي تعريف من شأنه أن يجعلهم عنصريين! قال مُحدّثي: وإن كانوا قد حققوا نصرًا تكتيكيًا، إلاّ أنهم لا يستطيعون منع دُور القضاء في البلدان الأخرى من أن تلصق دمغة العنصرية بالظواهر اللاسامية. وأضاف: "هذا ما يُطلب أن تقوم به المحكمة في فرنسا الآن، حيث أنه في يوم الغد ستبدأ محاكمة، هي الأولى من نوعها، تبحث في مخالفة بموجب القانون الجديد، ويتوقعون لهذه القضية أن تضاهي في أهميتها قضية بيرن"، قال ذلك وهو يفترض أني ملمَّة بتلك القضية. لم يكن أمامي سوى الاعتراف بخجلٍ بأني أسمع لأول مرة أنه في عام 1934، في دعوى رفعتها الجالية اليهودية ضد فرقة نازية، أصدرت المحكمة في مدينة بيرن في سويسرا قرارها بأن بروتوكولات حكماء صهيون تزوير صارخ.

أضاف محدثي شارحًا: المتهم الذي ينتظر المحاكمة في باريس هو رجل يدعى لــچـــانو Legagneux وهو محرّر نشرة دعائية تصدر عن قسم العلاقات العامة في السفارة السوفياتية في باريس. إنه متهم بتجاوز القانون الجديد بسبب نشرةٍ من تاريخ 22 سبتمبر 1972، يتهم فيها إسرائيل واليهود بالقيام بأعمال وحشية وغير إنسانية، ذاكرًا مقاطع من الكتب المقدسة اليهودية. وقد جاء في النشرة أن الأطفال اليهود يتم تلقينهم "منَ المهد" أن يكرهوا الأغيار، وأنهم مأمورون بأمر إلهي أن يذبحوا غير اليهود. كما يدّعي الكاتب بأن التآمر اليهودي للسيطرة على العالم جارٍ على نحوٍ منهجي.

لم يكن في ذلك ما يفاجئني، فتلك النظرية كانت جزءًا من آلة الإعلام السوفياتية. هناك كاتب أوكرايني يدعى كيتشكو، ردَّد علنًا التحذير من أن اليهود يقومون بتشكيل "مركز عالمي للقوة

*اليهودية"، وعما قريب سيتحول العالم كله إلى "مملكة الكهنة اليهود". كذلك فإن كتاب "**الحذر: الصهيونية**" ليوري إيفانوف، الذي شغل منصب مستشار للشؤون اليهودية، قد حظي بالتسمية "**بروتوكولات صهيون السوفياتية**"، وقد ادعى إيفانوف بأن اليهود هم قادة العنصرية، وأنهم تعاونوا مع هتلر، وأن أصحاب البنوك اليهودية قد دمَّروا الملايين من إخوانهم نتيجة سعيهم المتهوّر وراء المال والقوة.*

*يبدو كأن أجزاء كثيرة من تلك الكتب السوفياتية قد تم نقلها عن **بروتوكولات حُكماء صهيون** التي كثيرًا ما كان رجال النظام السوفياتي يقتبسون منها. ما تزال الفرية عن وجود مؤامرة يهودية تخدم العديد من المحافل، قال صديقي، وأضاف: وتوفر التفسير السهل البسيط للظواهر السلبية والأحوال الحرجة. واليوم كما في الأمس، فإن الكثيرين يُخدَعون ويصدّقون أن اليهود مذنبون في كل شيء. ما يزال اليهود يشكلون كبش فداء في متناول اليد. الآن سوف تقرر المحكمة ما إذا كان مسموحًا لهم بنشر هذه السموم في فرنسا أيضًا، قال بانفعال.*

تذكّرت أني لم أقرأ البروتوكولات بعد، وحين سمعتُ أن البروفسور رينيه كاسين Rene Cassin سيكون شاهدًا في المحكمة، ألغيت كل برامجي ليوم الغد. البروفسور رينيه كاسين فيلسوف شهير في القانون، وقد شغل منصب قاضٍ في المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان، لكن شهرته تعود بالذات إلى كونه أحد واضعي الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن جمعية الأمم المتحدة، وحائزًا على جائزة نوبل للسلام.

أنا ألبّي بسرور كل دعوة لزيارة دار العدل في باريس، ولأني معتادة على البساطة التي تميّز قاعات المحاكم في البلاد، فإن الدهشة تأخذني كلما عُدتُ إلى تلك الأجواء الملكية التي تضفيها الغوبلاينات الضخمة على الجدران، والثريات الكريستالية الثقيلة التي تتدلّى من سقوف الصالات. عباءات الحكام أيضًا فاخرة

تفوق عباءاتنا بكثير، وكالعادة، فقد أثار لباسُ مُباشرِ المحكمة البسمَة على شفتيَّ، عندما أعلن عن دخول القضاة إلى القاعة.

وكما توقَّع صديقي، فقد ذُكِرَت **بروتوكولات حُكماء صهيون**، في كل الشهادات تقريبًا، على أنها المصدر الذي نُقلت عنه المقاطع الواسعة في النشرة الدعائية السوفياتية.

استقطبت قائمة الشهود المعلنة جمهورًا غفيرًا، فغصّت القاعة بالناس. بالإضافة إلى البروفسور رينيه كاسين أدلى بالشهادة أيضًا جستون دي مونرفيل، الرئيس السابق لمجلس الشيوخ الفرنسي، ورجال دين من اليهود ومن الكاثوليك والبروتستانت وأساتذة في اللاهوت. غير أن المفاجأة الحقيقية أتت من طرف شاهد يُدعى غريغوري سفيرسكي، وهو كاتب سوفياتي مُنح خلال الحرب العالمية الثانية تسع شارات شرف، لكنه اضطر إلى مغادرة روسيا السوفياتية إبان الموجة اللاسامية التي دعمها النظام علانية. أخرج هذا الشاهد من جيبه كتابًا صغيرًا كان قد وُزِّعَ في روسيا القيصرية عام 1906 من قبل تنظيم "**المئات السود**"، الذي كان مسؤولاً عن مذابح رهيبة أُنزلت بيهود روسيا في بداية القرن. طُلبَ من المترجم الذي ترجمَ كلام الشاهد من الروسية أن يتفحَّص الكتيّب، فقال إن على الغلاف عنوان المحل الذي يمكن شراء الكتاب منه: شارع نبوتني في بطرسبورغ. خلال قراءته لبعض الفقرات من الكتيّب، أفاد الشاهد بأن المقال الموجود في النشرة السوفياتية قد تم نقله بالكامل عن هذا الكتيب.

ردّد الشهود الواحد تلو الآخر ما مفاده أن الكلام الوارد في النشرة كذب محض، تمامًا كما هو الحال في البروتوكولات التي اعتمد عليها. في الخطاب الختامي لوكيل الادعاء، روبرت بادنتر Robert Badinter، والذي كان على أرقى مستويات الخطابة الفرنسية التقليدية، جاء وصف دقيق للاسامية السوفياتية واستغلال **بروتوكولات حُكماء صهيون**. كيف يمكن، سأل بادنتر موجهًا السؤال إلى المتهم الروسي، أن تستعمل روسيا الحديثة في

عام 1972 نصًّا كان قد كُتب عام 1906 بيد جهاز استخبارات روسيا القيصرية السيئ الذكر؟ وأضاف: "نرى هنا خطًا مستقيما يصل ما بين **بروتوكولات حُكماء صهيون** والنشرة الحالية. لقد بدت روسيا للبشرية كلها كدولة عُظمى قهرت نظام استبداد القياصرة، واختارت النظام الاشتراكي المؤدي إلى مثال الأخوة والعدالة الاجتماعية... وها نحن نفاجأ بأن الدولة العظمى هذه تنبش في الظلام، لتنتشل فظاعاتٍ كانت هي قد استنكرتها وأدانتها فيما مضى، وتستغلها لأهدافها استغلالاً مرفوضًا".

حين صدر قرار الحكم في 24 أبريل 1973، كنت قد عدتُ إلى تل أبيب وغرقتُ في عملي. طالعتُ تفاصيل القرار في كتاب أرسله إليّ صديقي، بعنوان: "**محكمة باريس**" بقلم الكاتب عمانوئيل ليطفينوف، وقد صدر في لندن عام 1974. ليطفينوف الذي أدلى بشهادته في محكمة باريس، بصفته خبيرًا في شؤون يهود روسيا، كان قد نشر تقريرًا كاملاً عن حيثيات المحكمة وقدَّم له بتمهيد رائع يصف الخلفية بالتفصيل.

بالاستناد إلى اقتباسات من أقوال العديد من الشهود، قرّرت المحكمة أن المقال يحتوي على مقاطع من **بروتوكولات حُكماء صهيون**، "نشرة لا سامية أعدها البوليس السرّي الروسي، أوخرانكا، في نهاية القرن التاسع عشر". تمت إدانة المتهم بالتهمة التي نُسبِت إليه وتغريمه بمبلغ 1500 فرانك، كما أمرَت المحكمة بنشر قرارها في العدد القادم من النشرة ذاتها، وكذلك أمرت بنشر مقاطع يختارها المدّعون في ستّ صحف.

في مستهل كتابه، نشر ليطفينوف أقوالاً كتبها راقص الباليه الروسي الشهير "فالري بانوف" الذي كان قد لجأ إلى الغرب. كتب بانوف يقول: "لا يُصَدَّق أن خرافات عفنة ما زالت تُستغلُّ للحط من قدر البشر على أساس عرقي وديني وقومي... في هذه المقاطع نجد الصراع ما بين العقلانية الحضارية والخرافات البالية الخبيثة التي أودت بحياة الأبرياء". ويختتم بانوف بقوله:

"في باريس انتصرت الحقيقة، وانكشفت على ضوء المنطق السليم الأكاذيب التي لاحقت تاريخ أوروبا".

في وقت لاحق ساءلتُ نفسي إذا كان روبرت بادنتر Robert Badinter قد تحدّث مع رئيسة فريق القضاة، سيمون روزيس Simone Rozes، عن المحكمة عندما التقيا بحكم الوظيفة الجديدة لكل منهما. سيمون روزيس أنهت سيرتها القضائية بمنصب رئيسة المحكمة العليا في فرنسا، وكان روبرت بادنتر في ذلك الوقت رئيسًا لمحكمة الدستور، غير أنه اشتهر من قبل كوزير العدل الذي ألغى عقاب الإعدام في فرنسا.

الولايات المتحدة – 1985

بينما تناولتُ وجبة الفطور مع باسيتا Pacita في فندق في مدينة نيويورك، فاجأتني بقولها: "اليوم يومك يا هداسا، سنمضي إلى البنوك، فالمال هو موضوعنا اليوم".
كنّا كِلتَينا عضوين في مجموعة قضاة، من مختلف الدول، دُعِيَت إلى جولة دراسية في المؤسسات الأمريكية من قِبَل الحكومة الأمريكية. تنقلنا على مدى ثلاثين يومًا من ساحل إلى ساحل، وكما هو متوقع، فقد تم التعارف وتوثقت عرى الصداقة ما بين أعضاء المجموعة. وجدتُ نفسي أجلس بجوار باسيتا الساعات الطوال أثناء السفر الطويل، وفي الطائرة وأثناء تناول الطعام. باسيتا قاضية من الفلبين، يوازي منصبها منصبي، وقد ساعدَتْ روح الدعابة، التي تتمتع بها كِلتانا، في التغلب على ملل السفر الطويل. كانت كل واحدة منا تحجز بجوارها مكانًا للأخرى في كل مناسبة.

عداك عن مجال عملنا، لم يكن ثمة شيء مشترك في حياتنا، وكأننا هبطنا من كوكبين مختلفين، لكنْ كلتانا عملنا في مجال القضاء وتمتعنا بصلاحيات متشابهة وتمرَّسنا على أساليب قضائية استُمدت من التقاليد البريطانية. لكننا كنا غريبتين عن

بعضنا في باقي المواضيع، نختلف كل الاختلاف من حيث الحضارة والدين والتقاليد ونهج الحياة. وُلِدَت باسيتا في الفلبين، وهي كاثوليكية، متزوجة من رجل أعمال صيني، تسكن في عزبة، محاطة بالخدم والحشم، مما جعلها تواجه صعوبة فائقة في التدبّر وحدها أثناء السفر، لكن معاناتها تقزَّمت حين حدثتها عن واقع عيشنا في البلاد، بلا خدم أو حشم. رغم كل الفوارق فقد قضينا معًا أوقاتًا ممتعة.

قالت لي ذات مرة إنها لم تقابل في حياتها يهوديًا، وأردفت بدهشة: "لكنك لا تبدين يهودية!". كانت تعتقد أن لليهودي أنفًا أحدَب. أضافت ببراءة: "إن لباربرا سترايسند أنفًا أحدب، وهي يهودية، أليس كذلك؟"

في ذلك الصباح استقبلتني بوجه مُشع، مباهية بأنها ملمّة بالميزات اليهودية. كان علينا بموجب البرنامج أن نقابل مديري البنوك من أجل تقصّي الوسائل لكشف الأموال ذات العلاقة بصفقات المخدرات والتي تجري عن طريق التحويلات المصرفية. كانت باسيتا على يقين من أن كل مديري البنوك من اليهود. سألتها من أين استَقَت تلك المعلومات؟ أجابت: "ألا تعرفين الكتاب الذي يتحدث عن سيطرة اليهود على المرافق المالية؟ أوليس هذا جزء من الخطة اليهودية الشاملة؟"

*ظهر البريق في عينيها حين ذكرتُ لها **بروتوكولات حُكماء صهيون**، فأعلنت: "أجل، هذا هو!". وكم كانت دهشتها حين لم تجد يهوديًا واحدًا بين مديري البنوك الذين قابلناهم.*

.

عندما طلَبَتْ مني، في ساعات المساء، أن أحدثها عن البروتوكولات، اعترفتُ بإرباك أني لم أقرأها أبدًا. سألت: وكيف إذن تدَّعين أن فيها أكاذيب؟ لم تكن لديَّ إجابة شافية، خاصة وأني قاضية، ولم اتقصَّ حقيقة الأمر. قرّرتُ أن أقرأ البروتوكولات وأن أدرس الوقائع المتعلقة بترويجها.

تل أبيب – 1988

بدت تل أبيب في أبهى حلة بعد أسبوع ماطر، مغسولة لامعةً تحت شمس صباحٍ شتائي جميل. عدتُ للتوِّ من سباحتي اليومية في البحر، استعد لساعة من الراحة مع جريدة الصباح وفنجان القهوة المهيل، قبل أن أعْلَقَ في حركة السير وضجيج الطريق إلى المحكمة. كانت تلك الساعة أجمل ساعات يومي المثقل عادة. وقع نظري على عنوان في الجريدة، عن إصدار جديد لبروتوكولات حُكماء صهيون في أحد بلدان البحر. إحساسي بما اجتاحني من الخجل قد عكّر صفو مزاجي. لقد مرَّ أكثر من عشرين عامًا على وجبة الغداء في عمارة جمعية الأمم، وخمس عشرة سنة على محكمة باريس، وثلاث سنوات على الحديث مع باسيتا. واجهتني البروتوكولات في مناسبات عديدة، ولم أقرأها بعد. قرَّرت: آن الأوان لأن اقرأها.

*بعد يومين قضيتُ القسط الأكبر من الليل في قراءة نسخة عن البروتوكولات باللغة الإنجليزية، استعرتها من مكتبة الجامعة. فوجئتُ حين عرفتُ أن الكتاب لم يترجم قط إلى العبرية، رغم أنه تُرجمَ إلى معظم لغات العالم. الكتيب الذي كان بين يدي صدر في بوسطن وكان عنوانه: "**البروتوكولات والثورة العالمية**". تُفصِحُ صفحة المدخل عن أن الكتاب يحتوي ترجمة بروتوكولات من اجتماعات شيوخ صهيون، وكذلك بحثًا حول الموضوع، لكني سرعان ما اكتشفت أن لا وجودَ هناك لبروتوكولات عن جلسات واجتماعات، وأن المادة لا تعدو كونها 24 محاضرة من فم رجل واحد، قرأها – على ما يبدو – من نص جاهز مُسبَقًا، على جمهور غير محدَّد، وفي أزمنة غير معروفة، وفي مكان مجهول. ليس فيها توثيق لأي مباحثات، أو لعدد المشاركين، ولا ذكرَ لأي قرار كالمتَّبع في نهاية كل جلسة.*

في زمن لاحق تبيّن لي أن عنوان الكتاب الذي كان من المفروض أن يكون جزءًا من النص، والذي ظهر أحيانًا بين

قوسي اقتباس، تبدَّل من إصدار إلى آخر، فتارة: بروتوكولات حُكماء صهيون، وتارة: بروتوكولات لقاءات شيوخ صهيون، وطورًا: بروتوكولات من لقاءات حكماء صهيون، وغيرها من الأسماء التي لا يمكن أن تكون ترجمة دقيقة لنص قائم.

تحدّث المحاضر المجهول عن خطّة شاملة ومفصلة للقضاء على أنظمة الحكم في العالم المسيحي، مبيِّنًا الطرق العملية للوصول إلى السيطرة اليهودية على العالم، مُصَورًا الديانة اليهودية كديانة شيطانية وشريرة، موحدة الأهداف، ترأسُها جماعة من الشيوخ عديمي الموازين الأخلاقية. كل فصل، أو بالأحرى كل "بروتوكول" كما أسموه، عالج موضوعًا محدَّدًا، والفصول الأربعة والعشرون بمجموعِها تشكل وصفًا مفصَّلاً للمراحل والوسائل التي عن طريقها تتحقق السيطرة اليهودية على العالم بأكمله.

تسيطر الحكومة اليهودية العليا على كل الحكومات، وتعمل على إقامة حكم فردي (أوتوقراطي) يتبوأ عرشه ملك يهودي.

ظهرت الخطط المقترحة مختصرةً في مقدّمة الكتاب:

1- يتم تدمير أنظمة الحكم في العالم عن طريق تشجيع الثورات الداخلية، من خلال استغلال الكراهية بين الطبقات، وبذل الجهد الوهمي لتحقيق الحريات والمزيد من الحقوق لطبقات معينة، واستخدام شعارات "الحرية والمساواة والأخوّة" ككلمات خالية من المعنى، الهدف منها تجنيد المؤيدين للسيطرة اليهودية فحَسب. في المرحلة الأولى يتوجّب إضعاف الحكومات الاستبدادية القوية بطبيعتها، وذلك بإدخال الليبرالية التي تمهّدُ الطريق إلى الفوضى.
2- توجيه كل الحكومات نحو السبل الاقتصادية، بعيدًا عن الغزو الإقليمي، وبذلك يتم تقرير مصير الحروب بقوة المال الذي هو تحت سيطرة اليهود.
3- يتم تحصيل حقوق اليهود العالمية على حساب الحقوق الوطنية للشعوب الأخرى (الأغيار).

4- يتم إضعاف الشعوب غير اليهودية أكثر وأكثر عن طريق تشجيع أنظمة حكم متناقضة، وعن طريق السيطرة السرية على نشاط الموظفين العموميين، وعن طريق العبث بالصحافة والإلغاء التدريجي لحرية التعبير.
5- يتم تدمير الحكومات الليبرالية عن طريق تدمير الديانات (ما عدا اليهودية، طبعًا) فإن السلطة تكون ممكنة فقط إذا توفرت لها القوة الأخلاقية التقليدية .
6- للتغلب على الدول التي ترفض الخضوع للنفوذ اليهودي، لا يجب التردّد باستعمال العنف، والخديعة، والحنكة، والرياء، والتلوّن، والرشوة والخيانة، وأيضًا الاستيلاء على ممتلكات الناس.
7- وسيلة أخرى لهدم بناء الدول المسيحية هي تدمير الاقتصاد ومستوى المعيشة، عن طريق تخطيط المضاربات وتشجيع الإضرابات، عن طريق إخراج جماهير العمال من دورة العمل، والرفع الوهمي للأجور، مما يؤدي إلى ارتفاع ثمن الحاجيات الأساسية، وبالتالي، التسبب بأزمة اقتصادية تفكك النظام المالي، وتُضعف الحصانة المالية عند الدول. وبالتوازي، يتم حثّها على اقتراض القروض الخارجية بمبالغ متزايدة تؤدّي في النهاية إلى إعلان الإفلاس.
8- في خضم الفوضى الاجتماعية التي تنشأ نتيجة ذلك، يتم تدريجيًا بناء الدكتاتورية اليهودية من خلال الاعتماد أولاً على النفوذ "الرهيب" للجيب، وهكذا تتحقق السيطرة اليهودية على وسائل الإعلام وعلى الحركات الثورية.
9- في الفترة الانتقالية ما بين سلطة الأغيار والسلطة اليهودية الرسمية، تنشأ في كل دولة حكومة يهودية سرّية، بدعم من الصحافة التي تشلّ تفكير الجماهير، وبواسطة الإرهاب الجماعي، وإضعاف مبادرات الأغيار، وتوجيه التعليم إلى المسارات التي تروق لليهود وزرع الذعر والدسائس.

أثناء تصفحي للكتاب وقع نظري على مقاطع تفتقر إلى المنطق، وتناقض كل التقاليد اليهودية:

"[...] نجاح نظام الحكم يتحقق عن طريق العنف والتخويف وليس عن طريق الحوار الأكاديمي [...] لا يجب أن يسترشدَ الحاكم بالموازين الأخلاقية، ولا يجب أن يستند إليها في تحديد سياسته، فمن أجل تثبيت نظام حُكمه على الحاكم أن يلجأ إلى المنافقة وأن يتبنى مبدأ القوة والعنف [...] القوة هي الحق [...] إيانا والخوف من اللجوء إلى الرشوة والخديعة والخيانة [...] والاستيلاء على ممتلكات الخَلق [...] عوَضًا عن ويلات الحروب تنتهج حكومتنا الإعدام، فهو أشدّ فعالية وأقل بروزًا [...] نحن نخطط الدمار لكل الأنظمة القائمة ولكل مؤسسات السلطة، لكي نستولي على القانون[...] ونغدو السلطان الأعظم لكل هؤلاء الذين سيبدون وكـــأنهم يتنازلون عن حقوقهم لصالحنا برغبتهم. "

أرغمتُ نفسي على القراءة وسط الدهشة والاشمئزاز:

"[...] إن قوة الجماهير عمياء، عديمة المنطق، تفتقر إلى التمييز، معرّضة للتأثير عن اليمين واليسار[...] على نظام الحكم أن يتركّز بيد رجل واحد مسؤول [...] إن الله الطيبَ قد اختارنا عن دون كل الشعوب، ونشرنا في الأرض بين الأمم، وما يبدو في الظاهر كضعف، قد ثبت أنه قوتنا العظمى وأوصلَنا إلى أعتاب النفوذ العالمي [...]"

"إن العقبة الرئيسية التي تعترض حكومتنا،" يقول المتحدث في الفصل الخامس، "هي كيف نُضعف الرقابة الشعبية؛ نجرّدها من التفكير الذي يولّدُ المعارضة. سنوجّه المقدرة على التفكير نحو اللغوِ الخالي من المضمون [...] من أجل السيطرة على الرأي العام يجب بلبلته عن طريق إسماع الآراء المتناقضة، إلى أن يتخبّط الأغيارُ في الشباك التي أعددناها لهم، ويدركوا أن من الأجدى لهم ألاّ يكونَ لهم رأي في الأمور السياسية [...] سيكون هذا السرّ الأول لحاكمنا، أما السر الثاني فهو الدفع الموجَّهُ للأخطاء الشائعة، وللعادات المبتذلة، وللرغبات والنزوات، فلا

يتمكن الناس من التحرر من حبال الفوضى، وبالتالي لا يستطيع الواحد فَهْمَ الآخر [...]"
"هل يُعقل أن وليدَ امرأة عاقل هو من كتب وأشاع هذا الكلامَ الذي لا أساس له، متوقعًا أن يصدقه الناس؟"، ساءلتُ نفسي مُدركة لتوّي أن هذا ما حصل.

أعلن البروتوكول السادس عن إنشاء احتكارات ضخمة، ذات أموال هائلة، تَرْتَهِنُ حتى أغنى الأغنياء في الأمم وتغرقهم بديون هائلة، تنكشف يوم تتحقق الكارثة السياسية. "يجب الحذر من الأغيار أصحاب العقارات التي تضمن استقلالهم الاقتصادي، والعمل على تجريدهم من ممتلكاتهم بكل ثمن. إن الأمر قابل للتنفيذ"، يؤكد المتحدث، "عن طريق رفع ضرائب العقارات"، ويضيف: "وفي الوقت ذاته، يجب السيطرة بإصرار على التجارة والصناعة، وتشجيع المضاربات التي تشكل التوازن مقابل الصناعة". الطريق البديل المؤدي إلى الهدف ذاته، كما يقترح المتحدث، هو "خَلق الطلب غير المنضبط للترف والكماليات. يتم رفع الأجور، غير أن ذلك لا ينفع العمال، لأننا من الجهة الأخرى سنرفع أسعار السلع الأساسية بشدّة، ونبرّر ذلك كنتيجة لتلوث الزراعة والصناعة المعتمِدة على تربية الحيوانات."

"يجب أن تبقى الخطة اليهودية سرًا"، ينبه المتحدث سامعيه المجهولين،" لكن إذا تسرّبت رغم ذلك قبل الأوان، سندبّر هجومًا إرهابيًا في الغرب من شأنه أن يدخل الفزع والرعب حتى في قلوب أشجع الخلق. حتى ذلك الحين، سننشئ المعابر والممرات تحت أراضي العواصم، ليكون بالإمكان تفجيرها على ما فيها من مؤسسات وطنية، وبما فيها من المستندات والوثائق المحفوظة".
تُبينُ الخطة نظامًا جديدًا للسياسة، للصحافة، للديانة، للاقتصاد، للضرائب، للعملة، للبورصة، للتعليم، للقانون، للجهاز القضائي ومهنة المحاماة، للإدارة، للممتلكات، للجيش، للشرطة وللسلالة الحاكمة العتيدة.

أرغمتُ نفسي على الاستمرار، مُصِرَّة على قراءة النصَّ كله:
"سنستعرض قوتنا في أوروبا عن طريق الاغتيالات وأعمال الإرهاب، فإن تجرّأ الآخرون على الاتحاد ضدنا، نردّ عليهم بالأسلحة الأمريكية، والصينية، واليابانية [...] سنجعل حولنا رجال البنوك وأصحاب الملايين، فبالتالي كل شيء يتم إخضاعه بلغة الأرقام [...] عندما يضع ملك إسرائيل على رأسه المقدَّس التاج الذي تعرضه عليه أوروبا، فإنه يُصبح بطريرك العالم [...] البابا الحقيقي لكل الدنيا."

خطرت ببالي فجأة الرسوم الكريكاتورية اللاسامية التي يظهر فيها ثعبان ضخم يلفُّ الكرة الأرضية على خلفية نجمة داود.
"اليوم"، أعلن المتحدث، "أستطيع أن أزف لكم البشرى بأننا نتقدّم نحو الهدف النهائي. لم يبق أمامنا سوى اجتياز مسافة قصيرة حتى اكتمال دورة الثعبان الرمزي – شعارنا. عندما تكتمل الدائرة نهائيًا ستجد شعوب أوروبا نفسها مطوّقة ببراثنه المتينة".

الفصل العاشر يصف عملية غسل أدمغة الجماهير.
"من المهم أن نكون على وعي لبند واحد في سياستنا، فذلك يساعدنا في التباحث بشأن توزيع الصلاحيات. حرية التعبير، الصحافة، الدين (المعتقدات)، حرية التجمهر، المساواة أمام القانون، حرمة الممتلكات وبيت السكن، الضرائب غير المباشرة والتطبيق المسبق للقوانين: ممنوع بحث هذه المواضيع على الملأ، فحين يحين الوقت لاتخاذ القرار بشأن هذه المواضيع، نذكرها على نحو عابر، دون تفصيل، قائلين إننا نتمسّك بالمبادئ القانونية العصرية [...] لن نسمح بتنمية الآراء الشخصية، لأن الجمهور الذي تحت سيطرتنا لن يُمَكّن الأفرادَ من البروز ولا حتى من التعبير. سيعتاد الجمهور أن يصغي إلينا، لأننا نكافئه على ولائه المطلق. بذلك نكوّن قوّة عمياء شديدة الوطء، تحول دون أي نشاط جماهيري إلاّ بتوجيه من وكلائنا الذين سيحلّون محل قادتهم الحاليين [...] من أجل استكمال خطتنا سنجهّز لانتخاب رؤساء من ذوي الماضي المشوب – على غرار فضيحة

"بنما" – بذلك، ومخافة الانكشاف، نضمن ولاءَهم لصانعي إرادتنا، فهم بطبيعة الحال يريدون المحافظة على مكانتهم السامية وعلى صلاحياتهم والحقوق الإضافية الممنوحة لهم [...] مجلس النواب يختار الرؤساء، يهتم بحمايتهم ويشرف عليهم، لكنه يُجَرَّد من صلاحية التشريع وسن القوانين وتغييرها، ذلك يكون فقط من حق الرئيس الذي يعمل بحسب تعليماتنا."

البروتوكول الحادي عشر يفصّل عملية التشريع، والبروتوكول الثاني عشر يُستهلُّ بتعريف الحرية تعريفًا جديدًا؛ فعلى عكس المألوف في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث كل شيء مسموح ما عدا ما يحظره القانون، فإن معنى الحرية من الآن هو "حقك أن تفعل ما يسمح به القانون"، ويوضح المتحدث بقوله: "ستكون الحرية تحت سيطرتنا التامّة". وفي تتمَّة الكلام يصف ما سيحدث للصحافة: "نكبلها بقيود ونفرض عليها رقابة ملازمة، كذلك هو الحال بالنسبة للمنشورات الأخرى؛ فما جدوى الرقابة على الصحافة إذا بقينا معرّضين للنقد في الكتب والمجلات؟"

"سيشاهد الأغيارُ كل شيء بالنظارات الملونة، فلن يتم نشر شيء خارج رقابتنا التي تديرها وكالات مركزية". ويؤكد المتحدث: "يُصبح الرأي جهازًا تعليميا تحت سيطرة سلطتنا، ولن يُسمح للناس أن يهيموا في الأحلام والرؤى الكاذبة عن الحرية والتقدم [...] لن يُسمح للصحافيين والمحررين والناشرين بالعمل إلاّ إذا كانوا من حملة الشهادات والتراخيص. يتم فرض الطوابع الضريبية على كل مادة منشورة، وسننتهج سياسة ضريبية تضطر الناشرين إلى نشر الكتب المطوّلة فقط، من أجل أن يملّها وينبذها القراء. تكون المجلات كلها ملكًا للدولة، غير أنها، ومن أجل منع الشك، ستتضمّن أحيانًا مقالات نقدية. ذلك يخدم غايتين، فعن طريق استدعاء مثل تلك المقالات، نوقع في شركنا الأعداء الساذجين ونجرّدهم من سلاحهم".

كذلك يخضع الدِّين للرقابة – هذا ما يتعهد به المحاضر في البروتوكول الرابع عشر: "عندما نصل إلى السلطة لن نسمح بوجود ديانة غير ديانتنا"!

يتحدث البروتوكول الخامس عشر عن الموت. "الموت أمر محتوم لكل إنسان"، يقول المتحدث بنبرة فلسفية، "لكن يجدر أن نعجّل نهاية الذين يتدخّلون في تنفيذ مخططاتنا. لقد علَّمَنا حكماؤنا وشيوخنا أن الغاية السامية تبرّر الواسطة".

البروتوكول السابع عشر يعالج أمر المحامين، فبعد وصف مهين ومُذل لأصحاب هذه المهنة، يصرّح المتحدث بأن نشاطهم سيتم تحديده، فيتحولون كلهم إلى موظفين عموميين، يعملون بموجب تعيين من المحكمة. يحظر عليهم الاتصال بموكليهم، وبذلك يتم اختصار الإجراءات القانونية.

الفصول التي تليها تصف بالتفصيل عملية إعادة تنظيم جهاز الشرطة والسوق المالية والجهاز الاقتصادي.

في كل واحد من البروتوكولات تم وصف الأغيار كحيوانات مفترسة تفتقر إلى صورة الإنسان، يمكن للحاكم اليهودي السيطرة عليهم بسهولة، وهكذا تتكوَّن التبعية المطلقة للحاكم اليهودي في كل المرافق الحيوية.
البروتوكول الأخير يتحدث عن السلالة الحاكمة، من أجل ضمان كَونِ حكام المستقبل من نسل داود.

يُختتم الكتابُ بوصف ملك إسرائيل، الذي يجب أن يكون ذا خصال أصيلة وقدرات فكرية ملائمة للمهمات التي عليهِ أن يقوم بها طبقًا للمخطط. يجب أن يكون محبوبًا من قبل الجمهور، يجب الأّ يكون عبدًا لرغباته. يجب الاّ يقع عقله الراجح وفكره السليم، الضروريان للقيام بمهمته، ضحية للشهوات والنزوات الحيوانية.

"يجب أن يكون ملكنا خاليًا من كل شائبة"، يقول المتحدث مختتمًا البروتوكول الأخير.

عُدت فقرأت البروتوكولات مرّة وأخرى. كان من الصعب أن أصدّق أن هذه الأقوال المكتوبة بوضوح قد نُسِبَت إلى اليهود، لكن في الوقت ذاته كانت تنهش قلبي الأفكار بأن القارئ البسيط قد يتأثر بهذا المنطق البليد ويؤخذ بالفتاوى المرتّبة واللغة المنمقة. قلت في نفسي: هذا الكتاب لا يشهّر باليهود فحسب، بل إن فيه ما يمكن أن يعتبَر شهادة من اليهود ضد أنفسهم، ويشمل تفسيرًا محنَّكًا لكل مصائب البشر، ويبرّر فشل الحكومات كلها مشيرًا إلى كبش فداء جاهز ومتوفّر.

تبين لي فيما بعد أن كل طبعة، من مئات الطبعات التي صدرت فيها البروتوكولات، تحتوي على مقدمة تصف الطريقة التي عُثر بها على المستند. "يؤكد" كل كاتب من أولئك الكتاب، المستندين إلى مختلف المصادر، أصالة مصدره، ويحاول الإثبات، من خلال تحليل أحداث التاريخ، كيف يجري تنفيذ الخطة اليهودية، ومن هذا المنطلق يفسرون الحروب والثورات والأزمات الاقتصادية، وحتى وباء الإيدز، كجزء من تنفيذ المؤامرة اليهودية.

اجتاحني أثناء القراءة غضب عظيم. أحسستُ بإهانة لاذعة، وكأن الكلام قد وجِّه إليّ شخصيًّا. شعرت بمرارة شديدة. تراءى لي المرحوم جدّي، اللطيف الروح، اليهودي الأرثوذكسي الذي عاش في بلدة صغيرة في بولندة، وهو من علمني التواضع واحترام الآخرين. الهيئة الشيطانية التي ظهرت على أغلفة تلك الكتب، ذات القرنين والأظلاف والأنف الضخم، مثّلت تشويهًا لهيئة جدّي الذي أودت به الكارثة. هنا يُعرض جدّي كوحش خطير. إنهم يحرمونه حتى من حقه في أن يُذكَرَ كضحية.

أنا لا أومن بالمعتقدات التافهة وبالأحداث الخارقة للطبيعة. ولا أميل إلى البحث في مجال الغيبيات عن تفسيرات لتضافر الصُّدَف، مهما كان نوعها، غير أن سلسلة من الوقائع التي حدثت في حياتي، جعلتني أشعر بشعور غريب، وكأن يدًا خفية، فوق سيطرتي، تقودني في اتجاه معيّن. بغير قرار إدراكي، وبلا تخطيط سابق، وجدتُ نفسي أتقصّى موضوع ***بروتوكولات حُكماء صهيون****. أدركتُ أن هذا المستند لن يُزاح عن طاولة عملي إلى أن أقف على كل الحقائق، وكأن أمامي دعوى يجب أن أصدر القرار بشأنها.*

بيرن – 1988

في أبريل 1988 كِدتُ أرفض دعوة لإلقاء محاضرة في مؤتمر نسائي في مدينة بيرن في سويسرا، لو لم أفطن إلى قضية بيرن التي حدثني عنها صديقي في باريس. لم أتفرغ حتى تلك اللحظة لقراءة شيء عن القضية، رغم كل فضولي. ومن خلال اندفاع آني، ارتأيتُ أن رحلة لقضاء ثلاثة أيام لن تشوّش جدول أعمالي المكتظ. لعل تلك إشارة من السماء، قلت في نفسي مبتسمة. في تلك المناسبة، التي جرت في فندق في مركز مدينة بيرن، قابلت أوديت للمرّة الأولى، وهي أرملة المحامي جورج برونشفايغ، الذي مثّل الادّعاء في محاكمة بيرن الشهيرة.

بدت أوديت أصغر من سنواتها السبعين، نحيفة جدًا، أنيقة، ذات صوت هامس، وعينين بارقتين وفم يوحي بالمسؤولية. دهشتُ لمرآى الدموع في عينيها عندما ذكرتُ لها قضية بيرن. تبين لي فيما بعد أن تلك القضية لم تشكل منعطفًا في سيرة زوجها المهنية فحسب، بل وفي حياتها الخاصة أيضًا. لقد انقضت 54 سنة منذ واجه زوجها جبهة نازية سويسرية وألمانية في قضية بيرن بخصوص ***بروتوكولات حُكماء صهيون****، كما انقضت 14 سنة على وفاته المفاجئة، أيام حرب يوم الغفران، بينما كان يلقي*

خطابًا أمام جمهور من اليهود، طالبًا مدَّ يد العون لدولة إسرائيل في صراعها. في الفترة التي امتدت ما بين هذين الحدثين، استطاع جورج أن يشيدَ لنفسه سيرة مهنية زاهية كمحام وشخصية اجتماعية.

التقينا في بيت أوديت، وهو بيت ذو جمال خاص سكَنته منذ أن تزوجا قبل خمسين عامًا. لا يبدو أن أجريت فيه تغييرات كثيرة منذ إنشائه. الشيء الوحيد الذي يبدو فيه شاذًّا هو جهاز التلفاز. انتصبت الزهريات فوق مناضد صغيرة، والكنبات المريحة الموزعة في غرفة الضيوف بدت كما لو أنها لم تُزحزح من أماكنها مرَّةً. كان الجو حميميًّا، وديًّا، أشعرني للتو بانتماء إلى المكان، رغم أني لم أسكن بيتًا كهذا في حياتي. أثناء حديثنا عن جورج وعن قضية بيرن، تسلّقت أوديت سُلّمًا وانتشلت من على الرف العلوي كتيبًا بالألمانية.

- "هذه هي كل القصة باختصار"، قالت وهي تقدّم لي الكتيب.

*قضيتُ ليلة أخرى في الفندق ألتهمُ صفحات الكتيب السبع والعشرين التي كتبها إميل رآس وجورج برونشفايغ، ونشراها في زوريخ عام 1938. كان اسم الكتيب: "**إبادة التزوير**". كان ذلك أول لقاء لي بموظفي محكمة بيرن وبتاريخ **بروتوكولات حُكماء صهيون**. شعرتُ بالامتنان للمرحوم البروفسور كوبنر Koebner الذي علّمني التاريخ في الجامعة العبرية في أورشليم/القدس، وشدّد على الطلبة أن يتعلموا الألمانية ليتمكنوا من قراءة النصوص الأصلية بتلك اللغة. فرغم معرفتي غير الكاملة بهذه اللغة، إلا أنها كانت كافية لتجعلني أقدّر الكتابة البليغة الواضحة، وقد حثّني الوصف المختصر للوقائع على الاستمرار والتعمّق في الموضوع.*

في الغد مضينا كلتانا لزيارة المحامي إميل رآس، شريك جورج برونشفايغ سابقًا. كان يسكن بيتًا ساحرًا، تحيطه حديقة، وقد شابهت الأجواء والأثاث فيه إلى حد بعيد أجواء وأثاث بيت أوديت. رجل عجوز فوق كرسي عجلات، يعاني من شلل

نصفي، لكنه في غاية الصفاء. استقبلنا بوجه باش. يُلاحَظُ أنه كان ضخم الجسد. ذو صوت رزين ولغة طلقة يليقان بقاعة المحكمة. سبق وأن حدثتني أوديت بأن إميل كان فيما مضى محاميًا ذا سمعة ذائعة.

حين ذكرتُ قضية بيرن، تدلّى رأسه فوق صدره واغرورقت عيناه بالدموع. استلقت كفتا يديه براحة فوق البطانية المنقوشة التي غطّت رجليه المشلولتين. وقفنا صامتتين احترامًا لخصوصيته، ريثما يستجمع أفكاره.

راح يتكلم بتأنٍّ، بتردّد ما، كأنما ينتقي الكلمات، فتسمع كل نبرة وكأن لها حياتها الخاصة. حمَلنا صوت إميل، عائدتين في قناة الزمن، إلى بيرن عام 1933، إلى مظاهرات النازيين في الشوارع، إلى طائفة يهودية تواجه تحديًا غير معقول، إلى مشاورات محمومة في غرف تمتص الدخان، وإلى أجواء متكهربة في قاعة المحكمة، حيثُ طُرِحَتْ ملحمة **بروتوكولات حُكماء صهيون** بكامل معانيها التاريخية.

بعد ذلك، صعدتُ وزوجة إميل، دنيس، إلى عليّة البيت حيث وجدنا بموجب توجيهاته الدقيقة، مخطوطة من 800 صفحة، تقريرًا كاملاً عن محكمة بيرن، كان قد انتهى من إعداده قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، ولم يتم نشره أبدًا.

في تلك الأيام، قال إميل بجفاف، كانت أمور أكثر أهمية على جدول أعمال الناس. لم تسمح حالة الجماعات اليهودية المادية بتمويل إصدار الكتب. كان كل قرش ضروريًا لمساعدة اللاجئين اليهود الفارين من ألمانيا النازية. لذا – أردف إميل– فقد قام هو وجورج بإصدار الطبعة المختصرة التي أعطتني أوديت نسخة عنها، وأما المخطوطة الكاملة فقد نُسيَت على مدار 50 عامًا فوق الرفوف في العلية.

قابلت إميل رآس مرة أخرى بعد سنة، في غرفته في المستشفى. هناك تحدثت إليه للمرة الأخيرة بعد استئذان الأطباء. حاول، وهو محاط بأفراد عائلته، أن يستخرج من ذاكرته كل شاردة تتعلّق بمحكمة بيرن. كنا نشعر باقتراب ساعته على جمار الأسى.

وبغتة، أطلق ضحكة كأنها آهة. "ما زلت أذكر تلك اللحظة الدرامية، حين أخرج صديقي جورج من جيبه كتيبًا صغير الحجم، ووضعه على منصة الحاكم معلنًا: هذا هو المصدر الذي استعملوه للانتحال والتزوير، وعنه نقلوا هذه البروتوكولات على أنها **بروتوكولات حُكماء صهيون**".

بعد مضي أسابيع قليلة، نعَتْ إليَّ أوديت خبر وفاة إميل رآس، آخر من تبقّى من الذين شاركوا في قضية بيرن.

ستوكهولم – 1989

أحسستُ بوضوح أن ثمة من يتعقبني. كان يوم الغفران، وكنت أتنزّه في حديقة ستوكهولم المركزية الفسيحة برفقة صحافي عرفته في اليوم السابق، وهو الذي تنبّه إلى سيارة تقترب منّا من الجهة المقابلة، كلما دنونا من إحدى الطرق التي تقطع المتنزّه طولاً وعرضًا. حدّق بي أربعة شباب حليقي الرؤوس، بصلافة تكادُ تكون تحدّيًا، مما جعلني أرتعد. أحد الأمور الرائعة في المدينة الغريبة، بالنسبة لي، هو الشعور بأنك مجهول تمامًا مقرونًا بالحرية المطلقة. أما التقائي المتكرر بحليقي الرؤوس الأربعة فقد سبّب لي إرباكًا لم أجد له تفسيرًا. أدركت أني لن أشعر طليقة في هذه المدينة بعد. في اليوم التالي تبيّن لي كم كنت صادقة.
قدِمتُ إلى ستوكهولم لإلقاء سلسلة محاضرات وللالتقاء ببعض أعضاء البرلمان. في تلك الأيام بالذات كانت ستبدأ محكمة ضد محطة "**راديو إسلام**" ومديرها أحمد رامي، وقد سنحت لي فرصة

التحدث إلى المدّعي في هذه القضية حين استمع إلى إحدى محاضراتي، وإذ أبديتُ اهتمامي بالقضية، دعاني إلى حديث في مكتبه، وإلى زيارة قاعة المحكمة حيث جرى البت في القضية. كان ذلك من باب المجاملات الشكلية المألوفة لدى استقبال قاضٍ ضيف. علمتُ في موعد لاحق أن غداةَ زيارتي لمكتب المدّعي، قدّم المتهم التماسًا للمحكمة طالبًا تنحية المدَّعي لأنه "موجَّه بيد مندوبة للحكومة الصهيونية".

كان راديو إسلام محطة إذاعة خاصة عملت بموجب رخصة، بإدارة أحمد رامي، الذي كان مذيعًا أيضًا. بثت المحطة يوميًا طوال ساعات النهار، وأحيانًا في ساعات الليل، وكان معظم ما أذاعته لاساميًا ومناوئًا لإسرائيل، ويتسم بروح الدعاية اللاسامية خاصةً غبلاس، وقد أذاعت يوميًا مقاطع من الدعاية الألمانية التي سبقت الحرب العالمية الثانية. قبل زيارتي بزمن قصير شرَعَت المحطة بإذاعة قوائم بأسماء رجال أعمال يهود وعناوينهم. أحسّ اليهود بأنهم مهدَّدون وبدأوا بشراء وسائل وقائية للبيوت وللمحال التجارية. وقد احتلت مقتطفات من ***بروتوكولات حكماء صهيون*** *مكانًا مرموقًا في البرامج اليومية للمحطة.*

عندما وصلتُ إلى المحكمة برفقة ترجمان، ظهر في واجهة البناية عدد من الشباب حليقي الرؤوس المعروفين لي جيدًا. كانوا يوزعون نسخات من ***بروتوكولات حُكماء صهيون*** *باللغة السويدية، وعندما لمحوني ابتسموا ابتسامة عريضة، فاجتاحتني الرعشة ثانية.*
انتظرنا بدء النقاش في مقهى صغير في طابق قاعة المحكمة، وتحادثنا مع شهود الادّعاء. كان بينهم مطران سويدي وصل من بوسطن حيث درَّس اللاهوت في جامعة هارفارد، وكان بينهم بار أهلمريك، نائب رئيس الحكومة السويدية سابقًا، وهو ليس يهوديًا لكنه لا يكفُّ عن المجاهرة بأن اللاسامية هي مرض الأغيار، ويرى أن من واجبه مقاومتها. من دواعي دهشتي أن المتهم قد

مرَّ أمامنا متجاهلاً، وكأنه لا يعرفنا. علمتُ فيما بعد أنه كان في طريقه إلى دائرة القاضي للتداول في أمر تنحية الادّعاء بحجة "التعاون مع مبعوثة من إسرائيل". إن مجرّد إيماءة منه باتجاهي كان من شأنها أن تحرجَه.

وفجأة وقف أمامي رجل معتدل القامة مادًّا إلي يده مُسَلِّمًا. لم أستوعب الاستياء الذي بدا على وجوه رفقائي على المائدة، إلى أن قال الرجل إنه أحمد رامي، المتهم. وفيما كان يهز يدي بعنف، أردف قائلاً إنه يودُّ التقاط صورة تذكارية مع المبعوثة الإسرائيلية التي حضرت للتشويش على المحكمة في السويد. ومضة فلاش الكاميرا اختتمت المشهد، واختفى الرجل من المكان. "من المرجّح أن الصورة سيتم استخدامها لأغراض دعائية في سياق تشويه ما"، قال رفقائي حول المائدة.

لم يُقبل الالتماس لتنحية المدَّعي، وبوشرت المحكمة. اتضح لي أن المتهمين طلبوا من وزارة العدل السويدي منع توزيع العهد القديم باعتباره كتابًا عنصريًا، فدُعي المطران للدفاع عن التوراة، وقد استغرقت شهادته النهار بطوله. جلس منتصبًا على كرسيه، عنقه مطوق بطوق ارتوبيدي، وصوته عالٍ وجهوري.

جلستُ في قاعة المحكمة المعقمة، المؤثثة بأناقة، مقابل ثلاثة حكام وخمسة محلَّفين، محتضنة نسخة سويدية من **بروتوكولات حُكماء صهيون** كانوا قد قدموها لي عند مدخل البناية. وفيما كان الترجمان يهمس في أذني، وجدت نفسي ساهمة، أفكر بما يمكن أن يحصل لو أن المحكمة أقرّت عنصرية العهد القديم ومنعت توزيعه بموجب القانون السويدي، فقد أذاع راديو إسلام الادعاء بأن المخطط اليهودي للسيطرة على العالم، والمفصل في **بروتوكولات حُكماء صهيون**، مصدره التوراة والتلمود. وبذلك، لم تقف البروتوكولات وحدها في قفص الاتهام في ستوكهولم، وإنما، وبصورة غير مباشرة، وقفت التوراة والتلمود أيضًا، ومعهما الشعب اليهودي.

لحسن الحظ، أدانت المحكمة أحمد رامي وأمرت بإغلاق محطة راديو إسلام وسحب ترخيصها.
"سَلِمَت التوراة"، همس الترجمان في أذني.
حين زرت ستوكهولم عام 1994، علمتُ أن طبعات جديدة من البروتوكولات يجري توزيعها مجدَّدًا في كل السويد.

يوهنسبرغ – 1990

انتظرتُ بفارغ الصبر وصول المصعد المتلكئ لينقلني إلى غرفتي في الفندق. كثرة المشاركين في المؤتمرات تشلُّ أحيانًا خدمات المصعد، حتى وإن كانت في فندق ضخم ورفيع المستوى مثل الكارلتون في يوهنسبورغ. كان ذلك مؤتمر المنظمة الصهيونية الذي ينعقد كل سنتين في جنوب أفريقيا، وكنت قد فرغتُ لتوّي من إلقاء خطابي.

وصلتُ من زوريخ في رحلة جوية ليلية، وكنت ما أزال متعبة من الطيران المرهق. قلتُ في نفسي: إذا طال تلكؤ المصعد، فإني على استعداد للاستلقاء على أريكة في ردهة الفندق مغمضة عينَيَّ. في اللحظة التي ومض الرقم فوق باب المصعد إيذانًا بوصوله، دنت مني شابة معترضة طريقي. صحافية من مدينة دوربن جاءت لتغطية المؤتمر. أصرّت على دعوتي للانضمام إلى مجموعة كانت تجلس حول طاولة في القاعة المزدحمة بالناس. قالت وهي تلتمس العذر، إنها تعلم كم أنا متعبة، لكن اللقاء قصير، مجرد ارتشاف فنجان شاي والتقاط بعض الصور مع أشخاص يودّون التعرّف إليَّ. كان بالإمكان ردّ الدعوة بأدب، لكن لم يكن بالإمكان رفض التقاط الصور، فقد كان ذلك من المسلَّمات التقليدية، والامتناع عنها قد يُعتَبَرُ مساسًا بالمدعوين. يهتم المشاركون في مثل هذه اللقاءات، لسبب أو لآخر، أن يعودوا إلى بيوتهم حاملين دستات من الصور برفقة أشخاص ربما لا يذكرون أسماءَهم! استسلامي لها صعَّد على محيا

*الصحافية ابتسامة الظفر، وراحت تشق طريقها بين الجمهور الغفير وتقودني نحو الطاولة. لكنها توقفت عند طاولة غيرها لتقدّمني إلى زوجين كانا هناك، فكِدْتُ أصرخ متذمّرَةً، لكني تمالكتُ نفسي تأدُّبًا، وابتسمتُ تكلّفًا. هكذا تم لقائي بالدكتور ينكلوفيتش، المحامي من بورت إليزابث، وهكذا انضمَّ حدث آخر إلى سلسلة الأحداث التي **حوَّلَت بروتوكولات حُكماء صهيون** إلى الموضوع الأهم في حياتي.*

عرف ينكلوفيتش أني مهتمة بأمر البروتوكولات. سأل إن كان معلومًا لديَّ أنها كانت موضوع دعوى قضائية في جنوب أفريقيا قبل خمسين عامًا. أجل، أعرف ذلك، قلت له وأنا أهمُّ بمتابعة سيري، لكنه أصرّ على السؤال ما إذا كنت معنية بالمواد المتعلقة بالقضية. أجبته أن أحد زملائي القضاة قد رافقني إلى المكتبة في ذلك الصباح، وقد تفحّصنا الوثائق المتعلقة، لكن للأسف، فقد مرَّ زمن طويل من ذلك الحين، ولم تعد كل الوثائق موجودة. "هل أنتِ معنية بها؟" سأل مبتسمًا وأردفَ: في خزانة قديمة في مكتبي توجد نسخة حرفية لكامل بروتوكول المحكمة. كان لأحد شركائي السابقين في المكتب دور في القضية، وقد ترك الوثائق هناك".

دهِشَت الصحافية من التحوّل الذي انتابني، فقد امتلأتُ فجأة بالنشاط والحيوية، وكنت على استعداد ليس فقط لارتشاف الشاي والتقاط الصور، فلو تيسّر الأمر لطرتُ في الليلة ذاتها إلى بورت إليزابيث، لكني طرتُ في الصباح عائدة إلى البلاد، لأدير جلسة في قضية غش واسعة النطاق.

بعد ثلاثة أسابيع وصلَتْ إلى مكتبي رزمة، وقد كتَبَ الدكتور ينكلوفيتش أنه يرسل لي البروتوكولات الكاملة عن القضيَّة، وأنه امتنع عن تصوير المستندات المنثورة على 700 صفحة، خشية أن يلحق الضرر بالأوراق الدقيقة المصفرّة الآخذ بعضها بالتفتت. اختتم رسالته آملاً أن أستعمل المستند استعمالاً لائقًا. أحسستُ أن مهمّة إضافية هبطت على كتفيَّ.

قبل ذلك بشهرين، بلغني أن جورج برونشفايغ كان قد أودع كل أرشيفه الخاص، المتعلق بقضية بيرن، في عهدة قريب له، الدكتور ويلي غوغنهايم، وأن هذا يحتفظ بها منذ ذلك الحين. الأرشيف المنتشر على 8,000 صفحة، تم تصويره على شرائح (ميكروفيلم) وقد وصلتني نسخة عنها. بعد استلام التسجيلات من زوريخ وبروتوكول المحكمة من جنوب أفريقيا، شعرتُ، دون قرار واعٍ، أنه قد أنيط بي عمل شيء في موضوع ***بروتوكولات حُكماء صهيون****.*

وجدتني في 13 أكتوبر 1991 أنهي سيرتي المهنية في سلك القضاء، لأتقصّى حقيقة البروتوكولات التاريخية، من كتبها؟ ومتى كان ذلك؟ وكيف حدث أن كتيبًا صغيرًا واحدًا، قيل إنه أكبر تزييفات القرن، ما زال ينتشر ويزرع الكراهية والضغينة في العالم بأسره؟ لقد ظهرت في العالم وثائق مزيفة في مختلف الأزمنة، غير أنها حين انجلت حقيقتها زالت ونُسيَت. فما سرٌّ هذا الكتاب؟ ما الذي يجعله يصدرُ مرارًا وتكرارًا، يوزَّع في سبعين لغة، يُقتَبسُ فوق المنابر، يختفي لردح من الزمن ويعود فيظهر من جديد، كالحرباء، بثوب جديد، ينتقل من جيل إلى جيل، ومن بلد إلى آخر، من أزمة سياسية إلى أخرى ومن مأزق اجتماعي إلى آخر؟ كيف وُلِدَت الفرية؟ من طبخَ الطبخَةَ؟ ما الذي جعل هذه الوثيقة عصيَّة على الموت، حصينة في وجه الحقيقة؟

من أين أبدأ؟ ساءلتُ نفسي.
كان من البديهي أن أبدأ بمحكمة بيرن، وأقتفي خُطى جورج برونشفايغ، لكن بوريس، المؤرخ الروسي الذي ساعدني، عاندني. قال: "لن تفهمي ***بروتوكولات حُكماء صهيون*** *أبدًا، إن لم تبدئي بروسيا، هناك كانت باكورة ظهورها".*

الفصل الثاني

سلالة رومانوف والبروتوكولات

في 17 يوليو 1918 قتل البلشفيون القيصر نيقولاي الثاني وزوجته ألكسندرا بدوروفنا وأولادهما، وذلك في مكان منفاهم في إكطرينبورغ، وما زال مصير جثثهم مجهولاً حتى يومنا هذا. حين قام أحد القضاة المحققين بتفقد بيت إيباطيف، حيث تم احتجاز القيصر وعائلته كأسرى قبل قتلهم، عثر في غرفة الإمبراطورة على ثلاثة كتب: التوراة، الحرب والسلام لتولستوي، والطبعة الرابعة من كتاب سرجي نيلوس: "**الكبيرُ ضِمْنَ الصغير**"، والذي احتوى النصَّ الكاملَ لبروتوكولات حُكماء صهيون.

منذ إصدار البروتوكولات عام 1905، إبّان الثورة البلشفية الأولى، بقي نيلوس يردّد تحذيره لأبناء شعبه من المؤامرة اليهودية، متهمًا اليهود بكل ما يحدث. ونظرًا لكونه رجل دين متعصّب، راح يفسّر الأحداث التاريخية من زاوية رؤيته الدينية: قبل قيام مملكة الحق بمجيء المسيح يسوع، يُرتَقَبُ مجيء المسيح الدجّال الذي سيقبله اليهود مسيحًا، وسيعتبره العالم كله السلطان الأعلى. يكشف نيلوس لقرائه، بناء على ما بحوزته من وثائق، أنه في عام 929 ق.م. أعدَّ اليهود خطة للسيطرة على العالم بغير سفك دماء، وأن المُخَطِّطَ لها كان الملك سليمان، أعظم العالمين حكمةً، من مقر سلطته في هيكل صهيون في أورشليم، بالتشاور مع حكماء صهيون. وعلى مدى التاريخ تم من حين لآخر تطوير الخطة، إلى أن وُضِعَ نصُّها الأخير في اجتماع سرّي لشيوخ صهيون. ويقول نيلوس إن البروتوكولات الأصلية لتلك الاجتماعات السرية، التي ينشرها للمرة الأولى، بعد أن تمت سرقتها من مخبئها، يجب أن تشكّل إنذارًا لكل روسي بالخطر المقترب. ومع كل إصدار جديد لكتابه كان الإنذار يزداد حدَّة وإلحاحًا. الثعبان التقليدي الذي يرمز إلى المسيح الدجّال، ينهش القوة السياسية في مختلف البلاد ويقضي عليها، وهو يتقدَّم نحو

نهاية طريقه بخطوات واسعة. عندئذ سيغلق دائرة الخنق، مُلتفًّا أولاً حول أوروبا، وبعدها حول العالم بأسره.

في الصفحة الأولى من الطبعة الرابعة لكتابه، والتي صدرت عام 1917، عشية الثورة، كرّر نيلوس تحذيره قائلاً: "لقد باتَ الأمرُ قريبًا، إنه في الباب، والناس لا يصدّقون".

في رسالة كانت الإمبراطورة قد كتبتها لصديقتها المقرّبة آنا فيروبوفا في 20 مارس، أي قبل إعدامها بأربعة أشهر، ذكَرت أنها تقرأ باهتمام كتاب نيلوس، وقد شاع في حينه أن الإمبراطورة قد رسمت على نافذة غرفتها شارة الصليب المعقوف، الأمر الذي جعل المتطرفين من الروس يعتبرون ذلك بمثابة وصية حقيقية تركتها الإمبراطورة الراحلة، فاكتسب كتاب نيلوس زخمًا جديدًا، وانطلقت **بروتوكولات حُكماء صهيون** في رحلتها الكبرى إلى أنحاء العالم.

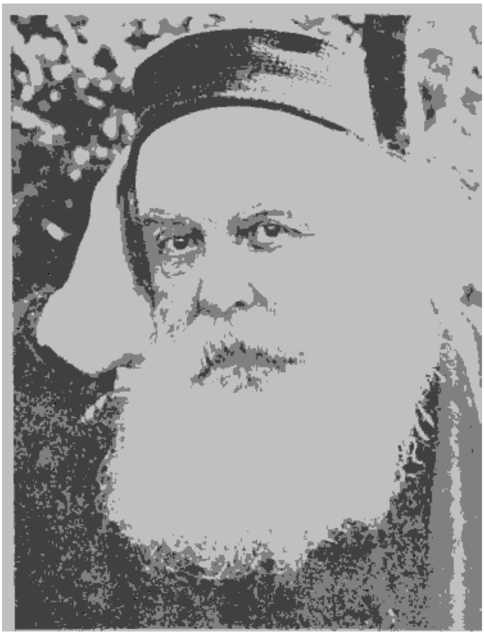

سرجي نيلوس
المتعصّب الروسي
الذي نشر البروتوكولات.

في يوم صيف حار، تنزهتُ في حدائق قصر تسرسكويا سلاو برفقة بوريس. كان بوريس حلقة الوصل التي تصلني بكل موضوع روسي خلال رحلتي لتقصي الحقائق بشأن البروتوكولات، وقد أثقل مكتبتي بكومات من كتب التاريخ ومذكرات رجال السياسة الروس. تمكَّنَ من دخول الأرشيفات الروسية التي، لحسن الحظ، كانت قد فتحت أبوابها للجمهور في السنوات الأخيرة. كما أنه قد وجّهني وأطلَعَني على العلاقات المعقَّدة والمكائد التي سادت في العاصمة الروسية قبل مائة عام، وقد رافقني أيضًا إلى الأماكن التي كانت مسرحًا للأحداث في روسيا.

حسب التشريع الإنجليزي التقليدي الذي وجَّهني طوال حياتي، مِلتُ إلى تجاهل الوقائع التي بدت لي غير ذات علاقة، وقد ذكَّرتُ بوريس مرارًا أني أتقصّى حقيقة كتابٍ ولا أقصدُ إجراء بحث حول تاريخ روسيا.
"لا"، قال بوريس بعناد "لم تأتِ البروتوكولات من الفضاء الخارجي، بل هي نتاج خلفية اجتماعية معينة في زمن محدَّد. لن تفهمي أصل هذه المستندات دون الأخذ بالاعتبار الخلفية السياسية والتاريخية، والدسائس والبيئة الغامضة التي سادت في البلاط الإمبراطوري. إذا كنتِ ترغبين بمعرفة روسيا في تلك الأيام"، قال بوريس ناصِحًا: "ركّزي على القيصرة ألكسندرا". وقد أصرَّ على أن نقوم برحلة إلى روسيا إذ قال: "الأماكن لا تقلّ أهمية عن الكتب والوثائق. لكي تستعيدي الماضي عليكِ أن ترَي بأم عينك الأماكن التي وقعت فيها الأحداث"

لو طاوعته، لكنّا قد سافرنا في الشتاء. "في الصيف لا يرى الناس روسيا الحقيقية"، قال وردَّدَ، "يجب أن تخوضي في الثلج، وأن تشرفي على المسافات البيضاء، أن تنفخي في كفَّيكِ حتى لا يتجمدا، وأن تشاهدي عابري السبيل يلتفون بمعاطفهم الثقيلة وقبعات الفراء تزيّن رؤوسهم. إن روسيا في الصيف مثلها مثل أي بلد آخر".

لكن أيام الشتاء المُجمِّدة ما زالت حية في ذكريات طفولتي في بولندا، حين كان أنفي يتجمّد وقدماي الصغيرتان تنزلقان فوق الجليد المتراكم ليلاً على طريق المدرسة. لم تستهوني الأربعون درجة تحتَ الصفر، فسافرنا في الصيف.

تلك المدينة المباهية بقصورها بجدارة، إذ أنَّ فيها أكثر القصور إثارة للإعجاب، وأعظمها إثارة هو قصر كترينا في القرية الإمبراطورية "تسرسكويا سلاو"، وهو مفخرة أعمال المهندس الإيطالي برتلماوس فرنسسكو رسترالي، وقد بنيَ للقيصرة إليزابيث الأولى في منتصف القرن الثامن عشر، ودُعي باسم والدتها كترينا الأولى زوجة القيصر بطرس الكبير. العين لا تملُّ النظر إلى الواجهة الزرقاء البيضاء، وإلى صفوف التماثيل البنية اللون المنتصبة فيها، وإلى الزركشات باللونين الذهبي والزيتي الملتمعة تحت أشعة شمس الصيف المشرقة، وإلى الغرف المؤثثة بثراء مُدهش، وإلى الأروقة الممتدّة والصالة المدهشة، والمصلّى الأنيق، فكلها تجعل الناظر يستصعبُ مفارقتها. فكّرتُ في نفسي: إذن فقد عاش قياصرة روسيا وأبناء عائلاتهم في هذا الترف!

لعلَّ بوريس قد قرأ أفكاري في هذه اللحظة فقال: "أما نيقولاي وألكساندرا فقد فضّلا العيش في قصر ألكسندر المجاور، وهو أقل ترفًا وأكثر تواضعًا"، وأضاف مشيرًا إلى القصر المجاور، الذي بدا لي مثل قريب عائلة فقير: "حين لم تنم في سرير مرضها، كانت تقضي هناك معظم أوقاتها، وقد اعتادت قضاء الساعات الطوال في المصلّى العائلي. لقد اختفت من القصر، أو كادت، حفلات الاستقبال الفخمة التي مارسَتها سابقاتها، الأمر الذي أثار حفيظة النبلاء فلم يدَّخروا توجيه النقد إليها".

تنزهنا في الحدائق الملكية. الأشجار والنَّجيل تمَّ قصّها وتشذيبها على نحو جميل متناسق، وأحواض الزهور أذهلت الناظر بنوارها الملوَّن، والتماثيل البيضاء سَطَعَت تحت نور الشمس. سألتُ بوريس: "هل يمكن أن تكون أمور الدولة في الإمبراطورية

الروسية العظيمة قد تأثرت، على مدى أكثر من عشرين عامًا، بامرأة مريضة متزمِّتة، يوجِّهها المشعوذون الغيبيون؟ وهل صحيح ما كتبه الكثيرون عن أن سيدة مُبهمة تُدعى آنا فيربوفا، وأميرتين من مُونت نيغرو، قد تسللنَ إلى المنصة المركزية الموجِّهة للسياسة الروسية؟ كيف يمكن ذلك؟ تساءلتُ بدهشة: "لعلها مجرَّد أقاويل؟"

"يجدر أن تقرئي المذكرات"، قال بوريس ناصحًا، وأضاف بنبرة حزينة: "بذلك يمكنك أن تدركي الدور الذي لعبه مؤلِّفو **بروتوكولات حكماء صهيون** في ذلك المجتمع".

كان تدوين المذكرات عملاً مألوفًا في تلك الأيام في أوساط السياسيين والدبلوماسيين وكبار الموظفين وضباط الجيش والشرطة، ممن أرادوا تخليد مكانتهم ودورهم في التاريخ، أما بعض الذين لم يدوّنوا المذكرات فقد لجأوا إلى كتابة الرسائل، وقد بقي الكثير منها محفوظًا. "كلهم كتبوا، وقد أجادوا الكتابة"، قال بوريس بنبرة توحي بالشوق إلى حضارة تلاشت. لقد احتلت القيصرة ألكسندرا ورفيقاتها ومستشاروها المشعوذون مساحة كبيرة في تلك المذكرات والرسائل، فكان لهم دور ليس فقط في مجال القيل والقال، بل إنهم لعبوا دورًا هامًا في السياسة الروسية. ولا شكَّ أنهم قرّروا مصير الملايين من الروس، وكانوا المسببين لسلسلة أحداث غيَّرت العالم على نحو غير منظور.

عَزَمتُ على تقصّي الحقائق التي من وراء الكتاب، غير أني كنت كلما تقدَّمت أصطدم بشخصيات كثيرة تتزاحم مُقتحمة الحكاية، ولم يكن بالإمكان تجاهلها. هذه الشخصيات، وفيها عدد كبير من النساء، كان لها دور هام في القصة المنبسطة أمامي. وسرعان ما تبيَّن لي أن قصة الكتاب تتحوَّل تدريجيًا إلى قصة أولئك الذين بادروا إلى كتابته، وإلى طباعته وتوزيعه وتسخيره لغاياتهم، وإلى قصة الذين اكتشفوا حقيقة زيفه.

في 1 نوفمبر 1894 اجتمع أفراد العائلة المالكة في القصر الشتوي في بطرسبورغ، محيطين بجثمان القيصر ألكسندر، مأخوذين بصدمة الرحيل المبكر لِذي السلطان العظيم، ينتابهم الشعور بفقدان الحيلة إزاء ما ينبئ به هذا الحدث من الأيام الصعبة لروسيا. سيكون مصير المملكة رهن أيدي نيقولاي الصغير، عديم التجربة، المزمع أن يتبوأ كرسي عرش سلالة رومانوف بعد أبيه. فما هي السياسة التي سينتهجها؟ وأي مصير ينتظر المملكة؟ هذا ما تساءل به أفراد العائلة، تساورهم المخاوف من أن ولي العهد الشاب لم يفكر أبدًا في الأمر، وأنه لا يدرك مدى ثقل التاج الذي سيوضع فوق رأسه عما قريب.

والحقيقة هي أن نيقولاي لم يكن ناضجًا بالقدر الذي يؤهله للقيام بدور الحاكم الفرد لـــ 187 مليون من رعايا الإمبراطورية الروسية. كان كل تفكيره في تلك الأيام موجهًا نحو حبيبته أليكس، التي أصبحت فيما بعد الإمبراطورة ألكسندرا. التقى بها لأول مرة في بيت أختها الكبرى إليزابيث، فغرق بحبها لدرجة فقدان الرشد! في الرابع من أبريل 1894، وبعد ملاحقاته الملحة لها، رغم معارضة والديه الشديدة، أبلغته بموافقتها على الزواج منه. رغم أن وفاة والده قد صدمته هو الآخر، إلاّ أنه لم ينتظر إلى ما بعد الجنازة، بل سارع في اليوم الثاني إلى إحياء مراسيم متواضعة في قصر تسرسكويا سلاو، اعتنقت فيه ألكسندرا المذهب الأرثوذكسي الروسي، تمهيدًا لزواجهما. تم الزواج في 14 نوفمبر، وقرر الزوجان السكن في تسرسكويا سلاو. سرعان ما اطمأن المحافظون إلى نيقولاي، فقد كان لمعلمه قنسطنطين بوبدونوستيسف Konstantin Pobedonostsev عظيم التأثير على الإمبراطور الشاب وبلورة أفكاره. وقنسطنطين هذا كان رجل دين، من المناصرين المتحمسين للأوتوقراطية والأرثوذكسية والقومية، ومناهضًا شرسًا لما أسماهُ "الإلحاد الغربي". كان نيقولاي شديد الكره لكل ما هو ثوري، وكان يتهيأ الثوارَ في كل زاوية، فحتى قبل ولادته، كانت محاولات لاغتيال جده ألكسندر الثاني، الذي اغتيل بالتالي في 1/3/1881 على ضفة قناة كترينا

في بطرسبورغ، بيد أعضاء في جماعة ثورية أطلقت على نفسها اسم "**إرادة الشعب**". كذلك فقد نُقِش عميقًا في ذاكرة نيقولاي هجوم رهيب على القصر الشتوي. هذا الرجل الضعيف الذي نشأ في ظل أبٍ قويٍّ ومتسلّط، لم يُبدِ اهتمامًا بأمور الإمبراطورية.

آخذًا بنصيحة زوجته الشابة، متجاهلاً النصائح الحذرة من أمه وغيرها من الأقرباء، قرر نيقولاي الإعلان عن سياسته دون تروٍّ، حتى قبل أن يتم تتويجه رسميًّا؛ ففي أول ظهور عمومي له، بحضور النبلاء وممثلي الألوية الذين قدموا من كل أنحاء روسيا لتقديم العزاء بموت أبيه ولتهنئة العروسين، ومن خلال تجاهله للنتائج المتوقَّعة، أوضحَ نيقولاي بشكل لا لبس فيه، أنه ينوي الاستمرار على نهج أشد أسلافه المحافظين، إذ قال: "على الجميع أن يعلموا أني، ومن أجل صالح الأمة جمعاء، سأبذل كلَّ ما أملك من الجهد للمحافظة على الأوتوقراطية المطلقة، كما فعل المرحوم والدي". كل اقتراحات ونصائح السياسيين القدماء والمحنكين لانتهاج نظام دستوري تم رفضُها على أنها "أحلام يقظة". الآن وقد تبخّرت آمال الليبراليين، بدأت المعركة على مستقبل روسيا. كان الخطاب بمثابة الزيت الذي ليَّن عجلات الثورة وحرَّكها.

لم يتلكأ ردُّ الفعل في المجيء؛ فبعد أيام قليلة وجد وليُّ العهد على طاولته رسالة واضحة، تحمل توقيع "لجنة العمل في جنيف"، وقد تم نشرها في كل أنحاء الإمبراطورية. تلك الجماعة الثورية التي انتظمت في سويسرا أعلنت عن خيبة أملها الشديدة، مؤكدة أن النظام الأوتوقراطي قد حفرَ الآن قبره بنفسه. لكن المحافظين الرجعيين أمثال الأمير سرجي ألكسندروفيتش كانوا راضين جدًا. عُرِفَ عن القيصر ألكسندر الثالث كرهه للأقليات القومية، وخاصة اليهود، لكنه، وإن لم يعارض استعمال العنف ضدهم، إلاّ أنه رفض أن تكون المذابح أداة لفرض السياسة الداخلية. أما الآن، وبعد إعلان سياسة الحاكم الجديد، فقد فُتِحَت الطريق إلى

أعمال العنف غير المحدودة، والتي سرعان ما تحوّلت إلى شعارٍ للنظام الجديد.

أصبحت الأرض خصبة لظهور **بروتوكولات حُكماء صهيون،** فكانت باكورة ظهورها على نحو متواضع في بيت حاكم مدينة موسكو، الأمير سرجي ألكسندروفيتش وزوجته الأميرة إليزابيث بدوروفنا، الشقيقة الكبرى للامبراطورة ألكسندرا.

"كانت كزهرة في غاية الجمال، في العشرين من عمرها، حين تزوجها سرجي ألكسندروفيتش، الابن الرابع للقيصر ألكسندر الثاني"، هذا ما كتبه السفير الفرنسي Peleolog عن إليزابيث بدوروفنا، زوجة أخ القيصر نيقولاي الثاني، وأخت القيصرة ألكسندرا. كانت إليزابيث متديِّنة جدًّا كأختها الصغرى، وقد ورثتا العبادة والميل إلى الغيبيات عن والدتهما الأميرة أليس، ابنة فكتوريا ملكة بريطانيا. عندما عُيِّن سرجي حاكمًا لموسكو عام 1891، انتقل العروسان الشابان للسكن في موسكو، وسرعان ما أظهر سرجي دعمه وتأييده الشديدين للسياسة الرجعية لأخيه القيصر ألكسندر الثالث، فكان من أوائل أعماله الطرد الوحشي لليهود الذين تسلّلوا إلى موسكو من المقاطعات الغربية، هربًا من "الغيتوات". لقد باءت بالفشل محاولات بعض أعضاء مجلس الشيوخ من أجل التخفيف من القيود التي فُرِضَت على اليهود، بل قد تم قمعها في مهدها.

بعد زواجها بوقت قصير، اعتنقت إليزابيث المذهب الأرثوذكسي الروسي، بالإضافة إلى ممارسة الطقوس الغيبية التي حظيت بدعمها وتأييدها، ونذرت نفسها لأعمال البرِّ في مختلف المؤسسات التي أنشأتها. مع ذلك فقد وقفت إلى جانب زوجها، رغم طبعه الشرس وما اشتهر به من الوحشية والاستبداد الظاهرين نحو اليهود، وكانت تشاطره آراءه الرجعية ونزعته اللاسامية بلا هوادة أو مساومة. لم تتألم ولم تتأثر بالمذابح التي أنزلَت باليهود، مثلها مثل باقي الذين كانوا في منزلتها. مع ذلك

فقد أظهرت تعاطفًا شديدًا تجاه المسيحيين، لدرجة أنها حين اغتيل زوجها، عن طريق عبوة ناسفة وضعها له إرهابيون، قامت بعد الدفن، وبعد قضاء خمسة أيام في العزلة والصلاة، فمضت لزيارة القاتل، كلايب، وكانت على استعداد لأن تشفع له إن هو أبدى الندم على فعلته. وإذ أبلغوها أنه قد تم شنقه ودفنه أثناء الليل قرب السجن، تلت الصلوات لراحة نفسه، لكنها لم تفكّر يومًا بالعطف على الأبرياء، ضحايا المذابح من الرجال والنساء والأطفال اليهود، أو بالصلاة لراحة أنفسهم.

كان فيليب بتروفتش ستيبانوف Stepanov ضيفًا مرغوبًا به في بيت الأمير سرجي. وكانت تربطه بشكل خاص علاقات ودية بزوجته الأميرة إليزابيث، التي يدين لها بفضل تعيين ابنة أخيه، إيلنا ألكسندروفـــا أوزروفـــا، كمرافقة للقيصرة ألكسندرا. لكن زيارته لهما ذات يوم في عام 1897 كانت لغاية خاصة جدًا؛ فبعد تبادل المجاملات التقليدية أخرج ستيبانوف من جيبه رزمة سميكة من الأوراق وقدمها إلى مضيفه بشكل درامي مثير وهو يقول: "إليك شهادة دامغة عن وجود تآمر ما بين اليهود والبناة الأحرار من أجل السيطرة على العالم". كانت تلك مخطوطة عنوانها "إخضاع العالم بيد اليهود"، وقد عُرِفَت فيما بعد باسم **بروتوكولات حُكماء صهيون**. هنالك 24 بروتوكول، أوضحَ ستيبانوف، عن اجتماعات سرية لحكومة اليهود السرية، لكن مكان الاجتماعات وتوقيتها غير معروفين.

لم تكن الوثيقة، التي قام ستيبانوف بنفسه بطباعتها بواسطة الهكتوغراف، سهلة للقراءة، لكنها كانت أفضل من المخطوطة التي أعطاه جاره الميجور المتقاعد ألكسي سوخوطين، من مقاطعة تولا، وقد أسَرَّ له سوخوطين بأن جارةً له، تفضّل البقاء مجهولة، قد عثرت على الوثيقة، على حد تعبيرها، في بيت أحد أصدقائها اليهود في باريس، فترجمتها إلى الروسية وأحضرتها ضمن حاجاتها.

رغم الطباعة الباهتة، أدرك سرجي الاستغلال المحتمل لمضمون مثل تلك الوثيقة في ملاحقته لليهود. لا يجب تفويت هذه الفرصة، ودون أن يكلف نفسه مشقة تحرّي الحقيقة، أصدر أمره فورًا إلى مدير شؤون بيته بطباعة الوثيقة بمساعدة ستيبانوف. خلال فترة زمنية قصيرة فرغوا من إعداد كراس مطبوع تحت عنوان "**البروتوكولات القديمة والحديثة لاجتماعات شيوخ صهيون**".
أخذ ستيبانوف على عاتقه مهمة توزيع الكراس، ووضعه على طاولات كبار الموظفين العموميين في بطرسبورغ، ولشدّ ما خاب أمله حين بلغه أن الموظفين قد تجاهلوا الكراس تمامًا، وأن الغالبية اعتبرته نشرةً دعائية من النوع الذي دأب البوليس السري على نشره باستمرار.
لكن سرجي ويت Witte وزير المالية قد اختلف عنهم.

سرجي يوليفيتش ويت Sergei Iulievitch Witte

لطالما اقترنت بروتوكولات حُكماء صهيون، في مخيلتي، بوكلاء الاستخبارات السرية، بالمزوّرين والمشعوذين، بالمتديّنين المتعصبين وبمدبّري المذابح. لم يخطر ببالي أبدًا أن هذا التزوير، الذي يتناول اليهود بمجمله، قد تم إعداده لهدف لا يمت بصلة لليهود.

حين وقفتُ للمرة الأولى على الادّعاء القائل بأن المزوّرين قد جهدوا في تأليف هذه الوثيقة، المفصّلة والمحبوكة جيدًا، من أجل إرباك الرجل الذي كان الشخصية المركزية في نظام الحكم الروسي، اعتقدتُ أن في ذلك حماقة لا أساس لها. فلو حدث ذلك في محاكمة حقيقية أمامي، لكنت اعتبرتُ الشهادات على سياسة وزير المالية الروسي Witte باطلةً وغير لائقة. لكن، ولمزيد دهشتي، اتضح لي أن القضاة في المحاكم التي تناولت البروتوكولات قد اضطرّوا إلى تناول القضية من الناحية التاريخية أيضًا. فقد كان المؤرخون الشهودَ الرئيسيين في هذه القضايا، وقد شكّل الواقع السياسي في تلك الأزمنة موضوعًا

مركزيًا في المناقشات. إن وزير المالية هذا، وسياسته التي كانت محطّ جدل، قد شكلا، إن بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر، حلقة وصل هامة في سلسلة الأحداث التي شكّلت بدورها الخلفية لابتداع التزوير.

في مكتبه في وزارة المالية، في بطرسبورغ، قرأ سرجي يوليفيتش ويت، بقلق متزايد، الكراس الذي أحضره مبعوث خاص. كان من عادته أن يهمل الوثائق المجهولة المصدر، لكن مُساعدَه وجّهَ انتباهه إلى أن هذا الكراس قد تم توزيعه بين كبار موظفي الحكومة، وأن من الجدير أن يتصفّحه. عندما انتهى من تصفح الكراس طلب من مساعده أن يحوله إلى هنري شلوسبرغ، وهو محامٍ يهودي شهير، من أجل إبداء رأيه في هذا المستند الغريب.

رغم عدم ظهور اسمه بوضوح في الكراس، أدرك ويت، بإحساسه المرهف وبفطنته وذكائه، القوى الناشطة في سياسة روسيا الداخلية والخارجية، فلو تم نشر هذا المستند بين الجمهور، فسوف يتم استغلاله ليس فقط للتحريض ضد اليهود، بل وأيضًا لزعزعة كرسيه وصلاحياته والمساس بسياسته. أطارَ هذان الموضوعان النوم من عينيه. إن واقع اليهود وملاحقتهم المنهجية من قبل النظام كانا ذات مرّة موضوع حديث له مع القيصر ألكسندر الثالث، الذي كان مقربًا إليه أكثر من القيصر الحالي نيقولاي الثاني. عندما حاول إبداء رأيه بضرورة انتهاج النظام لسياسة أكثر ليبرالية نحو اليهود، سأله ألكسندر الثالث بوجه عابس إن كان يشعر بتعاطف خاص مع هذا العرق. فردَّ على جلالته بقوله: "سأجيب أنا أيضًا بسؤال: هل تعتقد يا صاحب الجلالة أن بالإمكان الإلقاء بكل يهود الإمبراطورية في البحر الأسود؟ قد يكون في ذلك حل كامل وجذري للمشكلة اليهودية، لكن إن كان جلالته يسمح باحترام حق اليهود في الحياة، يتوجّب علينا أن نضمن لهم حياة إنسانية، والوسيلة الوحيدة لضمان ذلك هي في التخفيف التدريجي من القوانين المجحفة بحقهم".

لم يكن بالإمكان الاشتباه بـمحبة ويت لليهود؛ كان قلقه بالأساس نابعًا من الضرر الذي يلحق بسمعة الإمبراطورية الروسية نتيجة معاملتها لملايين مواطنيها اليهود. كان إحساسه بذلك يتعزّز كلما ارتقى على سلم السلطة، غير أن كل جهوده لإحداث تغيير في سياسة القيصر باءت بالفشل.

في صباح أحد الأيام، في ربيع عام 1898، كان قلق ويت على نفسه بالأساس. عندما عُيّن وزيرًا للمالية في 30 أغسطس 1892، وجد الخزينة خاوية واقتصاد روسيا في حال انهيار، مما اضطره إلى طبع الأوراق النقدية لصرف رواتب ضباط الجيش. منذئذ حاول بكل قواه إنقاذ الاقتصاد عن طريق تحويل روسيا من بلاد زراعية في معظمها إلى بلاد صناعية حديثة. وضع نصب عينيه خطتين: تغيير النظام النقدي، واعتماد معيار الذهب الذي كان متبعًا في معظم الدول الأوروبية، وإنشاء شبكة خطوط حديدية لخدمة الصناعة. كان يعلم أن تنفيذ خطته سيؤدي في المرحلة الانتقالية إلى معاناة ملايين الروس. وقد عانى الكثيرون الجوعَ نتيجة القحط، وأصبح تذمّر الشعب يهدد العرش. كان 80% من السكان فلاحين أميّين، اعتاشوا من الأرض. إن التغييرات المترتبة عن سياسته من شأنها أن تؤذيهم بشدّة. كان يعلم أنه سيواجه المعارضة الشديدة، لكنه رأى في تنفيذ الخطة مهمة وطنية وضرورة مُلحَّة.

في نهاية التسعينات كان بإمكانِ ويت النظر إلى إنجازاته بكل تفاخر: نجح في ملء الخزينة من عائدات المصادر الطبيعية، مثل الفحم، الحديد، الفولاذ، والتسويق الصحيح للقطن. كما تمكّن من زيادة الإنتاج الصناعي بشكل ملحوظ، وباشر بتنفيذ خطته الكبرى في مد شبكة سكة الحديد فوق اليابسة الواسعة. إن مدَّ ألفين وخمسمائة كيلومتر من الخطوط الحديدية في ظرف ستة أشهر، ليس بالأمر البسيط، قال ويت لنفسه بكلِّ رضى. أما الصناعات الخفيفة والزراعة فلم تكن بعد قد لاءمت نفسها لمواكبة التجديدات والتغييرات التي أحدثها، وقد كان ويت مُدركًا للثمن الذي تتكبده.

في عام 1898 حصل ركود اقتصادي شديد، ارتفعت البطالة وانهارت البورصة وانهار معها مصرفان. إن اعتماد روسيا لمعيار الذهب قد اضطر خمسة ملايين من المزارعين الروس إلى ترك الفلاحة والبحث عن مصدر دخل آخر. لقد عرف ويت بفكره الثاقب أن العدد الصحيح هو 25 مليون إنسان إذا أخذنا بالاعتبار نساءهم وأطفالهم.

لا يمكن أن يجد هذا الكراس ظروفًا أكثر ملاءمة لنشره، قال ويت لنفسه بقلقٍ والكتاب بين يديه. أما الغريب فهو مدى تشابه بعض البنود والفقرات في الخطة اليهودية للسيطرة على العالم ببعض ما ورد في خطة ويت؛ فاعتماد معيار الذهب كان إحدى الخطوات البارزة والجريئة التي اتخذها قبل سنة. حاول معارضوه عام 1897 أن يحبطوا مشروع القروض الأجنبية التي حاول ويت الحصول عليها، فروّجوا الشائعات بأن الاقتصاد الروسي غير ثابت وأنه على وشك الانهيار بسبب ربط العملة بالذهب. إنه لا يؤمن بالصُّدَف، لكنه صُعِقَ حين قرأ كلام الخطيب المجهول القائل في أحد البروتوكولات في الكراس: "لا بدَّ وأنكم توافقونني على أنَّ اعتماد معيار الذهب قد أدّى إلى انهيار دول كثيرة لم تستطع توفير الطلب للمال، خاصة وأننا قد نجحنا، بقدر ما أمكن لنا، أن ننقص من تزويد السوق بالذهب".

لم يؤمن ويت ولو للحظة واحدة بما يقرأ؛ كيف يمكن التحدث عن "العَظَمَة اليهودية" في حين يعيش قرابة خمسة ملايين يهودي في الإمبراطورية الروسية في ظروف مُزرية، ضحايا تمييز شديد يدعمه القانون، معرّضين يوميًا لخطر المجازر والذبح؟ صحيح أن اليهود في بلاد الغرب أصحاب تأثير ونفوذ، وهو بنفسه حاول الحصول على القروض من المصارف اليهودية، ولكن مؤامرة يهودية؟! إن كان للبنوك اليهودية ذلك التأثير العظيم، فلماذا توسّلوا إلى القيصر مرارًا وتكرارًا ليخفف ولو شيئًا بسيطًا من معاناة يهود روسيا؟ أدرك ويت أن رياح الثورة التي تهب على روسيا من حين لآخر ليست نتيجة مؤامرة شيوخ صهيون، وإنما

نتيجة مباشرة لعناد نظام يرفض التساهل، ويقضي أن يحيا ملايين المواطنين حياة العبودية. لقد قادته طبيعة استقامته إلى استنتاجٍ مفاده أنه إذا كان في صفوف الثوار يهود، فإنهم لم يصلوا إلى هناك كجزء من مؤامرة عالمية، وإنما لأن قدرتهم على الصبر قد نفذت، وكل ما يطلبونه هو أن يكونوا مواطنين متساوي الحقوق، لكنهم يعلمون أن لا احتمال لهم في بلوغ غايتهم هذه في ظل النظام الراهن.

من الذي كتب مجموعة السخافات هذه؟ وما هي غايته؟ تساءل ويت. إن منظمة المئات السود ليست بحاجة إلى وثيقة محبوكة كهذه من أجل تحريض الجماهير على ارتكاب المجازر، إذ تكفي بعض الخطابات التحريضية التي تتهم اليهود بكل شيء. فشعارها الوحشي "اضرب اليهود وأنقذ روسيا" قد أثبت نجاعته الفائقة، وأما مثل هذه الوثيقة المعقدة، التي استثمروا فيها جهد الكتابة المرهق، فلا بدَّ أن لأصحابها هدفًا آخر أكثر إثارة. مع ذلك كان من الواضح له أن كل من يقرأ البروتوكولات من اللاساميين الروس سيغدو على يقين من أن ويت قد تبنّى خطّة شيوخ صهيون الجهنمية. هل يُعقَل أن هذا الكراس لم يُكتب إلا من أجل إرباكه والإيقاع به، ولكي يثبتوا للجماهير أنه أداة بيد الحكومة اليهودية العالمية الخفيّة، تحرّكه البنوك اليهودية كدمية، ويساعدها هو، بشكل غير مباشر، على إخضاع العالم المسيحي لسلطان ملك إسرائيل؟

لعله مصاب بجنون العظمة؟ فكر للحظة، لكنه يدرك في قرارته أن أعداءه يمكن أن يفعلوا كل شيء، فهو يعرف وسائلهم وما اعتادوه من الزور والبهتان. يجب ألاّ يتغاضى عن هذا الكراس الذي تظهر فيه بوضوح آثار بصمات الأوخرانكا. إذا استطاع معارضوه إقناع القيصر بأنه خائن، وأنه يتعاون مع عناصر غريبة في تدبير المكائد للنظام الأوتوقراطي من داخل البلاط، فسيكون في خطر. لقد أشاعوا عنه فيما مضى شيئًا من هذا القبيل، لكنهم لم يلجأوا أبدًا إلى استعمال وثيقة كهذه. كان يعلم أن

القيصر لا يستلطفه، وإنما يستغله بدواعي الضرورة، وكانت العلاقات بينهما في غاية الحساسية، ولم يكن ثمة احتمال في تحسن الأجواء بينهما. لكن شخصيته القوية وقدراته المثبتة وحكمته السياسية ضمنت له مكانة خاصة ومرموقة في البلاط الإمبراطوري ونظامه، وكم من مرّة أنقذ القيصر من مغبّة الحماقات السياسية! لكنه في قرارة نفسه كان على يقين من أن القيصر يحسده على ذكائه الحاد واستقلالية رأيه. يخيَّل له أحيانًا أن القيصر يشعر في حضرته بالضعف وفقدان الحيلة!

بعدَ مضي أسابيع قليلة قدّم له المحامي شلوسبرغ تقريره الذي أكد فيه بشكل لا يقبل الجدل أن لا وجود لما يسمّى "المؤامرة اليهودية" إلاّ في العقول المحمومة للمعادين للسامية، وأن الوثيقة ليست سوى تزوير سافر، وأن كبار المسؤولين والنبلاء ينبذونها ويتجاهلونها بشكل قاطع. وأضاف بقوله إنه رغم بعض الاشتباهات، إلا أنه لا يستطيع أن يحدّد متى كان التزوير ومن الذي قام به.

زاد تقرير شلوسبرغ من قلق ويت، ذلك لأن المحامي اليهودي يؤكد المخاوف التي كانت تساوره من أن الوثيقة كان لها هدفان: التحريض على اليهود، والكيد لوزير المالية ويت. وقد انضمَّ شلوسبرغ إلى الوزير في رأيه بأنه لم يكن من قبيل الصدف وجود التشابه بين وسائل وردت في الخطة اليهودية ووسائل ينتهجها ويت في إحداث ثورته المالية والزراعية. لا يُستبعَد إذًا أن يكون ويت الهدفَ الرئيسي للمزوّرين، وما اليهود إلا أداة لبلوغ الهدف، إذ أنه لا يمكن إلصاق تهمة بوزير روسي أشدّ وأعظم من كونه موجَّهًا بيد اليهود لخدمة مآربهم.

لكن ويت لم يتّخذ أية خطوة عملية ضد البروتوكولات، حيث أنه كان منشغلاً بشؤون المملكة. لم يسمع عن البروتوكولات بعد ذلك، إلا حين ظهرت مطبوعة على صفحات جريدة "زناميا هدغل" التي حرّرها باقــل كروشبان Pavel Krushevan .

كروشبان وزمرة رفاقه

"أنا شخصيًا ليس عندي شيء ضد اليهود"، قال الوزير ڤــون بليــڤ Von Pleve لرئيس لجنة الوزراء، "أعلم أن سياستنا في هذا الشأن خاطئة تمامًا، غير أني يجب أن أرضي الأمير سرجي ألكسندروفيتش وجلالة القيصر". ما هذا الاعتراف المفاجئ؟ فكّر ويت، يأتي من رجل أرتُكبت في حينه، وبمبادرته، المجازر الرهيبة، وبالأخص في الأحياء اليهودية، وهو مؤلف الشعار "يجب أن نغرق الثورة بالدم اليهودي". كان على علم بأن الجماهير لم تبادر إلى شيء، وأن الأمور قد خطط لها من فوق بمنتهى الدقة وتم تنفيذها بحسب تعليمات واضحة. كانت كل عملية في روسيا بحاجة إلى بركة النظام أو إلى مصادقة القيصر الرسمية أو الإيحائية. إن منظمة "المئات السود" الإرهابية، التي أطلقَ عليها هذا الاسم نظرًا لعدد أعضائها القليل في البداية، قد حظيت بدعم القيصر وبالحماية المطلقة من البلاط الملكي. نشأت هذه المنظمة في عهد ألكسندر الثالث من أجل مقاومة المنظمات الثورية، وقد اعتبر أعضاؤها أنفسهم وطنيين حقيقيين، حماة المملكة والكنيسة والتقاليد الروسية. ازداد عدد أعضائها مع الزمن، وتحولت إلى حزب معترف به تحت اسم "الروس الحقيقيون"، تمكن الحزب عام 1907 من إيصال ممثليه إلى المجلس التشريعي "دوما". كان قادة المنظمة من السياسيين المغامرين عديمي الضمير، وقد استغلوا نزعة الجمهور الهائج نحو العنف، وتسببوا بقتل العديد من الراديكاليين والليبراليين واليهود، وبارتكاب سلسلة من المجازر الوحشية بمختلف الطوائف. كل من أبدى معارضة لسياسة القيصر اليمينية، حتى لو كان من أنصار الملكية وتجرّأ على تأييد الليبرالية في السياسة الداخلية، كان يُتَّهمُ بالعمالة لليهود.

كان باڤــل كروشبان أحد قادة منظمة المئات السود البارزين، وكانت جريدة "زناميا هدغل" لسان حال المنظمة.

لم يكن لأية مجزرة من المجازر التي حصلت في روسيا صدى عالمي كتلك التي حصلت في كيشينيف، عاصمة بيساربيا، في عيد الفصح عام 1903. أزهقت أرواح 45 إنسان، علاوة على مئات الجرحى من الرجال والنساء والأطفال. هُدمَت مئات البيوت، نُهبت المتاجر الكثيرة، انتهكت حرمات الكنس اليهودية، مُزِّقت التوراة ومُرِّغَت بالوحل. كتب الشاعر بياليك عن هذه المجزرة: "لم يعرف الشيطانُ بعدُ الثأرَ من طفلٍ صغير". ارتعد العالم كله. إن الحملة الدعائية التي سبقت المجزرة، والاتهامات التي لا أساس لها والتي عادلت تلفيقة الدم، والهجمة المنظمة بدقة، لم تترك لأحد مجالاً للشك بأن المجزرة قد تم الإعداد لها على يد جهات رسمية، وأنها حصلت مُسبقًا على بركة البلاط الملكي. لقد تنبّه ويت لحقيقة أن الادعاءات حول "المؤامرة اليهودية للسيطرة على العالم" قد احتلت مكانًا مركزيًا في الدعاية التي سبقت المجزرة، وقد علم أنه أثناء عملية غسل أدمغة الذين نفّذوا المجزرة تم استعمال المستند المسمّى "**خطبة الحَبْر**". كذلك استغلّت البروتوكولات في الدعاية التحريضية. بعد مضي أربعة أشهر على المجزرة، واعتبارًا من 28 أغسطس وحتى 7 سبتمبر، نشرت جريدة زناميا سلسلة مقالات احتوت على فصول من **بروتوكولات حُكماء صهيون**.

اعتقد الكثيرون أن ما لجأ إليه كروشبان من استغلال لخطبة الحَبْر كان من المفروض أن يشكّل إنذارًا، فقد تبيّن أن الادعاء بوجود مؤامرة يهودية لم يولد مع البروتوكولات، فقبل ذلك بثلاثين عامًا، في السبعينات من القرن التاسع عشر، نُشر في مدن روسيا كراس تحت عنوان: "**في المدافن اليهودية في براغ**"، وهو فصل في كتاب عنوانه "بياريتس" (Biarritz)، رواية في ثلاثة عشر مجلدًا، بقلم الكاتب جون رتكليف (Sir John Retcliff)، الاسم الأدبي للكاتب الألماني هرمن غوطشه، وقد رأت الرواية النور في ألمانيا عام 1868. لم يكن الهدف منها توثيق الحقائق التاريخية، فمثلها مثل باقي الروايات، تحدثت عن قصة من إنتاج خيال الكاتب. كان لغوطشه مبرر معقول للتستر

خلف اسم مستعار. كان سابقًا موظَّفَ بريد في ألمانيا، وقد فُصل بعد انكشاف تزييفه لرسائل في سبيل تجريم القائد الديمقراطي Benedict Waldeck بالتآمر على قتل الملك وإلغاء الدستور. اعتمادًا على خياله الخصب وموهبته في الكتابة، اختار غوطشه العمل في مجال الصحافة والكتابة، وفي سبيل الاحتياطات الوقائية اختار لنفسه اسمًا إنجليزيًا. في أحد الفصول الخيالية صوّر غوطشه تلفيقة قديمة تقول إن يهود العالم متفقون ما بينهم وموحَّدون نحو هدف التسلط على العالم عن طريق حكومتهم الخفيّة. مُرخيًا لخياله العنان، يصف غوطشه حدثًا دراميًا غريبًا يحصل في منتصف الليل، في المدافن القديمة الكائنة في مركز الربع اليهودي في مدينة براغ. واحدًا إثر واحد، يحضر ممثلو الأسباط الاثني عشر، بما فيهم الأسباط العشرة الضائعة، متدثرين بالعباءات البيضاء الطويلة، يحيطون بقبر أحد الأحبار، في لقاء تقليدي يُعقد مرة كل مائة عام. يخططون لتنفيذ مرحلة جديدة من مُخطّطهم للسيطرة على العالم المسيحي، ويقدمون التقارير عن التقدم الذي أحرزوه في المائة عام المنصرمة. يتحدث كل واحد بدوره عن تجميع الذهب بأيدي اليهود، عن ترسيخ قواعد السيطرة على البورصة، عن التأثير المتزايد على جماهير العمال في مختلف البلاد، عن وسائل الإعلام وعن المناصب الرئيسية في الحقل الاقتصادي. يفصّلون برامجهم للسنوات المائة المقبلة، التي تشمل التآمر على سلطة الكنيسة، وتشجيع الثورات ضد الطبقات الحاكمة، والتغلغل في مراكز السلطة، والسيطرة التامة على الصحافة. يتخلل اللقاء أيضًا التداول في خطة ممكنة لإذلال النساء المسيحيات وهتك أعراضهن.

بعد انتهاء الممثل الأخير من خطابه، يقوم الجميع بأداء اليمين أمام العِجْل الذهبي، الذي يبرز فجأة من قبر الحَبْرِ داخل كرة من النار، بينما يرفرف فوقهم الشيطان، يخاطبهم بصوت كأنه صادر من القبر، فيسجدون له راكعين على ركابهم. أما القاصُّ، الشاهد على هذه المسرحية الغامضة، فإنه يختبئ خلف أحد شواهد القبور.

حين قمتُ بزيارة للمدافن اليهودية في براغ في موعد لاحق، وتذكَّرتُ المسرحية التي وصفها غوطشه، ارتعدت فرائصي. لقد اختار مكانًا مناسبًا ليطلق العنان لخياله الدرامي. يمتد هذا المكان، الذي يستقطب العديد من السائحين، على مساحة صغيرة بين البيوت في الربع اليهودي الذي شكَّلَ "غيتو" ليهود براغ. نظرًا لعدم توفر مكان آخر للدفن، فقد تم دفن الأموات على طبقات. ولكي يحظى كل قبر بشاهد، تصطف الشواهد متلاصقة بكثافة تحول دون المرور بينها. قلت في نفسي: لم يكن عبثًا اختيار غوطشة لهذا المكان ليطلق العنان لوصفة الخيالي والشيطاني.

هذا الفصل الخيالي من كتاب غوطشه اعتمده المعادون للسامية في مختلف البلدان، وتم عرضه للجماهير المحمومة عديمة الرشد، المؤمنة بالسخافات، على أنه حدثٌ قد وقع بالفعل. في عام 1872 تم نشر الفصل في مختلف مدن روسيا بصيغته الأصلية وبترجمة إلى الروسية، وفي عام 1881 تم تجميع خطابات ممثلي الأسباط الأثني عشر في خطاب واحد، بدعوى أنه خطاب ألقاه حبر من لحم ودم في اجتماع يهودي سرّي. وادّعوا أن خبيرًا اسمه السير جون ردكليف (حتى اسمه كتبوه خطأ)، يضمن مصداقية المستند.

خطاب الحبر، كما يُدعى المستند من الآن فصاعدًا، تم نشره في مختلف بلاد العالم، وبعد ترجمته للروسية حظي بانتشار واسع في مدن روسيا. شكَّل المستند تمهيدًا لبروتوكولات حُكماء صهيون التي قدّمت "الخطة اليهودية" المحبوكة بمزيد من التفصيل وبلغة تصويرية آسرة.

عشية المجزرة في كيشينيف قام كروشبان، وزمرة من رفاقه في المئات السود، بتوزيع خطاب الحبر، بهدف إثارة الجمهور، وبذلك تم تمهيد الأرضية لنشر **بروتوكولات حُكماء صهيون** بعد أربعة أشهر في جريدة زناميا.

لكن الجرائد لا تبقى طويلاً، ونطاق توزيع جريدة مثل زناميا كان محدودًا. في سبيل تخليد الفرية كان لا بدّ من إعلام أوسع وأرقى. حان الوقت لكشف "المؤامرة اليهودية" أمام الجمهور المتنور، قارئ الكتب. بعد مضي سنتين تم نشر البروتوكولات للمرة الأولى في كتاب بعنوان "**الكبير ضمن الصغير**"، من تأليف سرجي نيلوس المعروف بتعصبه الديني.

الطريق ممهَّد لنيلوس

بينما تنزهنا في الحدائق الملكية لقصر تسرسكويا سلاو رأيتُ بعينَيّ خيالي صورة سرجي نيلوس قبل مائة عام، يتنزّه في السبل ذاتها، برفقة رفيقة الإمبراطورة إلينا أوزروڤا Elena Ozerova. ربما أنه عرض عليها الزواج في ظل أحد التماثيل المنتصبة أمامنا، قال بوريس مبتسمًا. يكادُ لا يُصَدَّق، قلت في نفسي، كيف أن مصير كتاب صدر بكل اللغات، ويقال إن انتشاره لا يقلُّ عن انتشار التوراة، تأثر بسلسلة أحداث لم تكن لها أية علاقة بالكتاب المذكور. يصعب التصديق، قلت لبوريس، أن هذه الوثيقة المنكرة قد خرجت إلى النور نتيجة تسلسل أحداث غريبة، لعب الدور الرئيسي فيها أحد المتزمتين دينيًا، بدعمٍ من أميرة مقربة من البلاط، حاولت شلَّ تأثير ساحر فرنسي بسَطَ تأثيره السحري على الإمبراطورة عن طريق تنويمها المغناطيسي في لقاءات ليلية.

وفيما نحن نتمشّى بارتياح في ممرات الحديقة، حاولنا أن نتهيّأ ماذا كان يحدث لو لم... فلو لم تقدّم الأميرتان من مونت نيغرو الساحر الفرنسي فيليب إلى الزوجين الملكيين، لما كان هناك أي داعٍ يدعو الأميرة إليزابيث بدوروفنا لتكون الوسيطة بين سرجي نيلوس وابنة أخ ستيبانوف إلينا أوزروڤا، ولكانت الوثيقة المدعوة ***بورتوكولات شيوخ صهيون*** *تغوص في لجّة النسيان وتختفي من الوجود، كما اختفت تزييفات أخرى، مثل وصية*

الإمبراطور بطرس الكبير ومذكرة الجنرال الياباني تناكا، التي احتوت هي أيضًا على خطط للسيطرة على العالم.

صدرت وصية بطرس الكبير للمرة الأولى في فرنسا عام 1812 على يد مسؤول في وزارة الخارجية الفرنسية اسمه لسور Lesur، في أوج الحملة ضدَّ روسيا. وقد نُسِبت كتابتها إلى جنرال بولوني يُدعى سوكولنيتسكي، قَدِمَ إلى فرنسا كلاجئ وحقّق سيرة عسكرية مُدهشة، وبحُكم اشتراكه في الإعداد للهجوم العسكري على روسيا، فقد كان ابن بيت في قصر نابوليون. ذات يوم أطلعَ الإمبراطور على مسوّدة وثيقة، كما لو كانت وصية القيصر بطرس الكبير. كانت بحوزته، على حد قوله، منذ سنوات وقد توصّل إليها بعد بحث شامل. استُقبلت الوثيقة بحرارة في فرنسا، وفي سنوات التسعينات استخدمها إدوارد درومونت كثيرًا، كذلك استخدمها النازيون في زمن لاحق في حملتهم الدعائية ضد روسيا؛ حتى عام 1920 ادعى النازيون أن الروس يطمعون بالسيطرة على العالم، لكنهم بعد ذلك استبدلوا وصية بطرس الكبير ببروتوكولات حُكماء صهيون.

مذكرة الجنرال تناكا، بخصوص السيطرة اليابانية على أوروبا، أعدّت، كما يقال، عام 1927، عندما تم تعيين تناكا رئيسًا للحكومة ووزيرًا للخارجية اليابانية. في سنة 1932 تم اكتشاف الزيف على يد م. ينوكاي M. Ienoukai في تقديمه لكتاب "اليابان تتحدث إلى الأزمة الجينو- يابانية" للكاتب كاواكامي M.K.K. KAWAKAMI

حين تم أخيرًا اكتشاف زيف هاتين الوثيقتين، اختفتا من الوجود، كما كان مصير الوثيقة التي عُرِفَت باسم مونيتا سكريتا Monita Secreta، وهي تزييف آخر هدف إلى تجريم الطائفة اليسوعية. احتوت الوثيقة تعليمات سرية، قيل إنها صادرة عن رؤساء المذهب اليسوعي، تأمر أبناء المذهب باستعمال الوسائل الميكافيلية المخزية ضد معارضيهم ومناهضيهم. اضطر حتى

معارضو اليسوعية، بعد زمن، إلى الاعتراف بزيف هذه الوثيقة، واختفت هي الأخرى عن المسرح.

*وأما **بروتوكولات حُكماء صهيون**، أكثر التزييفات بروزًا، فقد كُتبَ لها البقاء لأنها وقعت على تربة خصبة، تربة اللاسامية المنغرسة عميقًا في حضارات وتقاليد شعوب العالم.*

أعجِبَ القيصر نيقولاي الثاني بالبروتوكولات لدى القراءة الأولى، وكعادته سجَّل في الهوامش الثناء على الوثيقة التي، بحسب رأيه، أظهرت البرنامج اليهودي بدقة. إنَّ يدَهُم المُوجِّهة المدمّرة محسوسة في كل المجالات، كتب، ثم أفصح أنه من الآن ستكون هذه الوثيقة الدليل المرشد في تحديد سياسته. لكن وزير الداخلية، ستوليفون، هدَّأه. كان اتحاد الشعوب الروسية، وهو تنظيم يميني لاسامي، قد استأذن القيصر باستعمال البروتوكولات في حملة لاسامية واسعة النطاق، غير أن ستوليفون الذي شكَّك في صحة هذه الوثيقة الغريبة، عيّن بمبادرته باحثَين من وحدة الجندارمة، وأمرهما بتقصّي الموضوع جذريًّا، وبعد طول انتظار، رفعا إليه تقريرهما بأن الوثيقة زائفة. كانت بادرة نادرة من القيصر، إذ سجّل ملاحظة هامشية أخرى: "انفضوا أيديكم من البروتوكولات، يجب ألاّ نعمل بالوسائل الباطلة من أجل الغاية السامية".

بهذا كان من المؤكد أن تنتهي سيرة البروتوكولات لو لم تنجح أوزروفــا بمساعدة الأميرة إليزابيث بالحصول على ترخيص من لجنة الرقابة بنشر كتاب نيلوس، الذي احتوى نص البروتوكولات الكامل، الكتاب الذي سيغدو المصدر الأصلي لكل إصدارات البروتوكولات التي نُشِرَت في مختلف أنحاء العالم وبكل اللغات.

إن تصرف الإمبراطورة ألكسندرا قد أقلق أختها جدًّا. فترت بينهما العلاقات إلى حد بعيد منذ تتويجها. كانت إليزابيث، أسوة بالكثيرين في البلاط الإمبراطوري، تراقب التحولات الحاصلة

لدى الإمبراطورة التي أحاطت نفسها بالسيدات المتزمتات عديمات الضمير، ممن يمارسن السحر والشعوذة، مستغلات تأثيرهن عليها من أجل ترسيخ مكانتهن في القصر. لكن صبرها نفذ بعد ما حدث في الأول من سبتمبر1902، فقرَّرت أن عليها أن تفعل شيئًا.

في ربيع عام 1902 غمرت أمواج الفرح قلب القيصر ورجال القصر. لقد حملت القيصرة من جديد، وراح الكل يتوقع ولادة ولي العهد الذي سيتابع سلالة آل رومانوف. وكان الكل يأمل أن يكون في ولادة ولي العهد الشفاء للقيصرة ألكسندرا والخلاص من غرقانها في الغيبيات الدينية. كانت قد ولدت لزوجها أربع بنات، لكن ما دامت لم تلد ولي العهد، فإنها تشعر بالذنب وبأنها أخفقت في مهمتها الأساسية. لا بد أن تلد هذه المرة طفلاً ذكرًا. هذا ما يؤكده الساحر فيليب، مستشار القيصرة، الذي ينزل في غرفة مجاورة لغرفتها. إنها تثق به إلى أبعد الحدود، وقد أخبرت زوجها أن فيليب أعطاها حجابًا فيه جرس صغير، يرنُّ لينبهها إذا اقترب منها الأشرار ممن يبتغون إيذاءها!

في بداية الصيف تزايد التأثر في أرجاء القصر، إذ كان بإمكان الجميع أن يلاحظوا أن جسد القيصرة آخذ في التكوّر، وقد بدأت ترتدي الثياب الفضفاضة. لم يعد الناس ينتقدون تغيبها عن الاحتفالات التي يحييها القصر في المناسبات. عمّا قريب، قال بعضهم لبعض، سيدوّي صوت المدافع في قلعة بتروبابلوسك، حسب التقاليد من غابر الأزمان، معلنًا ولادة ولي العهد. حبسَت روسيا كلّها الأنفاسَ بانتظار الحدث. تم استدعاء البروفسور أوت، مولّد الإمبراطورة، والطاقم المساعد، للنزول في قصر بطرهوف، ليكونوا جاهزين عندما تحين الساعة المنظورة. غير أن القيصرة احتبست في غرفتها، ورفضت الفحص الطبي بحجة أنها ستستدعي الطبيب في اللحظة المناسبة. وإذ تصاعد التوتر في القصر وطال الانتظار، قال الطبيب للقيصر إنه لا يجب الانتظار أكثر، واستأذنه ليقوم بفحص القيصرة التي رضخت

أخيرًا لرغبة زوجها. بانتهاء الفحص خرج البروفسور من غرفة القيصرة وعبارات الصدمة تعلو وجهَهُ. كيف يُخبر القيصر بالحقيقة؟ ليس هناك ولي عهد منتظَر. لم تكن ألكسندرا حاملاً أبدًا، كانت تلك حالة نموذجية من حالات الحمل الوهمي.

نشرت الصحف العالمية أن هذا الأمر الغريب هو نتيجة تنويم مغناطيسي أجراه فيليب على القيصرة في الجلسات الليلية الطويلة. أصبحت ملكة روسيا نكتة على ألسن الناس، لكن القيصر المولّه لم يشأ أن يوجّه إليها أية ملامة، بل إنه بثَّ تعليماته لمن حوله: يجب عدم المساس بفيليب! همدت الأصوات الناقدة ظاهريًا، لكن وراء الكواليس والأبواب المغلقة، كان الكل يتهامسون ويبحثون عن وسيلة لتحرير الزوجين الملكيين من السحر المتسلط عليهما.

بدت الفكرة التي خطرَت لإليزابيث قابلة للتنفيذ. قرّرت أن تحصل لنيلوس على وظيفة المعرّف الرسمي للامبراطور، ليحتل مكان فيليب في القصر. يجب أن تحرر أختها من كابوس هذا الساحر، قالت لأصدقائها المقرَّبين. لقد قرأت كتاب نيلوس "**الكبير ضمن الصغير**" الذي صدر في السنة السابقة، وقد خاطب الكتاب أعماق أحاسيسها الدينية. كم كان مجديًا عملها في إدخال إيلنا أوزروفـــا إلى القصر لتكون رفيقة القيصرة. بقي عليها الآن أن تتوسّط بينها وبين نيلوس، وعندها سيكون دخوله إلى القصر مضمونًا. كانت شديدة الندم لعدم إصغائها لأحاسيسها التي أنذرتها منذ زمن بعيد بشأن العلاقات غير الطبيعية بين أختها وبين الأميرتين من مونت نيغرو.. مع ذلك، فهي تأمل أن الوقت لم يفتها.

أميرتان من مونت نيغرو وساحر واحد من فرنسا

ميليتسا وأنستازيا، ابنتا الأمير نيقولاي من مونت نيغرو، أنهتا دراستهما في معهد سمولني الراقي، وكما خطط والدهما من قبل، تم تقديمهما الآن رسميًّا إلى المجتمع الراقي في بطرسبورغ. كبادرة حسن نية من القيصر نحو مونت نيغرو، على ما أبدته من المودة نحو روسيا، رفع ألكسندر الثالث كأسه، في مأدبة رسمية أقيمَت في القصر، وشرب نخب الأمير نيقولاي، داعيًا إياه "صديقي"، مُغدِقًا على البنتين نظرة اهتمام، كان فيها ما يكفي لضمان زواجهما بأبناء العائلة المالكة. وبفضل المزيد من مساعي والدهما، تم زواجهما بأخوين، أميرين عاديين، من أبناء عم القيصر. كانت تلك بداية الطريق للأميرتين اللتين احتلتا مراكز قوة في المملكة.

بدأت خطواتهما الأولى إثرَ وفاة القيصر، وبعد زواج الأميرة ألكسندرا من ولي العهد نيقولاي. كانت ألكسندرا غريبة في بطرسبورغ، ومراسيم التتويج ستتأخر مدة سنتين من أجل الإعداد اللائق والدقيق لها. في هذه الفترة عاملتها القيصرة الأرملة وبنات الأسرة المالكة باحترام، ولكن ببرود. أخذت الأميرتان، من خلال رؤيتهما للمستقبل المنتظر، تتزلفان لألكسندرا وتتملقانها، تعربان عن محبتهما بشتى الوسائل، تخُرّان لها كما لو كانت قد تُوِّجَت، وتخدمانها بتفانٍ وإخلاص بلا حدود. حين اكتشفت ألكسندرا أن الأميرتين تمارسان الروحانيات وتميلان إلى الغيبيات، قربتهما منها أكثر وأصبحتا أقرب الصديقات إليها. هاتان الأميرتان هما اللتان وصلتا ألكسندرا بمختلف السحرة والمشعوذين، وهما من أدخلتا إلى البلاط الإمبراطوري الممارسات الغيبية التي كانت شائعة في أوساط الطبقة الراقية في المجتمع الروسي في تلك الأيام، وعن طريقهما تم الوصل بين القيصرة والفرنسي فيليب فـــاشات نيزير.

كان فيليب في الماضي أجيرًا لدى بائع لحوم في ليون. آمن منذ حداثته أنه يملك قوة خارقة. عندما كان في الثانية والثلاثين من عمره فتح عيادة خاصة، عالج فيها المرضى بواسطة سوائل مختلفة من شأنها تنشيط قواهم وتحسين حالتهم. وسرعان ما غصّت غرفة الانتظار بالمرضى الذين بُهروا ببساطته وتواضعه، ورقّة حديثة وإخلاصه في تقديم العلاج. أشاع الأطباء في ليون إنه طبيب مشعوذ، وقد أدانته المحكمة مرتين وفرضت عليه الغرامات، لكن ذلك لم ينقص من سمعته الحسنة، بل إن عيادته في شارع تت- دور (*Tete-d'or*) رقم 35، التي كانت في السابق تغص ببسطاء الشعب، أصبح يرتادها النبلاء، وبينهم برز عددُ سيدات الطبقة العليا، حتى أن رجال المهن الحرّة قصدوه لطلب العلاج والعون. وقد راق لأنظار الجيران مرأى سيدتين روسيتين أنيقتين بين المترددات على العيادة، وتناقلوا بالهمس أقوال الطاهية لدى فيليب، التي كانت تباهي بأن الاثنتين تنتميان إلى العائلة المالكة.

وهاتان الأميرتان من مونت نيغرو هما مَن قرّرَ تقديم فيليب إلى القيصر وزوجته، أثناء زيارة رسمية لهما في باريس حيث تم استقبالهما بحفاوة بالغة، فتم إرسال العميل الروسي السرّي مانويلوف Manasevich Manuilov خصيصًا من باريس إلى القصر الذي خُصص للضيفين الكبيرين في كومبيان Compiegne، لكي يرافق فيليب.

قَبْلَ تقديم فيليب للامبراطور، التقاه مانويلوف في مدخل القصر واستجوبه ساعة طويلة. في التقرير الذي قدمه لرؤسائه وصفه كرجل ذي شاربين، وجسم مكتنز، يرتدي الملابس السوداء البسيطة، لكنها نظيفة وخالية من كل شائبة. وقف هناك خافض العينين منتظرًا دون حراكٍ. بدا للوهلة الأولى كأستاذ وديع في حلّة العيد، غير أنه حين رفع عينيه الزرقاوين وصوَّبهما، ظهرت حدّة نظراته التي اختبأت جزئيًّا خلف حاجبين شبه مغلقين، ووَمَضَتْ من برهة لأخرى ببريق غريب. تدلّى من عنقه حجاب

صغير داخل غلاف حريري أسود، رفض بأدب الإفصاح عمّا يحتويه.

هذا اللقاء الذي نظمته أميرتان من مونت نيغرو، كان له فيما بعد عظيم الأثر على البلاط الإمبراطوري في روسيا، وقد شكّل بطريقة غير مباشرة، حلقة في سلسلة الأحداث التي أدت إلى نشر **بروتوكولات حُكماء صهيون.**

وكما توقعت وتمنَّت الأميرتان، فقد بُهِرَ القيصر وزوجته بسحر الطبيب الفرنسي المشعوذ، ولم يسع فيليب، ابن الإحدى وخمسين سنة، أن يرفض عرضًا سخيًّا بالانتقال للسكن في قصر تسرسكويا سلاو، حيث وُضع تحت تصرفه منزل فخم. إنَّ أجيرًا في متجر للحوم، ذا ماضٍ جنائي في وطنه، لم يكن ليحلم بأكثر من ذلك.
لقد أُخِذَت القيصرة بسحر فيليب، فسيطر عليها بلا كوابح، من خلال تنويمها مغناطيسيًا، هامسًا في أذنيها "التنبؤات". كان الروس عمومًا في ذلك الوقت مولعين بالسحر والدجل والأمور الروحانية والغيبية، وحظي المشعوذون والمنجّمون على ضفاف نهر النيـــبـــا بالتقدير والاحترام. فلا غرابة أن يكون الفرنسي فيليب قد حظي، خلال فترة زمنية قصيرة، ليس فقط برعاية القيصرة له، وإنما بثقة القيصر الذي راحَ يستشيره حتى في الشؤون السياسية.

إن إيمان فيليب المطلق بمدى تأثيره على القيصر جعله يختبره بمطالب كثيرة، كانت أحيانًا في غاية المبالغة، وكان من ضمنها طلب منحه لقب طبيب رسمي. نزولاً عند رغبة القيصر، اضطر ويت مُكرَهًا، أن يتوجه إلى وزير الحربية كوروبتكين، طالبًا تعيين فيليب طبيبًا رسميًا لقوات الجيش الاحتياطي. وبالتالي فقد اضطرّ قسم الطب في الأكاديمية العسكرية، رغم ما في الأمر من تجاوز صارخ للقانون، أن يمنح فيليب سرًّا درجة طبيب. بذلك حصل فيليب أيضًا على رتبة تعادل رتبة المستشار السياسي. لكن

هذا السرَّ قد تسرَّب كباقي أسرار المملكة، وبات الناس في المجتمعات الراقية يتفكّهون بحكاية "القديس" فيليب الذي أوصى لنفسه لدى الخياط على زيٍّ الطبيب العسكري الكامل.

عندما زالت أخيرًا النعمة الملكية التي أُغدقَت على فيليب، اضطرَّ للعودة إلى فرنسا، لكنه لم يُدرك بالطبع أن محض وجوده في القصر الإمبراطوري الروسي قد ساهم بشكل غير مباشر في إصدار **بروتوكولات حُكماء صهيون**. انتهت أيامه في شقة بائسة في نزل قروي في آربريسل Arbresle، حيث وافته المنية في الثاني من أغسطس عام 1905، أي قبل ثلاثة أشهر من إصدار **بروتوكولات حُكماء صهيون** ضمنَ الطبعة الثانية من كتاب نيلوس. يبدو أن إليزابيث قد فشلت في مسعاها لإدخال نيلوس إلى القصر، لكنها نجحت في التوسط لزواجه من إيلنا أوزروفـا، وبقيت تغدق عليهما نعمها. كما أنها، من خلال استغلال تأثيرها ونفوذها في أوساط النظام، قد ساعدت إيلنا أوزروفـا في الحصول على مصادقة لجنة الرقابة لإصدار الطبعة الثانية من كتاب "الكبير ضِمْنَ الصغير" الذي تضمّن النص الكامل لبروتوكولات حكماء صهيون، وذلك رغم الفيتو السابق للامبراطور الذي لم يكن متفرغًا لمثل هذه الأمور في تلك الأيام. في 28 سبتمبر 1905 قرّرت لجنة الرقابة رفع الحظر الذي ألقي في الماضي على نشر البروتوكولات، وأصدرت الترخيص لنيلوس بذلك. كان أعضاء اللجنة قد أعربوا عن شكهم بصحة البروتوكولات، غير أن رئيس قسم الصحافة حثّهم على الاستجابة دون تلكؤ لرغبة مرافقة صاحبة الجلالة الإمبراطورة.

وصل الترخيص إلى يدَي أوزروفـا عشية أحد الأيام الصعبة للقيصر. على ضوء الإضراب العام الذي أعلنه العمال، أذعن القيصر، تحت إلحاح مستشاره، فوقّعَ براءة أكتوبر التي منحت المواطنين حقوقًا دستورية. لكن ذلك جاء متأخرًا، فقد بات حتميًا حصول الثورة الروسية الأولى (1905)، وقد اتهمت "منظمة المئات السود" اليهود بالتسبب بها. كانت الأرضية ممهدة كما

يليق، وفي السادس عشر من أكتوبر جرى اقتباس البروتوكولات في المواعظ العامة التي ألقاها فلاديمير، مطران موسكو، كما شملتها، حسب تعليماته، الخطب والمواعظ في 368 كنيسة في أرجاء روسيا.

كان الوقت أيضًا مُهيئًا لمجازر جديدة. وُصِفَت الثورة بأنها جزء من المؤامرة اليهودية. لم يكن بمقدور نيلوس أن يتوقع رواجًا أوسع لكتابه، فالطبعة الأولى التي صدرت عام 1901 كاد يطويها النسيان، إذ أن قلّة من القراء فقط اهتمّت بمجيء المسيح الدجّال، وأما هذا الإصدار الجديد، فإنه لم يحتوِ على النص الكامل لبروتوكولات حكماء صهيون فحسب، بل احتوى أيضًا وصفًا تفصيليًا بكيفية "اكتشافها"، وقد انتشر لاحقًا في العالم كله بصفته مرجعًا أصليًا، وبات من أكثر الكتب مبيعًا على المستوى العالمي.
لم يخطر ببال أعضاء لجنة الرقابة أن الترخيص الذي منحوه لنشر كتاب نيلوس المشكوك بأمره، سوف يجعله مع الزمن إنتاجًا عالميًا شهيرًا يحظى بتقدير وإعجاب الجماهير المعادية للسامية في أنحاء العالم.

سرجي نيلوس

كان زواج نيلوس من إيلنا أوزروفـا أسعد حدث في حياته. لكن إيلنا، ابنة سفير روسيا الأسبق في اليونان، وشقيقة الجنرال ميجور دافيد ألكسندروفتش أوزروف، المسؤول عن قصر أنيتشكوف، ومرافقة الإمبراطورة، كان بإمكانها أن تصبو إلى زواج أفضل. لم يكفِ أنها وجدت نفسها زوجة لزوج من نوع غريب وغير متّزن، وأب لولدٍ ولدتهُ له امرأة غيرها قبل زواجه، بل قد اضطرت أن تتحمّل في بيتها عشيقته السابقة، نتاليا كومروبسكايا، التي جاءت لتسكن معهم. وإيلنا هي التي فتحت لنيلوس أبواب بيوت أبناء المجتمعات الراقية في بطرسبرغ، لكنها، ورغم أن كل ساكني البيت اعتاشوا من المخصص الذي

تلقته من القصر، فإنها لم تتجاوز أبدًا حدود الزوجة المطيعة، وكانت دائمًا تسير على بعد خطوة وراء زوجها المتسلط.

حين التقت به كان في الأربعين من عمره، بلا عمل أو مصدر دخل، وبغير برنامج واضح للمستقبل، وإن كانوا قد تنبأوا له بمستقبل زاهر في حداثته. كان ذا ثقافة واسعة، أنهى دراسته في كلية الحقوق بامتياز في جامعة موسكو، أجاد اللغة الألمانية والإنجليزية والفرنسية، وكان مُلمًّا بالآداب الأجنبية الحديثة. كان أحد أجداده أسير حرب سويدي استقرّ في روسيا، وكانت عائلته تملك عزبة في مقاطعة دريل Drell وتحظى بمكانة محترمة. كان أخوه ديمتري رئيسًا للمحكمة اللوائية في موسكو، وأما سرجي الصغير فقد عُين حاكمًا محققًا في منطقة القفقاز، قرب الحدود الفارسية. المنصب الرفيع والعائدات من الأراضي ضمنا له دخلاً جيدًا ومستقبلاً آمنًا ومكانة اجتماعية مرموقة، لكن شراسة طبعه وسمعته السيئة كرجل شجار وشغب، أدّت إلى فصله عن العمل، كما أدّى افتقاره للإدارة والتنظيم في شؤون أملاكه إلى تدهور دخله وتحويله إلى صاحب عقارات فقير. حدثت قطيعة بينه وبين عائلته. كان يكنّي أخاه ديمتري "ملحدًا"، كما كنّاه ديمتري "مجنونًا".
سئم بغتة من روسيا، فنزح إلى فرنسا مع عشيقته نتاليا كومروبسكايا، وهناك ولد لهما ابن خارج الزواج. اعتاشا على الدخل المتواضع من أراضيه التي أدارها في حينه رجل ممتهن بتوكيل منه.

في عام 1894 عانى نيلوس من انهيار عصبي وبدأ يستسلم للأفكار الدينية والغيبية، وكان دائم الخوف من الخطر المتربص بالعالم باقتراب مجيء المسيح الدجّال. في عام 1900 أعلن الوصي على ممتلكاته أنه على شفا الانهيار الاقتصادي. نظرًا لانعدام مصدر دخل آخر، اضطر نيلوس للعودة إلى روسيا، وهو ينحى باللائمة على سياسة ويت الاقتصادية، عن كل ما لحقه من ضيق وعسر، فقد كان ويت في نظره خائنًا يأتمرُ بأمر اليهود.

"لقد استطاع ويت في عشر سنوات أن يبدّل وجه روسيا"، أعلن نيلوس، "اعتاش الروس منذ الأزل على أراضيهم، وأما اليوم، وبفضل هذا الخائن، بات مصيرهم يتعلق بالصناعة، وقد أصبحوا عبيدًا لليهود".

بصفته مؤيدًا متحمسًا للأوتوقراطية بلا هوادة، عارض نيلوس بشدة، ليس الثورة فقط، بل كل حركة ليبرالية وكل إصلاح دستوري. ويت هو العدوّ، واليهود في نظره انقلابيون وقتلة ورسل إبليس. عارض نيلوس كل تعديل في القانون من شأنه تحسين حال اليهود، وكان من المناصرين المتحمسين لمنظمة اتحاد الشعوب الروسية ولنشاط المئات السود. سار تعصبه الديني جنبًا إلى جنب ويدًا بيد مع آرائه السياسية اليمينية. وقد احتلّ هذان الموضوعان الصدارة في كتاباته.

هذا هو الرجل الذي حاولت الأميرة إليزابيث أن تسرِّبَه إلى القصر كمعرِّف للامبراطور وكمستشاره الرسمي للشؤون الدينية. كادت جهودها تنجح، لكن السلطة الكنسية رفضت رسامته كاهنًا، بسبب سيرة عشقه المتعارضة مع التعاليم الأرثوذكسية. لم يشفع له زواجه من أوزروفـــا الذي كان يُفترض أن يضفي عليه مسحة الاحترام المنشود، كما أن علاقته بنتاليا كومروبسكايا، والابن غير الشرعي، شكّلت كلها عقبات أبت الكنيسة أن تتغاضى عنها.

مشحونًا بالغضب والخيبة، قرّر نيلوس الاستيطان في دير أوبتينا بوستين الشهير Optina Pustyn مُرغِمًا زوجته أن تأوي في بيتها عشيقته السابقة التي أصبحت الآن مريضة ومُقعَدة تفتقر إلى المأوى.

1905 عام البروتوكولات

لم يكن بالإمكان نشر البروتوكولات في موعد أكثر ملاءمة. في تاريخ الشعوب لا توجد سنة شبيهة بغيرها. ثمة سنوات تمضي دون أن تترك أثرًا أبدًا، بينما تأتي سنوات أخرى مفعمة بأحداث قد تغير أحيانًا مجرى التاريخ. 1905 كانت سنة من هذا النوع؛ بدأت بمذبحة وانتهت بمجزرة.

كان يوم أحد، التاسع من يناير، وقد عرف فيما بعد بـــ "أحد الدماء". أطلِقَت النارُ بأمر الوزير على جمهور تألف من حوالي 140,000 عاملاً، ساروا بهدوء نحو القصر الشتوي في بطرسبورغ للمطالبة بعمل دستور، مما أسفر عن قتل وجرح الآلاف من الرجال والنساء والأطفال. في 17 فبراير قام الثوار بعملية انتقام سريعة، فزرعوا لغمًا في مسار تنزه الأمير سرجي ألكسندروفيتش، عم القيصر، فقُتل للتو. تم اختيار الضحية بعناية، فقد كان سرجي أشد المكروهين من بين أفراد العائلة المالكة. كان نَزوعًا للشر، مستبدًّا بطبيعته، خشنًا في تصرفاته حتى حيال زوجته إليزابيث، ووحشيًّا حيال ضحاياه. كان من المفروض أن يشكل اغتياله إنذارًا بالآتي، لكن الأخبار الواردة من القصر أفادت أن القيصر شارك في مساء ذلك اليوم بعد العشاء، في ألعاب جماعية.

عاد ويت ليحتلَّ مركز الأحداث، وكان قد استقال من منصبه كرئيس لمجلس الوزراء، بعد فشله في منع الحرب مع اليابان، بيد أنه لم يُسمَح له بالغياب عن الساحة السياسية طويلاً، فعندما عرضت الولايات المتحدة خدماتها واستضافة محادثات السلام بين روسيا واليابان في مدينة بورتسموث، لم يجد القيصر مرشحًا أفضل من ويت ليمثل روسيا في محادثات السلام، فأقلع إلى الولايات المتحدة في يوليو 1905 وتمكن من إنجاز المهمة بصفقة دبلوماسية لامعة.

في الخامس من سبتمبر 1905، في الساعة الثالثة بعد الظهر، تم في بورتسموث توقيع معاهدة السلام بين روسيا واليابان. دُعي ممثلو الأديان إلى صلاة الشكر في الكنيسة، وكان بينهم أحبار اليهود. لم يكن بوسع القيصر تجاهل واجب التقدير لـــويت، فمنحه في 9 أكتوبر لقب نبيل الإمبراطورية الروسية. كتب ويت في مذكراته أن ذلك قد تم برغم الدسائس التي حيكت ضده من قبل زمرة البيروقراطيين وماسحي الجوخ في باحة القصر، من الذين "شرورهم بحجم غبائهم".

اجتاحت الدولة عاصفة. الإرهاب، الذي اقتصر حتى ذلك التاريخ على أحداث متفرقة، تحوّل الآن إلى ثورة حقيقية – الثورة الروسية الأولى. ردَّ النظام بحزم ووحشية. تم اعتقال الآلاف، وإجلاء الكثيرين، تم إغلاق الصحف ووسائل الإعلام الأخرى، توقف عمل دور النشر والطباعة، وألقي الحظر على التظاهرات والتجمعات، وتم حل نقابات العمال.

كانت الحاجة ماسة إلى يدَي ويت، فتم استدعاؤه ليتقلّد منصب رئيس مجلس الوزراء من جديد، المنصب الذي كان قد استقال منه قبل ستة أشهر، حين أحسّ بأنه يفقد ثقة وعطف القيصر المُصِرّ على الأصغاء إلى أنصار الأوتوقراطية المطلقة فقط. لشدة غبائه تجاهل القيصر نصيحة ويت، أبرز وأهم مؤيديه. مع أن ويت قد أيَّد نوعًا من الليبرالية في السياسة الداخلية، لكنه لم يكفّ عن دعم القيصر من أجل الحفاظ على الإمبراطورية وحكم الأباطرة. إن الرديكاليين، كتب ويت، لا يميزون ما بين المطالبة الشرعية بالتحرر من البيروقراطية والتخلّي الخطير عن التقاليد الروسية التي هي أساس بقاء الأمة التاريخي.

في شهر أبريل 1905 عاد پـــاول ميليوكوف من منفاه، وهو أحد مهندسي السياسة المتنورة، وأحد مؤسسي حزب الكاديت الليبرالي. حين تألفت الحكومة الانتقالية تم تعيين ميليوكوف وزيرًا للخارجية. وهو خطيب موهوب، ومؤرخ وخبير بالعلوم

السياسية. اضطر ميليوكوف في السابق إلى العيش في المنفى، وتحوّل عن الأكاديمية إلى رجل سياسة معتدل. في عام 1881 فُصل من جامعة موسكو، وبعد أربع سنوات نُفي عن موسكو بسبب "تأثيره السلبي على جمهور الطلبة". قضى عشر سنوات في السجن والمنفى في الخارج.

في الجدال المرير بين القادة، أمثال ويت وميليوكوف، الذين أمَّلوا أن ينقذوا العرش بواسطة تعديلات دستورية، ومتطرفين يمينيين عارضوا الإصلاح، وطالبوا بقمع كل محاولة ليبرالية بلا رحمة، احتل الموضوع اليهودي مكانًا مركزيًا. الإبقاء على اليهود ككبش الفداء السهل، وكمشاغبين خطرين، وقادة ثوريين، وأعداء لدودين للعرش والنظام الأوتوقراطي، كان من السمات المميزة لسياسة الأحزاب اليمينية التي حظيت بدعم القيصر. "إغراق الثورة بدم اليهود" كان جزءًا من تلك السياسة، وقد شكَّل حزب المئات السود رأس الحربة في تنفيذها. لم يكن شيء يعتبر متطرفًا أو وحشيًا في سبيل تحقيق الهدف النهائي. كان من الضروري تصوير اليهود كقوة رهيبة تدير الثورة من خلال مناورة الليبرالية وتوجيهها حسب غاياتها، وقد أطلقوا على حزب الكاديت بقيادة ميليوكوف: "حزب البناة الأحرار واليهود".

بعد الزيارة التي قام بها ويت إلى الولايات المتحدة ازدادت قناعته بضرورة إيجاد حل للمشكلة اليهودية من أجل إنقاذ روسيا. متجاهلاً تحذيرات رجال الأمن المرافقين له، استغل ويت يومه الأول في أمريكا وقام وحده، دون حراسة، بزيارة الربع اليهودي، كما دأب على مقابلة اليهود كلما سنحت له الفرصة. لم يجد صعوبة في التواصل معهم، فكثيرون منهم كانوا من اللاجئين الفارين من المجازر، الناطقين بالروسية. قالوا له إنهم ما يزالون يعتبرون أنفسهم من الروس الوطنيين، وإن أرض روسيا التي دُفن فيها آباؤهم وأجدادهم ستبقى وطنهم، وأنهم أصبحوا من مواطني الولايات المتحدة بحكم الظروف، لكنهم لن ينسوا روسيا أبدًا، وإن حبهم لروسيا لا كابح له، لكنهم كرهوا النظام.

عندما أعيدَ تعيينه رئيسًا للجنة الوزراء، عزمَ ويت هذه المرة على استغلال نفوذه من أجل وضع حد للتنكيل باليهود، غير أن كل محاولاته باءت بالفشل. بلغه ذات يوم من مصدر خاص، أن تحت أنفه بالذات، في أقبية بناية الشرطة، توجد ماكينات طباعة صودرت من مطابع الحركات السرية، يجري استغلالها على يد الوحدة الخاصة، وهي وحدة مستقلة تمامًا بقيادة الكابتن كوميساروف، لطباعة مواد معادية للسامية ومحرضة على المجازر، وأن رزمات ضخمة من هذه المواد التحريضية، وُزعت في مختلف المدن وما تزال الطباعة مستمرة بكل نشاط.

من أجل المحافظة على عنصر المفاجأة، وعدم تمكين كوميساروف من اتخاذ تدابير التورية والموارية، أرسل ويت سكرتيره الخاص، في مركبته الخاصة، لإحضار الكابتن إلى مكتبه، دون تمكينه حتى من ارتداء زيه الرسمي كما تتطلب الأصول. لكنّ كوميساروف له هيبته وحضوره حتى لو كان باللباس المدني؛ طويل القامة، أسود الشعر، ذو لحية ممشوطة معتدلة الطول، ونظارتين عاجيتين من صنع أشهر فنيي النظارات في المدينة. كان ويت على علم بأن كوميساروف يشغل وظيفة هامة وأنه أهل للترقية السريعة. لو أنكر وجود المطبعة السرية لن يكون بالإمكان اتهامه بالكذب. على خلاف عادته، ارتأى ويت هذه المرة أن يتصرّف بحنكة. تظاهرَ أنه مُعجَبٌ بما يقوم به كوميساروف، من قبيل المجاملات. سأله، كمن كان على دراية بكل التفاصيل: كيف تتقدّم الحملة؟ وقع كوميساروف في الشرك المنبسط عند قدميه، واعترف مأخوذًا بالمفاجأة، بكل أعماله دون تحفّظ. أمرَه ويت على الفور ودون أي تردد، بإبادة كل المواد المطبوعة، وبتدمير آلات الطباعة أو إغراقها في نهر النيبا. إياك والعودة إلى مثل هذا العمل! قال ويت مُحذرًا الضابط المشدوه.

حدّث ويت نفسه بمزيد من الرضى: لعلّهم يتّعظون هذه المرّة. لكنه سرعان ما أدرك أن عملية منفردة، مهما كانت ناجحة، لا

تكفي لإيقاف زخم النشاط المعادي للسامية الذي يباركه القيصر؛ فهو عندما أبلغ القيصر بحادثة المطبعة، واجه الصمت العَبوس، وخيِّل له أنه لم يأتِ بخبر جديد!

أخيرًا توصل ويت إلى قناعة من أن القيصر في معاملته لليهود، كما في النواحي الأخرى، قد تبنى موقف المئات السود الذين كتب عنهم في مذكراته: "إن غالبية قادتهم من المغامرين السياسيين عديمي الضمير، لا أثر للاستقامة لديهم، يوجهون كل طاقاتهم لتحريض الجماهير مستغلين جهلهم وميولهم الدنيئة [...] إنهم تجسيد للوطنية الوحشية والعدمية التي تغذيها الأكاذيب، والتلفيق والغش [...] هذا حزب نشأ من يأس جبان، يفتقر إلى مقدرة الإبداع الإنساني، وهو حزب يتألف في غالبه من ذوي الأدمغة المغلقة والجهلة، يقودهم رعاع لن يتغيروا أبدًا".

كانت رسالة القصر واضحة: معالجة أمر اليهود ليست من صلاحيات رئيس مجلس الوزراء.
سرعان ما اتضح لويت أنه عاد لإيهام نفسه بالقدرة على القيام بمهمة مستحيلة. كتب في يومياته: "الملامح المميزة للواقع السياسي في روسيا، كانت الشعور بشدة خيبة الأمل من النظام الراهن، الذي يعاني من مظاهر الفساد المتفشي. لقد عمّت الشرور المملكة، كلها معًا وبدفعة واحدة، وسادت القلاقل فوق كل شيء. إن روح روسيا تصرخ بألم، مطالبة بالتحرر من معاناة الفوضى. نداء واحد عام يدوّي من أداني البلاد إلى أقاصيها: "لا نستطيع الاستمرار في العيش هكذا!"

كانت له أمنية يتمنى تحقيقها قبل اعتزاله. أراد إتمام الحصول على قرض كبير من الخارج من أجل إنقاذ الاقتصاد من الانهيار. نجح بعد جهد جهيد في تجنيد العُرّابَ من البنوك الفرنسية والهولندية والإنجليزية والأمريكية والروسية، من أجل تنفيذ القرض. كانت هناك محاولات ألمانية لنسف القرض، بالغ معارضوه في تشويهها بدعوى أن اليهود يعرقلون عملية القرض،

الأمر الذي ثبت أنه تلفيق باطل، والحقيقة كما وضحت، هي أن بعض البنوك اليهودية، وفي مقدمتهم آل روتشيلد، اشترطوا، لمساهمتهم في تحرير القرض، تحسين أوضاع يهود روسيا، وهذا الشرط لم يحظَ بعناية النظام المرجوة. تم أخيرًا تحرير القرض في أبريل 1906، وكان ذلك أضخم قرض في التاريخ المعاصر في تلك الأيام.

في الرابع عشر من أبريل قدم ويت كتاب استقالته للامبراطور، فكتب: "[...] لا يمكن لي الدفاع عن آراء تتعارض وضميري، ولا أستطيع أن أكون شريكًا في الأفكار المحافظة المتطرفة التي أصبحت في الآونة الأخيرة الراية السياسية لوزير الداخلية [...]. كان موضوع معاملة اليهود أحد مواضيع الخلاف الواضحة.

في الأيام التي سبقت اعتزاله، وبينما كان يقضي عطلة خارج روسيا، حذره أحد أصدقائه لئلا يعود إلى روسيا لأن حياته في خطر. اتهمه خصومه بأنه يدعم اليهود، وكان يعرف أنه لم تكن في تلك الأيام تهمة أعظم منها. كتب ويت في يومياته: "لم يكن لليهود مرّة أعداء بكثرة ما لهم في هذه الأيام، ولم تكن التوقعات قاتمة بقدر ما هي اليوم. إن واقع الأمر هذا يضرُّ باحتمال سلام المملكة. إني على أتم اليقين أنه طالما بقيت قضية اليهود في أيدي محبي الانتقام، ممن يفتقرون إلى الحكمة السياسية، ويمارسون وسائل غير إنسانية، ستبقى روسيا في حالة القلاقل والثورات".

وعليه، لم يكن مزوّرو البروتوكولات ليختاروا فرصة أنسب من هذه الأيام. بحث الكل عن كبش فداء لتحميله كل الذنوب، فما الذي يمكن أن يكون مناسبًا أكثر من حكاية الحكومة اليهودية السرية التي تجتمع في بلد غريب وتخطط لدمار الدول المسيحية؟ إن كل شرور النظام الأوتوقراطي تتقزّم أمام ما يمكن أن يحصل حين يُتوَّج ملك إسرائيل ويتبوأ عرش ملكه ويجعل الجميع عبيدًا له إلى الأبد. إنهم يقاومون العدو الأساسي، الواجب إبادته.

ألهبت الجماهير الشائعة التي راجت عن صليب معقوف وُجدَ على نافذة الإمبراطورة الراحلة، وعن البروتوكولات التي عثر عليها قرب سريرها. أصبحت البروتوكولات الموضوع الرئيس في دعاية اليمين في السنوات 1918 – 1920 التي اشتعلت فيها الثورة. تسلل قادة الأحزاب المتطرفة إلى صفوف الجيش الأبيض، وراح الضباط في أنحاء روسيا ينشرون طبعات بدائية من البروتوكولات تم إعدادها باندفاع وتهوّر. وللجنود البسطاء، الذين لا يملكون المقدرة على قراءة واستيعاب وثيقة كهذه، أعدّوا طبعات مختصرة خاصة، تشرح كيف أن اليهود مذنبون في حصول الثورة، وكيف أنهم قد باشروا بتنفيذ برنامجهم للسيطرة على العالم. 100,000 يهودي لاقوا حتفهم في موجة جديدة من المجازر عمت أرجاء روسيا، وجُرح كثيرون وأصبحوا من ذوي العاهات.

تحولت المؤامرة الآن من "يهودية – ماسونية" إلى "يهودية – شيوعية"، وقد حمل ضباط الجيش الأبيض هذه النظرية معهم، علاوة على نسخات من البروتوكولات، حين فرّوا من روسيا وانتشروا في أنحاء العالم، وكان بينهم من عرضوا البروتوكولات على المنظمات اليهودية آملين الحصول على ثمن معتبر.

مع أن البروتوكولات لاقت أرضًا خصبة في بلاد كثيرة، لكنها حظيت باستقبال حار في ألمانيا بشكل خاص، فقد وجدوا فيها تفسيرًا لاندحار ألمانيا في الحرب ولمعاناة الشعب الألماني ما بعد الحرب. وخلافًا لباقي الدول، دعم النظام في ألمانيا البروتوكولات، وموّلت صدورها بالألمانية مرافق سلطوية، بما فيها عائلة هوهنتسلرن. إن صاحب الإصدار الرسمي الأول للبروتوكولات في ألمانيا هو غوطفريغ تسوربك، واسمه الحقيقي: لودفيغ ميلر، وتم تحريفه أيضًا إلى: ميلر فون هاوزن، وقد تم إهداء الكتاب إلى "أمراء أوروبا". غير أن مقالات عديدة عن البروتوكولات كانت قد سبقته إلى الصحف، مثل مقالات ثيودور بريطش. قيل إن القيصر المنفي آمن من كل قلبه بأن شيوخ

صهيون كانوا وراء سقوطه، وكان الأمير يواكيم أولبرخت في بروسيا يوزع البروتوكولات كهدية لكل من يطلب.

لم تكن نظرية البروتوكولات جديدة، فقد كانت الأساس لموجة اللاسامية التي اجتاحت أوروبا في الثمانينات من القرن السابق، وكانت شديدة الوطء في ألمانيا بالذات، فوجدت في البروتوكولات الناطق الأمين بلسانها. كانت الطبعات الجديدة من البروتوكولات تصدر بفارق زمني بسيط، لا يتعدى بضعة أسابيع، بين طبعة وأخرى، وقد بيعت منها بمرور الزمن مئات آلاف النسخ. في الخطابات العامة استعانوا بالبروتوكولات من أجل إثارة الجمهور وإهاجتة.

وثيقة غروسكي التي ابتدعها المزيفون، لتخدم قوى الظلام التي أدارت دفة دولة تقترب من نهاية مريرة جلبتها لنفسها، كُتِبَ لها البقاء حتى بعد فناء الإمبراطورية، وبقيت تُلهب الجماهير الحقودة المؤمنة بنبوءات رهيبة وبمهاترات السياسيين الذين استغلوها لغاياتهم الشخصية.

كتب كريستوفر سايكس Christopher Sykes في مقال نُشر عام 1967 في نشرة تاريخ هذه الأيام: "اعتقد نيلوس أنه ألقى بقنبلة شديدة الانفجار، لكنه في الواقع وضع لغمًا موقوتًا موصولاً إلى جهاز تفعيل".

الفصل الثالث

البروتوكولات في قفص الاتهام

جورج برونشفايغ – وكيل الادعاء

في ذلك الصباح من شهر يوليو 1933 لم يخطر ببال جورج برونشفايغ أن ذهابه لقضاء حاجة لوالدته سيغير مجرى حياته. كان جورج محاميًا شابًا، في الخامسة والعشرين من عمره. لم تمضِ بعدُ أيام قليلة على نقل مكتبه من بيت والديه إلى "ماركت غاسا" أحد الشوارع الراقية في بيرن. اعتاد أن يزور والديه كلّ صباح، وقد داوم على ذلك طوال العمر. كانت الفرنسية لغة العائلة، فوالده من مواليد أفانش في سويسرا الفرنسية، لم يكن يتقن الألمانية جيدًا. تعُودُ جذور عائلة والده إلى الألزاس، وأما عائلة والدته فتعود إلى مانديجن، وهي قرية سويسرية صغيرة عاش فيها أجدادُها من 350 سنة. روَت له والدته أنه لغاية التحرير الذي حظي به اليهود عام 1874، كان محظورًا عليهم الخروج من حدود القرية بعد حلول الظلام. قرّر والداه الانتقال للسكن في بيرن، لتتسنى لأولادهما فرص التعلم واكتساب الثقافة بالمستوى اللائق. كان كلّما احتاج إلى اللغة الفرنسية يذكر فضل والده، الذي أصرّ على إرساله لاستكمال دراسته في جامعة بديجون الفرنسية، بعد أن أنهى دراسة القانون في جامعة بيرن.

كانوا كل صباح يتحدثون بالشؤون العائلية وهم يرتشفون القهوة بالفناجين الصينية الأنيقة. في هذه المرة فوجئ جورج بوالده يحوِّل الحديث نحو المؤتمر النازي الذي انعقد في 13 يونيو في قاعة الكازينو في بيرن. لم تكن النازية أبدًا موضوعًا يتناولونه في أحاديثهم، رغم معرفتهم لها، أسوة بكل يهودي، ولم يحاول جورج أبدًا أن يخبر والديه بحادثات صغيرة اختبرها في الماضي. حصلت الأولى وهو في الثامنة من عمره، عندما رفض أحد زملائه في الصف أن يكون رفيقه في رحلة مدرسية لأنه

يهودي. كان كل ما فعلته المعلمة أنها استبدلت رفيقه. لن يغفر لها أبدًا سكوتها عن الإهانة التي لحقت به آنذاك.

أما الحادثة الثانية فقد حصلت بعد ذلك بأربعة عشر عامًا، في 1931، حين حضر للتطوع في وحدة احتياط جديدة فاستقبله قائد الوحدة ببرود جاف. وحين خرجوا للترفيه في أحد البارات المحلية، سمع قائده، وهو محام في مهنته وابن رَجُل دبلوماسي، يتذمَّر بمرارة لأنهم ضموا يهوديًا إلى وحدته. وحين تنبّه لوجود جورج، سارع القائد إلى الاعتذار ناحيًا باللائمة على الشراب المسكر! لكن جورج أدرك أن "دخَلَ النبيذُ فخرجَ السرُّ"، أو كما يقولون باللاتينية "in vino veritas". تمت ترقيته مؤخرًا إلى درجة ملازم، وكان ينتظر استقبالاً مختلفًا في بداية طريقه كضابط في الجيش السويسري.

أيام دراسته الجامعية لم يشعر شخصيًا بأي تمييز، وسرعان ما عُرِف كطالب متفوق، لكن اثنين من أصدقائه طولبا بشكل تكتمي أن يسحبا طلبيهما للقبول كأعضاء في نادي الطلبة الرفيع المستوى، وقد خجل من نفسه لأنه سكت ولم يحتجّ خشيةً على منزلته.

لكن ذلك كان في الماضي.

في هذه الأيام، وفي خضم انشغاله وانفعاله بافتتاح مكتبه الخاص، لم يفكّر كثيرًا بالمؤتمر النازي الذي قرأ عنه في الجريدة. غير أن القلق الذي بدا على وجه والدِه لم يكن مألوفًا، مما دعاه إلى تقصّي الأمر. وقد تيسَّر له فعل ذلك؛ في الصباح ذاته، عرّجَ على صيدلية يملكها صديق له لشراء دواء لأمه، وبينما كان ينتظر إعداد الوصفة، لاحظ القلق باديًا على وجه صديقه. قال صديقه الصيدلي، ردًا على استفساره، إنه في جلسة لجنة الجالية اليهودية في الليلة السابقة، تم بحث إمكانية رفع دعوى ضد التنظيم المسمّى الجبهة الوطنية بشأن توزيع **بروتوكولات حكماء صهيون** في المؤتمر الجماهيري الذي انعقد في الكازينو.

كان معلومًا لديهما أن هتلر يستغل البروتوكولات على نطاق واسع في حملته على اليهود. كانا على عِلمٍ أيضًا أن البروتوكولات قد تم استغلالها في روسيا لتحريض الجمهور خلال المذابح التي أنزلت بالطائفة اليهودية، وأن الكتاب يتم توزيعه حاليًا في أرجاء أوروبا لإثارة المشاعر المعادية لليهود. لكنهما، كباقي اليهود، لم يهتمّا بقراءة البروتوكولات التي كانت تعرض للبيع علنًا في المؤتمرات العامة، وكانت مقاطع منها تُقرأ عن طريق مكبرات الصوت. نقل أحد المشاركين في جلسة اللجنة أنه جاء في الفصل الختامي للكتاب بالطبعة الألمانية، التي أعدها تيودور فيطش، أن المجتمع لم يعد قادرًا على احتمال اليهود بين ظهرانيه، وأنه يتحتم على كل الشعوب إبادة هذا العِرق الخطير.

إن الحرية التامة التي مُنِحَت ليهود سويسرا عام 1874 لم تمنع في الوقت ذاته ظواهر التمييز والإذلال ضد اليهود. كانت ظاهرة التمييز متجذرة وراسخة في التقاليد السويسرية، فكانت هناك تلفيقة الدم، وكان أحيانًا تسليط الأنظارعلى اليهود بعد اتهامهم بنشر الأمر. لكن ذلك كله أصبح في خبر كان. أما اليوم، فقد ارتَدَت اللاسامية السويسرية حُلّةَ الحذر والمداراة، وإن كانت تحصل هنا وهناك أحداث، مثل تحطيم شواهد القبور اليهودية. اعتاد رؤساء الطائفة على الاحتجاج بأدب، بشأن المنشورات السافرة في صحيفة محلية بشكل خاص، أو بشأن إجهارٍ معادٍ للسامية في مؤسسة عامة، إلا أنهم لم يقوموا أبدًا بهجمة مكثفة، لئلاّ يخلّوا بالتوازن الدقيق الذي اعتادوا التعايش معه.

لكن النشاط المتزايد للجماعات اللاسامية المنظمة التي نشأت منذ العشرينيات، كان مصدر قلق للجنة الطائفة وبندًا دائمًا على جدول أعمالها. الأخبار الواردة من ألمانيا المجاورة، وظهور التنظيم النازي السويسري، الجبهة الوطنية، قد فرضت تغييرًا في السياسة. في الليلة السابقة، توصل المجتمعون إلى ضرورة فحص إمكانية اتخاذ إجراءات قضائية ضد الناشر وضد مروّجي

بروتوكولات حكماء صهيون، لكن السؤال هو إن كان ثمة محامٍ على استعداد لتوريط مكتبه بمثل هذا النوع من القضايا.

يد القدر هي التي ساقت جورج إلى الصيدلية، فكّر الصيدلي في قرارة نفسه. لا شكَّ أن المصلحة الجديدة، جورج بروشنفايغ وأميل رآس، ليست مثقلة بعدُ بالمهمات. أتراه يقبل النظر في إمكانية تمثيل الطائفة في قضية كهذه؟ وهل يمكنه طرح هذا الاقتراح أمام لجنة الطائفة؟ تساءل الصيدلي.

لم يكن جورج قد قرأ البروتوكولات، ولم يصادفها أبدًا. لا احتمال لربح مادي للمكتب نتيجة التوكل بقضية من هذا القبيل، فكّر. لم تكن عائلته من العائلات المتديّنة، ولم تهتم بالنواحي الحلال والمحافظة على يوم السبت، لكنها اعتادت الاحتفال بالأعياد اليهودية، وكان لها مكان ثابت في الكنيس الذي قصدوه في الأيام الرهيبة. عندما استعدَّ للاحتفال ببلوغه سن اعتهاد الوصايا (بار متسـقـا)، تعلم جورج العبرية على يد مدرّس خاص مرة في الأسبوع، وفيما عدا ذلك، لم يشغله بشكل خاص أمرُ كونِهِ يهوديًا. لقد اعتبر نفسه قبل كل شيء مواطنًا سويسريًا، وكان فخورًا بذلك، لكنه إذ فكّر بتعهده لوالده، قرّر أن يزن عرض الصيدلي، وأن يستشير شريكه في الأمر، وقبل كل شيء، قال لنفسه، عليه أن يتحدث إلى أوديت بالموضوع.

كانت أوديت قد احتفلت قبل أيام بعيد ميلادها السابع عشر، وقد عرض عليها الزواج. كانت موافقتها مضمونة بالطبع، غير أنه حافظ على الطقوس التقليدية بدقة. ولأن والدها كان قد توفي وهي في الثالثة من عمرها، فقد مضى ليطلب يدها من والدتها، حاملاً باقة الزهور التقليدية.

عرفته أوديت من أول عُمرها، فقد جاءا من خلفيتين متشابهتين؛ أصل جدّها لأبيها من ماندينجان، وعائلة أمها من الألزاس. سادت العلاقات الودية بين أسرتيهما سنوات طويلة. بدأ جورج

بالتودد إليها وهو في التاسعة عشرة من عمره وكانت هي في الثانية عشرة. اعتادت زميلاتها في الصف التفكه عن الفتى الذي ينتظر البنت ذات الضفائر كل يوم بباب المدرسة، ليحملَ عنها حقيبتها. قبل أسابيع قليلة فقط أطلعها على رسالة، كان قد كتبها لها ولم يُرسلها، لكنه اهتم بدمغها بختم البريد الذي يعود تاريخه إلى عيد ميلادها الثاني عشر، وفيها يعرض عليها الزواج! إنَّ عملاً رومانسيًا كهذا من شأنه أن يذيب قلب كل فتاة، أما أوديت فقد افترَّت شفتاها عن ابتسامة، فقد أحبّته منذ صِغَرِها.

توصل الشريكان، جورج وإميل، إلى القرار دون جدل. وكم كانت دهشتهما عظيمة حين تبين لهما أن بالإمكان شراء البروتوكولات في الكشك القريب من مكتبهما. بعد الفراغ من قراءتها، أصبحا على قناعة بأنه لا يمكن لهما رفض مواجهة التحدي الماثل أمامهما. أوديت أيضًا شاركت باتخاذ القرار، وأبدت حماسًا وتباهيًا. لم تكن بعد لتعي أن المهمة التي أخذها الشريكان على عاتقهما من شأنها أن تؤخر زواجها من جورج شهورًا طويلة، بل وتُحدث منعطفًا في حياتها.

المجموعة الداخلية

كان جورج الأصغر سِنًّا بين أعضاء المجموعة التي التأمَت بعد مضي أسبوع في قاعة اجتماعات الطائفة، برئاسة سالي مئير، من سانت جالان، وهو رئيس اتحاد الطوائف اليهودية في سويسرا. انضم إلى المجموعة أيضًا، الدكتور ألفرد ڤينر، مؤسس مكتبة ڤينر، وهو الذي قام بجمع وتوثيق كل المستندات ذات العلاقة بموضوع اللاسامية توثيقًا منهجيًا.

كان هناك البروفسور ماطي أيضًا، أستاذُ جورج، وهو رجل قانون ذو شهرة واسعة، والوحيد غير اليهودي في المجموعة. حين توجهوا إليه وافق بلا تردد أن يمثل الجالية اليهودية. تم

الاتفاق على أن يمثل جورج الجالية في بيرن، وقد انفعل جورج بشدة إذ سنحت له فرصة التعاون مع أستاذه الذي يكنٌّ له فائق التقدير. أمّا إميل رآس فقد أخذ على عاتقه مهمة إدارة المكتب الجديد، واعدًا بمساعدتهم قدر استطاعته من وراء الكواليس.

القاضي وولتر ماير

المحامي جورج برونشفايغ
ممثّل الادّعاء.

المباحثات الداخلية التي سبقت تقديم الدعوى أقلقت جورج والبروفسور ماطي. كانا يعلمان أن القاضي لن يكتفي بآراء خبراء التاريخ. المحكمة بحاجة إلى شهود على قيد الحياة، وهم لا يعرفون أين يجدونهم، لكن الأمر بات أقل تعقيدًا حين انضم إليهم بعد يومين الدكتور في القضاء بوريس ليفشيتس. وليفشيتس هذا من مواليد أوكرانيا، كان قد حُكم بالإعدام رميًا بالرصاص لتآمره على نظام القيصر، وقد نجا بأعجوبة. ينضم إليهم اليوم وهو على أتم استعداد للقيام بالواجب. إنه في الخمسين من عمره، قصير القامة، يدخّن باستمرار، عُرف بأنه محامي جنايات لامع، واسع الثقافة، ليس فقط في مجال القانون وإنما في الفلسفة والعلوم اليهودية أيضًا. ألمَّ إلمامًا تامًا باللغة العبرية، وقد توقّعوا في البداية أن يساعدهم في تفسير نصوصٍ من التوراة والتلمود. لم يعرفوا آنئذٍ أنه سيكون رجل الاتصال ما بينهم وبين روسيا.

أدركوا أنهم أخذوا على عاتقهم مهمة ضخمة هائلة، وأن عليهم الآن دراسة الوقائع كلها، وجمع الشواهد الثبوتية والعثور على الشهود، لكن قبل ذلك كله، عليهم إيجاد الأساس القانوني لدعواهم.
كيف يُقاضون ناشرًا لكتاب؟ هل بالإمكان استصدار أمر بوقف التوزيع؟ بَلَغَهم أن دعاوى قد رُفِعت في بلاد أخرى بشأن البروتوكولات، كانت إحداها في بازل المجاورة، غير أن تلك القضايا كلها، كان فيها المدّعي إنسانًا فردًا، وكان باستطاعته الإثبات أنه قد تأذى شخصيًا نتيجة نشر البروتوكولات. الحالة هذه تختلف.

"لا بدّ من إيجاد أساس قانوني للدعوى"، قال ليفشيتس، وأضاف من خلال ابتسامة مريرة: "إن القانون لا يمنع نشر الأكاذيب عن اليهود". وصل جورج الليل بالنهار في البحث عن حل. قضى الساعات الطوال في المكتبات، بينما راح شعوره بالإحباط ينمو ويزداد. وفجأة، وكما يحدث أحيانًا، خطرت له فكرة، بدت له بحد ذاتها، للوهلة الأولى، غير ذات أساس. ففي العاشر من سبتمبر

عام 1916، سنَّ البرلمان في منطقة بيرن قانونًا يمنع نشر "المنشورات البذيئة". كان واضحًا بموجب المفهوم البسيط للأمور، أن المشرّع كان يقصد منع المنشورات الإباحية، غير أن المصطلح "المنشورات البذيئة" لم يتم تعريفه وتحديده. أليس هذا المصطلح واسعًا بالقدر الذي يجعله يشتمل منشورات إن هي إلاّ "بذاءات سياسية"؟

"القاعدة المعروفة هي أن القانون يُفسّر طبقًا لقصد المُشرّع، وفي هذه الحالة فإن قصد المُشرِّع واضح تمامًا"، قال البروفسور ماطي بتردّد، بينما راح يتفحص ويمحّص الفكرة في داخله. "ألم تُعلّمنا"، سأل جورج، "أن القاضي يفسر القانون، وأن هناك حالات، أضفى فيها القاضي الشجاع على القانون معنى أكثر بُعدًا، من أجل خدمة العدالة والحق؟"، هنا تدخّل ليفشيتس، ذو العقل الألمعي، لاعب الشطرنج الذي يحسب دائمًا عدّة خطوات إلى الأمام، قال: "في أسوأ الحالات، سيتم رفض الدعوى، لكن حتى في الحالة هذه، سوف تتاح لنا الفرصة لإسماع ادعاءاتنا التي ستحظى بالنشر، سيتوفّر لنا منبر". ربما يحرزون نصرًا تكتيكيًا وينجحون في إقناع القاضي بتأجيل قراره إلى حين تنتهي المحاكمة كلها، فإذا قرر القاضي عندئذ أن لا أساس قانوني للدعوى، فربما يقتنع ويقرر أن هذا الكتاب زائف. إنهم بالتالي لا يتوخون غير أن تقوم هيئة محايدة محترمة وتعلن أن البروتوكولات ليست سوى تزوير من نسج خيالِ كاتبها المريض، وأما إدانة هؤلاء المتهمين فإنها ذات أهمية ثانوية.

على ضوء غياب بديل آخر، تقرّر العمل بحسب اقتراح جورج. تذكّر ليفشيتس أن الكاتب الروسي المعروف، مكسيم غوركي، وصف كتاب نيلوس على أنه "بذاءة" محذّرًا بأنه يلطخ أيدي كل من يلمسه. كان غوركي من القليلين الذين رفعوا صوتهم على الملأ ضد الأباطيل التي تم نشرها كجزء من حملة مدبّرة لإبادة يهود روسيا. بوسعهم الاستشهاد بأقوال غوركي إذا اقتضت الضرورة. لم يكن بمقدورهم التصوّر آنذاك، أن يقوم السناتور

الأمريكي، باتريك مونهان، بعد 24 سنة، في نوفمبر 1975، ليعلن في مؤتمر الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك، أن القرار الذي يساوي الصهيونية بالعنصرية "بذاءة".

في 26 يونيو 1933، قدّموا الدعوى إلى محكمة بيرن، مبتهلين من أجل أن تصل الدعوى إلى أيدي قاضٍ نزيه، محايد وذي خيال. تم تعيين بحث القضية في حضرة القاضي وولتر ماير، وهو نصراني مُتَديّن، لم يكن قد قرأ **بروتوكولات حكماء صهيون**، ولم يسبق أن طُلب منه الحكم ببطلان كتاب.

لو كنتُ مكانَه، سألت ذاتي، كيف كنتُ لأتصرّفَ؟ لا بدّ وأن تكون قد ساورته الظنون بأنهم يحاولون استغلال قاعة المحكمة لأهداف تاريخية أكثر من كونها قضائية. المفروض أن يكون قد لاحظ أن لغمًا سياسيًا وُضعَ فوق طاولته، ومن شأن قراره أن يجرّ نتائج بعيدة المدى. كان بإمكانه أن يتملّص من مناقشة القضية عن طريق رفض الدعوى بشكل بات. الطريقة التي حاول بها المُدَّعُون استخدام بند القانون الذي أعِدَّ أصلاً لمنع المنشورات الإباحية، بدت غير قويمة على نحو واضح، وما من شك في أن محكمة الاستئناف كانت ستقر الرفض. ساءلتُ نفسي: هل أغراه التحدّي؟ أم استهوته الشهرة التي بدأت ملامحها تظهر؟ يُعلن القضاة تعليلاتهم فقط، لا دوافعهم الداخلية. ربما كان قرار القاضي ماير بمتابعة المحاكمة حتى النهاية نابعًا من استقامته الأصيلة، من إحساس العدل لديه، ومن تجاربه الغنية. حين حدَّد لنفسه فحوى القضية، كان واضحًا له أنه سيكون عليه في النهاية الحسم في موضوع الخلاف حول مصداقية تلك الوثيقة الغريبة. عَقَدَ النيَّة على سماع الشهود وادعاءاتهم، وسوف يبذل ما بوسعه من أجل أن يكون نزيهًا تجاه الطرفين، لكنه لن يسمح بتحويل قاعة المحكمة إلى سيرك سياسي.

عُين يوم 16 نوفمبر موعدًا لانعقاد الجلسة الأولى. لم يكن المحامون قد باشروا استعداداتهم المفروضة، ولم يبق أمامهم سوى خمسة أشهر. عليهم دراسة الوقائع والحيثيات، وجمع

البيّنات، والأهم من ذلك كله: تجنيد الشهود. مع أنهم كانوا واثقين من عدم مقدرة المتهمين على إحضار طَرَفِ بَيّنَةٍ على مصداقية البروتوكولات، لكن يجب عدم الاستخفاف بأهمية وتأثير وثيقة مطبوعة في كتاب. كما أنهم لم ينسوا ولو للحظة النزعة المعادية للسامية لدى الجمهور. "علينا أن نتصرّف وكأننا نحن الملزَمون بالإثبات"، قال ليفشيتس، "رغم أن القانون يلقي بذلك على عاتق المدّعى عليهم، أي على الناشر والموزّع. لكن إذا كنا نريد أن يعلن القاضي أن الوثيقة زائفة، سيكون علينا أن نثبت من هو المزيّف وأين ومتى كان التزييف. لا يجب أن نوهم أنفسنا، بل علينا أن نحضر شهودًا أحياء ليشهدوا بذلك".

"لكن كيف؟" سأل إميل متذمِّرًا.

الحالة المالية كانت مصدر قلق سالي ماير، وأما المشاكل الأخرى فهو واثق بأن المحامين سيتدبرون أمرها، قال مُبتسِمًا محاولاً التخفيف من وطأة التوتر: "من تجربتي لهم، فهم قادرون دائمًا على ذلك، لكن الأمر يكلف المال الكثير"، ثم اقترح، وقد علت مسحة الجدية وجهه، البحث عن مصادر تمويل. قرروا توزيع المهمات: يقوم ڤـينر وليفشيتس بدراسة الخلفية التاريخية وجمع البينات؛ يعدُّ برونشفايغ مذكرة عن كل القضايا السابقة بشأن البروتوكولات، يتوجه سالي ماير برسائل خطية إلى الجاليات اليهودية ومختلف المؤسسات في العالم طالبًا الدعم المادي. وعلى ضوء انطباعاتهم الحسنة من شخصية جورج، ونظرًا لإتقانه اللغة الفرنسية، قرروا بصوت واحد إرساله إلى باريس للالتقاء بالجالية اليهودية قبل المباشرة بأبحاثه.

بدا جورج شديد التأثر نتيجة توكيله بتلك المهمة، إن في ذلك نوعًا من الإطراء الدال على الثقة التي يولونها به. علاوة على ذلك، هل هناك شاب لا يستقبل بحرارة فرصة زيارة باريس؟ فكّر: ليته يستطيع أن يأخذ أوديت معه، لكنه قطع على نفسه عهدًا بأن يأخذها إلى هناك ليقضيا شهر العسل.

يصعب التكهّن من كان أكثر تأثرًا، هل هو الوفد الفرنسي، الذي لم يكن يتوقع شابًا في مقتبل العمر، يفتقر إلى التجربة، أم هو جورج، الذي حين دخل غرفة خاصة أعِدَّت لاستقباله في أحد المطاعم الراقية، قابله عشرة رجال أجِلاّء في منتصف العمر، يضع معظمهم في طية سترته شارة شرف.
كان قد أعدَّ حجّة تثير الإعجاب، لكنه، إذ رآهم يهزّون رؤوسهم بابتسامة متعالية، أحسّ أنَّ تعبَه كان عبثًا. قالوا له إنهم، وإن كانوا يقدّرون نشاط الجالية اليهودية في سويسرا حق التقدير، ويرون أن ثمة ما يدعو إلى التوجس لدى جيرانهم في الشمال، غير أن الواقع في فرنسا يختلف تمامًا. وأضافوا قائلين: ليس في فرنسا مظاهر معادية للسامية بصورة مبالغة، ولا خطرَ مُنتظر من المبادئ الوطنية الاشتراكية. هنا في فرنسا يتفكهون ويسخرون من خطابات هتلر التجريحية، وقصة البروتوكولات الخيالية طواها النسيان، وكل نبش فيها سيؤدي إلى انتشارها من جديد.

الطعام الشهي الفاخر علق في حلق جورج. لم يكن بعد مُلمًا بتاريخ البروتوكولات، فلم يكن قادرًا على مواجهتهم بحقيقة أنه كان لفرنسا دور رئيسي في قصة البروتوكولات. انتابه شعور بالإحباط العميق، وفيما راحوا يعللون موقفهم ما بين الوجبة والأخرى، ويرتشفون بين الحين والآخر من كؤوس النبيذ الفاخر، ويتبادلون ما بينهم نظرات الإعجاب، كان هو يستنتج أن الجالية اليهودية في سويسرا ليس لها سوى الاعتماد على ذاتها، بينما ستحظى الجبهة الوطنية بالدعم المُكثَّف من الزعيم النازي الذي وصل إلى السلطة مؤخرًا. والناس يدَّعون أن لليهود حكومة عالمية... قال لنفسه وقد علت شفتيه ابتسامة مُرّة.

بعد ذلك بسنوات، وبينما استعرضتُ مع أوديت أوراقًا تخص جورج، حدَّثتني بأن زوجها قد ذكر لها هذا اللقاء مرات عديدة. قالت إن جورج طالما تساءل: كم يا ترى بقي من أولئك الذين

شاركوا في لقاء باريس بعد الكارثة؟ وقد كانوا واثقين من أنهم في أمان!

ذريعةٌ للقتل

لعظيم دهشته، لم يتمكن جورج من العثور على أي حكم صادر عن محكمة بخصوص البروتوكولات. على ضوء الإمكانيات البسيطة المتوفرة له، اضطر إلى الاكتفاء بما زوده به الأصدقاء من المعلومات والمحاضر، وكل ما استطاع التوصل إليه هو أن القضايا السابقة كلها كانت تنتهي بتسوية الخلاف باتفاق الأطراف. إحدى تلك الدعاوى قدّمها آشر جينسبورغ، المعروف بكنية "أحاد هعام" ضد غراف رفينتلاو (Rewentlau) الذي اتهمه بكتابة البروتوكولات. والحقيقة هي أن رفينتلاو نقل ما كتبه عن نشرة أصدرتها سيدة عُرفت باسم لسلي فراي Lesley Fry، واسم العائلة من زواجها هو شيشماريف Shishmarev. في أبريل 1921 نشرت مقالاً في النشرة الفرنسية اللاسامية "فرنسا القديمة" بعنوان "أحاد هعام والصهيونية – حول حقيقة البروتوكولات"، ادّعت فيه بكل جدّية بأن أحاد هعام يتحمّل مسؤولية وقوع الحرب العالمية الأولى، وإحباط معنويات الشعب، والبلشفية، وسيطرة البناة الأحرار، ومحاولات اليهود في استكمال سيطرتهم على العالم. وقد وصفت أحاد هعام كنبي يهودي، عدو للبشرية، وأنه سكن ظاهريًا منزلاً متواضعًا في لندن، إلاّ أنه وجّهَ من هناك "زمرة الكهّان" التي عملت على تنفيذ الخطة الشيطانية.
أوضح الدكتور ڤينر للحاضرين مدى سخافة الادعاء؛ فخلافًا لهرتسل، لم يكن أحاد هعام رجل سياسة، وقد أيد إقامة مركز روحاني لليهود في أرض إسرائيل، وليس بالضرورة كيانًا سياسيًا. في 19 مارس 1923، أي قبل بدء تلك المحكمة بثمانية أيام في برلين، عرض رفينتلاو تسوية، اعتذر بموجبها عن ادعائه، الذي استند فيه إلى ما ورد في الصحيفة الفرنسية، بأن أحاد هعام هو كاتب البروتوكولات، وأعلن عن تراجعه وعدم تأييده لهذا الادعاء، وتعهد بأن يعوض المدّعي بتكاليف الدعوى

بمبلغ 150,000 مارك ألماني، وأن ينشر تكذيبًا للخبر في جريدته.
أثناء تلخيصه للحيثيات والوقائع في دعوى أحاد هعام، لم يُعِر جورج أية أهمية للسيدة فراي، ولم يكن بالإمكان أن يعلم أنها في تلك الأيام بالذات كانت تساعد المدّعى عليهم النازيين على إعداد دفاعهم في محكمة بيرن.
بعد قضاء الساعات والأيام في المكتبة، وبعد أن أيقن جورج أنه انتهى من بحثه وتنقيبه عن القرارات والأحكام، وقعت عيناه على مقال آخر بدا أنه ذو علاقة بالموضوع. وبما أنه كان يبحث عن كل شاردة وواردة، مدَّ يده وتناول الوثيقة التي احتوت تقريرًا عن محكمة ألمانية أخرى، فصُعِق بما قرأ.

في 24 يونيو 1924، اغتيل وزير مالية المانيا الشهير، فولتير رتناو، عندما كان في طريقه من بيته الكائن في غرينوالد. وبعد بضعة أشهر، في أكتوبر، مَثَلَ الطالب آرنست طِخوف أمام محكمة ألمانية بتهمة المشاركة في الجرم، من حيث أنه كان يقود سيارة القاتلَين، وأما القاتلان، وهما ضابط يدعى أروين كرين Erwin Kern ومهندس يدعى هرمن فيشرHerman Fisher فقد انتحرا في السجن عن طريق تناول الشوكولاطة المسمومة التي تم تسريبها إليهما من خارج السجن. شاع في حينه أنهما قُتِلا لئلا يبوحا باسم من أرسلهما.
ادّعى طخوف في دفاعه بأن اغتيال رتناو كان بسبب عضويته في مجلس شيوخ صهيون الذين يخططون للسيطرة على العالم. قال إنه وأصدقاءه ليسوا قَتَلة، وإنهم قاموا بمهمة وطنية في قضائهم على رجل كان عضوًا في جماعة تهدّد أمنَ العالم.

في قرار حُكمه وصفَ القاضي الألماني الاغتيال بأنه "تقديم ضحية"، مُعربًا عن أمله بأن يكون في ذلك موعظة لتطهير ألمانيا وشفائها من الوباء والهمجية اللتين غرقت فيهما. في كلماته الصريحة والواضحة، وصف القاضي **بروتوكولات حكماء**

صهيون بقوله: "كذبة مقيتة، تزرع في الأدمغة المشوَّشة وغير الناضجة النزعة إلى القتل".

كيف توصلوا إلى الربط بين رتناو و**بروتوكولات حكماء صهيون**؟ تساءل جورج، وتابع القراءة بعناية.

بدأت القصة في مؤتمر دولي في فيِنّا عام 1922، وقد اقتبس رتناو فيها أقوالاً له، كان قد كتبها هو نفسه، في مقال تم نشره في صحيفة مرموقة في فيِنّا في 25 ديسمبر 1909، وفي عام 1912 شمل المقالَ في كتاب أصدره في برلين.

قبل اغتياله ببضعة شهور، في فبراير 1922، قبِلَ رتناو تعيينه وزيرًا في حكومة جمهورية فايمار، متجاهلاً تحذيرات والدته وأصدقائه المتكررة، الذين رأوا أنه قد يعرّض حياته للخطر، خاصة في ضوء احتجاجات اللاساميين الذين عارضوا تعيينه. لكنه بدَّد مخاوفهم بقوله إنه مطمئن على نفسه، ذاكرًا لهم أنه شغل في الماضي مناصب مركزية أيضًا. باندلاع الحرب العالمية الأولى، عام 1914، استقال من وظيفته كمدير في شركة كبرى لإنتاج الأجهزة الإلكترونية .A.E.G، في سبيل خدمة المانيا. عمل أولاً كخبير في وزارة الحرب، وشغل عام 1919 وظيفة المستشار الاقتصادي في الوفد المفاوض على التعويضات. اشتهر كخبير دولي بفضل المناصب التي شغلها من جهة، وبفضل كتاباته ومؤلفاته من جهة أخرى.

في المؤتمر الدولي في فيِنّا عام 1922، عاد وردّد تحذيره من أن اقتصاد أوروبا واقع تحت سيطرة كبار أصحاب الأموال. المقطع الذي يهمنا من أقواله بدا في ظاهره بمنتهى البساطة والبراءة، إذ قال:

"في مجال العمل الاقتصادي، كل تلقّظ متهوّر، كل زلة لسان، من شأنها أن تسبب الدمار. يبدو للناظر أن الشعب يسيطر على السياسة الاقتصادية عن طريق الأسهم والسندات التي يمتلكها، لكن في الواقع تسيطر قلّة حصينة، لا يخترقها الشعب، تمامًا كما كان الحال في فينيسيا القديمة. ثلاثمائة رجل، يعرف بعضهم

البعض، يسيطرون على اقتصاد أوروبا، ويعيّنون ورثتهم من داخل مجموعتهم المغلقة".

عندما خرجت هذه الأقوال إلى النور، عام 1909، لم يكن موضوع "المؤامرة اليهودية" قد رُوِّجَ له بين الناس، و**بروتوكولات حكماء صهيون** لم تكن قد تجاوزت حدود روسيا، ولم يكن أحد قد وجَّه انتباه بقية شعوب أوروبا إليها. لكن بعد اقتباس إحدى الصحف في فينّا عام 1922 لأقوال رتناو، وإبرازها تحت عنوان: "ثلاثمائة رجل يسيطرون على أوروربا"، في الوقت الذي أصبحت فيه الخطة اليهودية للسيطرة على العالم، عن طريق حكومة خفيّة، الموضوع الرئيس في الدعاية المعادية للسامية، فإن هذه الأقوال كانت بمثابة هدية نزلت من السماء في أيدي المحرّضين.

لم يكن رتناو يعلم أنه، باقتباسه مقطعًا من مقال قديم له، يوقّعُ بيده قرار إدانته. سرعان ما تحوّلت العبارة "ثلاثمائة رجل" إلى "ثلاثمائة يهودي" في المنشورات المختلفة، ومن ثم إلى "ثلاثمائة شيوخ صهيون"، ألا وهو المجلس اليهودي الأعلى!

وصفت المحكمة الألمانية في لايبزيغ البروتوكولات بأنها "توراة القتلة" (أو كتاب القتلة المقدّس)، وقرّرت أن "وراء اغتيال رتناو تقف اللاسامية الأصولية، المتمثلة بالفرية الخيالية عن "حكماء صهيون". إن هذه الوثيقة أيقظت نزعات هدّامة في قلوب البشر".

حين اغتيل رتناو عام 1922 أدرك الشعب الألماني أنه فقد قائدًا عظيمًا. شارك بتشييع جثمانه في برلين أكثر من مليون إنسان. كان من قال إن الجمهورية الألمانية قامت بدفنه على نحو ما كان الرومان يدفنون القياصرة. لكن، لسخرية الأقدار، لم تمض سوى عشر سنوات، أو أكثر بقليل، حتى أمرت السلطات بإزالة النصب التذكاري من مكان الاغتيال. في جلسة ضمت جمهورًا غفيرًا من رجال القانون، أعلن موظف مسؤول في الرايخ الثالث، وسط تصفيق وهتاف الحاضرين، أن الذين اعتُبروا حتى الآن قتلةً

مجرمين، يستحقون إدراج أسمائهم في لوحة أسماء أشراف الأمّة.
بعد بضع أسابيع من عثور جورج على قرار المحكمة ذلك، تسنّى له أن يقرأ الطبعة الإنجليزية للبروتوكولات والتي ترجمها عن الألمانية فيكتور مارسدن Victor Marsden مُراسل جريدة مورنينغ بوست في روسيا (Morning Post). في عام 1925، أي بعد مضي ثلاث سنوات على قرار القاضي الألماني، أوضح مارسدن، في تقديمه للبروتوكولات، أن رتناو قد أخذ معه إلى القبر قائمة أسماء شيوخ صهيون، الذين يبدو أنه كان واحدًا منهم، وأضاف: إن الرجال الثلاثمائة هم ثلاثمائة يهوديًا، وشيوخ صهيون هم قادتهم.

الآن أدرك جورج حجم خطورة **بروتوكولات حُكماء صهيون**. كان يرى أن المجازر في روسيا تمُتُّ إلى زمن آخر وحضارة أخرى، أما بالنسبة ليهود سويسرا فقد شكّلت مؤشرَ إنذار. تعرَّف الآن، وللمرة الأولى، على ضحية حقيقية من جواره القريب، يهودي هُدرَ دمه في ألمانيا نتيجة تعريفه بوضوح كأحد شيوخ صهيون.
أزاح جورج جانبًا كومة الكتب، عازمًا على الكتابة وتدوين أفكاره. على ضوء قضية رتناو، سيكون عليهم أن يوضحوا للقاضي السويسري أن اللاسامية التقليدية، التي أشارت إلى اليهود على أنهم قاتلي يسوع، قد تحوَّلت الآن إلى لاسامية سياسية، تستند إلى الفِرية القائلة بوجود مؤامرة يهودية، وتُصَوّر اليهود وكأنهم أعظم خطر يهدّد النظام الاجتماعي في العالم.

حين ظهرت في أوروبا، في بداية الثلاثينيات، حركات شبيهة بالجبهة الوطنية في سويسرا، كانت معاداة السامية موضوع دعايتها الأساسي. جرى اتهام اليهود بكل ويلات المجتمع ومصائبه، بما فيها البطالة والتضخم المالي. كانت غالبية أعضاء تلك الحركات من الشباب، إلا أنهم لاقوا الدعم من كبار المسؤولين، من أوساط الضباط في الجيش، ومن رجال السياسة

الذين اعتبروا أنفسهم القوة الرائدة في "أوروبا الحديثة". القوا الخطابات في الاجتماعات الشعبية، حيث كان الشباب يقومون بدور المحافظين على النظام، مرتدين الملابس الرسمية المكويّة، البناطيل السوداء والقمصان البيضاء الساطعة، يحيّون بعضهم برفع اليد.

أطلّت الحركات النازية كالفراطيش في بلاد كثيرة في أرجاء العالم.

إن ما يخشاه جورج هو أن يحاول النازيون استغلال قاعة المحكمة كمنبر لدعايتهم.

من واجبه أن يقنع القاضي بأنه إذا سمح بنشر البروتوكولات في سويسرا فهو بذلك يدعم الاغتيالات السياسية بطريقة غير مباشرة. يجب على القاضي أن يفهم أن ما يجري في ألمانيا المجاورة له تداعيات مباشرة على بلدهم.

غادر جورج المكتبة وهو مُتعَب وقلق، وتوجه إلى مكتبِهِ. سوف يخبر زملاءه في اللقاء القادم ألاّ فائدة تُرجى من صرف الوقت في البحث عن إجراءات قضائية انتهت بالتسوية، وهو يأمل ألاّ تؤول القضية التي بين يديه إلى تسوية. سيرفض بكل شدة أي اقتراح للتسوية. إنهم في هذه المرة يحتاجون إلى قرار حُكم واضح صادر عن محكمة غير منحازة.

لا داعي للخوف، قال ليفشيتس مُهَدِّئًا وهو يلوِّح بسيجار كان بيده، لا تراجع هذه المرّة. منذ وصول هتلر إلى الحكم تغيّرت قواعد اللعبة إلى أبعد الحدود وبشكل دراماتيكي.

جلس الدكتور ڤيــنر في هذا الوقت منتحيًا زاوية يتصفح الأوراق التي أعدها جورج. رفع رأسه بغتة باستغراب. لقد انتبه في هذه اللحظة إلى أن جورج قد حصر بحثه في أوروبا فقط. فهو لم يذكر هنري فورد أبدًا. وماذا بشأن القضيتين اللتين رُفعتا ضد هنري فورد؟ سأل بدهشة ثم تابع مُذَكِّرًا بأن كراسًا بعنوان **اليهودي العالمي** معروض لقاء قروش في كل كشك في بيرن، ويوزع في بعض الأماكن مجانًا لكل من يطلبه. هذا الكراس، قال

ڤـــينر، هو طبعة خاصة بهنري فورد من **بروتوكولات حُكماء صهيون**، وقد أصبح مترجمًا حتى الآن إلى 17 لغة.
ثمة احتمال أن يرى القاضي الكراس فيقرأه. ولا بدّ أنه سيسأل نفسه: لماذا يقومُ صنائعيٌّ شهير ومحترم مثل فورد بتبني البروتوكولات وتعميمها في أنحاء العالم؟
قال ڤـــينر، بصوته الخفيض، إنه لا يريد أن يثقل على جورج، لكن عليه أن يدرس موضوع تورط هنري فورد في البروتوكولات، وأضاف أن بحوزته، لحسن الحظ، كل المستندات المتعلقة بالموضوع، وأنه على استعداد لوضعها تحت تصرف جورج. في صباح الغد وجد جورج على طاولته رزمة أوراق سميكة حمل غلافها العنوان "فورد وبروتوكولات حُكماء صهيون".
سيضطر مرّةً أخرى إلى التنازل عن البرنامج الذي أعدته أوديت لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في الجبال.

هنري فورد وحربه مع اليهود

العام 1918. انتهت الحرب العالمية الأولى التي أزهقت أرواح ملايين الضحايا، قوَّضت البُنى التحتية لنظام الحكم في دول كثيرة، وأخلَّت بالنظام الاجتماعي إلى حد بعيد.
ذات يوم ماطر من شهر نوفمبر، قاد هنري فورد سيارته بينما جلس إلى جواره إدوين بيب (Edwin Pipp)، محرر جريدة أخبار ديترويت. كانا في طريقهما إلى ديربورن (Dearborn)، مسقط رأس فورد، من أجل امتلاك جريدة محلية عُرِضَت للبيع.

لم يكن من السهل إغراء بيب بترك الجريدة التي قضى فيها معظم سنوات عمله، فأصبح المحرر المسؤول فيها، وكانت بمثابة بيت له. كان محررًا بارعًا، وقد عُرِف باستقامته وبُعد رؤيته، فاختاره فورد لتحرير الجريدة التي ينوي امتلاكها.

لكن فورد يخفق أحيانًا، كسائر الناس، في تحقيق غاياته المنشودة. استثمر فورد في إقناع بيب كل سحر بيانه المعهود، مُبديًا المبررات المقنعة، راسمًا له حال العالم، بلغته التصويرية، بألوان قاتمة. قال: العالم كله مضطرب، الناس ينهش بعضهم ببعض، واحدُهم يقبض على خناق الآخر، يغرسون خناجرهم في قلوب بعضهم، يضعون لبعضهم الألغام الناسفة، ويتراشقون الغازات السامة. العالم بحاجة إلى الإخاء أكثر من أي زمن مضى. "سنبذل جهدنا لنأتي بالمحبة إلى العالم، نصلح العلاقات البشرية، وننشر رسالة التسامح".

شعر بيب بانفعال، رفعت أقوال فورد من معنوياته، وفتحت له آفاقًا جديدة. أحس أنه يستطيع، مع إنسان كهذا، أن يحلّق في الأعالي، وأن يحقق أحلامًا، وأن يسهم إسهامًا حقيقيًا في تغيير العالم. كان يعلم أن نشاط فورد لا يقتصر على إنتاج السيارات، لكن هذه هي المرة الأولى التي يكتشف فيها شخصيته "المُكَهْرِبَة" وآراءه الأصيلة: "أريد لمدينة ديربورن أن تشتهر في العالم كمدينة تسودها الأخلاق ومحبة الإنسان. من هنا يخرج الصوت الذي يجمع أبناء الأعراق والعقائد كلها لتسود بينهم الأخوة والصداقة".

كانت تلك الكلمات مُسكرة، مُخدِّرة، فاستسلم بيب وكأنهُ مُسَيَّرٌ لا مُخيَّر. مع ذلك كان له شرط واحد: يجب تجنيد بيلي أيضًا للمهمة. لقد عمل معه بيلي سنوات طويلة في الجريدة، وليس ثمة أفضل منه. "أريد رؤية ثمار قلمه في الجريدة التي أحررها"، قال بحزم.
"بيلي" هو وليم ديكامرون William Decameron، لم يواجه فورد صعوبة في إغرائه أيضًا ليترك جريدة أخبار ديترويت. أرسل إليه بيب فأقنعه وأحضره معه، وهكذا انضم بيلي إلى الطاقم. أصرّ فورد على أن تصدر الجريدة في مسقط رأسه، وها قد بلغه الآن أن الجريدة الأسبوعية "ديربورن إندبندنت" Dearborn Independent معروضة للبيع.

لا يذكر بيب اللحظة التي تبين له فيها أن الأمور ليست على ما يرام. لم يكن على علم بما لدى فورد من الوساوس نحو اليهود، غير أن الأمر سرعان ما أصبح موضع خلاف أساسي بينهما. كان بيب وبيلي متفقين في الرأي: "لم نقبل آراء فورد قبل انضمامنا إلى الجريدة"، قال بيب لزميل له في موعد لاحق، " لقد خالفناه الرأي أثناء عملنا هناك، ولم نبدّل رأينا منذئذ". إن تقديره لفورد لم يسمح بتوجيه الاتهام إليه، لكنه يلقي اللوم كله على سكرتيره الخاص أرنست ليبولد Ernst Liebold.

رغم مرور زمن طويل منذ استقالته من الجريدة، بسبب تهجمها على اليهود، يذكر بيب الجلسات الغريبة التي كان مضطرًا إلى المشاركة فيها بحكم وظيفته. كان ليبولد يتكئ على كرسيه محنيًا إلى الخلف، يحل أزرار معطفه، يُدخل إبهاميه تحت فتحتي الكمين من صدرته، يُبرزُ صَدرَه، ويعلن: "سيد فورد، أنت لا تحتاج إلى التفكير مثل أحاد هعام، إن أفكارك تُطلُّ من رأسك على شكل ومضات، كأنها تأتي من وعيكَ الباطني، لتحلّ كل مشاكلك". عندها كان فورد يستوي في جلسته، بعد أن يكون مسترخيا كعادته في عمق أريكته، يشدُّ كتفيه إلى الخلف، يرفع ذقنهُ، وتتلألأ عيناه، فتعلو وجه ليبولد مسحة الشعور بالرضى، شعور مَن أفلح في مخادعة الآخرين.

كان اليهود الشغل الشاغل لليبولد كيفما توجّه. لم يدع موضوع بحث يمرُّ في جلسات الكادر دون أن يكتشف فيه علاقة باليهود. كان فورد يبتلع أقواله، رغم احتجاج بقية الحضور. كثيرًا ما كان ينتاب بيب الإحساس بالتقيؤ في تلك الجلسات. أما رولاند، نائب المحرر، ومراسل الجريدة الخاص، فلم يكن يقدر على ضبط أعصابه، وكثيرًا ما كان ينفجر غاضبًا. وكان بيلي يُطلق الملاحظات التهكمية، وعبارات الاستنكار تعلو أساريره.
"يا للخسارة"، كان بيب يقول لبيلي حين يكونان على انفراد، "إنها مضيَعة للوقت".

"إني أذكر ما حصل بعد عودة رولاند من المكسيك"، قال بيب في موعد لاحق. كان ليبولد قد زار المكسيك قبله. في تلك الأيام فكّر فورد بإقامة مشروع هناك لإنتاج التراكتورات. في الجلسة التي عُقدت للتباحث في الموضوع، أوضح رولاند أن تغيّرًا قد طرأ على الرأي العام هناك، وبخاصة في المحافل الكهنوتية الكاثوليكية. كان ردّ ليبولد جاهزًا: "إن اليهود المسيطرين على سوق المال في أوروبا، قد أقنعوا البابا بأن يأمرَ الكهنة في المكسيك... إلخ.. إلخ.."

"لقد مللتُ سماعَ تلك البذاءات"، قال بيب لأحد أصدقائه المقربين.
"يا للخسارة"، فكّر بيب في نفسه عندما تأكّد ألاّ أمل في التغيير.
أما فورد فقد ابتلع بنهم أباطيل ليبولد، ورفض كل محاولة لدحضها بالحجة والمنطق، وأخذ بالتدريج يؤمن بأن الأفكار التي زرعها ليبولد في دماغه تنبع من وعيه الباطني، ومن وحي خارق للطبيعة.

لكن بيب كان يعلم بالطبع أن تلك الآراء لم تكن من بنات أفكار فورد، ولم تأتِ من وعيه الباطني، وإنما غرسَها في دماغه أحدهُم لغاية في نفس يعقوب. وقد حدّث بيب لاحقًا بأن فورد، تحت تأثير ليبولد، مسحورًا بتملقه، قد نمّى في داخله، كراهية عميقة لليهود، تفشَّتْ واشتدّت مع الزمن، حتى أصبحت جزءًا من كيانه.
بدأت الهجمة المعادية لليهود في جريدة ديربورن إندبندنت في 22 مايو 1920، واستمرت 91 يومًا. في المقال الأول تحدَّدت الرسالة بكلمات واضحة:
"هناك عرق لم يتقبله الجنس البشري عن رغبة، لكنه استطاع الوصول إلى مراكز القوة التي تفوق طاقة سواه من الشعوب الأغيار، بما فيها روما القديمة في أوج سطوتها".

بينما كان المقال الأول قيد الطبع، وقد أدرك بيب أنه غير قادر على الحيلولة دون نشره، بادر إلى تقديم استقالته. لم يكن بعلمِهِ أن صديقه الحميم، بيلي ديكامرون، سيلفظ كبرياءه ويبيع ضميره

من أجل احتلال منصب رئيس التحرير، الذي سيشغر بعد استقالته. حين بلغه ذلك أحسَّ بامتعاض شديد. بدأ الآن بيلي أيضًا يصف "آراء" فورد على أنها "وحي من رؤيا حقيقية". مُحبَطًا بمشاعر الخيبة من سيرته القصيرة مع فورد ومن رياء صديقه، قرّر بيب إنشاء جريدة خاصة به، لئلاّ يكون بعد اليوم خاضعًا لأخطاء وأضاليل أصحاب العمل. سيكون هو المسؤول وستحمل الجريدة اسمه – نشرة بيب الأسبوعية.

ردًّا على الحملة المعادية لليهود في ديربورن إندبندنت، نشر بيب سلسلة من "الرسائل المفتوحة" إلى هنري فورد. كان على يقين، كتب بيب، من أن الرسائل الشخصية لن تصل إلى يديه، لذا فقد قرّر الكتابة العلنية. في رسائله تلك أوضح بيب كيف تبنّت جريدة فورد حكاية **بروتوكولات حُكماء صهيون**، دون بذل أي جهد للتحقق من صحتها. كتب بمرارة:

> يدّعون أن هناك مؤامرة عالمية، وعندما تطالبهم بتقديم البيّنات، تراهم يفتَرُون على صناعة السينما؛ يخيفوننا من خطر انهيار الأمّة نتيجة سيطرة اليهود على العالم، وحين تطلب منهم الإثبات، يجرّحون بالعقلية الشرقية؛ يدَّعون بأنهم غير معادين للسامية، لكنهم يستأجرون المخبرين ليجوبوا البلاد باحثين عن مادة ضد اليهود، ولو حتى ضد يهودي فرد. كالفائزين بغنيمة كُبرى، يكشفون عن أن مُنتِجًا مسرحيًا قد باع ذات يوم التذاكر للمسرح في زاوية شارع في نيويورك! يلوّحون بمؤامرة عالمية ساندين ادعاءاتهم بواقع أن فلانًا بدأ سيرة نجاحه بفضل دعم مادي من رجل يهودي من بلدة بادوكا Paduka في ولاية كنتاكي[...] .

كانت حقيقة البروتوكولات في طريقها إلى الظهور، بعد شهور قليلة، غير أن انتشارها المكثّف في ألمانيا في هذه الفترة، أدى

إلى اعتقاد الكثيرين بأنها من إنتاج روسي/ألماني. بناء على ذلك، أعلن بيب في نشرته أنه من أصل ألماني من طرف الأب والأم، وأنه لا يحمل أفكارًا مسبقة ضدَّ ألمانيا. كتب يقول: "لكن علينا أن نقرّ بحقيقة أن الألمان كانوا منذ البدء خبراء في الدعاية. لقد استعملوا المطابع أيام الحرب بما لا يقل عن استعمالهم للبنادق، وقد سُخّرَت المطابع منذ بداية الحرب لمحاربة اليهود. يتم هناك التجريح باليهود كما هو الحال عندنا، لكنهم في ألمانيا أكثر مبالغةً[...]

أوضح بيب في مقاله أسباب استقالته من جريدة ديربورن إندبندنت فقال: "يتم نشر المواد المعادية لليهود، وتوزيعها على الجمهور، فيعرفها القراء، ثم يتم تكرارها مرَّة تلو المرَّة، لتعود من جديد إلى جمهور القراء أنفسهم [...] اليهود مذنبون بكل شيء. إن حملت الريحُ الدخان إلى نوافذنا من الغرب، فهذا بذنب اليهود، وإن هي حملت الغبار من الشرق، فذاك بذنب اليهود أيضًا [...] الإنسان المستقيم لا يمكنه احتمال ذلك، قال مُعلِنًا.

استمرَّت جريدة فورد بنشر مقالاته الأسبوعية، بالإضافة إلى مقالات هيئة التحرير، تتهم بعض القادة اليهود، أمثال لويس مارشال ولويس برندايس، بأنهم يحركون الرئيسين تافت وويلسون مثل الدُّمى. كما اتهمت أصحاب البنوك اليهودية بالتسبب بالحرب العالمية الأولى في سبيل ملء جيوبهم.

كذلك اتُّهِمَ اليهود بالتسبب بالثورة في روسيا من أجل دعم الأمبريالية العِرقيَّة. والمؤامرة اليهودية كانت السبب في إفساد وول ستريت (Wall Street) والسيطرة على سوق العَمَل والملاعب الرياضيَّة. حتى أن اليهود اتُّهموا أيضًا بالحرب الأهلية في الولايات المتحدة وباغتيال أبراهام لينكولن. ما لا يستطيع اليهود الوصول إليه عن طريق المال، أو الصحافة، أو الدسائس السياسية، فإنهم يصلونه عن طريق الإفساد الجنسي للشخصيات السياسية، هذا ما تحذر منه الجريدة، مقتبسة تفصيل مخطط الحكومة اليهودية السرية كما ورد في **بروتوكولات حُكماء صهيون**.

آرنست ليبولد، وهو الذي كان مسؤولا عن حملة التشهير، استأجر الجواسيس والمخبرين ليجمعوا له القذارات عن اليهود، وسرعان ما تحولت **بروتوكولات حُكماء صهيون** لتصبح الأساس في الحملة الهجومية. ألقوا بكل شيء على كاهل اليهود، بما في ذلك الجاز، التنانير القصيرة، الجوارب الملفوفة، إيجارات البيوت المرتفعة، الثورة البلشفية، تدهور الأدب الأمريكي، السلوك البشري، وكل ما علق في الشوكة. تم جمع كل تلك المقالات، في موعد لاحق، في كراس حمل اسم "اليهودي العالمي". وقد استُغِلَّ جهاز المبيعات العظيم لمشروع سيارات فورد بكامله، من أجل ترويج الكراهية لليهود.

في شهر ديسمبر 1920، في الكونغرس الفدرالي للكنائس المسيحية في الولايات المتحدة، بمشاركة ممثلين عن ثلاثين طائفة مسيحية، وعن خمسين ألف رعيّة كنسية، تم اتخاذ قرار ينص بما يلي:

بعد أن وُزِّعَت في بلادنا منشورات هدفها تشجيع التفرقة العنصرية ضد مواطنينا اليهود، احتوت على اتهامات رهيبة لا أساس لها، قرَّر المؤتمر الفدرالي للكنائس المسيحية في أمريكا، المؤمن بضرورة الوحدة والأخوة، في هذه الفترة من وجودنا الوطني، إدانه هذه الهجمات الوحشية التي لا مبرر لها ضد إخواننا اليهود، معربًا عن ثقته بوطنيتهم وبمواطنتهم المثالية، يدعو مواطني بلادنا إلى التعبير عن استيائهم من الأعمال التي تشجع عدم التسامح، وتميل إلى تقويض وحدتنا الوطنية عن طريق ترسيخ التفرقة العنصرية في مجتمعنا".

في 12 نوفمبر، ومن ثمَّ في 10 ديسمبر، 1920، دعت الصحيفة اليهودية "العبري الأمريكي" (The American Hebrew) فورد ليختار اثني عشر مُحَلَّفًا من ضمن قائمة بخمسين اسم يتم عرضها عليه. يقوم هؤلاء المحلَّفون بفحص كل بيّنة تُبرَزُ أمامهم بشأن وجود "مؤامرة يهودية". فإذا قرر المحلفون أن لا أساس

للادعاء، يتوجب عليه الاعتذار على الملأ، والكشف عن الذين يقفون وراء نشر المقالات في جريدته. يعيّن المحلَّفون الصحف التي ستنشر قرارهم في أنحاء الولايات المتحدة.

كان بإمكان فورد أن يجنِّبَ نفسه الغمَّ والحرج، وأن يجنّبَ اليهود شدَّة الحزن، لو أنه استجاب للدعوة، لكنه آثر الصمت.
لجأ اليهود إلى مقاطعة السيارات التي تحمل شارة فورد؛ ففي أوائل عام 1921 نظمت الجالية اليهودية في ولاية كونتيكات مظاهرة شاركت فيها 400 سيارة، استقبالاً للضيفين ألبرت آينشطاين وحاييم وايزمن، وقد تم توزيع مذكرة، قبل المظاهرة، مفادها أن "لن يُسمَح لسيارات فورد بالمشاركة في المسيرة".
في 16 يناير 1921، بادر الكاتب الأمريكي جون سبارجو (John Spargo) إلى إصدار عريضة عامة وقَّعها 119 من كبار الشخصيات، وفي مقدمتهم الرئيسان ويلسون وتافت والكردينال أوكونيل، احتجوا فيها على "تسريب روح الشر إلى النسيج الاجتماعي في أمريكا"، منددين بالهجمة المعادية لليهود، جازمين أنها تعمل على تقويض المُثل العليا الأمريكية، من خلال اعتبارها "معادية لأمريكا ومعادية للمسيحية".

كان رد فورد أنه لا يقصد التحريض على الكراهية العنصرية، وأنه لم يقصد سوى إيقاظ "المسيحيين/الأغيار الأغبياء" boob gentiles إزاء "الأحابيل اليهودية".

حين انجلت حقيقة البروتوكولات، أخذ محرر ديربورن إندبندنت يتحقَّظ ويحتاط من الضمان الصريح لصحتها. فقرر بالتشاور مع ليبولد انتهاج تكتيك يقوم على أساس مقارنة مضمون البروتوكولات بالحقائق على أرض الواقع، وأن يُترك للقراء أنفسهم التوصل إلى النتائج المرجوة. هذه الوسيلة تبناها آخرون فيما بعد، وعُرفت باسم "تكتيك فورد" (أو نهجُ فورد).

يا للعبقرية، فكّر جورج برونشفايغ، يتجاهلون مسألة مصداقية الوثيقة، يتهرّبون من مواجهة البيّنات بشأن التزوير، ويلجأون إلى التلفيقات التقليدية، لكي يغرسوا في قلوب البشر فكرة أن الخطة اليهودية للسيطرة على العالم يجري تنفيذها أمام أنظارهم تمامًا. لم يكن يدري أن المدّعَى عليهم في محكمة بيرن، كانوا يخططون في ذلك الوقت أيضًا لاستعمال التكتيك ذاته.

في يناير 1922 توقفت فجأة الهجمة المعادية لليهود في جريدة ديربورن إندبندنت. استنتجَ الكثيرون أن ذلك نابع عن رغبة فورد في ترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة في الولايات المتحدة، الأمر الذي لاقى تأييد بعض الصحف الرائدة مثل "نيويورك تايمز" و "وول ستريت جورنال". أسوة بسابقيه ولاحقيه، لم يكن بوسع فورد تجاهل وزن الصوت اليهودي، لكن الهجمة المعادية لليهود تجددت في أبريل 1924، بعد أن تبخّرت أحلامه.

في 31 مارس 1927، ظهر هنري فورد، وكان عمره إذّاك 63 عامًا، في نقطة الحراسة بمدخل عزبته في Fair Lane، مرتبكًا ينزف دمًا. كان ذلك، على حد قوله، نتيجة حادث سير حصل أثناء قيادته لسيارته الفورد الجديدة. لكن الظنون قد ساورت الكثيرين بأن الحادث كان هدفًا شخصيًا، خاطر فيه فورد بحياته فصَدَم شجرة، ليجد ذريعة لعدم المثول أمام المحكمة، حيث كان عليه أن يدلي بشهادته بعد ساعات قليلة.

تم استدعاؤه للإدلاء بشهادته بناء على طلب محامٍ يهودي يدعى أهارون شبيرا. أعتُبر شبيرا بطلاً في أوساط مزارعي الفاكهة في مزارع كليفورنيا. في عام 1919 بادر إلى وضع برنامج لتحسين التسويق عن طريق الجمعيات التعاونية ليتمكن المزارعون أنفسهم من السيطرة على الأسواق. لم تمضِ سنوات قليلة حتى تبنى خطته 90 تنظيمًا في ثلاثين ولاية أمريكية وكندية، ضمت 890,000 مزارعًا سيطروا على سوق قُدِّرَ بقيمة 600 مليون دولار. في عام 1924 بدأت جريدة ديربورن إندبندنت هجومًا

شخصيًا ضد شبيرا، مُدعية أن: "شلّة من أصحاب البنوك، والمحامين، ومقرضي الأموال، ووكالات الإعلام، والمسوّقين، والمدراء، ومراقبي الحسابات، والخبراء على أنواعهم ــ وكلهم من اليهود ــ يمتصون دم المزارع الأمريكي".

فوجئ فورد بالدعوى التي رفعها شبيرا ضده. اختار شبيرا أن يقاضيه شخصيًا، من منطلق قناعته بأن كل ما ورد في الجريدة هو من أفكار فورد الشخصية. لم يرد في حسبانه أن بيلي ديكامرون على استعداد للإدلاء بشهادة كاذبة. في مارس عام 1927 ارتقى بيلي منصة الشهود، وأقسم اليمين على أنه لم يتحدث مع فورد بخصوص المقالات ضد اليهود، ولم يُطلعه مُسبقًا على مسوَدة الجريدة، بل إنه لم يرَ فورد يتصفح الجريدة أبدًا. دام استجوابه خمسة أيام، لكنه تمسَّك بادعائه.

في غياب بيّنات أخرى ضد فورد، قرّر المحامي شبيرا المخاطرة باستدعاء فورد بذاته كشاهد. لكن محاميَّ فورد لم يستسلموا بسهولة. أوصوا فورد بالامتناع، وبكل الوسائل، عن استلام استدعاء المحكمة، الذي كان من المفروض أن يتم تسليمه إليه تسليم اليد، بحسب أمر القاضي. أخيرًا تمكَّن رسول المحكمة من إلقاء الاستدعاء في حضن فورد، لحظة توقفت سيارته في مفترق طرق وكانت نافذتها مفتوحة. رفض القاضي بغير تعليل ادعاء محامي فورد بأن الاستدعاء لم يُسلَّم إليه تسليم اليد، وبأنه سقط من بين ركبتيه إلى أرضية السيارة.

في اليوم التالي للحادث، أبرز محامي فورد، وعبارات الرضى تعلو وجهه، شهادة طبية مفادُها أن موكله عاجز عن الحضور للإدلاء بشهادته. "هل انتبهتَ إلى تاريخ هذا اليوم؟"، نوَّهَ شبيرا إلى محاميه مبتسمًا. كان هذا اليوم الأول من أبريل 1927، اليوم الذي اعتاد فيه الناس تبادل الأكاذيب. كان لا بدَّ من تأجيل الجلسة، غير أن القاضي، وقد نفذ صبره، حدد للفور موعدًا قريبًا، وأساريره توحي برفضه لطلب أي تأجيل إضافي.

هنري فورد – أصدر "بروتوكولات حكماء صهيون" في 17 لغة.

أدرك فورد أنه لم يعد بإمكانه التهرّب من الإدلاء بشهادته، فأوعز إلى محاميه بالتوصل إلى تسويةٍ وَسَط. إن مثاليته التي طالما فاخر بها، لم تمنعه عن نشر التلفيقات التي لا أساس لها ضد اليهود، وأما الإدلاء بشهادة كاذبة أمام المحكمة، فذلك أمر لا يردُ بالحسبان. لقد أتعبتهُ المحاكم والتهجمات عليه في الصحف.

بهذه المناسبة، يجب الانتهاء من دعوى هرمن برنشطاين أيضًا، قال فورد لمحاميه.
كان برنشطاين صحفيًا أمريكيًا، مراسلاً خاصًا لصحيفتي نيويورك تايمز ونيويورك سان، وهو خبير ذو شهرة في الشؤون الروسية، وخاصة في الأدب الروسي، وذو اطلاع واسع على الشؤون اليهودية. ترجم إلى الإنجليزية روائع الكتّاب الروس أمثال تولستوي، مكسيم غوركي، وأنطون تشيخوف. كان برنشطاين أحد المدعوين إلى "رحلة السلام" التي نظمها فورد على السفينة أوسكار، وحظيت بتغطية إعلامية واسعة. حين بلغه أن فورد يدّعي على الملأ أنه حصل منه على **بروتوكولات حُكماء صهيون** أثناء تلك الرحلة، رفع بحقه دعوى بتهمة التشهير.

تتبعتُ باستمتاع أسلوب استعداد جورج بورنشفايغ للمحاكمة. تساءلتُ بيني وبين نفسي: بماذا يمتاز عن غيره من المحامين،

ممن يجتهدون أيضًا بالإعداد الأساسي، يُطيلون في استجواب الشهود، ويتزودون بكل السوابق القضائية، ومع ذلك فإن ظهورهم في المحكمة يشوبه شيء. ما الفرق بين محامٍ عادي وبين القلة الفذّة البارزة عن دون المحامين؟ إن السنوات الطويلة، التي قضيتها في المراقبة من على منصة القضاء، قد علّمتني أن المحامي الجيد يجب أن يضع نفسه في موضع القاضي، يرى بعينَي القاضي ويسمع بأذنيه، وإلاّ فسوف تضيع أقواله هباء. هذا ما فعله جورج برونشفايغ بالتمام.

أحسَّ جورج أن اسم هنري فورد يشكل عقبة كأداء في طريق الادعاء؛ فسيارات فورد قد غمرت أوروبا، وقد تحول الرجل نفسه إلى أسطورة حيّة. ليس من السهل أن يصدّق القاضي بأن رجلاً كهذا يُخطئ. إن القضاة يتأثرون ليس بالبيّنات فقط، قال في نفسه، وإنما أيضًا بالمخزون الراسخ في وعيهم الباطني. كيف لهُ أن يُقنع القاضي بأن رجلاً مثل فورد يمكن أن يدعم نشر مثل تلك التلفيقات الدنيئة؟ أما ڤينر، الذي لم يكن من المتحدثين البارزين في الجلسة، فقد ألمح أن بالإمكان إبراز فورد الحقيقي، عن طريق الرجوع إلى ادعائه بأنه حصل على **بروتوكولات حُكماء صهيون** من يد برنشطاين.

كان برنشطاين قد نشر، في فبراير 1921، كتابًا بعنوان "**تاريخ أكذوبة – بروتوكولات حكماء صهيون**"، بيّن فيه الحقائق التي عُرِفَت في حينه عن زيف البروتوكولات. كان ذلك في الشهور التي سبقت كشف الحقيقة الكاملة على يد الأميرة ردزيفيل وآرمند دي شايلا وصحافي يُدعى فيليب غراڤــز Philip Graves. لكن برنشطاين كان على دراية بكتابات هرمن غوطشة والفصل الذي تحدث عن المدافن اليهودية في براغ، وكان واثقًا من أن هذه الوثائق قد استخدمها كاتبو البروتوكولات. ولإثبات حجته، أورد في كتابه اقتباسات عنها.
في التمهيد لكتابه وصف برنشطاين البروتوكولات بأنها "كذبة فظيعة وشريرة [...] سلاح قديم أستُخرِجَ من ركام خردوات

الأوتوقراطية الروسية [...] من أجل الافتراء على كل الشعب اليهودي". بعد مضي ثلاث سنوات على الحرب العالمية الأولى، وصف برنشطاين الخلفية السياسية التي حظيت من خلالها هذه الوثيقة بمكانة عالية:

> منذ الحرب راح أنصار الأوتوقراطية والرجعية يتهمون اليهود بكل الشرور والويلات التي حلّت بالبشر. فهم متهمون بأنهم جلبوا الحرب، وبأنهم جاؤوا بالسلام؛ هم الذين تسببوا بفشل آلة الحرب الألمانية، وبانتصار الحلفاء؛ في ألمانيا يدّعي اليونكرون[1] بأن اليهود مسؤولون عن هزيمة بلادهم، لأنهم عارضوا هجوم الغواصات، وفي عدد من بلاد الغرب يدعون أن "العقل اليهودي" هو الذي أملى على ألمانيا خطواتها في الحرب. جميع زعماء الحركات الثورية في ألمانيا يشار إليهم كيهود. والحركة البلشفية، التي تنظر إلى اليهودية نظرتها إلى المسيحية، يشار إليها أيضًا كحركة يهودية. وهنالك أيضًا من أمعنوا بحماقاتهم فادّعوا أن القيصر ويلهلم قد امتنع عن الدفاع عن ألمانيا كما يجب، لأنه هو نفسه من أصل يهودي. فعلى حد قولهم، خان القيصر السلالة الملكية، وتآمر على تاجه بنفسه، في سبيل خدمة المنظمة اليهودية العالمية السريّة.
>
> منذ الهدنة لقَّموا الناس بمثل هذه الغباوات، عن طريق دعاة اللاسامية وصانعي رغباتهم، في حين جرى ذبح اليهود في أوكرانيا وبولونيا وهنغاريا.

لم تذكر الديربورن إندبندنت ما توصّل إليه برنشطاين. دهش برونشفايغ لماذا لم تقم الجالية اليهودية برفع الدعوى ضد فورد. ولماذا اضطر برنشطاين أن يتحمل بنفسه عبء الدعوى التي لا بد أنها كلفت باهظًا، فأوضح له ليفشيتس أنه، بحسب

[1] اليونكر: لقب كان يطلق على الفرد من أبناء الطبقة الأرستقراطية في بروسيا. (المترجم).

التشريع الإنجليزي المتبع في الولايات المتحدة، لا يحق لجماعة أن ترفع دعوى تشهير كما هو الحال في البلاد الأوروبية، لكن يحق للفرد، المنتمي إلى جماعة شُهِّرَ بها، أن يرفع قضية إذا استطاع الإثبات أنه تضرّر شخصيًا. لهذا ارتأى برنشطاين أن عليه استغلال التشهير به "شخصيًا" ليتمكَن من تكذيب الافتراء على الشعب اليهودي، ففعل ذلك مطالبًا هنري فورد بتعويض بمبلغ 200,000 دولار.

في 30 يونيو 1927، وقّع هنري فورد رسالة اعتذار تراجع فيها عن كل ما قاله ضد الشعب اليهودي. كان نص الرسالة جزءًا من تسوية تم التوصل إليها بين وكيلي الطرفين، وذلك بعد جلسة مضنية في بيت وكيل برنشطاين. طلب فورد إعلان الهدنة، إلا أن رؤساء الجالية اليهودية، الذين كان لهم دور في التسوية، وضعوا شروطًا قاسية؛ لقد انتظروا هذه اللحظة سبع سنوات. كان وكيل هنري فورد يجري الاتصالات الهاتفية بموكله بين الفينة والأخرى، ويخبره بالتطورات وبتعنت الطرف الآخر، وكان الرد دائمًا: "أعطيكَ تعليماتي بالتوصل إلى تسوية بكل ثمن!".

في 7 يوليو 1927، نشر فورد، في بيان مطوّل ومفصّل للصحافة، كتاب اعتذاره للشعب اليهودي، التمس فيه المغفرة عن كل أذية ألحقها باليهود، ومما كتبه:

> إني أقرُّ أن من واجبي، كرجل محترم، أن أصلح الإجحاف الذي لحق بإخواني اليهود، وألتمس مسامحتهم لي عمّا سببته لهم من ضرر دون وعي، إني أتراجع، بكل ما أوتيتُ من مقدرة عن الاتهامات المهينة التي ألصِقَت باليهود في المنشورات المذكورة، وأقطع لهم بهذا عهدًا غير مشروط، أنهم من الآن فصاعدًا يمكنهم أن يروا بي صديقًا يبتغي صالحهم. يجدر القول أن المنشورات التي وُزِّعَت في أنحاء بلادنا والبلدان الأخرى سيتم وقف توزيعها، وإني أتعهد بأن أعلن للجمهور أني

لم أعُد أقف وراء ما نُشرَ من الأقوال. أتعهد بأن تدار جريدة ديربورن أندبندنت من الآن بشكل لا تعود المقالات المعادية لليهود ترى النورَ فيها.

لم يمضِ وقت قصير حتى صدرت تعليمات فورد بتخصيص 12% من ميزانية الدعاية المخصصة لموديل السيارات الجديد A، والبالغة 1,3 مليون دولار، للنشر في الصحف اليهودية باللغتين الإنجليزية واليديش. كانت سيارة الشفروليت الجديدة قد نزلت مؤخرًا إلى السوق، واليهود الذين كانوا قد قاطعوا فورد في الماضي، شرعوا الآن بضخ الأموال الطائلة إلى جيوبه.

التزم فورد بتعهده، فأمر بإحراق شاحنات مكدَّسة بالمنشورات عن اليهودي العالمي، وألغى كل الحقوق والامتيازات التي كان قد منحها لمختلف دور النشر في الخارج. لكن ذلك كان متأخرًا، فقد انتشرت كتب فورد في أرجاء أوروبا، ولم يكن بالإمكان إبادتها أو منع انتشارها، وقد تجاهل مُعظم الناشرين تعليمات فورد، ومن بينهم تيودور فريطش من لافزيغ، الذي ترجم البروتوكولات إلى الألمانية واستمرَّ بإصدارها وتوزيعها، زاعمًا أن توقيع فورد مُزيَّف. غير أن فورد لم يحرك ساكنًا ولم يتخذ الإجراءات القضائية ضد الناشرين، لا حين تزايد انتشار كتابه، ووُزِّع في كل المدارس وكل المؤسسات في ألمانيا، وظهرت صورته بارزة على الغلاف إلى جانب صورة أدولف هتلر، ولا حين عُرِض الكراس مجانًا في الأكشاك في سويسرا.
أما المُدَّعِيان برنشطاين وشبيرا، فقد التزما بوعدهما. فبناء على التسوية، وافق فورد أن يدفع لهما التعويض والتكاليف، شريطة أن يبقى ذلك سرًّا؛ أيقن أنه يتعامل مع شرفاء. وبالفعل، بقيت المبالغ التي دفعها لهما طي الكتمان حتى يومنا هذا.

بعد أن حصل برنشطاين على رسالة اعتذار شخصية من فورد، اعتبر القضية منتهية. في عام 1935 أصدر طبعة منقحة ومزيدة لكتابه، تحت عنوان "الحقيقة عن بروتوكولات صهيون ــ كشف

تام"، شمل فيه كل ما استجد من الحقائق والوقائع حتى ذلك الحين، لكنه لم يشمل رسالة فورد التي أوردها في الطبعة السابقة عام 1928. لم تُذكَر حادثة فورد العرضية أبدًا!

يا لعظمة تسامحنا نحن اليهود، فكّرَ جورج. رغم كل ما فعله بهم فورد، كانوا على استعداد لتبييض صفحته وقبول اعتذاره وكأنما لم يُفرَض عليه ذلك برغم أنفه! في 23 مايو 1929، أقيمت وجبة عشاء احتفالية على شرف دافيد براون، المحرر الناشر للصحيفة اليهودية الأمريكية، تقديرًا لإسهامه الكبير في العلاقات الإنسانية الاجتماعية. دُعي هنري فورد إلى الاحتفال والتُقِطَت له صورة برفقة المحتَفى به. نشرت الجريدة اليهودية الصورة وتحتها العبارة: "إن حضور السيد فورد في الحفل، الذي شارك فيه وجهاء الجالية اليهودية، يشهد بمودته العميقة لشعبنا".

استغل هتلر كتاب فورد على نطاق واسع، خلال سنوات حكمه الرهيبة، واحتفظ بصورةٍ لفورد على طاولة مكتبه. قال هتلر ذات مرة لصحافي أمريكي: "إن فورد مصدرُ وحيٍ لي"، وقد احتوى كتاب هتلر "كفاحي" على أفكار من كتاب فورد "اليهودي العالمي"، وشكّلَت تلك الأفكار جزءًا من التعاليم النازية. ليس ثمة ما يؤكد أن فورد حاول أن يمنع تلك الظواهر، حتى حين كان للأمريكان علاقات بالمانيا.

لا يشكل اعتذار فورد بيّنة حقيقية وكافيه، قرّر جورج، ومع ذلك سنقوم بترجمته وعرضه للقاضي. اتضح له يومًا بعد يوم، ثقل المهمة التي أخذها على عاتقه. في غياب السوابق القضائية، سيكون عليهم، هو وزملاؤه، الإثبات للمحكمة بأن البروتوكولات ليست سوى زيفًا سافرًا يحمل تهديدًا عمليًا لحياة اليهود.

كيف لمحامٍ شاب، عديم التجربة مثله، أن يأخذ على نفسه تمثيل الشعب اليهودي؟ من الذي عينه؟ وماذا لو فشلوا؟ ألا يحمّلون المحامين المسؤولية؟ وكيف يحيا مع ذاته لو تم رفض الدعوى

وقررت المحكمة بأن البروتوكولات ليست مزيّفة؟ هل فوَّضهم الشعب اليهودي للمخاطرة باسمه في عملية من شأنها أن تنتهي بقرار يمكن استغلاله ضد كل يهودي في العالم؟

فكّر جورج، لا شك في أن البروفسور ماطي رجل قانون لامع، ولا يعاني التوجسات مثله. لكن، هل لغير اليهودي أن يستوعب ضخامة المسؤولية وما تحمل من أخطار على أبناء شعبه؟ قالت له أمه ذات مرة، إن الرجل لا يمكن أن يستوعب ماذا تعني آلام المخاض، لأنه لم يختبرها أبدًا. هل الحال كذلك في اللاسامية أيضًا؟ أليست المشاركة العاطفية الناتجة عن التجربة الشخصية تختلف جذريًا عن الإدراك الفكري؟ لكن أمرًا واحدًا كان واضحًا وبعيدًا عن أي شك: لا مجال للتراجع.
كان يتساءل: متى عساه ينعم بنوم بغير هواجس؟

الجلسة الأولى للمحكمة

في 16 نوفمبر 1933، عُقدت الجلسة الأولى للمحكمة. أدرك المدَّعون أن صلواتهم قد استجيبت. تقرر بحث القضية في حضرة أحد القضاة المعروفين بالنزاهة والاستقامة. قابل جورج للمرة الأولى المتهمين وجهًا لوجه: سيلـــڤـــيو شنيل Silvio Schnell الناشر للبروتوكولات، وجورج هالر George Haller محرر الصحيفة الوطنية/الاشتراكية "**شهود**"، والناشر لصحيفة "**تيودور فيشر**"، وعدد من أعضاء الجبهة الوطنية، كان بينهم المهندس والطر أبرسولد Walter Aebersold. أنكر المتهمون كلهم مسؤوليتهم الشخصية، وراح كلٌ يلقي بالمسؤولية على رفيقه. قال هالر إن تيودور فيشر من زوريخ هو المسؤول عن نشر صحيفة **شهود**. وادّعى أربسول أن سيلـــڤـــيو شنيل مسؤول عن توزيع وترويج **بروتوكولات حُكماء صهيون**.

بدا أحد المتهمين المدعو دكتور ماير مرتبكًا، وكان واضحًا أنه يودُّ الانفصال عن باقي المتهمين. مدَّ إلى القاضي إشعارًا مكتوبًا

قال فيه إنه قطع كل علاقاته بصحيفة "شهود"، وإنه لم يشترك شخصيًا بتحريرها أو توزيعها بتاتًا.

الواقع أن الدعوى ضد الصحيفة "شهود" لم تكن ذات علاقة بموضوع البروتوكولات، غير أن ضم محرريها كمتهمين في القضية كان بسبب مقال نُشر فيها، والمقال يحذّر الفتيات السويسريات من اليهود الملوّثين، ويصفهم كأصحاب نزوات بهيمية ومرتكبي جنايات جنسية.

بعدما أعفى القاضي الدكتور ماير، أعلن أنه إذا كان هنالك آخرون ممن شملتهم الدعوى بالخطأ، عليهم الإعلان فورًا. لم يكن هناك آخرون.

كما هو مألوف في المحاكم الأوروبية، افتتح القاضي الجلسة بتوجيه أسئلة إلى المتهمين. كان فيشر أوَّلهم، وقد دلت إجاباته المقتضبة على عدم استعداده للتعاون، الأمر الذي كان بإمكان القاضي أن يلاحظه على مدى المحاكمة.

س: هل تستطيع أن تقول للمحكمة من الذي أصدر التعليمات بتوزيع **بروتوكولات حُكماء صهيون** في المؤتمر الذي انعقد في بيرن في 13 يونيو؟

ج: لا.

س: هل صحيح أن المؤتمر نظمته الجبهة الوطنية؟

ج: هل هذا ما حصل؟ لا عِلمَ لي.

س: هل "**شهود**" هي صحيفة الجبهة الوطنية؟

ج: أجَل.

س: هل أنت ناشر الصحيفة؟

ج: أجَل.

س: من طلبَ كميَّة معينة من النسخات لتوزيعها في المؤتمر الذي انعقد في 13 يونيو؟

ج: نحن نرسل عادة كمية معينة إلى بيرن.

س: من هو المُرسَل إليه في بيرن؟

ج: الفرع المحلي.
س: لمن تم تسليم الرزمة؟
ج: لموظف البريد.

هنا أطلق القاضي ملاحظة هامسة، وكأنه يتحدث إلى نفسه: "هم طبعًا لا يتوقعون مني أن أتهم مصلحة البريد"!
أنكر أبرسولد عضويته في التنظيم في الفترة إياها، والوحيد الذي اعترف بكبرياء بتوزيع البروتوكولات كان سيلـــڤـــيو شنيل.
لن يتم إعفاء أحد في هذه المرحلة، أعلن القاضي.
قام البروفسور ماطي ليدلي بأقوال المدَّعين. قال: إنهم لا يرغبون بالدخول في جدل سياسي. غايتهم فقط الإثبات للمحكمة بأن المتهمين قد نشروا وثيقة كاذبة تتضمّن مادة بذيئة خلاقًا للقانون. ستؤدي المحكمة خدمة جَمَّة للإنسانية إن هي أعلنت أن البروتوكولات زائفة.

بُغية إزالة كل شك حول موضوعية الأمر، اقترح تعيين خبراء من غير اليهود، وقد ضمَّ جورج برونشفايغ صوته لهذا الطلب.
طالب المتهمون رفض الدعوة من أساسها. ادّعى وكيلهم بأنه ليس من صلاحية المحكمة الحسم في موضوع مصداقية البروتوكولات. قال إن ذلك من اختصاص المؤرخين، وليس من اختصاص رجال القانون. كذلك طعن المتهمون بوصف البروتوكولات "مادة بذيئة"، لذا فلا أساس قانوني للدعوى. رفض القاضي طلب المتهمين مُعلنًا أنه سيحسم في مسألة مصداقية البروتوكولات بعد سماعه واطلاعه على كل البيّنات. كذلك ستتم المناقشة والحسم في قانونية الادعاء لدى صدور قرار الحكم النهائي.
برونشفايغ وماطي استطاعا بصعوبة إخفاء ابتهاجهما.
في هذه المرحلة أبلغهم القاضي أنه عازم على تعيين خبير من قِبَل المحكمة، وأن كل طرف مدعو إلى تعيين خبير من طرفه. وقد أعدَّ القاضي أسئلة سيتم توجيهها إلى الخبراء:
1- هل البروتوكولات مزوَّرة؟

2- هل هي سرقة أدبية؟
3- إذا كان الجواب بالإيجاب، فما هو الأصل؟
4- هل يمكن تعريف الوثيقة بأنها "دعاية بذيئة؟"

حاول وكيل المتهمين، المحامي أورشبرونغ، الطعن بمضوع تعيين الخبراء:

المحامي: يجب أن يكون الخبير آريًّا، لا مسيحيًّا فقط، لأنها مسألة عرقية، لا مسألة دينية.

القاضي: سأقوم بتعيين خبير ذي إلمامٍ بالموضوع.

المحامي: لكن ليس يهوديًا.

القاضي: هل يكفيكم 14 يومًا لتجدوا "خبيرًا آريًّا" من طرفكم؟

المحامي: نعم.

القاضي: أعطي للمتهمين 14 يومًا ليجدوا خبيرًا. سأقوم أنا بتعيين خبير محايد ومناسب، بناء على مؤهلاته وليس عِرقه. سوف أجد عالمًا يُبدي رأيه بعيدًا عن الحقد والتمييز.

بهذا تم إعداد المسرح لمحكمة بيرن وتحددت القواعد. لم يكن بمقدور أحد التكهن بأن 17 شهرًا ستمضي إلى أن تُصدرَ المحكمة قرارها. مساء ذلك اليوم اجتمعت الجماعة في مكتب البروفسور ماطي، من أجل تحديد الاستراتيجية. تقرر البدء بإعداد قائمة بأسماء الشهود المحتملين. اقترح ليفشيتس المباشرة بمحاولة الاتصال بثلاثة شهود: الأميرة ردزيفيل، آرمند دي شايلا، وفيليب غراقـــز. أنيطت مهمة إعداد شهاداتهم بجورج برونشفايغ.

الفصل الرابع

الكشف - 1921

كترينا ردزيفيل

أفاقت الأميرة كترينا ردزيفيل من نومها يتملكها الإحساس أن بانتظارها مهمة ما، لكن ذاكرتها كانت ما تزال غابشة. فنجان قهوة الآن ربما ينشط الذاكرة، قالت في نفسها وهي تحاول السيطرة على الشعور بالكسل في مثل تلك الساعة الباكرة. منذ أن أتت لتستقر في نيويورك أدمنت على قهوة الصباح، لكنها حافظت، في باقي ساعات النهار، على ارتشاف أكواب الشاي كما اعتادت في بلادها الأصلية. كان لارتشاف الشاي في روسيا طقوس رسمية، نوع من التقاليد الوطنية، خاصة بين صفوة المجتمع الذي انتمت إليه. لم يكن ليمر أسبوع في بطرسبورغ دون أن تدعوها إحدى نساء ذلك المجتمع لتناول الشاي في بيتها أو في بيت سفير إحدى الدول. تُرى، هل طرأ تغييرعلى ذلك أيضًا؟ تساءلت في نفسها. لقد زالت "صفوة المجتمع" في روسيا، وأولئك الذين استأثروا بالسلطة اليوم جاؤوا من أوساط غريبة عنها تمامًا.

مرّت ثلاث سنوات على الثورة في روسيا، وما زالت الأميرة غير موقنة؛ فهي، أسوة بالكثيرين من الفارين إلى الغرب، كانت تداعبها الآمال، من حين لآخر، أن ليست تلك نهاية المطاف، وأنها ستصحو يومًا ما من الكابوس البلشفيكي. حتى وإن كانت عائلة رومانوف قد زالت إلى الأبد، إلا أنه لا بدّ لروسيا أن تجد السبيل إلى نظام سياسي عقلاني يمكنّهم من العودة إلى بيوتهم. تحلم أحيانًا أنها في مدينتها الحبيبة، سانت بطرسبورغ الزاهية، غارقة في دوامة حفلات الشاي، ووجبات العشاء، والكونسرتات، وعروض الباليه والمسرح، والطقوس الاحتفالية، والأحاديث الممتعة، بما فيها النميمة والأحابيل السياسية.

الأميرة ردزيفيل
ساهمت في كشف الحقيقة

لكنها أدركت في قرارة نفسها أن ذلك كله ولّى إلى الأبد، وأن روسيا التي أحبتها لم تعد في الوجود.

رفضت واقعها الجديد، وعاشت في ذكريات الماضي. ما زالت تذكر الشعور الذي ساد في أجواء موسكو المحتفلة بتتويج الإمبراطور الشاب، يوم ذلك الأحد المشمس الذي تلى يوم السبت الأسود في مايو 1896. كانت الاحتفالات في أوجها، تستقطب الجماهير من كل أنحاء روسيا، وبينهم الدبلوماسيون والصحافيون والضيوف الأجانب من كل أنحاء العالم. ترقّب الجميع العروض الاحتفالية والحفلات التي تم الإعداد لها مُسبَقًا، وانتظرت السيدات بفارغ الصبر فرصة عرض ثيابهن التي خيطت لدى أشهر الحائكات في روسيا أو خارجها، والمجهورات التي أخرجنها من خزائنها. إنها تذكر بدقة كل الثياب التي صممتها بنفسها بجهدٍ كبير؛ الثياب الحريرية، والمخملية، والمذهبة، والتطاريز الرائعة التي أبدعتها يد فنان على صدور الفساتين، والعباءات الملائمة، والأحذية الأنيقة التي صُنِعت حسب الطلب بيد أشهر صانعي الأحذية.

يوم ذلك الأحد البائس، كانت تتنزه في الشوارع برفقة الأصدقاء، وتراقب موكب المركبات الفخمة غير المنقطع. لمحت فجأة صفَّ عربات تسير بتثاقل في جانب الطريق، حاملة أكوامًا من الجثث

والجرحى. ملأ الأجواء صراخُ النساء والأطفال. لم يصدر أي بلاغ رسمي، لكن سرعان ما تناقلت الأفواه خبر مأساة تحدث في ساحة خودينكا. تلك الساحة الضخمة التي تشغلها في الأيام العادية حامية موسكو، والتي خُصصت لاحتواء نصف مليون من المواطنين الذين أتوا من كل أنحاء الإمبراطورية لحضور الاحتفالات. سرعان ما تحول الحشد فيها إلى كتل بشرية، تتدافع دون ضابط نحو أكشاك كانت توزع فيها، كما وعدوهم، التضييفات والهدايا، فسقط العديد منهم ودرستهُ الأقدام.

تهافت الصحافيون والمسؤولون والسياسيون والدبلوماسيون على ساحة خودينكا، لمد يد العَون ولتغطية الحدث إعلاميًا. هرعت الإمبراطورة الأرملة ومعها النساء الراقيات إلى المستشفيات، من أجل المساهمة في إسعاف الجرحى، حتى دون أن تستبدلن ثيابهن الاحتفالية الفاخرة. وأما القيصر الشاب نيقولاي وزوجته ألكسندرا بدوروفنا المحتفى بتتويجهما، فإنهما لم يجدا داعيًا لتغيير جدول عمل يومهما. لم يتم إلغاء أي احتفال، وقد ظهرا، بكل بهائهما وجلالهما، في سلسلة حفلات كان أفخرها في بيت حاكم موسكو سرجي ألكسندروفيتش وزوجته إليزابيث، شقيقة الإمبراطورة. غصت قاعة مسرح البلشوي وشرفاته بجمهور المتأنقين. هذا السبت الأسود والأيام التي تلته راسخة في ذاكرة كاترينا ردزيفيل كأيامٍ أنبأت ببداية النهاية. إنها تذكر رجلاً غريبًا وقف إلى جانبها في الشارع، وراقب الأحداث البراقة مثلها، يهمس في أذنها قائلاً: "انظري إليهم، إنهم يبدأون الآن رحلتهم إلى الهلاك".

رغم أن الأحداث ما تزال نضرة في ذاكرتها، كأنها حدثت بالأمس، إلاّ أنها أكرهت نفسها على العودة إلى الواقع. من خلال وعيها لميلها إلى الاستغراق في الماضي. هربًا من المشاكل المقلقة، طوّرت جهاز انضباط ذاتي يعينها على العودة إلى الزمن والمكان الحاضرين. نهضت من سريرها، أخرجت من محفظتها قصاصة ورق مجعدة، كان صديق يهودي قد كتب عليها رقم هاتف النشرة الأسبوعية اليهودية "العبري الأمريكي" التي كانت

تصدر في نيويورك. كانت قبل أيام قد كشفت لبعض الأصدقاء عن أمرٍ مذهل، ومنذئذٍ أصبحت حائرة باستمرار كيف تتصرف بما لديها من معلومات. إن التوجه إلى الصحافة لم يكن من الحلول الطبيعية المألوفة لدى من عاش وترعرع في ظل النظام الأوتوقراطي، كالذي ساد في روسيا القيصرية.

لقد قضت معظم حياتها في مجتمع شجّع نشاط اللاسامية، أو على الأقل سلّمَ بها. كانت تربطها علاقات صداقة وديّة بالجنرال طشربين، رئيس شرطة الاستخبارات السياسية؛ الشرطة التي كانت، علاوة على الكثيرين من وكلاء الأوخرانكا في فرنسا، مسؤولة إلى حد كبير عمّا عاناه اليهود. كانت الأميرة فيما مضى ضيفة مرغوبًا فيها في الحفلات الحميمية في صالون جولييت آدم Adam الشهير في باريس، حيث تعرّفت إلى إدوارد درومونت Drumont أشد أعداء السامية في فرنسا. في التسعينات من القرن التاسع عشر، حضرت جدالات حادة حول قضية درايفوس، التي كانت حديث الساعة، رغم أنها لم تشارك بها فعلاً. تساءلت في ذاتها بنوع من الاستياء، كم من ضيوف الصالونات التي أدارتها في برلين وباريس وبطرسبورغ، كانوا من مُبغضي اليهود. كانت الكراهية لليهود وتمييزهم عنصريًا جزءًا من الحياة في روسيا القيصرية. كانت المذابح تحصل بعيدًا عن العاصمة، ولم تكن موضوع حديث في غرف الاستقبال في بيوت النبلاء. لم يكن أمر اليهود من اهتماماتها ولم تُعطِه جانبًا من تفكيرها، إلى أن جاءت لتسكن في انجلترا ومن ثم في الولايات المتحدة. هنا اكتشفت أنهم لا يعاملون اليهودي كمخلوق دون البشر، بل إنها، بحسب توصية إحدى صديقاتها، استعانت بخدمات طبيب يهودي وأودعت فيه كامل ثقتها. لم تكن ترغب بالخروج للدفاع عن اليهود علانية، غير أنها خشيت أن تُعتبر شريكة في الجرم إن هي أبقت على ما لديها من المعلومات طيَّ الكتمان. لكن لمَ لا؟، قالت لنفسها، لم تسبب الشهرة ضررًا لأحد.

كانت قد بدأت في الفترة الأخيرة ببناء اسم لها في الغرب، ككاتبة مختصة بالشؤون الأوروبية والروسية، وقد نشرت قبل عام كتابها "أسرار العائلة الملكية التي خسرَت تاجها"، وهي تعِدُّ الآن لكتاب جديد بعنوان: "القيصرة الأخيرة"، ستتناول فيه، ليس فقط القيصرة ألكسندرا، وإنما كل الفترة التي شكَّلَت مرحلة النهاية لحكم سلالة رومانوف.
أدركت أن بين يديها معلومات مميّزة حول موضوع طالما أثار اهتمام الجمهور والصحافة، ولم يكن لديها أدنى شك في أن كشف هذه المعلومات سيثير ضجّة ويعود عليها بشهرة واسعة.

ريثما كتبت بطاقة لصديق كانت قد استشارته بالموضوع كان فنجان القهوة قد برد. طلبت من الصديق أن يصلها بمحرر صحيفة "العبري الأمريكي". تم تحديد اللقاء ليوم الغد، 20 فبراير 1921.

كانت كترينا أميرة، ليس بفضل زواجها فحسب، عام 1872، من الأمير ردزيفيل، أخو أنطون ردزيفيل الذي برز في الحرب الفرنسية الألمانية، وصديق بسمارك؛ فقد عُرِفَت قبل زواجها باسم الأميرة رشبوسكي، وهي ابنة لعائلة أرستقراطية، كان والدها معاونًا للقيصر. اشتهرت ليس فقط لجمالها، بل أيضًا بسبب ميلها إلى المغامرات، فكان سلوكها مدعاة للقيل والقال. وعلى نقيض زوجها المنغلق الباهت، كانت كترينا على علاقات حميمة بالعديد من رجالات السلطة، وعلى رأسهم الجنرال طشربين، رئيس البوليس السري، الأوخرانكا، في عهد القيصر ألكسندر الثالث، وقد فتح الجنرال لها أبواب المجتمع الراقي المقرّب من العرش. عللت نفسها في مرحلة معينة بتحقيق سيرة سياسية، لكن موت الجنرال أفقدها تأثيرها، والنميمة التي اشتدت حولها اضطرتها إلى مغادرة روسيا. حين كانت في أوج مجدِها، كانت مضيفة معروفة، وقد طرق بابها الكثيرون من رجال السلطة. جمعت في ذهنها الكثير من الذكريات التي باتت الآن مادة للمكتبات.

استعدّت بدقة، كعادتها، لمقابلة المحرر. لم تكن الوقائع التي أرادت أن تشهد بها مدوّنة في أوراق، لكنها حفظتها كلها في ذاكرتها. هل ارتكبت خطأ حين اختارت صحيفة يهودية بالذات؟ ساءلت نفسها. فاليهود طرف له مصلحة، الأمر الذي قد يثير الشك لدى الجمهور. فكّرت بإلغاء اللقاء، لكنها لم تفعل. تذكّرت فجأة هنرييتا هربلوت، التي قابلتها من مدة قصيرة في نيويورك. كانت تجمعهما علاقات وديّة في تلك الأيام في باريس، حيث التقيتا أكثر من مرّة بوكلاء البوليس السري الروسي الذي نشط في العاصمة الفرنسية. كان لتقربهما من هذه الجماعة دوافع كثيرة: كانت لها هي علاقات شخصية بغولوبينسكي، مساعد بيوتر رتشكوفسكي الشهير، رئيس البوليس السري الروسي في كل أوروبا، أما هنرييتا فقد انضمت إلى الشلة لأسباب أيديولوجية. أمها فرنسية وأبوها انجليزي، وقد تزوجت من رجل أمريكي آراؤه يمينية متطرفة ومقبولة لديها. وبطبيعة الحال، طلبا التقرب إلى أعوان القيصر في فرنسا. كانت هنرييتا تأتي أحيانًا لوحدها للقاء غولوبينسكي في بيته أو في شقة كترينا في شارع الشانزليزيه.
كان غولوبينسكي ضيفًا مُرَحبًا به في بيتها. لم تكن وظيفته سرًّا، وكثيرًا ما كان يأسر ألباب ضيوفها بحكايات الجاسوسية والدسائس العالمية، خافضًا صوته كأنما يكشف لهم الأسرار الدفينة.

إنها تذكر حين حضر غولوبينسكي إلى بيتها في باريس لأول مرة وقدم نفسه كجارٍ لها ولوالدتها، فقد كانت لهما عقارات في منطقة أوفا Ufa جنوبي جبال الأورال. حمل لها سلامًا من أمها فاستقبلته بترحاب. لم تعلم بادئ الأمر أنه وكيل للمخابرات الروسية، وحين اكتشفت ذلك كانت قد توطدَّت بينهما العلاقات.
ثمة حادثة نُقشت في ذاكرتها. دُعيَت ذات يوم إلى حفلة شاي مُغلقة في بيته، فوجدت هناك شلة من الأصدقاء وبينهم هنرييتا. بدت على وجه المضيف مسحة من الغموض، وبعد أن حصل على تعهدهم بالقسَم بأن يحفظوا السر، فتح دُرجًا مُقفلاً، بحركة

استعراضية، وأخرج منها دفترًا بسيطًا، من النوع الذي يستخدمه الطلاب في المدارس. من كان ذلك المُهْمِل؟ تساءلت حين لمحت بقعة من الحبر الأزرق فوق الغلاف، وما عسى أن يكون هذا الدفتر البالي الملطخ وقد اصفرَّت صفحاته؟ ولماذا تظهر فيه خطوط يدٍ مختلفة؟ ولماذا يعرض أمامهم عميل روسي وثيقة كُتِبَت بالفرنسية؟

حبس الجميع أنفاسَهم بارتقاب القصة الآتية من فم غولوبينسكي الذي عهدوا فيه إحاطة حكاياته بأجواء الغموض والإثارة. لم يخيِّب ظنهم في المرة هذه أيضًا. أعلن رسميًا أنه قام، هو وزملاء له في العمل، بكتابة الوثيقة التي بين يديه، وذلك بأمر من رئيسهم رتشكوفسكي. "انظروا جيدًا"، قال لهم، "هذه الوثيقة سوف تورط اليهود بمؤامرة عالمية وتُحدثُ في العالم ثورة". وأضاف مُفصِحًا: "ما هذه إلاّ خطوة أولى في الصراع ضد التسلط اليهودي، لكن الهدف النهائي هو طردهم المطلق من روسيا".

إنها تذكر كيف ابتسم الجميع بأدب، وأما غولوبينسكي فقد بدا في منتهى الجدّية، مباهيًا بدوره في القضية.

لم يخطر في بالها آنذاك أن ثمة علاقة بين تزوير غولوبينسكي وبين وثيقة أخرى كان قد أعطاها لها صديقها الجنرال طشربين قبل سنوات، وقد فقدتها مع باقي ممتلكاتها في روسيا. بَلَغها فيما بعد أن سرجي نيلوس قد شمل وثيقة غولوبينسكي في كتابه الذي صدر في تسرسكويا سلاو ضمن منشورات الصليب الأحمر.

غابت كل هذه الأمور عن قلبها زَمنًا، لكنها لم تفاجأ حين سمعت بأن الوثيقة تطفو في روسيا على السطح وتُستغلُّ في حملة دعائية ضد اليهود، فقد طال ما لجأ رجال الأوخرانكا إلى الزيف والزور لتحقيق مآربهم الدنيئة. في الأوساط التي انتمت إليها لم يحملوا تلك الأمور على محمل الجد، لأنهم كانوا يعلمون أنها أعِدَّت من

أجل إثارة القوزاق والموجيق الذين يَبغضون اليهود حدَّ اللاوعي. إن خطة غولوبينسكي لإحداث ثورة عالمية أثارت سخريتها في سرّها.

كان ذلك كله في غابر الأزمان، قبل حدوث الثورة الفعلية. لكنها الآن، في نيويورك، وبعد مرور السنوات الكثيرة على ذلك الحدث، ها هي تُفاجأ برؤية تلك الوثيقة المسمّاة **بروتوكولات حُكماء صهيون**، مُترجمة إلى الإنجليزية ومعروضة في دكاكين الكتب، وتسمع أنها باتت موضوع نقاش جدّي في الصحافة وبين الناس.
ولشدَّ ما كانت دهشتها حين تبيَّن لها أن المقتبسين عن الوثيقة، يعتبرونها حقيقية، وهنالك من يصدّقون بشدة حكاية المؤامرة اليهودية كما وردت في البروتوكولات. لكنَّ الموضوع قد طواه النسيان في روسيا، قالت لنفسها.
وفجأة برقت في ذهنها فكرة: لعلها الإنسان الوحيد الذي يملك مفتاح اللغز! من مثلها يستطيع أن يشهد بذلك الحدث في بيت غولوبينسكي؟ ربما هنرييتا أيضًا، إن وَجَدوها، لكن هذا ليس من اختصاصها، ليبحث اليهود عنها إذا رغبوا.

استعدادًا للقاء كما يجب، قرَّرت أن تقرأ البروتوكولات. كانت في متناول يديها، لحسن الحظ، نسخة اشتراها لها أحد الأصدقاء. بقدر ما كانت تتقدم في القراءة كانت تواجه صعوبة في التركيز. إن شيئًا ما يقلق راحتها. ثمة صورة مضبَّبة في أطراف ذاكرتها، تتلاشى كلما حاولت انتشالها من هناك. كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل حين جلست منتصبة فوق سريرها، مأخوذة بالدهشة، إذ أنها استطاعت أخيرًا أن تميّز الصورة الخفية. قد تعود إلى الاختفاء في الصباح، فكّرت في قرارتها بينما أرغمت نفسها على النهوض لتجلس عند مكتبتها. يجب أن تدوّن كل شيء خطيًّا، حتى تتمكّن من عرض الأمور بصورة منظمة.

كانت على قناعة من أن الأمر لم يعد مقتصرًا على وثيقة غولوبينسكي فقط، فهناك وثيقتان زائفتان. ترى، هل خطَّ لها القدر أن تكون هي وحدها القادرة على الربط بين الوثيقتين والشهادة عليهما؟ التردد الطفيف الذي انتابها من قبل قد زال الآن تمامًا. أدركت أن من واجبها إخراج الحقيقة إلى النور.

في طريقها لمقابلة اسحق لندمان، محرر "العبري الأمريكي"، كانت ما تزال تحت تأثير انفعالها في الليلة السابقة، ولم تكن مهيأة للفتور الذي استُقبلت به. كان المحرر ومساعده خلوقَين لكنهما محدّدَين. أثناء سرد القصة لهما أحسّت أنهما لا يصدقانها. ساورتها الأفكار: إنها تزودهم بشهادة فريدة من نوعها، وفي غاية الأهمية لليهود بالذات، وهم يشككون في مصداقيتها. قالوا لها إنهم يريدون بالطبع أن يثبتوا زيف البروتوكولات، وإنهم أنفسهم على يقين من أن الموضوع كله بِدعَةٌ معادية للسامية. قد يكون هناك أساس للاعتقاد بأن الأوخرانكا مسؤولة عن التزييف، لكن هذا الاعتقاد ربما يحمل في طياته خطأً، إذ أنه من غير المعقول أن يبتدع الروس وثيقة بالفرنسية، وهم لم يسمعوا عن وثيقة ثانية. لقد تم فحص الأمر جيدًا، قالا لها، وسوف يصدر كتابان مهمّان عمّا قريب، الأول في الولايات المتحدة بقلم دبلوماسي يهودي معروف اسمه هرمن بيرنشطاين، بعنوان "**سيرة كذبة**" يؤكد فيه أن التزويرات استندت إلى فصل من كتاب الكاتب الألماني هرمن غوطشه، الذي اختبأ وراء اسم إنجليزي مُبتَدَع، وسيصدر الكتاب الثاني في إنجلترا، بقلم الكاتب لوسيان وولف، وعنوانه "**خرافة الخطر اليهودي**". هل يمكن أن يكون كاتبان شهيران، رغم تعمقهما في البحث، قد تجاهلا الحقائق التي تصفها؟ كان هناك من اعتقد أن الوثيقة أعِدّت في فرنسا، لكن الحقيقة هي أنها لم تُنشر هناك إلاّ قبل سنة كترجمة عن الأصل الروسي. لماذا يَجْهَدُ أحدهم في كتابة نص بالفرنسية طالما لا ينوي نشره بتلك اللغة؟ أليس غريبًا أن يقوم الروس بتزوير وثيقة بالفرنسية طالما أن الغاية هي نشرها بالروسية؟ لماذا لم يفعلوا ذلك بلغتهم منذ البداية؟ لا يبدو الأمر منطقيًا أبدًا. قيل أيضًا إن

البروتوكولات عبارة عن وثيقة تفصيلية وفي غاية التعقيد، ويصعب الظن أنها كُتبَت بيد وكيل مخابرات فوق صفحات بالية. لكن غولوبينسكي يبدو، حسب وصفها هي، كوكيل لا ككاتب.

أوضحوا لها بكل أدب أن نشر وقائع لا تستند إلى إثبات في صحيفة يهودية من شأنه أن يكون بمثابة الزيت لعجلات اللاساميين المحتفلين حاليًا بإصدار البروتوكولات. وأضافوا معتذرين، إن قصتها تبدو مثيرة، غير أن نشرها دون المزيد من الدعم الثبوتي يحمل في طياته المخاطر.

فكّرت بالتراجع عن الموضوع. لقد قامت هي بواجبها، وأراحت ضميرها. يقولون إن اليهود حُكماء، قالت في نفسها، لكنهم ليسوا حكماء بالقدر الكافي ليدركوا أهمية المادة التي وقعت بين أيديهم. قالت لهم بغضب إن تلك هي مشكلتهم، وليست مشكلتها. إنهم يفوّتون عليها فرصة دخول التاريخ، فكَّرت في داخلها، لكن ما ساءها أكثر هو أنهم لا يصدّقون أقوالها.

وفجأة لاحظت تردُّدهم. يظهر أن أمرًا ما في تصرفاتها قد حثّهم على إعادة التفكير. إنها لسيت مجرد امراة ذات خيال واسع. جلست مقابلهم مستقيمة المتن ويداها خالدتان إلى الراحة فوق ركبتيها. كانت ترتدي بدلة أنيقة فيها خطوط بسيطة، شعر رأسها مرفوع إلى الأعلى حسب طراز العصر، يزين عنقها عقد من اللؤلؤ الناصع البياض. كانت بمجملها تنطق بالهيبة والثقة بالنفس. معرفتها لخفايا الأحداث في العاصمة الروسية لا تُجارى. راحوا يتبادلون ما بينهم النظرات والبطاقات. إن كان ما تقوله حقيقة، فإنهم قد يضيعون عليهم فرصة الاستفادة من معلومات هامّة وذات قيمة مُدهشة.

قالت إنه لا مجال لوجود حجة تدعم ما يتعلق بالوثيقة الأولى في الكتاب، لكن إذا استطاعوا الوصول إلى هنرييتا هربلوت، فسوف تؤكَد حتمًا ما روتهُ عن دور غولوبينسكي في التزوير.

بعد ذلك بأربعة أيام، في 25 فبراير 1921، نشرت صحيفة "العبري الأمريكي" المقابلة الكاملة مع الأميرة كترينا ردزيفيل. كانت تلك هي المرة الأولى التي يُعلن فيها أن بداية بروتوكولات حُكماء صهيون كانت في روسيا عام 1884، أي قبل أن يرى النور كتاب نيلوس بكثير.

غذّيتُ ناظريَّ مرارًا وتكرارًا بصورة الأميرة كاترينا ردزيفيل أثناء قراءتي بلهفة للمقابلة معها. رأيتها بعيني خيالي جالسة فوق أريكة جميلة أنيقة. شعرتُ بحضورها، وخُيّل لي أني أسمع صوتَها. ويا للغرابة، تهيّأ لي أني أجلس من جديد في قاعة المحكمة خاصتي، مصغيَةً إلى شهادة استثنائية ومميزة، لا يجب قطع استرسالها.

راحت تسرد القصة على نحو منتظم، من خلال التصويب إلى أهم الأحداث":

"أقلقت راحة ألكسندر الثالث حقيقة أن اغتيال أبيه، ألكسندر الثاني، قد تم التخطيط له وتنفيذه على يد جماعة من الروس من أبناء الطبقة الراقية (ذكرت أسماءهم). حاولت الدوائر الداخلية في حزب المحافظين المتطرف إقناع القيصر بأن الاغتيال كان جزءًا من تنفيذ خطة نابعة عن مؤامرة يهودية، تهدف إلى تدمير كل العروش الملكية في العالم.

"الجنرال أورجبسكي، رئيس الشعبة الثالثة في الشرطة السياسية في روسيا (الاسم الرسمي للأوخرانكا)، هو الذي قرر استخدام الخديعة والتزوير بغية إقناع القيصر بذلك الادّعاء. ومن أجل بلوغ مأربه، بعث بوكلائه إلى باريس وأمرهم بإعداد سلسلة من الوثائق الزائفة. عمل هؤلاء بحنكة وحذر، راجعوا الكتب القديمة، بحثوا عن اقتباسات من أقوال الفلاسفة اليهود، ونبشوا في أرشيفات الثورة الفرنسية للحصول على الخطابات التحريضية.

تم ذلك كله من أجل الإثبات أن اليهود ليسوا سوى مجرمين قتلة هدفهم تدمير نظام الحكم في روسيا وعلى رأسه القيصر. لم تكن للجنرال أورجبسكي صلة مباشرة بالقيصر، فطلب مساعدة الجنرال طشربين، رئيس الأوخرانكا، التي شكلت أيضًا الحرس القيصري الخاص وكانت مسؤولة عن أمنه وسلامته".

رفض طشربين التعاون، قالت الأميرة بنوع من الكبرياء إذ ذكرت علاقتها الحميمة به، مما اضطر أورجوبسكي إلى الاستقالة من وظيفته. بقيت الوثيقة المزورة، التي أعدّت في باريس، في أرشيفات الشعبة الثالثة، أي الذراع السياسية للشرطة. كانت بيد الجنرال طشربين نسخة عنها، وقد ذكر ذلك في مخطوطة مذكراته التي خلّفها للقيصر نيقولاي الثاني بموجب وصية.
"لكن كانت لديه نسخة أخرى"، قالت الأميرة بنبرة جدّية مصوبة نظرها نحو مقابلها، "وقد أودعها بيدي، فقد كنت أعزّ الأصدقاء عنده وأقربهم إليه".

عام 1905، بعد انتهاء الحرب مع اليابان، ومع بداية الثورة الروسية الأولى، دعت الحاجة ثانية إلى إقناع القيصر بأن الشعب الروسي لا يتمرّد على نظام حكمه. وقد اهتم بالأمر هذه المرة وكلاء المخابرات وضباط الشرطة، وفي مقدمتهم سرجي ألكسندروفيتش، فكان أن فطن أحدهم لوثيقة أورجبسكي القديمة الموجودة في أرشيف الشعبة الثالثة، وبعد دراستها بإمعان تقرّر استخدامها. ومرة أخرى تم إرسال الوكلاء إلى باريس من أجل تعديل وتطوير الوثيقة الأصلية وإعداد طبعة أكثر عصرية وأوسع تفصيلاً.

أُلقيَت المهمة على عاتق رتشكوفسكي، رئيس المخابرات الروسية الشهير في باريس. كان أحد مساعديه منسيفيتش مانويلوف الذي كان له في مرحلة لاحقة عظيم التأثير على رئيس الحكومة شطرومر Shturmer، وهو الذي استغل علاقاته برسبوتين السيّئ

الذكر لأهدافه الشخصية، كما كان معه أيضًا صديقها غولوبينسكي.

بعد أن زالت كل الشكوك، تجمّع حولها طاقم التحرير لسماع القصة المشوقة، غير أن المحرر الرئيسي كان على يقين من أن مَن لم يلتقِ بالأميرة، ولم يتأثر بشخصيتها "المُكهربَة"، قد تساوره الظنون بصحة أقوالها. لا بدَّ إذن من العثور على هنرييتا هربلوت، عاد وردّد على مسمع زملائه.

عثروا عليها أخيرًا. تمنَّعت بادئ الأمر عن أي تعاون، بل وفاخرت بمعاداتها للسامية مُستنكرة الدعوة لزيارة مكاتب الصحيفة اليهودية. لكنها وافقت بعد إلحاح على التحدث إلى هيئة التحرير في بيتها. قالت إن لها آراء واضحة في مختلف المواضيع، وإنها قبل كل شيء تتحفّظ من اليهود. زَيَّنت جدران البيت بصور مختلف الشخصيات، وقد احتلت الصدارة صورة كبيرة للأمير سبيريدوفيتش. إنهم يعرفون هذا الاسم، ويعرفون أن صاحبه أحد دعاة اللاسامية الذين قدِموا إلى أمريكا منذ فترة وجيزة.
جرت المقابلة بفتور شديد. لم تكن هنرييتا تجود من ذاتها بأية معلومة، لكنها، في ردودها على أسئلتهم، قد صادقت دون رغبة على أقوال الأميرة ردزيفيل، قائلة إن عليها أن تدعم الحقيقة رغم آرائها المتطرفة.

"هذا صحيح"، قالت بعد أن بسطوا أمامها قصة الأميرة. وهي تذكر تلك الواقعة في باريس بوضوح تام. لكنها لم ترَ وثيقة أورجبسكي بعينيها، وإنما سمعت بها، ومن المحتمل أن يكون غولوبينسكي قد استعملها لغاية التزوير. بدا واضحًا أنها تضيق ذرعًا بحضورهم وتنتظر مغادرتهم بيتها بفارغ الصبر. لكن تعليمات رئيس التحرير تقضي بأن لا يكتفوا بمصادقتها الإجمالية، وأن يلحّوا بطلب التفصيل. أخذت تستذكر بالتدريج أحداث تلك الفترة الرائعة في باريس، وقد ابتسمت حين تذكّرت

حركات العميل الروسي المسرحية الذي كان يتنقّل بين بيوت النبلاء كشريك في سرِّ حَبْكِ المؤامرة الهادفة إلى مخادعة القيصر ودمار اليهود. "لقد فاخر غولوبينسكي أشد الفخر بأفعاله"، قالت، "وبالغ بالمباهاة أمام الناس. كان يحضر مباشرة من المكتبة الوطنية، حيث عمل على إعداد الوثيقة، إلى بيت الأميرة ردزيفيل، وأذكر جيدًا اليوم الذي عرض فيه أمامنا ذلك الدفتر الشهير. صحيح أن النص كُتب بخطوط يد مختلفة على صفحات مصفرَّة، وكان الدفتر مربوطًا بشريط أبيض. أنا أيضًا لاحظت بقعة الحبر الزرقاء على الغلاف".

في نهاية المقابلة لانت نوعًا ما، ولشد ما دهشوا حين جهرت بكل صراحة: "أنا شخصيًا لاسامية، وحين سمعتُ عن **بروتوكولات حُكماء صهيون** سارعتُ فاقتنيت الكتاب. لم أربط قبل ذلك بينه وبين صديقي من أيام باريس، لكني حين بدأت أقرأ قلتُ لنفسي إني أرى بصمات صديقي غولوبينسكي. لا يساورني أدنى شك بأن الكتابين متماثلين. كلانا، أي كترينا وأنا، نعرف منذ البداية أن الوثيقة زائفة، وأنها أعِدّت من أجل إثارة المشاعر المعادية لليهودية. كنّا آنذاك على يقين، وما زلتُ اليوم أعتقد، أن تلك الوثيقة الشهيرة أعِدَّت بحسب طلب رجال الأوخرانكا وبالتعاون التام مع مدبِّري المجازر. كترينا وأنا لم نفاجأ، وأضافت قائلة: "صدّقوني، كنّا على معرفة تامة بأساليبهم".

كأنما أحسّت فجأة أنها انجرفت بحديثها، فأردفت بنبرة المعتذرة: "لم أبدّل رأيي في اليهود، لكنّ تزويرًا من هذا النوع يضرُّ بالتالي بمن يؤمنون مثلي أنهم عنصر سلبي في المجتمع".
في 15 آذار 1921، أي بعد نشر اللقاء بالأميرة ردزيفيل بثلاثة أسابيع، تم نشر اللقاء بهنرييتا هربلوت على صفحات الجريدة الأسبوعية بكامل تفاصيله.

آرمند دي شايلا Armand Du Chayla

بعد ما يقرب الشهرين، وقف "جراف آرمند ألكسندر دي شايلا" أمام اتخاذ قرار صعب بهذا الشأن. كان ذلك ذات يوم ربيعي صافٍ في أوائل أبريل، بينما تنزّهَ مستمتعًا في شوارع ليون Lyon، يتأمل الغادين والرائحين في الشارع المزدحم، ويتمعَّن المعروضات في واجهات الحوانيت. يتوقف من حين لآخر بجانب دكان لبيع التحف، يتأمل الأثاث واللوحات الفنية. لكن الكتب كانت اهتمامه الأول. وقف يحدّق بغلافٍ ملوَّن، محاولاً أن ينقش في ذاكرته عناوين الكتب التي استرعت اهتمامه. ربما يكون في القريب قادرًا على شراء الكتب من جديد، فكّر آرمند.

من حُسن طالعه أن كان له بيت عاد إليه بعد انقضاء "الفترة الروسية" من حياته. على عكس حال أصدقائه النازحين الروس، الذين أمَّـــلوا العودة إلى وطنهم يومًا ما، كان آرمند يعلم أنه عاد إلى فرنسا لمدى العمر. ليته يستطيع أن يشاركهم آمالهم، فكّر من منطلق محبته للشعب الروسي، بينما راح يستذكر أيام خدمته في الجيش الروسي حيث تعرَّف إلى أبناء هذا الشعب، من كل الطبقات ومن كل أرجاء الإمبراطورية. غير أن إلمامه الواسع بتاريخ روسيا وبحضارة هذا الشعب ودينه، وهي مواضيع كان قد كتب وحاضر فيها كثيرًا، لم يترك لديه أدنى شك في أن رفاقة يتسلون بأحلام اليقظة. لقد مات ما فات، وانتهت تلك الحقبة إلى الأبد.

ولأنه صادق مع نفسه، تضاربت مشاعره تجاه النظام الجديد في روسيا؛ فهو لم يكن اشتراكيًا، وقد عارض جوانب كثيرة في هذا النظام، لكن ليس بوسعه إلا أن يعترف بأن الحكام الجدد، في بعض الأمور، قد أنصفوا الشعب الروسي الذي عانى الكثير تحت حكم القياصرة.

كان قد رحل عن وطنه فرنسا بعدما ترك المذهب الكاثوليكي واعتنق المذهب الأرثوذكسي الروسي الذي استهواه جدًا. أحبَّ

روسيا من كل قلبه، ووَدَّ لو قضى فيها العمر كله. خدمَ في الجيش الروسي وفاز بوسام التقدير الجورجياني على تميّزه. وصل في الحرب العالمية الأولى إلى درجة قائد فرقة النقل في جيش المشاة، وفي مرحلة لاحقة تم تعيينه رئيسًا للقسم السياسي في جيش الدانوب الذي اهتم بالعلاقات السياسية الدولية. باندلاع الثورة، تم إجلاؤه عن القرم، فقضى أربعة شهور مملة في اسطنبول قبل عودته إلى فرنسا. وهو الآن يقف على عتبة فصل جديد من فصول حياته، وقد بلغ السادسة والثلاثين من عمره.

أحبَّ التنزه كثيرًا، وكان السير في الهواء الطلق يساعده على تنظيم أفكاره وشحذ أحاسيسه، كما أن مقدرته على ضبط الذات قد مَكَّنته من التركيز في موضوع واحد، من خلال تجاهل كل ما يدور حوله. عقد العزم هذه المرة على الانعزال عن كل ذكريات الماضي وتكريس ما تبقّى من الصباح لتخطيط مستقبله.

لكن الأقدار شاءت غير ذلك. قادته قدماه إلى ساحة بلكور Belcour حيث أغرته المعروضات في واجهة متجر كبير للكتب. من بين كل تلك الأغلفة الملونة، وقع نظره فجأة على كتاب دون سواه. دخل المتجر، غير مصدقٍ ما ترى عيناه، ليتفحّص الكتاب عن قُرب، فوجد نفسه، دون تصميم مسبق، يُخرج من جيبه آخر ما بقي معه من الفرنكات ليشتري الكتاب.

تشوّهَ مشواره وانقطع حبل أفكاره. عاد إلى منزله يحثُّ الخُطى سالكًا أقصر الطرق، وهناك قضى بقية صباحه في مطالعة الكتاب الذي كان يرجو ألاّ يقابله أبدًا. لم يكن بحاجة إلى قراءة **بروتوكولات حُكماء صهيون** بمزيد من الإمعان، فقد قرأها في روسيا على مدى اثنتي عشرة سنة، فكانت تكفي نظرة عابرة للتأكد من تماثل الوثيقتين، لكنَّ طبيعته الموضوعية دفعته إلى التأكد من أنه ليس على خطأ. كان يعلم أن الكتاب كُتبَ أصلاً بالفرنسية، لكنه لم يعلم أنه صدر بتلك اللغة أيضًا. كان واثقًا نتيجة أبحاث سابقة، من أن مضمون الكتاب لم يكن سوى دعاية

موجَّهة إلى الموجيق الروس المفتقرين إلى الحِكمَة، كما علم أيضًا أن كاتبَيه كانا من سخفاء العملاء المحرضين في النظام الروسي البائد، وقد استغلّه المتصوّفون والمشعوذون على اختلافهم، وكانوا كثيرين في تلك الأيام. كان من الصعب عليه التصديق بأن ذلك التزييف القديم يصدر الآن في فرنسا بكل تفاصيله، وينتشر بين الشعب على أنه مستند أصيل موثوق به.

قرأ بمزيد من الدهشة مقدمة الكتاب التي كتبها الناشر جوان Jouin مفصلاً فيها تاريخ الوثيقة، واصفًا بغاية التأثر ذلك "الروسي الشهير" الذي اكتشف الوثيقة ونشرها للمرة الأولى.
"أي روسي وأي شهير؟"، همس شايلا لنفسه، وهو يرى بعيني ذاكرته صورة سرجي نيلوس واضحة كما بدا حين قابله للمرة الأولى في دير أوبتينا بوستين قبل اثنتي عشرة سنة. صورة نموذجية للرجل الروسي؛ رجل فارع الطول، عريض المنكبين، له حضور بارز. رغم أنه لم يجاوز سن الخامسة والأربعين، بدأ الشيب يغزو لحيته. الغريب أن شايلا يذكر الآن حتى لباسَ نيلوس، وبالأخص جزمته العالية وقميصه القروي ذا القبّة العالية وبها فتق من الناحية اليسرى، وحزامه الشبيه بالحبل وقد طُرّزت فيه كلمات الصلاة. لكنه يذكر بشكل خاص عينيه الزرقاوين الثاقبتين، ونظراته الغامضة المحتجبة. يا لهيبة ذلك الرجل، قال في نفسه آنذاك. رغم كل ما كان بينهما، ورغم الجدال المرير الصاخب، فإنه يذكره بشوق وحنين.

كان نيلوس بحق روسيًا أصيلاً، من النوع الذي لم يكن نادرًا في روسيا آنذاك. يذكر شايلا أن نيلوس لم يكن ذا نباهة وفِطنة، بل كان أسير الأفكار المسبقة والوطنية التعصبية والولاء اللامحدود لصاحب العرش الملكي، مسكونًا بإيمان ديني غيبي، منقطعًا تمامًا عن عالم المفاهيم المعاصرة، لكن ذلك لم يمنعه عن المتعة الجسدية. علت شفتي شيلا ابتسامة وهو يستذكر ذلك. حاول ألاّ يدمغ الرجل بدمغة الوطني عديم الوعي، لكنه يعرف نيلوس جيدًا ويعرف أنه كان بعيدًا عن واقع الحياة وأن تفوهاته بلغت أحيانًا

حدَّ الجنون. لكنه لا ينسى ابدًا ما لمسه في بيته من حسن الضيافة ودفئها، فقد فتح له أبواب بيته في الليالي الباردة، كما أنه لا ينسى نزهاتهما المشتركة على ضفاف نهر يزدرا. كم كان يصعب اللحاق بنيلوس وهو يسير بخطوات واسعة حثيثة في الدروب الوعثة، يخطب بحماس رافعًا يده، غير مدرك أن رفيقه يتخلّف وراءه. يتوقف بين الفينة والفينة، يتنفس عميقًا، يبتسم ملء شفتيه، ويتابع خطابه كما لو أنه لم يتوقف أبدًا. وأما السيدتان اللتان رافقتهما دائمًا فقد تلكأتا خلفهما.

اعتبر دي شايلا أن فورة الحنين التي تنتابه تعود إلى تلك الفترة وليس إلى الرجل. يا لروعة الأيام التي قضاها في أوبتينا بوستين! أعدَّ آنذاك دراسة من أجل إلقاء محاضرة في أكاديمية العلوم في بطرسبورغ حول الديانة الروسية، وقد نصحه المتروبوليت أنطونيوس بإعداد دراسته في دير أوبتينا بوستين، في مقاطعة كالوغا قرب مدينة كوزلسك. كانت الشهور التسعة التي قضاها هناك، اعتبارًا من يناير 1909، أسعد أيام حياته وأكثرها متعة. إن لقاءاته بنيلوس، رغم ما رافقها من غضب، قد امتزجت بذكرياته الحلوة واستقرّت في قلبه. يتهيأ له الآن أنه بات على استعداد لأن ينظر إلى الرجل بتعاطف أكثر من ذي قبل.

عُرِفَ دير أوبتينا بوستين كمركز للحياة الروحية والفكرية في روسيا. يذكر دي شايلا شيوخ ذلك الدير بمزيد الاحترام والتقدير، فلم يكن شيء يجمعهم بمن تكنَّوا بلقب الشرف "شيوخ"، من أمثال رسبوتين السيئ الذكر وغيره من المحتالين الذين ساهموا في دمار االعائلة المالكة. كان شيوخ ذلك الدير من المفكرين، ذوي الثقافة الواسعة، ومن محبي الإنسانية الداعين إلى التسامح والتفاهم بين البشر، ولم يخشوا مواجهة النظام. السمعة الطيبة لهؤلاء الشيوخ وتقاليد الثقافة الدينية الجليلة في روسيا قد اجتذبت إلى أوبتينا بوستين المثقفين والمفكرين الراغبين بالأبحاث الدينية. بين الكتب والوثائق القديمة المحفوظة في أرشيفات الدير، ما تزال محفوظة أيضًا الرسائل المتبادلة بين شيوخ الدير وبين

مشاهير الكتاب أمثال غوغول ودوستويفسكي. الأب أمبروزي، أحد رؤساء الدير البارزين، والذي اشتهر ببحثه في علم الغيب، خلّده الكاتب دوستويفسكي في رواية الأخوين كرمازوف بشخصية الأب زوسيما. وقد قضى تولستوي في هذا الدير فترة قصيرة، فطاب له المقام لدرجة أنه كان على استعداد لقضاء بقية عمره هناك شريطة ألاّ يضطرّوه إلى الانتماء رسميا إلى الكنيسة. عندما بلغ الثانية والثمانين من عمره، وشعر بدنوِّ ساعته، طلب من ابنته أن تحقق وصيته. كان يعلم أن السلطة الكنسية ستحاول منع ذلك، فلجأ إلى سلوك الطرق الالتفافية عبر المحافظات من أجل تضليل ملاحقيه، إلى أن خانته قواه. ألمَّ به المرض وانهار في محطة القطار في استرابوفو Astapovo. لفظ أنفاسه في الساعة السادسة من مساء 20 نوفمبر 1910، في بيت مدير المحطة، ممسكًا بيد ابنته التي دأبت على العمل بوصية والدها، فحالت دون إحياء المراسيم الدينية ساعة دفنه.

حين وصل دي شايلا إلى الدير وجد فيه 400 ساكنًا يعيشون ببساطة، يقضون أوقاتهم ما بين العمل في الحقول والدروس الدينية، التي قام بتدريسها آباء الدير مثل أناتولي ويوسف فرسونوفيوس. كانت المباني المركزية من الحجر، احتوت على ست كنائس وفندق ومستشفى ونزلٍ للحجّاج. أما الفيلات المحيطة بالبنايات الحجرية فقد شكّلت بيوت سكن للناس الذين رغبوا، لسبب أو لآخر، بأن يكونوا على اتصال دائم بالدير. قام أرخيمند كسينوفونت، المدير المسؤول، بمرافقة دي شايلا إلى الفيلا التي خُصِّصَت لينزل فيها في الفترة التي سيقضيها في الدير، وقدّم له جاره سرجي نيلوس.

كان دي شايلا ما يزال يتعثر بالروسية، وقد سرّه جدًّا اللقاء بجار يتكلم الفرنسية بطلاقة، فاستجاب برغبة حين دعاه نيلوس إلى بيته لتناول الشاي في ذلك المساء. تألفت الفيلا التي سكنها "أبناء عائلة" سرجي نيلوس الثلاثة من عشر غرف؛ والثلاثة هم سرجي وزوجته ألكسندرا أوزروفا وعشيقته ليدميروفا كومربسكايا التي

عانت من أمراض مختلفة وآوت إليه. عرف شايلا لاحقًا أن العائلة شغلت أربع غرف فقط، وأنهم اعتاشوا من المخصص الذي تقاضته أوزروفا من القصر الإمبراطوري كمرافقة سابقة للامبراطورة. وقد اقتضبت جزءًا من المخصص لإعانة نزلاء باقي غرف الفيلا، من ذوي العاهات والمتخلفين ومرضى النفس الذين يقصدون المكان باحثين عن علاج عجيب.

كان أثاث البيت تقليديًا وقد زيَّنَتِ الجدرانَ صورٌ لمختلف الأمراء تحمل التواقيع. غصَّت المكتبة بمختلف أنواع الكتب. وكان هناك مُصلّى صغير للعائلة. اكتنفت هذا البيت أجواء خاصة، لا يزال دي شايلا يذكر دفء علاقاته الوثيقة بهذه العائلة الغريبة، تلك العلاقات التي اضطر إلى قطعها والامتناع عنها في زياراته اللاحقة للدير، نتيجة عدم استعداد نيلوس للإصغاء إلى آراء لا تتفق ومعتقداته المتطرّفة.

منذ أن تعارفا كانا يختلفان في الرأي حول كل موضوع تقريبًا. كلاهما كان متدينًا، ونظر كل منهما إلى الدين من زاوية مختلفة. كان نيلوس أسير معتقداته التخلفية، داعيًا إلى نبذ الحضارة العصرية نبذًا تامًا، معارضًا وسائل الأبحاث العلمية الحديثة، وقد فسّر الديانة الأرثوذكسية الروسية تفسيرًا بدائيًا، كالسائد بين عامة الشعب. اعتبر الحضارة المعاصرة تجديفًا يُنذر بمجيء المسيح الدجّال، ورفض نهج أبحاث دي شايلا كليًا، إلا أنه كان يجامله ويلاينه، نظرًا لما لاحظه من اعتبار وتقدير آباء الدير له، مع ذلك لم يتوانَ عن مجادلته باستمرار محاولاً ردّه إلى التوبة.

فطن دي شايلا إلى أنه الآن في ليون، وأن عليه أن يتخذ قرارًا. كان على يقين من زيف **بروتوكولات حُكماء صهيون**، الزيف الذي سبب ليهود روسيا آلامًا لا تُطاق. لم يعد سرًّا في هذه الأيام أن أعضاء الأوخرانكا قد استغلّوا تلك الوثيقة لتدبير المجازر، بدعم تام من القصر الملكي، بينما تجاهلها أبناء الطبقة الراقية، ولم يجدوا داعيًا للجدل فيها. يا للعجب، فكّر، وثيقة كُتِبَت اصلاً

في فرنسا، وباللغة الفرنسية، تُعرَضُ الآن في فرنسا وكأنها ترجمة عن الروسية!

تردَّد دي شايلا لأنه كان قد حلَّ ضيفًا في بيت نيلوس، وقد استقبلته سيدتا "الأسرة" بحفاوة وحميمية. إن نشر معلومات حصل عليها من خلال حديث خاص في بيت مضيفه أمر يتعارض وأصول اللياقة عنده. لكن بعد تصفحه لهذا الكتاب، أدرك أن لا مجال للسكوت أكثر. ربما أن بحوزته معلومات خاصة عن حقيقة لا يستطيع أحد سواه أن يعلنها. خطرت بباله مقولة أرسطوطاليس الشهيرة "amicus plato, set magis amica veritas" (بلاتو صديقي، لكن الحقيقة أكبر منه). لا يجوز له الامتناع عن إظهار الحقيقة، قال بحسم، إن واجبه الأخلاقي يحتم عليه ذلك.

كان ذلك خلال زيارته الثانية لنيلوس في الفيلا، إذ أثيرت مشكلة اليهود أثناء الحديث. وبينما تتنزّها ذات مرّة في إحدى الغابات، التقيا برجلين، دنا أحدهما من نيلوس سائلاً أن يرشدهما إلى الطريق، وبعد أن مضى الرجلان في طريقهما، وصلت السيدتان السائرتان خلفهما، فقالت أوزروفا إنها رأت ذلك الرجل في مدينة كوزلسك يتحدث إلى صيدلاني يهودي. بَهُتَ وجه نيلوس وانفجر بخطبة تشهير باليهود. لا يصحُّ أن يتجوَل اليهودي بكل بساطة، في منطقة الدير في ظهيرة يوم الأحد، "لا شكَّ أنه يتجسّس علينا"، أعلن واثقًا. كانت تلك بداية سلسلة جدالات مريرة بينهما بشأن اليهود. عاد نيلوس وكرر أن أبناء هذا الشعب يجسّدون صورة المسيح الدجّال. إنهم ألد أعداء البشرية، وقد أصبحوا على أعتاب تحقيق حلمهم في إبادة العالم المسيحي. وعندما حاول دي شايلا لفت انتباهه إلى أن اليهود ملاحَقون في أنحاء كثيرة من العالم، وأن التمييز العنصري يمارس ضدهم، وأنهم ضحايا القتلة الروس الذين يرتكبون فيهم المذابح، كان ردّ نيلوس: "أنت أعمى، ويبدو أنهم قد نجحوا، فسحروك أنت أيضًا". بعد يومين سأله نيلوس إن كان قد قرأ **بروتوكولات حُكماء صهيون** التي شملتها الطبعة الثانية من كتابه. وإذ أجاب أنه لم يفعل، تناول نيلوس من

على الرفّ كتابًا، وراح يترجم له مقاطع من البروتوكولات إلى الفرنسية.

ذكر دي شايلا ذلك الحدث بكل تفاصيله. حاول التحدث إلى نيلوس بهدوء ومنطق. قال له إنه لم يفاجأ بوجود مثل هذه "الوثيقة"، وقد صادف من قبل مثل هذه النظريات في كتابات الصحافي الفرنسي إدوارد درومونت، ويفوقه تطرفًا المشعوذ ليو طكسيل، الذي استطاع قبل بضع سنوات أن يضلل العالم كله، بما في ذلك البابا لويس الثالث عشر. ردَّ نيلوس بفورة غضب حتى لكادت شرايين عنقه تنفجر. سيأتي يوم يغير دي شيلا رأيه، قال نيلوس. بعد أيام قليلة استلم دي شايلا عن طريق أحد نزلاء الفندق بطاقة يدعوه نيلوس فيها إلى لقاء عاجل في بيته بعد ظُهر ذلك اليوم.

استقبله نيلوس في غرفة عمله معتذرًا بأن النساء يؤدين الصلاة. بدا الثلج من خلال النافذة يكسو كل شيء بالبياض الساطع، لكن الدفء الحميم ساد أجواء الغرفة. لمح دي شايلا، على ضوء المصباح الخافت، رزمة كبيرة مغطاة بخرقة مخملية سوداء تتوسط طاولة عمل نيلوس الضخمة. في مركز الغطاء ظهر صليب مطرّز بخيوط بيضاء، ومن تحته طُرِّزت بحروف ملونة العبارة: "بهذه الشارة تنتصر"، وفي إحدى زوايا الغطاء ألصِقَت صورة صغيرة تمثل الملاك ميخائيل.

لم يدرِ دي شايلا لماذا تهيّأ له أن الأجواء توحي بمناسبة دينية أو بطقوس عبادة. قام نيلوس برسم إشارة الصليب ثلاث مرات بحركة درامية وهو يقف أمام صورة ضخمة تمثل سيدة سمولينسك المقدّسة، وهي نسخة طبق الأصل من الصورة التي ظهرت، حسب العقيدة التقليدية، في مقدمة الجيش الروسي حين أدى الجنود الصلاة التي سبقت معركة بورودين الشهيرة. بعد ذلك نزع نيلوس الغطاء بحركة احتفالية، وتناول من تحته دفترًا ذا غلاف فاخر من الجلد، قال له فيما بعد إن الغطاء المخملي

والغلاف الجلدي تم عملهما بحضوره شخصيًا في الورشة التابعة للدير، فهو لا يمكن أن يسمح ببقاء هذه الوثيقة هناك دون مراقبته، لأن اليهود سوف يسرقونها بالتأكيد. أما التطريز فقد عملته زوجته طبقًا لتوجيهاته. قال إنه أحضر الكتاب قبل ساعات قليلة من مكان مخبئه في بيت الراهب دانيال بولوتوف، وهو رسّام لوحات يسكن على بعد نصف كيلومتر من الدير. إنه يستطيع الثقة بالراهب دانيال إلى أبعد حد، قال متعجرفًا، لأن دانيال مدين له بالكثير.

عرف دي شايلا لاحقًا بماذا كان يدين دانيال لنيلوس. لقد رسم دانيال بمبادرة نيلوس لوحة يظهر فيها القيصر وزوجته وابنهما ولي العهد، يتوعَّدُهم أبناء الشياطين، من ذوي القرون والذيول والحوافر، ويظهر معتوه القرية، ميطيا كوزولسكي، صاحب القوة الخارقة للطبيعة، القاطن في نزل الدير، وهو ينقذهم من براثنهم. أصدقاء نيلوس الذين نقلوا اللوحة إلى القصر، حدثوه عن إعجاب القيصر الشديد باللوحة. دُعي ميطيا إلى القصر الإمبراطوري، ونظرًا لأنه يتمتم عادة بكلام لا يُفهم، فقد رافقه نيلوس في رحلته في القطار في الدرجة الأولى إلى العاصمة. لقبَ أبناء الطبقة العليا ميطيا بلقب "الأبله الصغير". هكذا أصبح دانيال رسّام اللوحات المرغوب في أوساط النبلاء، وأصبح نيطيا ودانيال مدينين لنيلوس بالكثير الكثير، فبواسطته استطاعا التسلل إلى المجتمع الراقي في العاصمة.

"ها هي في يدي!" أعلن نيلوس، "الماچنا كارتا الخاصة بمملكة المسيح الدجّال!"، ثم فتح الدفتر ودفع به إلى دي شايلا قائلاً بلهجة آمرة: "اقرأ، تجِدْ نفسَكَ مؤمنًا".

كانت بقعة الحبر الزرقاء-البنفسجية على غلاف الدفتر أول ما لاحظه دي شايلا. بدت كما لو أنَّ أحدًا قد حاول، دون نجاح، امتصاص حبر سال فوق الغلاف. كانت صفحات الدفتر سميكة صفراوية. لاحظ لتوّه أن هناك خطوط يد مختلفة كُتبَت بأنواع

حبر مختلفة. سارع نيلوس إلى الإيضاح: إنها لقاءات "جماعة شيوخ صهيون" فلا بدّ أن الذين دوَّنوا البروتوكولات قد تناوبوا ما بينهم، وأضاف مُعلِنًا: وهذا بحد ذاته يؤكد أصالة الوثيقة.

أحس دي شايلا، وهو مستلقٍ فوق أريكته في ليون، أنه يعيش ذلك الحدث الغريب بكل حذافيره. لقد قرأ الوثيقة كلها في الحال، وكان قلقه يشتد كلما تقدّم بالقراءة. أي حماقات هذه؟! قال في نفسه. كان واضحًا له أن الكتاب لم يُكتب بالفرنسية في الأصل، إذ لا يُعقل أن يقع كاتب فرنسيٌّ بمثل هذه الأخطاء النحوية! عندما انتهى من القراءة خطف نيلوس الدفتر من يده، لفّهُ بالخرقة المخملية السوداء وأغلق عليها دُرْجَ مكتبته. سينقلها فيما بعد شخصيًا إلى بيت الراهب دانيال.

في هذه الأثناء عادت السيدتان من الصلاة، وقامت أوزروفا بتحضير المائدة لتقديم التضييفات، بينما ساد الصمت بين الرجلين.
لم يدرِ دي شايلا إن كانت كومروبسكايا شريكة في ذلك السر العظيم، فلزم الصمتَ مُرتقِبًا، لكن نيلوس لم يكن قادرًا على ضبط النفس:"هل آمنتَ الآن، يا توما الشكّاك؟"، سأل وأردف: "يسرني سماع انطباعاتك بعد أن قرأت البروتوكولات. لا تخف، فليس بيننا أغراب. إن زوجتي على علم بكل شيء، ونحن مدينان لنتاليا كومروسكوفا، فهي التي كشفت لنا خطة أعداء المسيحية الشيطانية".

صعب عليه التصديق بأن هذه المرأة الحكيمة، التي كانت شبهَ مُقعَدَةٍ بسبب مرضها، قد لعبت دورًا في مسرحية البروتوكولات. أتراها قد تسللت إلى أرشيف "الجمهور" السري؟ لا، قال نيلوس موضحًا أن نتاليا قد عاشت سنوات في فرنسا، وهناك حصلت على الدفتر من يد أحد الجنرالات، فأحضرته معها وأودعته بين يديه الأمينتين، وأن ذلك الجنرال كان قد استطاع إخراج البروتوكولات من أرشيفات البناة الأحرار السرية في باريس.

ردًّا على تساؤل دي شايلا، أجاب نيلوس بأن اسم الجنرال ليس سرًّا، وأن اسمه رتشكوفسكي، رجل طيب ومستقيم، وقد بذل الكثير في مقاومة أعداء المسيحية.

لم يكن الاسم غريبًا على دي شايلا، فقد سمعه سابقًا من فم الطالب يوسوبوف Jesopoff الذي علمه الروسية حين كان لا يزال في باريس. روى له يوسوبوف أن رتشكوفسكي هو رئيس قلم الاستخبارات الروسية في فرنسا، وأخبره كيف ينكّل بالمهاجرين الروس. ارتبك نيلوس لوهلةٍ إذ رأى أن دي شايلا على علم بالوظيفة التي شغلها الجنرال، لكن سرعان ما تدارك نفسه، فقال بنبرة المُعلِن: "هذا الرجل بذل الكثير لمقاومة البناة الأحرار وأبناء الشيطان، بتفانٍ غير متناهٍ".

استاء نيلوس جدًّا عندما قال دي شايلا إنه لا يعتقد بحقيقة وجود ما يسمّى "شيوخ صهيون" وإن هذه الطبخة قد طُبخَت في نفس المطبخ الذي طُبخَت فيه سائر التلفيقات الأخرى التي "باعوها" للشعب الروسي المُضلّل هادفين "كشف الوجه الحقيقي للشيطان".

احتقن الدم في وجه نيلوس فقال بصوت راعد: "بل أنت من يأتمرُ بأمر الشيطان. إن قُدرة الشيطان لا تتمثل فقط في توجيهه للبشر بغية التأثير على مجرى التاريخ، وإنما أيضًا في مقدرته على إقناع أمثالك بأنه غير موجود. ماذا تقول لو جعلتُكَ ترى كيف أن شارة الشيطان السرية موجودة في كل مكان، وأثبتتُ لك بالآيات والبيّنات أنَّ خططه الجهنمية يجري تنفيذها الآن وأمام أعيننا؟" قال هذا وعاد فتناول كتابه من على الرفِّ، ثم أخرج من الدُّرج خريطة كبيرة وفرشها فوق الطاولة، ونثر حولها بضعة أوراق أخرجها من علبة كرتون. ثم أحضر من غرفة نومه صندوقًا قال عنه دي شايلا إنه "متحف المسيح الدجّال". بعد انتهائه من كل هذه التحضيرات، راح نيلوس يقرأ، دون تمييز أو تفسير، مقاطع من كتابات بعض رجال الدين الروس والكاثوليك وكتابات لمشاهير الكتاب، مثل إبسن وسولوبيوف ومرشوفسكي. ثم

فتح صندوق متحـــفه ليعرض ما أسماه "corpus delicti". احتوى الصندوق مختلف الخرق القماشية والأختام المطاطية وآنية المطبخ والحروف الأولى الرامزة إلى القيصرة ألكسندرا، والصليب الخاص بجوقة الشرف. كانت كل هذه الأشياء، على حد تعبير نيلوس، تحمل طابع المسيح الدجال، نجمة مثلثة الأطراف تمثل "شيوخ صهيون". كل شيء يحمل شارةً صوّرها له خياله كرمز للمسيح الدجّال، وجد طريقه مباشرة إلى صندوقه. بدت على وجه نيلوس أمارات الضائقة النفسية الحقيقية حين كشف لدي شايلا عن أن الرمز بات الآن يُدمج في الزركشات التي تزيّن الكنائس ومن ضمنها كنائس الدير.

جاوزت الساعة منتصف الليل، وقد أضنى دي شايلا التعب، وأحسَّ أنهما يقفان على شفا هاوية، وقد يفقدان صوابهما في كل لحظة. بذلَ محاولة أخيرة في تهدئة مضيفه، لافتًا انتباهه إلى حقيقة أن لا ذكر لذلك "الرمز" في البروتوكولات. قال لنيلوس إن ذلك الرمز ليس غريبًا، وقد ورد ذكره في كتابات الكثيرين من الصوفيين غير اليهود، ولا مبرر لاعتباره رمزًا يشكل خطرًا على المسيحية، لكن نيلوس أصمَّ أذنيه، وتابع حديثه وهو يقوم بخربشات سريعة على صفحات دفتره، يُعدُّ الحجج الداعمة لادعائه. لا فائدة من مجادلة مريض النفس هذا، قرّر دي شايلا بينه وبين نفسه.

التقى دي شايلا بنيلوس مرة أخرى في إحدى زياراته للدير، وكانت تجري في ذلك الحين محاكمة رئيس الشرطة السرية السابق، لوفوخين، التي فضحت أساليب التحقيق التي مارستها الأوخرانكا. سأل دي شايلا نيلوس بحذر إن لم يكن قد غيّر رأيه على ضوء تلك الفضائح، وهل ما زال يرفض التصديق بأن البروتوكولات هي إحدى تزييفات رتشكوفسكي الكثيرة، فاتضح له أن نيلوس ما زال غارقًا في أوهامه الغريبة، إذ أجابه باقتباس من أقوال القديس بولس "إن الله يعمل من خلال ضعف ابناء الموت"، وأضاف قائلاً: إن الله يخاطب أبناءه بمختلف الطرق،

فحتى لو كانت البروتوكولات مزيّفة، أليس محتملاً أن يكون الله قد اختار إظهار الحقيقة لنا عن طريق ذلك؟ لعله اختار أحد المزيفين ليبث لنا رسالة الحق، كما اختار آتان بلعام لتنطق بالنبوءة؟

كان لقاؤهما الأخير في دير أوبتينا بوستين أيضًا، في يوم صيفٍ صافٍ، حملت أنسامُه عبير الفاكهة الناضجة على أشجار البساتين. انحنى نيلوس فوق طاولته التي غطتها نسخة من صحيفة زناميا وخريطة كبيرة لأوروبا. كانت ثورة الشبان الأتراك في بدايتها، وجيش محمود باشا يتقدّم من سالونيكي باتجاه اسطنبول. لمح دي شايلا شكلَ ثعبان تم رسمُه بخطوط بارزة على الخريطة، ممتدًّا بين مختلف الدول الأوروبية، تظهر على امتداده تواريخ معارك مختلفة، آخرها في اسطنبول، في الطريق إلى أورشليم/القدس. ظهر على وجه نيلوس القلق الشديد، وراح يتمتم بما معناه أن الثعبان يدنو من هدفه النهائي، ثم توجَّه نحو المصلّى للصلاة من أجل تغلّب السلطان على الأتراك الشبّان. كان في الغرفة معهما الأب المرحوم مرسونوفيوس، وقد حاول عبثًا إقناع نيلوس بأن السلطان عبد الحميد يُعاقب على المذابح التي ارتكبها بحق المسيحيين، لكن أقواله أجّجَت غضب نيلوس.
لم يرَه بعد ذلك ابدًا، لكنه علَمَ أن نيلوس بعد لقائهما الأخير أصبح كثير الهيجان والعصبية بغيرِ داعٍ، مما بات يسبب الإحراج للكنيسة، فانتدبت مطرانًا لتقصّي الأمر، وبالتالي تم إقصاء نيلوس عن دير أوبتينا بوستين بعد أن تم تحذيره من محاولة العودة. تنقّل نيلوس من دير لآخر، وكان يأوي أحيانًا إلى بيوت أصدقائه. تعرّف دي شايلا على ممرّضة عالجته في مستشفى القرم بعد أن أصيب في الجيش. كانت هذه الممرضة في السابق من فتيات القصر في بطرسبرغ، وقد حدثته بأن نيلوس عاش فترة من الزمن بعد الحرب في نزل للنساء في دير بوكروف في كييف. لكن دي شايلا لم يكن يعلم أنه بينما كان يقارع ضميره في ليون كان نيلوس يعيش مع زوجته ورجل الدين الشهير سيرافيم Seraphim في جنوب روسيا؛ فبعد أن أجلاه البلشفيك قضى

فترتين من الزمن في السجن، وفي أول أيام عام 1930 فارق الحياة إثر نوبة قلبية عن عمر يناهز 68 عامًا. أما زوجته أوزروفا فقد عمّرت بعده، إلى أن ماتت فريسة البرد والجوع في منفاها في شبه جزيرة كولا على بحر الآركتيك.

كانت الشمس قد مالت إلى المغيب والظلام يغزو أجواء غرفته في ليون حين أفاقَ من لجة أفكاره. اعتقد شايلا حتى الآن أن فصل حياته الخاص بنيلوس قد انتهى إلى الأبد، فذلك الرجل الواسع المعرفة، الملمُّ بمختلف اللغات، بات مجرّد ذكرى لتطرّف عصبي من أطلال النظام البائد. حتى أن الذين أبدوا له التقدير في تلك الأيام كانوا من الذين استغلوه لغاياتهم الخاصة. هل يُعقل أن رجلاً كهذا، استطاع بقواه الذاتية أن ينشر هذا التزوير الخطير المسمى بروتوكولات حُكماء صهيون؟ وكيف أصبح يشارُ إليه في الغرب على أنه مصدر روسي موثوق به؟

لن يصيب الأذى اليهود وحدهم، توجّس دي شايلا، بل ستصبح روسيا كلها موضع سخرية واستهزاء. في 12 مايو 1921 نشر دي شايلا في جريدة آخر الأخبار الفرنسية Derniere Nouvelle المقال الأول من خمس مقالات تحت عنوان "سرجي نيلوس والبروتوكولات الصهيونية".

فيليب غراڤــز Philip Graves

أثناء الحرب العالمية الأولى، شغل فيليب غراڤــز رتبة نقيب في وحدة الاستعلامات في مختلف بلدان الشرق الأدنى، ومنها مصر وفلسطين، وقد حظيت سعة خبرته بتقدير عظيم من قبل إدارة القسم العربي في صحيفة التايمز اللندنية، وخصوصًا لكونه من أقرباء الدبلوماسي الشهير السير روبرت غراڤــز، كما أنه قد رافقه في بعثة إلى مقر الجنرال اللنبي.

في نهاية الحرب خدم في تركيا، وانتظر تسريحه بفارغ الصبر كي يعود لمزاولة وظيفته في لندن، غير أن الصحيفة رغبت باستغلال ما اكتسبه من خبرة أثناء خدمته في الجيش، فأعادته إلى تركيا كمراسلها الخاص في اسطنبول. كانت تعلو شفتيه ابتسامة حين يذكر أنه عندما أعرب لزملائه عن خيبة أمله، قال له أحدهم: "تحصل في هذه المدينة أمور كثيرة مدهشة، لكنك لو بقيت فيها الوقت الكافي فسوف تقابل شخصيات غير عادية وربما تكتشف المفتاح للكثير من الأسرار الغريبة والخفايا".

لقد تحققت نبوءة زميله ذاك بكل حذافيرها في 12 يونيو 1921. لن ينسى ذلك التاريخ مدى الحياة، فقد شكّل ذلك اليوم منعطفًا وبداية لفصل جديد في حياته، وعاد عليه بالشهرة العالمية والاكتفاء التام، وبقي حتى آخر أيامه يعتبر تلك الفترة الزمنية على أنها أوج نجاحه وسيرته الصحافية.

كان ذلك يومًا من أيام اسطنبول الحارة المشبعة بالرطوبة، الناس يسيرون متكاسلين، يصعب عليهم التركيز في شيء أو أداء عمل على النحو السليم. كان الصحافيون الأجانب مجتمعين في ناديهم الدائم، تحت مروحات السقف التي بالكاد نجحت في خلط الهواء الكثيف. الندلاء يتسارعون جاهدين لتلبية الطلبات للمشروبات الباردة. لم يخطر ببال أحد في مثل ذلك اليوم، وخلافًا للمألوف في سائر الايام، أن يطلب شرابًا كحوليًا. الجاكيتات التي كانت جزءًا من اللباس العادي في تلك الأيام كَسَت مُتَّكآت الكراسي. طُوِيَت أكمام القمصان وأرخيت ربطات العنق. إن قضاء يوم كهذا في هذه المدينة عمل غير إنساني، فكّر غراقــز. ليته ألح في طلب العطلة ليقضيها على شاطئ البحر.

دنا منه أحد الندلاء، لمس كتفه لمسة خفيفة وقال معتذرًا: "هذا الرجل يصر على تسليمك مظروفًا تسليم اليد"، وضع الرجل بين يدي غراقــز مظروفًا سميكًا وانصرف في الحال دون أن ينطق بكلمة. "يا للعجب!" قال غراقــز.

احتوى المظروف فيما احتواه على رسالة بالفرنسية من صفحة واحدة، أرفقت بها بطاقة شخصية تحمل اسم ميشيل ميخائيلوف رسلوبليف. يقول كاتب الرسالة بعبارات موضوعية إن بحوزته إثباتات دامغة على زيف الكتاب المسمّى "بروتوكولات حُكماء صهيون" الذي صدر للمرة الأولى في روسيا عام 1905، والذي يتم نشره حاليًا بنجاح فائق في مختلف الدول الأوروبية. يلفت الكاتب انتباه غراڤــز إلى أن صحيفة التايمز التي يعمل فيها قد نشرت هي أيضًا مقالاً عن البروتوكولات في 8 مايو 1920، ويضيف أن الكتاب ليس سوى سرقة أدبية وقحة عن كتاب فرنسي منسي كان قد صدر في الستينيات من القرن السابق، وهو نص سياسي قصير اعتمده المزيفون في سبيل خدمة مآربهم المعادية للسامية، لكنهم لم يفكّروا في إخفاء أفعالهم كما يجب، إذ أن مقاطع كاملة من الكتاب الفرنسي تم نقلها إلى بروتوكولات حُكماء صهيون دون أي تغيير، كما يُلاحَظ في النماذج المقتطفة الموجودة داخل المظروف.

لا شكَّ في أن هذا الكشف سيلقى رواجًا عالميًا، يقول كاتب الرسالة، وإن كان غراڤــز معنيًا بشراء الكتاب الفرنسي منه فإنه يسعد بلقائه في الغد في النادي.

نسي فجأة وطأة الحرِّ وشدة الرطوبة. أدخل المظروف في جيبه مُبديًا اللامبالاة، واستأذن بالعودة إلى البيت. لم يفكر ابدًا بتفقد بقية محتويات المظروف تحت أنظار زملائه ذوي الحواس المرهفة اليقِظَة، القادرين على شم رائحة كل معلومة وخبر، وخاصة إن كان سبقًا صحافيًا كهذا.

أعاد قراءة الرسالة في البيت، وقرأ المقتطفات المرفقة بدقّة وإمعان. إن كانت هذه المعلومات حقيقية، قال لنفسه، فقد وقعت بين يديه قصة مثيرة. لم يكن قد قرأ البروتوكولات التي نُشرَت في بريطانيا في العام المنصرم تحت اسم "الخطر اليهودي"، لكنه يذكر المقال الذي ذكره رسلوبليف. وصف الكاتبُ مضمونَ

الكتابِ بالتفصيل مشيرًا إلى أن "ثمة نواحيَ كثيرة من <الخطة اليهودية> التي يتحدث الكتاب عنها، تتطابق بشكل يثير الدهشة مع واقع الأحداث الجارية أمام أعيننا".

رسخ المقطع الأخير من المقال في ذهنه منذئذ:

> "المشكلة هي أن هذا كله يدعم العداء اللامحدود للسامية المنتشرة في شرق أوروربا [...] والآخذة بالانتشار في فرنسا وبريطانيا وأمريكا أيضًا. هل يمكن أن نسمح لأنفسنا بإضافة المزيد من الكراهية العنصرية إلى باقي مشاكلنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية؟ إن لم يكن كذلك، علينا أن نولي انتباهًا لما جاء في كُتَيب الخطر اليهودي. المادة جديرة بالاهتمام، والنظرية محبوكة بإتقان، جذابة ومثيرة بالقدر الكافي لاستقطاب انتباه جمهورنا المحبط المستاء. إن رجل الشارع على قناعة من أن شيئًا أساسيًا في حياتنا غير صحيح، ويسهل إغراؤه على تبني نظرية تأتيه بتفسير للحالة الراهنة. هل كان نضالنا في تلك السنوات المأساوية، للقضاء على الجهاز السرّي لنظام الحكم الألماني، من أجل أن نجد خلفه جهازًا أشدّ خطورة وأشدَّ سريّة؟ هل بذلنا كل طاقاتنا الوطنية في الهرب مما أسميناه "PAX GERMANICA " لنقع في أحضان "PAX JUDAICA"؟
>
> إن شيوخ صهيون، كما تصوّرهم بروتوكولاتهم، ليسوا أسهل حُكمًا من ولهلم الثاني وطبّاخيه... يجدر دراسة هذه الوثائق وتاريخها دراسة أساسية [...] تبدو للقارئ وكأنها كُتبَت عن اليهود بيد اليهود أنفسهم. فإن كان الأمر كذلك، فما هي ظروف كتابتها؟ وما هي الغاية اليهودية الداخلية منها؟ هل نتجاهل هذه الوثيقة ونسمح بتأثيرها على الجمهور، دون دراسة وتمحيص؟

جعل غراڤــز يحوم في شقته، كعادته في ساعات الحرج والتأثر. كم هو مؤسف أن لا يجد أحدًا في اسطنبول يمكن إشراكه في السر. هل يمكن أن يكون على وشك كشف حقيقة ما وراء بروتوكولات حُكماء صهيون؟ كلما تقدّمت الساعة كان يزداد إدراكه لحجم "السبق الصحافي" الذي عرضه عليه روسي مجهول الهوية، في يوم صيفٍ قائظ في اسطنبول. لشدة أسفه، لم يذكر الرجل عنوانه، مما جعله ينتظر على جمرٍ الميعاد الذي حدده رسلوبليف للغد في النادي.

أعدَّ بإيجازٍ ما كان لديه من معلومات استعدادًا للقاء. تتبَع ما كان قد نُشر من الأخبار من حين لآخر عن اللاجئين الروس، وبينهم ضباط خدموا في الجيش القيصري، من الذين وزّعوا نسخات عن البروتوكولات في العديد من البلدان الأوروبية. في السنتين الأخيرتين تم نشر الكتاب في بريطانيا، وأما المقتطفات التي في المظروف فقد اقتُطِفَت من طبعة أصدرها في فرنسا عام 1920 ناشر يُدعى جوان. لاقى الكتاب في ألمانيا نجاحًا باهرًا. بعد نشر المقال إياه في صحيفة التايمز اللندنية بوقت قصير، تم نشر مقالة افتتاحية في جريدة سبكتاتور وُصفت فيها البروتوكولات على أنها "أكثر المنشورات أهمية في نوعها". ربما أصبح مفتاح اللغز الآن بين يديه، قال غراڤــز في نفسه.

حصل اللقاء في اليوم التالي في أجواء تكتمية. في تمام الساعة الثانية عشرة التقى برسلوبليف في مدخل النادي. كان يشير بيديه ويتكلم بهمس. قَبِلَ رسلوبليف دعوة غراڤــز إلى وجبة الغداء، لكنه اهتم باختيار زاوية مظلمة في غرفة الطعام، وطلب من غراڤــز ألاّ يذكر اسمه خلال الحديث، رغم أن الندلاء كانوا يعرفونه. "للجدران آذان!"، قال بلهجة جادّة، ولم يكفّ عن إجالة النظرات المضطربة في كل اتجاه طوال زمن الوجبة. دار الحديث بينهما باللغة الإنجليزية مما أدهش غراڤــز.

بعد أن قدَّم النادل الوجبة وابتعد، أوضح رسلوبليف أن الموضوع ليس مجرد صفقة تجارية، فلو كان الأمر كذلك لتوجّه إلى المنظمات اليهودية في اسطنبول، التي يعنيها هذا الكشف بالدرجة الأولى. "لكني لا أرغب أن أضع السلاح بيد اليهود"، قال مثيرًا دهشة غراڤــز، "لم أكن أبدًا صديقًا لهم. حافظت على الكتاب بتكتم تام زمنًا طويلاً، على أمل أن أستخدمه في أحد الأيام لكي أثبت موضوعية الجماعة التي أنتمي إليها". وبعد برهة صمت قال إن الضائقة المادية هي التي تضطره إلى التخلّي عن الكتاب.
توقّع غراڤــز أن يُخرجَ رسلوبليف الكتاب في كل لحظة ليتمكّن من تصفُّحه، إلاّ أنه تذرَع بالصبر ولم يتعجل ضيفه إلى ذلك. لكن سرعان ما اتضح له أن رسلوبليف لم يحضر الكتاب معه. "هذا خطير جدًّا"، قال، لكنه إذا حصل على الضمانات الملائمة، فهو على استعداد لإرسال الكتاب إلى بيت غراڤــز في اليوم ذاته، ومعه نسخة عن البروتوكولات، ليتمكّن من إجراء المقارنة الأساسية بينهما.
ردًّا على استفسار غراڤــز قال رسلوبليف إنه لا يعرف من الذي كتب الكتاب بالفرنسية؛ الصفحة الافتتاحية مفقودة، لكنه يضمن عدم وجود أي ذكر لليهود في الكتاب. وأن هذه النسخة، على حد علمه، ربما تكون الوحيدة الباقية.
بعد أن ألح غراڤــز وكرر السؤال عدة مرات، أخبره رسلوبليف كيف وصل الكتاب إلى يده. استلمه من جنرال سابق في الأوخرانكا، قال هامسًا مُدنيًا فمه من أُذن غراڤــز، لكنه رفض بشكل قاطع الإفصاح عن اسم الجنرال.

قال إنه ينوي العودة إلى روسيا حال سقوط النظام البلشفي، وقد باهى بأنه يملك قطعتين من الأرض وبيتًا في المدينة تعادل قيمته 2000 ليرة إنجليزية. عليه أن يكون حذرًا لئلاّ يُتَّهم عند عودته بأنه باع أسرارًا لليهود. إن ذكر الأسماء قد يعرّضه للخطر. يجب حفظ الصفقة مع صحيفة التايمز في غاية السريّة.

أضاف، وهو يغضُّ الطرفَ، إنه لا يفاخر بعقد صفقة للحصول على المال، لكنه غارق في الديون وهو بحاجة ماسة لمبلغ 300 ليرة إنجليزية، مع ذلك لا يجب اعتبار العملية صفقة بيع وشراء، ويودَّ لو تقرضه الصحيفة هذا المبلغ لفترة زمنية محدودة، وسيردّه حالما يعود السلام إلى بلاده.

لم يتردّد غراڤــز أبدًا في تأكيد حفظ السرية التامة، كما وعد بأن يتصل عاجلاً بإدارة الصحيفة لتوفير المبلغ، بل إنه خاطر وأعطى رسلوبليف مبلغ 160 ليرة على الحساب من جيبه الخاص، خشية أن تضطره ضائقته المادية إلى عرض الصفقة على آخرين. هدأت نظرات رسلوبليف المتوجّسة لدى رؤية المال، وبات على استعداد للكشف عن عنوانه في اسطنبول، شارع سكستيم 33.

لم تمضِ على افتراقهما ساعة واحدة، حتى كان رسول يطرق باب بيت غراڤــز ويقدم له رزمة فيها الكتابان. قبل أن يكبَّ على القراءة، قرّر أنه بحاجة إلى مزيد من المعلومات عن ذلك الرجل الغامض، وقد حصل عليها بفضل علاقاته الواسعة في المدينة، وبعث بها تلغرافيًا في اليوم ذاته إلى محرر الصحيفة ويكهام ستيد Wickham Steed ليثبت له أن الرجل ليس مجرّد نكرة مجهولة، فكتب يقول:

"السيد ميشيل ميخائيلوف رسلوبليف هو ابن أخ الأمير ولكونسكي، وهو معروف لدى السيد طشريكوف سفير روسيا السابق في اسطنبول. إحدى صديقاته سيدة تُدعى ڤــيلطون، وهي شقيقة مراسل التايمز في بطروغراد، متزوجة من الجنرال فنشاو، جدُّ رسلوبليف لأمّه".

استطاع أيضًا معرفة أن الرجل يعمل في مكتب الصليب الأحمر في اسطنبول. أوضحَ بإيجاز الاكتشاف الغريب الذي توصّل إليه ذلك الروسي الأرثوذكسي حول كون البروتوكولات سرقة أدبية عن كتاب فرنسي، وأوجز كيف وصل الكتاب إلى يديه: "حصل الرجل على الكتاب من جنرال روسي في الأوخرانكا، يمتنع عن

ذكر اسمه. الصفحة الافتتاحية مفقودة، لكن المقدمة كُتبت في جنيف في 15 أكتوبر 1864".

تصفّحَ الكتاب الفرنسي قبل أن يبعث بالرسالة، فكتب إلى المحرر:
"كُتبَ الكتاب على شكل حوار بين مونتسكيو وميكافيللي، وهو المتحدث الرئيسي. مقاطع عديدة في الكتاب مطابقة لمقاطع في البروتوكولات (مرفق طيه نماذج)".
أما بشأن الصفقة مع رسلوبليف فقد كتب يقول: "ينتمي الرجل إلى جماعة ملكية، ولأنه لا يريد تشويه سمعته في عملية بيع معلومات سياسية للغرباء، فهو يقترح أن تتم الصفقة على صورة قرض. قرّرتُ أن أعطيه على مسؤوليتي سلفة بمبلغ 160 ليرة (مرفق بهذا إيصال)".

حثَّ غراقــز المحرِّر على الرّد دون تلكّؤ، محاولاً إشراكه في إحساسه بأن الموضوع سيحقق للتايمز سبقًا صحفيًا هائلاً: "إن البروتوكولات تقليد محض للكتاب الفرنسي، لكن اللغة الفرنسية في الكتاب أكثر جودة". تنتهي البرقية بالكلمات التالية: "أظنُّ أن من الأفضل أن يتم نشر الحقيقة على يد شخص غير يهودي [...] إن رسلوبليف يعتقد بأن الخطر اليهودي ينبع من حب اليهود للتملك وليس بالضرورة من مخططاتهم الثورية".

مرَّ أسبوع على إرسال البرقية، كان خلاله توتر وقلق غراقــز في تصاعُد. كان يخشى ألاّ يقدّر المسؤولون عنه تلك المعلومات حق تقديرها. هل نصَّ أقواله على نحو واضح ومقنع؟ مع ذلك، كانت تراوده على مدى تلك الأيام مشاعر الإثارة التي ستكتنفه عشية نشر الخبر المثير، راجيًا ألاّ يفقد رسلوبليف صبره، مُكررًا قوله له إن قرارًا كهذا لا يتم اتخاذه بلمح البصر لدى إدارة صحيفة كبيرة مثل التايمز.

أخيرًا، في 20 يوليو، وصلت البرقية المنشودة من مدير التحرير بكلمات جافة: "عطفًا على رسالتك المؤرخة 13 يوليو، نقبل العرض ونبعث بقيمة القرض. قم بدورك بإرسال الكتاب إلينا بواسطة رسول أمين، وأعلمنا بالإرسال".

أصرّت صحيفة التايمز على توقيع مستند قانوني، فتم في 2 أغسطس نص مذكرة وقعها ميشيل ميخائيلوف رسلوبليف وفيليب غراڤــز الذي خولته الصحيفة التوقيع نيابة عنها. كبادرة حسن نية لم تخصم الصحيفة السلفية التي دفعها غراڤــز للروسي، فحوَّلت إليه مبلغ 337 ليرة إنجليزية على شكل قرض لمدة خمس سنوات، رهَنَ رسلوبليف مقابل ذلك بيته في مدينة اتكارسك Atkarsk قضاء ساراتوف Saratov. تم إرسال الكتاب الذي انتُحِلَت منه نصوص ما يسمّى "**بروتوكولات حُكماء صهيون**" إلى صحيفة التايمز "المخولة باستعماله ونشره كاملاً أو جزئيًا، لمدة 5 سنوات". من جهته تعهد رسلوبليف ألاّ يستعمل الكتاب أو مضمونه طوال مدة القرض، ولدى سداد المبلغ، بانتهاء مدة القرض، "يُرَدُّ إليه الكتاب، علاوة على كل حقوقه المشمولة".

لم ينتظر غراڤــز وصول المستند الرسمي، فأرسل يوم 25 يوليو إلى لندن أول مقال من ثلاثة مقالات، أمَّل فيما بعد أن ينال بفضلها جائزة نوبل. نشرت التايمز المقالات الثلاثة بتتابع في 16 و17 و18 أغسطس، تحت عنوان "حقيقة البروتوكولات – سرقة أدبية"، بتوقيع فيليب غراڤــز. في التقديم للمقال الأول كانت كلمة التحرير، وممّا جاء فيها: "في المقالات التي ننشرها هنا، يقدّم مراسل التايمز في اسطنبول، للمرّة الأولى، إثباتًا لا لبس فيه، بأن هذه الوثيقة في جوهرها سرقة أدبية دنيئة".

أبقت الجريدة اسم رسلوبليف طي الكتمان وأسمته السيد X، رغم أن ذلك لم يُذكر في الاتفاق، وأما الكتاب الفرنسي الذي لم يُعرف أصله بعد، فقد أسموه "وثيقة جنيف". على أمل الحصول على

معلومات إضافية عن الكتاب، قام غراڤــز بوصف الكتاب كالتالي:

"مجلد صغير باللغة الفرنسية، بدون صفحة افتتاحية، حجمه 3.75/1.5 بوصة، غلافه بسيط ورخيص، تظهر على الغلاف الجلدي الخلفي الكلمة "جولي". المقدمة التي عنوانها "خبر بسيط" كُتبَت في جنيف وتحمل تاريخ 15 أكتوبر 1864. في الكتاب 324 صفحة تم تجميعها بإهمال، فبعد الصفحة 24 تظهر مباشرة الصفحات 315 – 322. حسب معلومات السيد X لا وجود لنسخة أخرى. الورق ونوع الطباعة مطابقان لما كان مألوفًا في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي. نورد هذه التفاصيل آملين أن يؤدي ذلك إلى اكتشاف اسم الكتاب. السيد X على يقين من أن الكتاب نادر الوجود، فلو كان موجودًا في الأسواق لكان كل من قرأ الأصل من عهد بعيد قد اكتشف أن البروتوكولات سرقة أدبية".

تحدث غراڤــز في المقال الثالث عن سرجي نيلوس، "ناشر البروتوكولات الأول". ففي رأيه أن ادعاءات نيلوس المختلفة بحد ذاتها، عن أصل البروتوكولات، تؤكد التزييف. "إن ما يثير الدهشة"، كتب غراڤــز، "هو أن من قام بالتزييف لم يبذل أي جهد للتمويه على السرقة الأدبية. النص مهمل. ثمة جمل وفقرات تم نقلها حرفيًّا، وثمة تماثل في تطوير الأفكار، حتّى أنه لم يُبذل أي جهد لتغيير التسلسل والترتيب عمّا هو في محاورات جنيف".

كذلك كشف غراڤــز في المقال ذاته عن جوانب مثيرة تتعلق بأول نشر للبروتوكولات، فقد كتب يقول: "إن مكتشف التزييف، السيد X، قد روى لي أنه في عام 1901، أي بعد اكتشاف البروتوكولات بوقت قصير، وقبل أن ينشرها نيلوس بأربع

سنوات، تم استخدامها في محاولة للتغلب على تأثير فيليب، قارئ أفكار ومنوّم مغناطيسي فرنسي، احتل مكانة مرموقة في البلاط الملكي في بداية القرن، وكان له تأثير شديد على القيصر والقيصرة. لكن محبوب القيصر وزوجته كرهه الكثيرون بمن فيهم أصحاب المراتب السامية ورجال الكهنوت، كما كرهه بعض المغامرين الذين طمعوا باحتلال مكانته في القصر".

أنهى غراقـــز مقاله بقوله:

1- إن البروتوكولات صياغة جديدة للكتاب الذي سندعوه هنا مؤقتًا محاورات جنيف.
2- تم تأليفها لغاية إقناع الروس ذوي الآراء المحافظة، وبالأخص الأوساط الحاكمة، بأن السبب الأساسي لتذمر المواطنين الروس الواعين سياسيًا، لا يعود إلى سياسة القمع البيروقراطية وإنما إلى مؤامرة يهودية تطوّق العالم.
3- تم نص البروتوكولات بتهوّر وإهمال.
4- مقاطع البروتوكولات، التي لم يتم نقلها عن محاورات جنيف، وفَّرتها الأوخرانكا مستعينة بيهود جنَّدهم هذا التنظيم للتحرّي على أبناء دينهم.

وانتهى إلى الخلاصة:

> إلى هنا عن البروتوكولات. في رأي الكاتب أن الضرر الذي أحدثته لم يكن بالضرورة في إثارة المشاعر المعادية لليهود، فتلك المشاعر كانت قبل البروتوكولات، وستبقى في كل بلد يواجه المشكلة اليهودية إلى أن يحصل الحل؛ لكن الضرر الأساسي يكمن في إقناع الناس، الأثرياء واصحاب الأملاك، بأن كل ظاهرة تذمُّر في الأوساط الفقيرة ليست ظاهرة طبيعية، وإنما نتيجة مُصطَنَعة من فعل تنظيم يهودي سري".

بالتوازي مع مقال غراقـــز الثالث، في 18 أغسطس، نشرت التايمز مقالاً بقلم التحرير جاء فيه: "والآن، بعد أن ثبت الزيف بشكل قاطع لا لبس فيه، يتوجب أن نترك هذه الخرافة لتغوص في لجة النسيان [...]".

بعد 73 عامًا، في أكتوبر 1994، جلستُ في أرشيف التايمز في لندن، وتفحصتُ تبادل الرسائل بين غراقـــز والمكتب في لندن، والاتفاقية التي عقدت مع غراقـــز. ما عسى كان ليقول كاتب كلمة التحرير لو عرف أن تلك "الخرافة" لم تغص أبدًا في لجة النسيان، بل إنها حية باقية، تنبعث وتتجدّد في مدارها حول العالم.

هل يُعقل هذا؟ ساءلتُ نفسي وقد تدافعت في ذهني التساؤلات الكثيرة. من المسؤول عن تلك السرقة الأدبية؟ من الذي ألّف البروتوكولات؟ من هو كاتب المحاورات بين مونتسكيو وميكافيللي؟ مثل هذه الأسئلة وضع جورج برونشفايغ نصبَ عينيه قبل 16 عامًا حين استعدَّ لمحكمة بيرن.

الفصل الخامس

كيف يدافعون عن الكذب

فون رول وتِدْلي – نازيّان سويسريان

تبدو الحال في قاعة المحكمة أحيانًا كعملية الإنتاج المسرحي، غير أن القاضي لا يستطيع رؤية ما وراء الكواليس. في السنوات الطويلة التي أصغيتُ فيها، من على منصة القضاء، لأقوال الشهود وادعاءات المحامين، كنتُ أتساءل في ذاتي، من حين لآخر، عمّا يجرى في المراحل التي تسبق المحاكمة. أصوّرُ في خيالي التحقيقات في مراكز الشرطة، وتوجيه الشهود في مكاتب المحامين، والبحث عن السوابق في المكتبات، والجلسات التي تتم فيها مناقشة التكتيك والمناورة أثناء المحكمة. أحاول التكهّن أيّ الشهود يردّدُ كلمات وضعها بعضهم في فمه، وأي حقائق يُرادُ أخفاؤها، وأي ادعاءات تقرّر إسقاطها، وأي استراتيجية تم الإعداد لها. كم أشتاقُ أحيانًا إلى تلك الأيام التي كان لي فيها، كمحامية، دور في عملية الإعداد المثيرة التي تسبق المحكمة.

لذا فقد شعرت بمزيد الارتياح، أثناء دراستي لقضيّة بيرن، حين بُسِطت أمامي، ليس فقط محاضر جلسات المحكمة كاملة، بل أيضًا الوثائق المحفوظة في الأرشيفات الخاصة لكلا الطرفين.
في الأيام التي قضيتها أمام شاشة الميكروفيلم أفكك رموز 8000 صفحة من مستندات الادعاء التي قدّمها جورج برونشفايغ إلى ويلي غوغنهايم، حاولتُ التكهّن كيف استعدّ المتهمون للدفاع في المحكمة. لكن سرعان ما بلغني أن أرشيف الدفاع محفوظ أيضًا وأنه في متناول يدي.
كان من المؤكد أن تختفي وثائق المدَّعى عليهم عن عيون الناس لولم يُسَنّ في سويسرا القانون الذي عُرف باسم "قانون الجاسوسية" في 12 يونيو 1935، أي بعد صدور قرار محكمة بيرن بخمسة أسابيع. نص هذا القانون على عقوبة السجن لكل

من يسرّبُ معلومات عن النشاط السياسي للأفراد أو المنظمات السويسرية إلى حكومة أجنبية أو حزب أو تنظيم في دولة أجنبية على نحوٍ من شأنه أن يلحق ضررًا بسويسرا أو بأحد مواطنيها أو ساكنيها. بموجب هذا القانون بوشرت تحقيقات حول نشاط بعض المواطنين السويسريين المشتبه بأنهم زوّدوا ألمانيا النازية بمعلومات، وأنهم عملوا حسب تعليمات تلقوها من ألمانيا لتوجيه خطوات الدفاع في محكمة بيرن، وذلك من خلال تعريض سلامة مواطنين يسكنون سويسرا للخطر. خلال هذه التحقيقات، قامت الشرطة، بموجب صلاحياتها، بعملية تفتيش في بيوت الذين كانت لهم علاقة بالدفاع في محكمة بيرن، ووضعت يدها على مستندات تم جمعها في ما يسمّى اليوم أرشيف فراينوالد Fryenwald، على اسم الدكتور هانس يونَك فون فراينوالد الذي عُثر في بيته على معظم المستندات.

*في عام 1938، أي بعد المحكمة بثلاث سنوات، أصدر فون فراينوالد طبعة جديدة من البروتوكولات أسماها "**المسيح الدجّال اليهودي وبروتوكولات حُكماء صهيون**"، مضيفًا مقدمة طويلة بقلمه.*

*المؤرخ السويسري فردريخ كيلينج عنوَنَ كتابه عن اللاسامية بالكلمات: **أعندنا ما عند الآخرين؟** كسائحة عرضية أعجِبتُ دائمًا بجمال هذه البلاد وأجوائها الهادئة وبآداب العاملين في فنادقها. لم أحاول أبدًا الوصل ما بين هذا الفردوس واللاسامية المتفشية في البلاد الأوروبية الأخرى. لذلك فقد فوجئتُ أثناء دراستي لتاريخ اليهود في سويسرا وقراءتي لسجلات محكمة بيرن. "أجل، سيد فردريخ كيلينج"، قلت في نفسي ردًا على سؤاله، "في سويسرا كما عند الآخرين".*

من هم المواطنون السويسريون الذين كانوا وراء الدفاع في محكمة بيرن؟ كان هناك شخصان رئيسان: أوبلد فون رول وبوريس تِدْلي، التقيا للمرة الأولى عام 1933 في مناسبة أحيتها الجبهة الوطنية، واشتركا كلاهما في اجتماع جماهيري أقيم في

كازينو بيرن في 13 يونيو من نفس العام. كلاهما أشرف على توزيع مئات النسخات من **بروتوكولات حُكماء صهيون** على المشاركين في الاجتماع. كانت تلك الطبعة الألمانية الثالث عشرة للبروتوكولات. كتب الناشر ثيودور فريطش في التقديم لها: "ثمة أمر واحد واضح: لا يمكن احتمال اليهود بيننا أكثر. إن واجب الأمم المتحضرة الأخلاقي يقضي بالتخلص من بني هذا العرق الرهيب، فإن محض وجودهم يلوّث كل ما حولهم".

"ها قد حانت اللحظة"، قال فون رول وتدلي لبعضهما، "انطلقت الحركة النازية في سويسرا في طريقها". لشدّة تأثرهما عزّ عليهما الافتراق بعد انتهاء الاجتماع، فراحا يتنزّهان، يستمتعان بنسائم الصيف العليلة ويخططان مراحل نشاط التنظيم. رغم إحساسهما بالمودة والتقارب، ما يزال واحدهما يدعو قبيله باسم العائلة. بَسَط تدلي، وهو الرائد، لصديقه فلسفته الخاصة بشأن اليهود، بينما ابتلع فون رول كل كلمة بنهم وشوق. لم يكن تدلي ليتصوّر في أجمل أحلامه أن يعثر على شريك كهذا في الرأي والهدف. اتفقا في الحال على التعاون، ولم يكن بوسع أحدهما التنبؤ بما يخبئه الغد من خلاف يتحوّل إلى عِداء بينهما.

بعد مضي بضعة شهور قدمت الجالية اليهودية قضيتها ضد سيلفيو شنل، يوهان كونراد ماير، جورج برنارد هالر، آرنست وُولطر أبرسولد وثيودور فيشر، أعضاء الجبهة الوطنية والاتحاد القومي الاشتراكي السويسري. لكن المدعى عليهم رسميًا لم يكونوا من ذوي القيمة، كما وصفهم أوبلد فون رول؛ في رسالة إلى صديقته كاراديا Karadya، قال إن المسؤولية كلها ملقاة على عاتقه بصفته ممثل الجبهة الوطنية. اتضح مع الزمن أن القضية لم تكن قضية الجبهة الوطنية، فقد اهتمّ بوريس تدلي بأن تكون تلك قضية الحركة النازية الألمانية. لقد تبيّن بعد انتهاء المحاكمة مدى تدخّل النظام النازي الألماني، وانكشفت أساليب المناورة التي مارسها هذا النظام عن طريق التحكّم من البعيد في توجيه خطوات الدفاع في محكمة بيرن.

في الثالث عشر من نوفمبر 1936، اعتقلت شرطة بيرن بوريس تدلي بعد إجراء تفتيش في شقته في جويربرشتراس 21 Gewerberschtrasse، وضبطت لديه ملفات احتوت مكاتبات جنائية ووجهت له تهمة مخالفة قانون الجاسوسية. اعترف تدلي بلا تردد في شهادته أمام الشرطة بأحاسيسه المعادية للسامية وببغضه لليهود. قال: "إن هدفي في الحياة هو مقاومة الشيوعيين واليهود والبناة الأحرار". في موقف آخر أعترف، بملء فمه، بدعمه للحركة النازية في ألمانيا: "أنا ضد البلشفيك واليهود بكل تطرّف، إنهم المذنبون الحقيقيون في الأزمة التي تجتاح العالم".

وُلد تدلي في كييف لأبوين سويسريين قدِما من Maltstaaten في كانتون سنت جالن. تطوع عام 1917 للخدمة في الجيش الروسي الأبيض، ووصل لدرجة ضابط. أدّى انفجار عبوة بالقرب منه إلى فقدان السمع شبه التام. أسرَهُ البلشفيك ثم أطلقوا سراحه إثر أصابته بالتيفوئيد، فقرر أن يستقرّ في بيرن. كان لوالديه متجر للأثاث، وقد فقدا كل ممتلكاتهما أثناء الثورة. وكما كان الحال في البيئة التي ترعرع فيها، اتهم تدلي اليهود بكل شيء.

عندما سأله المحققون: لماذا توجّه إلى القيادة الألمانية النازية في إرفورت Erfurt طالبًا الدعم للدفاع في المحكمة، أجاب: "نحن هنا في بيرن غير مدركين للمشكلة اليهودية كالخبراء في إرفورت [...] اليهود هم الخَوَنة الحقيقيون في دولتنا [...] أعترف أني أبغض اليهود ويؤسفني أنهم يسمحون لهم بالعيش في سويسرا [...] أنا ضد السامية عن وعي وإدراك، نتيجة لتجربتي الشخصية، وهذا يفسَر تصرّفي. لقد فقدَتْ أسرتي كل أملاكها، وذلك بذنب اليهود وليس بذنب الشعب الروسي".

في نطاق وظيفته ومهامه داخل التنظيمات اللاسامية قام تدلي بدور فعال في التحريض العالمي على اليهود. علاوة على علاقته الوثيقة بالمسؤولين في النظام النازي في ألمانيا، فقد مُنح

صلاحيات واسعة من قبَل "فيهرر" الحركة الفاشية الروسية، التي تمركزت في مدينة خربين في الصين. في 25 فبراير 1935 أصدر منشورًا بعنوان "نحن الروس – الله معنا"، احتوى تعليمات للحرس الأبيض، الفرع السويسري للحركة الملكية الروسية. فيما يلي مضمون المنشور:

تعليمة رقم 1

1. من هذا اليوم آخذُ على عاتقي وظيفة رئيس قسم الملكيين الروس في سويسرا بموجب قرار المجلس الأعلى للمنظمة الملكية الصادر في 24 فبراير 1935.
2. أعيّن رفيقي في النضال، فلاديمير ألكسندروفيتش كونتز، مساعدًا خاصًا لي وسكرتيرًا للفرع السويسري؛ وقد أصدرتُ تعليماتي له بمباشرة مهمته دون تأخير.

التوقيع: رئيس الفرع السويسري لمنظمة الملكيين الروس،
بوريس تدلي.

كان هذا هو المنشور الأول من سلسلة منشورات أصدر فيها تعليماته لأفراد الحرس الأبيض للقيام بمختلف المهمات، بدءًا بجمع المعلومات وانتهاء بـــ "تصفية" أشخاص في بلاد مختلفة. من حسن الحظ أن تدلي حفظ بدقة داخل ملفاته كل الرسائل التي تبادلها مع شركائه في مختلف العواصم، الأمر الذي مكَّن السلطات من إثبات التهم الموجهة إليه.

بكل جدّية، وبلا ذرَّة من الحرج، بسط تدلي للمحقق، بتؤدّة فائقة، الخطة التي أعدّها التنظيم العالمي الآري لمساعدة دول العالم على التخلّص من اليهود. في تلك المرحلة، لم تكن بعد قد نضجت الخطة النازية "الحل الأخير" لإبادة اليهود التامة، التي تبلورت بعد سنوات، لذلك فإن تدلي أعرب للمحقق عن اعتقاده بضرورة إقامة دولة لليهود، لكن بما أن فلسطين يسكنها العرب

فإنها لا تتسع لكل يهود العالم. تردُ في الحسبان جزيرة مدغشقر، فهي مناسبة ومثالية لهذه الغاية.
لم يكن تدلي قلقًا رغم اتهامه رسميًا بجناية خطيرة. هذا ما ذكره في رسالة لأحد أصدقائه: "لستُ قلقًا أبدًا من التُّهَم الموجهة إليّ، إذ أن فلايشهاورFleischhauer أكّد لي أنه سيتوسط لصالحي لدى هيملر". كان فلايشهاور رئيسًا لمقر القيادة النازية الألمانية في إرفورت، الذي أسموه "الخدمة للشعب" Weltdienst. ذكر تدلي في رسالته أنه تعرّض في الماضي لتحقيق مشابه: "لا تقلق من الاتهام بنشر الدعاية النازية، فمنذ عشرة أيام دعاني قائد الشرطة وأبلغني أني بُرِّئتُ من كل تهمة تتعلق بنشاطي في نشر الدعاية السياسية، ما عدا تلك المتعلقة بالكومنترن. لقد كشف لي القائد أنه بذاته لاسامي. اِفهمْ إذن أن قلقي لم يكن له داعٍ".

سارعت شرطة بيرن إلى إصدار تكذيب.
وسارع فلايشهاور إلى تهنئته، فكتب له: "يسعدني أن أسمع أن الشرطة أقرّت بأنك لم ترتكب مخالفة. عليك أن تشدّد وتكرر لهم أن تنظيمنا هو تنظيم عالمي وليس ألمانيًا، وأن وجود مركزه في ألمانيا هو لمرحلة زمنية فقط، ولأسباب وقائية".

في البداية، وافق تدلي عن رغبة على التعاون مع أوبلد فون رول، حين طلب إليهما الفرع المحلي للجبهة الوطنية دعم الدفاع في قضية بيرن، رغم أن إشراكهما في الأمر جاء بعد عدة شهور من بداية المحكمة رسميًا. في الواقع، لم يولِ المدّعى عليهم في بادئ الأمر كثير أهمية للدعوى المرفوعة ضدهم، حتى أن البعض منهم لم يهتم بتوكيل محامٍ، لكنهم غيّروا موقفهم حين اتضح لهم أن المدّعين والقاضي يحملون القضية على محمل الجد، وأن المحاكمة قد تُشكّل أداة هامة وبالغة التأثير في خدمة الدعاية النازية. ألقيَت المهمة على عاتق فون رول الذي كان قد عُيِّنَ رسميًا رئيسًا لفرع الجبهة الوطنية في بيرن "Gauleiter"، وذلك تقديرًا لنشاطه في الإعداد للمؤتمر، وبفضل الانطباع الذي

تركه إثر خطابه القصير الذي أعلن فيه أنه ينذُرُ نفسه "للهدف". عُيِّنَ تدلي نائبًا له.
لكن أوبلد، بعد المؤتمر، خشي أن يكون قد تهوّرَ حين عرض أن يكرِّس كل وقته للتنظيم. لا يعرف بعد ماذا سيكون مصير دراسته الجامعية. أصابه القلق والأرق وهو يفكر ماذا يقول لوالده في لقائه القريب به؟ إن والده يطلب تقريرًا مفصّلاً بإنجازاته الدراسية قبل أن يمدَّ له الحوالة بقيمة المخصص الشهري الذي كان مصدر دخله الوحيد. يجب أن يغير الجيل السابق ترتيب سلم أولوياته، علينا نحن الشباب أن نعلّمهم ما هو الأهم لمستقبل الوطن.
حديثه مع تدلي رفع من معنوياته وشدّد من عزمِه، رغم صعوبة التواصل مع رجل يعاني صممًا شديدًا. كان شديد الإعجاب بعلاقات تدلي الدولية. لم يكن يعلم بعد أن علاقات تدلي بألمانيا سوف تملي خطوات الدفاع في محكمة بيرن وسوف تشكّل بؤرة الخلاف بينهما.

الألمان يدخلون الصورة

مضى ما يقارب السنة منذ الجلسة التمهيدية لمحكمة بيرن، دون أن يجد المدَّعى عليهم شاهدًا خبيرًا يدعم حجتهم. يصعب القول إنهم لم يحاولوا، فقد اقترحوا عدة أسماء، لكن توجهات موظف المحكمة المتكررة إلى المرشحين باءت بالفشل، إما بسبب الرفض الصريح أو بسبب عدم الرد بتاتًا. دأب القاضي على دعوة الموكلين إلى مكتبه من حين لآخر، لكن موكلي المدّعى عليهم لجأوا إلى مختلف الذرائع للحصول على تأجيل، إلى أن نفذ صبر القاضي ماير، وأعلن أنه يعيّن السيد كارل ألبرت لوسلي Loosli كخبير من قِبَل المحكمة ويصادق على تعيين البروفسور آرثور باومــچرتن من قِبَل الإدِّعاء. لم يكن بوسع المدّعى عليهم اقتراح أسماء جديدة بعد أن أيقنوا أن ليس ثمة خبير يقبل بادعاءاتهم.

في الثامن من أغسطس 1934 أبلغ القاضي الخبيرين بتعيينهما رسميًا، طالبًا منهما تقديم تقريريهما في موعد أقصاه 15 أكتوبر، وتم تعيين جلسة المحكمة لتاريخ 29 أكتوبر 1934.
قبل بدء المحكمة بعشرة أيام، أي في 10 أكتوبر، كتب فون رول رسالة إلى "البيت البني في ميونيخ" حول موضوع "محكمة البروتوكولات الصهيونية". لم يحمل المظروف أي عنوان، فقد كان معلومًا للجميع أن "البيت البني" هو مقرّ أدولف هتلر.

كتب فون رول أنه متشائم بخصوص نتائج القضية، لأن محاميهم قد انسحب من الحركة بعد أن ارتكب أخطاء شديدة. طلب الدعم المعنوي والمادي. قال إنهم بحاجة ماسة للمال ولخبير يدعمهم، وأضاف: سيُحضر اليهود الشهود من كل أنحاء العالم، شخصيات بارزة لها اعتبارها، ولا توجد بيد الدفاع أية بينات تدحض شهاداتهم. "إن اليهود يخططون لإنزال ضربة قاضية بالحركة النازية"، حذّر فون رول في نهاية رسالته.

في 2 نوفمبر تلقى فون رول ردًّا من رودولف هس، نائب هتلر، يقول بجفاف: تم تحويل الموضوع إلى عناية القسم القضائي.
تحفّظ "البيت البني" من التدخل الرسمي العلني في محكمة بيرن، وأناط المهمة بالفرع المسمّى "الخدمة للشعب" في إرفورت، والذي يرأسه أورليخ فلايشهاور. تم الوصل بالجماعة بمبادرة بوريس تدلي، فقد كان آنذاك مسؤولاً عن دار إصدار ونشر الكتب "Bodung Verlag" التابعة للفرع والتي أسسها فلايشهاور عام 1919. كان فلايشهاور ملازمًا أوّلاً متقاعدًا، قاد وحدة مدفعية في الجيش الألماني في الحرب العالمية الأولى، وتم تسريحه بعد إصابة بالغة. انتقل عام 1933 للسكن في إرفورت حيث أسس مركز "الخدمة للشعب"، وهو مركز لنشر الدعاية المعادية للسامية، الهدف منه توثيق العلاقات بالحركات اللاسامية في أنحاء العالم. هذا المركز الذي حظي بالدعم والتمويل التام من الحكومة الألمانية، دأب على تأسيس حركة لمقاومة "اليهودية العالمية". وقد أعلنت صحيفته، التي تحمل اسم الحركة والناطقة

بلسانها، أنه ينوي "معالجة أحابيل العالم السفلي اليهودي". المنشورات كلها، بما فيها المعجم اللاسامي "طابع الحقيقة" (Sigilla Veri)، تُرجمت لعدة لغات ووزِّعَت في بلاد العالم. كذلك أنشأ فلايشهاور أيضًا حركة عالمية عموم–آرية، كانت تحيي لقاءات سنوية في إرفورت يرأسها هو بنفسه.

في بداية طريقي ظننت أني سأتناول تلفيقة عن وجود مؤامرة يهودية عالمية، وإذ بي أواجه أدلّة على وجود شبكة عالمية تضم أفرادًا ومنظمات، يوحدهم بغضهم لليهود ويخططون لاتهام اليهود بكل شرٍّ ممكن، ويصورونهم كأعداء ألدّاء، يهدّدون سلام العالم عامة، وسلام الدول المسيحية خاصة. إذَن، كانت هناك مؤامرة، لكنها ليست من اليهود وإنما ضد اليهود. رغم كل جهودي لم أعثر بين الرسائل التي تبادلوها على أية محاولة لكشف الحقيقة. تذنيب اليهود لم يكن أبدًا موضع شك، بل هو أمر بديهي. لم يجدوا ضرورة لدراسة وتحليل الأحداث التاريخية، بل لجأوا إلى تفسيرها على نحو يجرّمُ اليهود. لم يُبذَل أي جهد للعثور على بينات نزيهة لعرضها أمام المحكمة في بيرن، وبدل ذلك استثمروا جهودًا كبيرة في التلاعب بالحقائق وابتكار الوسائل لتمويه الحقيقة وتشويهها، فلم يجدوا سلاحًا أجدى من ***بروتوكولات حُكماء صهيون*** *ولا تنظيمًا يؤيد ادعاءاتهم أكثر من "الخدمة للشعب الألماني". الواقع أن محكمة بيرن كانت هدية من السماء بالنسبة لأولريخ فلايشهاور، فقد وجد أخيرًا منبرًا عامًا يستطيع اعتلاءه لمواجهة اليهود وليؤكد للمسؤولين عنه أهمية مساهمته لتحقيق الغاية المشتركة.*

في 22 أكتوبر 1934 كتب فلايشهاور لفون رول عارضًا دعمه في محكمة بيرن: "اعتمد عليَّ، إني ملمٌّ جيدًا بكل ما يتعلق باليهود". اعتبارًا من هذه الرسالة الأولى تحدَّدت الصلاحيات؛ لا يودُّ فلايشهاور أن يكون عازف الكمان الثاني في هذا الكونسيرت. طلَب منه بلهجة تقريرية أن يرسل إليه فورًا تقريرًا ستنوغرافيًا وافيًا بكل مجريات المحكمة، وأضاف: "أرجو أن تبلغ

اليهودية (Judentum) أن هذه الإجراءات ستكشف للعالم كله الحقيقة عن نفوذ اليهود، وستعرض في ضوء الشمس كل ما يحاول اليهود إخفاءه. أقنعهم بأن لا جدوى لهم من هذه القضية، وأن متابعتها حماقة منهم، فمن شأنها أن تفتح أعين الآريين في كل العالم على ما يفعل اليهود بهم".

هكذا بدأ التعاون الوثيق، الصاخب، الدرامي أحيانًا، ما بين الدفاع في محكمة بيرن وبين القيادة النازية في مركز "الخدمة للشعب" في إرفورت، مما جعل فلايشهاور يحتل فيما بعد مكانًا له في مقدمة المسرح.

إرفورت تسيطر على القضية

سندير حملة سريّة، هكذا قرّر فلايشهاور، فاليهود متواجدون في كل مكان. تم الاتفاق على كلمة السر، ومُنع منعًا باتًا ذكر الأسماء أو العناوين أو مكان الالتقاء كتابيًا. كانت قائمة الرموز السرية تتوسع وتزداد مع الأيام، حتى بلغ العدد في القائمة الأخيرة 82 اسمًا مستعارًا. حظيت الشخصيات الرئيسية بأكثر من اسم مستعار؛ لُقبَ فون رول باسم Herzer و Hoche، أما لقب تدلي فقد كان Tauber و Haberling وكانت ألقاب فلايشهاورSlacher و Duering و Flache . يحتاج القائد إلى حماية خاصة، لذا كان له ألقاب ثلاثة. صدرت التعليمات بأن تبقى الأموال التي يتم إيداعها مجهولة المصدر، مع التشديد على أن لا يكون أي توثيق يشير إلى أنها من مصدر ألماني.

يتم الاتصال عن طريق البريد، باعتباره آمنًا، طالما حافظوا على استعمال الأسماء السرية. يجب الإقلال من اللقاءات وجهًا لوجه، على أن تجري لدى الضرورة في أماكن عمومية، مثل محطة القطار. كانت كل رسالة واردة من إرفورت تنتهي بالتنبيه إلى ضرورة المحافظة على السرية والأخذ بتدابير الحيطة والحذر.

حين زرتُ إميل رآس في المستشفى، بعد مضي 50 سنة، كان ما يزال ينتفض لدى سماع اسم فلايشهاور، لدرجة أن أطباءه كادوا يمنعونه من متابعة الحديث معي. كان واضحًا لي أنه يبحث عن عبارة مناسبة ليصف المحكمة، وفجأة قال بصوت راجف لشدة تأثره: "يجب أن تفهمي، لم تقف البروتوكولات وحدها في مواجهة العدالة في بيرن، وإنما وقفت معها كل ظواهر اللاسامية المريضة والبشعة. واجهنا عقلية فلايشهاور المريضة المشوّهة، الذي جعل من الموضوع غايته في الحياة".

سرعان ما أدرك فون رول أنه أخطأ، ليس فقط لأن الألمان قد سيطروا على القضية، بل لأنهم لم تكن لديهم أية فكرة عن كيفية سير المحاكم في سويسرا. هو شخصيًا لا يملك الخبرة الواسعة، لكن الواضح له أن المحاكم في سويسرا تطلب الأدلّة العملية، فلا تكفي الشعارات النازية. مع تزايد شكوكه وتراجع ثقته بفلايشهاور، راح يبذل جهودًا يائسة في البحث عن علاقات بديلة وعن شهود وتمويل، عن طريق منظمات نازية في البلاد الأخرى. فاخر فوق كل شيء باتصاله بالأميرة كراديا، والدة القنصل العام الروماني في برلين؛ امرأة أرستقراطية مسنّة وميسورة الحال، كانت تسكن فيلا "لوكس" في مونتي لوكارنو. كانت للأميرة علاقات واسعة وأصدقاء كثيرون في مختلف المجموعات اللاسامية في أوروبا، وقد أسست هي بنفسها حركة أنجلو–أمريكية دعتها حركة الدفاع الآرية، وهي الحركة التي توجه إليها فون رول بطلب الدعم.

رغم أنها كرّست حياتها لتأسيس رابطة عالمية معادية لليهود، ورغم استعدادها لدعم كل نشاط معادٍ للسامية، لكنها حاولت قدر استطاعتها الابتعاد عن كل نشاط سري وخفّي. "أريد بناء "واجهة" (façade) تكون كلها بيضاء زاهية لامعة، لا يكون فيها أي عنصر سرّي أو مشبوه"، هذا ما كتبته لفون رول. لا مجال للظن بأنها لم تكن على دراية بالوسائل التي تستعملها المنظمات المعادية للسامية ضد اليهود، لكنها لم ترغب أن تكون شريكة

فيها. "أنا الذراع اليسرى"، كتبت تقول، "ولا أريد أن أعرف ماذا تفعل الذراع اليمنى". طلبت منه ألاّ يكتب لها عن أي عمل تدميري، ومع ذلك فقد حذَّرت من أن ممارسي تلك الأعمال يجب أن يكونوا على جانب من الحذر الشديد، لأن "الـــواجهة" لن تتحمّل مغبّة أفعالهم.

يتضح أن الصورة المثالية التي رسمتها كراديا عن "الواجهة البيضاء النقية" لم تمنع دعمها الحماسي للمجموعات التي اعتبرتها "الذراع اليمنى" التي قامت بكل "الأعمال القذرة"، إذ أنها لم تكتفِ بتنظيم وتمويل المجموعات اللاسامية في مختلف البلاد، بل إنها أمسكت بالخيوط في كل اتجاه يمكن أن يدفع بها نحو الهدف، ورغم سنها المتقدمة، لم يقتصر نشاطها على التراسل الدائم مع المركز في إرفورت، بل قامت بعدة زيارات من أجل المساهمة في تخطيط العمليات اللاسامية حول العالم.

تطورت بين فون رول وبين كراديا علاقات شخصية حميمة، لكن رغم أنها دعته في مراسلتها "الصديق العزيز" فقد حافظ هو على التوجه إليها بلقب "صاحبة السمو". لها فقط أفضى بمكنونات صدره، من خلال رسائله المطوّله، في وصفه للصعوبات التي يواجهها الدفاع في محكمة بيرن وعلاقاته المعقدة مع الجماعة في إرفورت. تذمّر باستمرار من تسلطهم على القضية رغم افتقارهم إلى المعرفة الأساسية عن كيفية عمل الديمقراطية ودور القضاء في سويسرا. إنهم لا يعترفون بحقيقة أن على الدفاع الاستعانة فقط بالشهود "الأنقياء"؛ كما كتب يقول: إن شاهدًا مثل يوليوس شطرايخر، محرر الجريدة النازية "در شطيرمر"، على سبيل المثال، لا يردُ أبدًا في الحسبان، وفلايشهاور يبالغ في تأدية دور الضابط البروسي.

السيدة الأخرى التي علَّق عليها الآمال الكثيرة كانت لسلي فراي، وهي التي كانت قد اتهمت أحاد هعام بأنه مؤلف البروتوكولات، وقدّمت نفسها على أنها خبيرة عالمية في **بروتوكولات حُكماء**

صهيون. بات اسم عائلتها بعد الزواج شيشمريف، وأما اسمها في قائمة الرموز في إرفورت فقد كان "لوريير" أو "غوردون". اعتقد فون رول أن الدفاع قد عثر على شاهدة خبيرة وممتازة، فقد أُعجِبَ بدراستها "المتعمقة" ذات الصفحات الثلاثين التي نشرتها في باريس في الجريدة اللاسامية "فرنسا القديمة" تحت عنوان "أحاد هعام والصهيونية – حقيقة البروتوكولات". نظرًا لأنه لم يحاول التأكد من مقدرتها، فقد فاتته حقيقة أن چراف ليفنطلاو، الذي اقتبس "بحثها"، قد ألزمته محكمة ألمانية بالاعتذار من أحاد هعام وبدفع تعويض له، وذلك لأنه لم يتمكن من إثبات الحقائق الواردة في المقال. لكن نظريات السيدة فراي، المفتقرة إلى الأساس، لم تكن هي التي أقنعت أخيرًا طاقم الدفاع بإلغاء ترشيحها "كشاهدة خبيرة"، أتخذ القرار في إحدى الجلسات النادرة لرسم خطوات الدفاع. كانوا على علم بمختلف الآراء المنتشرة في العالم بشأن أصل البروتوكولات، وبناء على توصيات المحامين، قرّروا تبنّي رأيٍ واحدٍ لعرضه في المحكمة. صحيح أنهم لا يملكون دليلاً على صحة البروتوكولات، لكن يجب، على الأقل، أن يطرحوا وجهة نظر معقولة. لا أسهل من ذلك، قال فون رول، النظرية الأكثر شعبية تقول إن الوثيقة قد أقرّتها وتبنتها القيادة اليهودية في الكونغرس الصهيوني الأول في مدينة بازل عام 1897. وتقول هذه النظرية إن الجلسات المفتوحة في الكونغرس خُصِّصت للتباحث في تأسيس الحركة الصهيونية، لكن ذلك لم يكن سوى استعراض يُقصد منه مخادعة العالم، أما الجلسات الحقيقية فقد تمت بمنتهى السرية خلف الكواليس، وفيها بحث رؤساء اليهود موضوع السيطرة اليهودية على العالم، طبقًا للخطة التفصيلية التي عرضها ثيودور هرتسل.

تم قبول اقتراحه بحماس، لكن سرعان ما تبيّن لهم أن الأخذ بهذه النظرية يحتم عليهم الاستغناء عن خدمات لسلي فراي التي أثبتت في دراستها بالآية والبيّنة أنه لا يجوز نسب كتابة البروتوكولات لهرتسل؛ ليس فقط لأن التواريخ لا تتناسب، وإنما أيضًا لأن البروتوكولات كُتبت في الأصل باللغة العبرية، وهرتسل لا يجيد

العبرية، هذا بالإضافة إلى أن هرتسل لم يُمنح أبدًا اللقب "عبقري".

*أثناء دراستي لتاريخ **البروتوكولات**، تبيَن لي أني لا أتعامل مع نظرية كاذبة واحدة أو وثيقة مزيفة واحدة، فمن خلال المحاولات لترسيخ حقيقة **البروتوكولات** نسجوا شبكة من الأكاذيب، الكذبة أشد غرابة من الأخرى. استنتاجات لسلي، التي لا أساس لها، ما هي إلا نموذج واحد من نماذج عديدة. ليس فقط لأن **البرتوكولات** لم تُكتب أصلا بالعبرية، بل لأنها، ولفائق الدهشة، لم تُترجم أبدًا إلى العبرية. كيف استطاعت لسلي فراي معرفة أن اللقب "عبقري" هو كنية مُنِحَت للعلماء اليهود في زمن معين وليس لقب نبالة؟*

في رسائله إلى كراديا استمر فون رول يفضي ويفصح عن مخاوفه وعن خيبة أمله من مناورات شركائه. توصَّل إلى الاستنتاج بأنهم، وبكل بساطة، لا يتخاطبون بنفس اللغة. يخيَل له أحيانًا أنه الوحيد الذي يفكّر جديًّا بنتائج المحكمة. إن فلايشهاور وزمرته، كتب قائلا، لا يقومون بالإعداد لإقناع القاضي. يبدو له أن غايتهم هي استغلال قاعة المحكمة كمنبر لمخاطبة الجمهور. سبق أن قالوا له: ستكون هناك الصحافة من كل العالم. إنها فرصة ذهبية للتحدث إلى الرأي العام العالمي. لقد شاهدوا بعيون خيالهم العناوين الرئيسية على الصفحات الأولى في الصحف تعمّم رسالتهم. قالوا إن صحف أوروبا ستكون في خدمتهم. يقاسي العالم من الركود الاقتصادي، يغزوه الخوف من حرب قادمة ومن انتشار الشيوعية؛ الرأي العام في أوروبا عام 1934 مستعد وجاهز لتبني الاتهامات ضد اليهود. قالوا إنهم لا يعملون على إقناع القاضي ماير، لأن المحكمة الحقيقية ستكون أمام شعوب العالم. الواضح، في اعتبارهم، أن قوانين الأدلة لا تنطبق على محاكمة من هذا النوع، ويمكنهم الكذب دون تمييز، إن هم فعلوا ذلك بحكمة وخاطبوا احتياجات جمهور الهدف وأفكاره المسبقة.

لم يكن، حسب تقديرهم، أي طعم لبذل الجهد في البحث عن أدلة لإثبات حقيقة البروتوكولات، فهم في قرارتهم يقرّون بزيفها. ثار غضب فون رول. لكن على الأقل، كتب يقول، على المحامين إقناع القاضي بأن ليس من صلاحيته البت في موضوع حقيقة البروتوكولات.

"لا خيار لنا"، كتب لكراديا، "سيكون خط دفاعنا أن ليس ثمة دليل قاطع على التزييف". على ضوء موقف شركائه، كان جليًّا له أن لا مجال لتوقع نتائج إيجابية من المحكمة السويسرية. كتب يقول: صحيح أن الرأي العام ضد اليهود، لكنَّ قاضيًا سويسريًا، حتى لو كان داعمًا لموقفنا، لا يلجأ أبدًا إلى ابتداع الأدلة ولا يحاول إخفاء أدلة تحت البساط. أملنا الوحيد هو أن نستطيع الإثبات أن ثمة خطة يهودية للسيطرة على العالم. ربما يجدر أن نتبنى تكتيك هنري فورد، اقترح على رفاقه ذات يوم، فندّعي أن الأحداث الحاصلة أمام أعيننا تؤكد أن البروتوكولات حقيقة وأن اليهود يتسلطون على العالم عمليًا.

كان هناك اقتراح آخر، ففي إحدى الجلسات اقترح أحدهم التركيز في الدعاية على تكاليف المحكمة الباهظة التي يتحملها دافع الضرائب السويسري. الكل يعلم مدى حساسية هذا الشعب للمال، قال باسِمًا.

في هذه الأثناء كان فلايشهاور يحثهم من وراء الحدود. إن هذه القضية على أعلى مستويات الأهمية، من الناحية الخلقية والناحية النفسية. يجب أن نكسب القضية، حتى لا يخطر ببال أي يهودي في المستقبل أن يرفع دعوى مماثلة. "اليهود يحاولون ذبحَنا"، كتب.

في رسائله إلى كراديا أعرب فون رول عن إحساسه بأنهم قد تحوّلوا إلى فرع للحزب القومي- الاشتراكي الألماني.

كان ذلك متأخرًا. سأل أوبلد فون رول أسئلة كثيرة وبدأ فلايشهاور يمهّد الطريق لإقالته. حين استفسر فون رول عن اللجنة العالمية التي جمع باسمها فلايشهاور المال من أنحاء العالم، فرغ صبر الملازم أول الألماني، فانقض غاضبًا على شريكه السويسري في رسالة لا سابق لها: "لقد صُدِمتُ، ولا أجد الكلمات لوصف سلوكك. مررتُ في حياتي بأحداث كثيرة، لكني لا أجد العبارة المناسبة لوصف طلبك الوقح. لماذا تحتاج هذه المعلومات؟ يجب أن تكون مسرورًا بوجود لجنة تهتم بالقضية! إنها تهتم بكل النواحي التي لا أستطيع أنا، كخبير متمرِّس، أن أتفرَّغ لها. قابلتُ في حياتي الكثيرين من الناس، وعالجتُ الكثير من المواضيع، ولم أواجه أبدًا ظاهرة شبيهة. لن تحصل منّا مُطلقًا على أسماء أعضاء اللجنة ومن يرأسها!"
انتهت الرسالة بتهديد واضح: "أرى لزامًا عليَّ أن أبعث إلى اللجنة تقريرًا بسلوكك!"

بات فون رول يشكل مصدر إزعاج. في 11 نوفمبر 1935، تم إرسال تقرير إلى إرفورد بشأن فصله من وظيفته "Gauleiter" الجبهة الوطنية في بيرن. عيّن مكانه بوريس تدلي.

من حينه فُرض الانضباط التام. كل فرد في لجنةٍ أو هيئةٍ بات مراقبًا، وتم إبلاغ المركز باسماء المشبوهين. السيدة رنزاو Renzau سكرتيرة قديمة، تبلغ من العمر 45 عامًا، كانت تعمل في مكتب إرفورت. تجرأت ذات يوم فكرَّرت، بحضور تدلي، نكتة كانت قد سمعتها. تقول النكتة إنهم عندما فتحوا وصية جبلاس بعد موته وجدوا فيها نتائج الاستفتاء الشعبي المُقبل. صَدر إلى ألمانيا بحقّها تقريرٌ عاجل، وتم إرسال السيدة المسكينة إلى معسكر اعتقال. نكتة واحدة كانت كافية لترسل موظفة متفانية إلى موت شبه أكيد.

وسائل الدفاع

أحد الأسئلة الصعبة التي يواجهها تقريبًا كل محامٍ في حياته المهنية هو "كيف تدافع عن موكّلٍ مُذنِب؟" الجواب الصادر من أفواه المحامين هو نفسه دائمًا: ليسوا هم من يدينون الشخص، فتلك هي وظيفة المحكمة. إنهم يمثلونه فقط، يهتمون بألاّ تُهضَمَ حقوقه وبإيصال ادعائه إلى المحكمة بالشكل اللائق. أما المشكلة الأخلاقية المتعلقة بإطلاق سراح مجرم قاتل أو مغتصب خطير، فيتم تبريرها بادعاءات شكلية يُبديها المحامون بقدر من الحرج. يظهر أن هذه المشكلة الأخلاقية لن تبرح تقلق الناس في غياب الجواب الذي يرضيهم ويتماشى مع حاسة العدالة الطبيعية لديهم. والحقيقة هي أنه طالما كان هناك خطر احتمال تجريم الأبرياء فإنه يتحتم توفير التمثيل القضائي النزيه لكل متَّهم. الإجابة الحقيقية تتعلق بالجانب الأخلاقي: ما هو الخط الأحمر؟ ما الذي يرفض المحامي أن يفعله في خدمة موكله؟

يظهر أن المدعى عليهم في محكمة بيرن قد أحسنوا اختيار ممثليهم؛ فهؤلاء المحامون، مثل موكليهم، لم يقلقهم التفكير في الجانب الأخلاقي. لم يحاولوا ابدًا اكتشاف الحقيقة او العثور على شهود صادقين يعززون ادعاء الدفاع. انحصر استعدادهم للقضية في البحث عن مادة جنائية ضد الادعاء. تفحصوا كلَّ ذيلٍ لواقعِ أمرٍ يمكن أن يشكل أساسًا للتشهير بأحد الشهود أو قادة الجالية اليهودية وتحقيره. إن الأمر الذي ازعجهم أشد الإزعاج، كان التقرير الذي رفعه كارل البرت لوسلي، الخبير الذي عينته المحكمة. يجب تحطيم صورته في عيون الناس، أمرَ فلايشهاور، فصدرت التعليمات الخطية بالبحث عن شائبة في ماضيه. لم يكن حد لغضب فلايشهاور حين تبيَن له أن جهوده ضاعت سُدى.

كارل ألبرت لوسلي

"لو قيل لي قبل بضعة شهور أني مزمعٌ أن أعالج في العلن موضوع اليهود أو ما يسمى "المشكلة اليهودية"، لأدهشني ذلك جدًا. لكني اليوم أجد أن من واجبي، كمواطن سويسري ذي ضمير حي، أن أفعل ذلك". بهذه الكلمات استهلَّ كارل ألبرت لوسلي كتابه الصادر في بيرن عام 1927.

منذ طفولته الغضّة علموه الكراهية لليهود. وحين كان في الخامسة من عمره رَووا له كيف صلب اليهود الأشرارُ المسيحَ، وقد قصَّت والدته على ضيوفها بمباهاة أن المربيّة وجدت الطفل ذات يوم يرتب المكعبات على شكل صليب فوق السجادة، ويعلن أنه سيضرب اليهود بهذا الصليب الخشبي. ابتسم الضيوف بتأثرٍ ولاطفوا رأس الطفل قائلين: يا له من طفل ذكي! وحين كان يرفض أكل لحم الخنزير المدخّن، لأنه لا يحب طعمه، كانت تقول له بتحذير: سيظن الناس أنك يهودي.

كارل ألبرت لوسلي
الخبير من طرف المحكمة.

في قريتهم سكنت أسرة يهودية واحدة، أسرة ميسورة عملت في تجارة الخيول. ما يزال يذكر البيت الريفي الكبير الذي طُليت الأبجورات في نوافذه باللون الأحمر وقضبان الحديد باللون الأصفر. أسماه الأطفال "بيت اليهود" وحرصوا على عدم الاختباء

في ساحته الواسعة حين لعبوا الاستغماية، لكنهم حين كانوا يدخلون للبحث عن الكرة، إذا سقطت في الساحة من ضربة خاطئة، كانوا يخرجون دائمًا وفي أيديهم تفاحة أو أجاصة أو قطعة كعك. ما زال طعم الكعكة اللذيذ على لسانه، لكن الأطفال كانوا يعتقدون، لسبب ما، أن للمآكل طعمًا يهوديًا خاصًا.

كان لتلك الأسرة ولدان، وكان أحدهما من أترابه في الصف. كانت علاقته به جيدة لكنها لم تبلغ درجة الصداقة. حين كان الولدان اليهوديان يتخاطبان بالفرنسية، لأن والديهما جاءا من فرنسا، ظن هو وزملاؤه أنهما يتكلمان العبرية، ولأنهما تخاطبا بهمس، أعتبروا أنهما يخفيان سرًّا. لم يعرف من اليهود غيرهما إلى أن أصبح بعد عدة سنوات طالبًا جامعيًا، حيث التقى بطلاب من أصل يهودي. في هذه المرحلة كان لوسلي قد طورّ شخصيته وآراءه الخاصة، رافضًا تصديق النظريات والأفكار المسبقة التي راجت في مجتمعه دون تمحيص. فضوله الثقافي واستقامته الطبيعية جعلاه ينظر إلى زملائه اليهود في الصف بعين فاحصة. جاء معظمهم من روسيا أو بولونيا، راضين بحياة الفقر في الغربة من أجل اكتساب المعرفة، بعد أن سُدَّت أبواب الجامعات في وجوههم في أوطانهم لكونهم يهودًا. يا لهم من مساكين، فكّر لوسلي، كم هم بعيدون عن اليهودي الثري مصّاص الدماء! كانت عاداتهم ونهج حياتهم غريبة في نظره، لكنه كان كلما تأمّلهم يزداد تقديره لحسن آدابهم ولاجتهادهم ولإخلاصهم، ليس لدراستهم فحسب، وإنما ايضًا للمُثُل العليا التي آمنوا بها. نظرًا لفضوله المطبوع، فقد لبّى أحيانًا دعوتهم له لزيارتهم في الغرف البائسة التي سكنوها، حيث كانوا يناقشون بكل جدّية، حتى ساعات الليل المتأخرة، أمورًا ذات أهمية اجتماعية أو سياسية، وكأنما لم تكن لديهم مشاكلهم الخاصة. أثناء ذهابه إلى البيت ماشيًا في الليل في الشوارع الخالية، كان يقول لنفسه إن هؤلاء الناس على استعداد للتضحية بحياتهم من أجل المثل العليا. وقد ثبت له مع الزمن أن بعضهم قد فعل ذلك عمليًا، وهو وإن كان

قد حسدهم على هذا التفاني، إلاّ أنه كان يدرك أنه لا يستطيع مجاراتهم فيه.

بعد أن أصبح تاجرًا وناقدًا للأعمال الفنية، كان يقول لأصدقائه إنه يفضّل الاتجار مع اليهود. كانوا دائمًا على استعداد لإبعاد كل لوحة اعتُبِرَت زائفة عن المعرض، حتى لو كان في ذلك خسارة مادية. كان رفاقه يومئون برؤوسهم تعبيرًا عن الموافقة، لكن كان فيهم من يتحفّظ: "هذا لا يعني أن الكلّ كذلك. ربما أن التجار الذين تعاملت معهم كانوا مستقيمين، رغم كونهم يهودًا". أدرك ألبرت أن أصدقاءه لا يشاطرونه التحوّل الذي حصل عنده بالنسبة لليهود، وأنهم ما يزالون كما كانوا، متمسكين بآرائهم المسبقة.

في يوم من أيام عام 1924 جاءه صديق بالطبعة الألمانية لبروتوكولات حُكماء صهيون التي أصدرها ألفرد روزنبرغ. كان قد قرأ في إحدى الصحف عن وجود وثيقة تشهد بأن ثمة خطة يهودية للسيطرة على العالم، لكنه تجاهل الخبر معتبرًا أنه هراء محض. بعد تصفحه لبعض صفحات الكتاب كاد يلقي به في سلة المهملات، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة احترامًا منه لكل ما يسمّى كتابًا. لم يعتدْ إلقاء كتاب في سلة المهملات حتى لو لم يعجبه. لكن هذا الكتاب خلطٌ شنيع ومبتذل، ربما أن أحد الأغبياء أراد لنفسه التفكّهَ، فكَّر. في ذلك الوقت كان لوسلي قد اشتهر كمؤرخ جاد، كاتب وناقد فنّي، وحين قال له أحد أصدقائه إن الكثيرين من القراء يؤمنون بمضمون الكتاب، وأن الجماعات اللاسامية جعلته كتابها المقدّس، قرّر أن يقرأه حتى النهاية.

وذات مرّة، عندما اشترى جريدة، ناوله صاحب الكشك كتاب هنري فورد، "اليهودي العالمي"، الذي كان يوزّع مجانًا لكل من يشتري الجريدة. أمَّلَ لوسلي أن يجد في هذا الكتاب دعمًا لرأيه الثابت بأن البروتوكولات ليست إلا قمامة، إلاّ أن مشاغله الكثيرة لم تمكنه من قراءة الكتاب، فاليهود ومشاكلهم لم يكونوا على

رأس سلم أولوياته. حين تفرّغ أخيرًا لقراءة الكتاب صُدِمَ بموقف فورد الذي اعتنق البروتوكولات بلا أدنى تردد، وساعد على نشرها في العالم! لم يسمع لوسلي أبدًا عن فيليب غراڤــز ولم يقرأ مقالاته في التايمز اللندنية، لكن البروتوكولات، لسبب ما، ذكرته بكتاب وقع سابقًا بين يديه، إنه كتاب موريس جولي عن نظام حكم نابوليون الثالث. بعد جهد بسيط استطاع لوسلي، المدمن جمع الكتب، أن يعثر على الكتاب في مكتبته، غير مُقدّرٍ أن بين يديه نسخة نادرة. استشاط غضبًا وهو يقارن بين الكتابين، إن ما يراه ليس مجرّد تزوير، بل سرقة أدبية صلفة بلا أدنى شك. إن هنري فورد وألفرد روزنبرغ، في نظره، شريكان في الجرم، ولو كان الأمر في يده لقاضاهما قانونيًا. لكن، كمواطن سويسري صالح، فإن بوسعه أن يفعل شيئًا من أجل كشف الأكذوبة. عقد العزمَ على كتابة كتاب عن اليهود واليهودية وعن الشر الكامن في اللاسامية.

في بحثه عن تاريخ اليهود في بلاده تبيّن له أنه قد تم منح اليهود الحقوق الكاملة للمواطن منذ 28 مايو 1847. لماذا إذن، بعد 50 عامًا، ما تزال بعض الجماعات في سويسرا تميزهم للأسوأ؟ كيف يحصل ذلك في دولة فيها نصف يهودي مقابل كل 100 مواطن من أصل آري؟

كان لوسلي في الماضي معجبًا جدًّا بهنري فورد. كان شديد التأثر بأسطورة الميكانيكي الأمريكي الفقير الذي أصبح صاحب الملايين الأوسع شهرة في العالم. كان فورد في نظره صاحب رؤيا، وقدوة للأجيال الصاعدة في كل مكان، وتجسيدًا لكل ما هو إيجابي في ذلك القرن، لذا فقد كانت خيبة أمله شديدة بعد قراءته لكتاب فورد. هل يُعقل أن رجلاً كهذا أصيبَ بعَمَى البصيرة؟ كيف سمح لنفسه أن ينشر بتوقيعه حقائق يستطيعُ طالب مدرسة في المرحلة الإعدادية أن يدحضها؟ لا يصل اليهود إلى نسبة واحد بالألف من سكان العالم، يعيش غالبهم في فقر مدقع؛ كيف يمكن القول إن باستطاعة حكومة سرية يهودية أن توجه العالم

بجرّهِ من أنفهِ؟ كيف يمكن التفكير بأن 300 من اليهود الذين يشكلون المجلس اليهودي الأعلى، حسب كتاب فورد، يسببون الحروب والثورات؟ كيف ينسبون إليهم التلاعب بالاقتصاد العالمي والبنوك والبورصة، في حين أنهم عاجزون عن حماية أبناء شعبهم من التفرقة العنصرية والملاحقات الوحشية؟ كيف يمكن لرجل كهنري فورد أن يدعم مثل هذه الأكاذيب الخرقاء؟

مما أثار استغراب لوسلي هو أن فورد يرى أن القيصر الألماني ويلهلم لم يكن هو الذي سبَّبَ الحرب من أجل تحقيق الحلم الألماني، ولم تكن الشركات الألمانية، مثل كروب، التي بحثت عن أسواق جديدة لمنتوجاتها، ولا الألمان الذين انتزعوا الإلزاس واللورين من جيرانهم الفرنسيين. الصحافة اليهودية هي الملامة! وفي رأيه أن اليهود كانوا وراء اغتيال ولي العهد النمساوي في سراييفو، الرصاصات التي افتتحت الحرب العالمية الأولى؛ واليهود هم الذين جرّوا إلى الحرب دولا لا يهود فيها، كاليابان ومونت نيغرو؛ وهم المذنبون في إعلان الصين الحرب على ألمانيا. وبالتالي، كان دخول الحكومة الأمريكية المترددة في الحرب بناء على ما أملته الدسائس اليهودية. كيف يمكن لرجل كهنري فورد أن يحمل مثل هذه الأفكار السخيفة؟

أغاظت لوسلي بشكل خاص فقرة معينة في كتاب فورد، حيث يقول: إن اليهود، بعد أن دبّروا اشتعال الحرب، وورَّطوا البشرية في صراعات دامية، لم يسهموا أبدًا في المجهود الوطني لإنقاذ الوطن الذي عاشوا في رحابه. لعلَّ الرجل لم يتقصَّ الحقيقة؟ هنالك أدلة كثيرة تشهد على الجهود الوطنية لليهود في كل أرض وجدوا لهم ملجأ فيها. فخلال الحرب كان في صفوف الجيش الألماني 100,000 يهوديًا، منهم 12,000 دُفنوا في المدافن العسكرية، و 35,000 حملوا على طية ستراتهم وسام الصليب الحديدي بكل فخر، وهو وسام رفيع على التميّز والشجاعة في ساحة الوغى، وهذه حقيقة ثابتة وموثقة لدى الدول الأخرى التي شاركت في الحرب. أراد أن يؤلف كتابًا عن اليهود، فوجد نفسه،

دونما يدري، في مشادة مع هنري فورد! انتابه إحباط شديد من هذا الرجل، لدرجة أنه وجد في كتاب فورد إهانة شخصية. إنها في الواقع إهانة لذكاء كل إنسان مُفكّر، قال في نفسه.

أسوة بالكثيرين ممّن سبقوه، من اليهود وغير اليهود، اعتقد لوسلي أنه قادر على مقاومة اللاسامية متزودًا بالحقائق والكتب. لقد أخطأ إذ ظنَّ لسذاجته أن بوسعه إقناع العالم بخطأ فورد عن طريق اللجوء إلى الحقائق والمنطق السليم. كان واثقًا أنه مع صدور كتابه ستتم إزالة كتب فورد من الأكشاك ومتاجر الكتب.
أليست هي الشعوب الآرية التي حاولت، على مدى ألف عام، فرض دينها على الآخرين، مستخدمة وسائل وحشية؟ لماذا لا يذكرون أن نصب الصليب في بلاد الأخرين جرّ وراءه الموت والدمار لـــ "غير المؤمنين"؟ ألم يكونوا أولئك هم أبناء الأصل الآري الذين استعبدوا شعوبًا بأكملها؟ أوليسوا هم من أطلقوا على غيرهم من الشعوب تسمية "أبناء العرق الدون" وسلبوا حريتم ونهبوا أراضيهم، بل ونكروا عليهم حقهم بالصلاة إلى الله حسب عقيدتهم؟ فكيف يستطيعون اتهام اليهود بكل ذلك، ويقولون إنهم هم الضحية؟

إنه يخجل من نفسه حين يذكر كيف علموه في طفولته أن كل اليهود أشرار. قرر، من منطلق ساخر، أن يطلق على كتابه اسم "**اليهود الأشرار**"، لكن السخرية طارت من عيون القراء الذين ظنوا لأول وهلة أنه كتاب آخر ضد اليهود، وحين اتضح لهم أن الكتاب يدافع عن اليهود، اختفى على عجل من المكتبات والدكاكين. أدرك لوسلي ما أدركه سابقوه، أن لا مجال للبحث عن أسباب معاداة السامية والدوافع إليها، فهي بديهة قائمة، وكل من يحاول مقاومتها بالحقيقة والمنطق يكون كمن يناطح الصخر.
بعد أن طوى النسيان كتاب لوسلي بزمن طويل، عاد كتاب فورد إلى الظهور، مرارًا وتكرارًا، بمختلف اللغات وفي مختلف أنحاء العالم، رغم اعتذار فورد المعلن، ورغم تعهده بمنع انتشاره.

في عام 1934 قام القاضي ماير بتعيين لوسلي كشاهد خبير من قبل المحكمة في قضية بيرن. حرص القاضي على عدم تعيين خبير يهودي. كان من الصعب العثور على خبير لديه استعداد لمواجهة المهمة، أما لوسلي فقد وافق بعد كثير تردد. كان يعلم أن لا فائدة تُرجى من مجادلة اللاساميين في محضر عام. نحن لا نتعامل هنا مع وقائع، قال في نفسه، بل مع آراء مسبقة. لكن ما دام يستحيل التصدي لأمثال هنري فورد في المكتبات، فلربما يتيسَر ذلك في قاعة المحكمة؟ الموضوع هذه المرة ليس اليهود، إنه كتاب زائف. ظن أنه لن يصطدم بمحض العنصريين، فمن المفروض أن يُحضر الدفاع بدوره شاهدًا خبيرًا، ومن المؤكد أنه لن يكون مثل فورد الذي لا يمكنه اجتياز عتبة المحكمة. هل كان بوسعه أن يعرف أنه سيواجه "خبيرًا" مثل فلايشهاور؟

سبق لأوبلد فون رول أن قرأ كتاب لوسلي، فعرف أنهم سيواجهون خبيرًا مستقيمًا لا يخضع لتأثير أو رشوة. تشهد مراسلاته مع الأميرة كراديا بأن كانت له محاولات يائسة للعثور على خبير من قبل الدفاع لدحض ادعاءات لوسلي التي كان بإمكان فلايشهاور التكهن بمضمونها. كانت تعليمات المركز في إرفورت واضحة: يجب إيجاد بيّنات لإبطال مصداقية لوسلي. في 28 نوفمبر كتب فلايشهاور إلى سيلفيو شنِل: "عليكم البدء بالعمل الجاد! أنا بحاجة إلى معلومات عن أشخاص باسم لوسلي للتعرف على هوية الشخص الذي نتعامل معه. هل هو الوحيد الذي يحمل هذا الاسم؟ أم أن هناك آخرون؟ افحصوا إن كان قد زار الجزائر عام 1906". كان موضوع الزيارة للجزائر، لسبب أو لآخر، مصدر قلق لدى فلايشهاور، وقد كرر ذكره مرارًا في رسائله. "لا يمكن أن تتصوروا رَوعة المواد التي وصلتني من باريس، لكنها ستبقى عديمة القيمة إلاّ إذا استطعنا الربط ما بين لوسلي والزيارة في الجزائر". لم تمضِ أيام قليلة حتى جاء رد تدلي موقعًا باللقب "ديرينغ"، وفيه قائمة باسماء كل حَمَلة الاسم "لوسلي" كما يظهر في دليل التليفون، غير أنه لم يستطع العثور على أية معلومات بشأن زيارة الجزائر. وبالتالي، اضطر الجميع إلى

الإقرار بعدم وجود ما يربط لوسلي بإقامة في شمال أفريقيا أو زيارة إلى هناك.

في 26 أكتوبر، أي قبل بدء المحكمة بثلاثة أيام، جلس جورج برونشفايغ في مكتبه، في ساعات المساء المتأخرة، يحاول ترتيب أفكاره وأوراقه، رغم شعوره بالإرهاق والعُصاب. وفجأة رنّ جرس الهاتف. لم يرغب برفع السماعة، لكن الهاتف لم يكفّ عن الرنين، فرفع السماعة مضطرًا ليتخلص من إزعاج الرنين. قدم المتحدث نفسه كيهودي صاحب مصلحة عمل صغيرة، وقال بصوت متأثر إن متجرًا كبيرًا للكتب يعرض كتبًا في معاداة السامية. حاول جورج تهدئة الرجل، ووعد بأن يعرِّج على ذلك المتجر في طريقه إلى البيت، خاصة وأن الشارع الذي يقع فيه المتجر لا يبعد عن مكتبه، في مركز المدينة. سرّه إلى حد ما أن يجد ذريعة لمفارقة طاولة مكتبه، ولم تمض ساعة حتى كان يشق طريقه بخطىً حثيثة إلى دكان الكتب في الشارع الرئيسي لمدينة بيرن، ولشدّ ما كانت دهشته حين شاهد صفوفًا من كتاب لوسلي "اليهود الأشرار"، تحتل مركز واجهة العرض. تحسّنت للفور حال مزاجه، فإن كان صاحب المتجر السويسري قد توقع الأرباح من بيع الكتب عن اليهود، فمعنى ذلك أن مدينة بيرن تعرف عن المحكمة المقتربة. لأصحاب الحوانيت في بيرن حاسة شم قوية تجاه الأعمال، فكّر والبسمة تعلو شفتيه.

المحكمة توشك على البدء وصاحب المتجر يتوخّى الشهرة الواسعة المجانية. عُرِضَ الكتابُ بغلافه الأحمر على أنه "الكشف الأول من محاكمة بيرن".

إذن، فسوف يكون لهم منبر، وسيكون هناك جمهور يشاهد ويستمع. بقي عليه وعلى زملائه أن يُحسنوا استغلال المنصةِ بالشكل اللائق.

إن في الأمر رهبة، لكنه مشوِّقٌ لمحام شاب يقف على عتبة سيرته المهنية، وفوق كل شيء فإن فيه امتيازًا وفرصة لا يمكن ليهودي أن يفوِّتها.

وفيما وقف مقابل متجر الكتب، وسط رياح الخريف الباردة، وبعد شهور من العمل المرهق المفعم بمشاعر الريبة والإحباط، قرّر جورج برونشفايغ أن عليه أن يكسب القضية. يجب الاّ يفشلوا تحت أي ظرف من الظروف.

قرارات صعبة

الخيال والواقع

قرأ جورج برونشفايغ، وأعاد قراءة المقابلة مع الأميرة ردزيفيل، ومقالات دي شايلا وغرافـز. تزاحم في رأسه خليط من الأفكار. استعصى عليه التوفيق ما بين هذه الظاهرة المدهشة وما آمن به هو. لقد درسَ الحقوق من أجل خدمة الحق والعدالة. وهو يرى أن الكراهية العمياء والآراء المسبقة تنبع عن الجهل، وأن المعتقدات الخاطئة تستند إلى وقائع خاطئة. كان يؤمن إيمانًا أساسيًا بالإنسانية. دع الناس يعرفون الحقيقة، يتوصّلوا بأنفسهم إلى الاستنتاج الصحيح. ما القانون في رأيه إلاّ أداة لعرض الحقيقة في الضوء الصحيح، مصحوبة بصوت السلطة القضائية المنزّهة وغير المنحازة. لم يعرف سبيلاً أفضل لمواجة شهود الباطل، والمسحاء الكذبة، والأصوليين على أنواعهم، ممن يشيعون الأكاذيب لخدمة مآربهم الخاصة وغير الشرعية. لم يكن القضاء بالنسبة له ممارسة أكاديمية، وإنما أداة لترسيخ ونشر العدالة من أجل بناء مجتمع أفضل. قال له الكثيرون من أصدقائه إنه ساذج، وإن العمل في القضاء هو حرفة أو مهنة، ككل مهنة أخرى، ووسيلة جيدة لربح المعيشة باحترام. قالوا إن المحامي يمثل الحقيقة الذاتية والخاصة بموكله، وليس الحقيقة المطلقة.

الغريب أن جورج لم يفقد براءته على مدى مسيرته المهنية الغنية. حرص على تمثيل زبائنه الذين آمن بمصداقيتهم، وعلى دعم كل غاية اعتبرها جديرة بدعمه. كيف استطاع المحافظة على مواقفه الأخلاقية؟ وكيف حقق ذلك النجاح الباهر وأصبح من المحامين الذين يشار إليهم بالبنان، دون أن يُصاب بجرثومة العبث والفساد؟ مثل هذه الأسئلة كثيرًا ما وجهها أصدقاؤه إلى أوديت وإميل رآس، وقد اتفق الاثنان على أن محكمة بيرن هي

التي صقلت شخصيته وسيرته المهنية وحتى نسق حياته. يذكر كلاهما كيف أرغمهما على قراءة أقوال ردزيفيل ودي شايلا وفيليب غراقــز، وكيف اضطرهما على الإصغاء إليه حتى ساعات الصباح الأولى، وهو يقرأ عليهما بصوت عالٍ مقتطفات من كتاب الصحافي والمؤرخ المعروف بنيامين سيغل: "**بروتوكولات حُكماء صهيون- أكبر أكاذيب التاريخ**"، الصادر في ألمانيا عام 1924. قال لهما إن كتاب سيغل لاقى عظيم التقدير في الأوساط الأكاديمية، نظرًا لما فيه من الحقائق الدقيقة ومواضيع البحث الأساسية والتحليل المنطقي اللامع. كان بين الحين والآخر يدمج فقرات من كتاب العالم الإنجليزي لوسيان وولف "**الحقيقة عن بروتوكولات حُكماء صهيون**"، ومن كتاب هرمن برنشطاين، الدبلوماسي الذي قاضى هنري فورد، "**حكاية أكذوبة – بروتوكولات حكماء صهيون**"، مُشدِّدًا على أن الكتابين الأخيرين كانا قد صدرا عام 1921، أي قبل اكتشاف حقيقة مصدر البروتوكولات.

كيف يمكن أن يكون ناشرو البروتوكولات قد تجاهلوا كليًا كل هذه الحقائق التي تم توثيقها في الكتب، وكُتبَت عنها المقالات في الصحف المرموقة؟ سأل وأعادَ وهو يجوب أطراف الغرفة التي يغشاها الدخان جيئة وذهابًا. ما الذي يوفر الحصانة للكاذبين؟ أين هم المفكرون؟ وأين صوت الأكاديميين؟!

تسربل المثقفون الصمتَ. كان بين القلة التي همَّها الأمر، الكاتب الألماني توماس مان، الذي كان سيغل قد أهداه كتابه، فأثنى توماس على عمله الجيد، وأعرب عن ثقته من أن ذلك سيأتي على نهاية تلك الوثيقة الحمقاء. لكن هناك من كان أقل تفاؤلاً، فقد كتب البروفسور هانس دلبريك، من جامعة برلين، في 27 أغسطس 1925: "أنت تبالغ في توقعاتك من العلوم الألمانية، بإمكان العلوم المقاومة بالوسائل العلمية، وأمّا الحماقة فلا حيلة فيها حتى لله!".

المحامي في مأزق تكتيكي

لم يكن لديه أدنى شك بضرورة استدعاء الشهود الثلاثة: الأميرة ردزيفيل، وآرمند دي شايلا، وفيليب غرافــز. ليس فقط لأن كل واحد من هؤلاء قد وفّر له معلومات ذات قيمة مميّزة، وليس فقط لأن أحدًا منهم لم يكن يهوديًا، فلن يكون مجال لاتهامهم بتشويه الحقيقة، ولكن الأهم من كل ذلك هو أن ما رَوَوهُ عن تجربة شخصية يتوافق ويدعم بعضه البعض. وبالفعل، كان في تلك الشهادات ما يجيبُ على التساؤلات المُحرجة التي قد يطرحها القاضي حول: من ألّفَ البروتوكولات؟ ومتى؟ وأين؟ ولأية غاية؟

استعدادًا لجلسة الطاقم، أعدَّ جورج قائمة بالفوائد التي يمكن جنيها من دعوة أولئك الشهود.

1- يصادق الثلاثة على أن البروتوكولات وإن كانت قد نُشرت في روسيا أولاً، إلاّ أنها كُتبت في فرنسا.
2- ردزيفيل ودي شايلا يؤكدان أن النص الأول الذي شاهداه بأم أعينهم كُتبَ بالفرنسية.
3- رغم أن المذكورين قد شاهدا النص الأول في بلدين مختلفين وفي زمنين مختلفين، فقد كان وصفهما متطابقًا: خطوط يد مختلفة في دفتر على غلافه بقعة حبر أزرق.
4- شهد الثلاثة بالعلاقة ما بين البروتوكولات والشرطة السرية الروسية، وقد شاهدت ردزيفيل بعينيها المخطوطة بين أيدي أحد المزورين الذين عملوا لدى رتشكوفسكي، كبير وكلاء الاستخبارات الروس في فرنسا، كما أن دي شايلا ذكر أمام نيلوس أن الوثيقة قد بَعَثَ بها الجنرال رتشكوفسكي بواسطة السيدة كومارويسكايا.
5- قبل اكتشافات فيليب غرافــز، كانت ما تزال هناك أسئلة تفتقر إلى إجابة منطقية. تساءل الجميع لماذا يقوم الوكلاء الروس بكتابة وثيقة باللغة الفرنسية طالما أنها معدّة للنشر في روسيا؟ لم يفهم دي شايلا لماذا توجد في

الوثيقة فقرات كُتبت بلغة فرنسية بليغة، وأخرى مليئة بالأخطاء النحوية؟ وبالطبع لم يكن واضحًا كيف يقوم عملاء الشرطة بكتابة وثيقة معقدة كهذه.
لقد قدم فيليب غراڤــز إجابات منطقية لكل هذه التساؤلات. تم نقل ما يقرب من ثلثي الكتاب حرفيًا، عن كتاب موريس جولي صاحب اللغة الفرنسية الممتازة. خلال العمل على ملاءمة الكتاب لاحتياجاتهم وأهدافهم، اضطر المؤلفون إلى التنازل عن صيغة الحوار وعن شخصية ميكافيللي ومونتسكيو. في هذه الظروف أصبح من الأسهل عليهم أن يكتبوا بالفرنسية وثيقة سياسية تبدو وكأنها بروتوكول من جلسات الحكومة اليهودية السرية. من هنا بات واضحًا وضوح الشمس لماذا تختلف الفقرات من حيث جودة اللغة.

لا يمكن لهم أن يكتفوا بإبراز الكتاب أمام المحكمة، قرَر جورج. يجب أن يقدم غراڤــز للمحكمة عرضًا دراميًا بوقائع لقاءاته باللاجئ الروسي الذي استلم الكتاب من كولونيل خدم في الشرطة السرية الروسية. ربما أمكن أيضًا إقناعه بالكشف عن اسم المُبلغ الروسي.

6- إن شهادة كترينا ردزيفيل قد تعزَّزَت بشهادة هنرييتا هربلوت اللاسامية الشهيرة، التي لم يكن شيء يدعوها لمساعدة اليهود، وقد أضافت من عندها أشياء لم تذكرها الأميرة. لا احتمال لموافقة هذه السيدة على الحضور للشهادة، لكن ربما تتذكر كترينا ردزيفيل هذه التفاصيل الإضافية. فعلى سبيل المثال، قالت هربلوت إن غولوبينسكي كان يعمل في المكتبة الوطنية في باريس.

لم يكن لتلك المعلومة أية أهمية آنذاك، أما اليوم، فقد باتت لها أهمية كبرى، فكّر جورج بانفعال. طلب من صديق له أن يساعده في البحث عن كتاب موريس جولي، فأجابه أن الكتاب

قد اختفى كليًا من الأسواق منذ أن منعت السلطات نشره، لكن نسخة واحدة ما تزال محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس. فيما تفحّص الصديقُ تلك النسخة لاحظ أن بعض الفقرات تم التعليم عليها بقلم رصاص. طلب جورج إلى صديقه تعريف تلك الفقرات، وسرعان ما اتضح أن كل الفقرات المشار إليها بالرصاص تطابق تمامًا فقرات نُقلت إلى البروتوكولات. يبدو أن من قام بالتزييف كان شديد الثقة بنفسه، لدرجة أنه لم يفكر بمحو الإشارات الرصاصية، فكّر جورج وقال في نفسه: إن بيِّنةً كهذه هي هِبَة من السماء بالنسبة لكل محامٍ.

بات جورج الآن، ولأول مرة، يؤمن بأن كسب القضية أصبح محتملا جدًا، لكن أمرًا واحدًا ما زال يقلقه. كثيرًا ما يصادف المحامي شاهدًا صادقًا، إلا أن الشاهد يخطئ أو يسهو في نقطة معينة. يصعب اعتراف الشاهد بأن ذاكرته تخونه. إن التضارب بين شهادتين في نقطة معينة من شأنه أن يثير الشكوك حول مصداقية الشهادة بمجملها.

موريس جولي – مؤلف كتاب "حوارات في جهنم".

لدى قراءته للمقابلة مع كترينا ردزيفيل، لاحظ جورج أنها أخطأت في بند هام. فحين تحدثت عن زيارة غولوبينسكي الأولى لها في باريس، قالت "أعني السنوات 1904-1905"، بينما قالت في الوقت ذاته إنها لم تكن بعد تعرف أنه في خدمة الشرطة

السرية، برغم أنها لم تذكر كم من الوقت مضى إلى أن رأت بيده البروتوكولات. قالت إن ذلك حدث "ذات يوم"، غير أنه من الواضح أن ذلك قد حصل بعد مدّة غير قصيرة من تاريخ الزيارة الأولى، مدة توثقت خلالها العلاقات بينهما وتطورت إلى صداقة وأصبحا يلتقيان باستمرار، فعرفت بأية وظيفة يعمل.

في فقرة أخرى من المقابلة قالت: "سمعت فيما بعد أن تلك الوثيقة قد شملها نيلوس في كتابه الشهير"، ولو أنها وزنت الأمور بانتباه، لأدركت أن أحداث باريس قد سبقت بكثير التواريخ التي ذكرتها، ذلك لأنه لا بد من فترة زمنية كافية حتى تصل الوثيقة إلى روسيا وتُترجم إلى الروسية وتُنشر ضمن كتاب صدر عام 1905. في هذه الأثناء كان قد تم استدعاء رتشكوفسكي للعودة إلى روسيا وترك وظيفته في باريس. اعتقد جورج، بناء على ما توفر لديه من المعلومات، أن التزييف حصل في نهاية القرن المنصرم، ذلك لأن مقاطع منه قد تم نشرها في سنة 1903، مما جعله يفترض أن الوثيقة كانت في يد نيلوس قريبًا من ذلك الوقت، وهنالك دلائل على أن الوثيقة كانت بحوزة الأمير سرجي عام 1897. كان على يقين من أن الأمر ناتج عن خطأ بحسن نية. لقد عاشت الأميرة في باريس في فترات مختلفة، وقضت فيها سنوات كثيرة. كان اعتمادها على ذاكرتها حين تحدثت عن أحداثٍ مضى عليها عشرون عامًا. لم يكن هناك ما يدعوها إلى ابتداع القصة، وقد وجدت شهادتُها تصديقًا وتعزيزًا في أقوال هربلوت. ولو فرضنا أنها ابتدعت القصة، هل كانت ستشوه التواريخ؟

لكن، هل سيفكر القاضي هكذا؟ ألا يقوم بإلغاء الشهادة كلها من قبيل الاحتياط؟ ألن يسيء ذلك إلى موقفهم في المحكمة؟ هل تجدر المخاطرة؟

كان بين الجماعة من اقترح التنازل عن شهادة ردزيفيل، لكن جورج أصرّ قائلا: إن شهادتها ضرورية، لكن يجب ألاّ نتركها تتعرّض لاستجواب محامي الطرف الآخر. إذن، سيكونون هم

من يوضح للقاضي أنها أخطأت بالتواريخ، وهكذا يُفرغون أشرعة الدفاع من الريح.

لم يتوقعوا أن يتردَّد الشهود، الذين كشفوا الحقيقة بفائق الشجاعة قبل 13 عامًا، بالعودة عليها في قاعة المحكمة. لذا فقد فوجئوا حين بلغهم أن كترينا ردزيفيل وفيليب غراڤــز يرفضان المثول أمام المحكمة. رفضت الأميرة الدعوة "لأسباب شخصية" امتنعت عن الإفصاح عنها، لكنها أرسلت إلى بيرن تصريحًا مشفوعًا بالقسم تؤكد فيه أقوالها. سوف يوضح جورج أمر الخطأ في التواريخ إذا أثار الدفاع هذا الموضوع. لكن الدفاع، لمزيد دهشة جورج، لم يتطرق إلى هذا الأمر بتاتًا. كان هم المدّعى عليهم، كعادتهم، التجريح بالأميرة وتلطيخ سمعتها، بدلاً من الاهتمام بمضمون مستندات الدعوى. قالوا إنها امرأة فاسدة، محاولين إبراز مغامراتها الغرامية.

أصابهم رفض فيليب غراڤــز المثول للإدلاء بشهادته أمام المحكمة بصدمة لم يتوقعوها، نظرًا لأنه الصحافي الذي حظي بشهرة عالمية، لكونه أول من كشف الحقيقة بشأن البروتوكولات. كذلك اشتهرت صحيفة التايمز بأنها الصحيفة التي سدَّت الطريق بوجه ذلك التزييف الخطير. هل يُعقَل أن رجلاً كهذا يعتريه الخوف فيمتنع عن إعلان ما كان قد كتبه في مقالاته في الماضي؟ مَنْ أو ما الذي يُخيفه؟

كان سالي ماير هو مَن وجّهَ الدعوة إلى غراڤــز عن طريق لجنة مندوبي يهود إنجلترا، وقد صُدِم أيضًا حين علم أن غراڤــز قد أرسل بدوره تصريحًا مقتضبًا، يصادق فيه على كل ما ورد في مقالاته. كان المفروض أن يكون غراڤــز شاهدًا رئيسيًا ومثيرًا. كانوا يأملون أن يبرز للمحكمة المستندات ذات العلاقة من أرشيفات التايمز، ولعله يكشف للمرة الأولى عن اسم مُبلغه الروسي. لا مقارنة بين الشهادة الحية وبين التصريح الخطي، إن كان ذلك من أجل إقناع القاضي أو كان لحاجة الإيضاح للجمهور

عن طريق وسائل الإعلام. شاهد كهذا كان سيحتل عناوين الصحف. إنها صدمة شديدة للادعاء.

من منطلق الفضول، حاولت أن أتوصل إلى معرفة ما وراء رفض فيليب غراقـــز الغريب.

في يوم صيف صافٍ من أكتوبر 1994، جلستُ في أرشيف التايمز في لندن، وتصفحتُ من خلال دهشتي المتزايدة، المستندات التي كشفت القصة، والتي وضعتها إدارة الصحيفة تحت تصرفي. جئتُ كي أفحص الحقائق المتعلقة بفيليب غراقـــز ، لكن سرعان ما وجدتني غارقة في وقائع تتعلق بتورط التايمز في كل ما يتعلق بالبروتوكولات. تداخلت القصتان الواحدة بالأخرى. كان باعتقادي أن دور التايمز قد انتهى حال انتهاء نشر المقالات في أغسطس 1921. لم يذُر بخلدي أن الموضوع قد شغلهم مدة فاقت العشر سنوات، وأنهم قد حولوه إلى مصدر دخل، إلى أن كان يومٌ أصبحوا فيه يتحينون فرصة التخلص منه. ثبت لي من المستندات، أنَّ باعَ هتلر الطويلة قد أحدثت عام 1933 إرباكًا شديدًا لصحيفة عالية المستوى كالتايمز، وتمكنت من إرهاب صحافي إنجليزي شجاع مثل فيليب غراقـــز. كشفت المستندات عن الأسباب الحقيقية لرفض غراقـــز الإدلاء بشهادته في محكمة بيرن، لكن الشيء الأهم هو أنها قدَّمَت إثباتًا للحالة التي سادت في أوروبا، منذ بداية عهد الحكم النازي في ألمانيا، وللدور الذي لعبته ***بروتوكولات حُكماء صهيون في الدعاية*** *النازية.*

المأزق الأخلاقي لدى الصحافي

في 4 يونيو 1953، أي بعد يوم واحد على وفاة فيليب غراقـــز عن عمر يناهز 77 عامًا، في بيته في إيرلندا، نشرت التايمز مقالاً وصفت فيه غراقـــز على أنه أحد أهم مراسلي الصحيفة الغرباء. وبعد أن استعرضت تاريخ حياته والوظائف التي شغلها،

قالت: "إن أحد التحقيقات الصحفية التي باهى بها غراقــز بشكل خاص، هو التحقيق الذي أثبت فيه بشكل قاطع زيف **بروتوكولات حُكماء صهيون**، وذلك في الوقت الذي استُغِلَّت فيه البروتوكولات على نطاق واسع لأهداف معادية لليهود"

لم يكن غراقــز الوحيد الذي حق له المباهاة باكتشافه، فقد حظيت صحيفة التايمز أيضًا بتقدير عظيم بصفتها الصحيفة السباقة إلى نشر حقيقة البروتوكولات المثيرة، هذا عداك عن مبالغ الأرباح الكبيرة التي جنتها، والتي فاقت بكثير المبلغ الذي استثمرته في القرض الذي منحته لرسلوبليف.

على ضوء الطلب المتزايد للأعداد التي ظهرت فيها مقالات غراقــز، قامت التايمز بجمعها في كراس تم بيعه في بلاد مختلفة. كان ثمن الكراس ليرة إنجليزية واحدة، وقد صدر بآلاف النسخات. في سبتمبر 1921 بيع حق النشر في أمريكا بمبلغ 150 دولار.

في 31 أغسطس ورد في تقرير لنائب مدير هيئة التحرير أن "الكراس عن البروتوكولات يجري بيعه على وتيرة مُرضية"، وفي 8 سبتمبر كتب مدير التحرير إلى إيتامار بن–آڤــي، محرر جريدة أسبوعية في فلسطين، عارضًا عليه حقوق النشر بسعر مخفّض. وفي رسالته إلى ناشر في بولندا كتب يقول: "يُتوقع أن تباع هذه الكراريس على مدى سنوات".

في 24 أكتوبر أفاد بركر، مندوب الصحيفة في فرنسا، أن محاولاته لبيع حقوق النشر في فرنسا مقابل 100 ليرة قد فشلت. قال إنه توجه إلى كافة الصحف الكبيرة، لكن أحدًا لم يبدِ اهتمامًا بالكراس. كتب يقول: "الفرنسيون شعب غريب".

انقضت السنوات الخمس التي حُدِّدَت في الاتفاقية مع رسلوبليف، وكان من المفروض أن تعود إليه الحقوق على كتاب موريس جولي مقابل سداد دينه للصحيفة. رغم أن المُبلِغَ الروسي قد اختفى دون أن يترك أثرًا، إلاّ أن التايمز لم تتنازل عن مالها. لم

يكن أحد يعلم بعد أن هتلر سيتسبب في تجديد الطلب للبروتوكولات، وقد اعتقدت إدارة التايمز،عام 1926، أنها استنفذت كل الطاقة الاقتصادية الكامنة في الكتاب، وبدأت البحث عن رسلوبليف لإرغامه على الوفاء بتعهده وإعادة مبلغ القرض، فهم لم يعودوا بحاجة لكتاب جولي. صدرت الأوامر لمندوبي الصحيفة في كل أنحاء العالم بالبحث عن الرجل، مع التحذير بعدم الكشف عن هويته للملأ، فهو لم يزل معروفًا للناس باسم "السيد X ". أخيرًا عثر عليه بركر، مندوب التايمز في فرنسا، في بيت بائس في باريس يوم 27 يناير 1927، فقدم له طلبًا خطيًا بإعادة قيمة الدَّين.

صُدِمَ رسلوبليف بالأمر، فكتب إلى التايمز يقول إنه اعتقد في حينه أن النظام البلشفي لن يعمّرَ طويلاً، وأنه سيحظى باستعادة ممتلكاته في روسيا، فيتمكن من سداد دَينه. قال إنه كان معنيًا جدًّا باسترجاع تلك الوثيقة النادرة والاحتفاظ بها في مكتبته الخاصة. ذكّرهم لماذا عُقدت آنذاك الصفقة على صورة قرض. أما الآن، ونظرًا لأنه غير قادر على إعادة المبلغ، فإنه يعرض عليهم إما تمديد مدة القرض، أو التنازل عن المبلغ مقابل امتلاكهم للحقوق الكاملة وغير المحدودة على الكتاب والقصة.
اختارت الجريدة الخيار الثاني، وبذلك تمكنت من الاستمرار بنشر الكراس، في حين اعتمد النازيون البروتوكولات عنصرًا أساسيًا في دعايتهم وعملوا على إحيائها من جديد في بلاد كثيرة.

في هذه الأثناء كان فيليب غراڤـز قد ذاع صيته في العالم كمن كشف النقاب عن حقيقة البروتوكولات، وقد راسله الكثيرون من قادة اليهود من مختلف الدول طالبين مشورته. في 11 سبتمبر 1933 أعرب غراڤـز لصديق له عن مدى قلقه من رسالة تلقاها من نويل لسكي، رئيس اللجنة الموحدة في مجلس مندوبي يهود بريطانيا، وفيها اقتباس لرسالة من رجل يدعى بيير ڤـان باسان Pierre Van Paassen، يقول باسان إن أحدهم، ويدعى الدكتور روبينوف، قد طلب منه التأكد من شائعة عن وجود مخطط

لاستعمال **بروتوكولات حُكماء صهيون** على نطاق واسع في حملة الدعاية النازية.

أجل، للشائعة أساس، كتب ڤـان باسان، وأبو الخطة هو چـراف ربنطلاو الذي كان عام 1923 قد اضطر إلى الاعتذار أمام محكمة ألمانية عن ادعائه بأن أحاد هعام هو من ألّف البروتوكولات. ربنطلاو هذا أصبح الآن الخبير النازي في قسم مناهضة اليهود في الإدارة الألمانية، وقد أعدَّ خطة يتم تنفيذها على مراحل. في المرحلة الأولى يصدر باللغة الإنجليزية كتاب هرمن غرينغ، بعنوان "توجُّهٌ إلى الشعوب الناطقة بالإنجليزية". وعلى ضوء ردود الفعل بشأن الكتاب، يتقرر في المرحلة الثانية النشر الموسّع لبروتوكولات حُكماء صهيون وتوزيعها في العالم.

ليس في الخبر ما يثير، قال غراڤـز لصديقه، لكن ما قيل في التتمة من شأنه أن يطير النوم من العيون. "أسمع كلامًا كثيرًا"، كتب ڤـان باسان، "عن موجة جديدة تقترب. إذا قطع السوفيات علاقاتهم بالرايخ، سينتقم هتلر من اليهود، لأنه يتهيأ، أو يتظاهر بأنه يفعل، أن هذه الخطوة هي هجوم اليهود المضاد. يؤسفني أن أنقل هذا إلى صديق يهودي، لكن مما أسمعه يمكن الاستنتاج بأن الأسوأ ما زال أمامنا. يجب على اليهود في أمريكا أن يُخرجوا كل اليهود من ألمانيا، فإن لم يفعلوا، يجب أن نتوقع التجويع المتعمد ليهود المانيا، أو حتى إبادتهم. علينا أن نكفّ عن الأمل في أن يرتدع هتلر!".

اعتقد غراڤـز أن هذا هو الوقت الذي يجب فيه توسيع مجال نشر الكراس الذي يتحدث عن حقيقة البروتوكولات، وسارع إلى كتابة رسالة إلى مدير هيئة التايمز. لكن الزمن تبدّلَ، وساد أوروبا عام 1933 جو من الخوف والتوجس مما هو آتٍ. في 14 سبتمبر أصدر مدير الهيئة تعليماته، في رسالة إلى غراڤـز، بوجوب الحيطة والحذر في حال استمرار توزيع الكراس، وكتب يقول: "من الحِكْمَة أن نمتنع عن الترويج للكراس من على

صفحات التايمز، نظرًا إلى خطر عمليات الانتقام المحتملة ضدنا في ألمانيا".

أعيدت طباعة الكراس وبيع بكميات معتبرة. في 20 ديسمبر 1933، طلبت لجنة مندوبي يهود جنوب أفريقيا الإذنَ من فيليب غراڤــز بطباعة الكراس وتوزيعه على الجمهور "على ضوء المحاولات لنشر البروتوكولات بشكل مكثّف، وبشكل خاص بين المواطنين من الناطقين بالأفريكانز". سبق وأن استلموا من الجالية اليهودية في ألمانيا 1400 نسخة من الكراس، وهم بحاجة إلى طباعة 400 نسخة إضافية دون تأخير.

لم يكن أعضاء اللجنة في جنوب أفريقيا يعلمون أنهم سيضطرون بعد شهور إلى طلب كمية كبيرة من الكراريس، من أجل التصدي لفرية فظيعة يزمع أن يعممها تنظيم نازي محلي يحمل اسم القمصان الرمادية، وأنهم سيضطرون إلى رفع قضية مثيرة ضد هذا التنظيم في مدينة غراهمستاون Grahamstown، القضية التي عرفت فيما بعد باسم "**قضية البروتوكولات الجنوب إفريقية**".

في هذه المرحلة بدأ الفرنسيون أيضًا يُظهرون اهتمامًا بالموضوع. في مارس 1934، طُلب من صحيفة التايمز السماح بترجمة وإصدار الكراس بالفرنسية. والغريب أن الطلب جاء من الدكتور بروتسكين، من المنظمة العالمية للإرشاد الطبي في باريس – Oze، المنظمة التي اهتمت بمشاكل الجالية اليهودية الصحية.
دبّت الحياة في البروتوكولات من جديد، وبيعت من الكراس كميات هائلة، لكن فيليب غراڤــز، أسوة بصحيفة التايمز، حاول الامتناع عن البروز؛ فحين طُلب منه الإعداد لطبعة منقحة ومزيدة من مقالاته رفض بكل إصرار، لكن بكل أدب. كما أنه رفض الكشف عن اسم رسلوبليف دون الحصول على موافقته الواضحة. كشفت المراسلات بينه وبين هيئة الجريدة الأسباب

الحقيقية التي دعته لرفض الإدلاء بشهادته في محكمة بيرن. ففي مذكرة بعث بها إلى محرر التايمز بتاريخ 28 فبراير 1935، أفادَ أنه قد أرسل تصريحًا مشفوعًا بالقسم إلى المحامين في بيرن، يصادق فيه على المقالات التي كشف فيها حقيقة البروتوكولات. في المذكرة ذاتها أوضح المأزق الذي وقع فيه:

"كما ترون في المادة المرفقة طيه، فإن رجُلاً باسم فلايشهاور، عدوٌّ محترف للسامية، من أصل هَوْنيّ، يطلق تصريحات تشهّرُ بي وتشكّك في مصداقيتي. إنه يتهم الصحيفة أيضًا بأنها خُدعَت بي أو تعاونت معي في عملية غش. رفضتُ حتى الآن الكشف عن اسم المُبلِغ الروسي الذي تعاون معي، مما يجعلني مشبوهًا في نظر اللاساميين. يقول هذا البطل النازي أيضًا إن الكتاب الذي أعطيتُ التايمز نسخة عنه لا وجودَ له أبدًا. آمل أن يكون محفوظًا وموجودًا بيديكم [...] تراودني مرارًا وتكرارًا فكرة أنه إذا كان في الأمر ما يؤثر على القرار في محكمة بيرن، وإذا كان الكتاب مقبولاً بموجب القوانين المعمول بها هناك، يتوجب علينا التصرف لصالح العدالة (هنا تم محو عبارة ظهرت في الأصل كتب فيها غراڤــز: بهذه المناسبة يتم تنظيف اسمي). ربما توافق التايمز على أن تبعث إلى المحكمة في بيرن بكل الوثائق التي بحوزتها، شريطة أن يتفحصها القاضي خفية وألاّ يُعلن عنها. يجب اشتراط إرسال الوثائق بإعادتها بعد المحكمة [...] لا أود أن أبدو وكأني أبالغ في توجساتي، لكن لي أقرباء غير مباشرين في باڤــاريا، وقد لحقهم الأذى، للأسف الشديد، حين اكتشفوا قرابتهم لي. كانت لأحدهم جدّة يهودية، والثاني تزوجت صهرته، اخت زوجته، من يهودي، وهو ضابط متقاعد في الحرس الوطني، وكان معروفًا بتأييده الحماسي للحركة الملكية الباڤــارية. إن السفارة الألمانية هنا، والتي تغص بالعملاء النازيين، على علم تام بعلاقاتي بهؤلاء

الناس. إني أخشى جدًا، إذا استمر فلايشهاور وزمرته باتهامي في الصحافة النازية، بدعوى أن كشفي للبروتوكولات هو عملية احتيال وخداع تمَّت بدوافع منبوذة، فمن شأن ذلك أن يسبب الضرر لأقربائي، وهم أناس محترمون. لذا، أرجو أن تدرسوا إذا كان بالإمكان، وفقًا للقواعد الإجرائية، تسليم الوثائق التي بحوزة التايمز ليد القاضي في بيرن على النحو الذي اقترحته أعلاه. أفترض أن اليهود سيهتدون إلى وسيلة يدافعون بها عن أنفسهم، لكن ربما لا يستطيع أقربائي المساكين في باقــاريا فعل ذلك إذا استمر النازيون، العالمون بقرابتنا، بتصريحاتهم تلك دون تكذيب. إني أدرك تمامًا أنه لا يجوز إثارة جدل بين التايمز وصحف الخِرَق rags الألمانية، ولا قُدِّرَ لي أن اقترح ذلك، لكن يخيَّل لي أنه إذا رأى القاضي السويسري الوثائق، سيكون في ذلك خدمة للعدالة، ويتم تحاشي أخطار زائدة".

وبالنسبة لإصراره على عدم البوح باسم رسلوبليف، كتب غراڤــز يقول:

"بالرغم من أن الأمر يجعلني مشبوهًا في نظر اللاساميين، رفضتُ حتى الآن الكشف عن اسم الروسي الذي تعاون معي في الموضوع، لأني لا أعتقد أن من الواجب البوح باسم طرف ثالث بدون إذنه، وأنا لا أدري أين هو ذلك الروسي الآن، ولا أذكر حتى كيف يتهجأون اسمه. ربما يكون قد عاد إلى روسيا، فلا يكون في صالحه أنه تورط بصفقة مع مراسل التايمز في اسطنبول، وقد كانت تغص في تلك السنة بالروس المناهضين للبلشفيك".

في 24 أبريل كتب رئيس التحرير، وكهام ستيد، إلى مدير الصحيفة بالموضوع ذاته، واقترح الاستفسار عما إذا كان كتاب

موريس جولي قد وصل إلى المتحف البريطاني بعد عام 1864، فإن كان الأمر كذلك، سيكون كشف غراڤــز ذا قيمة لا شكّ فيها. مع ذلك، كتب، فإن ما يجب أن يهم المحكمة في بيرن ليس كشف غراڤــز وإنما حقيقة وجود كتاب جولي (الذي أسماه "الكتاب من جنيف") قبل ظهور البروتوكولات بسنوات كثيرة .

وقد أدرج في رسالته سلسلة تعليمات:

1- يجب عدم تعريض حياة أي إنسان للخطر. ثمة التزام أخلاقي، لا قانوني، بحماية رسلوبليف، وإن كانوا لا يعلمون إن كان على قيد الحياة أو أن الأمر قد يعرِّض حياته للخطر.
2- إنه يدرك مدى أهمية كون المصدر جنرالا روسيًا متقاعدًا، لكن يجب أن يتذكروا أن اسم ذلك الكولونيل بقي طي الكتمان.
3- نظرًا لأن غراڤــز معنيٌّ بحماية أقربائه، "يجب إعطاء الوزن التام للخطر الذي يتهددهم، لكن في المقابل، إن كان الأمر مجرد عواطف [...] علينا ألاَّ نسمح للعواطف أن تحول دون تقديمنا لخدمة قد تكون لها أهمية عُظمى. من الأفضل بالطبع، من ناحية الصحيفة، الاّ نتورط في إجراءات قضائية، لكن من الضروري بنفس القدر أن يعرف الناس أن صحيفتنا كانت أول من كشف عن عملية غش وخداع لا مثيل لها. حسب ما تبدو الحال اليوم، قد تتوسع اللاسامية وتنتشر في بلاد أخرى، وخاصة في الولايات المتحدة، وقد لا نكون نحن أيضًا حصينين في مواجهتها، كما تشير إلى ذلك أعمال أوسوالد موسلي. لذا فمن الضروري التوثيق أن التايمز دأبت على نشر الحقيقة حالما نبهها إلى ذلك أحد مراسليها الغرباء الذي كانت عيناه ساهرتين كما يليق".

تم التوصّل أخيرًا إلى حل وسط بين التايمز ولجنة المندوبين: بالإضافة إلى تصريح غراڤــز، الذي كان قد أرسل إلى بيرن، تم تسليم نويل لسكي صورًا عن وثائق مختلفة مقابل تعهده خطيًّا يوم 26 أبريل 1935 بأن لا يبادر المحامون بطلب إبراز الوثائق في محكمة بيرن. جاء في نص الاتفاق: "من المستحسن جعلُ

المحكمة في بيرن تعمل حسب الإجراءات المألوفة في إنجلترا، فتطلب بمبادرتها من التايمز إبراز الوثائق وكتاب جولي. بهذه الطريقة تستطيع التايمز القول بأنها تلتزم الموضوعية وتساعد المحكمة على كشف الحقيقة".

أوضح لسكي للمحامين في بيرن أن التايمز لا تودُّ أن يتهموه هو أيضًا بأنه يخدم مصالح اليهود.

كذلك تم الاتفاق على أنه طالما لا يوجد ما يضمن عدم تعريض حياة الروسي للخطر نتيجة البوح باسمه، يبقى اسمه طي الكتمان. هذه التسوية الاضطرارية أحزنت الطاقم في بيرن كثيرًا، لكنهم التزموا بها وعملوا بموجبها. لم يصرّوا على حضور غراقــز وممثلي التايمز. أبرزوا للقاضي تصريح غراقــز. لم يجدوا وسيلة لتقديم الوثائق طِبقًا للشرط الذي التزموا به، فلم يبرزوا الوثائق، لكنهم أبرزوا كتاب جولي.

ما زلتُ أذكر جيدًا كيف انتصب إميل رآس في جلسته فوق سرير مرضه، ليصف بالكلمة والإشارة الطريقة الدرامية التي قدّم فيها جورج برونشفايغ كتاب موريس جولي للقاضي. فاجأتني أوديت بعد سنوات عديدة حين مدّت إلى كتاب جولي الذي عثرت عليه في المكتبة الخاصة بالمرحوم زوجها. كتاب صغير بغلاف بني ذُكرَ فيه أنه طُبع في بريسل عام 1864 على يد "أ. مرتنــس وأبنائه، شارع الدروج 22". لم يُطبع اسم المؤلف، لكن قيل إنه كُتب بقلم "ابن عصره" أو بالأحرى "أحد المعاصرين" PAR UN CONTEMPORAIN – *تحت هذه الكلمات كتب أحدهم بقلم الرصاص، بخط واضح جميل، الكلمتين (موريس جولي).*

يظهر في البداية تحت عنوان "إشعارٌ بسيط" " SIMPLE AVERTISEMENT " *ما يوضح أنه برغم كون الكتاب من نسج الخيال، فمن شأنه أن يصف ممارسات كل حكومة، لكنه يطابق بشكل خاص أسلوبًا سياسيًا واحدًا معينًا.*

تشهد الكلمات "جنيف، 15 أكتوبر، 1864" التي طُبعت في أسفل الصفحة، بالمكان الذي كتب فيه موريس جولي هذا "الإشعار".

بات واضحًا الآن لماذا وقع الكثيرون في خطأ فأسموا الكتاب "وثيقة جنيف".

*ما زلت أجهل حتى اليوم من أين وصل الكتاب إلى مكتبة جورج برونشفايغ. أرشيف المحكمة في بيرن لم يعد قائمًا، فلا يمكن إذن التأكد إن كان هذا هو الكتاب الذي تم تقديمه للمحكمة وأعيد لجورج. من دواعي سروري أن أوديت قد أبقت على الكتاب في يدي. يحتوي على 324 صفحة تنقسم إلى 25 فصل (على خلاف **البروتوكولات** المكونة من 24 فصل). طُبع على ما يبدو في مطبعة صغيرة لم تكن شديدة الانتباه، ففي نهايته قائمة تشمل 14 تعديلاً. أتصفّحُه من حين لآخر، وأدهش في كل مرة كيف أن تاليفًا ذكيًّا كهذا، ثمرة فكر مواطن فرنسي قلِق، حاول إظهار فساد الحكم في وطنه، قد استغلّه المزيّفون الوقحون، وتمكنوا من تسبيب عظيم المعاناة لأبناء شعبي. أحاول أن أصوّر لنفسي ما الذي كان سيقول موريس جولي لو علم كيف استخدموا كتابه. لكن موريس جولي فارق الحياة من زمن بعيد.*

فقط بعد أن أصبح قرار القاضي ماير بين يدي محكمة الاستئناف، كان فيليب غراڤــز على استعداد للكشف عن اسم المتحدث الروسي، وفي 28 أبريل 1937 كتب إلى مدير هيئة التايمز يقول:

> "اعتقدت فيما مضى أن الكشف عن اسم رسلوبليف وعلاقته، وإن كانت طفيفة، بمراسل التايمز الرأسمالي–الاستعماري، قد يجعله عرضة للأذى من قبل الــ GPU. أما الآن فيبدو أن الحال في روسيا قد تغيّرت جدًّا. لقد قُتل معظم الزعماء الشيوعيين في تلك الأيام أو حُكم عليهم بالسجن مع الأشغال الشاقة. من المفروض أن لا تبدي الحكومة الجديدة في روسيا عداءً تجاه الرجل لمجرد أنه تعاون معي قبل سنوات كثيرة. وحتى لو افترضنا أن الرجل قد عاد إلى روسيا، ففي نظري أن البوح باسمه في هذه المرحلة يخدم غاية العدالة، شريطة

أن يحصل اليهود على تعهد من السفارة الروسية هنا، بأن لا يلحق أي أذى بمن أبلغني في اسطنبول – إن كان حيًّا في روسيا – بسبب الخدمة التي قدمها للتايمز قبل 15 عامًا".

وطبعًا، لو كان رسلوبليف قد عاد إلى روسيا، وهذا احتمال ضعيف، لم يكن ليتهدده أي خطر. في ذلك الحين تعاونت السلطات الروسية مع المحامين في بيرن وأتاحت لممثلهم النبش في الأرشيفات والبحث عن مادة ذات علاقة بالقضية.

يتضح من الوثائق أنه كانت أسباب عديدة دعت غراقـز إلى تبديل موقفه. كان يعلم أنه لن يستطيع التخلص من ورطته في موضوع البروتوكولات رغم محاولاته الجادة. جاء في نهاية رسالته:
"اسمحوا لي أن أضيف ملاحظة شخصية إلى أملي في أن تجد التايمز وسيلة لتسليم الوثائق إلى الطرف المعني بها، بواسطة السيد لسكي. ما زالت الصحف النازية تصرّح معلنة أنّ:
1- مراسل التايمز في اسطنبول لم يكن سوى لوسيان وولف.
2- كان المراسل رجلا ضعيفًا أغريَ بالمال ليتمنطق اكتشافًا كاذبًا.
3- المراسل في اسطنبول كان من أصل يهودي.

القولان الأولان، كتب غراقـز، مضحكان أكثر من كونهما مهمَّين؛ وأما القول الثالث فمن شأنه أن يجعل أقرباءه وأعزاءه في ألمانيا في حالة صعبة. "إن زوجة أبي ألمانية"، يبوح غراقـز، "وعن طريق عائلتها تربطني قرابة بعيدة بآل فون رنكا في باڤـاريا. لمزيد الأسف، كانت لأحدهم جدّة يهودية، من طرف الأم، رغم أنها سارعت فاعتمدت كمسيحية، وهو يعيش بخوف من أن يفقد معاش تقاعده البخس. وهناك صديق آخر لي يُشتبه بأنه من أنصار الحركة الملكية. أخشى لو عرف النازيون بعلاقاتي هذه، أن يستغلوا تلفيقة أصلي اليهودي ضد أقربائي

وأحبائي بشكل عنيف. لذا فقد عزمت على حثّ التايمز على الخروج عن القاعدة التي اعتمدتها حتى الآن بخصوص الموضوع، ونشر الحقائق بكل صدق وبمزيد من التوسع، قياسًا بالنشر الذي تم خلال المحكمة في المرحلة الأولى.

تحدثت بهذا الموضوع إلى المحرر وقد أبلغني أنه لا يعارض، شريطة أن لا تتورَط التايمز بأية مشاكل.

يجدر الإشارة بكل تقدير إلى أن اليهود الذين رفعوا الدعوى في بيرن قد قاموا بتعهدهم خير قيام، في كل ما يتعلق بالوثائق التي زودناهم بها".

بقي موضوع البروتوكولات يلعب دورًا رئيسيًا في حياة فيليب غراقــز. فالرسالة التي كتبها في 18 فبراير 1939 إلى السيد داوسون محرر الصحيفة، تشهد بمدى ما أولاه للموضوع من أهمية. كتب أنه فكّر بتأليف كتاب عن **بروتوكولات حُكماء صهيون** وعن كشفه لحقيقتها عام 1921. وبعد وصف مفصل لكل مسلسل الأحداث، ذكّر المحرر كيف بيع الكراس الذي أصدرته التايمز بكميات هائلة، وكيف أنه نفذ من الأسواق. "أنا شخصيًا"، كتب يقول، "لم أحصل على أية مكافأة، ولا تلقيتُ أية عمولة عن المبيعات". وهنا يصل غراقــز إلى صُلب الموضوع:

> "أذكر أنك قلت لي منذ مدة أنك تعتبر أن كشف التايمز للأمر كان أمرًا بائسًا. والواقع أنه في ضوء الأجواء السائدة في أقسام كبيرة من أوروبا في هذه الأيام، ربما تفضّلُ التايمز في المستقبل التخلي عن شهرتها المتعلقة بالموضوع، ليس من منطلق التعاطف مع السامية، لا قدّر الله، وإنما لأن كل علاقة للتايمز بذلك الكشف من شأنها عرقلة المساعي المبذولة لإقناع شخصيات هامة في ألمانيا بأن التايمز ليست تحت تأثير اليهود ولا هم الذين يديرونها.

على كل حال، لقد جنَت التايمز كامل المنفعة من هذا الكشف، وقد خطرت لي فكرة، ربما تبدو خرقاء، وهي أن أكتب كتابًا عن الموضوع، لعله يؤهلني لجائزة نوبل. وطبعًا، لن يكون ذلك ممكنًا ولا مقبولاً طالما أن كتاب جولي ملكٌ للتايمز. مع ذلك، لربما تجد عائلتي شأنًا في الكتاب، ولربما يعود عليها ببعض النفع.

لذا، أرجو دراسة إمكانية ما إذا كانت التايمز على استعداد لمنحي لمدة عامين امتيازًا على الكتاب والوثائق التي تثبت أصالته. حال استلامي للكتاب، أو في موعد يتم تحديده، أكون على استعداد لأن أدفع لناشر التايمز مبلغًا من المال تعادل قيمته المبلغ الذي تم دفعه كثمن له في الأصل".

بعد مضي عشرة أيام، أي في 28 فبراير، تم تحويل الموضوع بواسطة أحد موظفي الصحيفة إلى مساعد المدير، السيد فيليب بيشوب، مع رسالة مفصلة جاء فيها:

في كتاب للمرحوم الكونت كودنهوف Coudenhove عن اللاسامية، وجدتُ الفقرة التالية: "يجب التوضيح لكل من يعرف البروتوكولات بأن الوثيقة زائفة وتشكل انتحالاً أدبيًا قاتلاً على المستوى العالمي. إن تعميم هذه المعلومات واجب على اليهود المشهَّر بهم، فهي حقيقة ثابتة، ولا أبالغ إذ أقول إن الكتاب المسمّى **بروتوكولات حكماء صهيون** هو أحد أكبر التزييفات في كل الأزمنة، وإحدى أشد التلفيقات سفالةً في تاريخ العالم.

في نظري، هذا هو المفتاح للكتاب الذي يريده غراقـز. لكن إن كان ما ذكره في رسالته إلى المحرر حقيقيًا، بأنه لن تكون حكمة منه الكتابة

عن الموضوع طالما بقي الكتاب ملكًا للتايمز، فإن بوسعه في هذه الحالة أن يستخدم النسخة الموجودة في المتحف البريطاني، فهي بذاتها تتحدث عن الوثائق التي تشهد بأصالة الكتاب".

في 10 مارس 1939، أبلغ بيشوف غراڤــز بقرار الصحيفة: "بناء على طلب المحرر، قدَّمتُ يوم أمس رسالتك المؤرخة 18 فبراير إلى الإدارة. جرى بحث الموضوع بتوسّع، وقد طلبت مني الإدارة أن أبلغك بإنها لا تمانع في أن تستخدم الكتاب والوثائق المتعلقة ببروتوكولات حُكماء صهيون الموجودة بحوزتنا، لكن الإدارة قررت أن تبقى الملكية بيد التايمز".

لم يستخدم فيليب التصريح الذي حصل عليه من التايمز باستعمال ما بحوزتها من المستندات لكتابة كتابه. فبعد شهور قليلة من حصولة على الإذن نشبت الحرب العالمية الثانية، وبصفته من كبار المراسلين، لا بدَّ أن يكون قد وجد نفسه منشغلاً بمواضيع أخرى.

معظم هذه الحقائق لم تكن معلومة لدى جورج برونشفايغ وزملائه آنذاك. وعلى كل حال، لم يكن باستطاعتهم كشفها للمحكمة، لكونهم مقيدين بتعهدهم لصحيفة التايمز، الذي التزموا به التزامًا تامًا، كما أوضح غراڤــز ذلك لإدارة الصحيفة.

كانوا في الحقيقة رجالاً شرفاء، قلت في نفسي، وقد اضطرّوا إلى مواجهة معارضين عديمي الضمير يفتقرون إلى الشرف.

في الواقع هم لم يبوحوا باسم رسلوبليف للمحامين في بيرن. بقي الاسم طي الكتمان حتى عام 1978، حين كشفه كولين هولمز، محاضر في التاريخ والاقتصاد في جامعة شفيلد، لدى قيامه ببحث حول الموضوع في ارشيفات التايمز، فعثر بطريق الصدفة على

الإيصال الذي أعطاه رسلوبليف لصحيفة التايمز، بتوقيع يده، كإقرار باستلام القرض.

الـ "مورنينغ بوست" – كيف يجنون الأرباح من إلقاء الذنب على اليهود!

تساءلت بيني وبين نفسي، كيف كنت لأتصرّفَ لو حللتُ محلّ القاضي ماير؟
في انعدام إمكانية الوصول إلى بحث تاريخي شامل، كيف كان بإمكانه التعامي عن كمية الإصدارات الهائلة للبروتوكولات بمختلف اللغات؟ كيف تجاهل كل المقدمات لتلك الإصدارات التي تحذلقت في المقارنة ما بين الخطة اليهودية الجهنمية المفصلة في البروتوكولات، وبين أحداث تاريخية راهنة؟ كيف استطاع أن يحكم بناء على البينات في القضية فحسب، من خلال غض النظر عن الإعلام الداعم للبروتوكولات، بما في ذلك المقالات في الصحافة ذات المكانة المرموقة؟ حتى ولو كان على علم باللاسامية في ألمانيا، ألم يسأل نفسه ماذا يقول الأكاديميون في ألمانيا، والمؤرخون، والكتاب وجماعة المفكرين؟ كيف فسّر لنفسه أنه حتى في الفترة السابقة لهتلر، احتجب رجال الفكر في ألمانيا خلف ستار الصمت المدوّي، برغم ما كان من إعلام واسع يحذر الناس من خطر المؤامرة اليهودية ويتهم اليهود بالتسبب بالحرب العالمية. ألم يتسرّب إلى قلب القاضي الشك بأن يكون في الوثيقة شيء من الحقيقة؟

لقد أعرب المحامون أكثر من مرة عن مخاوف من هذا القبيل، لكن ما أقلقهم بالدرجة الأولى كان الإعلام في الصحافة البريطانية، التي كانت في نظر رجل الشارع السويسري مثال الصدق والاستقامة. كان اسم صحيفة التايمز قد ارتبط بالكشف عن حقيقة البروتوكولات. وصحيفة السبكتاتور، التي وصفت البروتوكولات في 20 مايو 1920 بالعمل الألمعي، ودعت إلى

إنشاء لجنة تحقيق لإعادة البحث في منح الجنسية البريطانية لليهود، قد لزمت الصمت بعد كشوفات غراقــز ولم تكرر دعوتها. لكن صحيفة المورنينغ بوست، مستندة إلى البروتوكولات، شنت على اليهود هجومًا شديدًا، يمكن معادلته بالهجوم الذي شنه فورد في صحيفته "الديربورن إندبندنت" في الولايات المتحدة.

لماذا ارتأت صحيفة بريطانية تخصيص صفحاتها الرئيسية للبروتوكولات وتحويل الكراهية لليهود إلى موضوع مركزي؟ لماذا لم تتراجع عن خطها حتى بعد نشر مقالات غراقــز في التايمز؟

حين وقف جورج برونشفايغ على بعض الحقائق الغريبة، التي كانت من وراء ما نشر في المورنينغ بوست، أوصى زملاءه بالاستعداد جيدًا، مخافة أن يحاول المتهمون الاستناد إلى تلك المقالات في إقناع القاضي. كانت المعلومات التي وصلتهم، لشدة الأسف، ناقصة ومتقطعة آنذاك، لكنها اتضحت لهم كاملة بعد سنوات من محكمة بيرن.

لم يكن باستطاعة المحامين في بيرن أن يتوقعوا أن تكون صحيفة بريطانية مُعتبرة يحركها دافع الجشع. كانوا يعلمون فقط أن المورنينغ بوست نشرت عام 1920 سلسلة من 17 مقالاً، استندت إلى **بروتوكولات حُكماء صهيون**، جُمعت في موعد لاحق في كتيب أعده كبار المسؤولين في الصحيفة، تحت عنوان: "سبب اضطراب العالم" The Cause of World Unrest. جاء في الكتيب أن الاضطرابات السياسية لا تحدث من تلقاء ذاتها، بل هي مصطنعة دائمًا، تحركها يد خفية، يد جماعة خطيرة، وأن اليهود أعداء الإنسانية اللدودين، قد استطاعوا، رغم تشرّدهم في أنحاء العالم، المحافظة على إطارهم السياسي، وما زالوا يستغلونه بعناد قاتل، بغية هدم السلطة الشرعية في البلاد المسيحية، وتنصيب ملك يهودي من سلالة داود الملك. اليهود هم إذن السبب الحقيقي لما يجابه العالم من ويلات، والبروتوكولات دليل قاطع على ذلك.

بعد الثورة الروسية كانت بريطانيا، أسوة بأمريكا، يعتريها الخوف من "الخطر الأحمر". ورغم أن غالبية يهود بريطانيا لم يؤيدوا البلشفية، فقد كان يكفي ذكر بعض أسماء اليهود، ممن أيدوا الثورة، لتعزيز الادعاء الوهمي بأن الثورة البلشفية ما هي إلا جزءًا من المؤامرة اليهودية، وأنها تهدد النظام الاجتماعي في بريطانيا. لكن ما تعارض مع كل منطق هو اتهام اليهود بمساندة الألمان؛ ففي عام 1918 انتشر في إنجلترا كتاب بعنوان "إنجلترا موطئ أقدام اليهود". تحدث الكتاب عن تواطؤ ألماني- يهودي- بلشفيكي. وسرعان ما راجت الشائعات بأن اليهود والألمان كانوا من وراء الثورة البلشفية في روسيا، وأنهم ينسقون ما بينهم من أجل السيطرة على عالم التجارة والمال والبنوك. الكراهية الشديدة لليهود والخوف من البلشفيك، اجتمعا معًا ليشكلا جهازًا شديد الوطء، ليس فقط بيد اللاساميين وإنما أيضًا في أوساط السياسيين والصحافيين المعتبرين.

كان للتايمز، كما للمورنينغ بوست، ممثلون في روسيا من ذوي الميول اليمينية. ممثل التايمز، روبرت ويلطون، الذي نشأ ودرس في روسيا، نشر في سنة 1920 كتابًا ادّعى فيه أن البلشفيين هم يهود يعملون في خدمة الألمان. وأما ممثل المورنينغ بوست فقد نذر حياته بعد عودته من روسيا لتعميم **بروتوكولات حُكماء صهيون**. كان فيكتور مرسدن إنجليزيًا تزوج من سيدة روسية. لم ترق للنظام السوفياتي كتاباته عن الأحداث في روسيا، وقد اتهموه باغتيال مواطن يدعى كرومي، فزجّوه في سجن قلعة پـيتر پـاول الشهير في بطرسبورغ، وقد أشيع أنه ينتظر الإعدام. اعتقد فيكتور أن القاتل الحقيقي يهودي، فاتّهمَ اليهود بكل ويلاته. حين أطلق سراحه وعاد إلى إنجلترا، مُحطَّمَ الجسد والنفس، حمل معه علاوة على الحقد الشديد لليهود، نسخة من **بروتوكولات حُكماء صهيون**، مُقسِمًا على نشر البروتوكولات في إنجلترا، حتى لو يكون ذلك آخر عمل له على وجه الأرض!

حال عودته باشر عملية الترجمة، فقد كان ملمًّا بالروسية والإنجليزية إلمامًا تامًا. عمل في المتحف البريطاني على مقارنة نسخة من الإصدار الرابع لكتاب نيلوس، أحضرها معه من روسيا، بنسخة من الإصدار الأول كانت قد أودعت في المتحف عام 1906. علاوة على المقدمة التي كتبها بقلمه، دأب على إعداد تلخيص ظهر في بداية كل فصل من فصول الكتاب.

جرى العمل ببطء واستمرّ زمنًا طويلاً، فقد وهنت صحته لدرجة أنه لم يستطع العمل في بعض الأيام أكثر من ساعة واحدة. صدرت ترجمته عام 1925 على يد ناشر إنجليزي وعُرِضَت في الأسواق لسنوات عديدة.

في مستهل الكتاب تظهر كلمة تمهيدية لكاتب غير معرَّف جاء فيها: "هذا الإنتاج قد كلف مرسدن حياته".

في المقدمة التي كتبها مرسدن بقلمه، أشار إلى نيلوس بـــ "بروفسور نيلوس"، كما أنه اقتبس من أقوال هنري فورد في مقابلة صحافية له من 17 فيراير 1921 إذ قال: "كل الذي أريد قوله عن البروتوكولات هو أنها تُطابق إلى حدَّ الدهشة الأحداث التي شهدناها حتى الآن. لقد ظهرت منذ 16 سنة وما ورد فيها يطابق كل ما حدث من ذلك الحين، كما أنها تنطبق على ما يحدث اليوم أمام أعيننا".

حقًا، كتب فيكتور مرسدن، إنها تطابق الحال حدَّ الدهشة!

أضاف أن هناك أدلة وافرة تدعم الرأي القائل بأن البروتوكولات تم تأليفها أثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل عام 1897 بقيادة أبي الصهيونية المعاصرة، ثيودور هرتسل.

كان مرسدن هو مَن مهّد الطريق لتورط المورنينغ بوست الشديد في نشر **بروتوكولات حكماء صهيون** والترويج لها. بعد عودته إلى إنجلترا استمرّت علاقته بالصحيفة، وحين طرأ تحسن طفيف على صحته، وكان بالإمكان أن تناط به مهمة جديدة، تم اختياره لمرافقة أمير ويلز في جولة في أرجاء الإمبراطورية. كان لرأيه في البروتوكولات وزن كبير لدى إدارة الجريدة، لكنهم لم

ينتظروا نشر ترجمته عام 1925، حيث أن البروتوكولات كانت قد وصلت إنجلترا عن طريق ضباط الجيش الروس قبل عودة مرسدن من روسيا، وكانت نسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة، كاتبها مجهول الهوية، قد وُزِّعَتْ على السياسيين والمسؤولين الحكوميين ومحرري الصحف، ومن بينهم محرر المورنينغ بوست، السيد چـــوين Gwynn الذي أدرك في الحال، بحواسه الحادة، أن بين يديه وثيقة تحمل إمكانيات كبيرة، غير أنه نظرًا لكونها مجهولة المصدر، رأى أن يستشير في الأمر بعض المسؤولين، فبعث بنسخات من الوثيقة إلى صاحبة الصحيفة الليدي باثهرست Bathhurst، وإلى الشاعر روديارد كيبلينغ، وإلى السير بازيل طمبسون رئيس الوحدة الخاصة في سكوتلاند يارد، وإلى الصحافي ليون ماكس المعروف بآرائه اليمينية.

رغم أن روديارد كيبلينغ كان بحد ذاته مُصابًا بالميول اللاسامية، إلا أنه رد بقوله إن الوثيقة تبدو زائفة، "خليط من الأفكار منقول عن فلسفة ألمانية راجت قبل عشرين عام". وردَّ السير طمبسون إنها هراء (moonshine)، كما كتب الصحافي ليون ماكس بلهجة تقريرية أنها "شدُّ أعصاب" ويجدر الامتناع عن نشرها، وأما چـــوين فقد اختار التعامي عن كل هذه الآراء وتبني موقف مرسدن، معرضًا بذلك مكانته في الصحيفة للخطر.

استمر الجدل الحاد في المورنينغ بوست حول البروتوكولات لشهور عديدة، منذ أكتوبر 1919 وحتى صيف 1920. وقد شارك في الجدل، على نحو غير عادي، مدير الشؤون التجارية للصحيفة، هنري بيكوك Henry Peacock ، الذي لم يكن من عادته التدخل في شؤون الصحيفة السياسية. قام كل من الإثنين، چـــوين وبيكوك، بإرسال المذكرات المطولة إلى الليدي باثهرست، صاحبة القرار، محاولاً التأثير عليها لتأخذ بوجهة نظره، فكتب بيكوك يقول: "إن الناس في العالم سينظرون إلى مقالاتنا حول الموضوع وكأنها أضغاث حلم في ليل صيف. يذكرني ذلك بهجمات الكاثوليك المتزمتين التي يتم نشرها من

حين لآخر ضد البناة الأحرار. فهذه كتلك، لا أساس لها". كما استشهد بأقوال جورج ساوندرز، الذي استعانوا بخبرته في السابق، والذي عبر عن رأيه بشكل حازم بأن الوثيقة زائفة. توجّه كذلك إلى السير ويليام تيرل، مدير شعبة المخابرات في وزارة الخارجية، فكان رده: "إن نظرة خاطفة إلى هذه البروتوكولات تكفي لدعم موقفي من أنها تلامس الجنون".
"إذا كان كبار اليهود في العالم، ممن يرضعون من تراث يعود إلى أجيال كثيرة، لم يتمكنوا مجتمعين من أن يُخرجوا من تحت أيديهم وثيقة أكثر إقناعًا، فإن ذلك يلقي ضوءًا بائسًا جدًا على "ذكاء" أبناء هذا العرق"، كتب بيكوك في مذكرته وأضاف: "أعتقدُ أننا نقف فوق وكر للأفاعي".
أفادَ أنه ليس من أنصار اليهود، ولعلهم يستحقون كل ما حدث لهم في روسيا، معترفًا أن موقفه الداعم لعدم نشر المقالات التي كانت قيد الإعداد، لا ينبع عن نزاهة واستقامة صحافية، وإنما خوفًا من اليهود "الذين يعرفون كيف يحقدون".

تشبّث چـــوين بقراره في نشر المقالات لأسباب تجارية محضة: في ربيع عام 1920 كانت الصحيفة بحاجة إلى سبق صحفي، فقد تقلص انتشار الجريدة في نهاية الحرب إلى 10,000 نسخة. لكن الحظ حالفهم في بداية 1920 فتمكنوا من شراء الرسائل المتبادلة بين القيصر الألماني ويلهلم الثاني والقيصر الروسي نيقولاي الثاني، والتي عُرفت باسم "رسائل ويلي – نيقي" لقاء 1500 ليرة استرلينية، وقد أدى نشر سلسلة الرسائل المذكورة إلى ازدياد الطلب على 7000 نسخة إضافية. اعتُبر نشر تلك الرسائل "أعظم سبق صحفي في القرن".
ارتفع التوزيع أكثر فأكثر وبلغ أوجَهُ عندما نشرت الصحيفة سلسلة مقالات عن الجاسوسية الألمانية.

اعتقد چـــوين أنه اكتشف معادلة النجاح، وهو الآن بحاجة إلى سبق صحفي جديد. لم يساوره أدنى شك في أن النظرية التي تُحمّل اليهود المسؤولية عن المشاكل التي يواجهها العالم، والتي

تكشف عن أخطر مؤامرة في التاريخ البشري، ستجد ترحيبًا حارًّا في الأجواء المناهضة للألمان وللبلشفيك التي سادت في بريطانيا آنذاك. "إنها معادلة رابحة"، كتب لصاحبة الصحيفة. كذلك كان لديه الجواب على ادعاءات بيكوك، "يجب عدم الخوف من اليهود"، كتب لها، "إنهم منذ ثلاث سنوات يعتبرون أننا ضد اليهود، وها هي الصحيفة في أوج نجاحها. إن البروتوكولات إبداع رائع – رغم أنها كُتبت بلهجة الاستعلاء، كما هو متوقع من هذا العرق الشرقي. إنها خطة واضحة لسيطرة اليهود على العالم، ولا يمكن الإشارة إلى أي ثورة، منذ الثورة الفرنسية، لم يكن لليهود فيها دور رئيسي".

من أجل تبديد مخاوف السيدة باثهرست، تعهد جـوين بعدم نشر البروتوكولات كاملة في الصحيفة. سوف تشرح المقالات نظرية المؤامرة فقط، من خلال اقتباس مقاطع من البروتوكولات. لن تضمن الصحيفة صحة الوثيقة، وبإمكان اليهود أن يدحضوها إذا شاءوا. طمأنها بأنه سيجد مشاهير المؤرخين ممن يدعمون المقالات، وأنه ينوي إقناع محررين آخرين، في العاصمة والمقاطعة، بأن ينضموا إليهم وينشروا البروتوكولات، حتى لا تكون صحيفتها الوحيدة التي تتحمل مسؤولية المخاطرة. إنه واثق من أن الصحف الهامة في الولايات المتحدة ستكون على استعداد لدفع المبالغ المعتبرة للحصول على امتياز بنشر المقالات.

نجح جـوين في إقناعها، رغم أنه لم يستطع الحصول على دعم المؤرخين، ولم يتم النشر في الصحف الأخرى، كما تعهد لها. نشرت الصحيفة المقالات السبعة عشر التي أعدّها كولوين جـرانت، فارتفع التوزيع اليومي للصحيفة بـ 10,000 نسخة. ممتطيًا صهوة نجاحه، قام جـوين بإعداد الكتيب "سبب اضطراب العالم" مجندًا للمهمة كبار المسؤولين في الجريدة، وقام هو بكتابة المقدمة.

عام 1921 كتب الباحث المعروف لوسيان وولف في كتابه "خرافة الخطر اليهودي"، ردًّا على المقالات في المورنينغ بوست: "أشعر بالخجل العميق بسبب الاضطرار إلى كتابة هذا الكتاب. إن كل إنجليزي يحترم ذاته يجب أن يشعر مُهانًا، إذ تحاول بعض الصحف المحترمة في هذه الدولة، أن تبذر هنا بذور اللاسامية البروسية، من خلال اللجوء إلى وسائل مشكوك فيها، وأدبٍ مليودرامي الغباء".

توقفت المورنينغ بوست عن الصدور عام 1937 دون أن ترَى أن من المناسب التراجع عما نشرته من الأكاذيب.

حين انتهى جورج برونشفايغ من تصفح نسخات الصحيفة والكتيب المرفَق إليها، أحسَّ ثانية أنه مزمع على مواجهة أعداء في غاية الخطورة في قاعة القاضيماير.

الثعبان الرمز

في ساعة متأخرة من الليل، بسط جورج فوق طاولة مكتبه الرسوم الكاريكاتورية التي زينت أغلفة البروتوكولات بمختلف اللغات. أظهر معظمها صورة بشعة ومشوهة لليهودي، ذي الأنف الأعوج والعينين البارزتين من جحريهما، وقبعة كبيرة فوق رأسه، يحيط الكرة الأرضية بيديه الطويلتين الأشبه بالحوافر. فكر جورج بمزيد الحزن وقال في نفسه: إن هذا الشكل قادر على بثّ رسالة البروتوكولات بصورة درامية، وهو الفحوى كلها بدفعة واحدة.

ترجم له ليفشيتس، عن الروسية، أقوال نيلوس عن مجيء المسيح الدجال من أصل يهودي ليحكم العالم كله:

> كيف يتم بلوغ هذا الهدف؟ عن طريق حنكة الثعبان الرمز. ذيله في صهيون لكن رأسه يشرئب إلى الأمام وجسده يزحف فوق العالم كله. خلال تغلغله في أحضان الدول المختلفة، ينخر الثعبان القوى السياسية لغير اليهود، بواسطة

> الليبرالية الدستورية والانقلابات الاقتصادية. لقد اجتاز الثعبان على امتداد التاريخ سبع محطات. في بداية طريقه باشر النخر في قوة اليونان العظمى في عهد بركليس، وفي عام 1881، العام الذي اغتيل فيه القيصر ألكسندر الثاني، وصل الثعبان إلى المحطة السابعة في سانت بطرسبورغ. عندما يعود فيصل رأسه إلى صهيون، يكون قد أغلق الدائرة المحيطة بالعالم. تمكن الثعبان حتى الآن من الإحاطة بكل أوروبا، وسوف يتابع من هناك التفافه حول العالم كله. لكن عودة رأس الثعبان إلى صهيون لن تتم قبل أن ينجح اليهود في تدمير وإبادة كل ما يعترض طريقهم، كما فعلوا منذ القدم، من خلال الانحلال الخلقي وإفساد القيم بواسطة المؤسسات الليبرالية".

ليس نيلوس مَن ابتكر الثعبان، قال ليفشيتس هامسًا عندما انتهى من مهمة الترجمة، بل هو بوطمي، كاتب من صفوف المئات السود، كان هو الآخر قد أصدر البروتوكولات في روسيا، إصدارًا خاصًّا به، في العامين 1906 و 1907، زاعمًا أنها وصلت إلى يديه عن طريق مصدر مستقل. احتوى إصدار عام 1907 تصريحًا لرجل مجهول الهوية، زعم فيه أنه قام بنفسه بترجمة البروتوكولات عن الفرنسية في التاسع من ديسمبر 1901. هنا أيضًا يرِدُ الحديث عن "خطة سياسية أعدها سليمان الملك وشيوخ صهيون، عام 929 قبل الميلاد، من أجل احتلال صهيون للعالم بالطرق السلمية، عن طريق الاستخدام السليم للثعبان الرمز الذي يمثل رأسه الحكومة اليهودية ويمثل جسده الشعب اليهودي. بموجب خطة حكماء صهيون، يُوارَى الثعبان حتى عن عيون اليهود أنفسهم.

لقد قرأ جورج البروتوكولات مرات عديدة، بما فيها مقدمة نيلوس، لكنه لم يعثر على ذكر للثعبان. لعله لم ينتبه؟ عاد هو

وإميل رآس إلى قراءة مقدمة نيلوس في الطبعة الرابعة بترجمتها الفرنسية والألمانية، باحثين عن الثعبان الرمز. تبيّن لهما أن دُور النشر الأوروبية قد حذفت من الترجمة، ليس فقط موضوع الثعبان، بل وأشياء أخرى برز فيها جنون نيلوس، خشية أن يكون في تلك الفقرات ما يُرعب القارئ. إن ما كان مناسبًا للموجيق الروس الغارقين في حكايات الرعب الخرافية، من شأنه أن ينفّر جمهور القراء في بلاد الغرب، مثل ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، حيث تم إظهار نيلوس كبروفسور وعالم وفيلسوف سليم العقل تمامًا.

يبدو أن القراء في روسيا فقط يعرفون نص نيلوس الأصلي، وأما المترجمون في البلاد الأخرى فقد نقلوا عن النص المعدّل. يا لهذا الدهاء، قال جورج في نفسه، بالطبع لا يحاول أحد أن يطالب بحقوق التأليف عن مادة زائفة، فباستطاعة كل دار للنشر أن تعتمد النص الذي يناسبها دون وجل.

مع ذلك، فقد وجد الثعبان طريقه إلى أوروبا الغربية، فبالرغم من غيابه عن النص المكتوب، ظهر الثعبان بكل قبحه على أغلفة الكتب، تاركًا انطباعًا لا يُمحى لدى جمهور القراء. كان جورج على يقين من أنه حتى لو أقرّت المحاكم في العالم بزيف البروتوكولات، وحتى لو تم منع نشرها في كل الأماكن، سيبقى الناس متأثرين بالصور البشعة للثعبان الملتف حول العالم، أو المتسلق صليبًا ضخمًا، أو الزاحف فوق خريطة أوروبا جارًّا خلفه نجمة داود تقطر دمًا.

كم كان صادقًا، قلت في نفسي بعد ستين عام، حين طالعت بكل أسى تلك الكاريكاتيرات التي ما زالت تُنشرُ في صحف مختلفة في العالم. نفس الرسومات، نفس اليهودي ذي الأنف الأعوج، نفس الثعبان ونفس الفحوى.
ما الذي يمكن أن يوقفها؟ ساءلتُ نفسي بغير حيلة.

الفصل السابع

الشهود

كان القلق يساور جورج برونشفايغ والبروفسور ماطي وبوريس ليفشيتس. أما زملاؤهم فقد اطمأنوا إلى أن الخبيرَين، لوسلي وباومـــچرْتن، سوف ينجحان في إقناع القاضي بأن البروتوكولات مزيّفة. "ألم تقولوا إن عبء إثبات البيّنة يُلقى على كاهل المدّعَى عليهم؟ وهؤلاء لن يكونوا قادرين على حمل هذا العبء"، قالوا للمحامين الثلاثة القلقين.
لكن المحامين كانوا يعلمون أن المحكمة ليست حلقة دراسة أكاديمية، والقاضي غير الصبور قد يملّ من التقارير التاريخية. ثم إن قرار الحكم يستند غالبًا إلى شهادات الشهود الأحياء، لا إلى الخبراء والعلماء مهما كانوا. وهم يتوقعون أن يضفي خصومهم على المحكمة بُعدًا دراماتيكيًا من خلال إطلاق التصريحات الديماغوغية والخطابات البلاغية. سوف يستغلون إلى أقصى حد انتشار البروتوكولات بكميات هائلة في أرجاء العالم، والمقالات التي نشرتها الصحف الكبيرة، وتأييد الشخصيات الاجتماعية المعروفة. ولا يجب تجاهل تأثير الآراء المسبقة ضد اليهود، الرائجة بطبيعة الحال بين الجمهور، نوّه ليفشيتس. أي قاض يمكن أن يخاطر فيعلن أن كتابًا يصدر منذ ثلاثين عام، بكل لغة ولسان، ما هو إلاّ زيف وزور؟ لا يجب الاكتفاء بتقارير الخبراء العلمية، لا بدَّ من شهود أحياء ووثائق أصلية. هذا ما استقر عليه قرارهم.

لكن، كيف يتمكن كادر صغير في بيرن، بإمكانياته المحدودة، من العثور على وثائق مخفيَّة في مكان ما في الأرشيفات الروسية؟ كل من كانت له صلة بالأحداث ذات العلاقة بالقضية لا بدّ أن يكون قد فرَّ من روسيا بعد الثورة. أين يمكن العثور عليهم؟ أين يعيشون؟ وحتى لو عثرنا عليهم، هل يتذكرون؟ وهل هم على استعداد للإدلاء بشهادتهم؟

في إحدى الجلسات الصباحية كانت بانتظارهم مفاجأة. أخبرهم سالي ماير، وقد علت شفتيه ابتسامة عريضة، أن لديه خبرًا غير سار، لكنه ينطوي على خبر سار. لنبدا بالخبر غير السار، قال سالي: ردًّا على توجهاتنا للمنظمات اليهودية في العالم بطلب الدعم المادي، لم يستجب سوى "الجوينت"، فبعث بمبلغ 1,000 دولار. أما الخبر السار فهو أن الجوينت يعرض دعمًا من نوع آخر قد يوصلنا إلى الشهود والوثائق.

"كم نحن بحاجة إلى ذلك!"، همس البروفسور ماطي مخاطبًا نفسه.

هكذا، وبمحض الصدفة، تم الاتصال بألكسندر طاغر، الذي كان له، فيما بعد، دور رئيسي في الإعداد للمحكمة.

تأسَّس الجُويْنت عام 1914 من أجل مساعدة اليهود المعوَزين، وبعد الثورة وثّق أعضاؤه العلاقات بالسلطات السوفياتية في سبيل تسهيل الإغاثة للجالية اليهودية في أرجاء روسيا. في عام 1922 تم التوصل إلى اتفاق، تعهد الجوينت بموجبه بدعم الجهود المبذولة لتشجيع الاستيطان اليهودي في أوكرانيا أولاً، ومن ثم في شبه جزيرة القرم. جرى تقديم المساعدات عن طريق منظمة تم تأسيسها عام 1924 بموافقة السلطات، دعيت باسم "أچــرو– جوينت"، وقد مثَّل المحامي اليهودي ألكسندر طاغر منظمة الأچــرو– جوينت أمام السلطات الروسية، ونجح في ربط علاقات إيجابية معها.

أسوة بالمنظمات اليهودية الأخرى، أعربت إدارة الجوينت عن قلقها الشديد إثر صدور **بروتوكولات حُكماء صهيون** في بلاد الغرب. اعتبارًا من عام 1921 جرى تبادل الرسائل بين إدارة الجوينت والسلطات الروسية في محاولة للحصول على مواد ذات علاقة بالبروتوكولات، وقد اهتم طاغر بالأمر وكان ملمًا به جيدًا.

أبلغ سالي ماير رفاقه بأن طاغر وافق على أن يكون وكيل اتصالاتهم في روسيا، كما وعد بتزويدهم بقائمة من الشهود وبمواد من الأرشيفات التي يصعب الوصول إليها.
تُرى، كيف كانوا ليتصرّفوا بدون طاغر؟ هذا ما تساءلوا به بعد زمن.
قيل لهم إنه يستطيع الوصول إلى الارشيفات، لكن المفاجأة كانت في أنه حصل على إذن السلطات بأن يحول إليهم المستندات الأصلية المحفوظة فيها لغاية إبرازها للمحكمة، متعهدًا بإعادتها بعد انتهاء القضية. كانت تلك بادرةً نادرةً من السلطات السوفياتية، التي ما لبثت أن نزعت عنها قناعها، واعتمدت **بروتوكولات حُكماء صهيون** كلسان حالٍ لسياستها الرسمية تجاه اليهود.

كان ذلك في نظرهم جميعًا، خبرًا سارًا، ونقطة انفراج وانطلاق، ورغم ساعات الصباح الباكرة، قرروا أن يشربوا نخب الخبر.

سرجي سباتيكوف

بين الأسماء الأولى التي ذكرها طاغر، كان اسم سرجي سباتيكوف، وهو بروفسور في القانون والفلسفة، عمل سابقًا في جامعة سانت بطرسبورغ وجامعة هايدلبرغ. يسكن حاليًا في باريس، كتب طاغر، ولن يكون الاهتداء إليه صعبًا، فهو معروف جدًّا في أوساط المهاجرين الروس.
تم انتداب جورج برونشفايغ مرة أخرى إلى باريس، مبتهلين أن يوفَّق في هذه المرة أكثر من المرة السابقة. كان ليفشيتس قد أجرى اتصالاً بسباتيكوف، وبشّر جورج بأن سباتيكوف على استعداد للتعاون التام. إنه يسافر هذه المرة كمحامٍ لمقابلة شاهد، لا لحث الجالية اليهودية.
استغل جورج زمن السفر في القطار لإعداد الأسئلة التي سيوجهها إلى هذا الشاهد الهام. لم يكن قد اختبر مثل هذه المهمة في الماضي، فكان توتره يتزايد كلما اقترب القطار من باريس.

التقيا في أحد المقاهي الموجودة بوفرة في باريس، في يوم مشمس صافٍ. أحسّ سباتيكوف بالتوتر الذي يكتنف المحامي الشاب، فأخذ زمام المبادرة. كان ليفشيتس قد أعلمه بأنهم ينتدبون محاميًا شابًا، رغم كونه لامعًا، إلا أنه، للأسف، ما يزال يفتقر إلى الخبرة الكافية. "سنشرب القهوة أولاً ونتعارف"، اقترح سباتيكوف. "حكايتي طويلة"، قال جورج، "وسنحتاج إلى أكثر من لقاء لاستعراض القضية بكاملها". دار الحديث بينهما على مدى ساعة حول قضية بيرن، وقبل أن يفترقا اتفقا على أن يلتقيا في المرة القادمة في شقة سباتيكوف. "في البيت طاولة كبيرة، ليست كهذه"، قال سباتيكوف وهو يبتسم مشيرًا إلى الطاولة المستديرة الصغيرة التي جلسا حولها، وأضاف: "عليك التزود بالكثير من الورق لتسجيل أقوالي"، ثم قال هامسًا: "يُحتمل أن نكونَ مراقَبين حتى في هذه اللحظة".

لم يستطع جورج الإغفاء ساعة. راح يعدُّ الساعات بفارغ الصبر، بانتظار اللقاء المرتقب صباحَ الغد. ترك سباتيكوف لديه انطباعًا حسنًا، من حيث حضوره الأدبي وثقته بنفسه وما يوحي به من مسؤولية. شعر أن الرجل سيكون الشاهد الرئيسي في القضية. عسى أن يكون الحظ قد بدأ يبتسم له، فكّر قبل أن يغرق في سبات عميق.

في الغد مضى إلى اللقاء حاملاً قائمة جاهزة من الأسئلة، تمامًا كما علموه في كلية الحقوق: "أعدّ فروضكَ دائمًا"، كرّر أستاذه وأعاد بلا نهاية، "عليك استدراج الشهود، لأنهم غالبًا ما لا يستطيعون التمييز بين الغثِّ والسَّمين". لكنه ما إنْ بدأ الحديث مع سباتيكوف حتى أدرك أنه أمام شاهد مختلف. وهو وإن كانت تنقصه الخبرة، إلا أنه يملك الحواس السليمة، وقد أوعزت له حواسه بأن يترك الرجل يسرد القصة على طريقته، وبحركة حازمة دفع بقائمة الأسئلة لداخل حقيبته، ووضع فوق الطاولة حزمة أوراق بيضاء.

جلسا إلى جانب طاولة مستديرة كبيرة الحجم يكسوها غطاء ملوّن. الشقة متواضعة، تغطي جدرانها رفوف مثقلة بالكتب.

في الليلة الفائتة طار النوم من عيني سباتيكوف أيضًا. تساءل ما الذي يمكن أن يرويه لضيفه في الغد؟ وكيف يمكن لمحام شاب، وُلد وترعرع في عالم مختلف، أن يستوعب وأن يقدم للمحكمة سلسلة حقائق، قد تبدو، لمن لم يختبر ذلك الواقع، بعيدة كل البعد عن التصديق؟ في لحظة معينة ندم على قبوله التعاون. لا يطيب له أن يتذكّر تلك الأيام، لكن ما دام قد تعهد بأن يشهد في المحكمة، فلا بد أن يصف لهم روسيا في تلك الأيام، بقدر استطاعته.

شاهد الادعاء
سرجي سباتيكوف
من كبار الموظفين في الحكومة الروسية المؤقتة.

بينما جلس أمامه جورج منتظرًا ما يفوهُ به، أجال سباتيكوف نظره في المنظر البادي من خلال النافذة، وشرع بالحديث بصوته الهادئ، وكأنه يتحدث إلى ذاته.
إنه يذكر جيدًا تلك الأحداث العاصفة في السنتين 1916–1917، والتي كان له فيها دور معين.
"إن كنتَ تريد لقاضٍ سويسري أن يفهم الأحداث الدرامية لتلك الأيام، وإن كنتَ تريد أن تصفَ له شخصيات ذلك الزمن وتصرّفها وسلوكها، يتوجب عليك أن تستحضر إلى قاعة

المحكمة الأجواء التي سادت في روسيا في أواخر أيام تلك الإمبراطورية العظيمة. عليك أن تصرَّ على أن تُعطى لك هذه الفرصة".

أخذ سباتيكوف يتحدث عن آخر أيام حكم سلالة رومانوف بصوت ملؤه الحزن والحنين. تحدث عن الآمال التي انتعشت في قلوب الناس حين تشكّلت الحكومة المؤقتة، وكيف خابت وتلاشت بعد ستة أشهر. قال إن شهادته في المحكمة ستتركّز في الوقائع التي وقعت في تلك الأشهر الستة.

في نهاية عام 1916 اقتربت عائلة رومانوف من نهايتها المصيرية. قاتلَ عشرة ملايين من الجنود الروس في ساحات الوغى في الحرب العالمية الأولى. غصّت المستشفيات بالجرحى. انتشر الإرهاب في الشوارع. كانت الثورة على الأبواب. أصبحت أيام القيصر نيقولاي الثاني وزوجته ألكسندرا معدودة، مع ذلك كانت الحياة في العاصمة الروسية طبيعية عادية. استمر أبناء الطبقة العليا بتبادل الدعوات لولائم العشاء الفاخرة ولحفلات الشاي الأنيقة. كما ازدهرت الحياة الأدبية والاجتماعية، فعُزفت معزوفات كبار الموسيقيين الروس في قاعات غصّت بالجمهور، وحظيت عروض الباليه والمسرح، التي قدمت نخبة الإبداع الروسي، بالهتافات الحماسية. لم تكفّ النساء عن السفر إلى موسكو للتوصية على الفساتين لدى الخياطة الشهيرة لومنوبا. احتفظت اللقاءات بالقيصر بكل رونقها وبهائها وجرى كل شيء طبقًا لأصول الرسميات الملكية.

كان غريغوري راسبوتين ما يزال يفرض سلطانه الخفي على القصر، مع أن أجلَهُ هو الآخر كان يقترب. كان ضخم الجثة، يرتدي عباءة سوداء، كالتي يرتديها الموجيق الميسورون أيام الأعياد والمناسبات. يسير في شوارع العاصمة بجزمته القاتمة، فيحيد الكل عن طريقه. كان الناس يميزونه بسهولة عن طريق شعره الطويل الأشعث، ولحيته السوداء الكثيفة، وجبهته العالية، وأنفه الأحدب العريض. لكنه اشتهر بعينيه الزرقاوين البارقتين

ونظرته المطلّة منهما، تلك النظرة الخارقة والملاطِفة في الآن ذاته، البرئية الخبيثة، القريبة البعيدة. لقبه الناس "الشيخ"؛ أما هو فقد كنّى نفسه " كاهن روح القيصر"، لكن الذين عرفوه جيدًا رأوا فيه الشيطان مجسّدًا، وهناك من أسماه "المسيح الدجَّال".

الأميرتان من مونت نيغرو هما اللتان مهَّدتا الطريق لهذا الساحر إلى داخل القصر الملكي، تماما كما تمكنتا سابقًا من إدخال مساعد الجزّار، فيليب، إلى القصر؛ ففي عام 1907 قدمتا راسبوتين لأول مرة إلى الإمبراطورة. وراسبوتين هذا هو ابن لموجيق بسيط، تاجر خيول، من غرب سيبيريا، كان معروفًا كلصٍّ وسكّير. لم يكن راسبوتين اسمه الأصلي، بل هو كنية تعود إلى كلمة "راسبوتنيك" وتعني "رذيل"، "فاسق"، "ملاحق النساء". كانت تلك الكنية التي دمغه بها أصدقاؤه تناسب ذلك "الشيخ". ولكن الأمر العجيب هو أن هذا الرجل، حالما دخل القصر، استطاع أن يحتل فيه مكانة مرموقة، آسرًا لب القيصر وزوجته، سابيًا عقليهما ومسيطرًا عليهما. "لقد سحرهما"، قال رجال القصر في ذهول. سرعان ما تصادق مع السيدة فيربوبا، إحدى رفيقات الإمبراطورة وأكثرهن تقرّبًا إليها، فعرف عن طريقها كل أسرار العائلة المالكة. جعلته الإمبراطورة مرشدًا روحيًا لها، وباحت له بكل الأحابيل التي كانت جزءًا لا يتجزأ من الحياة اليومية في القصر، وهكذا تمكن الرجل من التأثير على تعيينات هامة وعلى التخطيطات السياسية. كان يدعو القيصر والقيصرة "مامكا" و "بابكا" (ماما و بابا).

يذكر سباتيكوف كيف أصرّت ألكسندرا، رغم انتقاد الرأي العام، على إشراك راسبوتين في تناول القربان المقدس في فصح 1916. صُعِقَت روسيا كلها حين تبادلت القيصرة "قبلة السلام" مع راسبوتين: قبَّلها هو في جبينها، وقبّلت هي يده.
رأى الجميع الكتابة على الحائط، قال سباتيكوف لجورج. لكن يبدو أنه كُتب للأحداث المأساوية أن تستمر حتى نهايتها المريرة على مسرح التاريخ الروسي.

في الثاني من ديسمبر 1916، عُرِضَ أمر راسبوتين لأول مرة في البرلمان الروسي "الدوما". أطلق رئيس المعارضة بوريشكفيتش صرخةً ضد "قوى الظلام التي تُشين روسيا وتسبِّب لها الدمار"، وأضاف بانفعال: "نحتاج فقط لتوصية من راسبوتين لتعيين أكثر الخلق قباحةً في وظيفة مرموقة. ممنوع أن يستمر موجيق نكرة في التحكّم بروسيا". كان في كلامه، لأول مرة، إنذار علني بأن الثورة على الأبواب.

لكن القَصْرَ تجاهل الإنذار، والوقت يمر وينتهي على عجل. في 16 ديسمبر 1916 اغتيل راسبوتين بيد الأميرين فليكس وديمتري يوسوبوف، وقد شارك في العملية بوريشكفيتش، رئيس كتلة اليمين المتطرف في الدوما، الداعي إلى نظام حكم أرثوذكسي مُطلق. عندما وجدوا الجثة بعد ثلاثة أيام، في ثلوج نهر النيبا، عجّت الشوارع بالمحتفلين الذين تبادلوا التهاني والقبلات ومضوا لإضاءة الشموع في الكنائس.

أما الإمبراطورة فقد تجاهلت مشاعر الجماهير، وكتبت رسالة شخصية إلى راسبوتين الميت، طالبة وضعها بين يديه، كتبت فيها: "يا قديسي العزيز، امنحني بركتك، لترافقني دائمًا في طريقي الكئيب الصعب الذي عليّ أن أجتازه في هذه الدنيا. أرجوك، اذكرنا في صلواتك المقدسة هناك في الأعالي".
دُفن راسبوتين على مشارف الحدائق الملكية في تسرسكويا سلاو، بحضور القيصر والقيصرة وبناتهما الأربع. طلبت القيصرة أن تحتفظ بقميصه المخضب بالدم كذكرى منه.

بعد ما ينوف عن ثلاثة أشهر، وبالتدقيق في 15 مارس 1917، اضطر القيصر إلى التنازل عن العرش، وتم تعيين پاول ميليوكوف Paul Miliukov، رئيس حزب الكاديت الذي يتزعم الكتلة التقدمية، وزيرًا للخارجية في الحكومة المؤقتة.
كشف جورج لمضيفه أن اسم پاول ميليوكوف يظهر في قائمة الشهود التي اقترحها طاغر. "لن يخذلكم"، أجاب سباتيكوف.

كان جورج قد درس تاريخ روسيا في تلك الفترة، لكن، كم تختلف الأمور حين تُسمع من فم إنسان عايش الأحداث وكان له دور فيها، فكّر جورج. لا يستطيع أي أستاذ للتاريخ أن يصف الأحداث على هذا النحو.

پـــاول ميليوكوف
شاهد الادعاء
من مؤسسي حزب الكاديت الليبرالي في روسيا القيصرية، ووزير الخارجية في الحكومة المؤقتة.

من أول القرارات التي اتخذتها الحكومة المؤقتة، كان تفكيك وكالات الشرطة السرية في الخارج، وقد ألقيت هذه المهمة الحساسة في أوائل مايو عام 1917 على عاتق سرجي سباتيكوف، البالغ من العمر 37 عامًا، وعضو الحزب الاشتراكي الديمقراطي. كان قد شغل منصب نائب ومستشار لقائد الشرطة في بتروغراد إبان انتفاضة فبراير، ورغم أنه لم يقضِ أكثر من ثلاثة أشهر في تلك الوظيفة، فقد حظي بتقدير عظيم. قبل إرساله إلى أوروبا، تم تعيينه مندوبًا للشرطة في الحكومة الروسية المؤقتة. علاوة على مهمة القضاء على وكالات الشرطة السرية في مختلف البلاد الأوروبية، أوكلت إليه أيضًا مهمة فحص أنشطتها في الماضي بشكل أساسي، ومن ضمن ذلك تورُّط بعض الجواسيس الروس بالعمالة المزدوجة. لقد عيّنه وزير العدل برتبة القاضي المحقق من الدرجة الأولى، ومنحه صلاحيات التحقيق الواسعة.

قال لجورج مرارًا وتكرارًا إن حكايته قد تبدو غير قابلة للتصديق في المحكمة، إلا إذا استطاع أن ينقل إلى قاعة المحكمة تلك الأجواء الشيطانية التي سادت في وطنه في تلك الأيام. كيف له أن يصف للقاضي حالة يهود روسيا، وعبث السحرة المجانين، وتلاعب السياسيين وعملاء الشرطة الفاسدين، الذين استطاعوا أن يحمّلوا تلك الأقلية المضطَهَدَة، المسؤولية عن كل الضائقات والمشاكل التي حصلت في أرجاء الإمبراطورية.

كان سباتيكوف، كسائر الذين انتموا إلى المخابرات الروسية، مُدركًا جدًا لما أسموه "المسألة اليهودية". وقد أفضى لجورج أنهم كانوا يتفكّهون فيما بينهم ويسمونها "الحل اليهودي". اعتقد سباتيكوف بكل طيبة أن النظام الجديد سيمنح المساواة لكل المواطنين، بما فيهم اليهود. وهو يذكر حادثة حصلت في الأول من مايو في محطة شرطة بتروغراد. لدى تشكيل الحكومة المؤقتة اختفى كل أفراد مقر القيادة، وعلى رأسهم قائد الشرطة نفسة، وفجأة وجد سباتيكوف نفسه في مَوضِع القيادة، وكان عليه أن يعاين كل الأوراق والمراسلات التي كانوا يُحضِرونها، بطبيعة الحال، إلى قائد الشرطة. أول ما وقع بين يديه في ذلك اليوم كانت برقية من قائد شرطة لواء بولتافا، يلتمس فيها المصادقة على منح تصريح بزيارة مدينة بتروغراد لمدة أسبوع، لمواطن من "الدرجة الثانية" يُدعى سيبروفيتش. لكون هذا المواطن يهوديًا فقد كان بحاجة إلى تصريح خاص لزيارة العاصمة.

حين همّ مساعدُهُ بحفظ البرقية في "الملف اليهودي"، اضطرّ إلى تذكيرة بأن الأزمان قد تغيّرت، ثم أمر المساعد المشدوه بإرسال الرد فورًا إلى قائد محطة بولتافا، إن كان ما يزال هناك، بأن بإمكان مواطن "الدرجة الثانية"، سيبروفيتش، أن يزور بتروغراد في كل وقت، وأن يمكث فيها زمنًا غير محدد. وأضاف: إن للسيد سيبروفيتش حق التجول بحرية في أنحاء روسيا. وبينما كان المساعد يغادر الغرفة مترددًا، ناداه وأوضح له أنه يريد

توقيع البرقية شخصيًا، ثم قال: بهذه المناسبة يجب إلغاء "القسم اليهودي"، وتوزيع موظفيه بين الأقسام الأخرى، وختم ما يحتويه من الملفات بالشمع، ليتم فحصها مستقبلا على يد لجنة خاصة.

اعتقدَ سباتيكوف أن لا وجود لبند خاص باليهود على جدول أعماله، إلى أن قابل هنري بينت في مكاتب القنصلية الروسية في باريس. شكّلت القنصلية في باريس مقرًّا لقيادة الشرطة السرية الروسية في أوروبا. كانت القنصلية قد أخذت عِلمًا بوصوله، فأعدت له استقبالاً لائقًا. كان يخشى ألاّ يلقى تعاونًا من طرف الموظفين المحليين، الذين لا بد وأنهم يتوجسون من المحامي الشاب الذي جاء ليفحص ويُعدُّ التقارير؛ ناسيًا أن الموظفين في النظام الأوتوقراطي الروسي قد اعتادوا الانضباط والامتثال لصوت السلطة. أصبحت الحكومة المؤقتة الآن هي السلطة في روسيا، وهو ممثلها الرسمي، وسرعان ما أدرك أنه لا يجب أن يستهتر بما حصل عليه من ألقاب وصلاحيات. حين شاهد المكتب الفسيح الذي أعدوه له، تساءل بينه وبين نفسه إن كان هذا المكتب هو نفس المكتب الذي استخدمه سابقًا كبير الجواسيس السيئ الذكر، بيوتر رتشكوفسكي، والذي شغل منصب رئيس الشرطة السرية في أرووربا.

جلس سباتيكوف خلف طاولة العمل الفسيحة، وراح يتأمل هنري بينت، العميل العريق للشرطة السرية الروسية في أرووربا. عمل هنري تحت إمرة أسياد كثيرين خلال 37 سنة في خدمة الشرطة السرية، كان أهمهم رتشكوفسكي، الذي يُبدي سباتيكوف الآن اهتمامًا خاصًا به.
لشدة استغرابه، أبدى بينت استعدادًا تامًا للبوح بمكنونات صدره. يظهر أن هذا الرجل الذي اكتنز في قلبه على مدى السنين أسرارًا كثيرة، كان يتحيّن الفرصة للإفضاء بما عنده. في الماضي كان ذلك سيكلفه رأسه، فكم من العملاء قُتلوا، بعد إفشائهم لسر أو لآخر، في حوادث وظروف غامضة. وها هو الآن يُطلب إليه، على يدي ممثل السلطة، أن يبوح بكل مكنوناته. يا لهذا الارتياح!

قال بينت في نفسه. ويا لهذا المصدر الرائع! قال سباتيكوف في نفسه، إذن كانت توجساته بلا مبرر.

قابل بينت رتشكوفسكي للمرة الأولى في موسكو في شهر مايو عام 1883، حين استُدعي من أجل تعزيز جهاز الأمن أثناء تتويج القيصر ألكسندر الثالث. كان يعرف جميع المهاجرين الروس الذين اعتُبروا خطرًا على الأمن معرفة شخصية. بدا رتشكوفسكي للعيان كمسؤول محترم، بلباس وزارة الداخلية الرسمي، لكن مهماته الحقيقية لم تكن مهمات عادية أبدًا، فقد أوكِلَ إليه أن يخلق التوتر بين الفئات الثورية المختلفة، وأن يشيع الأكاذيب، من أجل إلقاء القبض على أعضاء تلك الفئات بتهمة التجسس وارتكاب جرائم أخرى متنوعة. كان منذئذ معروفًا بأنه بطل الاستفزازات، قال بينت من خلال ابتسامة.

بعد أن اغتيل قائده المباشر، سودايكين، تم إرسال رتشكوفسكي عام 1884 إلى باريس لتقصّي أثر القاتل. كان ذلك بداية سيرته المهنية في فرنسا. نزل في فندق صغير في شارع بيير نيكول Pierre-Nicole قرب الحي اللاتيني، وشرع بربط العلاقات مع الشرطة الفرنسية، لكنه وجّه جلّ جهوده نحو الدس والتآمر على المسؤول عن الشرطة السرية الروسية في الخارج. وبالفعل، فقد استطاع بعد أربعة أشهر من وطء قدمه لأرض فرنسا أن يحصل على تعيين يبوّئهُ تلك المرتبة المرموقة.

كان جوهر عمله في تلك المرحلة تعقّب الثوار الروس القاطنين في فرنسا، فقام عملاؤه برشو البوّابين وموزعي البريد، ليتمكنوا من دخول بيوت الثوار والوصول إلى صناديق بريدهم. خلال فترة قصيرة طوّر رتشكوفسكي خزانة ملفات منظمة، احتوت أسماء كل مهاجر روسي يقطن باريس أو يصل إليها. شكّلَ أصدقاؤه في الشرطة الفرنسية، التي دأبت على تسجيل تفاصيل كل زائر غريب، مصدر معلومات إضافي. كما زوده أعوانه في روسيا بصور المهاجرين التي تم تعميمها على سائر الوكلاء. مَن

لم يعثروا على صورة له في روسيا، جرى تصويره سرًّا في الشارع.
وبالمقابل، جرت حملة تشهير. تم توجيه إنذارات إلى أصحاب الأعمال، ممن استخدموا المهاجرين الروس، لئلا يستخدموا في مصالحهم إرهابيين خطِرين. أولئك الذين فُصِلوا عن أعمالهم وذاقوا الفقر والجوع، وقعوا فريسة سهلة للعملاء الذين أغروهم بمكافآت قيّمة مقابل الإيقاع بأصدقائهم.

أطال بينت وأسهب في وصف تزويرات رتشكوفسكي. كان التزوير والافتراء أداة لتجريم الثوريين، وعادة كان رتشكوفسكي هو الذي يكتب النص الزائف بخط يده ثم يناوله لأحد مساعدَيه المقرّبين، إما لبينت بذاته أو لميلبسكي، لتكرير الوثيقة بواسطة جهاز الهكتوغراف، وإعادتها إليه مع النسخات المكررة التي يتم عدّها بدقة. قال بينت إنه كان يحتفظ لنفسه بنسخة دون علم رئيسه، "احتياطًا للمستقبل". كما قال إنهم حرصوا دائمًا على أن تكون الوثائق المفبركة شبيهة بتلك التي يوزعها الثوار. كان رتشكوفسي بنفسه، أو مساعده، يكتب العناوين على الظروف، وكان السكرتير يقوم بإيداع الظروف في صناديق البريد حسب قائمة يتم إعدادها مسبقًا. وقد تم تحليف جميع المشاركين بالتكتم على مشاركة رتشكوفسكي بهذه العمليات.

طريقة التزويرات هذه لم يبتكرها رتشكوفسكي، قال بينت، فقد كانت إحدى الطرق التي انتهجها رئيس الشرطة السرية، سودايكين، منذ تأسيس "الشعبة الخاصة" في الشرطة السرية عام 1882. في الخامس عشر من يوليو من تلك السنة نُشرَ مقال في العدد رقم 417 من النشرة الروسية "حرية التعبير"، ورد فيها خبر إقامة الشعبة الخاصة. في المقال ذاته، أوضح سودايكين بكل صراحة أن الشعبة الجديدة تهدف إلى التجريح بنشطاء الجماعات الثورية بمختلف الأساليب، بما في ذلك نشر الوثائق المزورة".

رتشكوفسكي، تلميذ سودايكين، حفظ الدرس جيدًا، وشرع بتنفيذه حال تعيينه في الوظيفة الجديدة في باريس، بل إنه ابتدع عميلين لا وجود لهما، كون و چــرين، اللذين ظهر اسماهما على كل الرسائل والمنشورات المزوّرة. ظهر اسم هذين المجهولين حتى في الوثائق التي بموجبها تمت إدانة بلخانوف، رئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي في الخارج، بتدمير دار الطباعة في جنيف. وعد بينت أن يتوسع بالحديث عن تلك الحادثة في موعد لاحق. حين وصلت هذه المعلومات إلى الجالية الروسية في باريس، وقوبلت بعدم التصديق، لم يتردّد رتشكوفسكي بتزييف "كتاب مفتوح" "يعترف" فيه الاثنان بفعلتهما.

تطورت هذه التزييفات عام 1892 وباتت أكثر فنية. كان بلخانوف ما يزال مُستَهدفًا، وقد تجرأ رتشكوفسكي حتى على تزوير خط يده في رسالة ادّعى أنها أصلية، يتذمر فيها بلخانوف من اتهام حزبه بتزييف أوراق نقدية، ويقول إنه قد تعب من كل هذه الأكاذيب، ومن الآن سيكون مواطنًا محافظًا على القانون، وأنه يوصي كل الشباب بأن يفعلوا مثله. كان تزييف توقيعه متقنًا لدرجة أن بلخانوف نفسه لم يستطع تكذيبه حتى أمام أصدقائه المقربين.

كان الهكتوغراف دائم الاستعمال، وفي كل يوم تم ابتداع الاستفزازات التي أوقعت بالكثيرين ممن تربّص بهم رتشكوفسكي. لم يجرؤ أحد على إيقافه عند حده، وقد حظي بثناء ودعم مُستخدِميه. كانت التزييفات على مستوى عالٍ من الإتقان، لدرجة أن الصحف الفرنسية التي حرصَت على عدم نشر الأكاذيب والحكايات المختلَقة، تذمّرت من أنها لم تعد تميّز بين الحقيقة والكذب.

وثق سباتيكوف جدًّا بأقوال بينت، فكتب في تقريره الرسمي أنه لم يعد مجال للشك بجهاز التزوير الذي أداره رتشكوفسكي سنين طويلة، بهدف إثارة البلبلة في المعسكر الاشتراكي، وحرمانه من شرعيته، وتحقير زعمائه في نظر الجمهور. وقد عمل أحيانًا

على احتجاز نشطاء الحركة حال وصولهم إلى روسيا. لم يكن بحاجة إلى الذكاء والحكمة، فهو لم يميّز ولم يُعِر أدنى اعتبار للفوارق بين آراء وبرامج الجماعات الثورية المختلفة. ففي نظره كلهم ينتمون إلى المعسكر الاشتراكي، وكلهم أعداء يجب القضاء عليهم. كانت التزويرات إحدى الأدوات التي سخرها لبلوغ غايته. كما أنه زوّد الشرطة الفرنسية باستمرار بالمعلومات، الحقيقية منها والكاذبة، عن تأسيسات فوضوية داخل فرنسا، مُستخدمًا لتلك الغاية صحفيًا، كان عميلاً مزدوجًا، يُدعى هانسن Hansen.

إن من عاش في زمن آخر، وفي بيئة حضارية مختلفة، يصعب عليه تصديق شبكة الدسائس التي نشرها العملاء الروس في تلك الأيام، إن كان داخل روسيا أو خارجها. هذا ما قاله سباتيكوف لنفسه، حتى في ذلك الوقت، حين كان يصغي لأقوال بينت. انتشر آلاف العملاء في كل الجهات. لم يعد أحد قادرًا على تمييز العميل من غير العميل. اضطر الكثيرون من الثوريين الذين أوقفتهم الشرطة إلى التنكر لذاتهم ولمبادئهم. كان منهم من اكتفى بالوشاية بأصدقائه، لكن كان منهم من شارك عمليًّا بتنفيذ عمليات إرهابية استفزازية ضد النظام، خطط لها مُستخدِموهم من داخل الشرطة، الذين لم يترددوا حتى في اغتيال كبار المسؤولين. وخير مثال لذلك كان شيخُ الجواسيس آزيف Azev، الذي كان اسمه على كل لسان. فبحسب الأقاويل، كانت له باع طويلة، ليس فقط في اغتيال وزير الداخلية فلابيه والأمير سرجي ألكسندروفيتش، بل وأيضًا في إفشال الثورة عام 1905 وإنقاذ حياة القيصر من محاولة اغتيال.

أشرف رتشكوفسكي على كل النشاط خارج روسيا، قال بينت، وقد اختلق يوميًا الدسائس الجديدة، ودأب بلا توقف على تطوير وسائله التآمرية. أصبح اختلاق الأكاذيب وتزوير المستندات جزءًا من نهج حياته. خلط بدون تمييز بين الصدق والكذب، حتى لم يعد باستطاعة أقرب المقربين منه التمييز بينهما. أوقع بالناس

أحيانًا عن طريق توقيع الوثائق المزورة، واختلق الأسماء المستعارة أحيانًا من أجل نشر المعلومات الكاذبة. كون وچـــرين لم يكونا الاسمين الوهميين الوحيدين. لقد بالغ بالمباهاة والمفاخرة بتزييفاته، حتى أنه نشر في بعض الأحيان الكراريس الكاملة تحت اسم مستعار، قريب من اسمه الحقيقي. كان باستطاعة كل طفل أن يميّز الشَّبَه. ففي عام 1888 أصدر كتيبًا، وكأنه "اعترافاتُ عَدَمِيٍّ" تحت الاسم المستعار "بيوتر آفينوفيتش". وفي رسالة كتبها إلى قائد الشرطة دورنوبو، شرح الحاجة إلى كشف الجانب المعتم في حياة العدميين، "غالبيتهم من أصل يهودي، توطنوا في الربع اللاتيني من باريس"، وقد وصفهم بقوله: "لهم ميزات حيوانية، سلوكهم منحط، عديمو التسامح حتى تجاه بعضهم، يميلون إلى التجسس على كل من يخطر في دربهم". أما زعيمهم طيخوميروف، فقد وُصف بأنه "يملك جرأة النمر، وجُبنَ الأرنب".

عام 1892 ألّف كتيبًا آخر بعنوان "الإنجليز والعدميون يتعاونون"، وصف فيه جرائم مختلفة، بما فيها تفجيرات واغتيالات، نفذها العدميون الروس في أوروبا، من خلال استغلالهم للأموال التي جمعوها في انجلترا من أجل مساعدة الجماهير الجائعة في روسيا. هدف الكتيب بشكل خاص إلى الإيقاع بجماعتين نشطتا في إنجلترا: جماعة إنجليزية دعيت باسم "أصدقاء الحرية في روسيا" وجماعة روسية نادت بـــ "صحافة روسية حرة في إنجلترا".

في رسالة بعث بها إلى مُديريه في روسيا، عام 1892، أفاد رتشكوفسكي بأن 1000 نسخة من هذا الكتيب أعدّت للتوزيع على الوزراء والدبلوماسيين وأعضاء البرلمان وكبار المسؤولين في لندن، وأن 1000 نسخة إضافية سيتم إرسالها إلى شخصيات هامة في فرنسا، سويسرا، الدانمارك، ألمانيا والنمسا وغيرها، وللهيئات الصحافية في الولايات المتحدة. كما ذكر نجاح العملية التي أدين فيها مهاجرون من الروس بوضع العبوات الناسفة في

عدة أماكن في باريس، وتكهّن بأن يُحدث الكتيب ضجة كبرى في الأجواء التي ستنتج عنها. ستكون هذه بداية عملية كبيرة للقضاء على نواة المجموعة الثورية بين المهاجرين الروس في الخارج. خلافًا لباقي الوثائق والمستندات، كتب رتشكوفسكي هذين الكتيبين بيده شخصيًا، ولم يوكل العمل لأحد عملائه، لكنه استعان بشخص واحد، هو العميل هانسن، لتنقيح لغته الفرنسية، كما أوكل إليه البحث عن مطابع رخيصة، لأن الإدارة في روسيا تلح في طلب تقليص المصروفات.

أثناء إصغائه لأقوال بينت، دهش سباتيكوف، فقد كان كلما ذكر اسم رتشكوفسكي، يلمس في نبرته ما يوحي بالتقدير له.

في مقدمة طموحات رتشكوفسكي كان مشروع تدمير دار للطباعة في شارع مونبريلان 30 في جنيف. كانت هذه الدار تُصدر المواد الإعلامية الخاصة بالثوار الروس. علم ذات يوم أن استعدادات تجري لطباعة كميات كبيرة من المواد التي لا يمكن تحويرها واستبدالها. فقرّر أن الوقت قد حان لتنفيذ مأربه. ألقى على عميليه الرئيسيين، بينت و ميلفسكي، مهمة السفر إلى جنيف لمراقبة الدار طوال النهار والليل. وسرعان ما وصله تقريرهما بأن المطبعة تتعطل في نهاية كل أسبوع، ولا يتواجد فيها أحد اعتبارًا من مساء السبت وحتى صباح الإثنين. كما تمكّن العميل المحلي، سلومون كوچـــن، من دخول المطبعة، وبعث بتقرير عن سير العمل فيها. وكوچـــن هذا من أصل يهودي، ثوري سابق، كان قد اعتُقِلَ في أوديسة، فتنكّر لمبادئه تحت ضغوط رتشكوفسكي، وإثباتًا لولائه له، زوّد المتآمرين بخريطة مفصلة تُبيّنُ موقع المطبعة في البناية، وتشير إلى الغرف التي تم فيها تخزين أهم المواد الدعائية.

قيل لبينت وميلفسكي إنهما على وشك المشاركة في عملية ذات أهمية سياسية عظيمة، وأن بانتظارهما مكافأة قيّمة. صدرت لهما الأوامر بأن يقوما، قبل العملية، بإخلاء الغرف التي استأجراها في جنيف، وأن يُرسلا إلى باريس كل ما بحوزتهما من مستندات

وحاجيات خاصة. في الساعة التاسعة من مساء يوم 20 نوفمبر 1886، تسلّل الرجلان لداخل دار الطباعة، سكبوا فوق الرزمات التي تزن مئات الكيلوغرامات من المطبوعات، مادة كيميائية حوَلتها إلى مادة لزجة دبقة، كما قاموا بتمزيق بعض الأوراق إرَبًا.
أنهوا المهمة في الرابعة والنصف صباحًا، وغادروا المكان.

فاخر بينت أمام رتشكوفسكي بأنه تلقى مبلغ 1500 فرانك لقاء مساهمته في العملية، وأما صديقه ميلفسكي فقد حصل من السلطات الروسية على مكافأة قدرها 5000 فرانك، علاوة على اللقب الرفيع "أمين سر الحكومة!".

لكن العملية لم تنتهِ عند هذا الحد، أضاف بينت، فبعد أن طالع رتشكوفسكي التقرير المفصّل الذي بعث به الرجلان، اتضح له أن ثمة مواد ذات أهمية بالغة بقيت سليمة. أعيدَ إرسال كوچــن إلى المطبعة، فقام هذا بمخاطرة كبيرة وتمكن من التبليغ عن موضع المواد المطلوبة. في ليل الأول من فبراير 1887 وصل بينت إلى جنيف لإتمام المهمة، ففاز هذه المرة بمدالية ذهبية إلى جانب 500 فرانك.

باهى رتشكوفسكي جدًّا بدقة تدبير تلك العملية في التقرير الذي أرسله إلى مديريه في روسيا. فهم لم يدمّروا قسمًا كبيرًا من المطبعة ويبيدوا كل المواد الإعلامية الجاهزة فحسب، بل تمكنوا أيضًا من الإيقاع بالقائد الثوري فلاخنوف وإدانته بارتكاب الجريمة، وبذلك أحدثوا بلبلة تامة في صفوف الثوار، كما أنهم أبعدوا عنهم كل شبهة بتورطهم في عملية سياسية. وأما الأدهى والأمرّ، فهو أنه اقترح تقديم شكوى رسمية إلى السلطات السويسرية، لأنها لا توفر الحماية اللائقة للاجئين الروس الذين يحق لهم اللجوء السياسي بحسب القانون السويسري!

في غمرة إسهابه بوصف شبكة التزييفات والاستفزازات التي أدارها رتشكوفسكي، عن خبرة شخصية، قال بينت فجأة: "لم احدثكَ بعد عن أكبر تزييف قام به رتشكوفسكي، مستعينًا بعملائه في السنوات الأخيرة من القرن، وأعني بذلك وثيقة دُعيَت باسم **برتوكولات حُكماء صهيون**".

كان سباتيكوف قد سمع عن البروتوكولات، لكنه لم يقرأها ابدًا. يذكُرُ أنه تصفح عام 1905 كتيبًا حمل هذا العنوان، لكن اهتمامه آنذاك انصبَّ على الأحداث المحيطة به، ولم يتفرغ لقراءة ما تراكم فوق مكتبته قراءة وافية. ما هي تلك البروتوكولات؟ سأل. أجاب بينت: "إنها تصف كيف يُعدّ اليهود للسيطرة على العالم"، وأردف قائلاً: لكنها في الواقع ترّهات، إنها تهيُّؤات، من مدرسة إدوارد درومونت Edouard Drumont".

لم يكن بوسع سباتيكوف، الذي بالكاد وطئ أرض فرنسا، سوى الاعتراف بأنه لم يسمع عن درومونت من قبل. قال بينت: "لا يمكن أن تفهم قصة البروتوكولات إلاّ إذا عرفت حجم فعل وتأثير درومونت، الداعية الأكبر لمعاداة السامية في فرنسا في النصف الثاني من القرن الماضي". وأضاف فقال: إن كتاب درومونت "فرنسا اليهودية" وُجِدَ في كل بيت في فرنسا تقريبًا، وقد تم إصداره أكثر من مائتي مرّة.

مأخوذًا بالدهشة، وببعض الحياء من جهله للموضوع، قرّر سباتيكوف تحديث معلوماته، فراح يسجل الملاحظات في دفتر صغير ذي غلاف أسود، قد امتلأ منذ وصوله إلى فرنسا. "يا لكثرة ما يجب أن أدرس"، قال في نفسه. ترى، هل ابتدعوا البروتوكولات من أجل تبرير المجازر في روسيا؟ سأل سباتيكوف مُحدّثه.

"ليست لديّ فكرة"، أجاب بينت، "لكن الهدف منها كان بالأساس التحريض على اليهود". بعد التفكير برهةً أضاف: "حتى أني لا

أعتقد أن قيادة الأوخرانكا في شارع بونطنكا 16، في سانت بطرسبورغ، كانت شريكة في الأمر، وغالب الظن أن ذلك كان مشروعًا خاصًا لقائدي رتشكوفسكي. لو كنت تعرفه مثلي لكان بإمكانك أنت ايضًا تمييز بصماته".

أثار بينت فضول سباتيكوف، فطلب أن يعرف إن كان رتشكوفسكي شخصيًا هو من كتب البروتوكولات.

"لا، ثم لا"، صاح بينت، "كان له عملاء خاصون للقيام بهذه المهمة القذرة. القسم الأكبر من المهمة نفذه عميل اسمه غولوبينسكي". وإذ لاحظ أن الاسم غير مألوف لدى محادثه، أوضح قائلاً: "إن لم تخُنّي ذاكرتي، فإن غولوبينسكي عمل في خدمة رتشكوفسكي منذ عام 1892. يجدر أن تعلم أني عرفت كل العملاء، وكنت على دراية بالمهمات التي أوكلت إليهم، فقد كنت المسؤول عن المدفوعات لدى رتشكوفسكي، دفعت لهم رواتبهم وأجورهم والمصروفات الخاصة المسترجعة، وكل ذلك بحسب تعليمات القائد". وأضاف: "تم الدفع كله نقدًا وفي الخفية".

"هل أنت متأكد من أن غولوبينسكي قام بتزييف البروتوكولات؟" شدّد سباتيكوف.

"أنا متأكد تمامًا"، أجاب بينت، "كان في خدمة رتشكوفسكي في ذلك الحين مزيّفان اثنان: كوچـــن وغولوبينسكي. عمل الأخير على كتابة البروتوكولات، في المكتبة الوطنية الفرنسية، وكان يعرض على رتشكوفسكي كل فصل انتهى من كتابته. لقد كنت هناك، وعرفتُ كل ما يجري، وأنا مَن دفع له أجره". وأضاف أنه لم يتمكن، للأسف الشديد، من الاحتفاظ بنسخة عن البروتوكولات. كانت تلك حملة سرية، لم يعلم بها سوى نحن المقربين جدًا. لم نقم بتكرير نسخات. كان الهدف عرض الأصل وكـــأنه اكتُشفَ صُدفة لدى مصادر يهودية، فلو كنا كررنا نسخات لكان في ذلك خطر على كل العملية التي تمت بمنتهى الحذر.

استمر استجواب بينت أيامًا عديدة، وكان سباتيكوف يدوّن أقواله بدقة متناهية، وقد شملها في التقرير الذي أرسله إلى السلطات في روسيا. كتب يقول إنه على يقين من أن بينت يقول الحق، وأنه لم يستطع الإشارة إلى ما هو غير دقيق في أقواله. كان بينت أقدم العملاء في شبكة الشرطة السرية الغريبة، وقد كشف في شهادته بالتفصيل عن حقبة زمنية طويلة من حياته. لم يكن ما يدعوه إلى الكذب، فقد أقنعه سباتيكوف بأنه يقوم بمهمة من قِبَلِ السلطة الشرعية في روسيا، وأنه مزمعٌ على حل وحدة الاستخبارات الروسية في الخارج بمنتهى الحذر، ولا توجد نية باتخاذ الإجراءات القانونية ضد عملاء عملوا في خدمة الوطن. قال سباتيكوف لبينت وزملائه، أن لا داعي للخوف من استجوابه لهم، إن هم كشفوا الحقيقة. لقد أظهر بينت استعدادًا تامًا للتعاون، كتب سباتيكوف، ولم يحاول التجريح بزملائه أو قادته السابقين.

كان سباتيكوف قد استعد جيدًا لهذا الاستجواب، وأحضر معه، من أجل المقارنة، قائمة دقيقة بأسماء العملاء، والعملاء المزدوجين، وكنياتهم. اجتاز بينت الاختبار، كتب سباتيكوف للمسؤولين عنه.

استنتج سباتيكوف مما توفر لديه من المعلومات أن بينت حاز على ثقة مُستخدميه غير المحدودة، وقد أوكلوا إليه في مختلف المناسبات أمر حماية القيصرين ألكسندر الثالث ونيقولاي الثاني وأفراد الأسرة المالكة. لم يجد سباتيكوف أي سبب يجعله يشكّك في أقوال بينت.

لم تعترضه البروتوكولات مرّة ثانية إلاّ بعد ثورة أكتوبر، قال سباتيكوف لجورج برونشفايغ. كان على يقين من أن هذه الوثيقة قد اختفت عن الوجود إلى أن فوجئ باتهام اليهود بأنهم أحدثوا الثورة. كان قد انتقل للسكن في جنوب روسيا بعد فشل الحكومة المؤقتة وانفجار الحرب الأهلية بكل عنفها. أقام الجيش الأبيض مركزًا للدعاية دعي "أوسواغ"، استخدم فيه نشطاء حركة المئات السود المتذمرين الحاقدين، الذين اتهموا اليهود بكل ويلاتهم، بما

في ذلك ثورة فبراير وثورة أكتوبر، والبلشفيك على وجه العموم، وتسلُّط الفلاحين على أراضي النبلاء. باختصار، اليهود مذنبون بكل شيء. بلَغَهُ أن نسخات من البروتوكولات، بطباعة بدائية، يجري توزيعها على مختلف الوحدات العسكرية، وفي بعض المناطق ظهرت إصدارات مطبوعة جديدة للكتاب ذاته. لكنه قبل مغادرة روسيا، لم يكن يدري أن البروتوكولات قد اجتازت الحدود وأنها تنتشر في بلاد أخرى.

وصل سباتيكوف إلى باريس عام 1920 كأحد اللاجئين الروس الكثيرين الباحثين عن ملجأ لهم في العاصمة الفرنسية. عام 1921 اقترح عليه صديقه الصحافي المعروف فلاديمير بورتسيف (Burtsev) أن يجدد اتصاله ببينت. "لكن عليك أولاً أن تقرأ هذه المادة"، نصحه بورتسيف بينما ناوله مقالات فيليب غراقــز في صحيفة التايمز اللندنية، والمقابلات مع الأميرة ردزيفيل وهنرييتا هربلوت في الصحيفة اليهودية الامريكية. قرأ سباتيكوف المادة بنهَمٍ شديد، وسرّه أن يجد فيها تصديقًا لما روى له بينت. "إذن، فقد كنت على حق حين وثقتُ بالرجل"، قال لبورتسيف.

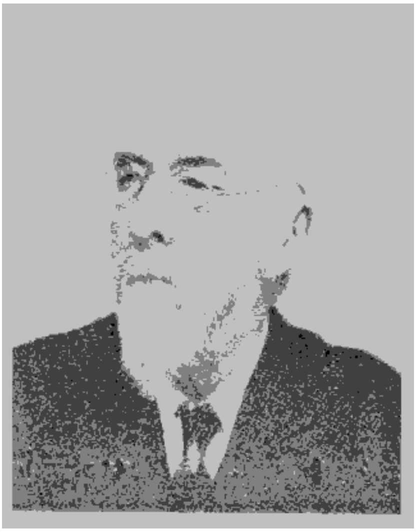

فلاديمير بورتسيف
صحافي روسي.

حثّه بورتسيف على نشر سلسلة مقالات حول التحقيق الذي أجراه عام 1917 والمعلومات التي حصل عليها من بينت. قال إنه سمع بأن بينت في حالة صعبة، وأنه فقد كل توفيراته التي استثمرها بحماقة في الأسهم الروسية، ومع سقوط النظام الروسي فقدَ كل حقوق التقاعد التي ادّخرها على مدى أربعين عامًا من الخدمة. وهو يعمل حاليًا كموظف بسيط بوظيفة حكومية خارج باريس، وبحاجة إلى مصدر دخل إضافي. لم يواجه سباتيكوف صعوبة بالاهتداء إلى عنوان بينت، عن طريق علاقاته بجماعة المهاجرين الروس، وقد استجاب هذا للدعوة المفاجئة لارتشاف الشاي بعد ظهر يومٍ من أيام الأحد.

صُدِمَ سباتيكوف من مظهر الرجل. لم تمضِ على لقائهما الأخير سوى سنوات قليلة، لكنه لم يعُدْ بينت الذي عرفه. بدا منكمشًا، مُحبَطًا، محطَّم النفس. أقرَّ بينت أنه بحاجة إلى الدخل من أي مصدر ممكن، حتى أنه عرض بيع الوثائق التي يحتفظ بها في أرشيفه الخاص. حين تطرّق الحديث إلى **بروتوكولات حُكماء صهيون**، قال بينت: "هل تصدق أن تلك الوثيقة الزائفة تنتشر الآن بعدة لغات؟ لا بدّ أن رتشكوفسكي الآن يتفجّر في قبره من الضحك". وأردف بمرارة: لا أحد يهتم بالحقيقة، رغم وجود شاهد، حي يرزق، ليشهد أنه دفع شخصيًا أجر عمل المزوّرين.

أبدى سباتيكوف اهتمامًا بأرشيف بينت، إن كان حقًا يشمل وثيقة عن البروتوكولات. ربما توجد هناك وثيقة أخرى ذات علاقة، أجاب بينت، وهي وإن كانت لا تمتُّ للبروتوكولات بصلة مباشرة، إلا أن فيها ما يؤكد نوايا رتشكوفسكي للإيقاع باليهود بكل ثمن.

أقلق أمر اليهود رتشكوفسكي بشكل دائم، أردف بينت. في عام 1905 ساهم شخصيًا بدعم وتطوير نشر البروتوكولات في روسيا. عاد آنذاك إلى السكن في بطرسبورغ، بعد أن قضى عدة

سنوات في المنفى، في وارسو وبريسل، منتظرًا وفاة عدوّه اللدود يــــالفيه، الذي توعّده مُهدِّدًا أن يرسله إلى سيبيريا إذا وطِئت قدمه أرض العاصمة الروسية. عاد إذن للعمل في القيادة في شارع بونطنكا، والإشراف على أعمال الأوخرانكا، محافظًا على علاقة وطيدة بمنوسيفيتش مانويلوف Manuilov. من موقعه هذا، أصدر رتشكوفسكي تعليماته إلى رئيس الشرطة السرية في باريس بالسفر إلى ألمانيا والنبش في الدكاكين المختصة بالكتب اليهودية. أمــــره بالبحث عن كتب قديمة تتناول العادات والتقاليد اليهودية، وبالأخص كتب من القرنين السادس عشر والسابع عشر، بحسب قائمة تبيّن أسماء الكتب ومؤلفيها. ألقي على كاهل بينت إرسال الكتب من باريس إلى سانت بطرسبورغ عن طريق البريد الخاص. "بهذا الخصوص يمكن لي أن أزودك بوثيقة ربما أنها ما زالت محفوظة في الأرشيف عندي"، قال بينت. كان في حينه قد احتفظ بالنسخة الأصلية بخط يد رتشكوفسكي باللغة الفرنسية، وفيها تفصيل باسماء الكتب وأسماء المكتبات. ثم أردف بابتسامة ساخرة، أنهم واجهوا صعوبة بالعثور على الكتب المطلوبة، لأن أسماءها العبرية كُتبت بأحرف لاتينية بصورة خاطئة. كانت تلك بالأساس كتب في "الكبلاه" من القرون الوسطى. فمثلا، كتاب "هزوهر"[2] ظهر باسم "كتاب الخلق سوهر". اعتقد رتشكوفسكي أن كلمة "سيفر" (كتاب) تُشكّل جزءًا من عنوان الكتاب. لم يَرِد بالطبع ذكر البروتوكولات، لكن في الأمر ما يؤكد أن رتشكوفسكي عمل بالتزام على البحث عن مادة لتجريم اليهود. وقد كشف بينت أنه أُرسلَ هو بنفسه إلى فرانكفورت لطلب الكتب، وأُعيدَ إلى فرانكفورت مرة أخرى لإنهاء الصفقة. أوضحوا له ألاّ يقتّرَ بالمصاريف، وقد دفع مقابل الكتب مبلغ 3000 فرانك من الذهب. لم يكن باستطاعته تصفّح الكتب التي كُتبت بالعبرية واللاتينية. في باريس تلقى أمرًا بالاهتمام بالكتب، فغلفها بادئًا بمظروفات كبيرة بغية الاقتصاد

[2] هزوهر: تعني "السناء" أو "الفيض الإلهي" وهو أهم كتب الكبلاه، أي الصوفية عند اليهود، يُنسب إلى الحاخام شمعون بن يوحاي، وبعضهم ينسبه إلى الحاخام موشيه دي ليئون من القرن الثالث عشر. (المترجم).

بالمصروفات، لكنه عاد، بناء على نصيحة مدير البريد، فغلفها بأغلفة خاصة وبعث بها بالبريد الخاص إلى رتشكوفسكي في سانت بطرسبورغ. "ما أعظم ما يستطيع المرء أن يختزن في ذاكرته"، قال بينت. إنه يذكر تفاصيل هذا الحدث بحذافيرها، كأنها حدثت بالأمس. تعهد بالبحث عن المستند، الذي أسماه، لسبب أو لآخر، "المستند الصهيوني".

في 22 يوليو 1905 عَيَّنَ الجنرال طربوف رتشكوفسكي نائبًا لقائد الشرطة. شغل طربوف في ذلك الوقت منصب نائب وزير الداخلية وحاكم سانت بطرسبورغ. من خلال تجاهله التام لقائد الشرطة القائم، منح رتشكوفسكي صلاحيات غير محدودة. بعد تعيينه بزمن قصير تصادق رتشكوفسكي مع ضابط الجندارمة كوميساروف، وأنشأ الاثنان، في أقبية بناية الشرطة، مطبعة سرية أصدرت كميات هائلة من المواد التحريضية ضد اليهود، تم توزيعها في مختلف المدن. في أحد الأيام باهى كوميساروف أمام بعض أعضاء الدوما بأن بإمكانه إحداث مجزرة حسب الطلب، يُقتل فيها عشرة يهود أو عشرة آلاف، حسب رغبة صاحب الطلب!

فجأة ذكر بينت اسم منسيفيتش مانويلوف. لقد سمعَ من عميل كان صديقًا له، أن رتشكوفسكي استعان بمانويلوف في نشر البروتوكولات، بل إنه ترجم له كتبًا يهودية.

كان سباتيكوف قد سمع بمانويلوف، لكنه أراد أن يجمع المعلومات عنه.

قبل افتراقهما، تعهد بينت ثانية بالبحث عن "المستند الصهيوني" في أرشيفه الخاص الكائن في بيته في المقاطعة.

عملاً بنصيحة صديقه بورتسيف، قام سباتيكوف بزيارة للمكتبة الوطنية في باريس ليتصفّح كتاب موريس جولي. كان يأمل أن يكون قد انتهى مفعول أمر نابوليون الثالث، الذي صدر قبل سبعين عام، والقاضي بمنع نشر الكتاب، لكنَّ آماله تبخَّرت حين قال له المسؤول عن المكتبة إن نسخة معينة من هذا الكتاب محفوظة في قاصَةٍ حسب تعليمات إدارة المكتبة، ولا يمكن أن

يراها أحد إلاّ بتوصية من لجنة خاصة، وأن هذه اللجنة كانت قد رفضت التماسات مشابهة في الماضي. وبذلك فهو لم يرَ الكتاب.

اعتقد جورج أنه أحاط بكل المقالات الدرامية التي كشفت حقيقة البروتوكولات عام 1921، لكنَّما اتضح له الآن أن مستندًا واحدًا خفيَ عن ناظريه، ربما لكونه قد نُشر باللغة الروسية في صحيفة خاصة بالمهاجرين الروس في باريس. في 20 سبتمبر 1920، نشر سباتيكوف في هذه الصحيفة مقالاً بعنوان "نهاية البروتوكولات الصهيونية". أسوة بفيليب غراڤــز، كان سباتيكوف على يقين من أن هذه الوثيقة المزيفة، على ضوء هذا الكشف الدراماتيكي، سوف تُلقى في سلة المهملات.

نزولاً عند طلب جورج، قام المضيفُ بترجمة المقال إلى الفرنسية. بعد استعراض تاريخ التزوير، قارن الكاتب بين نهج النظام القديم في روسيا والوسائل المتبعة في روسيا السوفياتية، ناصحًا القراء بمطالعة كتاب موريس جولي، إن كانوا يريدون أن يعلموا لماذا يكتب عن البروتوكولات. وأضاف: تستطيع الأقلية السيطرة على الأغلبية فقط عن طريق الإرهاب، والأكاذيب، والرشوة. يلجأ الطغاة على أنواعهم إلى هذه الوسائل. لذا، لا غرابة في أن الشيوعيين يستعملون وسائل نابوليون الثالث، كما وردت في كتاب جولي عام 1864، ثم تحولت عام 1901 على يد الأوخرانكا، إلى "متلازمة اليهودي"، وكل ذلك من أجل إخافة القيصر الضعيف نيقولاي الثاني.
اختتم المقال في حينه بشيء من التفاؤل فقال: "كل شيء إلى زوال، والخلود للحقيقة".

"يبدو أني كنت واهمًا"، قال لجورج بألمٍ بينما ارتشفا الشاي من أكواب دقيقة. كان ذلك لقاءَهم الرابعَ والأخير. سيلتقيان في المرة القادمة في قاعة المحكمة.

يا للخسارة، قال جورج حين لم يعثر بينت على المستند الموعود، بخط يد رتشكوفسكي، بخصوص شراء الكتب اليهودية في فرانكفورت.
تبيّن أنه نسي إتمام القصة، قال سباتيكوف، فهو قد التقى ببينت مرة أخرى عام 1926، وفعلاً أخبره بينت في ذلك اللقاء أنه لم يعثر على المستند. لكن بعد مضي بضع سنوات، وبعد وفاة بينت، أحضرت له أرملته رزمة من الوثائق قائلة إنها تفعل ذلك تنفيذًا لوصية المرحوم زوجها. وأخيرًا وقع بين يدي سباتيكوف ما أسماه بينت "المستند الصهيوني". لم يكن على استعداد للتفريط به، لكنه تعهد أن يحضره إلى بيرن لإبرازه للقاضي.

يا لروعة هذا الشاهد! فكّر جورج وهو يتهيّأ ردود فعل زملائه حين يقص عليهم القصة كلها. "ليتنا نستطيع الوصول إلى شهود آخرين مثلك"، قال لسباتيكوف لحظة افتراقهما.
"لماذا لا تقابل الآن فلاديمير بورتسيف؟"، سأل المضيف، "إنه لن يعزّز أقوالي فحسب، بل إن لديه معلومات مختلفة لم يكن بالإمكان الكشف عنها حتى الآن".
أخرج جورج من جيبه قائمة الشهود، وبدون أي تردّد، نقل اسم بورتسيف إلى رأس القائمة.

فلاديمير بورتسيف

حين عرض ليفشيتس لأول مرة قائمة الشهود التي أرسلها طاغر، كان جورج مُشككًا؛ فبحسب علمه أن الروس كلهم كانوا معادين للسامية، فكيف يمكن الاعتماد على شهود كانوا جزءًا من النظام البائد وكان لهم فيه دور رئيسي؟ ألم يكن ذلك هو النظام الذي قمع خمسة ملايين يهوديًا وسمح بالمذابح؟ اعتقد جورج في حينه أنهم يجب أن يعتمدوا فقط على شهود من أصل يهودي، وقد دهش جدًا حين اتضح له أن شخصيات روسية مرموقة، ممن شغلوا وظائف هامة في روسيا القيصرية، قد استاءوا من

بروتوكولات حُكماء صهيون، وحققوا فيها، بل إنهم تحيّنوا الفرص لكشف الحقيقة على الملأ وفي المحاكم.

في المحادثات الطويلة التي أجراها جورج معه، أبدى فلاديمير استعدادًا للتعاون والبوح بقدر لا يقل عما أبداه سباتيكوف.
من أجل التسهيل على جورج، بادر هو بالحديث. كان قد أعد أقواله بنظام على الورق استعدادًا للقائهما المقرر في 5 يوليو 1934.

والحقيقة هي ان بورتسيف لم يعتمد على دقة ما يدونه جورج، فطلب أن تسجَل أقواله حرفيًا، كذلك كان على جورج أن يستعد لاستجوابه في المحكمة، لذا فقد كان على استعداد لتكرار القصة عن ظهر قلب.

شرع بورتسيف بسرد حكايته. في أحد أيام الشتاء من عام 1906، جلس بورتسيف إلى طاولة مكتبه في سانت بطرسبورغ لينقح مقالاً رئيسيًا كان مزمعًا على نشره في اليوم التالي. كان بورتسيف آنذاك محررًا لمجلة تاريخية، هو صاحبها، اسمها "الماضي" (بيلويا). لاقت هذه المجلة شعبية واسعة، نظرًا لاهتمامها بمشاكل الساعة السياسية. لم يكن بورتسيف يشكو عادة من عدم القدرة على التركيز، غير أنه في ذلك اليوم بالذات كان قلقًا بشكل خاص، فقد كان عليه أن يدير بعد ساعة جلسة لهيئة التحرير، وأن يعبر عن وجهة نظره في موضوع كان هو بنفسه قد أدرجه على جدول الأعمال. في الواقع كان قد كوّن فكرة حول الموضوع، وكان شديد الفضول لسماع آراء زملائه.

ثمة كتيب وضعه أحدهم فوق طاولته ليزن إن كان يجدر التطرق إليه في العدد المقبل من المجلة. وكعادته، أخذ الكتيب إلى البيت وقضى ساعات المساء كلها في قراءة **بروتوكولات حُكماء صهيون**. وحيث أنه مدقق ملتزم، سجل ملاحظةً مفادها أنه لا

يستطيع التأكيد إن كان ذلك إصدار نيلوس، أم أنه إصدار جديد لشخص يُدعى بوطمي صدر في بداية تلك السنة.

كان على دراية تامة بالموجة المعادية للسامية التي اجتاحت روسيا، ولعملية غسل الدماغ المستمرة الموجهة إلى الجماهير في أنحاء الدولة. لقد بلغه الكثير من التقوّلات عن هذه البروتوكولات، لكن بما أن الصحافة اليومية تجاهلت هذه الوثيقة كليًا، فهو لم يكلف نفسه مشقة قراءتها.

رغم اقتناعه بزيف البروتوكولات وبهتانها، قرر، كعادته، أن يطرح الموضوع للبحث في اجتماع الهيئة. كان في نبرات صوته ما يعبر عن الرضى حين قال لجورج إن كل أعضاء الهيئة دعموا موقفه. كانوا على يقين من أن مجرد ذكر الوثيقة في مجلتهم، ولو كان من أجل استنكارها، من شأنه أن يمنحها اعترافًا لا تستحقه.

بعد إقامته في باريس مدة طويلة، عاد إلى روسيا في 25 أكتوبر 1917، هناك تم اعتقاله وزُج به في السجن حيث قضى بضعة شهور، إلى أن أطلق سراحه في مايو 1918. إن ما آلمه أكثر من السجن الفعلي هو عدم تمكنه من تغطية الأحداث التاريخية الهامة التي حدثت في روسيا في تلك الفترة، فقد كان العمل الصحفي في دمه. من حسن حظه، قال غامزًا بعينه، فات السجانين أن يأخذوا منه مفكرته التي دوّن فيها ملاحظاته وانطباعاته، بل إنه أجرى في السجن لقاءات صحافية مع المساجين من ذوي المراتب العالية ممن غصّت بهم السجون في تلك الأيام.

نقلوه ذات يوم إلى حجرة أخرى حيث التقى بقائد الشرطة السابق بيلتسكي Beletski. ولشد ما كانت دهشته حين اكتشف أن الرجل لا يشعر بأي تعاطف مع نظام الحكم الذي خدمَ فيه. كان على استعداد للبوح والإفضاء بما عنده. في الساعات التي قضاها

بمعيته، ملأ بورتسيف كل صفحات مفكرته بانطباعاتٍ، عزم على كتابة مقالات فيها، لنشرها خارج روسيا بعد إطلاق سراحه. وبطبيعة الحال، دار الحديث بينهما حول موضوع اليهود ودَوْرِ الشرطة في ملاحقتهم. أفاد شريكه في الحجرة أنه، في عام 1911، أدى دورًا رئيسيًا في إعداد شهادات الادّعاء في قضية بيليس، وهي من أشهر قضايا تلفيقات الدم ضد اليهود. أقام بورتسيف آنذاك في باريس، وقد تناول القضية في مقالات له تم نشرها في حينه، وهو يذكر جيدًا كم كان سروره عظيمًا حين تمت تبرئة بيليس.

حدثه بيلتسكي كيف اتهموا بيليس وهو نقي بريء. وإذ سأله بورتسيف إن كانوا قد فكّروا باستخدام **بروتوكولات حُكماء صهيون** خلال القضية، أجاب جازمًا: "لا، أبدًا! كان هناك من اقترح علينا أن نقتبس من البروتوكولات، لكننا رفضنا بشكل قاطع. لم يكن ذلك في صالحنا، فالكل يعلم أنها محض تزييف"! وقال إن ناشري البروتوكولات الذين تحدث إليهم لم ينكروا أنهم يوزعون وثيقة زائفة، لكنهم ادّعوا أن "كل وسيلة جائزة في مقاومة اليهود، نظرًا لتآمرهم ودعمهم للثورة".

قال بورتسيف لجورج إنه صادف البروتوكولات مرة أخرى عام 1919 حين وجد نفسه في بسطوبول، في صفوف الجيش الذي حارب البلشفيك، واكتشف أن الكتاب يوزع بين الجنود بكميات هائلة. استدعاه ذات يوم الجنرال سليبانوف، بعد أن سمع أنه حرّر في باريس صحيفة مناهضة للبلشفيك. أثنى الجنرال على أدائه وطلب أن يتحدثا حول الأوضاع الراهنة. وفجأة قدم له الجنرال كتيبًا، وأوصاه أن يهتم بنشر محتوياته في الصحيفة. كانت تلك طبعة "طازجة" لبروتوكولات حُكماء صهيون صدرت مؤخرًا في بسطوبول. "كان الجنرال على علم بأني ضد اللاسامية"، قال بورتسيف، "لكنه حاول إقناعي بوجوب تفضيل المصلحة الوطنية الروسية ومقاومة البلشفية، لأنَّ الثورة البلشفية هي جزء من الخطة اليهودية".

"أوضحتُ للجنرال"، أردف بورتسيف، "أن البروتوكولات ليست سوى تزييف صلف وغير منطقي، أعدها الرجعيون المتطرفون، وإذا كان مصرًّا على أن أذكرها في الصحيفة عليه أن يتوقع أني سأشير إلى أنها "تزوير جنائي". وبعد جدال حاد أنهى الجنرال الحديث ولم يعد إلى إثارة الموضوع في حضوري".

بعد عودته إلى باريس، قرأ بورتسيف مقالات فيليب غرافز. في تلك الأيام كانت أسماء موريس جولي ورتشكوفسكي وغولوبينسكي على ألسن الناس في أوساط الجالية الروسية، وقد استذكر الكثيرون وقائع مختلفة أصبح لها الآن تفسيرًا جديدًا. تذكّر بورتسيف أنه تعرّف إلى غولوبينسكي عام 1902، وقد قابله بعد ذلك مرات عديدة. "لم يُثر في حديثه معي موضوع البروتوكولات أبدًا، غير أنه تحدث كثيرًا عن المؤامرة اليهودية. حاول إقناعي بأن اليهود يساندون الثوار في كل مكان ويستغلونهم في سبيل السيطرة على العالم".

كان غولوبينسكي رجلاً موهوبًا، لكنه كان سطحيًا، قال بورتسيف، وقد ألمّ إلمامًا جيدًا باللغة الفرنسية وبالصحافة الفرنسية. وأضاف: "استنتجتُ مع الزمن أن الرجل عديم القِيَم، وقطعتُ علاقتي به. حاول الانتماء إلينا معشر المهاجرين، لكننا رفضناه. توجسَ منه الجميع بسبب تورطه في الدسائس، وبسبب علاقته برتشكوفسكي، وقد جهَرَ هو بهذه الأمور بكل حرية".
قال بورتسيف إنه توصل، في موعد لاحق، إلى قناعة بأن غولوبينسكي هو الرجل المناسب للقيام بالتزوير بأمر رتشكوفسكي، وأن ذلك يتطابق وآرائه اللاسامية.

ردًّا على سؤال جورج أجاب بورتسيف بأنه لا يعلم إن كان منسيفتش مانويلوف متورطًا عمليًا في تزوير البروتوكولات، مع أن أوساطًا كثيرة ربطت اسمه بالتزوير. لقد التقى بالرجل عام 1915، حين كان مراسلاً عسكريًا، واستمرت العلاقات بينهما، نظرًا لأن مانويلوف كان مقرّبًا من دوائر الشرطة، وبصفته أمين

سر شطرومر، فقد كان مصدرًا ممتازًا لاستقاء المعلومات عما يدور في الأوساط الحاكمة. بعد أن توثقت العلاقات بينهما، بدأ مانويلوف يكشف له التفاصيل عن مشاركة الكثيرين من العملاء في التحقيق بأمر الاغتيالات السياسية التي كثرت في تلك الأيام. في شهادتيهما أمام اللجنة التي عَينتها الحكومة المؤقتة للتحقيق في نشاط العملاء السريين، أفضى كلاهما بتلك التفاصيل، وتم تدوين شهادتيهما في تقرير اللجنة الرسمي.

قال سباتيكوف أيضًا إن موضوع اليهود وبروتوكولات حُكماء صهيون أثير مرارًا في محادثاته مع مانويلوف، لكن مانويلوف لم يعترف أبدًا بأن له ضلعًا في الموضوع، بل إنه يجزم بأن البروتوكولات مجرد تزوير. ما يزال بورتسيف يذكر الابتسامة التي كانت تعلو شفتي مانويلوف إذ يقول غامزًا: "الأغبياء فقط يمكنهم الاعتقاد بصحة وثيقة كهذه، ولا يمكن لرجل سياسة يحترم نفسه أن يستعملها"، كما ردّد مرارًا أن الحكومة الروسية لم تعترف أبدًا بهذه الوثيقة رسميًا.
كذلك اعترف بورتسيف بأنه لم يستجوب مانويلوف بخصوص البروتوكولات، لاعتقاده بأنها ظاهرة هامشية عابرة، لكنه حين سأله عن غولوبينسكي، أجاب مانويلوف بأن الرجل شرير وكان عميلاً للشرطة السرية. هنا تذكّر جورج أن الكثيرين وصفوا مانويلوف نفسه بهذه المصطلحات تمامًا.

بعد نشر مقالات غراقــز، قال بورتسيف، لم يعد يقابل أحدًا في الأوساط السياسية يؤمن بصحة البروتوكولات، لكن لشدة الأسف، بلغه أن الكثيرين لجأوا إلى استعمالها رغم معرفتهم الجيدة بأنها مزورة.

طلب جورج إلى بورتسيف أن يشرح له كيف التقى ببينت. أجاب إنه التقى به في باريس بعد إطلاق سراحه من السجن السوفياتي، وأن الرجل قال بصراحة إنه عمل كعميل فرنسي لدى رتشكوفسكي. لم يعد بعد الثورة أي مبرر لإخفاء معلومات عن

نشاط الأوخرانكا، فالكل كان يلغو بالموضوع بكل حرية، حتى أن بينت كشف له أنهم ألقوا عليه مهمة تعقب الكثيرين، وأن بورتسيف نفسه كان أحد أهدافه. لقد تعقب خطواته على مدى 25 عامًا، قال بينت، ورغم أنهم لم يلتقيا أبدًا وجهًا لوجه، إلا أنه عرف عنه كل شيء. في السنتين 1918-1919 ارتبطا بعلاقات ودية وكانا يلتقيان في أحيان متقاربة. كان الرجل مصدرًا موثوقًا لما تزود به بورتسيف من المعلومات من أجل إعداد المقالات لنشراته المختلفة. في لقاءاتهما تلك حدثه بينت عن دور رتشكوفسكي في تزوير البروتوكولات وعن سفره لألمانيا لشراء الكتب اليهودية.

"كنت على قناعة تامة من صدق معلومات بينت، وقد تحدثت بذلك إلى صديقي سباتيكوف الذي عرفته منذ 15 عامًا، فأخبرني أنه كان على علم بهذه الحقائق من خلال التحقيق الرسمي الذي أجراه عام 1917 بأمر الحكومة المؤقتة. قمتُ بحثِّ الإثنين، بينت وسباتيكوف، على تجديد علاقاتهما، من أجل كشف التفاصيل كاملة للجمهور". كان كلاهما يبعث له بالتقارير عن محادثاتهما، قال بورتسيف، أما هو ذاته فقد كفَّ عن الاعتناء بالأمر واعتمد على صديقه سباتيكوف ليهتم بنشره على الملأ بصورة لائقة.

لكنه فوجئ بالبروتوكولات تنتشر من جديد، ويروَّج لها بالأخص في ألمانيا، لذا فهو على استعداد للإدلاء بشهادته. شعر جورج أن بورتسيف يوشك على إنهاء قصته، وانتظر بهدوء، آملاً أن يفوه أخيرًا بالمعلومات السرية التي لمَّح بها سباتيكوف. لم يطل انتظاره، فبعد برهة صمت وتردد، تابع بورتسيف حديثه: "كانت تربطني بالجنرال غلوبيتشيف علاقات ودية استمرت زهاء 12-13 عامًا، وهو الذي شغل منصب قائد الأوخرانكا سابقًا، ووظيفة مرموقة في الجيش لاحقًا. قابلته مؤخرًا في باريس. رغم اختلاف وجهات نظرنا، كان تقديرنا واحترامنا لبعضنا متبادلاً. رأيت فيه دائمًا الوطني الحقيقي. إنسان مستقيم، خدم وطنه بكل إخلاص

على طريقته. ولعله رأى بي ما رأيتُ به، وهذا ما أتاح لنا أن نتحدث في أمور اختلفت مواقفنا منها".

كانا قد التقيا للمرة الأولى علم 1920، وقد جرت معظم لقاءاتهما في بيت الجنرال في باريس. يذكر بورتسيف أنه اعتاد أن ينذر الجنرال مسبقًا بأنه ينوي أن ينشر في جريدته تفاصيل عن نشاط عملائه. في محادثاتهما أثير مرارًا وتكرارًا موضوع اليهود والشائعات عن دَور اليهود في الثورة. حين لامس الحديث موضوع البروتوكولات شعر بورتسيف أن لدى الجنرال أسرارًا خفية ما زال يمتنع عن الكشف عنها. قال بورتسيف لجورج، بنوع من الحرج، إنه لجأ إلى وسائل "غير تقليدية" في محاولاته للحصول على المعلومات التي أثارت فضوله. إنها ميزة خاصة برجال الصحافة، قال مُبرِّرًا. كان على علاقة حسنة بأحد عملاء الجنرال، فطلب منه أن يجتهد في الحصول على المعلومات، بحجة أنه هو بنفسه ينوي تأليف كتاب حول الموضوع. لم يكن بورتسيف على استعداد للبوح باسم العميل، فدعاه العميل X. كان لديه ما يبرر اعتقاده من أن هذا العميل سيوافيه بتقرير صادق، وقد زوده بورتسيف بقائمة بالأسئلة التي عليه أن يوجهها إلى الجنرال، وطلب أن يسجل إجاباته على نحو دقيق قدر المستطاع.

وفعلاً، بعد بضعة أيام عاد إليه X بالأخبار السارة. حدثه الجنرال بأنه يقوم هو بنفسه بكتابة مذكراته، مع أنه لا ينوي نشرها في موعد قريب، ذلك لأن تلك المذكرات تمُتُّ إلى مواضيع ما تزال تتصل بالزمن الحاضر. في المستقبل، قال الجنرال، ستكون لهذه المعلومات المتراكمة أهمية تاريخية. كذلك قال الجنرال للعميل X إنه خصّص فصلاً كاملاً لبروتوكولات حُكماء صهيون وقضية بيليس، كما أنه تلطف بقراءة الفصل على مسمعه.

"كنت خبيرًا بخط يد الجنرال"، قال بورتسيف لجورج، "فعلى خلاف زملائه الآخرين، كان دقيقًا في عمله غاية الدقة، وكان موضوعيًا جدًّا. كانت ملاحظاته وتعليماته تتميز بالتفهم التام

للمجريات السياسية. كان يقول لي دائمًا: حين تكتب من أجل التاريخ، فأنت تكتب الحقيقة حسبما تعرفها"، لذلك، قال بورتسيف، كنت على قناعة بأن الأشياء التي قرأها على مسامع عميله هي عين الحقيقة.

من تسجيلات العميل X استنتج بورتسيف أن الجنرال غلوبيتشيف كان ملمًّا بموضوع البروتوكولات، إن كان ذلك بحكم وظيفته الرسمية كرئيس الأوخرانكا، أو كان نتيجة زمالته للجنرال مرطينوف، الذي كان رئيس فرع الأوخرانكا في موسكو، وأحد أثنين أنيط بهما التحقيق في موضوع البروتوكولات آنذاك.

لم يعتمد بورتسيف على ذاكرته، وآثر قراءة الأشياء من الوثيقة التي أعدها X على مسمع جورج. قال إنه يأسف لعدم إمكانية تسليمه الوثيقة، نظرًا لأنه تعهد بالتكتم على هوية العميل، وقد يكون في خط اليد ما يدل على هويته.
تسمَّرَ جورج فوق كرسيه ولم يتحرَك، خشية أن تفوته ولو كلمة واحدة من الشهادة التي راح يقرأها بورتسيف على مسمعه بصوت جهوري وبتؤدَّة، محاولاً أن ينقش الكلمات في ذاكرته نقشًا.
"تم تأليف البروتوكولات في باريس ما بين السنوات 1896 – 1900، على يد عميل للشرطة الروسية السياسية، طمعًا بالارتقاء عن طريق هذا المشروع، وبعث بالوثيقة إلى بيرميدوف، رئيس الأوخرانكا في سانت بطرسبورغ آنئذٍ، ثم توفي في 1901 إثر حادثة عسكرية، لكنه كان قبل موته قد سلم المخطوطة ليد البارون غروطغوس".

لاحظ بورتسيف أن الاسم غريب عن جورج، فتوقف عن القراءة ليوضح له أن هذا البارون قد انتقل لاحقًا ليستقر في ألمانيا، وانتمى إلى الحركة النازية. كان له ابنان عاشا في فرنسا، وقد انتميا هما أيضًا إلى جماعة نازية دُعيت باسم "أكسيون فرانسيز". منذ 1901–1902 كانت لغروطغوس محاولات لإيصال

البروتوكولات إلى أوساط سياسة مقربة من القصر، لكنه لم يفلح. استعان أيضًا بمانويلوف منسيفيتش، فحاول هذا مساعدته لأسباب شخصية، رغم علمه بزيف الموضوع، لكن دون جدوى.

وصفَ كيف أن رابطة أبناء روسيا أبلغت وزير الداخلية بعزمها على استخدام البروتوكولات في نضالها ضد اليهود "المُتَـــنَمرِدين". قام ستوليفين، بناء على تعليمات لوفوخين، بتعيين اثنين من ضباط الجندارمة – مرتينوف ووسيلييف – لفحص مدى صحة الوثيقة، فقاما بالتحقيق داخل روسيا وخارجها. في هذه الأثناء، أعرب راطييف، وهو أحد كبار الضباط في الشرطة السرية، عن رأيه بأن البروتوكولات محض تزوير، لكنه، خشية أن يتهموه بمناصرة اليهود، عاد إلى نشر آرائه المعادية للسامية مؤكدًا إيمانه بأن اليهود مسؤولون عن إحداث الثورة، وأما البروتوكولات، قال، فإنها تزوير أكيد. كان لضابط آخر من الأوخرانكا خارج روسيا، اسمه هارطينغ، موقف مشابه، وكان هناك أيضًا توجُّه مباشر إلى رتشكوفسكي، الذي لم يكن على استعداد لضمان صحة البروتوكولات، ومع ذلك أصرَّ على موقفه الواضح: أن لا بدّ من استخدام البروتوكولات في مهاجمة اليهود.

لم يبقَ مجال للشك في أن البروتوكولات زائفة، فقام ستوليفين بإعلام القيصر بذلك. أعرب القيصر عن دهشته، وأصدر أمره بحظر نشرها وتوزيعها واستخدامها.

لكن ثورة عام 1905 أتاحت فرصة العودة إلى استخدام البروتوكولات، ولولا تلك الثورة لكانت قد اختفت تمامًا.

انتهى بورتسيف من قراءته، وأكبَّ الورقة على وجهها لئلا يلمح جورج خط اليد.

"كأنما كان بوسعي أن أميِّزه!"، قال جورج لنفسه باسمًا.

في الماضي لم يكن بالإمكان اقتباس أقوال الجنرال، قال بورتسيف، لأنه استمر يشغل وظيفة رسمية في منظمة عسكرية في باريس. أما الآن، فقد استقال من وظيفته، وهو في طريقه إلى

أمريكا، وقد تعهد بأن يبعث للعميل إياه بالفصل الخاص بالبروتوكولات في مذكراته، مع نسخة عن التقرير الذي رُفع آنذاك إلى الحكومة بهذا الشأن.

كان X موقنًا من أن الجنرال سيسمح له باستعمال المادة لكتابة كتاب أو مقال، وقد وعد بمساعدته قدر المستطاع. فحين يُعلمه الجنرل بعنوانه الجديد في أمريكا، قال لبورتسيف، سوف يكتب له ويذكره بوعده.

تعهد بورتسيف للعميل بنشر مقاله في الصحف الأجنبية وبأنه سيحصل على مقابل مناسب.

والآن، قال جورج، لم يعد أمامنا سوى الانتظار حتى يفي الجنرال بوعده.

قال بورتسيف إنه على استعداد لأن يروي للمحكمة كل الحكاية، لأنه يؤمن بصحتها، لكن، لمزيد الأسف، فهو لا يستطيع الكشف عن اسم العميل، ولا عن الدور الذي قام به للحصول على المادة. أما جورج فقد شكّك بإمكانية استخدام قصة بورتسيف في ظل هذه الظروف، رغم اقتناعه بصحة أقوال الرجل، نه لكنه وعد باستشارة زملائه.

أحب جورج برونشفايغ باريس، وانتهز كل فرصة للتنزه على ضفاف نهر السين، والمرور فوق جسوره الخلابة. لكن ما أحبه أكثر، كان التجول في أزقة الضفة الشمالية وشوارعها الصغيرة. لم يشعر كم من الوقت أمضى في تجواله، لكن الليل أرخى سدوله فجأة، وكان عليه أن يسرع في العودة إلى الفندق لحزم حاجياته القليلة التي أحضرها معه، لأنه توقّع أن تكون زيارته لباريس قصيرة، لكنها طالت، وفي بيرن ينتظرون عودته بفارغ الصبر. كان موقنًا أنه سيعود إلى باريس لمقابلة المزيد من الشهود، غير أنه بحاجة إلى قسط من الراحة، خاصة بعد تأثره الشديد بالمقابلات التي أجراها مع سباتيكوف وبورتسيف. عليه أن يستوعب كل المعلومات التي ملأ بها دفتره المحشو حشوًا، وأن يشرك فيها زملاءه في الطاقم.

بدأت الصورة تتجلي له، لكن ما زال بانتظاره العمل الكثير.

الفصل الثامن

بصمات فرنسية على إنتاج روسي

استلقى جورج فوق الكرسي المريح في القطار السويسري، وراح يتأمل المناظر الخلابة التي تبدو من خلال النافذة. كان قد تناول في الظهيرة وجبة الغداء في حافلة المطعم، وسمح لنفسه بطلب كأس نبيذ فرنسي فاخر. وبعد أن شعر ببعض الراحة من التعب والتوتر اللذين تراكما إبان مكوثه في باريس، قرّر أن يستغل الوقت المتبقي من السفر بإعداد خطواته لما بعد وصوله إلى بيرن.

بدأت الصورة الروسية تتجلي، لكنه ما زال بحاجة إلى استكمالها. عليه أن يقابل المزيد من الشهود الذين ظهرت أسماؤهم في قائمته، وأن يحصل على مزيد من المعلومات عن أشخاص تربطهم علاقة مباشرة، أو غير مباشرة، بموضوع البروتوكولات. كان قد اتصل هاتفيًا من باريس بليفشيتس، طالبًا المزيد من المعلومات عن منسيفيتش مانويلوف الذي تكرر ذكر اسمه على ألسنة الشهود. لم يكترث، هو وزملاؤه، بادئ الأمر بما حصل في فرنسا، إلى أن اتضح لهم أن العملاء الروس قد استعانوا كثيرًا بأصدقائهم الفرنسيين، وأن للقصة جانبًا فرنسيًا لم يكن واضحًا لهم بالقدر الكافي. كذلك أراد جورج أن يُشبع حب استطلاعه بشأن ما يختص بموريس جولي، الذي لم يقرأ كتابه بعد.

كان جورج قد امتنع، مِن قبيل الحذر، عن نقل المعلومات إلى زملائه عن طريق الهاتف، وكان هؤلاء ينتظرون تقاريره بفارغ الصبر. اجتمع الكادر حال وصوله باريس، بعد أن أرسل لكل واحد منهم عن طريق مبعوث خاص، نسخة عن مقال سباتيكوف وعن تقرير بورتسيف. كان على يقين من أنه أقضَّ مضاجعهم في تلك الليلة، لكنه اعتقد أنه لن يكون بإمكانه أن يروي لهم كل

الحكاية في جلسة واحدة. سوف يجتهد أن يشركهم بانطباعاته عن هذَين الشاهدين، والتي يصعب بطبيعة الحال استشفافها من النص.

بعد مشاورات قصيرة مع إميل رآس في مكتبهما، قضى أمسية هادئة بمعية أوديت. كان تقرير إميل له مُختصرًا، إذ قال له بدعابته الجافة المعتادة: لا يصطف الناس في الدّور بعد بباب المكتب! وكانت أوديت متلهفة لسماع أخبار رحلته، إلاّ أنها راعت احتياجه إلى قسط من الراحة والاسترخاء، وكم سرَّها أن ترى مزاجه وقد تحسّنَ كثيرًا عما كان حين رافقته إلى محطة القطار لدى مغادرته إلى باريس. حدَّثها بصراحة عن مخاوف إميل من أن تضرّ هذه القضية بمصلحتهما الحديثة العهد، لكن أوديت، كعادتها، دعمته في كل خطواته. قالت له إن هذه القضية هامة، وإن أمامه السنوات الطويلة لخدمة الزبائن الآخرين.

حضر الجميع في الوقت المحدد، سالي ماير ليفشيتس، الدكتور ڤـينر، وجورج، واسترخوا فوق الكنبات العميقة في مكتب البروفسور ماطي. كانوا قد قرأوا المواد، لكنهم أحسوا بالحاجة لأن يعبِّر لهم جورج شفهيًا عن انطباعاته من المقابلات التي أجراها مع الشاهدين في باريس. حدثهم جورج ساعة طويلة دون أن يقاطعه أحد، وحين انتهى من الحديث أبدى ليفشيتس ملاحظته بأن يجب ألاّ يتوقعوا أن يكون القاضي على استعداد للسماح للشهود بسرد القصص الطويلة، فالمحكمة المحلية في بيرن تزخم بالقضايا، ولصبر القاضي حدود. وإذ لاحظ أمارات الخيبة في وجه جورج، عرَض مساعدته في إعداد الشهود بهدف أن تقتصر شهاداتهم على جوهر الأمور.

وافق البروفسور ماطي على أنه يجب التركيز على الجوهر. المحامي المتمرّس يعرف كيف يعرض قصةً معقولةً، دون إغراق القاضي في بحر من الوقائع. يجب إعداد الشهود جيدًا، من أجل أن يدلوا بما عندهم بطريقة مقبولة لدى القاضي.

لكن هذه ليست قضية عادية، أصرّ جورج، إنها قضية تاريخية، والأحداث التاريخية جزء من القصة.
أجل، وافق ليفشيتس. يجب الاهتداء إلى أسلوب يُمكّنُهم من شرح الخلفية التاريخية، دون تحويل قاعة المحكمة إلى فصل دراسي. يجب البحث عن توجّه دراماتيكي، أسوة بما سيفعله المدّعى عليهم، دون شك. كثيرون من المحامين يخسرون القضايا لمجرد أنهم أضجروا القاضي وفقدوا اهتمامه بمتابعتهم.

قال ليفشيتس إن في جعبته هو الآخر أخبارًا سارة، بينما أخرج من حقيبته تقريرًا مفصّلاً وصله من طاغر. في 14 مارس 1934 توجَّه الخبير لوسلي إلى الحكومة السوفياتية، طالبًا السماح له بتصفّح وثائق ذات علاقة ببروتوكولات حُكماء صهيون في الأرشيف. ولشد ما كانت دهشته حين وافقت السلطات على التعاون، وأناطت بطاغر مهمة البحث عن الوثائق المطلوبة. وهكذا نشأت علاقة مباشرة بين طاغر ولوسلي. كان طاغر يحضر إلى الأرشيفات التي فُتِحت له أبوابها، ليجيب على أسئلة وطلبات الخبير ويزوده بالمعلومات والوثائق. في رسالته الأخيرة أفاد أنه زار قسم الكتب النادرة في مكتبة لينين، ووجد هناك مخطوطة، لا تحمل تاريخًا، عنوانها "بروتوكولات قديمة وحديثة لجلسات شيوخ صهيون".

وصلت الوثيقة إلى الأرشيف عام 1919 من مكتبة فيكنطي فيكنطيفتش بشوناكيس، بعد أن تم نسخها على ورق الشمع بآلة كاتبة خاصة. وبناء على كتابة أرفقت بالوثيقة، يتضح أن تأليفها تم في الشرطة، بمشاركة رتشكوفسكي، قبل نشر كتاب نيلوس عام 1905. تفحّص طاغر الوثيقة جيدًا وأفاد في تقريره أنها مكتوبة بخطَّي يد مختلفين.
إن هذا التقرير يُعزّزُ ما ورد في شهادات دي شايلا والأميرة ردزيفيل وهنرييتا هربلوت، قال جورج صارخًا، فكلهم شهدوا بأن الوثيقة مكتوبة بخطوط يد مختلفة.

اهتم لوسلي بشكل خاص باستفزازات رتشكوفسكي وتزييفاته، أضاف ليفشيتس، وها هو طاغر يزودنا بنماذج إضافية. أحد هذه النماذج يتعلق بما أسموه "الجالية الوطنية"، وهو تنظيم وهمي لم يكن له وجود، من نسج خيال رتشكوفسكي.

يبدو أن رتشكوفسكي قد حاول عام 1902 أن يقنع أوساطًا معينة في الخارج، وخاصة في فرنسا، بأن في روسيا مقاومة شعبية للحركة الثورية، ولهذه الغاية قام بابتداع تنظيم باسم "الجالية الوطنية" وأصدر باسم هذا التنظيم إعلانات ونداءات إلى الجمهور، تمت طباعتها في مطبعته السرية. ولكي تبدو الوثائق المزورة أصلية، ضمَّنَها تهجّمات عليهِ شخصيًا. إنه لم يحاول أبدًا إخفاء أفعالة التي ناسبت تمامًا أساليب عمل الشرطة السرية، قال ليفشيتس. وجد طاغر في الأرشيف، تقارير كان قد أرسلها پـــلافيه إلى القيصر، فنسخها لهم. يتضح منها أن الجالية قد اخترعها رتشكوفسكي، وأن كل المواد التي صدرت باسمها كانت من تأليفه. لم يأتِ ردٌّ من القصر، وقد أُوقِفَت هذه الأعمال في موعد لاحق بأمر من وزارة الخارجية، التي أدركت أن نشر مواد في الخارج، بتوقيع تنظيم لا وجود له، من شأنه أن يُحرج السلطات.
لم يتمالك جورج نفسه مرة أخرى، فصاح قائلاً: هذا يطابق تمامًا ما قاله الشهود عن تصرفات رتشكوفسكي.

خُصص الجانب الآخر من اللقاء لتوزيع المهام. لقد أنجزنا عملاً رائعًا، قالوا كلهم، لكن المسيرة طويلة. قال جورج إنهم بحاجة، من أجل استكمال الصورة، إلى المزيد من المعلومات عن أشخاص ورد ذكرهم مرارًا في سياقات مختلفة. أما البروفسور ماطي فقد اقترح إعداد ملف خاص، يحتوي لمحة شخصية عن كل واحد من الشخصيات الرئيسية. يجدر البدء برتشكوفسكي، قال لجورج، لكن لا يجب تجاهل شخصيات مثل منسيفيتش مانويلوف.

تطوَّع جورج لدراسة تقرير طاغر ليقدم عنه تقريره المفصّل في الجلسة القادمة. سيباشر بإعداد الملفات الشخصية طِبقًا لاقتراح ماطي الرائع. رغم أنه وعد أوديت بأن يتفرّغ في نهاية الأسبوع للسفر معها إلى الجبال، فمن حقهما أن يقضيا معًا بعض الوقت، لكنه لا يستطيع أن يدير ظهره للأوراق المتراكمة فوق طاولة مكتبه. حين لاحظ اكتئاب محيَّاها، اقترح حلاً وسطًا: سيأخذ معه بعض الملفات، لكنه يعدها بأن يخصص وقتًا كافيًا ليقضيه معها، ومن حيث أن والديها سيرافقانهما في الرحلة، فلن تكون وحيدة في ساعات عمله. إن أوديت شريكة رائعة، قال في نفسه، فهي لا تتذمَّر أبدًا. كان مُطمَئنًا من أنه أحسنَ حين اختارها عن دون سواها.
أعلمه ليفشيتس أن عليه العودة إلى باريس، ليس فقط لمقابلة المزيد من الشهود، وإنما للتحقيق في ما أسموه "العلاقة الفرنسية".

أثارت استغراب جورج توصية الدكتور ڤــينر بالبدء بهنري رولان. لماذا اهتم عميل سابق للشرطة السرية الفرنسية ببروتوكولات حُكماء صهيون؟ سأل جورج بعدما روى له ڤــينر عن الرجل، ففي تلك الأيام كان على علم بأسرار كثيرة، ولا بد أنه عايش أحداثًا دراماتيكية كثيرة، فلماذا انصبَّ اهتمامه على البروتوكولات؟ وماذا عساه يضيف لما لديهم من المعلومات؟

لم يكن اهتمامه سطحيًا، أجاب ڤــينر. كان رولان مُطَّلعًا على معلومات سرية، وكان على يقين من أن البروتوكولات إنما كُتِبَت لأهداف سياسية، وقد كان لها، وما يزال، دور هام في سياسة أوروبا. لم ينشر رولان المقالات فحسب في هذا الموضوع، بل إنه يقوم بكتابة كتاب يستند إلى بحث شامل. لن يكون هناك مرجع يضاهيه لدراسة خلفية البروتوكولات.

تساءل جورج، كم من الأسماء ستبرز أثناء الإعداد للمحكمة؟ الكثيرون منهم غير يهود، والغريب أن الكثيرين منهم ليسوا من الروس.

خاب أملهم حين رفض رولان الإدلاء بشهادته في المحكمة، موضحًا لهم أنه لكونه عميلاً سريًّا سابقًا، فإنه ما يزال ملتزمًا بتعهده بحفظ السرية، ولا يمكنه الكشف عن مصادره أمام المحكمة، وأضاف أنه يسيطر على الموقف كتابيًا، لكنه يخشى الحرج الذي قد ينتابه لو رفض الإجابة على أسئلة معينة في المحكمة، مع ذلك فهو على استعداد للتحدث إليهم وتزويدهم بالمعلومات اللازمة. أصرّ الدكتور فـيـنر على مقابلة رولان شخصيًا، فهم حتى الآن ركّزوا على الشهود من أصل روسي، وقد حان الوقت للاهتمام بالعلاقة الفرنسية أكثر.

لم يكن سالي ماير مقتنعًا بأن عليهم صرف الوقت والمال على الأبحاث التاريخية. يجب أن يفترضوا احتمال عدم السماح لهم بعرض الاستنتاجات التي توصلوا إليها أمام المحكمة. صحيح أنه يجب ذكر الخلفية التاريخية، لكن ليس الهدف أن يقدموا أطروحة أكاديمية. هل هم ذاهبون إلى قاعة المحكمة لإقامة حلقة دراسية؟ وهل يأذن لهم القاضي بذلك؟ هل يُعقل أن ينشغلوا في قاعة المحكمة بسياسة نابوليون الثالث، لمجرّد أن المزيفين استخدموا كتاب موريس جولي؟ من شأن ذلك أن يضرّ بنا، قال سالي. سيلجا خصومنا إلى الإيحاءات الدرامية، سيتحدثون إلى الجمهور، لا إلى القاضي. من سيصغي إلى بحث حول السياسة الفرنسية في القرن الماضي؟ يجب التركيز على الحقائق ذات الصلة.

أيّدَ البروفسور ماطي أقوال فـيـنر. ممنوع أن ينحصر بحث المحامي فقط في البيّنات التي يبرزها للمحكمة. اعتاد أن يقول لطلابه إن عليهم سبر أغوار كل موضوع، وأن يبحثوا في كيف؟ ومتى؟ ولماذا؟ عليهم تبنّي نظرية تتماشى وكل الحقائق، تبرر كل النقائض، تفسر كل الدوافع، وذلك قبل اتخاذ قرارهم في أيها يجب أن يعرضوا أمام القاضي. عليهم، قبل إقناع القاضي، أن يكونوا هم مقتنعين أولاً. هذه قضية تاريخية، ذات أهمية استثنائية، قال وأردفَ: نحن لا نعالج تزوير مستند تجاري، إن كنا نريد الكشف عن هذا الزيف علينا أن نكشف جذوره. إن

مسؤولية عظيمة تُلقى على كاهلهم، ولا يجب الخوف من التعمق في البحث.

ثمة سبب آخر يستوجب مقابلة هنري رولان، ألمحَ ڤـــينر بصوت هامس، ثم قال مُذكّرًا: نحن في عام 1934، والحكم النازي في ألمانيا يترسّخ، وقد بات تأثيره ملموسًا في بلاد كثيرة. إن رولان يخصص جانبًا من دراسته لما يقوم به النازيون من استغلال **بروتوكولات حُكماء صهيون** في خدمة دعايتهم.

هل ترى فاتهم أن هتلر قد استند في نظريته إلى **بروتوكولات حُكماء صهيون**؟ ألم يقرأوا كتابه "كفاحي"؟
لقد أقرّوا بنوع من الحرج بأنهم لم يقرأوا الكتاب، إلاّ انهم طالعوا مقتطفات نُشرت هنا وهناك. كانوا على علم بسياسة هتلر العنصرية، لكن ما لهم وللتلطخ بقراءة كتاب كهذا؟

أجل، إنه قذارة، بل وأكثر من ذلك، أجاب ڤـــينر، لكن مؤلفه قد أصبح الآن الرئيس المنتخَب الحاكم في ألمانيا، ثم إن ما ورد في كتابه له علاقة وثيقة بقضيتهم. من الخطأ الاعتقاد بأن هتلر اكتفى بإظهار اليهود كعرقٍ دونٍ، فهو قد تبنى نظرية المؤامرة اليهودية التي تهدد سلام العالم، وفي كتابه صفحات كاملة تبدو منسوخة عن **بروتوكولات حُكماء صهيون**.

كعادته، كان ڤـــينر قد أعدّ الدرسَ جيدًا، فقد جهد في نسخ مقتطفات من كتاب هتلر، طلبَ أن يقرأها عليهم بصوت عالٍ. لم يُوصَف اليهود بأنهم عِرْق دونٌ فقط، بل هم، على حد قول هتلر، أعظم قوة تواجه العالم الآري.

وإذ لم ينبس أحدهم بكلمة، تناول من داخل حقيبته بعض الأوراق، وراح يقرأ منها مقتطفات كان قد اختارها مُسبقًا. هذه المقتطفات ليست مرتبة حسب تسلسلها، قال مُعتذرًا، فالترتيب لا يهم، إنها مجرد نماذج... مجرّد نماذج، قال مُدَمدِمًا.

طالما لم يتمكّن اليهودي من أن يُصبحَ سيدَ الشعوب الأخرى، عليه أن يتكلّم بلغتهم، إن شاء ذلك أم أبى. لكن، متى أصبحوا عبيدًا له، فسوف يضطرون كلهم إلى تعلم لغته (الأسبرنسو، مثلا!)، من أجل أن تسهل السيطرة عليهم".

[........]

إن بروتوكولات حُكماء صهيون، التي يمقتها اليهود جدًّا، تؤكد مدى اعتماد وجود هذا الشعب على الكذب المستمر. الفرانكفورتر تسايتونغ يصرخ أسبوعيًا قائلاً إنها قائمة على تزييف، لكن ذلك بحد ذاته يشكل إثباتًا دامغًا لصحتها. هنا يتضح للملأ ماذا يفعل الكثيرون من اليهود، دون إدراك أحيانًا، وهذا هو المقرِّر. لا يهم أبدًا عن أي دماغ يهودي صدرت هذه التصريحات، إن ما يهم أنها تكشف بشكل أكيد عن طبيعة الشعب اليهودي وتصرفاته، وتفضح ما يضمرون في داخلهم من الأعمال والأهداف النهائية. يجب فحص غاياتهم على ضوء الواقع. إن أفضل نقد ضدهم هو واقعُ وجودهم، فالذي يتمعن التطورات التاريخية في السنوات المائة الماضية، من زاوية رؤية هذا الكتاب، يدرك للفور لماذا تملأ الصحف اليهودية العالم ضجيجًا، لأنه متى أصبح الكتاب بحوزة عامة الشعب، فهذا يعني كسر الخطر اليهودي.

[........]

كلما ارتقى أكثر – يقول هتلر عن اليهودي – تتكشَّفُ من بين الضباب، وتتضِّحُ أكثر، الغاية القديمة التي وُعِدَ بها، فتنخدع بها أكثر العقول حدّة، وتتشبث بحماس برؤيا تحقيق حلم السيطرة على العالم.

في البداية استخدم البورجوازية كسلاح لمحاربة الإقطاع، وبعدها استخدم العمال ضد البورجوازيين. وإن كان قد استطاع سابقًا أن يحصل على الحقوق المدنية في ظل البروجوازية، فإنه اليوم يأمل أن يسلك طريقًا توصله إلى مركز السيطرة على نضال العمال في سبيل البقاء، وبذلك تُصبح المهمة الوحيدة لطبقة العمال النضال من أجل مستقبل اليهود، دون أن يعلموا بأنهم يُسَخَّرون لخدمة القوة التي يجب أن يقاوموها. يقولون لهم إنهم يناضلون ضد الرأسمالية، بينما هم في الواقع يناضلون لأجلها. يتظاهر اليهودي بأنه يصرخ في وجه رأس المال العالمي، لكنه في الواقع يتآمر لهدم الاقتصاد العالمي، لكي تحتفل بورصات العالم فوق جثته (جثة الاقتصاد) الميتة.

[........]

ثمة أهداف شيطانية خلف ستار الأفكار الاشتراكية المُعلَنَة، بل إنهم يعلنونها بكل صراحة. إن هذه النظرية تنطوي على مزيج من المنطق والجنون غير قابل للعزل، لكنها مبرمجة على نحو يجعل الجنون فقط واقعًا، وليس المنطق.

[........]

بعد القضاء على هذه الشخصية وهذا العرق، تُزالُ العقبة الرئيسية من طريق السيطرة على دونِ البشر، أي اليهودي. إن منطق هذه النظرية يكمن في الجنون السياسي والاقتصادي.

[........]

يتوجه في البداية إلى إصلاح الاعوجاج. يبدِّل وجهه ويظهر بصورة مخلّص البشرية [...] وبالتدريج، يُنَصّبُ نفسه ناطقًا باسم العصر الحديث، وفي نفس الوقت يستمر في توسيع بنية الاقتصاد لخدمة صالح الشعب [...] إلى أن يُصبح المشرف على قوة العمل الوطنية [...] ومن أجل ترسيخ مكانته السياسية

يحاول تدمير الحواجز التي تقيد خطواته من ناحية العرق وحقوق الإنسان [...] لقد وجد في البناة الأحرار، المستسلمين له كليًا، جهازًا ممتازًا لتعزيز أهدافه وتحقيقها. الأوساط الحاكمة، والفئات الراقية في الطبقة الوسطى، السياسية والاقتصادية، تقع في شَرَكِهِ عن طريق البناة الأحرار، دون أن تشعر بذلك [...] وبما أن فئات واسعة من الحرفيين لا تقع في شِباك البناة الأحرار الناعمة، يقتضي الأمر أن تُستعمل ضدهم وسائل، وإن كانت قاسية، إلا أنها مُقنعة. لذلك فهم يلجأون إلى استخدام السلاح الآخر، الصحافة، التي يسيطر اليهودي عليها بكل ما أوتي من قوة ومثابرة ونشاط، وعن طريقها يشرع بتطويق الجمهور تدريجيًا، وبتضليله وتوجيهه حسب رغباته، مستعينًا بأحابيله المعهودة. إنه قادر على خلق ما يُسمى اليوم "الرأي العام".

[........]

إن غايته القصوى في هذه المرحلة هي انتصار الديمقراطية، أو كما يفهمها هو، سيطرة الطريقة البرلمانية. فهي تناسب احتياجاته تمامًا، تشلُّ شخصية الفرد وتعتمد على الأغلبية الغبيّة، الجبانة التي لا نفع منها [...] لشدة صلفه، لا يرتدع عن قيادة الجماهير التي لا يخطر ببال أحد منها أن في الأمر خداعًا سافلاً لا مثيل له [...] تحت ستار الأفكار الاشتراكية الصرفة التي يعرضونها بكل صلف للجماهير، تستتر نوايا خبيثة.

[........]

الناس المثقفون حقًا يمتنعون عن الانضمام إلى الخدمات العامة، فيسارع المفتقرون إلى الفكر وغير المتعلمين لاحتلال مكانهم في المجال الاقتصادي. وأمّا المثقفون – وكل حركة تحتاج إلى مثقفين من أجل بقائها – فإن اليهودي يضحي بهم بداخل

صفوفه. وهكذا تنضوي حركة عمالية بحتة تحت إدارة يهودية، تتظاهر بأنها تهتم بتحسين حالهم، إلاّ أنها تخطط عمليًا لاستعبادهم من خلال القضاء على الشعوب غير اليهودية[...]

[........]

إن الشلل السلمي لحاسة الوجود الوطني قد بدأ في صفوف البناة الأحرار في الأوساط التي تتسمّى بـــ "طبقة المثقفين"، وهو آخذ بالتفشي بين الناس، وخاصة في صفوف البورجوازيين، عن طريق الصحف الكبيرة بشكل خاص، وكلها يملكها اليهود. إضافة إلى آلتَيِّ الدمار هاتين، هناك ثالثة وهي الأشد خطرًا: استعمال القوة الوحشية [...] يُفترض أن تُكمل الماركسية ما بوشر بالوسيلتين السابقتين، في عملية تهدئة أنضجت انهيارًا نهائيًا. إنه عمل جماعي رائع، فلا يجب أن نعجَبَ إذا ثبت أن المؤسسات التي تدّعي أنها تمثل النظام المستقر، ستكون أول من ينهار. في كل الأزمنة (ما عدا بعض الحالات الاستثنائية) وجد اليهودي في أوساط الموظفين الحكوميين وكبار المسؤولين شركاء له في أعمال الدمار. إن أبناء هذه الفئة يتميّزون بالخضوع المخزي للمسؤولين وبالاستعلاء المتعجرف على مرؤوسيهم، ناهيك عن ضيق الأفق الذي يستصرخ السماء وخداع الذات المذهل.

الهدف النهائي من نضال اليهودي لا يقتصر على التسلط على عالم الاقتصاد. فمن خلال أطماعه للسيطرة السياسية، يقسم اليهودي المبدأ الماركسي إلى قسمين، وهما وإن كانا يبدوان منفردين ومستقلين، لكنهما في الواقع يتممان واحدهما الآخر: العمل السياسي والنقابات المهنية، الهدف منها تجنيد الناس. في نضال العامل المرير لضمان عيشه،

مقابل جشع الكثيرين من أصحاب الأعمال وقصر نظرهم، تعرض النقابات المهنية حمايتها ومساعداتها، من أجل رفع مستوى معيشته [...] إن الدولة لا تكترث بمصيره، والعامل ليس على استعداد لأن يوكل الدفاع عن حقوقه في عهدة عديمي الرحمة والمسؤولية. والبورجوازية الغارقة في مصالحها المالية الضيّقة، تضع العراقيل في طريق العامل الذي يصارع البقاء. ولا يكفي أنها تعارض تقليل ساعات العمل لمنع تشغيل الصِّغار، ولحماية النساء، ولخلق الشروط الصحيّة الملائمة في البيت وفي مكان العمل، بل إنها تلجأ أحيانًا إلى نسف الجهود المبذولة في سبيل هذه الغايات. ينبري اليهودي بذكائه ليأخذ هذا الجمهور المظلوم تحت كنفه ورعايته، وبذلك يغدو تدريجيًا قائدًا للنقابات العمالية، رغم أنه عمليًّا لا ينوي القضاء على التمييز وإنما يريد تجنيد جيش خاص، ذي طاعة عمياء، يستطيع عن طريقه تدمير استقلالية اقتصاد الأمة.

[........]

بالتوازي تتم الاستعدادات السياسية [...] وهكذا يجعل اليهودي سلاح الإضرابات العامة في خدمة الآراء السياسية [...] ويبدأ بالتدريج في تحويل الرأي العالمي واستبدال الديمقراطية بدكتاتورية طبقة العمَال. لقد وجد في الجماهير المنظمة في الحركة الماركسية السلاح الذي يمكنه من التنازل عن الديمقراطية لينصّب مكانها فكرة استعباد الشعوب بقوة الذراع، عن طريق فرض النظام الدكتاتوري. إنه يعمل باتجاهين: الاتجاه الاقتصادي والاتجاه السياسي [...] يُحرّض الشعوب ليحارب بعضها البعض، رافعًا راية الثورة. من الناحية الاقتصادية، يزعزع أركان الدولة إلى أن تصبح المشاريع العامة غير مجدية، وتقع فريسة سائغة لسيطرته المالية.

ومن الناحية السياسية، يمنع عن الدولة المقوِّمات الضرورية لبقائها. ينسف كل فكرة بالاكتفاء الذاتي والحصانة الذاتية، يزعزع الثقة بالقيادة، يستبيح حرمة التاريخ والماضي، ويقلب الأخلاقيات والقيَم إلى نفايات. ومن الناحية الثقافية، فإنه يلوث الفن، والأدب والمسرح [...] يهدم كل مفاهيم الجمال، والقداسة، والكرم والطيبَة، ويجر الناس إلى مجالات دنياه الدنيئة. يجعل الإيمان الديني موضع سخرية، ويصور الأخلاق والطهارة على أنها ظاهرة عفا عليها الزمن، إلى أن يتم انهيار آخر طود للقومية.

[........]

تبدأ الآن الثورة الكبرى والأخيرة بعد تحقيق سيطرته السياسية، ينزع اليهودي القناع عن وجهه. يتحول ابن الشعب اليهودي، صاحب المبادئ الديمقراطية، إلى ابن الدم اليهودي المستبدّ بالشعوب الأخرى. يحاول أن يقتلع من الجذور، خلال سنوات قليلة، أصحاب الفكر من بين الجمهور، فتُصبح الشعوب التي سُلِبَت قيادتها الروحية والطبيعية، مُهيّأة لمصير العبودية الأبدي الذي ينتظرها.

نزع ڤـينر نظارتيه عن عينيه ومسحهما، ثم دفع الأوراق بأطراف أصابعه إلى داخل حقيبته. لم ينبس أحد ببنت شفة. ما زالوا تحت تأثير الصدمة، يصعب عليهم استيعاب ما سمعوا. لا شك، قال البروفسور ماطي، أن هتلر قد استغلَّ نصوص البروتوكولات المنتشرة في أوروبا حين كتب كتابه في بداية العشرينيات، وأنه استقى نظريته من هناك.

لكن ما يتهدّد اليهود اليوم ليس فقط المجازر، همس ليفشيتس.

كان الهدف من جلستهم التباحث في أمر التزوير الذي لم يبقَ أحد من فاعليه على قيد الحياة، ولم يتوقعوا أن يجدوا أنفسهم في مجابهة مع هتلر في قاعة المحكمة.

لكن الخيار ليس بيدنا، قال ڤــينر. من المؤسف أنهم كانوا بحاجة إلى هنري رولان، غير اليهودي، ليفتح أعينهم على حجم الخطر. "نحن اليهود نخشى دائمًا أن يتهمونا بالمبالغة"، قال.
اتفقوا الآن على أن يقوم ڤــينر بالاتصال برولان ليحصل منه على أقصى ما يمكن من المعلومات. حسب المعلومات المتوفرة لديهم، فهو يسكن في شارع جيرڤــيه Gervex 2، في الربع السابع عشر، في باريس.

لم تخبرني أوديت إن كان جورج على علم بما حدث لهنري رولان بعد محكمة بيرن، وحين أخبرتُها بما توفر لدي من المعلومات عنه، قالت بأسى شديد إنه في عام 1939 كانت أمور أخرى تُشغل جورج. حتى أنها واجهت صعوبة باستذكار اسم هنري رولان، وقد سألتني إن كان هو أحد الشهود. "لا"، قلت لها، فهو لم يُدل بشهادته في المحكمة، غير أن دراسته الواسعة ومعرفته العميقة بالأحداث السياسية والتاريخية، التي جرت على المسرح الأوروبي في تلك الفترة، جعلته أحد الشهود الرئيسيين في بحثي الخاص.

ما شاهده وسمعه عميل سري فرنسي

في 28 يونيو 1939، وقَّعَ هنري رولان النص النهائي لمقدمة كتابه "رؤيا أيامنا". استند الكتاب إلى دراسة دامت سنوات عديدة، وهو الكتاب الأخير في سلسلة كتب ومقالات أصدرها منذ عام 1931، تناول فيها المواضيع العسكرية والتاريخية والسياسية، كالمعارك البحرية، والثورة الروسية، والتهديد النازي، وخطر النظريات العنصرية التي راجت في أوروبا. كان في الخمسين من عمره أيام قضية بيرن، وكان قد اكتسب شهرة كضابط متفوق في البحرية الفرنسية، وأحد كبار المسؤولين في الاستخبارات الفرنسية، وكاتب معروف في السياسة والتاريخ. قضى سنوات في روسيا وأبدى اهتمامًا خاصًا بالثورة البلشفية، وقد تحدّث عن أسبابها ونتائجها في مجلدين

صدرا عام 1931. كما سبق أن تناول في بحثه الثورة الفرنسية مصوِّبًا بشكل خاص على الدور الذي كان لحركة البناة الأحرار فيها. أثناء إعداده لكتابه الشامل عن روسيا، واجهَهُ زَعْمُ التواطؤ اليهودي- الماسوني، والمبالغة عن دور اليهود في الثورة. حصل من أحد أصدقائه على **بروتوكولات حُكماء صهيون**، فقرأ الكتاب من الغلاف إلى الغلاف بإمعانٍ زائد ودهشة فائقة، ومما أثار استغرابه، بعد تعمقه في البحث، أنه وجد أثر البروتوكولات في كل حدث رئيسي من أحداث السنوات العشر الأخيرة، وقد أقلقه التفكير بأن هذه الوثيقة الغريبة تلعب دورًا بارزًا في السياسة الأوروبية. تعترضه البروتوكولات في كل مكان: في بحثه حول السياسة الفرنسية في نهاية القرن، وفي الثورة الروسية، وفي تعقبه لتفشي النظريات العنصرية وتنامي الحركة النازية الخطير. هل يُعقل أن نظرية المؤامرة اليهودية ذاتها تخدم الأهداف كلها بنجاعة: الملكيين الروس، والبلشفيك، والنازية العنصرية؟

قال في افتتاحية كتابه إنه كاثوليكي مُخلص، ليس يهوديًا ولا ماسونيًا، لكنه على يقين من أن الادعاء بوجود "مؤامرة يهودية" كما وُصِفَت في **بروتوكولات حُكماء صهيون**، يشكل الدعامة الأساسية للدعاية النازية في العالم. لقد صُدِمَ، على حد قوله، عندما قام اللاجئ الروسي جورجولوف (Gorgulov) باغتيال الرئيس الفرنسي دوميه (Doumer) في 6 مايو 1932، وتبيّن من الوثائق التي ضُبِطَت بحوزته، ومن تقارير أطباء النفس الذين عينتهم المحكمة لفحصه، أنه معادٍ متطرف للسامية، يؤمن بأن فرنسا وبريطانيا أداتان بيد المتآمرين من اليهود الماسونيين، الذين يشكلون خطرًا على الحضارة الأوروبية، فهُم من تسبّبَ بالحرب عام 1914، وهُم من قوَّض بناء الأسْرَة المالكة في روسيا، وفي ألمانيا وفي المملكة النمساوية-الهنغارية. كان يعتقد، أسوة بهتلر، أن الديمقراطيات الغربية، وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا، مسؤولة عن كل الفوضى التي شهدتها أوروبا.

وكما فعل الذين اغتالوا رطناو عام 1922، ادّعى هو أيضًا بأنه يخدم الإنسانية في قتله لرئيس فرنسي يحرِّكه اليهود.

لم يكن رولان يقصد تأليف كتاب يمتد على 700 صفحة عن **بروتوكولات حُكماء صهيون**. هذا ما فكّر به لدى توقيعه مقدمة كتابه عام 1929، لكنه كان يرجو من كل قلبه أن يكون الكتاب بمثابة تنبيه وإنذار. حين وصل الكتاب إلى المكتبات في 23 سبتمبر 1939، أي بعد ثلاثة شهور من كتابته، كان الوقت قد فات؛ ففي الأول من سبتمبر اجتاح الألمان بولونيا، وكان في ذلك الشرارة الأولى للحرب العالمية الثانية. أدرك رولان لاحقًا كم كان مُحِقًا حين كتب في كتابه أن نظرية "المؤامرة اليهودية"، التي تلقي المسؤولية على اليهود في كل شيء، كانت العمادَ الأساسي في الدعاية النازية.

قلة هم الفرنسيون الذين تسنّت لهم قراءة كتاب هنري رولان قبل احتلال الألمان لفرنسا، لكن المحتلّين النازيين قد قرأوه. تم إلقاء الحظر على كل الكتب التي عارضت النظرية النازية وإفراغ المكاتب والمتاجر منها. بين عام 1940 و 1942 تم تعميم قوائم بأسماء الكتب التي من شأنها "تسميم الرأي العام"، وقد ظهر كتاب هنري رولان، "رؤيا أيامنا"، عن **بروتوكولات حُكماء صهيون**، في كل قائمة من تلك القوائم، فكان أن صودر الكتاب بشكل منهجي من كل المكتبات وحتى من مخازن دار النشر، فاختفى الكتاب من فوق الرفوف على مدى خمسين عام، ولم تسلم سوى بضع نسخات هنا وهناك.

في مايو 1992، شاركتُ في مؤتمر أقيم في باريس، وكعادتي منذ أن بدأت الاهتمام بالبروتوكولات، انتهزتُ كل لحظة فراغ للبحث عن مادة ذات علاقة. كانت بين يدي قطعة من جريدة لا موند، أرسلها إليَّ صديقي القاضي سابقًا، پـول ليفي، احتوت على نبأ عن كتاب جديد حول ***بروتوكلات شيوخ صهيون***، *صدر في باريس مؤخرًا. وعبثًا حاولنا، پـول وأنا، العثور على نسخة*

عنه في كُبرَيات المكاتب، إلى أن اتصل بي أحد الباعة في دكان، في بولبار سانت ميشيل، يسوِّقُ إصدارات دار النشر "عاليا" التي ورد اسمها في الجريدة، وبعد يومين وصلت إلى الفندق الذي نزلتُ فيه الطبعة الجديدة لكتاب هنري رولان.

إذن، قلت في نفسي، إذ استغرقتُ في قراءة الكتاب، لقد صدق الدكتور ڤــيز حين أصرّ على مقابلة هنري رولان. مؤسف جدًا أن رولان لم يشهد أمام المحكمة في بيرن. فلو استطاع إسماع آرائه على الملأ، حتى في عام 1934، فلربما كان الجمهور يستوعب تحذيراته. لكن كتابه ذا الصفحات السبعمائة، والذي احتوى على الكثير من المعلومات الهامة، اختفى من الأسواق مدة تجاوزت الخمسين عامًا، رغم أن اسمه ظهر تقريبًا في كل قائمة مَرَاجع لمنشورات ذات علاقة بالبروتوكولات.

الآن، قلت لأوديت، أستطيع أن أفهم لماذا أصرّ الدكتور ڤــيز على الاتصال برولان. تذكَّرَتْ أوديت أن ڤــيز، بعد عودته من لقاء رولان في باريس، قال لجورج إنه يتوجب الآن التركيز على الجانب الفرنسي من القصة، وأن جورج لم يكفّ طوال أسبوع عن الحديث عن موريس جولي.

موريس جولي – شخصية المتمرّد

كثيرًا ما تساءلت ماذا كان موريس جولي ليقول لو أنه عرف أن التاريخ سيذكره ليس كمتمرّد سياسي، بل كمن ساهم دون وعي منه، في خلق أعظم تزييف في التاريخ؟ ماذا كان ليقول لو حدثوه عن محاولات نسبه إلى أصل يهودي؟ واسم يهودي! كم كان سيضحك لو حضر إلى قاعة المحكمة في بيرن حيث ادعوا أن اسمه الحقيقي موشيه يوئيل؟! ولعله كان سيُصدم لو قيل له إنه في عام 1937 سيكتب عنه كاهن يُدعى جيوڤــاني برتسيوزي، من إيطاليا، أنه كان يهوديًا وماسونيًا وثائرًا؟ كان سيعلن أن كل ذلك هراء وكذب. تهيّأتُ كيف كان سيغضب لو سمع الادّعاء

اللامعقول في أنه متهم بالانتحال الأدبي، وأنه قد نقل كتابه عن بروتوكولات حكماء صهيون قبل كتابتها بثلاثين سنة! هل كان بإمكانه أن يحلم بأن يبقى اسمه على الألسن حتى بعد اختفاء اسم نابوليون الثالث من صفحات كتب التاريخ؟
تأمّلتُ طويلاً تلك الصورة التي يظهر فيها رجل مُلتحٍ ذو عينين بارقتين، رافعًا رأسَه نحو الأعلى، شادًا كتفيه إلى الوراء بحركة احتجاجية. رجل جريء، محارب وحيد، عرّض حريته للخطر من أجل أن يفتح عيون الناس. رجل تجاسر على إعلان الحرب على حاكم جبّار، ودفع ثمنًا باهظًا.

نظرًا لاطلاعي على نظام المحاكم في فرنسا، الذي لم يتغيَّر كثيرًا منذ عهد نابوليون، استطعت أن أصوّر بعيني خيالي ما جرى في المحكمة الجنائية في لواء السين في 28 أبريل 1865. إنها محكمة من المرحلة الأولى، يتم فيها البت في قضايا بسيطة أمام ثلاثة قضاة، دون محلّفين. تخيّلتُ كيف وقف الرجل منتصبًا، ممتلئًا غضبًا، أمام القضاة الذين أدانوه بالتحريض على الدولة، فأصدروا حكمهم بسجنه 15 شهرًا وتغريمه مبلغ 200 فرانك.

حسب وثائق السجن، أعيد موريس جولي إلى حجرته في سجن سانت بيلاجي في 14 شباط 1866، حيث كان قد قضى في البداية فترة بانتظار محاكمته، ومن ثم بانتظار قرار محكمة الاستئناف. بعد أن رُفِضَ استئنافه، تبقّى له قضاء مدة سنة كاملة، كرّسها للتفكير والكتابة. والواقع أن موريس قضى في هذه الحجرة، منذ اعتقاله وحتى إطلاق سراحه، مدة سنتين كاملتين. لم يغيِّر السجن المستمر من آرائه ولم يُثبط عزيمته. حين خرج من السجن، متأبطًا حقيبة ممتلئة بالمخطوطات التي كتبها في السجن، قال لنفسه: الآن أستطيع متابعة الحياة. كان آنذاك في السادسة والثلاثين من العمر، آملاً أن يمدّ الله في عمره.

فقط أثناء تفكيره، داخل المركبة التي نقلته إلى باريس، وعلى وقْع خَبَبِ الخيلِ الرتيب، فطنَ إلى أنه أضاع من عمره سنتين.

لكنه لم يكن نادمًا، فقد فعل ما آمن أن عليه أن يفعل، وسوف يكرّر ما فعل إذا اقتضى الواجب. وإن كان قد حُظرَ نشر كتابه، إلاّ أن مضمونه قد شاع بين الناس، بفضل ما ناله من تغطية إعلامية أثناء المحكمة. ليس بنيته الكفّ عن نضاله، وهو يعلم أنه قد يُسجَن من جديد، فهو في مواجهة دائمة مع نظام الحكم. لقد عُرف بتمرّده منذ الصِّغَر وبقي على حاله تلك طوال حياته، كما ورد في سيرته الذاتية التي نشرَها عام 1870، وكان قد كتبها أثناء قضاء محكومية بتهمة ارتكاب جنحة أخرى، انتهت بتبرئته.

كانت عائلته البورجوازية فاقدة الحيلة، لا تعرف كيف تتعامل مع هذا الولد المتمرّد. شغل بعض أفرادها وظائف مرموقة، فقد كان والده عضوًا في مجلس لواء إيورا، وكان جده آمر الصرف paymaster في كورسيكا، وتم تعيينه لاحقًا أمين السر العام لوزارة البحرية في نابولي. لكن موريس منذ ولادته عام 1829 كان رافضًا لأصول السلوك المتعارف عليها في العائلة، وقد بدّل خمس مدارس قبل أن ينهي دراسته في باريس عام 1859، حين حصل على شهادة المحاماة وهو في الثلاثين من عمره. كان واضحًا له منذئذ أنه لن يغرق في مزاولة الأعمال الروتينية. كانت الكتابة شغله الشاغل طوال حياته، وقد انتهج الأسلوب الساخر الذي لاقى قبولاً وشعبية في تلك الأيام. نشر المقالات الناقدة عن محامين وقضاة بارزين، كاشفًا دون وجل كل ملامح الاعوجاج والنفاق. في دهاليز المحاكم أقرَّ الجميع بأن نشرته "نقابة المحامين – بحث سياسي وأدبي"، آسرة ومُضحكة، لكنها لم تحظَ في تلك الأيام بالدعم الكافي من زملائه في المهنة. لقد جعله تعامله الملتزم بالسياسة هدفًا دائمًا لتعقّب ومراقبة السلطات له، وخاصة بعد إطلاق سراحه، الأمر الذي نفَّر منه دور النشر. لكن رجلاً مثله لا يعرف اليأس، فحين رفضت الصحف المختلفة نشر مقالاته الناقدة، رفع الدعاوى ضدَّ عشرٍ منها فكسب ثمانِي قضايا.

لكنما في هذا اليوم الربيعي، 14 مايو 1867 بينما كان في طريقه إلى باريس، يمتّع ناظريه بالمناظر الخلابة، ويتنفس الهواء النقي الذي اشتاق له في سجنه، راح يتذكر كيف بدأت وكيف تطورت الأحداث على ضفة نهر السين في ذلك اليوم المصيري.
كان ذلك مساء يوم من أيام الخريف، وقد كست أوراق الشجر المتساقطة المدينة باللون الأصفر والذهبي. البرد الذي اخترق العظام أنبأ بقدوم الشتاء. بدا عابرو السبيل مهرولين إلى بيوتهم للاحتماء من الرياح العاصِفَة الصَّافِعَة، لكن موريس جولي أحب السير على امتداد النهر في مثل هذا الطقس، وكأن الريح تنقّي دماغه وتمكنه من تنظيم أفكاره.

لم يُخفِ أصدقاؤه عنه مخاوفهم، فحتى أولئك الذين أيدوا آراءه اعتقدوا أن لا احتمال لأي تغيير. قالوا له إنه يستدعي لنفسه شرًّا، إذا أصر على عناده. هذا النظام غير متسامح مع الباحثين عن المشاكل. قالوا إنهم يوافقونه على أن نابوليون الثالث طاغية مستبد، وأنه خطر على فرنسا، لكن التعرض له في كتابٍ ضربٌ من الجنون؛ فبالتالي لن يتغير شيء، إذ أن من الصعب توعية الناس إلى ما يحدث، لأنهم خانعون وأضعف من أن يتمردوا. قالوا له إنه سيدخل السجن علاوة على مصادرة الكتاب ومنع نشره.

فكر موريس كم كان أصدقاؤه صادقين؛ فها هو كتابه قد مُنع من النشر، وها هو قد خسر من عمره سنتين. هل يكرر ذلك؟ تساءل في نفسه وهو يجيل الطرف من خلال نافذة المركبة. في قرارته عرف الجواب، إنه سيكرر ويعود فيكرر، لأن على الإنسان أن يفعل شيئًا من أجل إيقاف الجرف، وهو لا يملك أدوات أخرى سوى الكتابة.
في شبه غفوة، غرق في ذكرياته التي نقلته إلى ذلك المساء، على ضفة نهر السين، حيث بدأت الحكاية. على مدار سنة كاملة كان يفكر بكتابة كتاب عن الانتهاك الشديد لحقوق الإنسان في فرنسا، عن طريق التشريع المحنك وأنظمة الحكم المَشوبة. لكنه يعرف

جمهور قُرّائه، فالكتاب الجدّي، مهما كان جيدًا، سوف يُهمل فوق الرفوف. المواطن الفرنسي يميل إلى التهكم، يجب أن يهتدي إلى أسلوب يحرك خياله. عليه أيضًا تمويه غايته. لكن لا جديد في ذلك، فمنذ فجر الجمهورية اضطر الفرنسيون إلى تمويه انتقادهم لمساوئ الحكم.

غارقًا في بحر أفكاره، تنـــزّه في ذلك المساء على ضفة نهر السين. لحظة اجتاز جسر "بونت رويال" فطِنَ إلى كتاب كان قد قرأه مؤخرًا. اسم الكتاب "حوار القمح"، من تأليف الكاهن غلياني. جاء الكتاب على شكل حوار بين الأحياء والأموات حول مشاكل الساعة السياسية. هكذا اختمرت في ذهنه الفكرة بأن يكتب كتابه على شكل حوار رمزي. لكن، بين من ومن سيكون الحوار؟ فهو بالطبع لا يستطيع استخدام أسماء شخصيات على قيد الحياة. هل يستخدم شخصيات وهمية؟ من الذي سيعبّر عن آرائه في الحوار؟ بفم مَن يضع الرسالة التي يود تبليغها؟ من الذي سيكون في كتابه العدو اللدود لكل ما يمثله نابوليون الثالث؟ وفجأة برق في ذهنه اسم مونتسكيو. إنه يوافقه الرأي دون تحفظ، فاستقرّ عليه قراره، أحسَّ لتوّه أنه يتقمص شخصيته وينطق بلسانه.

لكن من الذي يقف في مواجهته؟ من سيمثل كل عيوب وفساد النظام الحالي؟ من هو الذي بنى نظريته على أساس أن لا علاقة ما بين السياسة والأخلاق؟ من الذي نصح الحكام باستعمال القانون لمجرد التمويه ومغالطة الشعب ليستأثر بالسلطة المُطلَقة؟ من الذي احتقر الديمقراطية، واستهتر بحقوق الفرد، واختلق نظرية تخدم الطغاة وتوجههم نحو الغش والخداع في الحكم؟ وباختصار، من الذي أوجد النظرية القائلة بأن القوة هي الحق؟

سيحاول أن يتهيّأ الموقف الذي سيجري فيه الحوار، فلربما من خلال ذلك تتبلور صورة الشخصية الثانية، قال في نفسه. سيجري الحوار في السماء، أو ربما في جهنَّم؟ وسيتحدث مونتسكيو بهدوء، ومنطق، وحكمة. لكن الشخصية المقابلة ما

زالت مجهولة الملامح والهوية. قرّر التركيز في المضمون ووَضْع الكلمات التي يريد أن يسمعها من الحاكم الفرنسي في فم الشخصية المجهولة. "سوف أتغلب على كل معارضة"، قالت الشخصية، "وسوف أجعل الشعب يؤيدني". لكي يتمكن من ترسيخ سلطته المطلقة، يجب أن يسيطر على الصحافة، والشرطة وأماكن العمل. سوف يبهر الشعب بتحقيق بعض الانتصارات السهلة، ثم يُقوّم الناس على بعضهم، عن طريق نشر الأكاذيب في الخفاء بواسطة أعوانه. سوف يظهر بصورة المنقذ لا المستبد. "إنّك ترتكبُ خطأ إذا وثقتَ بالناس"، هذا ما سيقوله المجهول الذي يحاور مونتسكيو، "فأنت لا تدرك مدى حماقتهم". من يا ترى سوى نابوليون يليق بأن نضع في فيه مثل هذه الكلمات؟ تساءل جولي. وفجأة خطر بباله اسم وكأنه يقتحم وَعْيَهُ اقتحامًا. وسرعان ما اكتسبت الشخصية المجهولة في مخيلته صورةً وملامحَ محدّدة وواضحة. إن هذه الكلمات التي ينسبها إلى الحاكم الشرير تبدو صحيحة ومقنعة إذ ينطق بها ميكافيللي.
وجدتُها! قال في نفسه، وهو يتنفس الصعداء مغمورًا بشعور من الارتياح الذي لم يعرفه منذ أيام كثيرة.

بعد أن انتهى من الكتابة، احتبس جولي في غرفته، في فندق صغير في جنّيف، وراح يقرأ مخطوطته من أولها لآخرها، ثم كتب مقدمة قصيرة، قال فيها إن ما جاء في كتابه يمكن أن يُنسبَ لكل حكومة، لكنه في الواقع يمثل نظام حكم واحد معيّن. وكتب يقول: "إننا أجبن من أن نرى في ضوء الواقع الأمور التي تحدث أمام أعيننا".
سجَّل في ذيل الصفحة: "جنيف، 15 أكتوبر، 1864". كاد أن يضع توقيعه، لو لم يفطن إلى أنه يجب أن يبقى مجهولاً. وهكذا، فقد عُرف الكتاب فيما بعد باسم "وثيقة جنيف".

بعد عودته إلى فرنسا، اهتدى جولي إلى مطبعة صغيرة في مدينة بورديه Bourdier. قال لصاحبها إن الكتاب عبارة عن ترجمة عن الإنجليزية لكتاب من تأليف كاتب يُدعى ماكفرسون

McPherson، وهو اسم ابتدعه من عقله، مُقهقهًا في داخله. كانت مرامي الكتاب جليَّة واضحة، لدرجة أن صاحب المطبعة ذُعرَ وقرر التنازل عن الربح المنتظر، فرفض أن يطبع الكتاب. قال له أصدقاؤه إن شفافية الرمز يجب أن تسرّه، أوليس هذا هو المراد؟ لكن، إن كان صاحب المطبعة قد فهم المغزى، فكيف لا يخشى السلطات؟ لا يكفي أن يكون المؤلف مجهولاً، قالوا له، بل من الأفضل أن تتم الطباعة خارج حدود فرنسا. اقتنع جولي، فحصل على إذن وسافر إلى بلجيكا بحثًا عن مطبعة، آملاً أن يكون في خطوته تلك ما يطمس الأثر، وحتى لو اشتبهت به السلطات، فلن تكون لديها إثباتات، فكيف يمكن أن ينسبوا إليه كتابًا مجهول المؤلف طُبع في بلد غريب؟

الغريب أن جولي، وهو الذي كان على معرفة تامة بدهاء النظام الوحشي وتكتيكه، أيقنَ بكل سذاجة أنه نجح في عملية التمويه. لدى عودته إلى فرنسا ألقي عليه القبض بتهمة التآمر على النظام ونشر المواد التشهيرية والتحريض على الحكومة. كتب القضاة في قرارهم: "إن هذا المُؤلَّفَ ليس نقدًا تجريديًا أو فكريًا، وليس تعبيرًا عن رأي سياسي بحسن نيّة. إن الكاتب يتهم الحكومة الفرنسية باستخدام الوسائل المخزية، والنفاق والطرق الملتوية، بغية تضليل وإذلال الأمة من خلال إفساد القيم الوطنية [...] وبالتالي، كما كتب المؤلف بنفسه، فهو يعرض صورة بشعة تُرهِبُ كل إنسان من حيث إدراكه بأن مثل هذه الأمور يمكن أن تحدث فقط في جهنّم".

وقد اختتم القضاة قرارهم بالقول: "من منطلق هذه البيّنات، فإننا ندين موريس جولي بالتهم الموجهة إليه ونحكم بسجنه 15 شهرًا وبتغريمه 200 فرانك. تُصادَر كل نسخات الكتاب **حوار في جهنّم**".

في 15 يوليو 1878، وجد بواب العمارة موريس جولي جالسًا فوق أريكة في غرفة عمله، رأسُه متدلٍّ ويداه مرخيتان إلى جانبي الأريكة، وعند أسفل قدميه المسدس الذي انتحر به، وفوق

الطاولة مخطوطة لكتاب جديد، ورسالة وداع إلى أمه، وأخته وأخيه، ولأحد أصدقائه ومحامِيَيْن.

من المؤسف أن كتاب موريس جولي اختفى من المكتبات، أقول هذا كلما طالعتُ النسخة النادرة الموجودة بين يدي من الكتاب. إن رسالته السياسية تناسب أيامنا كما كانت في حينها، قبل 130 عامًا. فهو يقدمها للقارئ بعمق وحكمة، وبلغة أنيقة واضحة، تجعل من القراءة مُتعةً. يستحق الكتاب أن يحتل مكانة مرموقة في الأدب السياسي المعاصر.

المتحدث الأول في الحوار هو ميكافيللي، يبدأ حديثه بقوله: "قيل لي إن في هذه الرحبة المقفرة سألتقي بالرجل العظيم مونتسكيو"، فيجيب مونتسيكيو: "اللقب "عظيم" لا يليق هنا بأحد، يا ميكافيللي، لكن أنا هو الرجل الذي تبحث عنه". وبالرغم من أن الكتاب لا يحتوي على غير الحوار، فإن بإمكان القارئ أن يتهيّأ بسهولة اللقاء الغريب الذي يجري، في ساحةٍ مُهملة تسكنها الأرواح في جهنّم، بين اثنين لا يُعرف إن كانا رجلين أم هما روحان، بين المؤلفين الشهيرين لكتابي "الأمير" و "روح القانون"، اللذين يعتبران تراثًا خالدًا من الأدب السياسي الكلاسيكي.

على امتداد 25 حوارًا يعرض الإثنان أراءهما، لكن جولي يمنح حق الكلام بالأساس لميكافيللي، الذي تملأ أفكاره معظم صفحات الكتاب ذي الـــ324 صفحة، بينما يتضاءل صوت مونتسكيو ويكاد يتلاشى، فتقتصر أقواله على الأسئلة والملاحظات القصيرة، وتصعيد صرخة استغراب أحيانًا. مع ذلك، فإن الكلمة الأخيرة لمونتسكيو، إذ يصيحُ بألم شديد "يا إلهي، انظر ماذا أبَحْتَ"!

لكن المأساة تكمن في أن كتاب جولي لم يشكل كتابًا مقدَّسًا للاسامية فحسب، بل تعدى ذلك ليغدو دليلاً مُرشِدًا للطُغاة. أراد جولي أن يُثبِتَ خطورة الحكم المطلق؛ أراد أن يُظهر مدى

هشاشة الديمقراطية، وكم يسهل على الدكتاتور استغلال ضعفها. يحتاج فقط إلى أزمة اقتصادية، وكبش فداء متوفر، تُلقى عليه المسؤولية أمام الناس، وفاشي يتنكَّر بزيِّ المخلِّص! خلاصة القول إنه أراد إيجاد سلاح لمقاومة الحكم الشرير، لكنه عمليًا أعدَّ وصفة للطُغاة، مكّنتهم فيما بعد من ارتكاب الجرائم البشعة بحق البشرية. وبالتالي أصبح ميكافيللي بطل القصة، وليس مونتسكيو. كان صوته هو الأعلى، ورسالته أكثر إقناعًا، ألهبت حماس ملايين الناس. تجاهل جمهور القراء الذي أُعدَّ لهُ الكتاب رسالته ورموزه، لكن رسل الشر استوعبوه تمامًا. استخدمه المزيفون لإعداد البروتوكولات، واستغلّ هتلر وصفةَ جولي المفصَّلة من أجل ترسيخ برنامجه للسيطرة على العالم، ولتخطيط وتبرير أكبر وأشرس عملية إبادة عرفها تاريخ البشرية.

أوضح الدكتور ڤـــينر لرفاقه أنَّ أحدًا لم يعرف أبدًا كيف وصل كتاب موريس جولي إلى أيدي المزيفين، ومن الذي "طبخ" فكرة دمج الأفكار التي وردت فيه بالوصف الدراماتيكي للقاء في المدافن اليهودية في براغ، المأخوذ عن كتاب هرمن غوطشة. حقًا إنها لفكرة عبقرية، قال وأومأ برأسه، وأردف: غير أنه يُستبعد أن يكون العملاء الروس قد فعلوا ذلك دون مساعدة فعّالة من زملائهم الفرنسيين.

بعد اطّلاعه على المواد التي وصلت من فرنسا، اقتنع جورج بأنه لا يجب نسب البروتوكولات إلى العملاء الفرنسيين وحدهم. قد يعتبرهم القاضي تَركَةً لنظام زال من العالم، لا جذور لها في أوروبا، رغم أن اللاساميين قد اعتمدوها واستغلوها لخدمة أهدافهم. يجب إقناع القاضي أنه بالرغم من أن التزوير قد تم عمليًا على يد عملاء النظام القديم في روسيا، فإن البدعة عن وجود "المؤامرة اليهودية" قد وُلدت في أدمغة المثقفين اللاساميين في الغرب. إن فكرة كَون الدين اليهودي يأمر مؤمنيه بالكيد للنصرانية ليست جديدة، لكن عليهم إقناع القاضي بأن هذه الفكرة

اللاسامية القديمة قد طُوِّرَت في الغرب لتصبح بمثابة بلاغ سياسي يهدّد النسيج الاجتماعي القائم في البلاد الأوروبية.

إن ڤـــينر على حق. يجب أن نُوضح للقاضي أن هذا البلاغ قد تحوّل، بتأثير الحركات النازيَّة الصاعدة والمتنامية، إلى قنبلة موقوتة، هي عبارة عن مزيج من لاسامية فكرية، صُقِلَت في صالونات عاصمة فرنسا، وكراهية عنيفة لليهود نشأت في أقبية الشرطة السرية الروسية.

العلاقة الفرنسية

كلما ازدادت معرفة جورج بمعاداة السامية في فرنسا كان يتساءل: لماذا، عن دون سائر العواصم، كانت العاصمة الفرنسية أرضًا خصبة لإنتاج **بروتوكولات حُكماء صهيون** في أواسط التسعينيات من القرن التاسع عشر؟ في حديثة الذي امتدَّ لساعات متأخرة من الليل مع الدكتور ڤـــينر، تبيّن له عاملان: كان العامل الأول التزايد السريع للجالية اليهودية – اختار اللاجئون الهاربون من المذابح في أنحاء روسيا، اللجوء إلى باريس، حيث كان اليهود قد مُنِحوا الحرية التامة منذ عام 1791، فبات الوجود اليهودي في مختلف المدن الفرنسية ملموسًا بتزايد.

من جهة أخرى، حدثت في تلك الفترة تغيُّرات اقتصادية وسياسية في المجتمع الفرنسي. التصنيع المتزايد والتطور التكنولوجي أضعفا الكثيرين من الفلاحين وأصحاب الأعمال الصغيرة، مما هدَّد النظام الاجتماعي القديم. توجّس الناس من الدعوة إلى المساواة والبرلمانية. كما أن العلمانية هدَّدت بتقويض أسس الكنيسة. رأى الناس في الليبرالية والديمقراطية خطرًا على أساليب الحياة التقليدية، وعلى الديانة المسيحية والرموز الأخلاقية التقليدية. هذه المخاوف والشكوك التي اكتنفت أوساطًا واسعة، أثارت وعزَّزَت معتقدات وآراء مسبقة هامدة، وبدأ الناس يبحثون عن كبش فداء. اليهود الذين اعتُبِروا تقليديًا أعداء النصرانية، أيّدوا بمعظمهم التغييرات المستجدة، فأصبحوا بطبيعة الحال كبش

الفداء الأقرب منالاً. عِوَضًا عن اللاسامية الدينية التقليدية، ازدهرت التعاليم اللاسامية السياسية، فوجدت أسئلة كثيرة الجواب لها في أن هناك مؤامرة يهودية، تطوق العالم، وتفسر كل الشرور والويلات.

كانت البنوك "العدو رقم 1"، وقد وُصِفَ اليهود بأنهم يملكون مفتاح الخزينة. وعندما انهار البنك الكاثوليكي "أونيون جنرال" فقدَتْ عائلات كثيرة من الطبقة الوسطى أموالها، فلم يكن من الصعب توجيه الغضب نحو العَلَقَةِ اليهودية. انظروا، كتبت الصحف، كيف تزدهر البنوك اليهودية بينما يخسر المدّخرون الكاثوليك أموالهم وينتظرهم البؤس. كانت أبرز الصحف ضجيجًا صحيفة La Libre Parole (الكلام الحر) التي بدأت الصدور في السنة ذاتها. تحوّل صاحب هذه الصحيفة، إدوارد درومونت Edouard Drumont، وهو أيضًا محررها، إلى أبرز المحرضين في الهجمة اللاسامية التي حصلت في فرنسا في العشرين سنة الأخيرة من القرن. شاع بين الناس أن اليهود يخططون للسيطرة على العالم، مستغلين إمكانياتهم المادية لاكتساب القوة السياسية، وتساءلوا فيما بينهم كيف يتمكّن هؤلاء اليهود، الذين لا أرض لهم ولا وطن، القلة المطاردة في معظم الدول، ويحققون نجاحًا باهرًا في المهن الحرة وعالم المال؟ وقد وجدوا الجواب والتفسير المقنع في خرافة المؤامرة اليهودية العالمية. هناك من يهتم بنجاح اليهود ودعمهم وزرعهم في كل مكان، قالوا في نفوسهم.

ليس هناك ما يثبت ادعاء هنري رولان بأنه كان لإدوارد درومونت دور في كتابة **بروتوكولات حُكماء صهيون**، قال ڤـينر لجورج، لكن لا شك أنه كان بين أولئك الذين روّجوا لنظرية المؤامرة اليهودية. وأضاف بعد لأيٍ: "لا تنسَ أن درومونت قد لعب دورًا رئيسيًا في التلفيقة على ألفرد درايفوس".

لم يكن توقيت تزوير البروتوكولات من قبيل الصدفة، قال ڤـينر، فقد كانت هناك صلة متينة وحقيقية بين حدَثين بارزين في معاداة السامية، وقعا في نفس المكان والزمان: التلفيقة التي أدت إلى قضية درايفوس، وتأليف **بروتوكولات حُكماء صهيون.** فِريتان استندتا إلى تزوير. في 1 نوفمبر 1894 قام رائد فرنسي يُدعى أنري، في بيته، بتزوير مستندين أوقعَ عن طريقهما بألفرد درايفوس، الضابط اليهودي الوحيد في القيادة العامة للجيش، بتهمة التجسس وخيانة الوطن. أحد هذين المستندين، المسمّى "بوردو"، والذي بدا وكأنه كُتب بخط درايفوس، أُدخِلَ ضمن ملف تم تسليمه إلى القضاة أثناء المحاكمة، وشكّل الأساس لإدانته رغم كونه بريئًا. وبعد أن قضى درايفوس سنوات عديدة من العزلة والعذاب، تحت ظروف لا إنسانية، في جزيرة الأشباح، اتضح بشكل قاطع أن الخائن الحقيقي هو ضابط اسمه استرهاوزي، كان يبيع أسرار الدولة للسفارة الألمانية في باريس. هذا الرجل، استرهاوزي بذاته، كان مستشارًا سريًا لإدوارد درومونت، محرر صحيفة "الكلام الحر".

كانت الأجواء مُهيئَة حتى قبل بروز درومونت؛ ففي عام 1847 أصدر توسينيل (Toussenel) كتابًا بعنوان "اليهود ملوك العصر" (Le Juifs, rois de l'epoque)، تحدّث فيه عن سيطرة اليهود على اقتصاد فرنسا. وفي عام 1869 أصدر غوجينو دي موسو كتابًا عنوانه "اليهود وتهويد الشعوب المسيحية" (Le Juifs et la Judaisation des peuples Chretien)، ادعى فيه أن اليهود يقومون بتهويد المسيحيين ممن لا يقوون على التسلط عليهم. لكن هذَين الكتابين ومَا شاكلهما حظيا بعدد محدد من القرّاء، إلى أن نجح إدوارد درومونت بوضع نظرية الكراهية لليهود في مركز الخريطة الثقافية والسياسية لفرنسا. فإن كتابه "فرنسا اليهودية" (La France Juive) الصادر في 14 أبريل 1886، أصبح ما بين ليلة وضحاها، من أكثر الكتب مباعًا، ودخل كل البيوت الراقية في فرنسا. بيعت منه حال صدوره مائة ألف نسخة، ونظرًا لاستمرار

الطلب تكرّرَت طباعته 200 مرة. صاغَ درومونت العبارة "كل شيء من اليهودي يأتي، وإلى اليهودي يعود". وصفَ اليهودي بأنه القبح مُجسَّدًا، أعوج الأنف، منتصب الأذنين، مربّع الأظافر، مُسَطَّح القدمين، تبرز كفتا قدميه نحو الخارج، رخو اليدين ضعيفهما، إحداهما أطول من الأخرى. تنبعث من اليهودي رائحة كريهة، وعلى جبينه وصمة عار. إنه يصرخ عوَض أن يتكلم، ينبحُ، يخدش بأظافره. كما وصف اليهودي بأنه بخيل، يقرض بالربا، منافق، متزلّف، متهرِّب.

في مايو 1892 شنّت صحيفة درومونت هجمة شديدة مطالبة بتطهير الجيش الفرنسي من الضباط اليهود الخونة. كانت صحيفة الكلام الحر La Libre Parole أهم الوسائل التحريضية في خدمة الحركة الشعبية لإدانة درايفوس. لا بدّ أن يكون قد حضر شخصيًا الاحتفال الجماهيري لإذلال درايفوس في 5 يناير 1895 في ساحة الكلية العسكرية في باريس، حيث تم انتزاع أوسمة درايفوس وكسر سيفه إلى قسمين، قال ڤــينر، وطبعًا شارك بالقهقهات التي انفجرت بها الحناجر حين صرخ درايفوس: "أيها الجنود، إنهم ينتزعون أوسمة رجل بريء من كل ذنب، تحيا فرنسا، يحيا جيش فرنسا". ولا بد أنه شارك في صيحات الجمهور "الموت لليهود"، ومن المؤكد أنه قرأ بمتعة أقوال موريس بارس Maurice Barres في كتابه "موكب يهودا" La Parade de Judas الذي كتب فيه: "كان ذلك أشد إثارة من الجليوتينا"[3].

حين تمت إدانة درايفوس في 22 ديسمبر 1894، وحُكم بالسجن المؤبّد في جزيرة الأشباح، شرح درومونت لقرّائه أن الخائن قد عمل بدافع جَشَعِ عِرقِهِ على تدمير فرنسا.

تظهر بصمات درومونت في كل نشاط معادٍ للسامية في فرنسا في تلك الأيام، قال ڤــينر، وقد كانت له علاقات ممتازة بممثلي

[3] - الجليوتينا: المقصلة.

السلطات الروسية الذين التقى بهم في صالون جولييت آدم Julliette Adam.

جولييت هي كاتبة وصحافية بقدراتها الذاتية. كانت شخصية بارزة في المحافل السياسية، ناشطة في الحياة الاجتماعية في باريس. كانت لها صحيفة خاصة بها، اسمها La Nouvelle Revue، استضافت على صفحاتها مشاهير الصحافيين، ولم تكن صحيفتها أقل عداء للسامية عن صحيفة درومونت. تمتعت جولييت بثقافة عالية واطلاع واسع، وكانت لها مصادرها الممتازة. اشتهرت بشكل خاص كخبيرة بالشؤون الروسية، وقد استقبلت في صالونها مشاهير الروس الذين زاروا باريس، ومن ضمنهم وكلاء الشرطة السرية ممَّن كانت لهم علاقات بزوجها إدموند آدم، قائد شرطة باريس. من المحتمل أن يكون رتشكوفسكي قد التقى هنا بشركائه الفرنسيين، قال ڤــينر لجورج مقتبسًا عن هنري رولان. وأردف قائلاً: "لن أستغرب إذا تبيَّن لي أنه سمع عن كتاب موريس جولي وعرفه لأول مرة هناك".

كانت جولييت ورفاقها من المعارضين الأشداء للتحالف الفرنسي- الروسي الذي بادر إليه وزير المالية ويت، وللقروض التي حصل عليها من فرنسا لتمويل ما يطمح إليه من الإصلاحات الاقتصادية. لكن العلاقات بين البلدين مضت وتوثَّقت. في عام 1896 قام القيصر نيقولاي الثاني وزوجته بزيارة رسمية لفرنسا، فاستُقبلا بحفاوة بالغة. غصّت شوارع باريس بملايين الفرنسيين الذين قدموا من كل المقاطعات لتحيتهما. ارتفعت أسعار الأسهم والسندات الروسية، وعمَّت الفرحة كل فرنسا.

لكن في هذا الوقت كان قد اشتدَّ ساعد الاشتراكيين وانفجرت الإضرابات في أنحاء الدولة. جولييت ورفاقها استخدموا علاقاتهم الواسعة، والصحف التي يملكونها، لتحذير الجماهير الفرنسية من أن ويت، المتزوج من يهودية على حدَّ قولهم، أسير البنوك

اليهودية التي تنهب الشعب، مُصوّرين آل روتشيلد كعنوان الشر والعدو اللدود.

بعد أن قرأ ما قرأ عن جولييت آدم، أعرب جورج عن دهشته لكثرة عدد النساء اللواتي كانت لهن علاقة، مباشرة أو غير مباشرة، بحكاية البروتوكولات. في سويسرا سيطر الرجال فقط على السياسة والصحافة. لم يستطع ذكر اسم سيدة واحدة لعبت دورًا في الحياة العامة، اللهم إلاّ في مجال الأعمال الخيرية. لقد قرأ عن الصالونات الشهيرة في القرن التاسع عشر، حيث كانت نساء المجتمع يستضفنَ الشخصيات البارزة من مختلف الأوساط في أجواء أدبية راقية. ورغم أن هذه الصالونات لم تفوّت مواضيع النميمة والقلقلة، لكنها شكّلت منتديات لنقاشات ساخنة حول شؤون الساعة، ولقاءات تم فيها تحويل المعلومات خِفيةً، وعُقدت فيها الصفقات. كان إعداد قائمة الضيوف يتطلب مهارة دبلوماسية، وقد جعلَت بعض صاحبات هذه الصالونات من الأمر فنًّا. لم يكن قد درج تنصيب النساء في مراتب المسؤولية في العالم السياسي والدبلوماسي، لكن كان بينهن من حوّلنَ هذه الصالونات إلى مراكز قوة، كهيئة معترف بها، نالت احترام الشخصيات المرموقة ممن اعتُبروا من دعامات المجتمع. إن دعوةً لصالون كهذا كانت بمثابة شهادة استحقاق ورمز للمكانة الاجتماعية.
لشد ما كانت دهشة جورج إذ اكتشف أن بين رواد صالون جولييت آدم أشخاص قابلته أسماؤهم في تحقيقه بشأن البروتوكولات، ومنهم إيلي دي سيون Eli de Cyon، ولسلي فراي وإيلونا غلينكا.

المحامي اليهودي شلوسبرغ، المزمع أن يدلي بشهادته في المحكمة، روَى لجورج أن وزير المالية ويت قد اشتبه بإيلي دي سيّون كشريك في تزييف البروتوكولات. لم يكن اشتباهه بغير أساس، ألمح ليفشيتس وأشار إلى مقاطع من مقالات دي سيّون

التي لاقت شعبية، والتي اتهم فيها اليهود بالتآمر مع البناة الأحرار للسيطرة على العالم.

كان دي سيّون من أصل يهودي، بروفسور في علم النفس. بعد أن استقرَّ في فرنسا، اعتزل مهنته العلمية ليهتم بالشؤون السياسية. تحوَّل إلى صحافي وكاتب، واعتبارًا من 1887 اشترك مع جولييت آدم في إدارة شؤون صحيفتها. لكنه قبل ذلك، في 17 ديسمبر 1886، كان قد غيَّر دينه واعتنق النصرانية. في مستهل الخمسينيات كان دي سيّون ممثلاً لوزير المالية الروسي، فيشنغردسكي، في باريس. وكانت له علاقات وثيقة بكل المسؤولين في السفارة الروسية، الذين فاوضوا فرنسا بشأن تحالف الدولتين، لكن سرعان ما ذاع صيته كمثير للفِتَن، متورط في دسائس كثيرة، يجدر الحذر منه. اعتاد أن يتهم معارضيه الروس بأنهم يهود أو أعوان لليهود.

عندما اكتشف فيشنغردسكي أن دي سيّون تلقّى عمولة بقيمة 200,000 فرانك من سنديكات فرنسي كان يفاوضه، أجبره على الاستقالة. ولمّا أصبح ويت وزيرًا للمالية، ورفض إعادة دي سيّون إلى وظيفته، بل ومنعه من دخول روسيا، ناصبه دي سيّون العداء وخصّصَ الكثير من مقالاته للتشويش عليه وتقويض إصلاحاته المالية. كان عدوًّا خطيرًا، ذكيًّا وقديرًا، وقد أدرك ويت أنه يجب ألاّ يستهتر بما يفتري عليه دي سيّون من خيانة لصالح ألمانيا. حين أعلن دي سيّون في نهاية 1897 أن بيده وثائق تثبت خيانة ويت، اقتحم عملاء رتشكوفسكي فيلا دي سيّون في سويسرا، وأجرَوا فيها تفتيشًا دقيقًا. كان ويت على خبرة تامة بالممارسات التي اعتادوها في تلك الأيام، مستخدمين الوثائق الزائفة، فلم يكن على استعداد للمخاطرة.

يجب عدم الاستخفاف بجولييت آدم وإدوارد درومونت، قال ليفشيتس، فهما لم يكونا من الدسّاسين الصغار، بل كان كلاهما من الشخصيات المعروفة في المحافل السياسية في باريس، وقد

عُرِفَتْ عنهما خبرتهما بالشؤون الروسية. كان لمقالات إيلي دي سيّون عظيم الأثر في محافل أصحاب الفكر في باريس، وكثيرًا ما اقتبس إدوارد درومونت وجولييت آدم في صحيفتهما من تحذيراته بأن من شأن التحالف بين فرنسا وروسيا، في نهاية الأمر، أن يؤدي إلى سيطرة اليهود على العالم. هذه الأقوال التي استهدفت آذان الفرنسيين، قد طاب سماعُها، بنفس القدر، لآذان أوساط معينة في روسيا. حلم إيلي دي سيّون باليوم الذي يتمكن فيه من الحط من قدر البنوك اليهودية في فرنسا ومن نسف مخططات ويت لعصرنة الاقتصاد الروسي.

زائرة دائمة أخرى في صالون جولييت آدم كانت صديقتها المقربة، إيلونا غلينكا. أسوة بغيرها ممن وردت أسماؤهن في القصة، كانت هي أيضًا ممن خدمنَ في قصر سانت بطرسبورغ كمرافقة للامبراطورة ماريا ألكسندروفنا. كانت تؤمن بالغيبيات والخرافات والقوى خارقة الطبيعة، لكن الفترة التي قضتها في فرنسا كانت أهم فترات عمرها. أتقنَت الفرنسية جيدًا، وانتمت إلى صفوة المجتمع الراقي في باريس، حيث تكنّت بالاسم الفرنسي "جوستين"، وكان عرّابها الجنرال أورجفسكي، المساعد الأول لوزير الداخلية، وهو أحد كبار الضباط السابقين في الشرطة السرية الروسية. اضطرّت إيلونا إلى مغادرة فرنسا بعد اتهامها بالعمالة لروسيا، فعادت إلى سانت بطرسبورغ، حيث أثّثت بيتها بالتحف النفيسة التي أحضرتها من باريس. لكن علاقتها الوثيقة بجولييت آدم أثارت عليها غضب القصر؛ فبعد مدة قصيرة، اشتبه القيصر بأنها كانت مصدر المعلومات التي اعتمدت عليها جولييت في كتابها "الأمير وسيلي"، والذي صورت فيه الحياة في القصر بصورة غير مشرِّفة، بل ومشينة؛ فاضطرّت إلى اعتزال حياة الترف في العاصمة واللجوء إلى عزبتها في مقاطعة الأورال.

كانت لجولييت آدم صديقة أخرى هي لسلي فراي، وهي التي كشفت عن علاقة غلينكا ببروتوكولات حُكماء صهيون؛ ففي

كتابها "تجري المياه نحو الشمال" وصفت فراي كيف كانت غلينكا عام 1884، تحت اسمها الفرنسي جوستين، عميلة في خدمة الجنرال أورجفسكي، وجمعت له ما أسمته "المعلومات السياسية". شغل الجنرال آنذاك منصب سكرتير وزير الداخلية تشربين. ذكرت لسلي فراي مخطوطة بالفرنسية، مرفقة بترجمة إلى الروسية، أرسلتها غلينكا إلى الجنرال أورجفسكي فسلّمها هذا ليد المسؤول عنه، الجنرال تشربين، من أجل تحويلها إلى القيصر. كشفَت فراي أن تشربين رفض تحويل الوثيقة، واكتفى بحفظها داخل ملف في الأرشيف.

ها هي ذي شهادة من مصدر آخر بصحة رواية الأميرة ردزيفيل عن وجود نص قديم للبروتوكولات، قال جورج بدهشة. إنها لسلي ذاتها التي عزَتْ تأليف البروتوكولات إلى أحاد هعام. وقف جورج في الكتاب على تفاصيل يبدو الكذب فيها ظاهرًا للعيان، لكنَّ في الكتاب ما يسترعي الاهتمام، فعزم على قراءته حتى نهايته. كشفت فراي عن أن غلينكا كانت المرأة الخفيّة التي أعطت مخطوطة البروتوكولات لجارها الضابط السابق ألكسي سوخوطين، مدَّعية، حسب أقوال فراي، أنها وجدت المخطوطة في بيت صديق يهودي في باريس، لم تذكر اسمه، وحملتها معها بمنتهى السرية حين عادت إلى روسيا.

تذكَر جورج أن سوخوطين سلّم المخطوطة لستيبانوف الذي قام بنسخها بواسطة الهكتوغراف، ثم أحضرها إلى بيت الأمير سرجي والأميرة إليزابيث في موسكو عام 1897. وقد عثر جورج على تصديق لهذه الأقوال في مستند بخط اليد تم تصويره وتضمينه في كتاب لسلي فراي. كان ذلك تصريحًا مشفوعًا بالقسم أدلى به فيليب ستيبانوف عام 1927، يصرّح فيه أنه استلم مخطوطة البروتوكولات من يد سوخوطين عام 1895، أي قبل أن باعها للأمير سرجي ألكسندروفيتش بعامين، وبعد أن قام بطباعتها شخصيًا. عندما وقع نظره على التاريخ، لم يصدق جورج ما ترى عيناه؛ إذ أن ناشري البروتوكولات يدّعون أنها

كُتِبَت أثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني في بازل عام 1897، بينما هنا إثبات قاطع على أن المخطوطة قد أُحضِرَت إلى روسيا قبل المؤتمر بسنتين! أعاد جورج قراءة تصريح ستيبانوف مرارًا، ثم طلب من سكرتيرته أن تطبع نسخات عنه.

في صباح اليوم التالي وجد أعضاء الكادر في صناديق بريدهم مستندًا هذا نصه:

في 1895 أعطاني جاري في مقاطعة تولا، الملازم أول السابق ألكسي نيقوليفيتش سوخوطين، نسخة بخط اليد عن "**بروتوكولات حكماء صهيون**". قال لي إن إحدى معارفه (وقد رفض ذكر اسمها) والتي تسكن في باريس، قد وجدتها في بيت صديق لها (يبدو أنه من أصل يهودي)، وإنها قبل مغادرتها باريس قد ترجمتها في الخفاء، بغير علمه، وأحضرتها إليه، إلى سوخوطين.

كررتُ بادئ الأمر 100 نسخة عن البروتوكولات، لكن كان من الصعب قراءتها، فقررتُ أن أجد وسيلة لطباعتها، دون ذكر التاريخ والمدينة والمطبعة؛ استعنتُ في العمل بأركادي إيبوليطوفيتش كلبكوفيتش، الذي شغل آنذاك منصب مساعد الأمير سرجي ألكسندروفيتش، فقام بطبع الوثائق في المطبعة اللوائية؛ كان ذلك في عام 1897. لقد طبع سرجي نيلوس البروتوكولات كاملة في كتابه، بإضافة شرح منه.

التوقيع:

فيليب بطروفيتش ستيبانوف، المدوِّن في مكتب مَجْمَع السينود في موسكو سابقًا،

عضو مجلس، وإبّان الطبع – مدير خدمات القطارات في خط موسكو–كورسك (لواء الأورال).

تمت المصادقة على التوقيع في 27 أبريل 1927، على يد رئيس مجلس إدارة جماعة اللاجئين الروس في "ستاري فوتوغ"، الأمير فلاديمير غاليتسين.

بات الجميع الآن على قناعة من أن إيلونا غلينكا كانت حلقة الوصل ما بين مزوِّري البروتوكولات، ومستشاريهم الفرنسيين، وناشري البروتوكولات في روسيا. حلقة أخرى في سلسلة البينات الثبوتية، قال البروفسور ماطي برضاء تام.

لم يُخفِ جورج شديد استغرابه من أن بحثه حول كتاب وضَعهُ المزيفون اللاساميون، لغاية إحراج اليهود وتحريض الجماهير عليهم، يقوده إلى أغوار الدوامة السياسية لتلك الفترة الزمنية. تأكد له الآن أن إحدى الظواهر البارزة في تاريخ اللاسامية كان الاستخدام الساخر للكراهية التقليدية نحو اليهود، من أجل تحقيق أهداف سياسية. بدأت تتجلي له تدريجيًا الاستفزازات المنهجية التي استعانوا بها لتوجيه الملامة إلى اليهود في مختلف المشاكل التي أقلقت الناس.
النظرة إلى اليهود كضحية متوفرة، تطورت مع السنين، وتحوّلت إلى سلاح فعّال في ترسانة رجال السياسة، استعملوه حسب أهوائهم، باعتباره عُملة قابلة للصرف في الأسواق العالمية.
ألقى ليفشيتس فوق طاولته بكتاب أنهى قراءته، لمؤلفه القس الأمريكي إلياس نويمان، صدر مؤخرًا في مينابوليس، يصرح فيه المؤلف بشكل لا لبس فيه بأن البروتوكولات محض تزوير بشع. أشار ليفشيتس بشكل خاص إلى فقرة من الكتاب يجدر اقتباسها، حسب رأيه، في خلاصة القضية في المحكمة:

> إن اليهود نافعون كالحربِ تمامًا، لكنهم أرخص بكثير لتحويل انتباه الناس عن الفضائح المالية الناجمة عن تلاعب الزعماء وفسادهم في عالم المال. هل السوق السوداء هي ما يقلق الناس؟ إنها تُدار بأيدٍ يهودية. هل هو الخطر البلشفيكي؟ إنهم البلشفيكيون الحقيقيون. هل هي اليد الخفية؟ إنها مُحلاّة بخواتمهم الثقيلة. هل هو النقص في بيوت السكن؟ لقد تسلط اليهود على العقارات. هل هي قطعة من لحم خنزير؟ لقد أكلها اليهود. هل هي عواقب المطامع الإمبريالية الوخيمة؟ في عروق

> القيصر يجري دم يهودي. هل تعاني الدولة من تشدّد الكنيسة؟ البابا من نسل القديس بطرس، وقد كان هذا يهوديًا كما هو معروف. لو لم يكن في العالم يهود، لكان من الضروري أن نختلقهم لخدمة بعض السياسيين والمتديّنين المراهنين، إن كانوا مِن أوساط مَن يدّعون الحداثة أو كانوا من الأصوليين. لا يمكن العيش بدونهم، فهم مصدر الشر.

بقدر ما كان يقترب ميعاد المحكمة بقدر ما ازدادت حاجة جورج للتحدث إلى ليفشيتس. يا للغرابة، قال ليفشيتس ذات حديث، وهو يقيس الغرفة بخطوات وسط غيم دخان السجائر، إنه من الأسهل إثبات براءة إنسان تمّت إدانته من أن نثبت زيفَ كتاب! لقد أُطلِقَ سراح درايفوس بعد أن ثبت زيف بعض المستندات التي تم إبرازها للمحكمة، رغم مرور بضع سنوات حتى أمكن تطهير اسمه. لا يمكن لإنسان عاقل اليوم أن يدّعي بأن درايفوس كان خائنًا، ولو كان بإمكان فرنسا أن تمحو تلك الفترة الزمنية من تاريخها، لفعلت بكل سرور.
ليس الحال كذلك في قضية **بروتوكولات حُكماء صهيون**، قال بانفعال، رغم أنه بإمكان كتاب أن يكون أشدَّ خطرًا من الإنسان. حتى هتلر سيموت يومًا ما، وأمّا الكتاب فقد يحيى إلى الأبد.

لقد صدَقَ قولاً، قلت في نفسي. حسب المُسلّمات بيننا، يُسمحُ بفرض عقوبة السجن المؤبد، وحتى الإعدام، على من ارتكب جرائم معينة، وعلى من يهدد أمن الناس. يُسمَحُ أيضًا بقصف المدن والتسبب بموت الأبرياء، في نطاق الدفاع عن النفس المعترف به في القانون الدولي. لكن الويل لنا لو منعنا نشر تزييف أدّى في الماضي، وما زال يؤدي، إلى قتل الأبرياء. ستقوم في الحال ضجة احتجاجًا على المساس بحرية التعبير وتبادل الآراء الحرة في ساحة السوق. يُباحُ تقييد حرية الإنسان، وحتى حرمانه من الحياة، لكن حسب رأي الكثيرين، يجب ألاّ

نمنع نشر الأكاذيب الخطرة المستندة إلى زيف ثابت. إن ذلك يحدث حتى بعد الكارثة. فكيف يتم الدفاع عن النفس في مواجهة كتاب؟

قبل غبلاس بزمن، اكتشف المعادون للسامية أن الكذبة المطبوعة سلاح فعّال. فللكذبة على صورة وثيقة أو كتاب عُمرٌ طويل. لها وجُودها. تُباعُ للناس البسطاء في دكاكين الكتب، وتتواجد على الرفوف في المكاتب المحترمة، يُقتبس عَنها، وبذلك تكتسب الشرعية. يُصبح بقاؤها مضمونًا، لا يعود بالإمكان تجاهلها. إن كل ما تحتاجه وثيقة زائفة لتحظى بالخلود، هو بطاقة دخول إلى هيئةٍ أو كيانٍ شرعي مُتستِّرَةً بالزيّ المُقنِع. فحتى لو انتقدوها، أو هاجموها، أو شهَّروا بها – فإن ذلك لا يحرمها حقَّها في البقاء. ستجد دائمًا من يؤمن بالكذب ويستغله لأهدافه الخاصة، حتى وإن كان مُدركًا لما فيه من بهتان، أو في أحسن الأحوال، غير مبالٍ به. فمثلاً، قال ليفشيتس، إن وجود كتاب نيلوس في المتحف البريطاني يشكّل في رأي الكثيرين إثباتًا لصحة البروتوكولات.

لقد فشلت الحجج العلمية في القضاء على التزييف. فحين ينجح الكذوب في أن يجد لنفسه منبرًا، وحين يشركونه في نقاشٍ مشروع، فهو بذلك يحقق غايته، إذ أنه بحاجة إلى اعتراف لا إلى تصديق. بذلك يكون على جمهور القراء أن يحكموا على الكذب. فإذا أصاب الكاذب أفكارًا مسبقة قائمة، وإذا استطاع إضفاء الشرعية على الحقد التاريخي، وإذا أعطى تفسيرًا للمشاكل المؤلمة الملحة، وكان ذا معنويات عالية بالقدر الكافي، كان نجاحه مضمونًا. ليس بأيدي الناس أدوات لفحص الكذب؛ يكاد يستحيل إثبات زور وثيقة مطبوعة، فتلك في الغالب عملية يائسة.

رسوم كاركاتير وأغلفة لكتب حول بروتوكولات حكماء صهيون

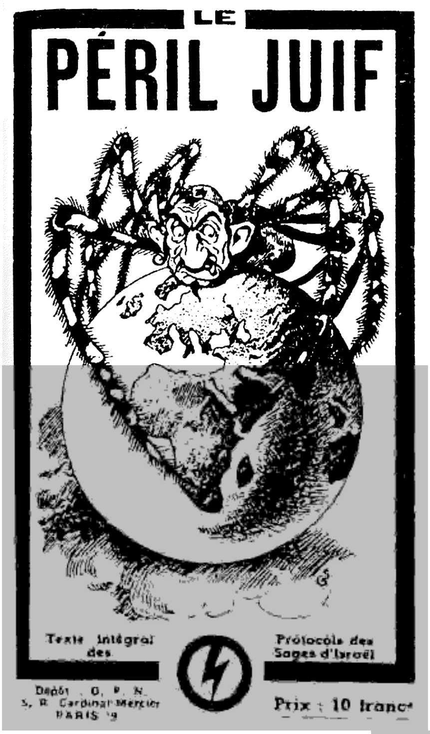

صورة غلاف لإصدار فرنسي من عام 1934 وزعته في لندن مكتبة إسلامية.

صورة غلاف لإصدار في إسبانيا عام 1963

عن جريدة صدرت في فيينا عام 1901

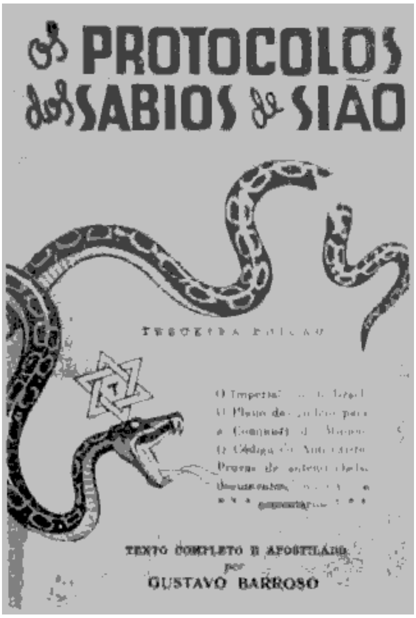

غلاف النسخة البرازيلية عام 1937

صورة غلاف لنشرة سويدية
عام 1924

صورة غلاف لنشرة فرنسية
عام 1934

عن صحيفة روسية
عام 1907
اليهودي الطامع في
السيطرة على العالم
بحسب البروتوكولات.

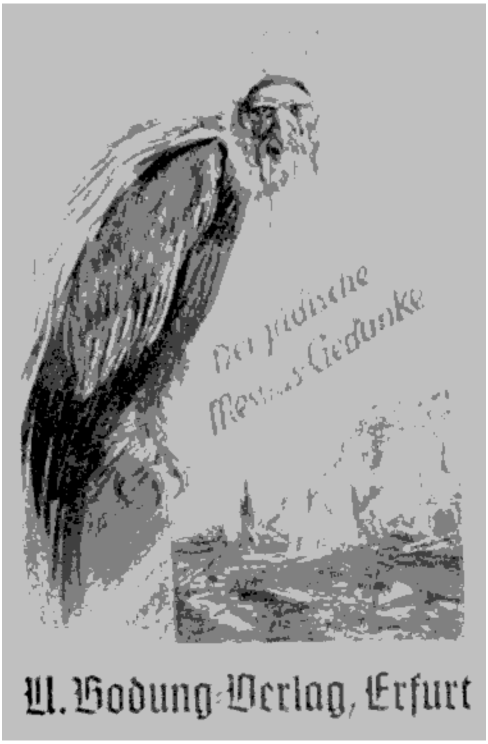

عن نشرة من إصدار
دار النشر النازية في
إرفورت عام 1925

الفصل التاسع

المزيِّفزن

كعادتهم في نهاية كل فصل من بحثهم ودراستهم، اجتمع أعضاء الكادر لجلسة طويلة امتدت لساعات متأخرة من الليل، ليبلغ كل بما عنده، ومن أجل الإعداد للمراحل الآتية. بَلَغهم من عدة مصادر أن المدّعى عليهم ما يزالون يبحثون عن خبير. أنّى لهم أن يجدوا خبيرًا عاقلاً يكون على استعداد للمخاطرة بسمعته المهنية، فيشهد بصحة البروتوكولات؟ قال ليفشيتس. إن كل الخبراء الذين اقتُرحت اسماؤهم قد رفضوا بأدب، وقد أظهر القاضي مزيدًا من الصبر، فاستجاب مرارًا لالتماساتهم بتمديد المدة. كان من أعضاء الكادر مَن تذمَّر مِن موقف القاضي وشعر بإحباط، لكن البروفسور ماطي كان راضيًا، فهم لو كسبوا القضية، يجب أن يكون الناس مقتنعين بأن القاضي قد أتاح للدفاع الفرصة لإثبات ادعاءاته، وإلاّ فسيدّعي النازيون أن القاضي أيضًا في جيب اليهود.
"هذا ما سيقولونه في كل الأحوال"، تمتَمَ الدكتور ڤـينر، "وسيجدون دائمًا من يصدقهم".

لكن سالي ماير أبدى توجُّسه، فقال: لم يحن الوقتُ بعد للفرح، فربما فاجأونا بخبير في آخر لحظة. ربما يجدون في اللحظة الأخيرة نازيًا يدّعي أنه خبير. وإذ استبعدَ جورج مثل هذا الاحتمال، وقال إنهم لن يجرؤوا على فعل ذلك في محكمة سويسرية، تصدّى له سالي بغضب، فكم مرّة عليه أن يذكّرهم بأن المدّعى عليهم لن يهتموا بالمرافعة في المحكمة بقصد إقناع القاضي بقدر ما سيهتمون بمخاطبة الجمهور.

عاد فاحتدّ بينهم الجدل الذي ميّز جلساتهم في الآونة الأخيرة. كان سالي ماير فاقد الصبر إزاء بحثهم الأكاديمي. إن ما تقومون به

ينفع كأطروحة للدكتوراة، تمتم بتذمر. يجب أن يكفّوا عن إضاعة الوقت الثمين في تجميع وتحليل الوقائع التاريخية، وفي مقابلة المزيد من الشهود. إن من يحكم على البروتوكولات في نهاية الأمر هو الجمهور وليس المحكمة. يجب استغلال الصحافة أكثر. يجب التخطيط للعلاقات العامة. قال إن المحكمة ستجري في قاعة صغيرة وبحضور عدد محدود من الناس، لكن المدَّعى عليهم سيتحدثون إلى الرأي العام العالمي، وسوف يستغلون قاعة المحكمة ليجعلوا منها منبرًا سهلا لأهدافهم، والمسرح الحقيقي سيكون خارج قاعة المحكمة. إنه يتوقع تظاهرات نازية في واجهة بناية المحكمة. تُرى، هل يستيقظ اليهود الكرام أيضًا فيتظاهروا؟ إنهم يرهَبون حتى الحضور إلى المحكمة. يحافظ اليهود على الوضاعة دائمًا، حتى وإن كانوا هم موضوع الحديث. إنهم لا يقابلون الحرب بالحرب، لذلك فمن السهل الافتراء عليهم. لا يكفي رفعُ القضية، لخّص سالي بحماس، نحن في هذه القضية لا نناقش التاريخ أو الحقيقة، بل نناقش موضوع الآراء المسبقة، والطرف الآخر لا يحترم قواعد الحرب.

لكن المحامين خالفوه الرأي. فلو أراد موكلوهم ألاّ تكون هناك محاكمة حقيقية، لتوجّب عليهم أن يرافعوا عن أنفسهم دون تمثيل. ثم إن من يحترم نفسه من المحامين لا يقبل الانحدار إلى درك دناءة مروّجي الدعاية النازية. ليس لأن ذلك لا يخدم المصلحة اليهودية فحسب، بل وأيضًا لأن من شأن ذلك أن يضر بسمعة المحامين أنفسهم، فكيف له أن يتوقع من رجل قانون، بقامة البروفسور ماطي، أن يلعب دورًا في مسرحية شعبية في المحكمة؟

قام ليفشيتس، كعادته، بتهدئة النفوس. قال إنهم يعالجون قضية في محكمة على نطاق محلي، وهذه فرصة نادرة، وربما لا تتكرّر، لإثبات الحقيقة عن البروتوكولات بحضور جمهور موضوعي. فبعد جيل واحد فقط لن يكون بالإمكان استدعاء هؤلاء الشهود المهمّين، لأنهم لن يكونوا على قيد الحياة. وأضاف: لا ضرورة

للاهتمام بموضوع العلاقات العامة، سيهتم النازيون بأن تكون الصحافة هناك، وبذلك يؤدون خدمة جُلّى لكل اليهود. وأردف غامزًا بعينه: فهم وإن كانوا غير مفوضين من قبَل الشعب اليهودي، إلاّ أنهم بأخذهم لهذه المهمة على عاتقهم، عليهم مراعاة التمثيل اللائق. هذا مشروع تاريخي، قال ليفشيتس، ولا يمكن لنا أن نتبنّى أساليب خصومنا الدنيئة. قال إنه تحدّثَ بذلك إلى لوسلي الذي يشاركه رأيه. عليهم أن يكونوا على استعداد لا يقل عن استعداد الخبير الذي ستعينه المحكمة، ولذلك يُكِبُّ لوسلي على دراسة أساسية. إنه يراسل طاغر، وكل من يعرفه يعرف أنه يفحص كل شاردة وواردة بشكل أساسي. بعد أن يكسبوا القضية سيكون عليهم تعميم الخبر في كل العالم كما يليق، أما الآن فإن عليهم إدارة القضية بالطرق التقليدية. الدراسة التي يقومون بها اليوم ستفيدهم في المستقبل أيضًا، وسيكون عليهم إيجاد الطريقة الأنسب لنشرها للعموم.

بعد أن اطمأن ليفشيتس إلى أنهم هدأوا، وكلٌّ يومئ برأسه إيجابًا، أوصى بمتابعه البحث ومقابلة الشهود. في القريب سيعيّنون جلسة من أجل التكتيك والاستراتيجية النهائية. إن ميعاد المحكمة يقترب، ويجب مراجعة كل الملفات مراجعة أخيرة، للتأكد من أنهم لم يسهَوا عن أي بند هام. قال جورج إنه سينتهي بأسرع وقت من إعداد الملفات الشخصية كما سبق فوعد، وأنه ينوي إغلاق الثغرات في سيرة حياة رتشكوفسكي والتركيز على العلاقة الفرنسية. هذا الشخص يثير فضوله، وقد بات على قناعة من أن رتشكوفسكي كان متورطًا بتزييف البروتوكولات في باريس في أواسط التسعينيات من القرن الماضي، وبنشرها في روسيا بعد عودته من منفاه. سوف يشهد بذلك سباتيكوف وبورتسيف، لكن لا شك أن الدفاع سيحاول دحض شهادتيهما. عليه أن يستعد جيدًا ليتمكَن من أن يصف للمحكمة شخصية هذا الرجل المعقدة، ودوافعه، وغاياته والأساليب التي استعملها. المعلومات التي وصلت من طاغر من شأنها أن تسهّل عليه المهمة.

كان من الصعب على جورج أن يقبل ببقاء بعض الجوانب المتعلقة بعملية التزييف لغزًا غامضًا، لكن البروفسور ماطي أوضح له أن هذا ما يحصل غالبًا. إن من تمرّس بمائة قضية يعلم أنه من الصعب اكتشاف الحقائق كلها، لذلك لا يُطلب من القضاة إسناد قراراتهم إلى اليقين المطلق، فلكل أسلوبٍ في القضاء معادلة ترشدُ إلى استخلاص النتائج. أوجد الإنجليز معادلة "ميزان الاحتمالات" في القضايا المدنية، ومعادلة "تجاوُز الشك المعقول" في القضايا الجنائية. وحسب الطريقة الفرنسية فإن على المحكمة أن تقرر بحسب "قناعتها الداخلية". إن الحقيقة الصرفة الكاملة لا تظهر أبدًا، قال ماطي، لكن يبدو له أن بين أيديهم الدلائل الكافية "لإدانة البروتوكولات" بناء على كل الطرق القضائية، وأضاف: لقد حُكم على بعض الناس بالموت بناء على بيّنات أقل شأنًا مما لدينا.

وافق البروفسور ماطي على أن رتشكوفسكي يشكّل مفتاح اللغز. لقد صدق جورج حين أصرَّ على جمع فتات المعلومات عن هذا الرجل. يجب ألاَّ ينسوا أنهم سيطلبون من القاضي إدانة إنسان لم يعد على قيد الحياة، وربما يتردد القاضي في ذلك، من حيث أن حق نقاوة السمعة محفوظ لكل إنسان حتى بعد موته، إنّهم بحاجة إلى كل حقيقة تدعم موقفهم، لكنّ الأهم من كل شيء هو ألاَّ يتركوا ثغرة يخترقها الدفاع ليفاجئهم بحقيقة غابت عنهم.

لم يعد جورج بحاجة إلى مزيد من الدعم. أكبَّ على الوثائق التي أرسلها طاغر، ولم يكن ليأبه لو أمضى ليلة أخرى بغير نوم مع ملف رتشكوفسكي، لكن اسمًا واحدًا في قائمته لم يحظَ باهتمامه بعد، اسمًا ذُكرَ مِرارًا في كل ما يتعلق بالبروتوكولات. أجل، قال في نفسه، إن الوقتَ يمرُّ سريعًا، لكن لا مجال لتجاهل ذلك الاسم. لدى عودته إلى البيت حمل معه ملف منسيفيتش مانويلوف. صمَّم أن يكرّس له ساعات المساء كلها. سيعود في الغد للتركيز على ملف رتشكوفسكي.

إيـــڤـــان منسيفيتش مانويلوف

في 21 مايو 1916، قام إيـــڤـــان منسيفيتش مانويلوف بزيارة مجاملة للسفير الفرنسي في سانت بطرسبورغ، موريس پـــليولوغ Maurice Peleolog. رغم احتقار السفير لهذا الشخص، ورغم قصر زمن الإشعار المسبق بالزيارة، فقد قبل السفير أن يستقبله، إذ كانت ثمة أسباب دعته إلى ذلك. قبل ذلك اليوم بثلاثة أشهر، وبالتحديد في الثالث من فبراير، سجّل پـــليولوغ في يومياته: "لقد اعتزل غورميكين، رئيس مجلس الوزراء، وأُقيل وزير الداخلية، وسيشغلُ شطرومر المنصبين معًا، وهو وقائد الشرطة كلاهما من أصدقاء راسبوتين، وقد عيّن شطرومر منسيفيتش مانويلوف رئيسًا لمكتبه، التعيين الذي اعتُبِرَ فضيحةً"!

كان معلومًا للجميع أن مانويلوف قد حظي بتلك الوظيفة المرموقة بفضل علاقته براسبوتين، الأمر الذي أثار حوله شبهات المجتمع الراقي؛ وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، فإن سوء سمعته كان كافيًا لاعتبار التعيين فضيحة.
لقد شاطر پـــليولوغ المجتمع الراقي رأيه في مانويلوف، وهذا ما تؤكده الكلمات التي سجّلها في يومياته بعد الزيارة: "مانويلوف الذي لا يُطاق، رئيس مكتب شطرومر، والمناسب جدًّا لمخططاته السافلة، أتى لزيارتي".

إن پـــليولوغ، وهو آخر سفير لفرنسا في روسيا القيصرية، اعتاد أن يدوّن في يومياته، ليس فقط الأحداث الدرامية للسنوات 1914–1917، وإنما أيضًا انطباعاته وملاحظاته عن شخصيات لعبت دورًا في السياسة الروسية وفي حياة المجتمع في مدينة بطرسبورغ. لقد فتحت شعبيته أمامه كل الأبواب في العاصمة الروسية، وكان ضيفًا مرغوبًا ليس فقط في المناسبات العامة، وإنما أيضًا في ولائم العشاء الخاصة وحفلات الشاي الصغيرة والحميمية. كما أنه كان مستودع أسرار شخصيات بارزة،

وصديقًا مقرّبًا من سيدات كثيرات اعتدنَ دعوته إلى صالوناتهن، وبثثنَه الأسرار. وقد اعتاد هو أن يدعو صفوة الشخصيات البارزة إلى ولائم العشاء التي أحياها في بيته على ضفة نهر النيبا. شاعَ صيتُ تلك الولائم ليس بسبب الأطباق الفرنسية الشهية فحسب، بل أيضًا بسبب قائمة المدعوين الذين كان ينتقيهم بدقة متناهية. اعتاد كبار رجال السلطة الحاكمة أن يقصدوه في استشارات سرية، واثقين من حسن مشورته. لم يكن يبوح بأسرارهم، غير أنه دأب على تدوينها في يومياته. ونظرًا لأنه كان عازمًا على نشر مذكراته، فقد اهتم بالوصف الدقيق، ليس فقط للأحداث الجارية، بل وأيضًا لتفاصيل عن مختلف الشخصيات، خشية أن تبرحَ ذاكرته مع الزمن.
كان منسيفيتش مانويلوف مصدرًا لا يخيب للمعلومات والنميمة، وعليه، فقد كان السفير يستقبله دون تردّد، برغم سالبية رأيه فيه.

مساء الحادي والعشرين من مايو 1916 سجّل پـليولوغ في يومياته:
التقيتُ بمنسيفيتش مانويلوف في باريس عام 1900، حين كان عميلاً للأوخرانكا تحت إمرة رتشكوفسكي قائد الشرطة السرية الروسية الشهير في باريس. إنه رجل غريب الأطوار. من أصل يهودي، سريع البديهة، يحمل رأسَ محتالٍ، يحب بحبوحة العيش والتحف الفنية والملذّات على أنواعها، لكنه بلا وازعٍ من ضمير. إنه عميلٌ استفزازي، جاسوس، دسّاسٌ، غشّاش، مزوّر وسرسري[...] في السنوات الأخيرة دبّر عدة عمليات دقيقة للأوخرانكا، فهذا المشاغبُ يحب المغامرات ولا يفتقر إلى الجرأة [...] بالإمكان رؤية بصماته في الإعداد للمذابح التي هزَّت مؤخَّرًا أركان الأحياء اليهودية في كييف، وفي ألكسندروبسك وفي أوديسا [...] نجح في اكتساب محبة القيصرة – مكافأة على خدماته لراسبوتين.

في لقائهما صوَّر مانويلوف الحال في روسيا بألوان قاتمة؛ قال إن الحرب لا تجري إدارتها على النحو السليم، وإن روح الثورة

تتفشّى في الجيش. وبعد أن وصف ما يواجه الجنود من المصاعب والمعاناة، أضاف: "إن الجيش وراء الخطوط فاسدٌ، لا يجب أن يغرب عن ذهنك أن الجيش مؤلف من مختلف الأعراق من كل أنحاء الإمبراطورية، ومن مختلف القوميات والأديان، وحتى اليهود! إني على يقين من أن هذه الجماعة تدعم الأفكار الثورية".
مانويلوف اليهودي الذي استبدل دينه، لم يُخفِ قط مشاعره المعادية لليهود واعتقاده الراسخ بأن اليهود مُذنبون بالثورة. تساءل جورج من حين لآخر لماذا يتحول اليهود المرتدّون عن دينهم إلى أعداء أشدّاء لأبناء شعبهم؟ هل ينبع ذلك عن شعورهم بالذنب لأنهم اختاروا تركَ أقلية مضطَهدة؟

لم يعثر جورج أبدًا على أدلّة يمكن إبرازها للمحكمة تثبت أن منسيفيتش مانويلوف قد ساهم عمليًّا في تزييف البروتوكولات، مع أن اسمه قد تردّد، لسبب أو لآخر، كلما دار الحديث عن البروتوكولات. لكنه، بعد مراجعة الملفّ، بات على قناعة من أن مانويلوف شارك في حبك المكيدة. في مناسبات عديدة عبّر مانويلوف عن اعتقاده بزيف البروتوكولات، ويبدو لجورج أن هذا الاعتقاد لم يكن مجرّد تخمين أو مراهنة، بل كان تحديدًا لحقيقة، وناتجًا عن معرفة شخصية.

على خلاف غولوبينسكي، فإن هذا الرجل ليس من الذين يتركون أثرًا لتعقبهم، ولم يكن ليباهي بالتزييف أمام نساء المجتمع في حفلات الشاي. إن رجلاً في مستوى حنكته لا يكشف عن ذاته، غير أن الواضح أنه لعب دورًا رئيسيًا في جهاز رتشكوفسكي في باريس، ومن المُستبعَد ألاّ يكونوا قد أشركوه بمثل هذا العمل، فالغش والتزوير قد ميّزا ممارساته دائمًا، وقد تمرَّس بهما منذ نعومة أظفاره.
وُلد إيـڤـان مانويلوف في كوفنو عام 1869 لأب روسي أرثوذكسي وأم يهودية. لأسباب مجهولة، تبناه وهو في الخامسة من العمر تاجر غني، يُدعى منسيفيتش مانويلوف، نُفي هذا إلى

سيبيريا بعد أن ضُبِطَ بتزييف مستندات مالية. بعد عودته من هناك أثرى جدًّا نتيجة اتجاره بالذهب. كان هو أيضًا يهوديا اعتنق المسيحية. ومن حيث أن ابنه المتبَنّى يُعتبر يهوديًا، لأنه وُلدَ لأم يهودية، اهتم منسيفيتش بتعميده رسميًا في الكنيسة. في عام 1888 فقط اتصل مانويلوف الصغير بمن كان نصفَ أخٍ بيولوجي له. قالت الشائعات إنهما كانا عاشقَين لبعضهما، والواقع أن مانويلوف الصغير لم ينكر أبدًا ميوله اللوطية. كانت لأخيه علاقات واسعة، وقد أنقذه على مرّ الزمن من ورطات عديدة وقع فيها. وهو الذي أوصى بإيــڤـــان لدى شرطة سانت بطرسبورغ، فتم قبوله للعمل، حيث أناطوا به مهمة جمع المعلومات للأوخرانكا، وبالذات عن نشاط المحافل الأدبية والكتاب.

ومع الأيام ربطتهُ علاقات بوزارة الداخلية والشرطة السرية، امتدت طوال حياته، وأصبح عميل مخابرات هام. إلى جانب مهمته السرية، اكتسب شهرة صحافية ككاتب وناقد. كتب المقالات والنقد الأدبي والمسرحي، كما كتب في مواضيع مختلفة تخص الاقتصاد وواقع الثقافة في العاصمة الروسية. أتقن اللغة الفرنسية جيدًا، واعتبارًا من بداية التسعينيات زُرِعَ عميلاً في باريس حيث نشر المقالات في الصحف الفرنسية تحت اسم مستعار.
وَصَفَته إحدى المجلات التي نشرت مقالاته، بأنه "خبير بالنساء، والسيجار والخيل والسياسة الخارجية". وفي المحافل التي تواجد فيها وُصِفَ بأنه "صحافي من حيث الممارسة ومُغامرٌ من حيث المهنة".

نظرًا لأنه لم يكن ملتزمًا بمبدأ ما، فقد كان على استعداد لقبول أي عرض، جاهزًا لبيع خدماته لكل مُزايد. إن رتشكوفسكي، الذي قدّر مواهبه وقدراته، واستغلّه للقيام بعمليات خاصة، لم يكن يثق به، وكم من مرّة وصفه أمام الناس بـــ "اليهودي القذر". في عام 1905 أُعيدَ مانويلوف إلى روسيا حيث كان شريكًا في دسائس كثيرة. في عام 1916 حظي، كما أسلفنا، بالوظيفة

المرموقة كمدير لمكتب وزير الداخلية شطرومر، بفضل علاقته الودية براسبوتين الشهير. كان لهذا المنصب شأن عظيم في العاصمة الروسية في تلك الأيام، لكنه لم يشغله إلاّ فترة زمنية قصيرة.

في الثاني من سبتمبر كتب پــليولوغ في يومياته: "تم اليوم توقيف مانويلوف، الشرطي المجرم الذي عيَنه شطرومر مديرًا لمكتبه؛ تفيدُ الأقاويل بأنه متهم بابتزاز أحد البنوك، الأمر الذي يناسب أخلاقه تمامًا، فالغش هو الوسيلة الثابتة التي يكسب ماله عن طريقها، وهذا أبسط ما يرتكبه من الجنايات".

رغم إرجاء التحقيق مرارًا وتكرارًا، بناء على أوامر عُليا، فقد صدر بالتالي الحكم بسجنه لمدة 18 شهرًا، لكنه لم يتّعِظ. بعد إطلاق سراحه ارتكب جنايته الأخيرة: حاول الابتزاز مرة أخرى عن طريق تزوير مستند من مستندات الشرطة السرية. عندما اكتشفوا أمره وأتوا للقبض عليه، حاول الهرب لكنه لم ينجح، فحُكم عليه بالإعدام. لم يجد هذه المرة من يشفع له وينقذه من رصاص الرُّماة.

يكفي ما عرفنا من أمر أعوان رتشكوفسكي، قال جورج، سنرى الآن ما كان من أمر السيد، تلك الشخصية التي برزت في كل حديث عن الدسائس والأحابيل، عن التجسس والتزوير، عن الخيانة والاعتقالات العبثية، عن مداهمة بيوت الناس وحتى عن الاغتيالات. كذلك برز بالطبع في كل حديث عن **بروتوكولات حُكماء صهيون**. ذكر نيلوس اسمه لدي شايلا مشيرًا إلى أنه مَن أرسل له البروتوكولات؛ وعلى حد قول الأميرة ردزيفيل والسيدة هربلوت، كان غولوبينسكي يباهي بأنه يقوم بتزوير البروتوكولات نزولاً عند رغبة رتشكوفسكي وتوصياته؛ أما بينت فقد قال لسباتيكوف أن رتشكوفسكي كان وراء التزييف، وهذه الشهادة وحدها كافية لإدانته بالتأكيد، فرغم كونها شهادة غير مباشرة، لكن لا يوجد سبب يمنع القاضي من تصديق شهادة سباتيكوف.

من حسن حظنا أن هذا الرجل على استعداد للإدلاء بشهادته، فكّر جورج، فقد سمع منه الكثير عن نشاط رتشكوفسكي في باريس. يجب أن يعرف المزيد عن سيرة حياة رتشكوفسكي، وبالترتيب. يجب أن يكون ملمًّا بكل تفاصيل حياته عندما يحين وقت المحاكمة، فهو الشخصية المركزية في القصة كلها.
قرر أن يسترقَ بعض الساعات للخلود إلى النوم والراحة، وسيبدأ في الغد صباحًا بدراسة ملف رتشكوفسكي.

بيوتر إيـــڤـــانوفيتش رتشكوفسكي – جاسوس من الدرجة الأولى ومزيِّفٌ خبير!

تساءل جورج، ماذا كان ليحصل لو لم يمت رتشكوفسكي موتًا فجائيًا في أكتوبر 1910، عن عمر ناهز 59 عامًا، في محطة السكة الحديدية في برجيتسا، حين كان في طريقه إلى العزبة التي اشتراها في مقاطعة ويطبسك. كان قد عاد مؤخرًا إلى روسيا، وقد بدا للجميع، باستغراب شديد، أنه ينوي الاعتزال. في الفترة التي سبقت وفاته ترك لدى الجميع انطباعًا بأنه يتصرّف كما لو كان يعلم بدنو نهايته، ولعله كان يعدُّ وصيته وينظّم تَرِكَتَهُ. تحدّثت الأقاويل عن أنه انتهى من كتابة مذكّراته، وقد أثارت تلك الأقاويل اهتمامًا بالغًا لدى بعض الأوساط، ومخاوف شديدة لدى أوساط أخرى. لقد أدَّى الرجل، زهاء ما يقارب الثلاثين عامًا، دورًا رئيسيًا في عمليات مُدهشة وتآمرات سريّة في العاصمتين الروسية والفرنسية. عرف الأسرار المحرجة عن شخصيات مسؤولة في الحكم، وكانت بحوزته وثائق من شأنها إحداث الهزّات السياسية العنيفة. هناك من كانوا على استعداد لشراء مذكراته من أجل نشرها، بينما تمنّى آخرون لو كان بإمكانهم دثرها وأخفاؤها.

اختلطت مقالات النعي والتأبين على صفحات الجرائد بتخمينات وتكهّنات. منهم من قال إن رتشكوفسكي قد بدأ منذ شهور قبل

وفاته فقط بكتابة مذكراته، وأنه لم ينجز العمل، ومنهم من قال إنه عزم على إيداع مخطوطة مذكراته بأيدي أصدقائه، وبضمنها تعليماته بعدم نشر المذكرات قبل عشر سنوات من يوم وفاته. وتكهّنت إحدى الصحف أن رتشكوفسكي كان ينوي إيداع مذكراته بيد الشرطة لتتصرف بها حسب ما ترتئيه. شاع أيضًا أن بعض الأوساط كانت قد عرضت على رتشكوفسكي، قبل موته بسنوات، أن يبيعها بعض الوثائق التي لم يعد لها سوى قيمة تاريخية، وأن رتشكوفسكي رفض العرض رغم الثمن السخي المغري، لأنه خشي أن تُدفن الوثائق في مخازن الثوار السرية، بينما أراد لها أن تكون في المستقبل بمتناول أيدي المؤرخين – حسب اقتباس – حتى لا يتم تشويه الأحداث التاريخية.

في الليلة السابقة كان لجورج حديث مع ليفشيتس حول احتمالات العثور على مذكرات رتشكوفسكي وأوراقه الخاصة. قال إنه لا يعلم إن كانت هذه الأشياء في الوجود، إذ أنه لا يمكن الاعتماد على أقاويل. لكن هذه الأقاويل ليست بغير أساس، أجاب ليفشيتس، مذكّرًا إياه بغوطفريد زوربيك Gottfried Zur Beek الذي نشر البروتوكولات في ألمانيا. كان غوطفريد أحد المدّعى عليهم في قضية رُفِعَت في ألمانيا ضد جماعة تسمّت "المكنسة الحديدية". لم يكن زوربيك اسمه الحقيقي، بل كان لودويك ميلر، وقد عُرِفَ أيضًا بالكابتن ميلر فـون هاوزن. كان أول من نشر البروتوكولات في ألمانيا إستنادًا إلى كتاب نيلوس الصادر عام 1911، رغم أن اسم نيلوس لم يَرِد أبدًا في الطبعة الألمانية. وقعت البروتوكولات بين يديه عام 1918، أي بعد الحرب بزمن قصير، فلمس ما فيها من إمكانيات لتحميل اليهود المسؤولية عن الحرب، وعن نتائجها الوخيمة، وعن الثورة الروسية. سوف تسهم البروتوكولات، ليس فقط في رفع معنويات الألمان، فإذا تم عرض الموضوع بالشكل اللائق، فإن من شأنه أن يقرِّب بين قلوب المنتصرين والمهزومين، فما الذي يمكن أن يكون أفضل من العدو المشترك لتقريب القلوب؟

في الطبعة الألمانية التي أصدرها زوربيك عام 1919، جعلَ اسم الكتاب "أسرار شيوخ صهيون"، وقد أدرك أنه، من أجل اجتذاب القارئ الألماني، يجب تنقيح الكتاب وتنقيته من كل غموض، ومن هذا المنطلق أزال اسم نيلوس، لئلا يُعتبر مصدرًا غير موثوق به، وفي المقابل أورد اقتباسات من خطاب الحبر عام 1901 ومن خطاب حبر آخر قيل إنه ألقاه في المؤتمر الصهيوني في لمبرغ عام 1912.

في المقدمة التي كتبها بنفسه، ربط زوربيك بين المؤامرة اليهودية والأحداث الجارية، آملاً أن يعود ذلك على جيبه بما يغطي نفقاته. لم يخب أمله، قال ليفشيتس، فالطبعتان، العادية والفاخرة، قام بتمويلهما الأمير أوتو سالم وچـراف بار، وهو من كان سابقًا رئيس حزب المحافظين في مجلس النواب البروسي الأعلى. تم تنظيم حملة إعلامية واسعة، وخاصة في المناطق القروية، كما تبنت الكتاب محافل راقية، عداك عن العائلة المالكة. أصبح الكتاب هدية مرغوبة، تُهدى في الحفلات الخاصة والعامة بغلاف أنيق. اقتبست الصحف مقاطع منه وأُقيمت أمسيات تم فيها قراءة مقتطفات من البروتوكولات.
حتى نهاية عام 1920 بيعَ من الكتاب 120,000 نسخة.

شعر جورج فجأة أنهم شدّوا عن جوهر الموضوع. كُـنّا بصدد رتشكوفسكي، قال لليفشيتس، فكيف وصلنا إلى زوربيك؟

ابتسم ليفشيتس وقال: ثمة علاقة بين الإثنين. ثم لفت انتباه جورج إلى أنهم، لاحتياجات القضية، استخدموا طبعة البروتوكولات التي أصدرها ألفرد روزنبرغ في بيرن، لذا لم يتسنَّ لجورج أن يقرأ المقدمة في كتاب زوربيك، والتي يكشف فيها عن أمر هام، لم يكن معلومًا من قبل، يتعلق برتشكوفسكي. يروي تسوربيك أن الجنرال كورلوف، وهو من كان رئيسًا للأوخرانكا وتوفي في برلين، قد أسرَّ له بما اعتقده بخصوص موت رتشكوفسكي؛ فعلى حد قوله، أنه استدعى رتشكوفسكي ذات يوم وطلب منه تقريرًا

مفصلاً عن مصدر البروتوكولات، كما طلب منه إحضار كل المستندات ذات العلاقة بالأمر، والتي لم تكن، على حد علمه، محفوظة في مكان سري. تعهد رتشكوفسكي بالاستجابة لطلبه، لكنه مات بعد ثلاثة أيام في محطة القطار. كتب زوربيك أن الجنرال كورلوف كان على يقين من أن ثمة علاقة مباشرة بين موت رتشكوفسكي المفاجئ وبين تعهده بكشف الحقيقة عن كتابة **بروتوكولات حُكماء صهيون.**

يجب أن نذكر، قال ليفشيتس، أن كورلوف قد روى القصة لتسوربيك بعد مرور سنوات قليلة فقط على موت رتشكوفسكي. خسارة أننا لن نتمكن من الاستفادة من هذه القصة، قال جورج. مات رتشكوفسكي قبل كشف الحقيقة لكورلوف، ولم يتم نشر مذكراته، ولم يُعثَر على أوراقه الخاصة. ربما لا تزال مُلقاة في مكان سريّ ما، لكن أنّى لنا أن نعرف إن كانت قد أُخفيَت عَمدًا ودهاءً أم أنها أُبيدَت.

أرسل لهم طاغر صورةً لرتشكوفسكي. راح جورج يتأمل الصورة من حين لآخر محاولاً تَفَرُّسَ نوع هذا الرجل. يكاد لا يُصدّق أن هذا الرجل، الأصلع الرأس، ذا الكرش، اللطيف المظهر، ذا العينين البهيجتين، والشاربين المنتظمين، واللحية المحدّدة، والذي يبدو وكأنه جدٌّ لأحدهم، هو نفسه جاسوس القمّة الدسّاس، الاستفزازي الرهيب، الذي دبّر المكائد العالمية وأوقع برجال المجتمع بعد أن ألصق بهم جنايات لم يقترفوها، وأنقذ سمعة آخرين بإخفاء أسرارهم. قيل إنه كان رجلاً مؤدبًا وذا شخصية جذابة تُخفي إرادة حديدية وعقلاً خبيثًا يفتقر إلى الإحساس الخُلُقي.

كان من المتوقع، كتَبَت الصُّحف، أن يكون لأذرعة الحكم المختلفة تمثيلا في جنازة الرجل الذي ائتمنوه على أسرارهم وعهدوا إليه بأدق وأكثر المهام حساسية. لكن الجهات الرسمية في روسيا قد برزت في تغيّبها، كذلك كان حال أصدقائه وزملائه

في العمل. جرى الدفن بحضور أرملته وابنه واثنين من أصدقاء الإبن. أما المفاجأة فقد كانت حين وُضِعت على الضريح الغض باقة زهور فاخرة بعث بها الرئيس الفرنسي بواسطة مبعوث خاص.

لا شيء في سيرة رتشكوفسكي المهنية المبهرة جرى بحسب القواعد المألوفة. هذا ما فكرتُ به حين بلغني أن سيرته تلك قد بدأت حين تم توقيفه هو شخصيًا على يد الشرطة السرية.

بعد أن فُتِحَت الأرشيفات الروسية للجمهور، فاجأني بوريس صباح أحد الأيام بإحضار نسخة عن ملف رقم 2586، وهو ملف رتشكوفسكي في الشرطة السرية الروسية. كُتب على الغلاف بخط يد فني، من الواضح أنه كُتب بالريشة: "الأرشيف الرسمي للاتحاد الفدرالي الروسي، قسم الشرطة. الشعبة الخاصة. 1905. موظف للمهمات الخاصة، درجة 4، بيتر إيـڤـانوفيتش رتشكوفسكي.

ترجم لي بوريس مضمون الملف موضحًا أن رتشكوفسكي لُقّب بلقب كان مألوفًا قبل الثورة.

التسجيل الأول في الملف كان في 15 أغسطس 1879 وعنوانه: "بطاقة الشرطة الخاصة رقم 2739".

أوضح بوريس، وهو مؤرخ محترف وخبير بالأرشيفات، أن الملف يحتوي تواريخ عديدة لمختلف الأحداث، إلا أن التاريخ الذي على الغلاف يشير إلى يوم وصول المواد إلى الأرشيف من قيادة الشرطة، لذلك ظهرت على الغلاف السنة 1905

.

أثناء زيارتنا لسانت بطرسبورغ أشار بوريس إلى بناية الشرطة التي كانت تجري فيها التحقيقات مع المشبوهين في تلك الأيام. بناية رمادية من ثلاث طبقات، مدخل ضيّق، مدخنة فوق السطح، وصفوف من الشبابيك مغلقة بأباجورات خشبية عتيقة. برزت قباحة البناية من بين ما يحيطها من الفخامة التي ما تزال تميّز

هذه المدينة الجميلة. لا بدَّ أن التحقيق مع رتشكوفسكي قد جرى هنا حين أوقف في 31 أغسطس 1879، قال بوريس.

عندما تأملتُ البطاقة المطبوعة في الملف الذي أحضره لي بوريس، والتفاصيل المكتوبة بالحبر الأسود، حاولتُ أن أصور في خيالي ذلك الشاب جالسًا أمام المحقق يجيب على أسئلته:

الاسم: رتشكوفسكي بيتر إيــڤــانوفيتش
السن: 28
المنــزلة الاجتماعية: نبيل.
الأصل: ابن رئيس بلدية دوبوساري Dubossary
القومية: روسي.
الدين: روم أرثوذوكس.
مكان الولادة: مدينة دوبوساري لواء خرسون Kherson
مكان الإقامة: سانت بطرسبورغ.
العمل: ملحق في وزارة العدل.
مصادر الدخل: دخل من الكتابة، "لأني لا أتقاضى أجرًا مقابل خدمتي".
حالة الوالدين الاقتصادية: يعمل الوالد كرئيس للبلدبة ويعتاش هو وزوجته على راتبه.
الحالة المدنية: متزوج، يسكن في منعزل عن زوجته.
الدراسة، من الذي مولها: المدرسة الثانوية في مدينة كيشينيف، بتمويل من الوالدين.
إن لم ينهِ دراسته ، بيّن الأسباب: أنهى.
هل كان مرة خارج البلاد وأين؟: لم يكن خارج البلاد أبدًا.
هل تم التحقيق معه سابقًا؟: لا، أبدًا.

سجَّل المحقق في ذيل الصفحة:
التهمة: التقلُّب السياسي.
العقاب الوقائي: استمرار التوقيف.

عمل رتشكوفسكي لمدة ثلاث سنوات كموظف تحقيق في المحكمة، لكنه اعتاش من كتابة المقالات في مختلف المجلاّت.
في أبريل 1879 عُيِّنَ محررًا رئيسيًا في صحيفة جديدة كان اسمها "اليهودي الروسي". لم تمضِ ثلاثة شهور حتى اقتحمت الشرطة بيته وأجرت تفتيشًا دقيقًا إثر إخبارية مفادها أن رتشكوفسكي ناشط في أوساط الطلبة، وهو مروّج دعاية قدير وله علاقات بالثوار، ومن ضمنهم ماتروسوف Matrosov الذي يظهر اسمه في مكان بارز في قائمة المطلوبين لدى الشرطة. ذكر المُخبرُ أيضًا أن بحوزة رتشكوفسكي قائمة بعناوين طُبعت بنفس آلة الطباعة التي استُعملت لطباعة إحدى المقالات في جريدة الحركة السرية زمليا إي ڤـــوليا Zemlia i Volia. في روسيا تلك الأيام، كانت تكفي إخبارية كهذه لتبرير الاعتقال.
عثرت الشرطة في بيته على أشياء تتعلق باليهود وزعمائهم، قصائد وأناشيد عن أورشليم، ومخطوطات لمقالات أُعِدَّت للنشر في جريدة "اليهودي الروسي".

منذ شبابه أظهر رتشكوفسكي اهتمامًا عظيمًا باليهود، قال بوريس حين استعرض معي التفاصيل في ملف الشرطة. أصبحت كراهيته لليهود مع الزمن، والكيد لهم، موضوعًا أساسيًا في حياته.
كيف تحوّل إنسان متقلب سياسيًا إلى كبير عملاء الشرطة السرية؟ تساءلت بدهشةٍ!

يظهر من تقرير التحقيق أن رتشكوفسكي كان قد أعدَّ الإجابات مسبقًا: كان اتصاله بالطلبة لمجرَد أنه كان ينوي الإعداد لمسرحية؛ لم تكن لديه أبدًا آراء اشتراكية أو ثورية؛ لم يقابل أبدًا الناس الذين ذكرهم المحقق، ما عدا ذلك المطلوب ماروسوف، وقد التقى به صدفةً في بيت شخص يُدعى يسنيفيتسكي...
إجابةٌ سَلِسَة وبريئة لكل سؤال، تكاد تأتي قبل طرحه، محاذرًا عدم إنكار ما يمكن إثباته.

استمرّت الشرطة بالتحقيق، لكنها لم تجد دليلاً يرسّخ الشبهات، فأطلقوا سراحه في 10 سبتمبر، أي بعد شهر من الاعتقال، لكنه بقي مشبوهًا. تم التحقيق معه ثانية بسبب علاقته ببعض المشتبه بهم. كان قرار الشرطة هذه المرة، كما ظهر في ذيل التقرير: "يُطلق سراح رتشكوفسكي – تابعوا مراقبته".

كان هذا الاعتقال كافيًا ليخرج منه رتشكوفسكي عازمًا حازمًا على أنه لن يعرّض نفسه للاعتقال مرّة أخرى. وبينما مشى ناظرًا إلى تلك البناية القبيحة التي خرج منها لتوّه، عاهد نفسه على أنه عندما يجتاز عتبة تلك البناية في المرة القادمة، فسوف يجلس في الجهة الثانية من الطاولة في غرفة التحقيق.
عرف الناس أن الشرطة تنوي تجنيد العملاء من صفوف الثوار. زرع هذا التكتيك الشكوك وعدم الثقة حتى بين الأصدقاء المقرَّبين. أما رتشكوفسكي فلم يكن ثمة ما يكبح تحوله إلى الجهة الأخرى؛ وهكذا أضحى الكذب والنفاق والخيانة نهج الحياة عنده. لا بدَّ أن رؤساءه كانوا سيُصدمون لو عرفوا أن هذا الشاب، الذي تحوم حوله الشبهات، سيتبوأ بعد خمس سنوات منصب رئيس جهاز الشرطة السرية الروسية في أوروبا.

لم يُعرَف عن رتشكوقسكي الكثير في تلك السنوات الخمس، لكن في 24 مايو 1912، أي بعد موته بسنتين تقريبًا، نشرت جريدة أخبار البورصة مقالاً بعنوان "الجنرالان نوفـيتسكي ورتشكوفسكي"، وكانا يُعرفان بالجنرالين "ن" و "ر". وردت في المقال تفاصيل لم تكن معروفة من قبل. ذكَّر كاتب المقال قرّاءَه بالجنرال رتشكوفسكي الشهير، صاحب الفصول السوداء في تاريخ الأوخرانكا ونشاطها، كالمطبعة الخاصة التي أصدر منها الدعاية التحريضية ضد اليهود، وتورطه في قضية الجاسوس أزاف. وأضاف كاتب المقال: الآن فقط، بعد موته، تتكشف حقائق جديدة؛ هذا الرجل، رتشكوفسكي، الذي كان مسجّلا كموظف صغير في وزارة الداخلية، كان في الواقع الشخصية الرئيسية في سياسة روسيا الداخلية والخارجية. الآن فقط أمكن

الكشف للملأ أن هذا الرجل شغل وظيفة رئيس الشرطة السرية، ليس فقط في فرنسا، وإنما في أوروبا كلها.

استند المقال إلى وثيقة وصلت من الجنرال نوفـيتسكي عن نشاط الأوخرانكا، تطرق فيها بشكل خاص لأعمال رتشكوفسكي، تبيّن أنه بعد تعيينه في باريس اكتشفت شرطة كييف أن رجلاً يُدعى بيوتر إيـڤـانوفيتش كان المنظم الرئيسي لعمليات سرية معادية للحكومة في كييف. أفاد العمّال، الذين اعتُقِلوا وأُدينوا، بأنهم استلموا المواد من يد بيوتر إيـڤـانوفيتش الذي لم يكن في الواقع سوى عميل استفزازي للأوخرانكا. اكتشف أحد المحققين أن هذا الرجل أقام مطبعة سرية لطباعة المنشورات الجنائية، وجوازات السفر المزوَّرة، ومنشورات دعائية مثيرة للفوضى. ذكَرَ التحقيق أن كل الدلائل تشير إلى بيوتر رتشكوفسكي الذي عمل تحت إمرة رئيس الأوخرانكا في موسكو. في هذه الأثناء كان قد تم تعيين رتشكوفسكي في باريس، وقد سدّت الشرطة السرية كل المنافذ أمام محاولات الاتصال به، بل وحتى الحصول على صورة له للتشخيص، بحجة أن الرجل يعمل في الخفاء ويجب الكف عن متابعة التحقيق.

لم يبتهج السفير الروسي في باريس بمجيء العميل الجديد، فقد سبق وأن أخذ عِلمًا، عن طريق اتصالاته بسانت بطرسبورغ، بأن الرجل سرسري وذو أطماع، عديم الضمير، لا يوثق به. لكن رتشكوفسكي عرف كيف يكتسب الأصدقاء عند الحاجة. غضَّ الطرفَ وتظاهر بالتواضع لبعض أسابيع. أخذَ يستشير المسؤولين في السفارة ويدعوهم لتناول الطعام معه، ويعرض عليهم خدمات عملائه المنتشرين في المدينة. ساعدته بشاشة وجهه وجاذبية مظهره على اكتساب الأصدقاء الذين لم يتردد، بعد حين، في استغلالهم لغاياته الشخصية. وهكذا تمكّن بالتدريج من تبديد الظنون من حَوله، ونجح في إنشاء قاعدة عمل تسودها أجواء الصداقة والدعم. لم يعد بحاجة لأجنحة. دعاه السفير ذات يوم إلى مكتبه وأنبأه بأنه قد خصص له غرفتين بجانب مكتب القنصل

العام. أدرك حينئذ أنه استطاع أن يأسر لب السفير. اتخذ على الفور الغرفة الكبيرة كدائرة له، وأدخل إلى الثانية مساعده المقرّب إليه، ميلبسكي، فقد كان بحاجة إلى إبقائه قريبًا منه ليستعين بلغته الفرنسية. في تقارير السفارة وُصف ميلبسكي بأنه "يهودي صرف"، وبرغم كره رتشكوفسكي لليهود، إلاّ أنه لم يرَ عَيبًا في توظيف العملاء اليهود طالما أنهم يقومون بتنفيذ أوامره بأمانة.

وصلت السفارة الأقاويل عن نشاط الفريق الجديد، لكنها بقيت في إطار الهمس، فقد كان معلومًا للجميع أنهم يتعاملون بالمخابرات السرية. من مقر القيادة هذا، في باريس، أنشأ رتشكوفسكي شبكة هائلة من العملاء الذين نشطوا في كل العواصم الأوروبية. تم اختيارهم بتدقيق متناهٍ، وقد أطاعوه طاعة عمياء. كانوا كلهم بلا وازع من ضمير وبلا رادع أخلاقي. مثله تمامًا. لم يترددّوا في المشاركة بالدسائس، وحتى في الجرائم التي قام بالتخطيط لها. كانت المغامرة في دمائهم، والمكافآت السخية التي حصلوا عليها مقابل مخاطراتهم مكّنتهم من تذوّق متعة الحياة في العواصم الأوروبية. أما قائدهم الذي كان حبيب النظام في العاصمة الروسية، وله أعوانه حتى في داخل القصر، فقد غمرهم بهالته، فكانوا على استعداد لفعل أي شيء من أجله.

كانت مهمة رتشكوفسكي، كما حدَّدها له المسؤولون عنه، هي تعقّب نشاط الثوار والإرهابيين الروس. بعد التشاور مع مساعديه، قرر التركيز على الحي اللاتيني، في الضفة اليسرى لنهر السين (La Rive Gauche) حيث يسكن معظم الثوار. استأجروا مُنشأة صغيرة في شارع جانبي صغير، فتح فيها أحد العملاء مطعمًا قدم فيه هو وزوجته المآكل الروسية المطلوبة، بأسعار معقولة.

حظي المطعم سريعًا بالنجاح، إذ لاقى إقبالاً من المهاجرين الروس الذين ترددوا عليه طوال ساعات النهار والليل، يستمتعون

بالمآكل التي تذكّرهم بالوطن، ويقرأون المجلات الروسية ويلتقون بالأصدقاء. وكما توقع رتشكوفسكي، فقد كانت تكفي بعض أقداح من الـــفــودكا لحل الألسن. الأجواء البيتية الحميمة أقنعتهم أنهم بين أصدقاء، فلم يخطر ببال أحد أن عملاء رتشكوفسكي مزروعون في كل زاوية.

دأب رتشكوفسكي على تجنيد العملاء من صفوف الثوار. كان الواحد منهم يستعمل اسمه الحركي، فإذا كان ممن ذاع صيتهم كرجل حركة نشيط وفعّال، كان رواد المطعم يستقبلونه بترحيب حار. تم انتقاء مثل هؤلاء العملاء الذين تغلغلوا داخل خلايا الثوار في باريس والبلاد الأخرى.

أصبح رتشكوفسكي ابن بيت في السفارة. لذا، فعندما دعاه السفير ذات صباح من عام 1885 إلى مكتبه، اعتقد أنه يدعوه لزيارة ودية عادية، لكنه فوجئ حين استهل السفير الحديث عارضًا الخروج في نزهة خارج باريس. قال السفير غامزًا: كيف يمكن البقاء داخل المكتب في يوم مشمس كهذا؟ أدرك رتشكوفسكي على الفور أن السفير ينوي إشراكه بسر خطير ليس من الحكمة التحدث فيه داخل السفارة. لم يكن لأحد أدنى شك في أن الكل يتجسس على الكل، بما فيهم العملاء. كان ذلك جزءًا من نهج الحياة في روسيا في تلك الأيام، وما السفارة إلاّ جزء من أرض روسيا! من أجل البقاء في مثل هذه الأحوال، كان على المرء أن يبقى صاحيًا ومضطلعًا بمجريات الساعة. كانت المعلومات ضرورية للوقاية وحماية الذات. عرف رتشكوفسكي أن السفير يتلقى بشكل دائم التقارير عن نشاطه، فأخذ كل احتياطاته للمحافظة على السرية. كان لإدارة جهاز المخابرات من مبنى السفارة ميزات جمة، لذلك سلّم بواقع التقارير اليومية للسفير عن تحركاته ونشاطه، لكنه كان هو أيضًا، من قبيل الاحتياط، يصطنع اللقاءات العفوية خارج جدران السفارة.

إنَّ توجّسَ السفير من رتشكوفسكي، وظنّه به منذ مجيئه إلى باريس، قد تحوّل مع الأيام إلى تقدير عظيم لقدراته، وقد أدرك السفير أن رتشكوفسكي يمكن أن يكون عدوًّا خطيرًا، لكنه في نفس الوقت شريك ذو أهمية كُبرى. لذا فقد ارتأى أن يستمر بمراقبته واستغلال خدماته عند الحاجة. وقد أبدى رتشكوفسكي استعداده التام لمساعدة السفير، خاصة بعد أن لمس ما طرأ من تحوّل للأحسن في نظرته إليه. إنه يعلم أن السفير لا يحظى بالتقدير في العاصمة الروسية، لكن من الأفضل أن يضمن تعاونه ما دام في باريس. أراد أن يلعب دورًا رئيسيًا في الدسائس والاستفزازات التي شكّلت الطابع المميز للنظام الذي يخدمه، عِلمًا بأن طموحاته تجاوزت حدود نشاطه الحالي بكثير. كانت العلاقات بين روسيا وفرنسا تتوطّد، وكان بين يدَي رتشكوفسكي الكثير من أوراق اللعب، فإذا أتقن اللعب، لن يبقى جاسوسًا إلى الأبد.

كانت الفرصة مواتية للتعاون، إن كان من وجهة نظر السفير أو من وجهة نظر رتشكوفسكي.

في هذه اللحظات التي غمرت بها الشمسُ شوارع باريس، أحسَّ رتشكوفسكي أن ما استثمره من جهد لتوطيد علاقاته بالسفارة قد بدأ يعطي ثماره. كان على يقين، وهو يستمع إلى حديث السفير، أن المهمة التي سيوكلها إليه في غاية الحساسية، من النوع الذي تمرّس به جيدًا. كشف له السفير عن تقرير وصله من مجهول، بتوقيع "دبلوماسي مُخلص"، يفيد بأن الأميرة يوربسكايا متورطة بنشاط ثوري. لم تكن تقارير المجهولين وإخبارياتهم نادرة في تلك الأيام، فحتى العملاء الكبار والموثوق بهم لم يرغبوا بالكشف عن نفوسهم، إلاّ إذا توقّعوا مكافأة لقاء المعلومات.

لم تكن هناك حاجة لتعريف رتشكوفسكي بالأميرة يوربسكايا.

كانت الأميرة يوربسكايا معروفة على مدى 12 عامًا بأنها محظية القيصر ألكسندر الثاني، وقد سكنت علنًا في قصر الشتاء مع أولادها الثلاثة الذين لم يُنكر القيصر أنهم أولاده. قبل أن اغتيل

بوقت قصير، تزوج القيصر من الأميرة في احتفال ديني سرّي في قصر تسرسكويا سلاو. وقد أُذنَ لها أن تسير في مقدّمة جنازته حسب الأصول والبروتوكول. لكن القيصر الجديد، ألكسندر الثالث، أعلمَها بكل وضوح أن وجودَها في روسيا مصدر خجل للأسرة المالكة، فرحلَتْ مُكرَهةً واستقرّت في باريس. لكنها لم تنسَ ما فعلوا بها. كانت تعلل النفس بأن يحظى ابنها البكر، غريغوري، بالاعتراف الذي يستحقة كابن للقيصر.

من حسن حظها أن القيصر، قبل وفاته، كان قد وقّع فرمانًا ملكيًا يمنح الأميرة وأولادها ألقابًا لا يستطيع إنسان أن يجرّدهم منها، والأهم من ذلك أنه تمكّن من تعديل وصيته على نحو يضمن لها ولأولادها مستقبلهم المادي، مما يمكّنهم من العيش بالمستوى الذي اعتادوه سابقًا.

من الضروري أن يتم فحص الموضوع، قال السفير، والمحافظة على السرية التامة، فإذا شاع خبر تورطها في نشاط ثوري سيرفع ذلك من شأن الثوار كثيرًا، وربما استغلوا أيضًا الأمير الصغير. وأردف يقول إنه لا يستطيع أن يوكل المهمة لأحد غيره.
اجتاحت رتشكوفسكي موجة من الشعور بالرضى وفكّر في نفسه: إنها فرصة ذهبية لسلب لب السفير، لكن يجب أن يعرفوا في الوطن من الذي يقوم بالمهمة. قال للسفير إنه على استعداد للتعاون ولكن لا بدّ من الحصول على إذن من سانت بطرسبورغ. لم يُمهل السفير ليهتم بالأمر، بل قام حالاً بالاتصال برؤسائه قائلاً إنها فرصة ممتازة لتعزيز علاقاته بالسفارة، ولم ينسَ أن يطلب مكافأة مناسبة عن "الجهد الإضافي"، وهو الذي لا يفوِّت فرصة لتعبئة جيوبه؛ كتب يقول إن عملية كهذه ليست في نطاق وظيفته.

احتاج عملاؤه إلى 18 شهرًا من التعقب الملازم من أجل إعداد تقريرهم. أصبح الآن بيده ملف ممتلئًا بالمعلومات عن حياة

الأميرة الشخصية، فقد تمكّن العملاء حتى من الدخول إلى بيتها. من يدري في أي الأمور يمكن استغلال هذه المعلومات في المستقبل، فكّر رتشكوفسكي وهو ينتقي منها ما يناسب لإعداد تقريره الخاص. لقد قام العملاء بعمل ممتاز، وهو من سيفوز بالثناء، قال لنفسه بمزيد من الارتياح بينما راح يقرأ بكل متعة أخبار الأميرة وأولادها، ونهج حياتها، وحتى المغامرت الصغيرة التي زلّت بها. كتب في تقريره أنه لم يجد أي دليل ثابت على تورطها بنشاط ثوري، لكن يجب الأخذ بعين الاعتبار أنهم لو توجهوا إليها فمن المحتمل ان تتجاوب راغبةً، نظرًا لشخصيتها المهزوزة، ومحاولاتها الفوضوية الساذجة لتأدية دور "القيصرة الأرملة"، وحقدها على العائلة المالكة. كما كتب أيضًا: "ربما كان الأمير الصغير أيضًا هدفًا سهلاً، وأخشى أن لا يأتي التوجه إليه بنتائج جيدة".

إن الأميرة لا تدري بالحال الذي آلت إليه، قال رتشكوفسكي لنفسه وهو يوقع تقريره المفصّل في 1 سبتمبر 1886، ليرسله إلى القيصر. أحسّ أن مكانته في العاصمة باتت مضمونة. لقد أثبت بهذا ولاءه للقصر دون شك. من الآن فصاعدًا لن يتركز في الكيد للجماعات الثورية في أوروبا، بل سيستغل علاقاته الممتازة بالعاصمة الفرنسية ليسهم في توطيد التحالف المالي والعسكري بين الدولتين.
من الآن سيكون له دخل في كل الأمور الرئيسية على جدول الأعمال الوطني.

حصل جورج على معلومات كثيرة من سباتيكوف وبورتسيف وطاغر، لكن بقيت أسئلة تحتاج إلى إجابات، مثلا: لماذا أرسل الرئيس الفرنسي مبعوثًا خاصًا لوضع باقة الزهور على ضريح رتشكوفسكي؟ ما الذي فعله كبير العملاء الروس لرئيس جمهورية فرنسا لينال هذا الشرف؟ لم يَدَعْهُ فضوله الطبيعي يستريح حتى عثر على الجواب في فقرة من تقرير طاغر، وكان قد قرأه من قبل قراءة سطحية. تبيّن له أن عميلاً فرنسيا، عمل

في خدمة الرئيس لوبيه Laubet، قد زار رتشكوفسكي في أحد الأيام، وقال له إن الرئيس مزمع على القيام بزيارة إلى ليون، وقد وصله إنذار باحتمال التعرض لحياته، وأن الرئيس على يقين من أن رتشكوفسكي وأعوانه قادرون على توفير الحماية له أكثر من الشرطة الفرنسية. إن الرئيس يثق به جدًّا، قال العميل بنوع من الحرج، وسيكون في غاية السعادة لو أخذ رتشكوفسكي على عاتقه، بسرية تامة، عملية حمايته أثناء زيارته لليون.

تذكّر جورج أن الرئيس الفرنسي لوبيه قد اغتيل قبل سنتين على يد لاجئ روسي. يا لسخرية الأقدار، قال في نفسه بينما تابع قراءة تقرير طاغر.

لم يتردد رتشكوفسكي لحظة بأخذ المهمة على عاتقه، فها هي تكتيكاته تعطي ثمارها حتى في الجانب الفرنسي. لم يكن سرًّا تعاونه مع الشرطة الفرنسية، وقد علم الجميع بما نشره من شِباك العملاء المُحكمة، في كل أوروبا، لتعقب تحرّكات الثوار. لم يكن الفرنسيون راضين عن وجود نشاط ثوري فوق أراضيهم، حتى وإن كان موجهًا ضد النظام الروسي، ولم يرق لهم رؤية فرنسا تتحول إلى مركز لنشاط الفوضويين، فكانوا على استعداد للتعاون التام مع رتشكوفسكي الذي ذاع صيته كعميل قادر على كل شيء. الممارسات غير العادية التي انتهجها مكنته من تخطيط وتنفيذ عمليات خارقة، وقد أثبت وجوده كسيد المحترفين على ساحة المكائد السياسية؛ زوّر عملاؤه الوثائق، زرعوا البيّنات الكاذبة، نشروا الأكاذيب، أوقعوا بالأبرياء، سرقوا المستندات، ولم يتورّعوا عن زرع العبوات الناسفة وعمليات الاغتيال. في أوساط الشرطة الباريسية نظروا إليه بتقدير قارب الإعجاب. تظاهر أنه يساعد الشرطة على تفكيك ملابسات جرائم ارتكبها عملاؤه عمليًّا، وعلى اعتقال مشبوهين أوقع بهم تلفيقًا وافتراءً. وضع منهجًا لتبادل المعلومات بينه وبين الشرطة الفرنسية، وكانت علاقاته بالشرطة تتوطد يومًا بعد يوم. في عام 1890 لعب دورًا رئيسيًا في القضاء على خلية إرهابية كاملة، إثر

إخبارية تلقاها من الشرطة الفرنسية بأن أعضاء الخلية يعدّون عبوة ناسفة من أجل إرسالها إلى روسيا.

يا لسخرية الأقدار، قال جورج حين علم أن نجم رتشكوفسكي قد أفل أخيرًا بسبب ولائه الفائق للقيصر، وذلك إثرَ محاولته حماية القيصر وزوجته من أحابيل أحد المحتالين؛ لكن سنوات مضت إلى أن حدث ذلك، في هذه الأثناء اهتم رتشكوفسكي بترسيخ علاقات العمل مع قائد الشرطة في باريس، ادموند آدم. تحولت هذه العلاقات مع الأيام إلى علاقات ودية فتَحت له أبواب صالونات جولييت آدم، زوجة القائد.

انتبه جورج فجأة إلى أن الساعة ناهزت الرابعة صباحًا. لقد قضى الليل في مطالعة ملف رتشكوفسكي، لكنه لم يأسف، فهذا الاسم الذي سمعَتهُ أذناه وطالعَته عيناه مرارًا وتكرارًا، تجسّد الآن في صورة إنسان حي. أطلق لخياله العنان وراح يصور لنفسه رتشكوفسكي وأعوانه وهم يخططون لعملياتهم، أو يرى رتشكوفسكي يترجّل من مركبته في مدخل بيت جولييت آدم الفخم. حدَّثه حدسُه أن رتشكوفسكي التقى هنا بإدوارد درومونت وإيلي دي سيّون. ربما أنهما ناقشا هنا موضوع التحالف بين فرنسا وروسيا، وسياسة ويت بشأن القروض التي حاول الحصول عليها من فرنسا لتمويل إصلاحاته. في هذا الصالون تحدثوا كثيرًا عن التحريض على اليهود المتجنّدين في الجيش الفرنسي، وكان بين رواد صالون جولييت الكثيرون من المتحمسين لتجريم درايفوس.

أعاد جورج وكرر مطالعة الفقرات التي أشار إليها طاغر في مقالات إيلي دي سيّون، والتي طابقت تمامًا الأفكار الواردة في **بروتوكولات حُكماء صهيون**. افترض بعض الباحثين أنه كان لدي سيّون دور في تزييف البروتوكولات، لكن جورج لم يجد أي إثبات لذلك، وكان على يقين، استنادًا إلى ثوابت، من أن رتشكوفسكي، هو وليس سواه، المسؤول عن التزييف، وقد نفّذه

عن طريق عملائه. لكنه لا يعفي الفرنسيين من تهمة التزييف، فلم يكن لديه أدنى شك في أن فكرة اتهام اليهود بمحاولة السيطرة على العالم جاءت من مدرسة درومونت ودي سيّون. لم يكن رتشكوفسكي، قبل تعيينه في باريس، يعلم مدى الكراهية لليهود التي انتشرت بين أوساط معينة في فرنسا، بل على العكس، كان يعتقد أن في فرنسا، كما في غيرها من الدول الأوروبية، انتقادًا شديدًا واستياءً من ملاحقة يهود روسيا. كان ويت قد أوضح له مرارًا أن الأمر يُلحق ضررًا كبيرًا بروسيا في المحافل الدبلوماسية والاقتصادية في الدول الأخرى. وهو وإن كان يساند سياسة القيصر المعادية لليهود، خلافًا لويت، لكنه أيقن أن الرأي العام الفرنسي قد يشكّل عقبة أمام عقد التحالف بين الدولتين. فلو استطاع إقناع الفرنسيين بأن اليهود عنصر غادر، وأنهم يتآمرون على تقويض أسس المجتمع ويخططون لتدميره، يكون بذلك قد أدّى خدمة جُلى لوطنه.

كانت دعوته إلى صالون جولييت آدم، ولقاءاته بفرسان اللاسامية الذين ترددوا على الصالون، عطية من السماء بالنسبة له. سرعان ما لاحظ أن أهدافهم تختلف، فالمضيفة مثلاً كان همّها توجيه النقد اللاذع للقيصر الروسي، وقد جرَّحت به وبأسرته في كتاب أصدرته. أما إيلي دي سيّون فقد حاول قصارى جهده إفشال ويت ومنع منح القرض الفرنسي لروسيا، وهو المشروع الذي دعمه رتشكوفسكي، كما دعم التحالف بين الدولتين. لكن كان للجميع هدف مشترك هو اتهام اليهود. حذَّرت جولييت وزمرتها من التأثير اليهودي في الجيش، ومن خطر البنوك اليهودية التي خدمت الألمان، على حد تعبيرها. أما دي سيّون فقد وجَّه معظم سهامه نحو آل روتشيلد. ألا يدعو الأمر إلى الضحك؟ سأل رتشكوفسكي نفسه وقد علت شفتيه ابتسامة، فهو سوف يستخدم سلاح اتهام اليهود لكي يدفع قدُمًا بالتحالف الذي يحاولون منعه!

فطن جورج فجأة إلى تحذير البروفسور ماطي: ممنوع الغوص عميقًا في تاريخ تلك الفترة. إن مهمتهم هي إثبات زيف الوثيقة فقط. لا شك أن الدوافع للتزييف على جانب من الأهمية، لكن يجب ألاّ ينجرفوا. عليه أن يذكر دائمًا أن الهدف هو إثبات متى، وعلى يد مَن، ولأية غاية تم التـــزييف. في غياب شاهد يشهد أنه رأى بأم عينه عملية التزييف، سيكون عليهم الاكتفاء بالأدلة الظرفية. أحيانًا تكون مثل هذه الأدلة هي الأفضل، أوضح بكل هدوء بصوت يذكره جورج من أيام المحاضرات في الجامعة. يمكن للشاهد إن يُخطئ أو يكذب، وأما الوقائع فلا تكذب أبدًا، لكن الأمر يتوقف على كيفية تفسيرها وتفسير نتائجها الحتمية. هنا تكمن مهارة المحامي والتحدي المتمثل في القاضي. يُمتحَنُ المحامي بالطريقة التي يستطيع فيها إبراز الإدلة الظرفية. بذلك يتميز المبدِع عن المحترف. في هذه القضية سيتقرر إلى أيٍّ الفئتين ينتمي المحامي، قال ماطي مشدِّدًا. سيكون عليه أن يستحضر إلى قاعة المحكمة الأجواء التي سادت في العاصمتين في تلك الأيام، وهي أجواء غريبة تمامًا عن قاضٍ مثل ماير. عليه أن يلجأ إلى كل الوسائل الممكنة من أجل إقناع القاضي بأن أشخاصًا مثل رتشكوفسكي كانوا فعلاً في الوجود. يجب إن يؤمن القاضي بأن مصير دُولٍ كان رهن أيدي السحرة والمشعوذين، والأميرات المدللات اللواتي كنَّ ألعوبة بأيدي المحرضين والدسّاسين. يجب أن يتمكنوا من إقناع قاضٍ برجوازي، متَّـــزن، وربما مُحَدَّد، بأن الغش والتزوير كانا، في أوساط معينة، أدوات عمل عادية بأيدي صانعي رغبات كبار السياسيين.

مع ذلك، عاد ماطي ليحذر، عليه أن يذكر دائمًا أن الهدف من الدلائل الظرفية هو إثبات الخلفية، والدافع المحتمل، ووجود الفرصة المواتية، وليس بالضرورة إثبات ما جال في عقول تلك الشخصيات المسؤولة. يكفي إذن أن يثبتوا أن دعواهم عالية الاحتمالات، وأما الباقي فيُتركُ للمؤرخين.

لَكَم كان أستاذه صادقًا، فكّر جورج. كيف له أن يجزم ماذا كان الداعي الأكيد لتزييف البروتوكولات؟ تبيّن أن المشاركين في هذه القصة كانت لهم دوافع مختلفه. فمن كان المهيمن بينهم؟ أراد إيلي دي سيّون أن ينسف برنامج ويت، وأرادت جولييت آدم، من دوافعها الخاصة، أن تنسف مشروع القروض؛ أما درومونت فقد دفعته كراهيته العمياء لليهود، وأما الناس في فرنسا فقد بحثوا عن كبش فداء ليحمّلوه مسؤولية الانهيار الاقتصادي. اتهام اليهود يساعدهم كلهم، والمؤامرة اليهودية للسيطرة على العالم تفسّر هيمنة أصحاب البنوك المبغوضين، والبغض التقليدي للألمان يواكب الادعاءات عن نفوذ اليهود المتزايد في الأوساط العسكرية. هذا كله كان مناسبًا جدًا لجدول أعمال رتشكوفسكي اليومي. فالمؤامرة اليهودية ستبرّر للرأي العام الفرنسي ملاحقة اليهود والمجازر في روسيا، أو ستهدئ من حدّة الانتقادات الموجهة إليهم على الأقل؛ ثم إن في ذلك وسيلة أخرى لإقناع القيصر بأن اليهود مسؤولون عن كل الاغتيالات السياسية في روسيا. وقد تكون هناك فائدة أخرى: فإن اتهام اليهود بالتآمر مع الماسونية من شأنه أن يؤدي إلى إقصاء فيليب عن القصر، خاصة وقد عُرف عنه أنه على علاقة بأحد المحافل الماسونية. وهكذا، يتمكّن رتشكوفسكي من الحصول على نقاط تزكية إضافية من قبل رؤسائه، كأفضل من يزوّدهم بالمواد التي تبرّر ملاحقة اليهود.

من المحتمل أن يكون كل منهم قد عمل بدافع شخصي خاص، قال جورج، لكنهم التقوا كلهم في نقطة واحدة: ليس نتيجة كرههم المشترك لليهود فحسب، بل أيضًا لعلمهم أن اليهود هدف سهل المنال وكبش فداء متوفر في المجتمع الذي يعيشون فيه.

في السادس من يونيو 1891، أفاد رتشكوفسكي في رسالة إلى رؤسائه، أن الرأي العام في فرنسا يحتج على ملاحقة اليهود في روسيا، وكتب يقول: إن الدعاية ضد روسيا تأتي بالأخص من طرف اليهود في غرب أوروبا، وأن ذلك يجعل الأموال تتدفق

على الجماعات الثورية في غرب أوروبا، وأن لليهود تأثيرًا كبيرًا على الصحافة في لندن وباريس لأنها تتلقى الدعم منهم. وأضاف أنه من أجل إحداث تغيير جذري في هذه الحال، فإنه عازم على التعاون مع أوساط معادية لليهود في فرنسا، لكي يكشف للناس عن "الوجه الحقيقي لليهود".

عاد جورج إلى قراءة رسالة رتشكوفسكي التي عثر عليها طاغر. في هذه المرحلة وُلدت فكرة اختلاق وثيقة توقع باليهود. كان ماطي على حق حين قال إنه ليس بين أيديهم دليل دامغ ليثبتوا فيه كيف تم اتخاذ القرار، لكن جورج عاد وكرر شرحه لطريقة التزييف التي لجأ إليها رتشكوفسكي؛ فقد اعتاد هذا على الإيقاع بمختلف الناس عن طريق الوثائق الزائفة، فلماذا لا يلجأ إلى الوسيلة ذاتها ليوقع باليهود الذين يضمر لهم أشد الكراهية؟ كلما قرأ أكثر ازداد قناعة بأن هذا ما حدث فعلاً. قال لماطي إن بيده دليلاً آخر، وهو أن رتشكوفسكي، وقبل صدور البروتوكولات في روسيا، كان قد أشاعَ في فرنسا أن اليهود شركاء في تحالف هدفه السيطرة على العالم، وأن هذا التحالف هو الذي يُملي ما يجري على الساحة الأوروبية من تحركات سياسية. وقد تبيّن أنه في عام 1902 صدر في باريس كتاب بعنوان "الفوضى والعدمية"، استعمل مؤلفه الاسم المستعار جيهان بـــريـــڤـــال Jehan-Preval، وثمة من يقولون إن المؤلف الحقيقي ليس سوى رتشكوفسكي بذاته. اكتشف جورج بعد قراءته لهذا الكتاب أن الآراء الواردة فيه تُحيل إلى **بروتوكولات حُكماء صهيون**.

وجد رتشكوفسكي في باريس عداء أشدَّ دهاءً للسامية مما هو في روسيا، إذ أنَّ أساليب الأوخرانكا الوحشية لم تناسب الطابع الفرنسي، فالفرنسي لا يمكن أبدًا أن يجعل شعاره "اقتل يهوديًا وأنقذ الدولة". في روسيا أُملِيَت معاداة السامية من قِبَل المحافل السياسية، ودُبِّرَت المجازر على يد عملاء الشرطة. يختلف الحال في فرنسا؛ فهنا أتت المبادرات من المجتمع الراقي، وتم تطوير

الوسائل التي استخدموها ضد اليهود بحرفة وذكاء على يد الصحافيين والكتّاب وذوي المواهب. أعجِب رتشكوفسكي بتلك الوسائل واختار نقلها إلى روسيا.

لم تكن البروتوكولات لتأتي إلى العالم لولم يكن ذلك المزيج من الأفكار الفرنسية والتكتيكات الروسية، فكّر جورج وقد خطرت بباله قصة يعقوب وعيسو، وقال: الصوت صوت فرنسا واليدان يدا روسيا. كان هناك بالطبع صوت درومونت وإيلي دي سيّون، اللذين قدّما الفكرة الشيطانية، وكانت هناك أيدي رتشكوفسكي وأعوانه لتنفيذ عملية التزوير. بذلك شهد كلٌّ من غولوبينسكي وبينت أمام شهود أهل للثقة. ليس هذا فحسب، إذ أنه يكفي النظر إلى اللغة الفرنسية السيئة التي كُتبت بها فقرات من البروتوكولات، والتي لم يتم نقلها عن كتاب جولي. لا يمكن لمزيِّف فرنسي أن يكتب هكذا، قال جورج، إن في هذا وحده دليلاً قاطعًا.
لم يتمكن جورج من العثور على علاقة مباشرة بين رتشكوفسي وغلينكا، لكن يمكن الافتراض أنهما التقيا في صالون جولييت. من تراه صاحب فكرة إعطائها المخطوطة لتنقلها إلى روسيا؟ وما هي التعليمات التي تلَقَّتها؟ وكم من الحقيقة كان في ذلك التوجّه؟ لا يمكن أبدًا معرفة الدور الذي أداه كل واحد من أفراد هذه الجماعة في تأليف البروتوكولات، لكن من الواضح تمامًا أن جميعهم قد ساهموا في استغلال كتاب موريس جولي من أجل الافتراء على اليهود.

أغمض جورج عينيه، وراح يتصوّر أنه يسمع ضرب حوافر الخيل وضجيج عجلات المركبات فوق حجارة الشارع، وصوت البوّاب في صالون جولييت الفخم. بدَت لخياله فخامة ذلك الصالون، بسجاده الناعم وأرائكه المنجدة بالحرير الأملس، والمناضد الموزعة في الزوايا، والخدم بزيّهم الأسود حاملين بين أيديهم آنية النُّقل والتضييفات. وأما المضيفة فقد بدت له دائمًا تتوسط مجموعة رجال، وتشارك أحيانًا في جدالات سياسية

محتدّة. ليته كان يستطيع استحضار اللحظة التي وُلدت فيها فكرة البروتوكولات. فكّر جورج: ترى، من كان أول من ذكر كتاب جولي؟ ومن الذي ذكر كتاب هرمن غوطشه؟ فمن الواضح أنهم استعانوا لتأليف البروتوكولات بالمسرحية التي كان ميدانها مدافن براغ. لن يعرف أبدًا الإجابات لكل هذه الأسئلة، فكّر جورج منتقضًا، حاثًّا نفسه على العودة إلى الواقع، إلى الاستعداد الذي يجب أن يكون عليه في اليوم السابق لبدء المحاكمة.

داهمه انهيار رتشكوفسكي وانتهاء المرحلة الفرنسية من حياته. لم يخطر ببال رتشكوفسكي أن يقع هو بنفسه ضحية لمؤامرة حيكت في القصر للقيصرة ورفيقاتها الغريبات. بدأت الحكاية أثناء الزيارة الملكية لفرنسا عام 1901. تذكّر رتشكوفسكي بمزيد المرارة كيف أنه أرسل بنفسه مانويلوف ليقدّم فيليب إلى القيصر وزوجته. هل كان بوسعه أن يتنبأ بما سيحدث؟

الأميرتان من مونت نيغرو هما اللتان توجهتا إليه ليحصل لفيليب على رخصة للعمل في مجال الطب. كانت الأميرتان تحثان طبيبهما الحبيب على الانتقال إلى روسيا، فطلب منهما أن تشفعا له لدى السطات الفرنسية من أجل الحصول على الترخيص المطلوب. تزلّفت الأميرتان لرتشكوفسكي وكالتا له الثناء والإطراء قائلتين إنه قد بلغهما أنّه قادر على كل شيء، فمن المؤكد أنه قادر على تلبية رغبتهما. لم يكن بتقديره أن رفضه لطلبهما سيؤدي إلى قيام جبهة خطيرة ضده داخل القصر. لكنه حين استعاد في ذاكرته الأحداث التي أدت إلى سقوطه، عزَّى نفسَه بأنه لم يكن آنذاك يملك الأدوات اللازمة لتقدير الموقف؛ فقد غاب عن روسيا زمنًا طويلاً، ولم يكن بإمكانه معرفة مكانة الأميرتين في البلاط الإمبراطوري. غير أنه حين توجه إليه الجنرال غيسّه، من سانت بطرسبورغ، طالبًا معلومات عن فيليب، قرر رتشكوفسكي فحص الأمر جدّيًا، فجنّد كل ما لديه من المصادر والأعوان، وسرعان ما وضعوا فوق مكتبه تقريرًا شاملاً عن سبُل خداع "أجير الجزارين"، كما اعتاد أن ينعته سِرًّا،

وعن افتراءاته. في الساعة التي شكرَ بها عملاءه على حسن عملهم الجذري، لم يكن رتشكوفسكي يعلم أن مصيره كان قد تقرّر. راح فيما بعد يفكر بمرارة: كانت تلك هي المرة الوحيدة التي قام فيها بعمل لصالح القصر، ولوجه الله، دون أي ربح أو إفادة شخصية، وهذا العمل بالذات عاد عليه بالمضرّة.

كان رتشكوفسكي فخورًا جدًا بالتقرير الذي أعدّه عن فيليب، لدرجة أنه فكّر أن يحظى بالثناء المباشر شخصيًا، فقرر ألاّ يبعث بالتقرير عن طريق القنوات المألوفة، وإنما سيحمله بنفسه إلى سانت بطرسبورغ في العطلة الوطنية القريبة المقررة في أبريل 1902، وربما يتسنى له أن يرفع التقرير شخصيًا إلى الإمبراطورة. مع أن طلب التقرير كان قد وجَّهَهُ إليه الجنرال غيسّه، إلا أن الأنظمة المشدّدة تمنعه من تجاوز المسؤولين عنه. فور عودته إلى بطرسبورغ طلب مقابلة وزير الداخلية سيفياجين. ذلك اللقاء في مكتب الوزير قد نُقش في ذاكرته نقشًا. كيف حدث وأخطأ رجل مثله، وبهذه السهولة والسذاجة؟ سأل رتشكوفسكي نفسه، وأجاب فورًا: يجب أن يلوم مبالغته بثقته بنفسه، تلك الثقة التي نمّاها إبان عمله في باريس، والتي أدّت إلى عدم مبالاته بنصائح الآخرين، بمن فيهم ذلك الرجل المجرّب والصديق المقرّب سيفياجين. يذكر رتشكوفسكي كيف اكفهرّ وجه سيفياجين عند قراءته للتقرير. أعاد قراءته مرّتين ثم ردّه إليه. فكّر طويلاً قبل أن ينطق بكلماته التي انتقاها انتقاء. قال إنه لا يريد، كوزير للداخلية، أن يكون شريكًا في هذه القضية، وأن من الأفضل ألاّ يعرف أحد أنه رأى التقرير، لكنه ينصح رتشكوفسكي كصديق أن يحرق التقرير، وأضاف يقول إن هذا التقرير سيجرّ المتاعب فقط، لكنه رفض التفصيل. غير أن رتشكوفسكي كان شديد الفخر بتقريره، لدرجة أن كبرياءه قد أفقدته رجاحة العقل؛ فمن مثله يستطيع جمع تلك المعلومات الدقيقة في برهة زمنية قصيرة، يحللها ويضعها في وثيقة في غاية الإقناع؟ لا بدّ أنهم سيشكرونه يومًا ما. كيف يمكن إبادة مستند من شأنه أن يخلّص القيصر والقيصرة من براثن ذلك المغامر عديم الكوابح؟ الحقيقة، قال

سيفياجين، هي أنهما لا يريدان أن يخلصهما أحد، بل إنهما يغضبان من كل محاولة للمس بساحرهما والتآمر على مكانته في القصر. "إني أنذِرُكَ، فأنتَ تعرّض نفسك للمخاطر"، قال في نهاية حديثة.

رغم أن رتشكوفسكي تجاهل نصيحته، لم يشأ سيفياجين أن يفقد عميلاً ممتازًا، لكنه يستطيع حمايته طالما أنه يشغل منصبه فقط. عندما تم تعيين پــلافيه وزيرًا للداخلية مكانه، أدرك رتشكوفسكي أن أيامه في باريس أصبحت معدودة. كان پــلافيه يترقّب ذريعةً كافية لإقالته، وقد وجدها حين انكشفت على الملأ قضية بِدْعَة "الجامعة الروسية الوطنية" التي لم يكن لها أي أساس في الوجود، والتي كان هدفها المُعلَن "مقاومة قوّة اليهود الخفيَّة التي لا كوابح لها"، فتلك الوثيقة التي أوجدت الجامعة من العدم، والتي أُعِدَّت لغرض الدعاية بين الجمهور في فرنسا، تحوَّلت إلى مصدر إحراج للقصر والأوساط الحاكمة في بطرسبورغ. الحماية التي تمتع بها رتشكوفسكي زالت بجرّة قلم پــلافيه.

لكن وزير الداخلية الجديد، الذي حمل بغضًا شديدًا لرتشكوفسكي، لم يكتفِ بذلك. أرفق بكتاب الإقالة أمرًا بمنعه من البقاء في فرنسا أو العودة إلى روسيا. وكالعادة، صادق القيصر على قرار پــلافيه بإضافة لمسة خاصة منه بالمختصر المفيد: "تتوقف اتصالات رتشكوفسكي فورًا بالشرطة الفرنسية. يجب تنفيذ هذه التعليمات دون تأخير".

راجت شائعات، وقد كانت الشائعات في تلك الأيام مصدر المعلومات الرئيسي، مفادها أن پــلافيه قد دفع حياته ثمنًا لطرد رتشكوفسكي من باريس. لم يتم العثور على دليل مباشر على أن عملية الاغتيال قام بها عملاء رتشكوفسكي بناء على أوامره.

بيوتر رتشكوفسكي – قائد الشرطة السرية الروسية في باريس

لم تنتهِ سيرة رتشكوفسكي عند هذا الحد، فبعد سنوات قضاها في المنفى في بولونيا، أُذِنَ له بالعودة إلى العاصمة الروسية، وفي أغسطس 1905 عيّنه الجنرال طربوف رئيسًا للقسم السياسي في الشرطة السرية، وهو منصب له سطوته ويمنحه صلاحيات شبه مطلقة ومكانة متينة في مركز قوة الحكم.
لم يمضِ كثير من الزمن حتى جدّد حملته على اليهود. كان محبطًا لأن **بروتوكولات حُكماء صهيون** التي أرسلها من باريس إلى روسيا لم تحظَ بالنشر ولم تؤدِّ إلى الانقلاب الذي توقّعه.

لم يكن من قبيل الصدفة إذًا أنَّ إصدار البروتوكولات على يد نيلوس جاء في وقت قريب من تبوُّء رتشكوفسكي لذلك المنصب الرفيع، فكّر جورج في نفسه. هذا ليس تكهّنًا، قال لرفاقه، مذكّرًا بالوثيقة التي عثر عليها طاغر والتي تؤكد دور رتشكوفسكي في طباعة البروتوكولات في مطبعة بتشوكنيس.

الفصل العاشر

فِرْيَة في جنوب أفريقيا

في 22 أكتوبر، أي قبل بدء المحاكمة بأسبوع واحد، جاء ليفشيتس إلى مكتب جورج برونشفايغ ملوِّحًا بمظروف سميك. لعله ما يزال يجمع المواد؟ لكن يجب الكف عن ذلك، فكّر جورج وقال له إنه إذا بقي يصرف الوقت في القراءة فإنه لن يتمكن من إنهاء الاستعدادات الأخيرة للمحكمة على النحو السليم. لقد علّمه البروفسور ماطي أن على المحامي أن يتفرّغ في اليوم السابق للمحكمة، ويكرس وقته كله للتفكير والتخطيط، وألاّ ينشغل أكثر بمقابلة الشهود وقراءة المستندات والوثائق. "من الآن يجب أن تكفَّ عن سهر الليالي وأن تعوض النقص في ساعات النوم. إياك والحضور إلى قاعة المحكمة مُتعبًا مُشَوَّشًا، فهناك تحتاج إلى حدّة الحواس. لا أريد أن أرى إلى جانبي زميلاً محمرَّ العينين". وكثيرًا ما كان يحذر زبائنه طالبًا ألاّ يزعجوه أثناء المرافعة بتمرير البطاقات والملاحظات، مردفًا بغمزة عين: "إلاّ إذا كان في ذلك ما من شأنه التأثير دراماتيكيًا على مصير القضية".

"لن تغفر لي لو لم أحضر لك هذه المادة على جناح السرعة"، أجاب ليفشيتس. كانت قد وصلته لتوِّها نسخة لقرار صدر عن محكمة في جنوب أفريقيا بشأن قضية ضد تنظيم نازي محلّي، تشجب المحكمة فيه **بروتوكولات حُكماء صهيون**، بلهجة صارخة واضحة لا لبس فيها. ذلك القرار الذي صدر في الثاني عشر من أغسطس ترك أثرًا عظيمًا في جنوب أفريقيا. أثنى عليه رجال السياسة بشكل علني ونشرت الصحف المقالات الافتتاحية التي أدت إلى موجة من الانتقادات ضد الحركات الموالية للنازية، والتي كانت تنمو وتشتدُّ في الآونة الأخيرة وتحظى بدعم لا بأس به من قبل الجمهور. لا مفرّ، قال ليفشيتس، عليهم أن يدرسوا قرار المحكمة ليقرروا إن كان من المناسب إبرازه في محكمة بيرن. أوضح ليفشيتس أن وصول المادة قد تأخر لأن صديقه

المحامي في جنوب أفريقيا أراد أن يرسل أيضًا محاضر جلسات المحكمة، وقد وصلته لكنه أبقاها في البيت. قال إن صديقه المحامي قد ارتأى أن يسبق فيُطلعهم على التهجمات التي من المحتمل أن تنتظرهم في قاعة المحكمة في بيرن.

أعرب جورج عن أسفه لضيق الوقت الذي يمنعه من قراءة المواد كلها، لكنه كان يعلم أن ذلك سوف يُربكه فقط؛ فالمحكمة في جنوب أفريقيا تختلف من حيث ماهيتها عن محكمة بيرن، وهو لا يعتقد أن ثمة مجالاً لأن يبرز في المحكمة قرارًا لمحكمة أخرى في موضوع يُطلب من المحكمة البتُّ فيه.

أثناء حديثي مع إميل رآس ذكرَ كم كان من الصعب على جورج السيطرة على حب الاستطلاع والامتناع عن قراءة كل المواد التي وصلت من جنوب أفريقيا. كان منشغلاً في الإعداد الدقيق للأسبوع الذي يسبق بدء المحاكمة، ولم يشأ أن يعرقل إعداداته. حدثني إميل أن جورج، حتى بعد أن غدا محاميًا شهيرًا، لم تطأ قدمه أبدًا قاعة المحكمة إلا إذا كان على استعداد تام.

في تحقيقي الخاص حاولتُ اقتفاء أثر جورج برونشفايغ على مدى تلك المسيرة. أما أنا فلا يُطلب مني المثول في المحكمة بعد أسبوع، فصمَّمتُ في هذه المرحلة أن أنحاز عن الطريق الذي رسمته لنفسي، وقررت أن اتصفّح محاضر جلسات المحكمة التي أرسلها الدكتور ينكلوفيتش من جنوب أفريقيا. عاهدتُ نفسي أن أكتفي بالتصفح العابر قبل العودة إلى قضية بيرن. لكني حين استغرقتُ في قراءة المواد، ظهر لي أني انقطعُ تمامًا عن بيرن الجميلة التي أعرفها، وأبحرُ في خيالي إلى مدينة جراهامستاون التي لم أزرها في حياتي ولم أسمع بها أبدًا. وبدون أن أدري وجدتني عالقة في "مسرحية" جرت أحداثها في ذلك البلد البعيد قبل خمسين سنة ونيف.

تزييف من الطراز الجنوب- إفريقي

هناك أيضًا، كما في بيرن، بدأ كل شيء في مؤتمر عام، وعلى الأصح، في مؤتمرين، الأول في 27 مارس 1934 في مدينة أبردين Aberdeen، والثاني في 4 أبريل من السنة ذاتها، في ساحة سوق الريش في بورت إليزابيث. رفضت البلدية منح ترخيص لإحياء المؤتمر الثاني في قاعة كائنة في تلك الساحة. في الإعلانات التي دعت الجمهور للمشاركة في المؤتمر ذُكر بصريح العبارة، وبالحروف البارزة، أنه يسمح للمسيحيين فقط المشاركة في المؤتمر. في ذَينك المؤتمرين قام الخطيب، يوهانس شطراوس ڤـون مولتكه، بقراءة مضمون مُستنَدٍ بأعلى صوته، تخللها ترجمة إلى لغة الأفريكانز، مُدّعيًا أن المستنَدَ سُرِقَ من كنيس يهودي في وسط بورت إليزابيث، وأن سارقَهُ، فيكتور اينش Inch، هو الذي أحضره إليه بنفسه.

في 6 أبريل نشرت الصحيفة الأسبوعية داي رابورت Die Rapport المستند بكامله باللغة الإنجليزية، وفي 13 أبريل بلغة الأفريكانز، مُشدّدة على أن المستند قد سُرِقَ من الكنيس اليهودي الكائن في الطريق الغربي في بورت إليزابيث. في الصفحة الأولى وبالحروف البارزة والخط العريض، أطلقت الصحيفة صرخة مدوية، فكتبت: "لأول مرة في تاريخ جنوب أفريقيا يصل إلى أيدي المواطنين غير اليهود، مستندٌ يسلّط الأضواء على اضطهاد اليهود للأغيار، على مستوى عالمي منظّم".

كان ڤـون مولتكِه مدير فرع في اللواء الشرقي لمنظمة دُعيت باسم "الحركة الاشتراكية الوطنية لغير اليهود في جنوب أفريقيا"، وكانت أهداف المنظمة المعلنة: "مقاومة وتدمير التأثير اليهودي الفاسد على الاقتصاد، والثقافة، والدين، والأخلاق، ومراكز السلطة، من أجل إعادة السيطرة الأوروبية الآرية لصالح كل المسيحيين في جنوب أفريقيا".

كان صاحب جريدة "داي ربورت"، وبوق الحركة وناشر دعوتها، شخص اسمه ديفيد هرمانوس أوليفييه Hermanus Olivier، وقد أعلن عن نفسه أن من واجبه "محاربة تأثير العرق اليهودي المُفسِد". وكان إينش قائدًا، في اللواء الشرقي، لحركة "القمصان الرمادية"، التي كانت فرعًا من الحركة الاشتراكية الوطنية وقدمت لها خدمات الحراسة.
وكما هو الحال في الدول الأخرى، نشأت في جنوب أفريقيا أيضًا منظمات نازية أخذت، بعد ارتقاء هتلر لسدة الحكم، تُظهر جرأة وتعلن أهدافها علانية.

في 1 نوفمبر 1933، عمّمَ وزير العدل، الجنرال سماتس، تحذيرًا للجمهور من مغبَّة محاولة تحريض الناس ضد اليهود عن طريق نشر المواد الدعائية، أو عن طريق الاجتماعات العمومية التي يتم فيها "إشاعة الافتراءات على الجالية اليهودية، بهدف إذكاء نار الآراء المسبقة والكراهية العنصرية". وقال أيضًا: "ثمة دلائل على أن هذه الافتراءات يجري نشرها على يد حركة منظمة، مصدرها، للأسف، في خارج البلاد، تحاول أن تستورد إلى جنوب أفريقيا أفكارًا مريضة من الماضي الذي عفا عليه الزمن". وقد أنذر سماتس، بوضوح لا لبس فيه، أنه إن لم يَكُن في توجُّهه هذا ما يكفي ويردع، فسوف يكتشف ناشرو السموم المعادية لليهود أنهم في ورطة. غير أنه لم يعد باستطاعة أي قوة أن توقف انتشار الحركة النازية، حتى ولا تحذير وزير العدل. **بروتوكولات حُكماء صهيون** التي دعوها "كتاب اللاساميين المقدّس"، والتي حصلت على اعتراف هتلر، وُزِّعت في كل أنحاء الدولة. لذلك اضطرَّت الجالية اليهودية من حين لآخر إلى طلب المزيد من الكتيب الذي أصدرته التايمز بمقالات فيليب غراڤــز، لتثبت زيف البروتوكولات. لكن المستند الذي يحمل في ظاهره توقيع "الحبر"، والذي تمت سرقته، كما يدّعون، من الكنيس المركزي في بورت إليزابيث، أثار استغرابهم الشديد. ذلك التوقيع العبثي "الحبر" دون ذكر الاسم، قرأه ڤــون مولتكِه على الملأ ونُشر في صحيفة أوليفييه. لم يكن ما يدعو لذكر

الاسم، فالكل يعلم أن الحبر إبراهام ليفي يشغل منذ سنوات منصب حبر الكنيس المذكور في المستند.
وصل التبليغ الأول من عدة أشخاص يهود شاركوا في المؤتمر النازي من قبيل الفضول. إيلين بيترسون، ربة منــزل، تمكنَّت من الحصول على نسخة من المستند الذي تم توزيعه في المؤتمر، كما اجتهدت في تسجيل ما نطق به الخطيب من تحريض وإهانات لليهود. كذلك أبلغ يعقوب كوهين، وهو صاحب مزرعة قرب أبردين، أنه شارك ضابطًا نفسَه، لاعتقاده أنه اليهودي الوحيد هناك. قال إن الخطيب اقترح على أبناء العرق النوردي في جنوب أفريقيا إنشاء منظمة للدفاع عن النفس في وجه "تلك القوة الغريبة المتمركزة في الكنيس اليهودي". هناك مشارك آخر، وهو موظف غير يهودي، اسمه سيسيل نيثلينغ ماكديرموت Cecil Neethling Mcdermot، أعرب عن امتعاضه في رسالة إلى صحيفة محلية، معبّرًا عن اعتقاده بأن المستند مزيَّف. جاء في رسالته أنه يشعر بالخجل الشديد، كمسيحي وكمواطن جنوب أفريقي، وأنه لا ينبري للدفاع عن اليهود، لكن حبه للاستقامة والعدل البريطاني يفرضان عليه أن يطلق صرخة "كفى!". وكتب يقول: لقد ساهم اليهود مساهمة كبرى في تطوير هذه البلاد، وفي تنمية الصناعة والتجارة، وساهموا في بناء المدن الكبرى، وحبذا لو أن منظمي المؤتمر توجهوا إليهم بالاحترام اللائق عوضًا عن التجريح والتشهير بهم.

في الكنيس الذي كان أيضًا بمثابة مركز جماهيري، اجتمعت فئة صغيرة. قرأ الحبر أبراهام ليفي على مسامعهم مضمون المستند، غير مصدّق ما ترى عيناه. كان ما يزال يعتقد أن القصة مجرد مزاح ثقيل، نكتة ممجوجة. قال لهم: من يصدق هذا الهراء؟ من يحمل هذه الأقوال على محمل الجد؟ لا، قالوا له، إنها ليست نكتة. في الماضي، تجاهل اليهود **بروتوكولات حكماء صهيون**، وظنّوا أن كل ذي عقل راجح يدرك على الفور أنها مزوّرة. أعرب المجتمعون عن مخاوفهم من أن يكون ذلك المستند أشد خطرًا من البروتوكولات على اليهود في جنوب أفريقيا، فحتى

الذين لم يكترثوا بأمر المؤامرة اليهودية للتسلط على العالم، لا يمكن أن يبقوا غير مبالين إزاء نوايا اليهود الجليّة للسيطرة على جنوب أفريقيا. إنها فرية جهنمية في غاية الدهاء، تستند إلى البروتوكولات. قالوا إن المستند قد يبدو دليلاً ثبوتيًا على أن المؤامرة اليهودية للسيطرة على العالم يجري تنفيذها حاليًا هنا، في وطنهم. لقد استخدم المزيفون نفس الوسيلة المجرَّبَة في تزييف البروتوكولات، وكأنهم لم يختلقوا فرية جديدة على اليهود، بل عرضوا "الخطة اليهودية" من أفواه اليهود أنفسهم. أبدى البعض توجّسه من أن يتم تقديم الأمور للجماهير وكأنّما من حسن الحظ أن كان هناك رجل غيور، تمكّن في اللحظة الأخيرة، مخاطرًا بحياته، من سرقة المستند من الكنيس في سبيل إنقاذ الوطن.

كانت بحوزتهم نسخة واحدة، ولم يكن في الكنيس جهاز لتصوير المستند، فتناقلته أيديهم واحدًا إثر واحد. بدا المستند كنسخة مكونة من أربع صفحات كُتبت بالآلة الكاتبة. في الزاوية العليا ظهرت العبارة: "النسخة الخاصة بالسيد م. لزاروس". (ألمح أحدهم إلى أن لزاروس هو صاحب مطبعة، لكنه لا ينتمي للطائفة). ظهرت تحت هذه العبارة الكلمات "كشير للفصح" بحروف عبرية مشوّهة، وتلتها بالإنجليزية الكلمات:"كتاب الذكرى" و "كتاب التاريخ". وفي الجانب الأيسر ظهرت أيضًا كلمات عبرية بحروف مشوهة "الجماعة المقدسة". تحت اسم لزاروس كُتبَ "المحاضرة رقم 2"، ومن تحتها "الموضوع: خطة هجومنا". من أجل اختصار الوقت، قرروا أن يقوم أحدهم بقراءة المستند بصوت عالٍ، بينما جلسوا فوق كراسيهم يصغون مطأطئي الرؤوس. كان في ظنهم أنهم اختبروا أبشع التلفيقات، لكن الأمر يختلف هذه المرةَ، قالوا في قرارتهم، فالخطر يداهمهم في عقر دارهم، ويتهدّد النسيج الاجتماعي والأجواء التي أتاحت لهم العيش في جنوب أفريقيا.

كان منهم من لم يكتفوا بسماع القراءة بصوت عالٍ، فطلبوا أن يقرأوا بأنفسهم المستند كاملاً. كان من الصعب التصديق أن يقوم

تنظيم، حتى لو كان نازيًا، بفرية كهذه. إنه تزييف ظاهر وفظ، فلا يمكن لمزيّف أن يستعمل الكلمات "كشير للفصح" في مستند لا علاقة له أبدًا بعيد الفصح أو بالطعام، إلاّ إذا كان غبيًّا. قال أحدهم بتهكم، إنه يعجب كيف لم يكتبوا "حليب نسله". لكن من ينتبه لهذه الدقائق في العبرية سوى اليهود؟

أدرجَ المستند المواضيع التي تشكّل خطة الهجمة اليهودية: "نظرتنا إلى المعتقدات المسيحية؛ المسيحي النجس؛ نحن شعب الله المختار؛ الانشقاق بين الكنائس؛ نهضة العقيدة الكاثوليكية؛ "القمصان الحمر" وكيفية محاربتهم؛ التعفن في مجتمع الأغيار؛ "عش ودع الغير يعيش" – هذا من مصلحتنا؛ خطتنا الاستعمارية مقارنة بالمستعمرين الآخرين؛ نظرتنا إلى الاشتراكية العالمية؛ الهجمة التالية؛ كيف نحقق هدفنا؛ كيف نجعل المسيحيين الكلاب يتوسلون لنا ليسلَموا، وكيف نرفض؛ خطتنا البلشفية."
تلت هذا البرنامج العام خطة تفصيلية، بدت كأنها تقرير شامل عن خطاب الحبر أمام أعضاء المجلس، بالنص التالي:

1- نظرتنا إلى المسيحية:

كما سبق وشرحتُ لكم في لقاءاتنا السابقة، فإن الطبقة الراقية من مواطني بورت إليزابيث اليهود، يبدون اهتمامًا بالمسيحية. لا شك أنكم تعلمون أننا السبب في الانشقاق الذي حصل في الكنيسة الكاثوليكية، فقد قام آباؤنا بدفع لوثر وغيره من الإصلاحيين لكي ينفصلوا عن الكنيسة الأم، وأعني الكنيسة الكاثوليكية، وكل ذلك لأجل خدمة أهدافنا الخاصة، ومن أجل تعجيل تنفيذ خطتنا للسيطرة على العالم. لحقت بالكنيسة الكاثوليكية أضرار جسيمة، وأما الكنيسة البروتستانتية فإنها تفتقر إلى روح الحياة. بدأ حبيبُنا، مجمع الكنيسة الكاثوليكية، الـــ R.C.C، يعود إلى الحياة بعد سباته العميق مدى مئات السنين. ها هو يصحو من سباته المستمر، وقد بات تأثيره ملموسًا أكثر وأكثر في أنحاء العالم. ألم يتحالف

الفاشيست موسليني مع البابا؟ أوليس هتلر كاثوليكيًا؟ علينا أن ندمره، لأنه يهدّد اشتراكيتنا العالمية.
سبق وأن قلتُ في جلسات سابقة لمجلس نوابنا إننا الشعب النقي. إن أبناء العرق الشمالي لا يختلفون في نظرنا عن الكلاب الصينيين أو الأتراك. كلهم أعداؤنا ويـــبغون إبادتنا. المسيحية مذهب ضال. حسب المفاهيم اليهودية كان الناصري نبيًا كاذبًا، ثمرة رحم كلبة قذرة، فحسب اعتباراتنا، هي لم تتزوج أبدًا من المدعو يوسف زوجها. في تلمودنا وكتبنا المقدسة الأخرى قيل بكل وضوح إنه سيأتي يوم يضطر فيه الأغيار إلى شرب بول اليهود وأكل برازهم.

2- "فرعون"

محاضرات عن اليهودية مقابل المسيحية، اللاسامية و "القمصان الرمادية" في جنوب أفريقيا.

كان فرعون ملك مصر أول النازيين، وأنا أعدكم أن هتلر سيكون آخرهم. سوف نقوم بإخصاء "القمصان الرمادية" على النحو التالي:
بلَغَنا أن ذوي القمصان الرمادية عازمون على عقد لقاء في سوق الريش بعد عيدهم مباشرة. نحن نقوم بكل التجهيزات، ستتخفّى مجموعات من شبّاننا الأوفياء بزيّ ذوي القمصان الرمادية. وسوف نزوّدهم بالأشرطة الرمادية وبالصلبان المعقوفة. مهمتهم إزعاج الخطباء، وإحداث الشغب، وسينشدون الأناشيد الوطنية، وهي في نظرنا نحن الأمميين، خالية من المعنى، لكن ذلك كله إعدادًا لأشد أنواع الشغب الذي سيعم المنطقة، من القاهرة حتى رأس الرجاء الصالح. إننا مستعدون للقتل والاغتيال. اضربوا عن اليمين واليسار كلما اعترضكم وجهٌ من الأغيار. المعدّات التي عليكم إحضارها تشمل: حاويات الفلفل، الهراوت، القبضات الحديدية، المسدسات، الأنابيب الرصاصية، العصي، قفازات الملاكمة. جهَّزنا

أيضًا وحدة من الشباب تتخذ مواقعها بجانب السياج، تكون جاهزة، إن لم تتواجد الشرطة، لقذف الحجارة من خلال النوافذ. أما نحن، فدائمًا نخرج بلا إصابات. لقد بقينا بعد انهيار كل الإمبراطوريات. نحن مختارو الرب الأعلى الذي يوجهنا ويبارك كل خطواتنا، وأما معبودنا فهو الذهب. إن هذه الكلاب الرمادية ليست في نظرنا سوى هبَّة ريح عابرة في يوم شتائي – فنحن، مِن خلف الكواليس، نسيطر اقتصاديًا وسياسيًا. أجل، نحن المختارون الموعودون بكل هذا؛ كنوز هذا العالم، المجد، السلطان، والسيطرة على كل "الحيوانات" في العالم.
أكرّر القول إن المسيحية هي دين الشيطان، تناسب هؤلاء الكلاب المهرولين إلى الكنائس ليفحصوا إن كانت جاراتهم ترتدين القمصان القطنية البسيطة، أو الموديلات المستوردة من باريس. يا للغباء. حماقة محضة!

أؤكد لكم أن شعار الكنيسة "عِش ودع غيرك يعيشْ" هو ثروتنا الكُبرى. على نقيض الإمبراطورية البريطانية التي ساعدت الثقافة المسيحية على الانتشار، ستعمل امبراطوريتنا على هدف معاكس. نحن نمثل الشيوعية العالمية، ودكتاتورية الطبقة العاملة (البروليتارية)، إن استعمارنا، وشعاره "السلام اليهودي" (Pax Judaica)، يصبو إلى القضاء على الحضارة الغربية وفرض سيادة الحضارة الشرقية أو اليابانية. لقد شاهدنا تطور الاتحاد السوفياتي منذ عام 1917، حين قام عملاؤنا من أمثال لينين وستالين باغتيال القيصر. إن البابا استعماري ديني، وكونه كذلك فهو يشكل خطرًا على خطتنا العالمية. سوف نسيطر على الاتحاد the Union كما سيطرنا على روسيا، وبهذا نحقق هدفنا في تدمير الإمبراطورية البريطانية، عن طريق الدعاية للحرب التي ستؤدي إلى سقوط الإمبراطورية كما سقطت من قبلها روما العُظمى. أما نحن فالبقاء لنا دائمًا وأهدافنا تتحقق. تلك هي رسالة

يهودا. إن خطتنا هي أن نمنح جنوب أفريقيا للسكان الأصليين. قال عبد الرحمن، كما أفاد عملاؤنا الأمناء: "إن جنوب أفريقيا، وأفريقيا كلها للرجل الأسود". لدينا يقين يرتكز إلى أساس، أنه لو تم ترك جنوب أفريقيا لسيطرة نسل حام، فلن يلحقنا أي أذىً. البريطانيون لا يعلمون شيئًا عن تخطيطنا لنهب كل ما طوروه من الأصول، وأما الهولنديون فإنهم أفضل مثال لفساد الأغيار، وقيمتهم كقيمة اللحم المحرّم، لحم الخنــزير الذي يأكلونه بكميات هائلة. وأما المواطنون الأصليون فلا أهمية لهم. إنهم عديمو العقل مثل أبناء عمومتهم التوتونيين – مغتصبون، لصوص وجواسيس.
الصحف التي موّلت فعالياتنا هي: القيصرة EMPRESS، السيد بارلو Barlow أعدَّ بموافقتنا المسرحية الاشتراكية الساخرة المعادية للنازية، والسيد لزاروس أعدّ البرنامج الدعائي.

سوف نفتِــلُ رؤوسَ الجماهير بخداعنا ونجعل إيمانهم بالقول "عِش ودع غيرك يعيش" يتعزَّز أضعاف الأضعاف. سنغذيهم بكل الزبالة التي تستوعبها عقولهم الصدئة القذرة. إن هتلر، وغرينغ المجنون، وفون بافن، وكل المصاريع الآخرين، ووحدة مستشفى مجاديبهم، القمصان الرمادية، مسؤولون عن الدمار والإجرام بحق الحضارة التي بنيناها. يغتصبون نساءنا، يغتالون شيوخنا، يفجّرون ويحرقون كُنُسَنا، يلقون بأطفالنا فرائسَ لكلاب صيدهم، يُرقِصون أطفالنا فوق الجمر حتى يكتووا، ويأمرون الأزواج بالعَدْوِ في ممرات أنديتهم ليجلدوهم بالسياط كيفما اتفق. هذه المخلوقات الحقيرة، أولاد الأرحام الموبوءة، لا يدركون مدى الخطر الياباني على أوروبا وأفريقيا.
أيها الإخوة! لقد عانيتم أجيالاً طويلة من الكراهية والإذلال، لكن في المستقبل القريب، ستحترمكم كل

الأعراق في العالم وتقبّل أرجلكم. سوف ينحنون أمامكم ويكيلون المديح لكم، وسوف يعترفون بأنكم المختارون. وسيكون مَلكنا المنتخب ملكًا للأرض كلها، بما في ذلك العالم الشيوعي. وبالتالي يتحقق "تلمود التوراة" والنبوءات، ويمكن القول إننا نقف على العتبة.

إني أستحلفكم بحياتكم، أن تواظبوا على هذه التعليمات، وألاّ تكشفوا لأحد مضمون هذه الصفحات، حتى لأقرب أقربائكم. أنتم تعرفون القانون، وتعلمون ما هي النتائج. المواد الدعائية التي ستصل من موسكو عمّا قريب ويتم حفظها في الكنيس في الطريق الغربي، سيتم تسليمها عندما يحين الوقت لأيدي النقابات المهنية الأمينة والـــ S.U.F. وسنغرس في أدمغة الأغيار العوجاء أننا "قادرون على كل شيء".

صدر عن الهيئة العليا للجنة الدفاع في وجه الدعاية النازية C.X.V.O. 3838 وأُقرَّ للاستعمال من قبل أمين السر وأعضاء المجلس الستة.

التوقيع: الحبر

أصابت الصدمة جميع الحضور وساد الصمتُ بعد أن انتهى الحبر من قراءة المستند، لكن سرعان ما احتدَّ الجدل. نصح البعض بتجاهل الموضوع، لاعتقادهم أنه مجرد سحابة عابرة، قائلين إنه لا يمكن لإنسان ذي عقل سليم أن يصدق ذلك، وأن عددًا محدودًا من الناس المتطرفين فقط شارك في المؤتمر، وانَّ اتخاذ إجراءات قضائية ضدهم من شأنه أن يعمّم الخبر ويوسع انتشاره، وأن النازيين لن يجرؤوا على نشر المستند في جريدة أو نشرة. أخيرًا قرروا التريث وعدم اتخاذ خطوات متهوّرة. لكن لم تمضِ أيام حتى نشرت صحيفة داي ربورت Die Rapport المستند بكامله بلغة الأفريكانز، وبدأت ترد الأخبار عن انتشار تأثير المستند بين الناس.

شرطي سابق اسمه ستيفن جون مور Stephen John Moore من أتباع الكنيسة الرسولية، سُمعَ وهو يحدّث جارًا له بمرارة، عن مدى تأثره برسالة فــون مولتكه: "يقولون لنا إنّ جون بول (إشارة إلى الإنجليز) هو من استبدّ بنا ونهب ثرواتنا من الجواهر، يتضح الآن أن من فعل ذلك هو اليهودي متسترًا بشخص جون بول"، وقال إنه طالما تذمّر من تسمية اليهود لهم "أغيار"، يظهر الآن أن معنى الأغيار "الحيوانات"! يا لهذه المهزلة!

أما إيليس شارلز سيمبسون، وهو ميكانيكي شارك في المؤتمر، فقد حدّث زملاءه في الورشة عن قلقه من أن "عنصرًا سافلاً كهذا يجوب أنحاء العالم، يذمّ المسيحيين، ويكيد للعدالة البريطانية التي حمتنا طوال السنين". وأضاف أنه قال لأصدقائه اليهود إنه إذا ثبتت صحة الأمر سيكفُّ عن طرح السلام عليهم. "إن الخطاب الذي سمعتُه قد أثارني وأجّج في قلبي نار الرفض لليهود. أفهمُ أن لديهم خطة عالمية تشمل بنودًا تتعلق بجنوب أفريقيا.

وأما ابنهايزر فوري Ebenhaezer Fourie وهو تلميذ كان يعد لامتحانات الشهادة الثانوية، فقد شارك في المؤتمرين، ووصف لزملائه كيف كان المشاركون يتقلدون الصلبان المعقوفة. قال إنه اهتم بقراءة المستند، وعرف مدى ما يجيش في صدور اليهود من كراهية للمسيحيين، وقد اتضح له الآن أن اليهود يجمعون بين أيديهم كل ثروة جنوب أفريقيا.

يعقوب بطرس يوحنا كروجر Jacobus Petrus Johannes Kruger مزارع أعزب، قرأ المستند في الجريدة. قال لأصدقائه حين اجتمعوا لارتشاف البيرة، إنه بات على قناعة من أن اليهود كلهم شركاء في هذه المؤامرة الشنيعة: "حين أنظرُ إلى ما يجري حولي، أُومِنُ بكل ما ورد في المستند"، وأضاف: "يتقدّم اليهود ويسيطرون حتى على مزارعنا".

بعد أيامٍ قليلة، توصل مجلس الطائفة إلى قرار. لقد نشأوا على الثقافة البريطانية وكانوا يثقون إلى أبعد حد بجهاز القضاء. كانوا على علم بقضية بيرن، لكن الطريقة البريطانية تختلف. رغم كون المستند يشكل هجومًا على الجالية اليهودية بأكملها، وليس على الحبر بالذات، لكن بما أنه يبدو كما لو كان يحمل توقيع الحبر، ويحتوي ظاهريًا على خطابه أمام المجلس، فمن المفروض أن يتم رفع الدعوى باسمه شخصيًا.

لم يمضِ كثيرُ وقت حتى تم تقديم دعوى تعويضات مدنية، في المحكمة الأولية، في غراهمستاون اللواء الشرقي، باسم الحبر أبراهام ليفي، ممَثلاً بواسطة المحاميين رينولدز (King’s Counsel) وستيوارت، ضد المدّعى عليهم يوهانس شطراوس فـــون مولتكه و ديفيد هرمن أوليفييه (جونيور) و هنري فيكور إينش.

تم تعيين بحث القضية لتاريخ 10 يوليو 1934 أمام قاضيين هما القاضي ط. ل. جراهامز والقاضي س. غوطشه، وقد قرر القاضيان توحيد الدعاوى، التي قُدمت على انفراد ضد كل من المدّعى عليهم، في قضية واحدة.

نظرًا لأن القضية لا تهم الحبر بمفرده فقط، فقد تم تعيين لجنة خُوِّلت بتوجيه المحامين. اجتمعت اللجنة بالمحامين في الكنيس حيث تم بحث التفاصيل المتعلقة بالقضية. حَدَّدَت الادعاءات، التي قدمها كلٌّ من الطرفين في الوقت المحدد، جوهر الخلاف. لم يبق سوى أسابيع لبدء المحاكمة، وقد بدا أن القاضيين عازمان على إدارة القضية بكل جدية ونجاعة والانتهاء منها في أسرع وقت. كانت نقاط النزاع واضحة: هل حقًّا تمت كتابة المستند، الذي نشره المدّعَى عليهم في الكنيس ومن هناك سرقه إينش ظهر يوم 24 مارس، كما يدّعي، أم أن المستند زائف وكاذب، كتبه مَن كتبه لمجرّد تحريض الجمهورعلى اليهود، حسب ادّعاء المدَّعي؟ بموجب المألوف في الظروف الطبيعية في محكمة من هذا النوع، كان من المفروض أن تنتهي القضية خلال أيام معدودة.

حين تم استدعاؤهم إلى الاجتماع في الكنيس، قيل لهم إن موضوع البحث هو تركيب قائمة الشهود، لكن سرعان ما احتدّ الجدل، إذ كان هناك من رأى ضرورة المحافظة على الوضاعة والهدوء، نظرًا لأن القضية بسيطة، ولن يسمح القاضيان بأن يجعلوا منها قضية درايفوس؛ فليس من واجب المحكمة أن تتجنّد لمحاربة اللاسامية. قالوا أيضًا إن القاضيين سيقتصران على البيّنات ذات العلاقة بموضوع النزاع، كما وردت في لائحة الادّعاء. لم يستند المدّعى عليهم إلى **بروتوكولات حُكماء صهيون** في دفاعهم، ولم يدّعوا وجود مؤامرة عالمية. إننا بصدد خلاف محلي ولن تحتمل المحكمة أية محاولة لإدخال كل مشاكل يهود العالم إلى قاعتها. من جهة أخرى، ارتأى آخرون أنهم إذا حصروا القضية بموضوع سرقة المستند فقط، فإن في ذلك تجاهلاً للغاية الأساسية منه. أصبح المستند على ألسن الناس في المدينة، يتحدثون عنه في كل مكان، مما يلحق الضرر بكل الطائفة اليهودية. القضية ليست قضية تشهير بشخص الحبر أو بالكنيس، بل إنها فرية رهيبة على كل الشعب اليهودي. يستحيل أن ننحصر في عملية سرقة المستند فقط، فالذي سيذكره الناس في المستقبل هو فحوى المستند وما قيل فيه عن اليهود. ليس بمقدور اليهود مواجهة النازيين في ساحة المدينة، إنها فرصة ذهبية لمواجهتهم في قاعة محكمةٍ أبوابُها مفتوحةٌ للجمهور، من أجل أن يفهم المزيفون أن قواعد اللعبة تختلف هنا، وأنهم لا يستطيعون في هذه الحالة التستر وراء أكاذيبهم البذيئة. قالوا إن عليهم استغلال هذا المنبر لمواجهة موجة اللاسامية النازية الجارفة. ربما لا تسنح فرصة أخرى كهذه.

هنا تدخّل المحامون قائلين إن المحكمة هي من يقرر بالتالي قوانين اللعبة، لكنهم سيجهزون الشهود المناسبين لكل موضوع، ويراقبون كيف تجري الأمور.

ينجح المحامون عادة بتمديد القضايا بحجة أنهم بحاجة إلى وقت لإعداد الشهود والادعاء، لكن هذه المحكمة حملت طابعًا استثنائيًا،

فقد استمرت على مدى عشرة أيام كاملة، من 10 حتى 24 يوليو، (بخصم أيام العطلة الأسبوعية)، انتشرت برتوكولاتها، التي أعدّها المتقاضون طوال شهرين، فوق 700 صفحة. لم يمضِ أكثر من شهر حتى أصدر القاضيان، في 31 أغسطس 1934، قرارهما المُعلَّلَ الممتد على 13 صفحة.

لو أنابَ المدّعى عليهم من يمثلهم قانونيًا، لكان الموكَّلَ عنهم قد نصحهم أن يقتصروا على وقائع النــزاع التقنية فقط، لكن إينش وڤــون مولتكه قد دخلا قاعة المحكمة، يوم بدأتْ، بما يشبه العرض العسكري، مرتدِيَين زيًّا شبه عسكري. أعلنا أنهما لا يملكان المال لاستئجار محامٍ يمثلهما، فكل الأموال بيد اليهود. أدرجا سلسلة من الادعاءات التقنية، ومن ضمنها أن ليس ثمة إثبات على أنهما كانا يقصدان هذا الحبر بالذات. سرعان ما أدرك المحامون أن صيغة النزاع سيحددها المدّعى عليهم، وبات واضحًا أنهم سيحولون المحكمة إلى منبر لبثِّ دعايتهم. كانت كل الدلائل تشير إلى أن المدّعَى عليهم لا ينوون حصر النقاش بموضوع المستند أو بشخص الحبر، فقد اضطرُّوا المحكمة لأن تتطرق إلى ما يدّعونه عن وجود مؤامرة يهودية عالمية من أجل السيطرة على العالم. ادَّعَوا أن المستند الذي سُرق من الكنيس ما هو إلاّ صورة محلية تشكل جزءًا من خطة تتناول العالم كله. لدهشتهما، وخلافًا لما توقعاه، وجد القاضيان نفسيهما مضطرَّين من الآن، ليس فقط إلى البت في قضية ذلك المستند، وإنما أيضًا في صحة **بروتوكولات حُكماء صهيون**. لو كان الأمر بيديهما لحصر القاضيان النقاش، لأسباب إجرائية، ولمَنَعا المدّعى عليهم من الخروج عن ادعاءاتهم كما وردت في لائحة الدفاع. يبدو أن المدّعى عليهم قد حصلوا على مشورة قضائية، فقدّموا للمحكمة التماسًا لتعديل لائحة الدفاع. أعلن ڤــون مولتكه، باسم الثلاثة، أنهم يريدون الآن تقديم "تبرير"، فحتى لو كانوا قد ارتكبوا عملاً يخالف القانون، فإن بوسعهم أن يثبتوا أن ثمة مبرر لعملهم، من حيث أنهم عملوا بدوافع وطنية. سيدّعون الآن بكل صراحة أن هنالك مؤامرة يهودية عالمية تشكل خطرًا على العالم.

سألني أحد أصدقائي: هل كان من قبيل الصُّدف تزامن هاتين القضيتين، الهامتين جدًا بشأن البروتوكولات، في نفس السنة، وفي دولتين مختلفتين، وفي قارتين مختلفتين، دون أية علاقة بينهما؟

لم تكن تلك يد الصدفة، أجبته. كانت هناك دلائل واضحة على أن النازية تستعد لهجمة دعائية تستند إلى حجة أن اليهود يشكلون خطرًا بالغًا، ليس فقط على سلام العالم، بل على محض وجود الحكومات الشرعية في العالم المسيحي. "انظروا ماذا يريدون أن يفعلوا بنا، إن لم نسارع إلى معالجة أمرهم"، صرخ النازيون بأعلى أصواتهم. أوكِلَ إلى منظمة Weltdienst في إربورت، برئاسة أورليخ فلايشهاور، مهمة نشر البروتوكولات في أنحاء العالم، كجزء رئيسي من هجمتهم اللاسامية الهادفة إلى تجريد اليهود من حق البقاء، وإخراجهم خارج حدود المجتمع الشرعي. اعتبرت شعوب العالم، بما فيهم الجاليات اليهودية الساذجة، أن الأمر لا يعدو كونه هبّة لاسامية عادية، أو موجة عابرة؛ عزّوا أنفسهم بقولهم إن اللجوء إلى اتهام اليهود ليس بالتكتيك الجديد، فقد سبق ولجأوا إلى ذلك كذريعة للملاحقات والمجازر. ولا بدَّ أن تمرّ هذه الموجة كما مرَّت سابقاتها. لا يكفي أن أحدًا لم يفكر بأن كارثة حقيقية تقترب، بل إنهم رأوا في البروتوكولات سلاحًا قديمًا ومعروفًا. لو أن أحدًا قال في تلك الأيام، في بداية حُكم هتلر، إنه يستغل البروتوكولات ليس فقط كسلاح ضد اليهود، بل هو يتبنّى "الخطة اليهودية" ليسيطر على العالم، لاعتبروا قوله مبالغًا ومرفوضًا. لم يخطر ببال أحد أن يقوم هتلر باستعمال ***بروتوكولات حُكماء صهيون،*** *ليس فقط كقاسم مشترك لإنشاء الحركات النازية في البلدان الأخرى، إذ أن اليهود والمعادين للسامية موجودون في كل البلاد، وإنما يستعملها أيضًا للتمويه على تخطيطاته للسيطرة على العالم. من أين كان لهم أن يعرفوا ماذا سيكتب هرمن فون راوشنينغ فيما بعد في كتابه "****هتلر يتحدّث****"؟ قال له هتلر ذات يوم: "قرأت* ***بروتوكولات حُكماء***

صهيون، فدهشتُ حقًا، لدهاء العدوّ وعمق اختراقه! فارتأيتُ للتو أن علينا أن ننقل عنها – بطريقتنا الخاصة، طبعًا!"

عام 1934 لم يتنبه اليهود إلى اقتراب الكارثة. أسوة بكل مواطن محافظ على القانون، اعتقدوا أن بالإمكان مقاومة النازية عن طريق المحاكم. عندما طالعتُ محضر جلسات المحكمة، ولمستُ مدى التدقيق في الإجراءات، والمحافظة على الآداب، واللغة البليغة، حتى حين خرج المدّعى عليهم عن كل القواعد المألوفة وألصقوا باليهود التهم المذلة والتي لا أساس لها، وعندما قرأت قرار الحكم المُعَّلل والمبرّر بالاصطلاحات القضائية، خِلتُ أني أرى إنسانًا يُجهدُ نفسه لسد ثقب صغير في جانب قاربه، دون أن يدرك أن موجة كاسحة تقترب لتجرفه فيرتطم بالصخور ويتحطم، ولا ينجو أحد ممن فيه.

قضية في غراهمستاون

كان العاشر من يوليو يومًا باردًا وغائمًا، من أيام أواسط الشتاء في جنوب أفريقيا. منذ ساعات الصباح الباكرة تجمّع جمهور غفير في قاعة المحكمة. أُولي القمصان الرمادية، الذين لم يتمكنوا من دخول القاعة، تزاحموا في الخارج بلباسهم شبه العسكري، هاتفين بكلمات التجريح باليهود. الأجواء عدائية متوترة. برز حضور رجال الصحافة والمصورين. حين اتخذ القاضيان مجلسيهما ساد الصمت في القاعة.

وقف الحبر أبراهام ليفي على منصة الشهود رافعَ الرأس منتصب القوام. قام الموظف المعاون بتحليفه اليمين، ثم بدأ موكَّله باستجوابه، دون أي مقدّمات، حول الحقائق ذات العلاقة. ردًّا على سلسلة من الأسئلة الموَجِّهَة، شرح الحبر طبيعة العمل في الكنيس. قال إنه لم يرَ بتاتًا المستند الذي نشره المدَّعى عليهم قبل أن قاموا هم بنشره؛ وهو لا يقوم أبدًا بكتابة مواعظه؛ المواد الوحيدة التي تُرسلُ من الكنيس هي الدعوات للاجتماعات

الشهرية للّجنة، والتقرير السنوي، وهذه المواد تتم طباعتها في مطبعة، وليس على الآلة الكاتبة، ثم إنهم لا يملكون آلة كاتبة. والكلمات العبرية الظاهرة في المستند لا يمكن أن يكون قد كتبها يهودي، ولو كان جاهلاً. في هذه اللحظات كانت تنتظر الجميع مفاجأة جعلت الصحافيين يتناولون أقلامهم على عجل. فبعد الاستئذان، دنا الشاهد من القاضيين وأبرز لهما جريدة مطوية، مشيرًا إلى أن كل العبارات ذات الدلالة اليهودية الظاهرة في المستند تم نقلها عن عدد معين من الجريدة اليهودية The Jewish Chronicle صدر بتاريخ 9 مارس 1934، وأضاف الشاهد أنها جريدة تصدر في لندن، وأن العبارات قد أخرِجَت عن سياقها.

قرَّر المحامي رينولدز أن اللحظة مناسبة للتطرق إلى البروتوكولات:

"هل تلاحظ تشابهًا ما بين المستند هذا وبين **بروتوكولات حُكماء صهيون**؟"

"أجل"، أجاب الحبر مضيفًا بصوت متأثر أنه لا وجود لـــ "هيئة عليا لليهود في بورت إليزابيث"، لا وجود لـــ "مجلس نواب"، لا وجود لـــ "أمين سر وستة أعضاء مجلس". تم سابقًا تعيين أمناء اثنين، غير أنهما لم يكونا مخوَّلين باتخاذ القرارات بشكل مستقل، لكن الواقع هو أن هذين الأمينين يقيمان في انجلترا منذ 8 أو 9 سنوات، ولم يتم تعيين أحد بديلاً لهما.

ردًا على أسئلة أخرى أجاب الحبر أنه لم يسمع أبدًا عن تآمر اليهود مع لوثر وعن أنهم كانوا شركاء بحركة الإصلاح. "إنها نظرية جديدة تمامًا"، قال من خلال ابتسامة وقد لمح ابتسامة على شفاه القاضيين أيضًا. هذا يبشرُ خيرًا، قال لنفسه.

ليس لليهود "حركة اشتراكية عالمية"، أضاف قائلاً بتأثر: ولا أساس للادعاء بأنهم السبب في الثورة الروسية، فمن كان شيوعيًا من اليهود، فقد تخلّى عن إيمانه الديني، فالبلشفيون لا يحترمون

أيَّ دين. لا وجود لكتاب اسمه "تلمود التوراة"، وهذا المصطلح يعني مدرسةً وليس كتابًا. لا يمكن أن يقع اليهودي في خطأ كهذا. لاحظ القاضيان الابتسامات التي تبادلها اليهود في القاعة. نزولاً عند طلب المحامي رينولدز، وضع الحبر نظارتيه على عينيه وأعاد قراءة المستند قبل متابعة شهادته، قائلاً إنه لم ينظّم أبدًا أية مشاركة في مؤتمر ذوي القمصان الرمادية، ولم يُصدر تعليماته لأحد بضرب الأغيار على اليمين واليسار، ولا بالتزود بحاويات الفلفل والهراوات والمسدسات والأنابيب الرصاصية والعصي وقفازات الملاكمة. ثم قال، وهو يرفع عن عينيه نظارتيه مصوبًا نظره نحو القاضيين، إنه لم يسمع بمثل هذه الحماقات من قبل.

السؤال التالي الذي أراد رينولدز طرحه كان موضع جدل بين المحاميَين. أبدى المحامي ستيوارت توجّسه من أن يتم تفسير الأمر كإساءة استغلال للهيئة القضائية. ارتأى رينولدز أن من الضرورة إطلاع القاضيَين على مفهوم بعض المصطلحات اليهودية، وإلاّ، فكيف للقضاة الأغيار أن يقدّروا استحالة الادعاءات الواردة في المستند؟ كانا قد ناقشا الموضوع مرارًا، وكان رأي ستيوارت أنه يجب ألاّ نُحيي حلقة دراسية في قاعة المحكمة، فقد يثير ذلك غضب القضاة، والأمر الأشد خطورة، أنه قد يستدعي مللهم. لكن رينولدز، كمحامٍ قديمٍ ومجرِّب، كان يقول دائمًا إن من أجل كسب قضية ما، لا يكفي إعداد شهودك، فاللعبة ليست لعبة فرد، إنها مواجهة مع طرف آخر، وعليك أن تعي ادعاءاته تمامًا كما تعي ادعاءاتك. يجب ألاّ تتعامى حتى عن الادعاءات التي لا أساس لها، فمن المحتمل أن يكون لها لدى القاضي اعتبارًا مغايرًا. إن تجاهل ادعاء الطرف المقابل، أو الاستهتار به، هو من أهم الأسباب لخسارة قضية، وأكثرها شيوعًا.

كان رينولدز قد كرّس الساعات الطويلة، في الأسابيع السابقة، لدراسة **بروتوكولات حُكماء صهيون**. جمع مختلف إصدارات الكتاب، وتركّز في مقدماتها التي اختلفت عن بعضها. أدرك

للحال أن البروتوكولات تحتل مكانة عصرية في ما يسمونه "الخطة اليهودية" أو "المؤامرة اليهودية" التي يرتبط تاريخها بتاريخ اليهود. اعتاد ناشرو البروتوكولات، تأكيدًا لادعاءاتهم، على اقتباس مقاطع من التلمود واستعمالها مشوهةً، من منطلق اعتقادهم بأن القرّاء غير قادرين على التأكد من صحتها. وأحيانا أوردوا اقتباسات سليمة، ليُظهروا أنهم أكاديميون. خشية أن يحاول المدّعى عليهم انتهاج هذا الأسلوب، قرّر رينولدز أن يستعد الاستعداد اللائق. إثر حديثه مع الحبر بهذا الشأن، لمس لديه إلمامًا عميقًا بالموضوع، مما شكّل أساسًا لثقته بأن القاضي لن يملَّ. مع ذلك، أحسَّ أن من الضرورة بمكان أن يجد شاهدًا خبيرًا آخر، من غير اليهود، خاصة وأن الحبر كان قد أعرب له، للأسف الشديد، عن مخاوفه من عدم تصديق أقوال خبير يهودي، حتى ولو كان شهيرًا. لو جاء قرار المحكمة في صالح الادعاء، فسوف يتهمون القضاة بأنهم "في جيب اليهود". "صدِّقني"، قال له الحبر بأسىً، "هذه ليست پـــارانويا يهودية، لكنها نتيجة خبرة سنوات عديدة".

آملاً أن يبدي القاضيان رحابة صدر وصبرًا، توجّه رينولدز إلى الحبر بلهجة معتذرة: "يقولون في المستند إن المسيحيين سوف يضطرون إلى شرب بول اليهود وأكل برازهم، وأن المؤامرة اليهودية ضد المسيحيين قائمة منذ أجيال كثيرة، وأنها ترضعُ من كتب اليهود المقدسة وتستند إليها".

"هذا كذب"، صاح الحبر. لكنه سرعان ما أخفض صوته، وراح يوضح بهدوء وأناةٍ، أن التلمود يحتوي على جدل حول "المشنة"[4]، دار بين العلماء اليهود على مدى 1000 عام، قبل الميلاد وبعده. في البدء كانت التوراة الشفهية، وبعدها جاءت التوراة المكتوبة

[4] المشنة أو المشنا: هي مجموعة من الشرائع اليهودية المروية على الألسن، كان اليهود – وما يزالون – يعتبرونها مصدراً من مصادر التشريع يأتي من حيث المقام بعد التوراة مباشرة . (المترجم).

التي فسّر فيها العلماء النص الأصلي. هذا هو ما يسمى "الـــچـــمارا" وهذا هو "التلمود"، وهو يحتوي على آراء مختلفة ومتناقضة تمثل وجهات نظر مختلف العلماء. إن الادعاء بوجود مؤامرة مصدرها التلمود هو سخافة محضة.

لم يقاطع القاضيان الحبر، حتى بعد أن أضاف بمبادرته شرحًا مُختصرًا عن التاريخ اليهودي. لقد فوجئ المحاميان أيضًا حين ذكر الحبر أن العبارات التي اقتبسها المدّعى عليهم من التلمود قد سبق وأن كانت موضوع نقاش قانوني في إحدى محاكم ألمانيا. خَّيم الصمتُ على القاعة، بينما تابع الحبر الإدلاء بشهادته بصوته الرزين، موضحًا أن الادعاءات اللاسامية في العصر الحديث تعتمد، إلى حد بعيد، على تشويه نصوص يهودية. بدأ بذلك رجل يدعى إيسنبرغر في كتابه "اليهودية سافرةً" (Judaism Unmasked) الصادر عام 1700. وفي نهاية القرن التاسع عشر ادعى البروفسور النمساوي روهل Rohle أن النصوص في ذلك الكتاب مأخوذة من التلمود. قام رجل يدعى بلوخ بمقاضاته، فطلبت المحكمة إبداء الرأي من "شركة أبحاث العلوم الشرقية" بالإضافة إلى رأي عالمين شهيرين هما: نولدكِهْ و ڤـــينطشهْ، فقام هذان بفحص 400 نص، وبرّأوا التلمود من كل ما ألصقوا به من العيوب. وقد اضطرَّ روهل إلى إلغاء دفاعه والاعتراف، بمزيد من الخجل، أنه شهد شهادة زور.

هنا توجّه الحبر نحو المدّعى عليهم، مشيرًا إليهم ببنانه، قائلاً إنهم استخدموا ذات الفقرات التي أدانتها المحكمة في ألمانيا. إن الادعاء بأن التلمود يجزم أن اليهود فقط خُلِقوا على صورة الله ومثاله، قال الحبر، وبأن باقي الشعوب حيوانات، هو كذبة بذيئة. لم يُذكَر في أي مكان من التلمود أنه يحق لليهودي أن يسطو على الأغيار.

بدأ عرق الجمهور يتصبب من الضجر، بينما تابع الحبر شرح المصطلحات والعادات اليهودية، لكن القاضيَين أصغيا بانتباه شديد ولم يقاطعاه ولو لمرّة واحدة.

حان الآن دور المدَّعى عليهم لاستجواب الشاهد.

إن الوقوف في مواجهة الاستجواب المضاد يكون أحيانًا بمثابة اختبار أليم حسب الطريقة الخصامية الإنجليزية؛ ففي الطريقة التحقيقية المتبعة في كل بلدان القارة الأوروبية، يوجّه القاضي الأسئلة إلى الشهود، ولا يمسُّ بمشاعرهم ولا يهينهم أبدًا. حتى استجواب المتهمين بجرائم فظيعة يتم بلهجة مؤدبة. ليس الحال كذلك في الطريقة الإنجليزية التي يشبه الاستجواب المضاد فيها، أحيانًا، التحقيق التقاطعي في محطة الشرطة، فيُسمحُ للمحامي أن يرفع صوته، ويُسمح له أن يقول للشاهد إنه يكذب، وأن يعرضه لأسئلة شخصية محرجة. يُسمح له أن يُخرجَ من قبورها العظام الرميم في محاولة لإظهار الشاهد بصورة سلبية، معرّضًا سمعته لأضرار قد يستحيل إصلاحُها. كل ذلك من منطلق اعتبار الاستجواب المضاد أفضل وسيلة بيد المحامي لكشف الحقيقة. يبذل القضاة قصارى جهودهم لحماية الشهود، لكن لا يُسمَح لهم ان يحرموا المحامي من حقه في محاولة كشف الحقائق التي من شأنها أن تُسعِفَ موكله.

الحبر ليفي لم يمثل أبدًا أمام محكمة، ورغم أن رينولدز بذل جهدًا في إعداده لما ينتظره، إلاّ أنه صُدِمَ حين انتصب إينش على قدميه وأطلق باتجاهه الباغة الأولى:

سؤال: هل يمكن للمرء أن يكون إنجليزيًا ويهوديًا في الوقت ذاته؟

جواب: طبعًا، إذا كان يهوديًا وُلِدَ في إنجلترا.

سؤال: هل يمكن لصيني أن يكون بريطانيًّا؟

جواب: طبعًا، إذا كان الصيني قد وُلدَ في بريطانيا.

سؤال: معنى ذلك أن بإمكان التَّيس أن يكون حصانًا!

احتاج الحبر إلى وهلة لكبح جماح غيظه، ثم أجاب بهدوء:

جواب: للصيني وطن أصلي، إن كان قد قدِمَ من الصين، فإذا وُلِدَ في إنجلترا فهو يستحق حماية الحكومة البريطانية، من حيث أنه مواطن بريطاني أيضًا.

"أودُّ الإثبات أن اليهودي، في جنوب أفريقيا، لا يمكن أن يكون جنوب- إفريقي، تمامًا كما أن الحصان لا يمكن أن يكون حِمارًا". قال إينش ذلك متوجهًا إلى الجمهور بتعابير الظفر، بينما بدا العبوس على وجهي القاضيين، دون أن يتدخّلا.
ردًّا على السؤال: "لماذا جرَّهم إلى المحكمة؟" أجاب الحبر: "لقد جرحتم مشاعري، وسببتم لي ألمًا شديدًا نتيجة الأقوال التي نسبتموها إليَّ في ذلك المستند الزائف، وكلمات الكفر القذرة التي ألحقتموها باسمي".

استمر الحبر بالإجابة على الأسئلة، باذلاً ما بوسعه في سبيل ضبط النفس: لا، ليس لهم دين سرّي؛ الجلسات التي تُعقد في الكنيس مفتوحة، لا أسرار فيها؛ ليس لهم مجلس أعلى؛ **بروتوكولات حُكماء صهيون** زائفة وكاذبة، ولم يكن لها وجود أساسًا؛ لا، لا توجد خطة يهودية للسيطرة على العالم، لا على النطاق المحلي ولا على المستوى العالمي. وبغتة، صرخ إينش نحوه بلهجة ساخرة: "لماذا نصدقك؟ أليس صحيحًا أن يعقوب لجأ إلى الغش ليسرق البكارة من عيسو؟".
نظر الشاهد إلى القاضيين فاقد الحيلة، غير واثق من صوته.

حين جاء دور فــــون مولتكِه، راح يقرأ أسئلته من ورقة أعدها مسبقًا، وأطلقها وابلاً باتجاه الشاهد، دون أن ينتظر جوابًا: هل أنت يهودي من أبناء العهد؟ هل أنت مختون؟ هل أنت يهودي شكنازي؟ وهل تعترف أن هذا النوع هو أسوأ أنواع اليهود في العالم؟ ما هو دينك؟ فالمعلوم أن لليهود أنواعًا مختلفة من الأديان طالما أنهم قادرون على تشويه المسيحية. لمن تنتمي في هرم التسلسل الديني؟

كان الحَبر على وشك الانهيار حين أعلن القاضيان الاستراحة. لماذا لا يحميان الشاهد من هذه الإهانات؟ سأل محاميَيْهِ في طريقهم إلى الخارج. هذا هو الأسلوب، شرحا له، يجب على القضاة إظهار الحياد. تلك هي الطريقة الإنجليزية لاكتشاف

الحقيقة. رفع الحبر كتفيه كمن لا حيلة له، وفكَّر كم أن القواعد المنصوص عليها في الشريعة اليهودية أكثر منطقًا. لكن تعبه يغالبه، فتنازل عن الشرح للمحامين.

لم يكد يرتقي منصة الشهود في صباح اليوم التالي حتى شن عليه فــون مولتكِه هجمة جديدة: هل لليهود نصَّان مختلفان من التلمود، واحدًا يبرزونه للقضاة الأغيار، والآخر لمحاكم سرية من نوع آخر؟ وهل هو على دراية بكل المذاهب المختلفة الموجودة في جنوب أفريقيا؟ هل حقًا لا يوجد في جنوب أفريقيا كيان يُدعى "محفل اليهود الأعلى"؟ وهل يوضح السيد للمحكمة ما هو السبب في أن اليهود مضطهدون في كل البلاد ومن قِبَل كل الشعوب؟

استمرَّ الحبر بالإجابة بصوت مُتعَبٍ، تارة بـــ "نعم" وأخرى بـــ "لا". شعر بمهانة شديدة لم يشعر في حياته بمثلها، لاضطراره إلى الإجابة على مثل هذه الأسئلة. غير أنه حين دنا فــون مولتكِه من منصة الشهود سائلاً بصوتِ المتَوَعِّد: "لماذا تجهدون أنفسكم في جرِّ أعضاء القمصان الرمادية المساكين إلى المحكمة؟"، لم يعد يقوى على ضبط النفس وانفجر بصوت عال: "لأنكم منذ شهور تجولون مشهّرين باليهود، إن الأطفال اليهود الذين ولدوا في هذه البلاد، ويعتبرون أنفسم مواطنين صالحين، لا يجب أن يسمعوا مرارًا وتكرارًا، ويومًا إثرَ يوم، تشهيركم وأكاذيبكم".

ارتدع فــون مولتكِه لوهلةٍ، لكن سرعان ما عاد إلى نشاطه:

س: تقول إن البروتوكولات زائفة؟

جـــ: أعود وأشدّد أن لا علاقة لليهود، في أي مكان من العالم، بهذه البروتوكولات.

س: هل تسمي الرجل الذي ألّف هذه البروتوكولات نبيًّا؟

جـــ: لا، بالطبع.

س: هل تسمّي هنري فورد "غَـــيْرًا" شهيرًا؟

جـــ: نعم.

س: هل تعلم ما قال فورد عن البروتوكولات؟

جــ: نعم، وهل تعلم ما الذي قاله، بعد أن قال ما قال عن البروتوكولات؟

لم تكن لدى أوليفييه سوى بعض الأسئلة التي كانت تكرارًا مملاً لأسئلة سبقت الإجابة عليها.
فوجئ الحبر حين اتضح له أن الكابوس قد انتهى، وأُعلِنَت الاستراحة.

بدا على الجميع الملل. لقد أنفقوا الساعات والأيام على التحقيق في سرقة مستند. قدّم إينش في بداية المحكمة تصريحًا تحدّث فيه عن صبيَّين صغيرين، أحدهما أسود الشعر والآخر أشقره، تجسّسا على ما يجري في الكنيس، وأحضرا له مستندين غير موقّعين، احتويا ملاحظات جديدة حول خطة يهودية معادية للمسيحية. هذا هو السبب، أعلن إينش، الذي جعله يقتحم الكنيس، فوجد المستند الذي هو موضوع القضية. بقي ذانك الصبيان مجهولين في القضية، غير أن وصف الكنيس وطريقة الاقتحام إلى داخله لم يطابقا واقع المكان، فكان لا بدّ من إشغال المحكمة بالشهادات التقنية، لدرجة أن الصحافيين راحوا يتثاءبون مللاً، وقد بدا أنهم على وشك المغادرة، إلى أن ارتقى شيخ مسن منصة الشهود، وسرعان ما تبدّلت الأجواء.

لم تكن الأسابيع القليلة التي سبقت بدء المحكمة كافية لإعداد الشهود، الأمر الذي أربك المحاميَين، فقد أدركا إنه إذا خرج النقاش عن نطاق المستند المحلّي، وتشعّب ليشمل **بروتوكولات حُكماء صهيون**، فسوف يحتاجان إلى خبير معروف، ذي سمعة عالمية. إذ أنهما، على خلاف زملائهما في بيرن، لم يكن لديهما شهود مؤهلون للشهادة على عملية التزييف ذاتها، فكيف لهما العثور على شاهد يرضى السفر إلى جنوب أفريقيا خلال فترة زمنية قصيرة من دعوته؟

يبدو أن الحظ قد ابتسم لهما؛ فقبل بدء المحكمة بأيام قليلة، بلغهم أن ناحوم سوكولوف مزمع على القيام بزيارة قصيرة لجنوب أفريقيا. شغل سوكولوف

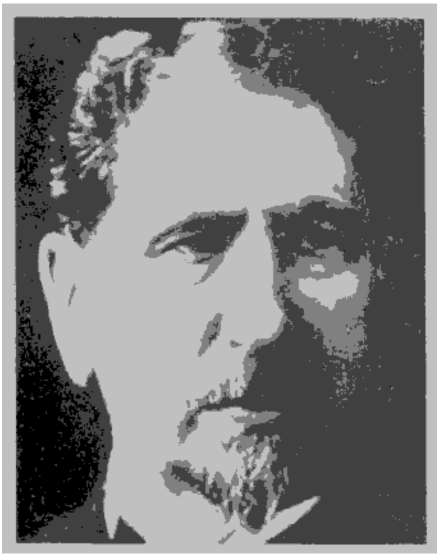

ناحوم سوكولوف
شاهد الادعاء
في محكمة بيرن

في تلك الأيام منصب رئيس منظمة الصهيونية العالمية، بعد أن تم انتخابه عام 1931 خلفًا لحاييم وايزمن. رغم بلوغه الـ 75 من العمر، ورغم توصية أطبائه، قام بأسفار مُرهقة لزيارة الجالية اليهودية وتجنيد الأموال من أجل الحفاظ على بقاء المشروع الصهيوني. بعد ارتقاء هتلر لسدة الحكم في ألمانيا، ازدادت الحاجة إلى جمع التبرعات من أجل إعانة اللاجئين اليهود على الاستقرار في أرض إسرائيل. كان المحاميان على علم بما يحمل فوق منكبيه من المهمات، فترددا بالطلب منه أن يضيف إلى جدول أعماله المثول في المحكمة، لكنه أبدى استعدادًا. قال إنه ملم إلمامًا جيدًا بالبروتوكولات، وعلى استعداد لعمل كل شيء من أجل كشف الحقيقة في كل محفل عام مناسب، وإنه يرى في منصّة الشهود في المحكمة منبرًا ملائمًا. حين حذراه من أنه قد يتعرض للإهانة، نظرًا لما شاهداه من توجيه الإهانات للحبر، أجاب أن اليهود لا تُرهِبهم الإهانات.

كان سوكولوف أحد الزعماء اليهود البارزين آنذاك، وقد أسموا لاحقًا كيبوتس كفار ناحوم باسمه، كما أطلقوا اسمه على الكثير من الشوارع في مختلف المدن في البلاد. قِلّة هم الذين يعرفون أن سوكولوف هو من ابتدَعَ الاسم "تل–أبيب" حين ترجم للعبرية كتاب هرتسل "التنويلاند". كان المحاميان على علم بأن سوكولوف صحافي وكاتب ذو صيت عالمي ذائع، يجيد الكثير من اللغات، وقد تم نشر مقالاته في بلاد كثيرة، والتقى بالعديد من رؤساء الدول، وبقداسة البابا، ولاقى استقبالاً حارًا وتقديرًا لدى الجميع. بانتهاء الحرب العالمية الأولى، كان على رأس البعثة اليهودية لمباحثات السلام في باريس، كما ترأسَ اللجنة التي مثّلت اليهود أمام عُصبة الأمم. وقد كان أوسع زعماء اليهود عِلمًا، إن كان في الشؤون اليهودية أو في الشؤون العامة.

قال المحاميان لبعضهما بملء الرضى إنهما لم يحلما بشاهد أفضل منه.

بعد أن أقسم سوكولوف اليمين طُلِبَ إليه التعريف بنفسه، وانتظر أسئلتهم بهدوء، كما وجَّهه المحاميان.

س: هل يوجد شيء من الحقيقة في القول بأن ثمة مؤامرة، أو خطة يهودية أخرى للسيطرة على باقي شعوب العالم ؟

جـــ: لا، أنا لا أعتقد ذلك.

بينما أشار رينولدز إلى طبعة محلية من **بروتوكولات حُكماء صهيون**، تابع يسأل:

س: هل يوجد شيء من الحقيقة في محتويات هذه الوثيقة وما ورد فيها عن أهداف الشعب اليهودي؟

جـــ: لا، كل كلمة فيها كذب.

كانوا بحاجة لهذا الشاهد، ليس لدحض وجود مؤامرة يهودية فحسب، بل أرادوا أن يسمعوا منه دحضًا محدّدًا للادعاء بأن البروتوكولات هي خلاصة جلسات سرية عقدها زعماء اليهود، خلف الكواليس، في المؤتمر الصهيوني الأول الذي انعقد في بازل عام 1897.

بدأ رينولدز أسئلته بالسؤال عن ماهية الصهيونية. أوضح سوكولوف للمحكمة أن لا علاقة للصهيونية بشرائع الديانة اليهودية. ففي جوهرها، هي محاولة لإعادة صياغة الشعب اليهودي كشعب يملك أرضًا له. قال: "شاركتُ شخصيًا في المؤتمر الصهيوني في بازل، وكنتُ شريكًا في تنظيمه وإعداد جدول أعماله"، وأضاف: لا حقيقة أبدًا في أن **بروتوكولات حُكماء صهيون** كتبها هرتسل أو غيره من الزعماء اليهود. علمت بوجود مثل هذه الوثيقة في عام 1920، ففي عام 1897 لم يكن أحد يعرف شيئًا عن **بروتوكولات حُكماء صهيون**. كانت جلسات المؤتمر علنية، ولم يكن شيء سرًّا.

روى سوكولوف كيف بلغه وهو في باريس، عام 1920، أن كتيبًا كاذبًا جلبه أحد المغامرين من روسيا، يجري توزيعه في لندن. بعد أن علم بما يحتوي الكتاب قرّر السفر خصيصًا إلى لندن.
توجه سوكولوف إلى القاضيين، وكأنه يخاطبهما شخصيًا، وقال مشدِّدًا: "إني أؤكد لكما أن كل كلمة في البروتوكولات هي كذبة بذيئة. من الواضح جدًا أنها كُتِبَت للتحريض على اليهود، كما يفعل اللاساميون دائمًا!".
وصف كيف التقى بفيليب غرافــز، وكيف قرأ مقالاته في التايمز، وكيف ذهب هو بنفسه إلى المتحف البريطاني الذي اعتاد التردّد عليه والعمل فيه، فوجد هناك كتاب موريس جولي، وكيف قارن بنفسه ما بين البروتوكولات المنشورة وبين كتاب موريس جولي، وكيف دهش من دهاء المزيفين الذين غرسوا اسم اليهود واسم هرتسل بدلاً عن نابوليون الثالث. فوجئ القاضيان لسماعهما هذه القصة للمرة الأولى، لدرجة أنهما خرجا عن عادتهما، فبادرا بسؤال الشاهد إن كان قد رأى كتاب موريس جولي. "أجل، رأيته في لندن"، أكّد سوكولوف. في هذه اللحظة وضع على طاولة القاضيين الكراس الذي نشرته التايمز والمتضمّن مقالات فيليب غرافــز.

فوجئ رينولدز بمدى إصغاء القاضيين واهتمامهما بكل بند. سألاه إن كان يعلم من هو البروفسور النمساوي روهل. "أجل، أعلم"، أجاب، فقد عرف الدكتور بلوخ شخصيًا من أيام فيتّا، وسمع منه عن الجدل الذي دار بينه وبين روهل، البروفسور من براغ والمعروف بنوع خاص بمعاداته العنيفة للسامية. إنه لم يهاجم اليهود، بل هاجم الديانة اليهودية، وشهّر بالتلمود بشكل خاص. قال: كان جاهلاً تمامًا، ولم يكن قادرًا على قراءة التلمود والتوراة من الأصل. تغص مقالاته بالأخطاء. هذا ليس أدبًا، إنه زبالة، قال متجاوزًا لغة الأصول والآداب المألوفة، للتعبيرعن مدى اشمئزازة، وأضاف أن شخصيات مسيحية بارزة قد شجَبت آراء روهل، ومنهم نولدكِه Noldke والبروفسور ڤـينشِه Wuensche البروتستانتي المذهب، والذي ترجم بنفسه أجزاء من التلمود. على المرء أن يكرّس السنين لكي يفهم لغة التلمود، وأما روهل فقد انتشل نصوصه من مصدر غير معروف. إن مشاهير العلماء في كل العالم، من أمثال ڤـينشِه، أشاروا إلى 500 اقتباس خاطئ عن التلمود في مقالات روهل، وأثبتوا أن روهل اقتبس عن كتابات معادية للسامية، من القرن السابع عشر، قد ثبت خطأُها منذ زمن بعيد.

وإذ رأى أن القاضيين قد أنهيا مداخلتهما، تابع رينولدز استجوابه:

س: هل أنت مُلمٌّ بالأحوال في روسيا؟

جـ: لم أكن في روسيا أبدًا، لكني أعرف ما الذي يحدث هناك. يناهض السوفيات الدين والهوية القومية من أي نوع كان، دون تمييز بين اليهود والمسيحيين. نحن اليهود نعاني كثيرًا من ملاحقاتهم، وقد زُجَّ في السجون عدد غير قليل من الصهيونيين وتعرّضوا لمعاناة شديدة، ومنهم من نُفي إلى سيبيريا ويطلبُ منّا العون.

في نهاية استجوابه الرئيسي، أعلن الشاهد بمبادرته: "أُعلِنُ بمُطلَق التأكيد، أن لا وجود للسياسة في كُنُسِنا في العالم كله. الطائفة هي وحدة دينية، والكنيس أُعِدَّ لعبادة الله. وهو يشكّل أيضًا مركزًا جماهيريًا يعتني بتقديم الخدمات الخيرية لأبناء الجالية".

حان وقت استراحة الظهر، فنزل الرجل المسن عن منصة الشهود، منتصب المتن رافع الرأس، مُحاولاً مداراة إرهاقه.

"أنا يهودي، ابن العرق اليهودي، من مواليد بولونيا، أحمل الجنسية البريطانية، لغة أمي الحقيقية هي العبرية"، أجاب الشاهد بعد الاستراحة على أسئلة إينش.

س: لماذا طلبتَ أن تدلي بشهادتك في المحكمة؟

جـــ: بسبب ما يقال من سخافات **عن بروتوكولات حُكماء صهيون** التي لا وجود لها بتاتًا، فبصفتي رئيس المنظمة الصهيونية أعرف أن لا وجود لوثيقة كهذه، ولم يرد ذكرها في أية مناسبة أثناء المؤتمر الصهيوني في بازل.

س: هل أنت هنا لتطهير سمعة يهود العالم؟

جـــ: أتيت لدحض التلفيقات السخيفة ضد الصهيونية، ولنكران وجود ما تسمونه "شيوخ صهيون". لم آتِ للدفاع عن العرق اليهودي، كما تسميه أنت، جئت لأنقض الأقوال الكاذبة. لم آتِ خصيصًا للإدلاء بشهادتي في المحكمة. تزامنتُ هنا صدفةً، وإذ علمتُ بادعاءاتكم المتكررة عن **بروتوكولات حُكماء صهيون** تطوّعتُ لأشهدَ".

س: أليسَ صحيحًا أنك تُعتَبر شخصية هامة بين أبناء العرق اليهودي؟

جـــ: لا يسمح لي تواضعي بقبول هذا الفرض.

س: أتقول إن البروتوكولات كذبٌ محض؟

جـــ: أجل، إنها كذلك.

س: لكن هل ستعترف بأن الأمر لا يمكن أن يكون كذبًا إذا ثبت أن فيه حقيقة؟

جـــ: لا يمكن الإثبات أن في هذه الوثيقة حقيقة.

س: أدَّعى محاميكم أن اليهود غير منظمين أبدًا في تنظيم عالمي. هل هذا صحيح؟

جـــ: نعم.

س: هل تعترف بأن كل وكالات الأفلام تقريبًا، ودور السينما وغيرها، يسيطر عليها اليهود؟

جـ: لا يمكن لي الإجابة على هذا السؤال. لا علمَ لي بصناعة السينما. لم أُجرِ أبدًا إحصاءً لعدد اليهود في السينما.
س: هل أنت راضٍ عن القذارة التي يعرضونها لنا على الشاشات، وبصيغة أدق، هل توافق على عرض النساء شبه العاريات بأوضاع استفزازية في الإعلانات الدعائية للأفلام، وعلى مرأى أنظار أطفالنا؟
جـ: لا أوافق، ولست من أنصار التعرّي.

ردًّا على أسئلة أخرى، أفاد الشاهد أن اليهود لا يسيطرون على كل الصحف الكبيرة في العالم. وإذ طُلبَ منه أن يوردَ أمثلة، ذكر صحيفة Daily Mirror في لندن، وصحيفة Le Temps في باريس، وقال إن هناك صحف أخرى كثيرة، مُبديًا، من خلال ابتسامة، أنه لم يقم ببحث عن مالكي الصحف في العالم.
سأله إينش إن كان صحيحًا أن اليهود يسيطرون على تجارة الرقيق. لم يعد يقوى على ضبط النفس، لكن القاضي غوطشِه تدخّل قائلاً إن السؤال مرفوض.
س: أنت تقول إن ما قيل عن العرق اليهودي كذب. لماذا إذن يُضطَهَدُ اليهود منذ آلاف السنين، كما لم يُضطهد أي عِرق آخر في العالم؟
جـ: عليكَ توجيه هذا السؤال إلى المضطَهِدين. حقًّا إنه ليس من السهل أن تكون أقلية خالدة في العالم.

جاءت الآن سلسلة من الأسئلة الهدف منها إثبات أن اليهود يسيطرون على كل شيء، واقتصرت إجابات الشاهد على كلمة واحدة: "هُراء". لكنه أضاف: "ليس صحيحًا أنَّ ذهب العالم كله في أيدي آل روتشيلد؛ إن معظمه موجود في يدَي دولتكم!".

أخذَ غضبه يتزايد احتدادًا، فهو لم يكن جاهزًا للدفاع عن الشعب اليهودي في مواجهة هذا الرجل الوقح. لقد جاء ليدلي بشهادته حول كذب البروتوكولات، وقبل انتظار الأسئلة الأخرى انفجر قائلاً: "موضوع الادعاء هو وجود جسم يتسمّى "حُكماء صهيون"

منذ انعقاد المؤتمر الصهيوني عام 1897، يهدف إلى السيطرة على العالم، ويرأسه أنبل إنسان في الوجود، ثيودور هرتسل، وأنا عبدكم الأمين، عضو فيه. على هذا الادعاء جئتُ لأجيب. جئت لأدحضه. لا يعنيني أمر جواهر أوبنهايمر، ولا أموال صموئيل، ولا ذهب آل روتشيلد. أتيتُ فقط لأقول إن البروتوكولات محض فِرْيَة".

إينش: البروتوكولات حقيقة، لأن كل ما قيل فيها يتحقق أمام أنظارنا.

سوكولوف: إنها كذبة سافرة.

إينش: هل تعترف أن البلشفية مصدرها اليهود، وأنهم هم من يوجّهونها؟

أشار الشاهد بيده شاجِبًا مُعلِنًا: "لا".

جاء الآن دور فــون مولتكِه. كان كعادته قد أعدَّ للاستجواب.

"هل تعترف أن بريطانيا العظمى، والتي كانت سابقًا أعظم قوة في العالم، قد ركعت على ركبتيها أمام مجموعة عالمية من اليهود واستسلمت لهم؟"

سوكولوف: أنكر هذا بشدة.

اضطر سوكولوف إلى الوقوف على رجليه ساعاتٍ طويلة لتكذيب الادعاء بأن الصهيونيين يوجّهون كل زعيم بارز في العالم في المجال السياسي، والاقتصادي، والمالي والصحافي.

لم يوجّه مولتكه الأسئلة، بل راح يُسمِع تصريحات، وكأنه يجوب أرجاء التاريخ اليهودي. بدا واضحًا أن الشاهد لم يعد يولي اهتمامًا بالأسئلة. كان يتمتم بكلمة بين الفينة والأخرى.

حين جاء دور أوليفييه عاد إلى موضوع التلمود، مما اضطر الشاهد إلى إعادة الشرح بأن التلمود هو عبارة عن مجموعة كتب قديمة، وليس فيه ما يناهض المسيحية، وإنه يتناول في الغالب عبدة الأوثان. كاد الجمهور يملُّ لولم يفاجئه أوليفييه بسؤال، بنبرة

جدية: "ألا يجدر أن تتعاون جميع شعوب العالم مع اليهود لإحراق التلمود، ولتبدأوا بتأليف كتاب بديل؟". كاد لا يصدّق سوكولوف ما سمعت أذناه، فصرخ بوجه السائل: "هل تعني أن نعود إلى القرون الوسطى، حيث أحرقوا الكتب وبعد ذلك أحرقوا البشر؟". حبس الجميع أنفاسهم مرتقبين متابعة الجدل المحتد بينهما. سدّد أوليفييه نظره إلى عيني الشاهد وأجاب بصوت جهوري مشدّدًا كل كلمة: "إذا لزم الأمر، فلن أعارض إحراق اليهود وتوراتهم أيضًا".
لم ينبس أحد من الجمهور بكلمة.

لم تتوقّف الأسئلة عند هذا الحد، وقد بدا سوكولوف كأنه يجيب من خلال ضباب. تبيّن فيما بعد أنه لم يذكر ما قيل بعد ذلك. هل ذلك ما يُنتَظَرُ حدوثه؟ سأل نفسه، غير قادر حتى على إخراج السؤال من بين شفتيه لطرحه على أصدقائه.
حين جاء الجواب على سؤاله الرهيب، كان قد فارق الحياة؛ فقد وافته المنية بعد عامين من المحكمة، مناهزًا 77 من عمره.

من المؤسف جدًّا أن الناس، في ذلك الوقت، ظنّوا أنها كانت مجرّد كلمات صادرة عن أحد مُختلّي العقل؛ فمَن كان بوسعه أن يتوقع أن تلك الكلمات تنبئ بخطة عملية كانت في طَور النشوء؟ هذا ما فكّرتُ به بعد 60 سنة، عندما قرأت وأعَدتُ هذه الفقرة المطبوعة في محاضر جلسات محكمة غراهمستاون.

لم يحتاجوا إلى استدعاء خبير غير يهودي من الخارج، كان الرجل المناسب في جوارهم تمامًا: جورج فرانك دينجمانز، بروفسور في اللغة الهولندية في كلية رودس الجامعية في غراهمستاون، وباحث في العلوم اليهودية، يقرأ ويكتب العبرية، مؤرخ وعالم لغة، ومسيحي صرف.

بعد أن قام بتقديم نفسه للمحكمة، وعدَّد ألقابه، طرق البروفسور الموضوع مباشرة. قال إنه تفحّص مستند إينش وأنه يجزم بكل

تأكيد أنه ليس مستندًا سرّيًا كُتب بيد يهودي عاقل. وقال إنه يسند رأيه إلى العبرية المخطوءة، وإلى انعدام التناسب الصارخ ما بين العبارات العبرية والهدف المُعلَن في تلك "التصريحات". أوضح موقفه بالتفصيل التام، من خلال استعمال المصطلحات العلمية، بينما أصغى له القاضيان وكأنهما يبتلعان كلماته ابتلاعًا. لم يقاطعاه ولو لمرة واحدة. قال إن مضمون المستند هو سخافات مُطلقة تدل فقط على جهل الكاتب وفقرِهِ الفكري. بعد رفض البروفسور للمستند وإثبات بطلانه كُليًّا، إن كان من حيث اللغة أو كان من حيث المضمون، جلس رينولدز وأشار بيده إلى أن الشاهد جاهز للاستجواب المضاد، آملاً ألاّ يهينوا هذا الشاهد الذي تطوّع بشجاعة ليكشف عن ذاته وعن آرائه في المحكمة.

كان إينش اول المستجوبين.
س: ابن أية قومية أنت؟
جـــ: أنا هولندي أحمل الجنسية البريطانية، من مواليد هولندا.
س: هل تشرح لنا لماذا تُبدي تعاطفًا نحو اليهود؟
جـــ: أبدي تعاطفًا نحو كل الشعوب. أنا أؤيد اليهود، لأن إلهنا المخلص كان يهوديًا، وقد قال "إن الخلاص يأتي من اليهود". لكني لا أحمل آراء مُسبَقة لصالح اليهود.
س: هل صلب اليهود يسوع؟
جـــ: أجَل.
س: هل يجري في عروقك دم يهودي؟
جـــ: لا.
س: إذا كان يسوع يهوديًا، فلماذ لم يكن له أنف مُلتوٍ؟
لم ينتظر أحد سماع الجواب.

هنا بدأ استجواب طويل عن الشيوعية والماركسية ومفهوم النصرانية. كان الألم ملموسًا في صوت الشاهد حين قال بصوت مرتجف، وكأنه يتحدث إلى نفسه: إن تاريخ الكنيسة المسيحية يُظهر أننا كلنا نشكل مثالاً كئيبًا لما كان من المفروض أن نكون. إن في داخلنا نزر قليل من روح الناصري. هذا صحيح بالنسبة

للأفراد وأخشى أنه صحيح أيضًا بالنسبة للكنيسة ذاتها. والسبب في ذلك هو بالأساس أن التوراة لم تعد كتاب الشرع للكنيسة. ثمة كنائس تكادُ لا تعرف التوراة".

حين وصلوا إلى **بروتوكولات حُكماء صهيون**، قال الشاهد إنه تمرّس بهذا الموضوع وأنه يأسف جدًا كيف استغل بعض الجهلة والأصلاف هذا الكتاب. استدار إلى إينش وقال: "أريد أن أقول لك وللمحكمة أن هذا الكتاب، **بروتوكولات حُكماء صهيون**، قد كُشِفَ أمره مرارًا وتكرارًا على أنه تزوير". ثم توجه إلى القاضيين وأردف: "لو كنت أنا عدوًّا لعرق معين، فبإمكاني بكل سهولة أن أؤلف كتابًا يشهّر بذلك العرق، متظاهرًا بأن المُشَهَّر بهم هم أنفسهم من كتبوا الكتاب. لا شيء أبسط من ذلك". ثم أشار إلى مستند إينش وأضاف: "هذا المستند أيضًا يدّعي غير حقيقته. يتظاهر أنه سُرق من الكنيس. يتظاهر أنه كُتب بيد يهودي مثقف. ها أنا أعلن أمامكم، إن كان هذا المستند قد سُرق بالفعل من الكنيس، فلا بدّ أن الذي كتبه قد وضعه هناك، إلاّ أنه ليس يهوديًا مثقفًا، حتى ولا مثقفًا من الأغيار". في هذه اللحظة توجَّه الشاهد إلى الحبر ليفي: "الحبر هو أرفع الألقاب التي يُطلِقُها اليهود على المتعلم منهم. يمكن اعتبار هيئة الأحبار كمحكمة عليا لدى اليهود [...] العضو في هيئة كهذه متعلم ومثقف".

س: هل بمقدور شيوعي يهودي غير متعلم أن يكتب مثل هذا المستند؟

جـ: لا، لأني لا أومن أن يهوديًا يمكن أن ينحدر إلى هذا الدرك.

أطال البروفسور الشرح وأسهب في إجابته على سؤال عن التلمود، وكأنه يلقي محاضرة، لكن أحدًا لم يقاطعه، بل أصغى الجميع بانتباه شديد: "التلمود كتاب ضخم يغطي حقبة ألف عام من الزمن، من قَبل ولادة يسوع، وحتى عام ألف أو الف ومائة بعد الميلاد. وهو يحتوي وجهات نظر الكثيرين من الناس الذين عاشوا في بلاد مختلفة، وفيه آراء متناقضة تُظهر خلافًا عميقًا. إنه محيط من الأفكار اليهودية". يمكن أن يضاهي كل آداب

القرون الوسطى الإنجليزية، والهولندية والفرنسية [...] قال ذات مرّة أحد مشاهير الأحبار إنه يجب تكريس السنوات الأولى من عمر الطفل لتعليمه القوانين المكتوبة، وبعد ذلك عليه أن يكرّس وقته لدراسة التلمود".

وأضاف قائلاً: يقولون لنا إن في التلمود آراء تذمُّ المسيحية، لكن هل هذا ما يميز التلمود؟ الأمر ليس كذلك. هناك ما يسَمّى الحسّ التاريخي. حدَّد أحد العلماء عام 1800 المبادئ التي يجب أن يرتكز عليها تقييم الحقائق التاريخية، فقال إنه يتوجب الحكم على الإنسان حسب معايير زمنه. من المحتمل أن يكون بين أجدادي من أحرقَ السَّحَرَةَ وباعَ العبيد، فمن غير المعقول أن ينسبوا إليّ في القرن العشرين الميل إلى السحر أو المسؤولية عن أفعال أولئك الذين حاربوا السَّحَرَة. لو ألصقوا بي مثل هذه التهمة السخيفة، لكان في ذلك إجحاف بحق قواعد النقد التاريخي. هناك أزمنة كان فيها الخروج عن الدين عقابه الموت. لقد كفّوا فيما بعد عن فرض عقوبة الموت. في البلاد البروتستانتية أيضًا اعتبروا الخروج عن دين الكنيسة جرمًا فظيعًا وفرضوا عقوبة العطل. ما عسى يقول المرء في أيامنا لو اتُّهم بما فعل أسلافه قبل مئات السنين؟

قد نجدُ هنا وهناك في التلمود ألفاظًا صعبة ومريرة بحق المسيحية، غير أنه في بداية عهد التلمود كان العالم في غالبه من عبدة الأوثان، وكثيرًا ما تناول علماء اليهود موضوع عبدة الأوثان. بعد انتشار المسيحية لاحقًا، وخاصة في الغرب، تطرقوا إلى المسيحية، وقد نجد عبارات صعبة ضد المسيحية، لكنك إذ تذكر الملاحقات البربرية لليهود، والتي يعرفها كل طالب درس التاريخ، وإذ تذكر احتقار المسيحي المستمر لليهودي، فإنك لا تعجب من أن أحد الأحبار قد تلفَّظ بكلمة نابية عن المسيحية والمسيحيين. لو لم يفعلوا ذلك، لقلت إنهم ليسوا بشرًا.
وقال: "لو طالعتم الأدب المسيحي في القرون الوسطى، لوجدتم فيه ألفاظًا ملؤها الكراهية لليهود. إني أعتبر أن المستمرين في

النظر إلى اليهود على هذا النحو، هم أنفسهم المسؤولون عن المرارة التي يشعر بها اليهود تجاه من يتسمّون بالمسيحيين، بينما تخالف تصرفاتهم كل المبادئ المسيحية".
"التسامح"، قال الشاهد بعد استراحة قصيرة، "ينمو ببطء، لكن الكراهية، لمزيد الأسف، تتفشَى سريعًا، ومن يدرك هذا الأمر يستغلُّه. على المرء أن يكون حكيمًا ليتمكن من نشر الوفاق والإخاء بين الخَلق، غير أنّ كلَّ أحمق زلق اللسان، ممتلئ حقدًا، يمكنه أن يزرع السموم".

نزل الشاهد عن منصة الشهود بكل هدوء. اعتذر رينولدز للقاضيين لكون الشهادة استغرقت ساعات طويلة، لكن نظرات القاضيين أوحت أن الاعتذار كان زائدًا.

حان الآن الوقت للاستماع إلى شهود الدفاع.

أعلن ڤـــون مولتكه أنه من الآن مخوَّل للتحدث باسم الثلاثة، وبدأ فقال: "كلنا، في هذه القاعة وخارجها، نعرف أن هذه القضية على جانب عظيم من الأهمية"، إنها ليست قضية تشهير فحسب. ذلك لأن المُدّعى عليهم يلتمسون التبرير من أجل أن يكشفوا للعالم أجمع عن المؤامرة السرية اليهودية. إنها قضية فريدة من نوعها في الإمبراطورية البريطانية كلها. ثم أعلن، موجهًا الكلام إلى القاضيين: "حضرة القاضيين، أشيرُ إلى أنكما قد أخذتمانا بصبركما، نظرًا لعدم وجود محام يمثلنا، مما استدعى تقدير مؤيِّدينا لحضرتكما".
هذه بهدلة، همَسَ رينولدز، فهذا النقاش لا يجري أمام أنصار النازيين. "لا تكن واثقًا من ذلك"، أجابه المحامي ستيوارت.
عدّد ڤـــون مولتكه الحقائق التي سيثبتها الدفاع:

1- المسيحيون في جنوب أفريقيا منقسمون على بعضهم.
2- إن هذا الانقسام قد سبّبه اليهود، وهم يدأبون على تغذيته طالما أنه يخدم مصالحهم.

3- إن لم يستيقظ المسيحيون في جنوب أفريقيا، فسوف يستعبدهم اليهود كليًّا خلال سنوات معدودة.
4- اليهود يتآمرون لتقويض أسس العقيدة المسيحية عن طريق فرض رموزهم اللا-أخلاقية.
5- داخل دولة جنوب أفريقيا المسيحية توجد دولة يهودية معادية. إن مثل هذه الدوَل اليهودية المعادية توجد أيضًا في دُوَل أخرى.

حضر بعض الشهود مرتديًا زي القمصان الرمادية الذي يحمل الصليب المعقوف. أفاد كلهم بأنهم شاركوا في المؤتمرَين، وأن اسم الحبر لم يُذكر فيهما. إن تكتيك المدّعى عليهم ظاهر، همس رينولدز لصديقه، فهم يخشَون من أن يضطروا إلى دفع التعويضات للحبر عن التشهير به، لذا فهم يحاولون إبعاد صفة المركزية عن المستند، لكنهم في نفس الوقت يستغلون منبر المحكمة لتعميم موضوع "المؤامرة اليهودية". لا شك، قال رينولدز، في أن المحكمة ستضطر الآن إلى الحكم في موضوع **بروتوكولات حُكماء صهيون**.

رأفة بالقاضيين، عزم رينولدزعلى اختصار استجوابه المضاد، فقال للمحامي ستيوارت: لا طائل من مناقشة هؤلاء الشهود ذوي الآراء المسبقة البارزة جدًا. فماذا يمكن أن تسأل شاهدًا مثل يعقوب فـــان هرن، المبشر المحرض للمواطنين الأصليين، الذي أكّد للمحكمة أنه مُلمٌّ جدًا بالتوراة، وأن اليهود، بحسب المكتوب فيها، قد أُمروا بالسيطرة على العالم؟ وقد صلبوا المسيح.
في شهادته قال هذا الشاهد: "لقد عارض يسوع رجسهم اللا-أخلاقي، فلم يحتملوا مواعظه ضدهم". لم ترُق هذه الأقوال حتى للقاضيين، وقد دلّت على ذلك تعابير وجهيهما، قال رينولدز، فمن الأفضل تجاهل مثل هذه الشهادة كليًّا.

انتهى أخيرًا موكب الشهود بما يختص بالحبر ليفي، وجاء دور الشهادات ضد الشعب اليهودي.

في إيماءة دراماتيكية، استدعى فــون مولتكه إلى منصة الشهود الشاهد هنري هاملتون بيميش Henry Hamilton Beamish وقدّمه للقاضيين. إنه ابن لأدميرال بريطاني وذو ماضٍ متنوِّع. هاجر إلى كندا وهو في الثامنة عشر من العمر، شارك في حرب البوير وفي الحرب العالمية الأولى. زرع الشاي في سيلان، وعمل في منجم في روديسيا. لكنه اشتهر نتيجة خبرته الذائعة بالشؤون اليهودية، قال الشاهد للمحكمة، وأضاف بكبرياء إنه معروف كزعيم نازي، وقد قام بجولات حول العالم من أجل نشر النظرية النازية. إنه يتعامل مع القضية اليهودية منذ ثلاثين سنة، وهدفه الأساسي هو مقاومة التسلّط اليهودي على العالم. كذلك كشف الشاهد عن وجود تنظيم يُدعى "Nazintern"، وأنه أحد قادته. كان قد شغل في الماضي منصب الرئيس لتنظيمات نازية مختلفة على الصعيدين المحلي والعالمي. يدير أيضًا دور نشر مختلفة، مثل "Britons" في لندن، وقد أصدر شخصيًا كتبًا ضد اليهود تمت ترجمتها لعدة لغات.

هذه هي بطاقتي الشخصية، باهى الشاهد من خلال ابتسامة عريضة.

ردًّا على سؤال آخر أجاب بيميش أنه كان شخصيًا شريكًا في إصدارات مختلفة لبروتوكولات حُكماء صهيون، بما فيها الإصدار المعروف الخاص بفكتور مارسدن الذي ترجَمَ البروتوكولات إلى الإنجليزية، وإصدار ثيودور فريطش في لايبزيغ. فريطش هو ناشر البروتوكولات في ألمانيا، وكان أيضًا المحرر في دار النشر Hammer Verlag التي أصدرت كتاب هنري فورد، ورفضت الكفَّ عن نشره بعد تراجع فورد. وفوق ذلك كله، فاخر بيميش، فهو يعرف معرفة شخصية الزعماء النازيين الذين استقَوا من كتاباته ومن توجيهاته لهم شخصيًا. قال إنه يعرف فراي أيضًا، صاحب كتاب "المياه تجري نحو الشرق". هكذا، وبمحض الصدفة، أظهر الشاهد جهله حين اعتبر أن فراي رَجُلاً، بينما هي السيدة لسلي فراي. قدّم نفسه على أنه "خبير في "النظرية العرقية".

نازي ابن العرق الأعلى، سجّل رينولدز في بطاقة أمامه.

لكن هذا الشاهد لم يتوقف عن حملة المباهاة بنفسه. سأله قـون مولتكه عن منصبه الرسمي في التنظيمات التي تنشر النظرية العرقية، فأجاب دون أن يرمش له جفن: "أنتمي إلى مُعظم التنظيمات العنصرية في بريطانيا. حين تأسست جامعة غير اليهود، قبل بضع سنوات، أظن أنهم انتخبوني رئيسًا [...] كما طُلِبَ إليَّ أن أشارك في المؤتمر الآري العام الذي سيعقد في باڤـاريا. وقد بلَغَني قبل قليل أنه قد تم تعييني رئيسًا لـ "البوند القومي الأوروبي" الذي يهدف إلى الحفاظ على نقاوة العرق [...] وأعني الوقاية من تسلل الدم اليهودي".
إن الحضارة الغربية نظام سيء، شرح بيميش، وهي في حالة يُرثى لها، وقد تم إنشاء هذه التنظيمات بهدف مُعلن وهو إعادة السيطرة الآرية ليد أوروبا.
ما الذي لدينا هنا؟ سجَّل رينولدز، أهو تنظيم "شيوخ الآريين" الأوروبي؟

من على منصة الشهود، رفع بيميش صوته: "إني أدعو كل إنسان ليشير إلى حكومة واحدة في أوروبا لا تقع تحت سيطرة اليهود، ما عدا ألمانيا طبعًا، والتي تشكل قدوة للآخرين. بصوت الواثق المسؤول، أدلى برأيه كخبير في **بروتوكولات حُكماء صهيون،** مستعملاً تكتيك هنري فورد المعروف: البروتوكولات هي الحقيقة بعينها، لأنها تنطبق على الحقائق الميدانية التي تدل على التنفيذ الفعلي للخطة اليهودية".
إن الخطة لم تبدأ لدى إصدار البروتوكولات، قال الشاهد بثقة، إنها خطة عريقة، واليهود يعملون منذ آلاف السنين على توجيه التاريخ العالمي.

جرى استجوابه طويلاً على يد رينولدز والقاضيين اللذين حاولا بلهجة تصحيحية أدبية الإشارة إلى سخافة أقواله، لكنه تشبَّث برأيه: اليهود سبب الثورة الروسية، وسبب الثورة في هنغاريا

وإسبانيا، والقائمة طويلة. وهم السبب في حرب البوير أيضًا، وفي الحرب بين روسيا واليابان وفي الحرب العالمية. اليهود هم الذين موَّلوا وليم الفاتح عام 1066، واستغلوا كرومويل، وأداروا وموّلوا التمرّد ضد الملك شارل الأول. هم الذين أفسدوا الكنيسة وجعلوا لوثر ينفصل عنها. وأضاف: لا شكَّ أن اليهود هم الذين حرّكوا غاندي، رغم أن في الهند 240 مليون مواطن، منهم 10,000 يهودي فقط.
أنصتَ الكل بصمت تام، بينما راح كاتب المحكمة يدوّن كل كلمة.
دون انتظار سؤال جديد، تابع بيميش محاضرته: رأى وثائق تشهد أن اليهود حاولوا شراء كنيسة القديس بطرس لكي يحولوها إلى كنيس. وقد رأى بأم عينه نصبًا تذكاريًا ليهودا الإسخريوطي أقامه اليهود في روسيا.

هنا تبادل القاضيان النظرات الهازئة، لكن الشاهد استمرَّ على منواله: شاهد بأم عينه علب الثقاب التي أنتجها اليهود، وعلامتها التجارية صورة لصلب يسوع. قاطعهُ رينولدز بلهجة تهكمية قائلاً إنه يفترض أن الشاهد لم يُحضر معه تلك الوثائق والصور من أجل إبرازها للمحكمة. سُمِعَ الضحكُ بين الجمهور، فاستدار بيميش إلى المحامي وهمس بسمٍّ قاتل: "سأتدبّرُ أمركَ لاحقًا".

أخذ بيميش، من هذه اللحظة فصاعدًا، يعدّد المؤسسات التي يديرها اليهود ويسيطرون عليها: الحكومات كلها، المؤسسات المالية والاقتصادية قاطبة، والصحافة، وماذا لا؟ ثم عدّدَ أسماء زعماء العالم واحدًا إثر واحد – كلهم يهود أو يحركهم اليهود، على حد تعبيره. سأله رينولدز من خلال ابتسامة إن كان ثمة مؤسسة واحدة في بريطانيا سالمة من التأثير اليهودي، أجاب بلا تردد: "الحقيقة أني لا أعرف، لكن ربما الكنيسة، إلى حدٍّ ما".
س: ما رأيك في مطران كنتربوري الذي أعلن أنه لا يصدّق البروتوكولات؟

جــ: أرسلتُ إليه شكوى بهذا الشأن. وأضاف: إن اليهود يسيطرون بالفعل على جنوب أفريقيا، بالرغم من أن لهم عضوان فقط في البرلمان. وقال مُفسِّرًا: إن بعوضة واحدة من شأنها أن تسبب الملاريا.

وقف بيميش على منصة الشهود ثلاثة أيام متتالية، في ست جلسات عُقدت في 17 و 18 و 19 أيلول، صباحًا ومساء. تنتشر محاضر شهادته على 119 صفحة.

أرغمتُ ذاتي على قراءة الشهادة كلها، ذاكرة أن ذلك حدث عام 1934، وقد بدأ العالم يسلّمُ بحقيقة أن هتلر يحكم ألمانيا. وبدأ اليهود في ألمانيا وغيرها يتوجَّسون شرًّا. كانت وجوههم تتكدّر لدى تصفُّحهم لصحف الصباح، لكنهم كانوا ما إن يفرغوا من تناول الفطور حتى يطووا الصحيفة ويمضوا لمتابعة أعمالهم. حاول يهود العالم طمأنة أنفسهم عن طريق رفع التبرعات من أجل مساعدة من كان حكيمًا فترك ألمانيا ولجأ إلى بلد آخر. فكَّرت في ذاتي: يبدو أن اليهود لم يُجهدوا أنفسهم في قراءة كتاب هتلر "كفاحي"، ولعلهم قالوا: ما هذه الزبالة! حين ذُكر الكتاب أمامهم. فلو حاولوا قراءته ربما استطاعوا "رؤية الكتابة على الجدار". ترى هل كانوا يصدّقون حتى لو أنهم قرأوا؟

عُدتُ في ذاكرتي إلى قاعة المحكمة في غراهمستاون، وحاولتُ أن أُصَوِّرَ لنفسي كيف بدَت الأمور آنذاك. كان ذلك حدثًا مميَّزًا. فهل كانت ثمة هيئة، عام 1934، تُتيح مواجهة علنية كهذه؟ ظهر هنا النازيون البارزون، يدلون بشهاداتهم المشفوعة بالقسم، ويشرحون أسس نظريتهم بأدق التفاصيل وبمنتهى الجدية. يصرّحون على رؤوس الأشهاد عمّا يزمعون أن يفعلوا باليهود، ومع ذلك تتم المحافظة على الأصول الإجرائية بحذافيرها؛ يتوجهون إلى الشاهد بكل احترام، حتى حين ينطق بالإهانات والتهديدات، يلزم الجمهور الهدوء، دون تدخّل أو مقاطعة. لا ينهض أحد فيخرج بشكل استعراضي، والقاضيان يحافظان على ضبط النفس ويسمحان لشاهد مثل بيميش أن يُسمِعَ تصريحاته

المتطرفة المستفزّة دون أي تدخّل. يُعطيانه اعتبار "الشاهد الخبير"، فقد قدّم نفسه على أنه كذلك! وتدوَّن تصريحاته بالحرف والكلمة في المحاضر. القضاء البريطاني في أبهى صُوَره!

حين باهى بيميش بأنه هو الذي وجّه هتلر في بداية مسيرته إلى ما يجب فعله باليهود، طلب منه القاضيان بأدبٍ أن يفصّل حديثه مع هتلر، فاستجاب بكل ترحيب قائلاً: "التقيتُ بهتلر عام 1921، سألتهُ: ما الذي تنوي فعله باليهود؟ وقد كان هذا موضوع حديثنا الرئيسي، فأجابني "إن لديَّ خطة". سألته: وما هي خطتك؟ فمن عادتي أن أستمع دائمًا إلى ما على لسان محدّثي، فأجابني: "نحن عازمون على إرسال كل اليهود إلى حلفائنا". قلتُ له إنهم يستحقون ذلك حسب رأيي، لكني أضفت: "إن ذلك لن يعالج الآفة. فلو أن لديك كلبًا مصابًا بالسَّعر وقمتَ بربطه في ساحة دارك، فإنك بهذا لا تُبعد عنكَ الكلب المسعور". بدا لي أن هتلر قد استوعبَ الرمز".

وجّه بيميش غمزة نحو رفاقه بين الجمهور، وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه، فبادلوه الغمزات. لم يحرك أحد ساكنًا، وبقي النظام محفوظًا في قاعة المحكمة.

في نهاية الجلسة غادر الجميع إلى بيوتهم لتناول وجبة العشاء. هزَّ اليهود رؤوسهم مستنكرين، متمنين لو كان بإمكانهم أن يحذفوا بيميش من ذاكرتهم، متسائلين: أي مجنون هذا؟! أما المحاميان فقد أعربا عن رضاهما من أنهما قد تمكنا من إبراز الشاهد كغريب الأطوار، وأقواله كسخافة محضة. وتساءلا قائلين الواحد للآخر: ما هذا الهراء؟ لا يمكن أن يصدّق القاضيان شاهدًا كهذا. اليهود أيضًا لم يصدّقوه، وأما بيميش فقد قابله رفاقه النازيون خارج البناية، بزيهم العسكري، بالعناق والمصافحة والشد على يديه.

وقف اليهود يراقبون ذلك المشهد قائلين ما بينهم: في القريب سيزيل القاضيان تلك الابتسامة عن شفتي بيميش. علينا فقط أن

ننتظر قرار المحكمة. لعلهم لم يدركوا أن بيميش لم يهدف أبدًا إلى إقناع القاضيين؛ فهو لم يقصد مخاطبتهما، لأن المعركة الحقيقية لم تكن في قاعة المحكمة، وليس القاضيان هما من يقرر ما يُفعَلُ باليهود.

أخذت أفكر بغتة: هذا ما يحدث اليوم بأمر إنكار الكارثة. يتجاهل الناس مدى الإنكار، وتزايد الحركات المنكرة، ويتعامون عن مئات المنشورات، وعن استخدام الإنترنت المكثّف، كل ذلك رغم التوثيق التاريخي لتلك الحقبة. يُجري القضاة المحاكم في أنحاء العالم، ويستدعون الشهود البؤساء، ليصفوا، وفقًا لكل قوانين وقواعد الأدلة، ما حدث هناك. ممنوع أن يأخذ القضاة في عين الاعتبار ما يجري خارج قاعة المحكمة؛ فذلك ضد كل القوانين.
من المسلّم به في المحاكم في كل أنحاء العالم أن بعض الحقائق لا يحتاج إلى برهان، فمثلاً: لا حاجة لإثبات أن الأرض كروية وأنها تدور حول الشمس، ولا حاجة لإثبات أن الشمس تشرق في النهار وأن القمر يظهر في الليل، وأن الأسبوع يتألف من سبعة أيام. لا حاجة لإثبات أن اليابانيين قد هاجموا الأسطول الأمريكي في بيرل هاربور. إن من ينكر مثل هذه الحقائق فهو لا شك مُرَشَّح للمعاينة في مستشفى الأمراض النفسية.
وأما البقية الباقية من ضحايا الجحيم النازي، فإن عليها أن تختبر من جديد كل تلك الأهوال، وألاّ تسهو عن بند أو آخر، وإلاّ كان الشك في صالح المتهمين.
عُدتُ فأرغمت نفسي على العودة إلى قاعة المحكمة في غراهمستاون.

جاء الآن دور المدَّعى عليهم، وكان إينش وأوليفييه أول من استجوبهما فـــون مولتكِه.

أعاد إينش قصة اقتحام الكنيس. شعر رينولدز بالارتباك حين قام لاستجوابه. كانت القصة مُختلَقة وبعيدة عن التصديق، لدرجة أن أي محام مبتدئ كان بإمكانه دحضُها بغير جُهد. كانت شهادته،

التي انتشرت على 48 صفحة، تافهة في معظمها. إنه رجل عديم المعرفة، كاذب سيء – قال رينولدز لموكِّلِه – ليس باستطاعته أن يكتب ذلك المستند بقواه الذاتية، لكنه رفض الكشف عن أسماء شركائه رغم ضغوطات المحكمة، لئلا يتربَّص بهم اليهود، حسب ادّعائه.

"لكنك أنت من يتربَّص باليهود"، تصدّى له رينولدز.

"الأمرُ يختلف"، أجاب الشاهد، "فذلك في سبيل الغاية".

كان أوليفييه أكثرَ ذكاءً. قال وهو يشير إلى المستند الذي مدَّ به مولتكِه إليه، إنه واثق من صحة المستند، وإنه يعلم نتيجة تجربته مع اليهود، إن ما ورد في المستند هو عين الحقيقة. أجل، هناك مؤامرة يهودية.

اعترف أوليفييه بأن قصة إينش عن اقتحام الكنيس "تبدو غريبة"، لكن بما أنه قد كرّر القصة بعد أن أقسم اليمين، فإنه لا يستطيع التشكيك باستقامته، لكونه مسيحيًا مُخلِصًا، ولو أنه أقسم كذبًا فسيكون "أسوأ من آخر اليهود".

كان فـون مولتكِه الشاهد الأخير. كان واضحًا أنه يحاول مخاطبة الجمهور، وقد بدَت أقواله كالمونولوج، حيث لم يكن أحد يستجوبه.

استهلّ شهادته بنبرة جديَّة: حين ظهر هتلر على المسرح سأل نفسه، كيف يمكن لأمّة بكاملها كالألمان، أرقى أمم العالم، والدولة الرائدة بين دول أوروبا، أن تتحوَّل إلى أمّة همجيّة. لقد توصل مع الأيام إلى استنتاج، أنه إذا كان اليهود، وهم نسبة ضئيلة من سكان ألمانيا، قد تمكنوا من احتلال مثل مراكز القوة تلك، فإن ذلك يستدعي دراسة أحوال بلاده، لصالح بني عرقه. وأضاف الشاهد إنه بات يتساءل إن لم يكن من المحتمل أن اليهود في جنوب أفريقيا، والذين يشكلون 7% من السكان فقط، يقفون من وراء كل المصائب التي هبطت على الدولة، وخاصة في الثلاثين سنة الأخيرة. أوَليس من المحتمل أنهم المسؤولون عن أن 56%

من السكان الأوروبيين في جنوب أفريقيا يعيشون تحت خط الفقر؟ "اتضحَ لي"، قال، "أن ثمة جماعة معادية، عرق لا يندمج مع عرقي، في قبضته المفتاح للحالة السائدة في الدولة".
وتابع قائلاً: إن بلادي التي من أجلها حارب أجدادي لأبي وأمي، إن كان تحت راية الجمهورية أو تحت الراية البريطانية، بلادي التي من أجلها سفكوا دماءهم، والحقوق التي من أجلها ناضلوا، مؤمِّلين أن يورثوها لي، يجري نهبها في عملية سريعة في جنوب أفريقيا، على يد جماعة من الناس لا تعنيهم فلاحة الأرض، وكل ما يعنيهم هو استغلال جهد الأغيار".

الكتاب الذي فتح عينيه وأقنعه هو كتاب الشاهد الذي سبقت شهادته لا غير، السيد بيميش. عندما قرأ الكتاب وَضُحَ له أن وطنه العزيز يحكمه أخطبوط ذو قوة عظيمة، يتشعّب إلى أخطبوطات فرعية: أخطبوط المجوهرات، أخطبوط الأراضي، أخطبوط المواد الغذائية، أخطبوط تجارة الجملة، أخطبوط تجارة التجزئة، أخطبوط شليزنغر، أخطبوط المؤسسات المالية الدولية، أخطبوط الأخبار، أخطبوط الصحافة. هذه كلها تسيطر عليها المصالح اليهودية العالمية المنظمة على نحو عجيب.

من هنا فما بعد، ألقى الشاهد محاضرة شرح فيها كيف يسيطر اليهود على كل شيء وكيف يحركون عجلات التاريخ.
يعمل اليهود بموجب أربع قواعد، قال فـون مولتكِه، حَسْبَما اكتشفها في وثائق مختلفة، وإليكم نص التعليمات التي يتلقونها من زعمائهم:

1- علينا دائمًا أن نعمل بواسطة الآخرين. يجب استخدام الشخصيات العامة، كرؤساء الحكومات، الوزراء، حتى لو كانوا وزراء صغارًا، وزراء الحربية، وشركاء مسيحيين.
2- عليكم استثمار الأموال في "تحسين البرلمانات"، بمعنى، أن تنفقوا مال الجمهور على رشوة ممثليه.

3- لا نستطيع استعمال مصادرنا المالية. اهتموا بأن يدفع المسيحي. الأغيار هم من يجب أن يدفعوا...
..."الآن وقد مات، بعد أن ابتززنا منه المال الكثير، تصبح امرأته فقيرة معوزة".

هذه القاعدة الأخيرة، قال الشاهد، تعني أن على اليهودي أن يُكوِّن رأس ماله من المسيحي.
حسب مفاهيمه، فإن على اليهودي أن يُثري على حساب دمار المسيحي.
بعد ذلك، عدّد ڤـــون مولتكه أسماء كل مشاهير أثرياء اليهود في جنوب أفريقيا، مدَّعيًا أنهم يستغلون مراكزهم من أجل التأثير على قرارات الحكومة، رغم أن لهم نائبين فقط في البرلمان.

هذا الشاهد قد طوّر وحسّن في تكتيك فورد، همسَ رينولدز حين استمع إلى بقية أقوال مولتكه: "إذا وقفتَ أمام واجهة بيت، حاملاً خريطة بنائه، وتأكد لك أن البناء مطابق تمامًا للخريطة التي بين يديك، فمن حقك الاعتقاد أن البناء قد تم على يد الذين أعدّوا الخريطة".

في استجوابه المضاد، أخرج رينولدز بسهولة من فم الشاهد اعترافه بأنه بدأ نشاطه "في سبيل الهدف" بعد أن أصبح عاطلاً عن العمل، وليس قبل، وأنه لم يسدد حسابات كثيرة، بما فيها حساب التليفون وإيجار البيت، مع العلم أنه يملك عددًا من المزارع والممتلكات الأخرى، عدّدَها واحدة واحدة. كما أفاد الشاهد أن نشاط الحركة كان أولَى بالنقود من سداد إيجار البيت، مُصرًّا على أن ليس له أي مصدر دخل وليس للحركة حساب في البنك، وهي تقوم على جمع التبرعات البسيطة، وأنه يعيش هو وزوجته على "بعض شِلنات بائسة في الأسبوع" يحصل عليها من يد إينش. لكنه لم يدرِ كيف يفسر أنه يركب سيارة فاخرة، ومن الذي يدفع أجرَ حارسه الخاص.

تجلّت عنصريته التي صدَمَت الحضور حين أعلن أنه، لو كان هو من يدير شؤون الدولة، لعرف كيف يتعامل مع السود كلهم. "إنهم ثمرة آثام أجدادِنا"، صاح مُعلنًا ضرورة المحافظة على طهارة العرق.

في هذه اللحظة نفذ صبر القاضي غوطشِه. سأله: كيف يُعقَل أنك تعيش فوق هذه البقعة من الأرض منذ ثلاثين سنة ولم تسمع أبدًا بالمؤامرة اليهودية؟ أجاب مولتكِه بلا حرج: "على حضرة القاضي أن يقرأ البروتوكولات". استمر القاضي بتوجيه أسئلته بعناد، فما كان من مولتكِه إلاّ أن أعلن فجأة أن المحكمة تستهتر بمُثُلِهم، لذلك فهو ينسحبُ من القضية، ثم استدار على نحو تظاهُري وغادر القاعة.

لم يبدُ أن القاضيين قد تأثرا بمظاهرته.

في 21 أغسطس 1934، في غمرة أجواء متوترة، وقد غصَّت قاعة المحكمة بجمهور غفير، أصدرت المحكمة قرارها. رغم علم الجالية بكسب القضية، لم تعم البهجة الأجواء. طلب البعض قراءة قرار المحكمة، لكن نظرًا لكونه طويلاً، واشتماله لمصطلحات قانونية، اقترح الحبر أن يجتمعوا في الكنيس مساء ذلك اليوم، وسيدعو المحاميين ليشرحا لهم القرار "بلغة العموم".
كان بين جمهور المجتمعين في الكنيس الكثيرون من الشباب.

أفاد رينولدز أن القاضي غراهامز هو من نصَّ قرار الحُكم، وقد جاء فيه، على نحو لا لبس فيه، أن إينش لم يسرق المستند من الكنيس، وإنما كتبه بنفسه أو بمساعدة آخرين من رفاقه في القمصان الرمادية. وأن فــون مولتكه، الذي سمع القصة من فم إينش، قد امتنع عمدًا عن فحص الموضوع. كما قرر القاضي أنه لا يجوز لأوليفييه نشر القصة قبل دراستها الوافية. فُرِضَ على الثلاثة دفع التعويضات للحبر ليفي.

قررت المحكمة بشكل حاسم أنه لم يثبت وجود مؤامرة يهودية هدفها تقويض دعائم الكنيسة المسيحية أو الدين المسيحي أو

تهويد العالم المتحضِّر. لم يُبرز المدّعَى عليهم ولو طرفَ بيّنة لإثبات ادعائهم هذا.
المستند يشهّرُ بالحَبر، ويمكن الاستنتاج بالمنطق أن المقصود فيه هو الحبر أبراهام ليفي. ليس من المفروض الإثبات أن هذا ما يفهمه الناس، يكفي أن يفهم أصدقاء الحبر ومعارفه أنه هو المقصود.
أوضحت المحكمة أنه حسب التشريع الإنجليزي لا تستطيع جماعة من الناس رفع دعوى تشهير ضد الجمهور الواسع، أو ضد شعب أو عِرقٍ بأكمله، ولا ضد أصحاب مهنة معينة، دون تحديد شخص أو أشخاص معينين، أما إذا كان التشهير موجّهًا إلى مجموعة محدّدَة، مثلاً: "الضباط في الوحدة الفلانية"، أو "كل جماعة المحلّفين"، فإن رفع الدعوى من حق كل فرد ينتمي إلى تلك المجموعة.

بعد قراءته للقرار، حدَّثهم الحبر بحزن عن أن المحكمة، في بحثها عن استناد إلى سابقة قانونية، اقتبست عن حكم كندي صدر عام 1914 بشأن قضية تشهير ضد يهودي. "أجل"، قال الحبر، "نحن اليهود بإمكاننا أن نباهي في أننا قد أثرينا القضاء جدًّا في مجال قضايا التشهير وفي معظم الدوَل". ابتسم رينولدز أيضًا، لكن حين تابع شرح قرار الحكم لهم، كسَتْ وجهَهُ مسحة الجديّة.

إنه لا يعتزم ذكر كل ما قالته المحكمة من الكلمات الصعبة عن المدَّعى عليهم، لكن بما أن الحاضرين قد أبدوا استياءهم بشكل خاص من أقوال الشاهد بيميش، فإنه يودُّ أن يقتبس ما قالت عنه المحكمة: "يبدو لي أن بيميش يعاني اضطرابًا من المواضيع التي شهد بها، وهو غير متسامح في أفكاره، مبالغٌ في ثقته بنفسه [...] ابتلع بنَهَمٍ كل دعاية صادفته ضد اليهود، وتبنّى كلَّ ادّعاءٍ وردَ فيها بدون تمييز. إنه متعصّب متطرّف في هذه المسألة. لم يستطع إبراز ولو ذيلاً لحُجَّةٍ تدعم آراءه واتهاماته".

شعر الجميع بخيبة أمل؛ فقد توقعوا أن يقول القاضيان كلمات أشد حِدَّةً عن بيميش، وبلُغة أكثر وضوحًا. لكن رينولدز أوضح لهم أن ذلك هو أقصى ما يمكن أن يتوقعه من أفواه قضاة نشأوا على التقاليد البريطانية.
قال الحبر إنه لا يعير اهتمامًا للتعويضات التي فرضتها المحكمة لصالحه. إن أهمية القرار تكمن في كونه تحذيرًا بأنه لا يمكن المساس باليهود دون نيل العقاب.
نرجو أن تكون الأمور عند حسن نواياك، قالوا له محركين رؤوسهم تعبيرًا عن شكهم في ذلك.

لم يعللوا أنفسهم بأن يدفع المدّعى عليهم التعويضات المفروضة فعلاً، لكن مفاجأة كانت تنتظرهم؛ فبعد بضعة أشهر بلغهم أن إينش سيدفع ثمنًا باهظًا لتصرفاته، ذلك أن السلطات اتخذت ضده إجراءات في قضية جنائية استمرت تسعة أيام، أدينَ فيها على يد لجنة تحكيم بالإدلاء بالشهادة الكاذبة والتزوير. طلب رئيس لجنة التحكيم، بصورة استثنائية، أن يُسمِعَ بيانًا بأن المحلفين على يقين من أن إينش قد اقترف جُرمَه على خلفية سياسية وعنصرية.

لشد ما كانت دهشتهم حين تم الحكم على إينش بالسجن مدة ست سنوات وثلاثة أشهر، مع الأشغال الشاقة. سدّد القاضي نظره إلى عينيِّ المتهم، وقال مُعلّلاً قرار المحكمة القاسي: "عليّ أن أشدّد على أني أدينُ بشدّة ما اقترفتَ من الجنايات. لقد أعدَدتَ خِطة بهدف إنزال كارثة بالجالية. تجاهلتَ متعمدًا النتائج المترتبة، وفي تصرفك في المحكمة تعمَّدتَ المساس بصنع العدالة. لا يمكن لي غضّ النظر عن الأضرار التي ألحقتها، على ما يبدو حتى الآن، بمجتمعنا. إن قرار الحكم هذا يشكّل تحذيرًا للآخرين، لئلا ينخدعوا فيسلكوا سبيلك، فإن فعلوا لن ترحمهم العدالة، بل تُنزل بهم أشدَّ العقوبات".

في 29 أكتوبر نشرت ثلاث صحف في ناتال بتوسّع، بيانًا لوزير الداخلية، السيد هوفماير:

"للأسف، ليس في الدنيا كذبة غبية وعديمة الأساس إلاّ ولاقت بين الناس مَن يصدّقها مِن عديمي الفكر. وليس من قذفٍ وتشهير، مهما بلغت وحشيته، إلا ووجد بين المتعصبين المتطرفين من يحوّله إلى عُملة قابلة للصرف والمداولة. يتحدث الناس عن قدسية حُريات الفرد، غير أنه لا يُسمح تفسيرها على أنها تُبيحُ التهجّم على طوائف أو جماعات من السكان، أو أنها تأذنُ بنشر ما من شأنه تحريض عرق ضد آخر، أو مذهب على آخر، أو دين على آخر. لقد ثبت مرارًا، ولمزيد الأسف، أن أولئك الذين لا تكفُّ حناجرهم تتغنّى بفضائل حرية الفرد، هم آخر من يستحق أن يتمتع بها [...] من واجب الدولة الحرص على أن لا تخرج الأقليات المُهمَلة عن نطاق الدعاية المصرّح بها، فتنتشر آراء من شأنها أن تستدعي ردَّ فعل المتحمسين مثلها، مما يؤدّي بالتأكيد إلى الإخلال بأمن الجمهور".

الفصل الحادي عشر

شهادة حيَّة

في 29 أكتوبر 1935 أشرقت الشمسُ في بيرن بعد أيام عديدة ماطرة. اكتظّت فنادق بيرن بالنزلاء، وتوقَّع أصحاب المتاجر والمطاعم حركة تجارية جيدة. توافد ممثلو الجاليات اليهودية ورجال الصحافة من أنحاء العالم، استعدادًا لافتتاح جلسات المحكمة. لم يعهد سكان بيرن حدثًا مماثلاً استقطب هذا العدد الكبير من الناس إلى المدينة.

منذ ساعات الصباح الباكرة امتدَّ طابور طويل أمام بناية المحكمة، لكن حين فُتحَت الأبواب تبيّن أن على الأغلبية الغالبة البقاء خارج القاعة، وذلك رغم الانتقال إلى أكثر القاعات اتساعًا في البناية. دأب المسؤولون عن النظام على أن يتم الدخول بهدوء ونظام وبدون تزاحُم وتدافُع. تجمَّع أعضاء الجبهة الوطنية جماعات جماعات بلباسهم شبه العسكري، بينما اختلط مناصروهم بين الجمهور بهدوء. ظهر حضور رجال الشرطة، لكن يبدو أنهم تلقوا تعليمات بالامتناع عن أي تدخُّل.

طغى اللباس الأنيق على الجمهور، الرجال ببذلات ثلاثية الأجزاء، والنساء بثياب مُتقنة التفصيل والخياطة. تم حِفظ بعض الأماكن لأبناء العائلة، ومن بينهم كانت أوديت ووالد جورج الذي حضر سافر الرأس، رغم أن القبعة اعتُبِرَت آنذاك من الضروريات. كان قد ناقش موضوع القبعة مع جورج ليلة أمس فلم يعترض.
جلس المحاميان في الصف الأمامي، بسرواليهما المخطَّطين وسترتيهما السوداوين.
"جميل أن نرى المتَّهَمين جالسين على المقاعد المعدّة لصغار اللصوص"، همس ماير في أذن ليفشيتس.

أحسّ القاضي فولطر ماير بالتوتر السائد في الأجواء، مُدركًا أن ليس فقط الصحافيون يتابعون كل حركة وتلفُّظ منه. ثأثّر جدًا بقائمة الشهود التي قُدِّمَت إليه في موعد سابق، ففي قاعته لم يحصل سابقًا مثل هذا العرض للشخصيات المرموقة، ولم يسبق له أن بتَّ في قضية أثارت مثل هذا الاهتمام الجماهيري. في الماضي اعتاد التركيز على إدارة المحكمة داخل جدران القاعة، ولم يكترث لما يحدث في الخارج. كان قاضيًا مُدقِّقًا، عالج القضايا حسب كل القواعد والأصول، واهتم بأن يسود القاعة جوٌّ من الاحترام. تسرَّبت إلى مسمعه أقوال بأن المحامين عادة ما يتذمّرون، في أحاديثهم في الأروقة، من الملل الذي يطغى على قاعته التي خلَت قَبْلاً من الدراما. لم يختبر من قبل المقاطعات الجدّية آتية من داخل القاعة أو من خارجها، لكن إحساسه حدَّثه بأن ألامر هذه المرَّة يختلف تمامًا، حتى أنه لم يُفاجأ حين حضر إلى مكتبه قائد الشرطة ليبلغه بأن كل التدابير والاحتياطات قد تم اتخاذها من أجل منع أي خلل أثناء المحكمة، وفي قرارته عزم على أن يدير الجلسات على نحو عادي ومن خلال مراعاة الأنظمة.

لا يصعب على قارئ محاضر جلسات المحكمة أن يستعيد الأجواء التي سادت في القاعة. بغية الاقتصاد في أموال الجمهور، تم اختزال المحضر على يد مختص استأجره المدَّعون، أقرَّه القاضي بعد ذلك. لكن المختزِل لم يكتفِ بالتوثيق الدقيق لما قيل، بل أضاف من عنده أوصافًا، مثل: "رفع الشاهد صوته"، "رفع الشاهد ذراعه"، "طرقَ المحامي على الطاولة".

أشيرَ إلى القاضي دائمًا بلقب Herr President وإلى المحامي Fuersprecher .

أعلن القاضي رسميًا عن بدء المحكمة، وباشر بتفقّد الحضور:
المدَّعون: السيد مارسيل بلوخ، من قِبَل الجالية اليهودية السويسرية التي يمثلها البروفسور د. ماطي، والسيد إميل برنهايم

من قِبَل الجالية اليهودية في بيرن، والتي يمثلها المحامي برونشفايغ.
لم يكن الناس يعلمون مَن هم المتهمون، رغم الإعلام الموسع الذي سبق المحكمة. راح الآن القاضي يعدّدهم واحدًا واحدًا:
السيد سيلفيو شنِل، ناشر **بروتوكولات شيوخ صهيون**.
السيد جورج هَالـــر، محرر جريدة الحزب القومي الاشتراكي "شهود" (Eidgenossen) ومعه المستشار القانوني للجريدة، الدكتور يوريس يوهان كونراد ماير.
المهندس وولتر ابرسولد، عضو مسؤول في منظمة الجبهة القومية.
وقفوا واحدًا تلو الآخر وانحنوا أمام القاضي.
أعلن القاضي عن تغيّب المتهم ثيودور فيشر، كما تغيّب أيضًا المحامي أورشفرونج ممثل كلٍّ من شنِل وهَالِـــر، وأنابَ عنه المحامي روف.

استهلَّ القاضي بوصف الإجراءات التمهيدية، والتي كانت قد بدأت في 16 نوفمبر 1934، ذاكرًا أن المحكمة قد تأخَّرت ما يقارب السنة، لكنه امتنع عن ذكر مناورات المتهمين لتأخير المحكمة، وكانوا قد قدموا التماسًا بتنحية القاضي.
ذكرَ القاضي أنه قرّر تعيين خبراء مهمّتهم الإجابة على الأسئلة التالية:

1- هل **بروتوكولات شيوخ صهيون** زائفة؟
2- هل هي انتحال؟
3- وإن كانت كذلك، فما هو الأصل؟
4- هل يمكن اعتبار البروتوكولات "أدبًا بذيئًا"؟

أفاد القاضي بلهجة جافة أنه كان من الصعب العثور على خبراء؛ فالخوري مينخماير الذي اقترحه المتَّهَمون لم يُجِب على رسالة القاضي.
"الحمد لله"، همس جورج برونشفايغ في أذن البروفسور ماطي. كان مينخماير من سكان ألودنبورغ الشهيرين بعدائهم للسامية.

"أما البروفسور هاوزه، الذي اقترحه المتهَم فيشر"، أردف القاضي، "فقد أعلمَ المحكمة أن اختصاصه في مجال اللغات السامية فقط".

في هذه اللحظة قدَّم القاضي الخبيرين اللذين تم تعيينهما:
البروفسور آرثور باومــچرتن، كخبير من قبل الادّعاء، وهو من أصل ألماني، كان قد تنازل عن وظيفة مدرّس في جامعة فرانكفورت-أ-ماين بعد أن اعتلى الحزب الوطني الاشتراكي سدة الحكم، وهو يدرّس حاليًا الفلسفة القضائية في كلية الحقوق في جامعة بازل.
والسيد كارل البرت لوسلي، وقد قدّمه القاضي ككاتب من مدينة بومفليتس وخبير من طرف المحكمة.
نهض كلاهما وانحنيا بالتحية.

ما زال المتهمون دون العثور على خبير، قال القاضي.
ثم طلب من الادِّعاء استدعاء الشاهد الأول من طرفه.

جورج برونشفايغ والبروفسور ماطي تشاورا طويلاً فيما بينهما بشأن ترتيب ظهور الشهود. عليهما الانطلاق من فرضية أن القاضي يجهل تمامًا حال اليهود في البلدان الأخرى، وخاصة في روسيا. ومن أجل تمهيد الطريق للشهود الروس، فإنهما بحاجة إلى زعيم يهودي ذي مقام رفيع، على المستوى العالمي، ليظهر أولاً. تم الاتفاق على أن تُستَهلَّ الشهادات بشهادة البروفسور حاييم وايزمن.

وُلدَ وايزمن عام 1874 في مدينة موتول المجاورة لبينسك في روسيا، كان في الستين من عمره أيام هذه القضية. في حداثته درس العلوم اليهودية في مسقط رأسه، لكنه اكتسب فيما بعد ثقافة عامة وأصبح مع الأيام عالمًا شهيرًا. حين أغلِقَت في وجهه أبواب الجامعات الروسية نتيجة التحديدات التي عُرِفَت في تلك الأيام، مضى للدراسة في ألمانيا حيث انضم إلى حلقة طلاب

صهيونية. أكمل دراسته في جامعة جنيف، وقد أتقن الألمانية والفرنسية. استقر فيما بعد في بريطانيا التي تبنّى لغتها وحضارتها، واتخذها مستقرًّا لحياته وسيرته العلمية.

حاييم وايزمن
أول شاهد للادعاء
في محكمة بيرن

كان وايزمن نشيطًا في الحركة الصهيونية منذ نشأتها، وكان من أنصار آشر جينسبورغ المعروف باسم أحاد- هعام، الداعي إلى إنشاء مركز روحاني للشعب اليهودي في أرض إسرائيل، لكنه تأثر بهرتسل تأثرًا عميقًا. غدا مع الزمن من الأنصار المتحمسين لإقامة الكيان القومي السياسي، مؤمنًا بإمكانية تحقيق الغايتين معًا. قام بتمثيل الحركة الصهيونية لدى الرؤساء والملوك وقادة العالم ونجح في إقناع الكثيرين منهم بصدق دعوته. أدّى دورًا رئيسيًا في إقناع اللورد بلفور حتى وقّع في 2 نوفمبر 1917 تصريحًا يعد فيه بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في أرض إسرائيل. رأى يهود العالم في وعد بلفور "الماچنا كارتا" الخاصة بهم، واحتفلوا حين صودق في عصبة الأمم، أثناء محادثات السلام في فرساي عام 1919، على الانتداب البريطاني على أرض إسرائيل. في محادثات السلام تلك وضع مجهولون نسخًا

مُكرّرة عن **بروتوكولات حكماء صهيون** أمام مقعد كلّ واحد من المندوبين.

في الكونغرس الصهيوني الذي انعقد في لندن عام 1920 تم انتخاب وايزمن رئيسًا للمنظمة الصهيونية، وخلال مسيرته المبهرة، وقبل انتخابه كأول رئيس لدولة إسرائيل الجديدة بزمن كثير، اعتبره العالم كأحد الشخصيات الهامة في الشعب اليهودي في عصره. أدرك المحاميان أن عليهما تقديمه ليس فقط كسياسي وشخصية عامة، وإنما أيضًا كعالم من الدرجة الأولى وكرَجُلِ ثقافة وتربية، أقام في أرض إسرائيل أول مؤسستين أكاديميتين فاخرتين: الجامعة العبرية في أورشليم/القدس ومعهد وايزمن في رحوڤــوت (دُعي في حينه "معهد زيــڤ").
بكل فخر أعلن جورج أنَّ شاهد الادعاء الأول هو البروفسور حاييم وايزمن.

قدّم وايزمن نفسه كبروفسور في الكيمياء. حين وصل ليلة الأمس، مرهقًا من السفر الطويل، أتاحوا له أن يرتاح. طمأنهم ليفشيتس أن لا حاجة إلى إعداد هذا الشاهد، فلن تنتظرهم هنا المفاجئات.
حسب المتّبع في سويسرا فإن القاضي يؤدي دورًا رئيسيًا، وهو أول من يستجوب الشهود. أيقن المحاميان، منذ السؤال الأول أن القاضي قد أعدّ واجباته البيتية جيدًا.
س: هل كان لك دور في الكونغرس الصهيوني الأول في بازل؟
جـــ: لا. قضيت عطلة في بيت والديَّ في روسيا ولم أنجح بتوفير المال الكافي لتغطية نفقات السفر ولا بالحصول على المستندات التي كانت آنذاك ضرورية لمغادرة روسيا.
س: تم تقديمك هنا على أنك أحد الزعماء الصهيونيين. هل لديك علم بجلسات سرية جرت في ذلك الكونغرس؟
جـــ: لا، بتاتًا. كانت الجلسات كلها مفتوحة للجمهور، إن كان في المؤتمر العام أو في اللجان المختلفة.
سؤال القاضي التالي أصاب جوهر الموضوع مباشرة:

س: هل كنت مُلمًّا بجدول أعمال المؤتمر؟

جـ: أجل، طبعًا.

س: هل يمكنك المصادقة على أنه، بين الأمور الأخرى، بُحثت خطة لسيطرة اليهود على العالم كله؟

جـ: لا، حضرة القاضي، لم يتحدّثوا إطلاقًا في هذا الموضوع.

في هذه الأثناء وصل فيشر، وأطلق قهقهة دوّت في القاعة، فزجره القاضي.

س: هل كان ليهود العالم كلهم تمثيل في المؤتمر؟

جـ: لا، حضرة القاضي. كان هناك بشكل خاص يهود شرق أوروبا الفقراء. عارض يهود غرب أوروبا الصهيونية، ولم يكن لهم تمثيل في المؤتمر. لم يكن هناك حضور لليهود البارزين في عالم الصناعة والمال، لكن حضر الكثيرون من رجال الفكر. لقد خشي يهود غرب أوروبا من أن تضرَّ الحركة الصهيونية بمكانتهم بين مختلف الطوائف.

عُقِدت النيَّة على إقامة المؤتمر في ميونيخ، لكن اليهود عارضوا بشدة، حتى أنهم قاموا باستئجار وحجز كل القاعات في المدينة، للحيلولة دون عقد المؤتمر فيها في الموعد المحدد. من حسن الحظ أنهم وجدوا في اللحظة الأخيرة قاعة مناسبة في بازل، فنقلوا المؤتمر إلى هناك.

فكّر وايزمن مليًّا كيف يصف الحركة الصهيونية للقاضي السويسري، وقد فوجئ حين سمع سؤال القاضي التالي:

س: هل جوهر الصهيونية هو كما ورد في قرار عصبة الأمم، بمعنى منح الوطن القومي للشعب اليهودي تحت الانتداب البريطاني؟

جـ: تمامًا، حضرة القاضي، وليس السيطرة على العالم!

هنا أشار القاضي إلى **بروتوكولات شيوخ صهيون** وسأل الشاهد إن كان له علم بها.

لشد ما كانت دهشة الجميع حين اعترف وايزمن بنوع من الخجل، أنه لم يقرأ تلك الوثيقة بكاملها أبدًا. علم بها للمرة الأولى

عام 1918 حين أرسلته الحكومة البريطانية إلى فلسطين ليرأس بعثة ألحِقت بقيادة الجنرال اللنبي. استدعاه ذات يوم رئيس شعبة الاستخبارات، الجنرال ديدس (المعروف باسم وليم ديدس)، وطلب رأيه في مستند مؤلف من 4-5 صفحات كُتب بالآلة الكاتبة. "قرأتُ الصفحات، وقلت له إنها مجرّد هراء"، أفاد الشاهد. لكن القصة لم تنتهِ عند هذا الحد، فقد قال الجنرال إنه لا يجب تجاهل ذلك المستند الهام، الذي – على حد قوله – وُجد في

الكنيس في بورت إليزابيث، الذي قيل إن الوثائق التي تتحدث عن "المؤامرة اليهودية" قد سُرقت من داخله.

جعبة كل ضابط روسي، كبيرًا كان أم صغيرًا. وأضاف الجنرال أن ضبّاط الاستخبارات الإنجليز الذين خدموا في القفقاز قد أحضروا له هذا المستند، وترجموا له بعض مقاطعه إلى الإنجليزية.

كانت تلك هي المرة الأولى، قال وايزمن من على منصة الشهود، التي سنحت له فيها الفرصة لقراءة فقرات من **بروتوكولات شيوخ صهيون.**

هنا رفع الشاهد رأسه وقال مُصَوِّبًا النظر إلى عينَيّ القاضي مباشرة: "لا شك أن مكان هذه البروتوكولات هو في الأدمغة المريضة المشوّهة، شيء من كوكب آخر".

ردًّا على سؤال وجَّهه جورج برونشفايغ، أجاب: "لستُ خبيرًا بالدِّين، لكني أعرف صلواتنا. ليس فيها شيء يذكُرُ، حتى ولو بالرمز، ما قيل في البروتوكولات. نحن، الصهيونيين، ليس لدينا مَيل للسيطرة على العالم. ليست لدينا تلك الشهيَّة. كل هذا كذب. كذب ماكر، هدفه جعل حياة اليهود صعبة، وكأنّ حياتنا ليست صعبة بما فيه الكفاية".
إن وحدة اليهود هي أسطورة أخرى، تابع الشاهد بابتسامة كئيبة، شارحًا بالتفصيل كيف يؤتى باقتباسات من الكتابات اليهودية في خارج سياقها.
ضحكَ المدّعى عليهم، فاضطر القاضي إلى زجرهم ثانية.
"لماذا يُغضِبون القاضي؟"، سأل جورج زميلة ماطي.
"هذا تمثيل أمام الجمهور"، أجاب البروفسور بهمس، "يجدر أن تعتاد على ذلك، فهم يريدون أن تجري القضية كلها على هذا النحو، لافتقارهم إلى الدفاع الحقيقي".

بُغية استباق أي ادعاء محتمَل من طرف الدفاع، توجَّه جورج إلى الشاهد، رافعًا بيده نسخة من البروتوكولات من إصدار ألفرد روزنبرغ:

س: في تقديمه للكتاب يقتبس ألفرد روزنبرغ قولاً لك في إحدى محاضراتك، يشمل، على حد تعبيره، اعترافًا بوجود مؤامرة يهودية. قلتَ في تلك المحاضرة: "سوف نكون في فلسطين، إن رضيتم بنا أم لم ترضوا. يمكنكم تأجيل قدومنا، لكن من الأفضل أن تساعدونا، وإلاّ فستتحول قوتنا المتزايدة إلى قوة مدمرة تؤدي إلى أزمة عالمية".
جـ: لا أعتقد أن ذلك الصحافي قد اقتبس عني بدقة، لأني حرصتُ في فلسطين على أن أتكلم بالعبرية، لكن الفكرة التي

اقتُبِسَت على لساني تلائم الحجج التي استخدمتُها في محاضراتي ومحادثاتي مع رؤساء الدول. قلتُ إن في البلاد كما في روسيا، ملايين اليهود الذين يعانون من التمييز والاضطهاد، ومن الطبيعي أن ينضم الشباب، بداعي اليأس، إلى الحركات الثورية. تلك هي المأساة اليهودية، فحين يلقَون معاملة غير إنسانية، فليس لديهم ما يفقدون. نحن نقاوم هذه الميول. نحاول توجيه طاقات الشباب إلى المسالك الإيجابية، وبالفعل، ففي البلاد الحرة والديمقراطية، مثل إنجلترا وفرنسا، سويسرا وهولندا، معظم السكان اليهود ينتمون إلى الأوساط المحافظة. نحن، في الحركة الصهيونية، قد وهبنا لشبابنا أملاً جديدًا، ولن تجدوا صهيونيًا في الحركات الثورية.

وهنا رفع الشاهد صوته: "نحن لا نريد إيذاء أحد. لكننا نُنَبِّهُ إلى أن الناس الذين يُدفَعُ بهم إلى حافة اليأس قد يُدفع بهم في اتجاه غير مرغوب. هذه الظاهرة ليست خاصة باليهود".

حاول الخبيران التدخل من حين لآخر، وإذ وقف البروفسور باومـــچرتن على رجليه، فأومأ له القاضي برأسه آذنًا له بالكلام، أوضحَ أن اللاساميين يلجأون عادة إلى تكتيك استخدام الاقتباسات عن النصوص اليهودية خارج السياق الذي كُتِبَت فيه.

بعد أن أَذنَ لوايزمن بالمتابعة، أوضح للقاضي أن الحركة الصهيونية لا تفتقر إلى الوحدة فحسب، بل إن في داخلها خلافات وانقسامات.

أما فيشر، الذي أسمَع طوال الوقت ملاحظاته الخاصة، فقد نهض ليعلن رسميًا أنه يعتبر نفسه صهيونيًا، وأنه يوَدُّ لو يذهب كل اليهود إلى فلسطين.

نظرَ وايزمن إليهِ بازدراء وقال: "دعمُك هذا للصهيونية لا يثيرني. لستُ بحاجة إلى أصدقاء من أمثالك".

كادَ القاضي أن يصرف الشاهد، لولم يقم لوسلي على رجليه، وبعد أن أذِنَ له القاضي بالكلام، انحنى للقاضي وأوضح أن بودّه

قول شيء حول الوحدة اليهودية. تستند البروتوكولات إلى فرضية وجود وحدة بين الشعب اليهودي، وإلى أن الجميع يقرّون بقيادةٍ واحدة وينصاعون لها. وأردف مبتسمًا أنه قد ثبت له، من خلال أبحاثه، أن لا يوجد شعب منقسم انقسام اليهود. وبعد استئذان القاضي بتوجيه أسئلة إلى الشاهد، طلب من وايزمن أن يوضح للمحكمة الفرق ما بين الأشكناز والسفاراديم.

السفاراديم، أوضحَ الشاهد، هم من نسل اليهود الذين عاشوا في إسبانيا والبرتغال قبل طرد اليهود منهما عام 1492، وهم حاليًا موزَّعون في مختلف الدول. وأمّا الأشكناز، بالمفهوم العام، فهم اليهود الذين يعود أصلهم إلى أوروبا الشرقية أو الغربية. اليهود من هاتين الفئتين لا يندمجون بسهولة. تقاليدهم تختلف، عاداتهم تختلف، وحتى طقوس صلواتهم تختلف. لكل جماعة كُنُسها، ولكل جماعة أحبارُها، وقلّما يتم التزاوج بين أفراد الجماعتين.

لم يكتفِ لوسلي بذلك، فطلب من الشاهد: "الآن، أرجو أن تشرح للمحكمة ما الفرق بين الحسيديم (أي الصوفيين) والمعارضين".

الحسيديم، أجاب الشاهد، ينتمون إلى حركة دينية شعبية، بدأت في نهاية القرن الثامن عشر. تميِّزهم البهجة الدينية حتى النشوة، والحماس الجماهيري، والكاريزما لدى قادتهم، والتركيز على الصلاة عِوَض الدراسة والتعلّم. أما المعارضون فإنهم يَدْعُون إلى دراسة التوراة والتلمود، ويضعون الانشغال بالفكر في رأس أولوياتهم. لا توجد هوَّة عميقة بين هاتين الجماعتين فحسب، بل ثمة طوائف مختلفة داخل الحسيديم، ولكل طائفة قائدها الكريزماتي، الذي ينتقل منصبه بالوراثة إلى أبنائه. يمكننا أن نضيف إلى ذلك كله، قال الشاهد بنوع من الحياء، النزاع داخل الحركة الصهيونية. مع ذلك فهو يؤكد للمحكمة أن ليس هناك صهيوني بلشفيكي واحد.

لجلسة أخرى للمحكمة أرادوا استدعاء شهود من الذين شاركوا في الكونغرس الصهيوني في بازل، من أجل نفي الادعاء بشأن الجلسات السرية. استدعوا حتى كتبة الاختزالات الذين دوّنوا محاضر جلسات المؤتمر، والذين بإمكانهم أن يشهدوا بأنه لم يكن

هناك مجال لعقد جلسات سرية. لكن تم إرجاء ذلك إلى موعد لاحق لأن البروفسور ماطي أصرَّ على سماع شهادات الشهود الرئيسيين في بداية المحكمة، فمن المحتمل أن يملَّ القاضي من الشهادات التقنية وربما يفقدون اهتمامَه، وأضاف أنه من الضروري أن تُطرح القصة بصورة مثيرة دراماتيكية، مُنَوِّهًا إلى أن الآخرين يخاطبون الصحافة.
اتفقا على أن يقوم جورج باستجواب الشهود الذين قابلهم بنفسه.

الشاهد التالي هو چــراف آرمند ألكسندر دي شايلا، أعلن جورج.
ولد عام 1884، أجاب ردًّا على سؤال القاضي، بعد أن ذكر اسمه بالكامل. ليس له مهنة معينة، وهو مواطن فرنسي، ينتمي إلى المذهب المسيحي الروسي الأرثوذكسي، ويسكن في باريس في جادة كونفرانس.
خشي المحاميان أن يملَّ القاضي من شهادته، نظرًا لطول قصته، لكن جورج الذي كان قد قابل دي شايلا في باريس، رفض إسقاط أي بند من حكايته، فارتأوا أن يقدموا للمحكمة مقالاته الخمس التي كان قد نشرها، مترجمة إلى الألمانية ليتسنّى للقاضي قراءتها على راحته في حال لا يتاح للشاهد الإسهاب في شهادته لذكر كل التفاصيل. قبل الإدلاء بأقواله، طُلب إليه المصادقة المشفوعة بالقسم على صحة الحقائق الواردة في مقالاته، ففعل ذلك دون تردُّد. أقسَمَ على أن كل كلمة كتبها في مقالاته التي نُشِرَت في جريدة "آخر الأخبار" (Dernieres Nouvelles) في التواريخ 1، 2، 3، 12، و 13 يوليو 1921 هي عين الحقيقة.

في سنة 1909، قال دي شايلا، سَكن في روسيا من أجل إجراء دراسة عن الكنيسة الروسية الأرثوذكسية. في تلك الفترة التقى بسرجي نيلوس الذي سكن في منطقة كالوجا (Kaluga) في لواء كاسييف (Kasiev). كان له أخ يشغل منصب رئيس محكمة في موسكو، وكان نيلوس زوجًا للسيدة أوزروفا ابنة سفير روسيا في اليونان، لكنه عاش قبل ذلك مع نتاليا كومروبسكايا، التي عندما

مرضت وتحوَّلت إلى "خربة" – على حد تعبير الشاهد – آواها نيلوس في بيته. كان له ابن من خارج نطاق الزوجية، مُنِحت له الشرعية بموجب أمر خاص من القيصر.

حرص الشاهد على العمل بموجب تعهده للمحاميين، فانحصرت شهادته بالحقائق الأساسية، عِلمًا بأنه سيكون بإمكان القاضي أن يقرأ مقالاته. كان نيلوس كاتبًا أجزَلَ الكتابة في أمور الدين في مقاطعة الأورال. شغل لفترة زمنية قصيرة منصب القاضي المحقق في لواء القفقاز، لكنه ترك الوظيفة وانتقل إلى فرنسا حيث استقرَّ في مدينة بياريتس. بعد أن أوشك على الانهيار الاقتصادي اضطرَّ للعودة إلى روسيا وسكن منذ ذلك الحين في دير، واستمر في الكتابة بالشؤون الدينية. كانت له عقارات، غير أنها كانت مرهونة، وعليه فقد عاش في فاقة وعوَز.

قال دي شايلا لجورج إنه ما زال من الصعب عليه أن يشهد على نيلوس الذي استضافه في بيته، لكن جورج أقنعه بأن عليه أن يُطلع المحكمة على الصورة الدقيقة، لذا فقد كان واضحًا أنه ينتقي كلماته بحذر. قال ناظرًا إلى القاضي مباشرة: "بدا لي أن الرجل يعاني من جنون الارتياب (بارانويا). كان دائم العجرفة. كان رجلا مثقفًا وموهوبًا، لكنه واقع في براثن "الفكرة الثابتة"، وقد وجَّه كل قدراته نحو موضوع واحد: "مجيء المسيح الدجّال".

آرمند ألكسندر دي شايلا
باحث في الدين وصحافي فرنسي.

ألحَّ عليه نيلوس أن يقرأ **بروتوكولات شيوخ صهيون**، وراح يراقبه وهو يقرأها في بيته إلى أن اقتنع من أنه قرأها بكاملها وحتى السطر الأخير.

"كانت الوثيقة مكتوبة بالفرنسية"، تذكّر الشاهد، "وبخطوط يد مختلفة. كان واضحًا أنها كُتبت بيد أكثر من واحد. كان عنوانها "**بروتوكولات شيوخ صهيون**". رغم أني أمسكتها بيدي، لكن من الصعب أن أذكر اليوم كم كان قياسُها. قرأتها من البداية إلى النهاية. كان ذلك دفترًا، وأذكر جيدًا أن بقعة حبر زرقاء باهتة كانت على الصفحة الأولى. بعض أجزاء الوثيقة كانت مكتوبة بالفرنسية الرديئة، ما زلت أذكر حتى اليوم عبارات مغلوطة. قال نيلوس إنه استلم تلك الوثيقة من الجنرال رتشكوفسكي عن طريق السيدة كومروبسكايا. "لقد صرّح أمامي أنها الأصل".

حبس الجميع أنفاسهم. كانت تلك المرة الأولى التي يصرح فيها إنسان حي تصريحًا مشفوعًا بالقسم بأنه أمسك بيدية النص الأصلي لبروتوكولات شيوخ صهيون. تهامس المتهمون فيما بينهم، وعجّت القاعة بالضجيج.

كان جورج قد ذكّر الشاهد مرارًا لئلاّ ينسى سَرْدَ قصة أتان بلعام، ليس لأن القصة طريفة، بل لأن ناشري البروتوكولات طالما استخدموا ما أسمَوه "تكتيك فورد"، وكلمّا أثبتوا لهم أن الوثيقة زائفة، قالوا: حتى ولو كانت زائفة، فإن واقع الحال يؤكّدُ ما تحتويه، إذ أن كل ما ورد في البروتوكولات – هكذا ادَّعَوا– يحدث واقعًا أمام أعيُن العالم. لذا، قال جورج، فهم يحرصون على أن يضيفوا إلى كل إصدار مقدمة طويلة، يقارنون فيها ما بين الأحداث الجارية في الواقع وبين فقرات تقابلها في "الخطة اليهودية" كما وردت في البروتوكولات.

يعتقد الجميع، قال جورج، أن هذا التكتيك قد ابتكره محرر جريدة فورد "دربورن إندبندنت" ليتملّص من دعوى التشهير، وقد تبيّن

الآن أن هذا التكتيك ابتكره نيلوس بذاته، فهو مصدر نشر البروروتوكولات في العالم.

"أرجوك"، ألحّ جورج على الشاهد مرارًا، "لا تنسَ أن تروي للمحكمة قصة أتان بلعام، لستُ متأكدًا من أن القاضي يعرفها"، فقال البروفسور ماطي، الذي حضر أثناء الحديث، إنه هو بنفسه يكادُ لا يذكر القصة.

عندها عرض ليفشيتس خدماته، ففتح الأصحاح الثاني والعشرين من سفر العدد ووصف كيف استعد الموآبيون لمواجهة بني إسرائيل القادمين من مصر، وكيف أرسل ملكهم بالاق بن صفّور رُسُلاً إلى بلعام ليلعن بني إسرائيل، فقد عُرف عنه أنه يملك قوة خارقة للطبيعة: "لأنِّي عَرَفْتُ أَنَّ الَّذِي تُبَارِكُهُ مُبَارَكٌ وَالَّذِي تَلْعَنُهُ مَلْعُونٌ"، لكن الله أتى إلى بلعام وأمره: "لا تلعَنِ الشَّعْبَ لأَنَّهُ مُبارَكٌ". وبعد طولِ تردُّدٍ، أضاف ليفشيتس شارحًا: أغرى رسُلُ بالاق بلعام إذ وعدوه بالثروة والجاه العظيم "فَقَامَ بَلْعَامُ صَبَاحًا وَشَدَّ عَلَى أَتَانِهِ وَانْطَلَقَ مَعَ رُؤَسَاءِ مُوآب" وغلاماه معه، فحمي غضب الرب، فأرسل ملاكًا، بيده سيف مسلول، سدَّ عليهم الطريق. لم يرَ أحدٌ الملاكَ غير الأتان، فمالت الأتان عن الطريق لتتحاشى مواجهة الملاك، أمّا بلعام الذي لم يرَ الملاكَ، فقد ضربَ الأتانَ التي أنقذت حياته.

لكن، ما علاقة هذه القصة بموضوعنا؟ سأل البروفسور ماطي.

لأن اللهَ، أوضح ليفشيتس، قد فتح فمَ الأتان في هذه اللحظة: "فَقَالَتْ لِبَلْعَامَ: وَمَاذا صَنَعْتُ بِكَ حَتَّى ضَرَبْتَنِي... ؟" [...] "أَلَستُ أنا أتانُكَ الَّتي رَكِبْتَ عَلَيْهَا مُنْذُ وُجُودِكَ حَتَّى هذا اليَوْمِ؟"[...] "ثُمَّ كَشَفَ الرَّبُّ عَن عَيْنَيِّ بَلْعَامَ، فَأَبْصَرَ مَلاكَ الرَّبِّ وَاقِفًا في الطَّرِيقِ..." نهاية القصة أن بلعامَ اعترف بخطيئته، وبناء على وصية الرب مضى إلى الموآبيين، لكنه بدل أن يلعنَ باركَ بني إسرائيل.

أوضَحَ ليفشيتس أن هذه القصة تردُ في الأدب كتأكيد على أن الله يختار مختلف السبل ليوصل رسالته، "حتى من فم أتان".

في هذه اللحظة تدخَّل دي شايلا قائلاً: ما علاقة بلعام بحكاية البروتوكولات؟

كان القاضي هو من فتح له ثغرة ليروي القصّة، وذلك حين سأله إن كان نيلوس نفسه مؤمنًا بصحة البروتوكولات.

"بدا لي أن نيلوس نفسه شكَّك في صحة البروتوكولات، فعندما قلتُ له مُستفزًا إنني أعتقد بأنها مزيفة، أجابني: "نعم، لكن الله استخدم الحمارَ من أجل غايته في قصة بلعام، فبإمكانه إذًا أن يستخدم التزييف من أجل كشف الحقيقة".
انفجر الحضور بالضحك. لأول مرة تنطلق في القاعة ضحكات عالية. حتى أن القاضي نفسه حاول بصعوبة مداراة ابتسامته. تبدو القصة مُضحكة في قاعة محكمة سويسرية، فكّر دي شايلا في نفسة، لكنها لم تكن أبدًا مُضحكة حين سمعها من فم نيلوس في دير أوبتينا بوستين. إن مَرامي المتعصب المتطرّف ليست مُضحكةً أبدًا.

ربما كان نيلوس إنسانًا شاذًا، غريب الأطوار، لكن ما هو شأن الآخرين ممن نشروا البروتوكولات؟ ما الذي دفعهم لذلك؟ وأي تأثير كان لهم؟ تساءل القاضي.

إنه يطرق لبَّ الموضوع، همس ماطي لجورج.

نُشِرَت البروتوكولات في روسيا من أجل إقناع القيصر بالتمسك بسياسة رجعية مناهضة لليهود، أجاب دي شايلا. تعمّدوا اتهام اليهود بكل شيء. وقد أثّرَت البروتوكولات على جيوش دينكينس Denikins و رانجيلز Wrangels وبتلورا Petlura المسؤولين عن المجازر الكبيرة في اليهود، وكانت البروتوكولات أداة تحريض لارتكاب تلك المجازر.

ردًّا على سؤال القاضي ما إذا كان نيلوس هو من قام بتزييف البروتوكولات، أجاب الشاهد بالنفي القاطع. قال إن ذلك يستحيل، فقد كان نيلوس رجلاً مستقيمًا، لكنه لا يضمن سلامة عقله. كان أسير مُعتَقداته التي بموجبها اعتبر أن اليهود والبناة الأحرار تعاونوا على تدمير روسيا والعالم المسيحي كله.

وماذا كان موقف الكنيسة؟ استفسرَ القاضي.

كان في الكنيسة اختلاف في الرأي. في سنة 1910 أرسلت الكنيسة مطرانًا إلى أوبتينا بوستين لتقصّي الأمر، وبالتالي طلبوا من نيلوس أن يغادر الدير.

هل سأل الشاهد نيلوس إذا كان قد أجرى بحثًا أو دراسة عن حقيقة ذلك الدفتر؟

ادّعى نيلوس أنه استلم البروتوكولات، بطريقة غير مباشرة، من يد رتشكوفسكي، الذي شغل، على حد علمه، وظيفة مسؤولة في الهرم الحكومي، وليس ثمة سبب للتشكيك بما قال.

أيقنَ المحاميان من أن شهادة دي شايلا تركت لدى القاضي انطباعًا حسنًا.

حتى القاضي الذي يُخفي أسارير وجهه، لا يمكنه إخفاء أحاسيسه تجاه الشاهد، وخاصة حين يقوم هو بنفسه بصياغة الأسئلة. أصبحوا الآن على يقين من أن القاضي سوف يقرأ المقالات، فلم يلحّوا على دي شايلا أن يعود إلى سرد التفاصيل كلها. إياكَ وأن تجعل القاضي يملّ، ومن الأفضل أن تقتصر على أكثر الحقائق أهميةً. هكذا ردّدَ وأعاد البروفسور ماطي منبِّهًا، وكم سرَّه إذ رأى أن جورج تلميذ رائع.

سرعان ما انجلَت لهم تكتيكات الدفاع: إن كنت لا تستطيع مواجهة مضمون الشهاد، فعَليكَ بالشاهِد.

من أي نوع هي صحيفة "آخر الأخبار" Dernieres Nouvelles التي نشرت مقالات الشاهد؟ استهلَّ المحامي روف.

إنها صحيفة تدعم الجيش والملكية، وهي ضد البلشفيك بشكل قاطع، أجاب الشاهد. إنها صحيفة بورجوازية من كل النواحي،

ذات طابع وطني–ديمقراطي، تدعم كل الحركات الروحانية، محررها هو ميليوكوف، الذي ناصر النظام الملكي، وهو مؤرخ معروف وقد شغل وظيفة بروفسور في جامعات عِدَّة.

على سؤال إن كانت الصحيفة مؤيّدة أم معادية لليهود، لم يضبط الشاهد نفسه: إنها كسائر الصحف في فرنسا. إن هذا السؤال لا وجود له في فرنسا هذه الأيام. "اليهودي" تعني مُصطَلَحًا دينيًا، كالكاثوليكي أو البروتستانتي.
وأردف الشاهد قائلاً إنه في الماضي، كان صحافيًا مستقلاً، كتب غالبًا في المواضيع الدينية، وقد كتب المقالات الخاصة بالبروتوكولات بناء على اقتراح ميليوكوف.
وعلى سؤال آخر أجاب إنه قابل نيلوس لآخر مرة عام 1910، حين تسجّل في كلية العلوم الدينية في جامعة بطروغراد، حيث بقي إلى أن تم تجنيده في الجيش مع اندلاع الحرب عام 1914.
لم تكن لدى الدفاع أسئلة أخرى لهذا الشاهد.

أبرز المحاميان في هذه المرحلة، حسب إعدادهما المسبق، وثائق تدعم شهادة دي شايلا، وعلى رأسها تصريح الأميرة ردزيفيل، الذي كان مضمونه ما يزال غضًّا في ذاكرة القاضي. لا يمكن ألاّ يكون قد تأثر من وصف خطوط اليد المختلفة وبقعة الحبر الأزرق. ثم تلته وثيقة استثنائية وصلت مؤخرًا من بوريس نيكوليفسكي، وهي عبارة عن تصريح لمن كانت جارة لنيلوس، صودق عليه بحضوره في 1 يونيو 1934. أما نيكوليفسكي نفسه فسوف يدلي بشهادته في موعد لاحق، قالا للقاضي.

جاء في تصريح ماريا دميترفيينا كشكينا (الأميرة بطورلين سابقًا)، أنها منذ زواجها عام 1905، سكنت مع زوجها في عزبة محاذية لدير أوبتينا بوستين. كان الدير قد أقيم على قطعة أرض وهبتها للدير عائلة زوجها.

هي وزوجها عرفا نيلوس معرفة جيدة، وقد رأى زوجها في نيلوس، حسب تعبيرها، شخصية مشبوهة يجدر مراقبتها بحذر. في وصفها لعائلة نيلوس، كشفت كشكينا عن أنه بالإضافة لزوجته والسيدة كومروبسكايا، التي أسمتها "الزوجة السابقة"، فقد سكنت في بيت مجاور سيدة أخرى مع ابنتها، قيل إنها ابنة نيلوس أيضًا. أدّت هذه البنت، كما جاء في التصريح، دور الوسيط في جلسات استحضار الأرواح التي كانت تُعقَد في المحافل التي انتمى إليها نيلوس. لقد شكّل دير اوبتينا بوستين مركزًا لمختلف "الأتقياء الأغبياء"، من أمثال ميطيا كوزلسكي، وهو جزار في مهنته، رجل قوي ضخم الجثة، يكادُ بصعوبة يستطيع إخراج جملة كاملة من فمه، ومع ذلك فقد ذاع أنه قادر على طرد الأرواح الشريرة عن طريق ضرب مرضاه بقبضته وإذلالهم بشتى الطرق. ومع ذلك، فقد نجح في الزواج من سيدة ثريّة، قيل إنه أخرج منها سبعة هواجس. قالت كشكينا إن نيلوس هو من قدّم ميطيا إلى المجتمع الراقي الذي انضم إليه في بطرسبورغ بفضل كونه زوج أوزروفا.

بلغ ميطيا أوج نجاحه حين رافقه نيلوس شخصيًا إلى لقاء بالقيصر وزوجته. يبدو أن القيصر كان متأثرًا جدًا بلوحة يظهر فيها ميطيا وهو ينقذ ولي العهد المريض من جوقة من الأشباح، ذوي القرون والأذناب والحوافر، يحاولون التسلّط عليه. لقد اغتاظ سكان المنطقة من نيلوس الذي تجرّأ على إحراج القيصر حين قدّم له معتوه القرية. عرف السكان ميطيا جيدًا، كما أنهم كانوا على دراية بأفعال رهبان الدير "غير المقدسة". لم يكن سرًّا أمر بناية كانت على مقربة من الدير تسكنها "ثمرات خطايا الرهبان"، ولم ينظر السكان بعين الاحترام إلى من أسموهم "رُقَعاء الله".

تطابق أوصاف كشكينا المفصَّلة ما وصفه دي شايلا في مقالاته، ألمحَ المحاميان.

قدّرا مُسبقًا أن يتساءل القاضي عن علاقة هذا كله بالبروتوكولات. لكن، نظرًا لأن العالَم قد اعتبر كتاب نيلوس إبداعًا لكاتب كبير وفيلسوف، فمن الضروري وصف حقيقة الرجل وأسرته وجواره القريب. من المهم إقناع القاضي أن الرجل متعصب، غريب الأطوار، على جانب من الاختلال العقلي، غارق في العلوم الشيطانية، مؤمن بالقوى الخارقة للطبيعة، ورفيق للمعتوهين. إن سرجي ألكسنروفيتش نيلوس شخصية تلعب الدور الرئيس في القصة كلها، وكل دليل من شأنه إلقاء الضوء على طبيعة هذا الرجل وتصرفاته ليس غير ذي صلة بالموضوع. قال المحاميان لبعضهما إن على القاضي، في نهاية المحكمة، أن يعلم كل شيء عن نيلوس.

ألقى القاضي ماير نظرة على الوثائق التي وُضِعَت فوق طاولته، ووعد أن يقرأها كلها بإمعان. في هذه الأثناء بدأ الضجرُ يظهر على المتهمين ومحاميهم.

"أرجو استدعاء الشاهد التالي"، قال القاضي للمحاميين برونشفايغ وماطي.

"الشاهد التالي هو سرجي سباتيكوف"، قال جورج.

اعتلى سباتيكوف منصة الشهود ثابت الخطوِ مُعلِنًا أنه بروفسور، من مواليد 1880، يسكن باريس، حاز على الدكتوراة في الفلسفة من جامعة هايدلبرغ، لذا فبإمكانه الإدلاء بشهادته بالألمانية. كان عضو الهيئة التدريسية في كلية الحقوق في بطرسبورغ، وهناك، عام 1905، سمع عن البروتوكولات للمرة الأولى، وقد قرأها بالروسية في أكاديمية العلوم. كان ذلك إصدار نيلوس الأول، قال للقاضي.

دون انتظار السؤال من القاضي، وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر، انطلق يقرأ: "هذه البروتوكولات مزَوَّرة! لقد عالجتُ هذا الموضوع على مستويين، في البداية بصفتي موظفًا مسؤولاً في الحكومة المؤقتة، ما بين فبراير وأكتوبر عام 1917، ومن ثم كصحافي وكلاجئ في باريس عام 1921".

مُكررًا القصة التي قصَّها على جورج في باريس، وصف سباتيكوف كيف تم إرساله إلى أوروبا كمفتش للشرطة من قبل الحكومة المؤقتة في أبريل 1917، في مهمةِ حَلِّ ممثليَّة الشرطة السرية لروسيا القيصرية، وذلك بعد أن عُيِّنَ قاضيًا محققًا ذا صلاحيات خاصة. عرف **بروتوكولات شيوخ صهيون** مرة أخرى أثناء وجوده في باريس. "عام 1905 لم يأخذ أحد منا البروتوكولات على محمل الجد، وهذا ينطبق على كل أوساط المثقفين في روسيا، فكلنا اعتبرنا البروتوكولات مزوَّرة، وفي أحسن الأحوال، من نسج خيال أحدهم.

لم تكن لدي فكرة في تلك الأيام عن اهتمام الحكومة بهذه الوثيقة. قال لي چــراف بوبوف، وقد كان وزيرًا في الحكومة بين عامي 1903-1916، إنه لم يسمع أبدًا بالبروتوكولات. ربما كان في الحكومة من سمع بها أو عرفها، ولكن ليس الحكومة كحكومة، والأمر كذلك بالنسبة للكنيسة، أي ربما عرفها أفراد، لا الكنيسة".

ردًّا على سؤال عن التأثير اليهودي، أجاب بالنفي القاطع: في عهد الحكومة المؤقتة تم الإعلان عن مساواة الحقوق للجميع، وربما أتيح لعدد أكبر من اليهود المشاركة في الوظائف الحكومية. "اعتقدنا أننا قضينا كليًّا على المشكلة اليهودية".

"هل يُسمح لي أن أروي قصة قصيرة، لكي أصوّر الأجواء في روسيا في تلك الأيام؟"، سأل بتردّد، فاستجاب القاضي لطلبه.

"مرة واحدة فقط سمعتُ عن قُربِ "سيطرة اليهود" على روسيا. شغلتُ أنذاك منصب نائب حاكم بطرسبورغ. اقتحم مكتبي ذات يوم رجلٌ يصيح بتأثر: اعتقلني، اضربني، قيِّدني! سألته: ماذا تطلب يا سيدي العزيز؟ فقال: لم أعد أطيق الانتظار، فأنا منذ أسبوع أنتظر مجيء الشرطة اليهودية. الآن وقد أوشكنا على مجيء الحكومة اليهودية، لم يعد أمامي سوى تجرّع كأس السم! فالانتقام لا بدَّ آتٍ! سألته من يكون؟ فأجابني أنه صحافي ذو

آراء رجعية طالما هاجم اليهود، وأنه يعتقد أنهم سيحاكمونه أو ربما يقتلونه. كان مُقتنعًا من أن سلطان الله على الأرض قد انتهى، ومن الآن فصاعدًا سيتحكّم اليهود بروسيا. قلتُ له: سيدي العزيز، لك أن تعتقد بما تريد، ولا يمكنني أن أقول لك إني استلطفتُ مقالاتك بشكل خاص، أمّا الآن، فإليكَ كأس السم! ومددتُ له كأس ماء قائلاً: اشرب سمَّك هذا وعُد إلى بيتك لتواسي زوجتك".

انفجرت الضحكات عالية في القاعة هذه المرة، لتبدِّد التوتر الذي ملأ الأجواء. حتى أن القاضي ابتسم أيضًا.
"أريدُ أن أؤكِّدَ"، أردف الشاهد قائلاً، "أننا في الحكومة المؤقتة لم نميّز أية ظاهرة تشير إلى أي تأثير يهودي".

بعد استراحة وجيزة، ودون انتظار السؤال، أضاف يقول: صحيح أن اليهود قد حصلوا على وظائف كانت من قبل مسدودة في وجوههم، فتم تعيين الكثيرين من الشباب اليهود في وظائف في السلطات المحلية. "بإمكاني الترجيح أن البعض من رجال النظام السابق البيروقراطيين لم يغيّروا آراءهم، كما أعلم أن الكثيرين منهم قد أُرسِلوا إلى سيبيريا، وفي المقابل، فقد استجاب اليهود إلى الدعوة للخدمة في النظام الجديد، انضموا إلى البلشفيك وظفروا بوظائف. هذه حقيقة لا يمكن إنكارُها، ولست أحاول الحكم على أحد".

ردًّا على سؤال من البروفسور ماطي حول اللاسامية في الحكومة المؤقتة، أجاب إن الحكومة المؤقتة، وكذلك الحكومة البلشفية، لم تكونا لاساميتين، بينما كانت الحكومة القيصرية أكثر الحكومات لاساميةً في العالم، ربما باستثناء الحكومة الرومانية. "لكن، ولمزيد الأسف"، أضاف الشاهد، "فإن اليهود يعانون شديد المعاناة حتى في ظل الحكم البلشفيكي. هؤلاء الناس فقدوا كل شيء، كل الأرباح التي جنوها من أعمالهم الصغيرة ومصانعهم، وقد استُعبدوا أسوة بسائر القوميات في النظام السابق. لكن لا بد من

الاعتراف أنّ عدد أصحاب الوظائف من اليهود يفوق كثيرًا ما كان عليه في النظام السابق حين كانت الوظائف ممنوعة عنهم.

الكنسية الأرثوذكسية لم تتنكّر أبدًا لمصادرها اليهودية، ولم تنتهج رسميًا سياسة معادية للسامية، وإن كان هناك بعض الكهنة الذين وقعوا في هذه الخطيئة.

اعتقد القاضي أن الشاهد يوشك على إنهاء شهادته، لكن جورج برونشفايغ فاجأه إذ قال إنه ما زال لدى هذا الشاهد الكثير مما يجب أن يقال. الآن حان دور الفصل الخاص بالعميل بينت.
بما أن الشاهد أدلى بشهادته بالألمانية، فقد نطق الاسم "هنريخ بينت". روى الشاهد للمحكمة كل ما كان بينت قد أخبرَه عن نشاط بيتر رتشكوفسكي وعن تزييفاته، وكيف أنه هو بنفسه قام بدورٍ في ما أسماه "آخر التزييفات وأعظمها – **بروتوكولات شيوخ صهيون**".

عمل بينت في الشرطة السرية قبل عهد رتشكوفسكي أيضًا، أوضح سباتيكوف. في القرن التاسع عشر استخدمت روسيا العملاء السريين في باريس وجنيف. بعد وفاة القيصر ألكسندر الثاني، أقيم فرع الشرطة السرية في باريس لغاية حماية القيصر، وفي عام 1880 غدا بينت أحد عملاء هذه الوحدة، أي قبل تعيين رتشكوفسكي رئيسًا لها بأربع سنوات. منذ ذلك الوقت تلقى بينت الأوامر للقيام بالتزييفات، دون علم باقي العملاء بالأمر.

هنا سردَ سباتيكوف بكل تفصيل كل ما أسرَّ له بينت عن تزييفات رتشكوفسكي، وعن استفزازاته، وعن المهمات التي ألقيَت على مختلف العملاء. كرّرَ بدقة كل ما قاله لجورج في باريس، وقال إنه أحضر معه، كمثال لطُرُق التزييف، كتابًا مزيَّفًا يبدو للناظر أنه طُبع في سويسرا، لكنه في الواقع طُبع في باريس. وفيما قال ذلك، انتشل من حقيبته كتابًا ووضعه أمام القاضي.

أرهف الكل السمعَ. انتهز جورج هذه اللحظة فقام بتوجيه الشاهد إلى موضوع البروتوكولات.

قال له بينت إن البروتوكولات هي أعظم التزييفات جمعاء، وحسب وصفه، تبدو وكأنها محاضر جلسات المجلس اليهودي الأعلى، أو أي جسم مماثل له، يتباحث أعضاؤه "**شيوخ صهيون**" في أمر إخضاع العالم لمملكة يهودية. لم يكن بإمكان بينت أن يعطيه نسخة. قال له إن النسخات كلها حُفظت سِرًا حتى عنه نفسه.

خيَّم الصمتُ على القاعة حين وصف سباتيكوف كيف قام غولوبينسكي بعملية التزييف في المكتبة الوطنية في باريس بإرشاد رتشكوفسكي. تفاقم التوتر حين وصل الشاهد إلى المقطع الذي وصف فيه كيف أن بينت دفع أجور المزيّفين، نقدًا وسِرًّا وبغير إيصالات.

انتظر جورج برهةً من الزمن حتى لا يبدّد الانطباع الذي تركه ذلك الوصف في القاعة؛ هذه الشهادة الهامة يجب أن تنغرس عميقًا في ذاكرة المستمعين. كان يعلم أن الشاهد ما زال يحتفظ في جعبته بمفاجئات أخرى.

سأل القاضي الشاهد إن كان يعلم ما هو مصدر البروتوكولات.

طبعًا، أجاب بحسم. لا شكَّ أن المزيفين قد استخدموا كتاب موريس جولي "حوارات في جهنّم" بين ميكافيللي ومونتسكيو. كان هو بنفسه، وبناء على نصيحة الصحافي المعروف بورتسيف، قد زار المكتبة الوطنية في باريس عام 1921، وهناك في المكتبة، وجد أربع نسخات من كتاب موريس جولي، في إحدى هذه النسخات وقف على فقرات تم تعليمها بقلم رصاص، وقد فوجئ إذ لاحظ خلال المقارنة أن هذه الفقرات بذاتها قد نُقِلَت إلى **بروتوكولات شيوخ صهيون**.

"لا أعرف إن كان غولوبينسكي هو من قام بالتعليم"، أضاف الشاهد مراعيًا الدقة، "لكنَّ بينت قال لي إن غولوبينسكي اعتاد القيام بعملية التزييف في تلك المكتبة".

اختار جورج برونشفايغ هذه اللحظة ليقترب من منصة القاضي ويضع أمامه كتاب موريس جولي. كانت تلك لحظة دراماتيكية، وقد انتهزها جورج بالتمام: "تفضَّل، سيدي القاضي، ها هو الكتاب الذي عنه نُسِخَت **بروتوكولات شيوخ صهيون**". إلى جانب الكتاب وضع مستندًا أُعِدَّ سلفًا، طُبِعَت فيه جنبًا إلى جنب، لغاية المقارنة، فقرات متماثلة من الكتابين. تفحَّص القاضي المستند بإمعان، متجاهلاً للحظات ما يجري في القاعة. وحين تفرّغ أخيرًا لمتابعة شهادة الشاهد، لاحظ الجميع بكل وضوح أنه يرخي يده عن الكتاب والمستند عن غير رغبة.

راح الآن سباتيكوف يصف كيف نُشرت البروتوكولات بمختلف اللغات، وأضاف: "لكوني "دودة كتب" وبيبليوغرافي، فقد احتفظت أنا شخصيًا بإصدارات عديدة من البروتوكولات". بعض الأشخاص الذين عملوا في قسم الاستخبارات داخل ما عُرِف بـــ "الجيش الأبيض" في جنوب روسيا، من أمثال البروفسور سوكولوف والجنرال دراغوميروف، قاموا بنشر نسخات كثيرة عن البروتوكولات في المدن، مثل كييف وخركوف وأوديسا. كانوا يهدفون إلى إقناع السكان بأن اليهود هم سبب كل الشرور والفوضى، والحرب الأهلية، وثورة أكتوبر، وثورة فبراير. ولإثبات ادعاءاتهم كانوا يقولون: "ها هي **بروتوكولات حكماء صهيون**، اقرأوها. انظروا من هم ملوك الروس اليوم. إنهم اليهود!". نطق الجملة الأخيرة بلهجة استنكار، ثم قال: كان هناك من تنبأوا بالمستقبل الآتي، ومنهم كان نيلوس الذي تنبأ فِعلاً بقدوم الثورة، لكنه صوّرها كظهور إبليس متجسِّدًا من خلال اليهود، لذلك أصدر البروتوكولات في ثلاث أو أربع طبعات.

كانت للبروفسور ماطي عدة أسئلة أخرى. في ردوده قال الشاهد إنه لم يرَ إبدًا طبعةً للبروتوكولات باللغة العبرية.
قال إن المزيف لم يكن ملمًا باللغة الفرنسية، كما أن المترجم لم يكن أفضل منه، فالترجمة إلى الروسية سيئة جدًّا، وتبدو كالقطع التي جُمِعَت لبعضها بقُطَبٍ فظّة. أسوة بسائر تزييفات

رتشكوفسكي، لم تكن هذه أيضًا أبداعًا أدبيًّا. كان من الواضح أن التزييف صُنِعَ بتهوّرٍ، وللاستهلاك الفوري.
إن تزييفات رتشكوفسكي كلها، ما بين 1884 و 1902 قد تمَّت على نفس المنوال، قال الشاهد.

حين قام فيشر لاستجواب الشاهد استجوابًا مضادًا، كتب البروفسور ماطي على ظهر بطاقة لجورج: "سترى الآن كيف يستخدمون تكتيكاتهم المعتادة في تجاهل الحقائق ومحاولة دحض مصداقية الشاهد".
لدى سماعه السؤال الأول أحنى جورج قامته تقديرًا لأستاذه.
س: أودُّ أن أسأل الشاهد إذا كان من أبناء القومية اليهودية.
جـ: لا، بالطبع، فنحن منذ مئات السنين روسيون أصليون، لم يكن في عائلاتنا يهود بتاتًا.
س: أليس من المعقول أن اليهود هم من تسببوا بالثورة، فقد كانت حكومة القيصر ضدهم.
جـ: أجل، كان اليهود ضحايا النظام الرسمي في روسيا، وكان من الطبيعي أن يناهضوا الحكم، غير أن نسبتهم في الحركة الثورية كانت في البداية توازي نسبتهم في عدد السكان، 4%، ولكنهم بعد ذلك، وحين اضطُرَّ الكثيرون منهم إلى الهجرة على أثر المجازر، ازداد عددهم قليلاً، لكنهم لم يكونوا أبدًا ثوريين أو فوضويين مثل باكونين. كانوا عنصرًا هامًا ويقظًا لما يجري في المملكة. أنا شخصيًا كتبت كتابًا عام 1914 عن "اليهود في الثورة الروسية"، لكن لم يتم نشر الكتاب أبدًا.

للخبراء أيضًا كانت أسئلة. أجاب سباتيكوف أولاً عن أسئلة باومـچرتن، فقال:
رغم إقالة رتشكوفسكي عام 1904، لكنه بقي نشيطًا من وراء الكواليس. كان له دور غير مباشر في اغتيال وزير المالية بلاڤـيه، وفي عام 1905، بعدما أعاده قائد الحرس الملكي تريبوف Trepov من منفاه، عاد ليصبح حبيب القيصر نيقولاي

الثاني، فعُيِّن قائدًا للشرطة. والحقيقة هي أنه شغل وظيفة نائب مدير دائرة الشؤون السياسية. لقد سيطر تقريبًا على روسيا لعدة أشهر، ودبّر الكثير من الاستفزازات، مثل قضية لوفوخين قائد الشرطة الأسبق.

أما لوسلي فقد وجّه للشاهد سؤلاً واحدًا، وقد أجاب الشاهد بصوتٍ عالٍ: لم يكُن كرنسكي يهوديًا! كذلك لم يكن لينين ولا زوجته. إن والدتها مدفونة في بيرن.

انحنى لوسلي أمام القاضي موضحًا أنه يشير إلى ما قيل من الادعاءات.

اضطر الشاهد، ردًّا على أسئلة المتهم هَالــِر، إلى تكرار وصف علاقته ببينت بالتفصيل.

وعلى سؤال آخر أجاب: "كنت على يقين من أن البروتوكولات قد اختفت كليًّا بعد نشر مقالات روبرت غراڤــز في التايمز عام 1921، لكني رأيتها ثانية عام 1929. عرضتُ على الصحف في روسيا إثباتات على زيف البروتوكولات، لكن الأمر لم يعنِهِم. نصحوني بأن احتفظ بالإثباتات في أرشيفي الخاص!"

هنا توجّه الشاهد إلى المتهم وخاطبه مباشرة: "يجب أن أقول للسيد القومي–الاشتراكي إنه لممّا يؤسفني أن يلجأ هو وزملاؤه إلى استعمال سلاح ضعيف كالبروتوكولات. كان بإمكانكم محاربة أعدائكم، أو أعدائكم الوهميين، بسلاح أكثر عقلانية. ليست هذه اللغة التي يستعملها اليهود! إن هذا التزييف قام به مزيفون روس!"

ثم قال بتأثر متزايد، موجِّهًا الحديث إلى القاضي: "كمواطن روسي وكعضو سابق في الحكومة الديمقراطية المؤقتة، أقول لحضرتك إن هذا الأمر يمسُّ كرامتنا القومية! إنه باطل. من نسج الخيال. وهو تزوير دبَّرَه المجرم رتشكوفسكي! إننا، في سبيل مصلحتنا الوطنية، ننتظر قرار هذه المحكمة غير المنحازة، الموجودة في أكثر دول العالم ديمقراطيةً. إني، كشاهدٍ مستقيم ينطق بالحق، وكمن شغل وظائف مسؤولة في الحكومة الروسية

الديمقراطية، أقول لك، سيدي القاضي المحترم، ما هذه الوثيقة إلاّ وهمًا".
مأخوذًا بمفاجأة هذا الإعلان، ودون تفكير، تصدّى هالـــر قائلاً: عِلمًا بأننا لم نسمع من الشاهد مثل هذا التصريح من قبل، فكيف استطاعوا أن يعرفوا أمرَ التزييف! بدا المحامي روف مصدومًا.
"هل هذا اعتراف من المتهم؟" همس جورج لماطي، فأجابه ماطي بهمس أيضًا: "سترى حالاً كيف سيَصْحُون".
لقد صدق أستاذي مرّة أخرى، قال جورج لنفسه عندما نهض المحامي روف لاستجواب الشاهد.
استهلَّ روف بمحاولة لدحض مصداقية بينت، بحجة أن سباتيكوف قد دفع له مقابل المعلومات التي زوده بها.
"عام 1917"، قال الشاهد بلهجة المُهان، "حين كنت موظف دولة، لم أدفع لبينت شيئًا عما أعطاني من المعلومات، ولو فعلتُ، لتجاوزتُ القانون. أما بعد ذلك، عام 1921، فقد كان بينت فقيرًا، وكنت أنا صحافيًا مستقلاً، فاشتريتُ منه الوثائق آنذاك، وليس المعلومات. وأما ما زوّدَني به من المعلومات فلا يختلف عما قاله لي عام 1917.

بدا مُضطربًا جِدًّا. قال: "أنا محامٍ من حيث المهنة، وأنا أعرف تمامًا الغاية من سؤالك!" وبعد برهة قصيرة باغتَ الجميع بطَرَقاتٍ شديدة على الطاولة: "لم أدفع مُطلَقًا مقابل معلومات. دفعتُ ثمن الوثائق التي كانت في أرشيف بينت الخاص، والتي لم يكن هو نفسه على علم بمضمونها".
لشدة تأثره، أخذ سباتيكوف يتكلم بالفرنسية، يمسح وجهه بمنديل أبيض أخرجه من جيبه، ويردّد ما سبق وقال بالألمانية: "لم أدفع مقابل المعلومات، بل مقابل المستندات!".

بدا وكأن الشهادة قد انتهت، لكن أثناء نزول الشاهد من على منصة الشهود فاجأه القاضي بسؤال إضافي، طالبًا معرفة ما إذا كان سباتيكوف قد شاهد مجزرة ذات مرة. احتاج الشاهد المشدوه إلى بضع ثوانٍ لاستيعاب السؤال.

"من الصعب الإجابة على سؤال كهذا. كيف يمكن تعريف المجزرة؟ فلو سألتم مراسل جريدة، فقد يجيب أن ذلك يعني سطوًا أو اغتيالاً".

وبينما أغمض عينيه لوهلة، أضاف بصوت منخفض يكاد لا يُسمَع: "أجل، حضرة القاضي، رأيتُ مجزرة عربَدَتْ في روسيا على مدى ثلاثة أيام، إثر إعلان بيان القيصر في السابع من أكتوبر. كان ذلك رهيبًا! تحرّكت كتلة بشرية في الشوارع، وكلما صادفوا بيتًا يهوديًا اقتحموه. في المذابح السابقة تمثّل الأمر بالسلب والنهب، وأما في تلك المرة، في رسطوف مثلاً، اغتيلَت أُسَرٌ بكاملها. أنا شخصيًا توسَّلتُ إلى رجال الشرطة لكي يتدخّلوا، ليقوموا بواجبهم. أجابوا: سيدي العزيز، هذا رهيب حقًّا، لكننا لم نحصل على أمر بالتدخُّل. قصدوا القول إنهم أُمِروا بعدم التدخُّل. صرختُ قائلاً إن روسِيًّا يحترم نفسه لا يمكن أن يقف مكتوف الأيدي، وانضممتُ إلى جماعة من اليهود حاولوا الدفاع عن أنفسهم. اعتقدتُ أن من واجبي حماية هؤلاء اليهود المساكين بما يتوفر من سلاح في يد إنسان روسي. سيدي! لقد أُصِبتُ مرَّتين في الحرب الكُبرى. فقدتُ سمعي جزئيًّا وكذلك بَصَري. كُسِرَت يدي اليسرى، وحصل ثقبٌ كبير في رأسي. أومنُ أني قمتُ بواجبي نحو الوطن، ولكن، سيدي القاضي، في عام 1905 كان من واجبي، كمواطن روسي، أن أخرج إلى الشوارع للدفاع عن اليهود، تمامًا كما هو واجبي اليوم في 1934، أن أحضُرَ إلى هذه المحكمة من أجل الدفاع عن الحقيقة ومساعدتك على كشفها!"

مرّت دقائق صمتٍ تام. كان بالإمكان سماع طنين الذبابة في طيرانها. حتى أن الصحافيين بدَوا كالمشلولين، غير قادرين على استلال أقلامهم، مما اضطرهم إلى مراجعة أقوال الشاهد من أجل التبليغ.

تنفّس الجميع الصعداء حين أعلن القاضي الاستراحة. أسرع جورج بالخروج في إثر الشاهد ممسكًا بذراعه. انتهى الكابوس، همس في أذنه محاولاً تهدئته.

حجزوا سلفًا طاولة لتناول وجبة في أحد المطاعم الصغيرة في الشارع المجاور. وصل ليفشيتس بعد الوجبة الأولى وأخبرهم أنه تأخّر بسبب حديث مع الصحافيين. تأثر بالعدد الكبير من رجال الصحافة الذين جاءوا لتغطية الحدث. ما كان لهم أن يتوقعوا تغطية صحافية أوسع.

قال ليفشيتس إن الصحافيين قد أُعجبوا جدًّا بالشهادات. كانت المراهنة مجدية إذًا، فحتى لو رفض القاضي تفسيراتهم وتعليلاتهم القضائية، فقد كان ما يبرّر رفع الدعوى، إذ أنَّ في قاعة المحكمة فقط كان بالإمكان جمع هذه المجموعة المثيرة من الشهود لإسماع شهاداتهم أمام هذا العدد الكبير من الصحافيين من كل أنحاء العالم. "لكن ترقَّبوا التتمة"، قال وهو يحك كفَّي يديه ببعضهما، "سرعان ما سيتضح أن المتهمين يفتقرون إلى كل دفاع. سوف يبدون كالبلهاء أمام ممثلي الصحافة". لزم الدكتور ڤـينر الصمت. لم يشأ أن يفسد عليهم شهيَّتهم. أيقن في قرارته أن المتهمين النازيين لن يقفوا مكتوفي الأيدي. توقّع أنهم لن يقوموا بمحاولة لإثبات صحة البروتوكولات، لكنهم سيستغلون قاعة المحكمة كمنبرٍ عام. وسوف يخاطبون جمهورًا من نوع آخر. ولعل جمهورهم أكبر من جمهورنا بكثير، ولا شكَّ أن صوتهم أعلى من صوتنا. فكّر بأسى، خاشيًا أن يكون لهم تأثير أعظم. لكنه أرغم نفسه على أن يُبقي مخاوفه لنفسه؛ فمن حقهم أن يهنأوا بهذا اليوم الأول من المحكمة. لقد قاموا بالعمل الجيد، وقد كان الشهود عند حسن ظنهم وتوقعاتهم. ومن الواضح أنهم تركوا لدى القاضي انطباعًا حسَنًا جدًّا.

حين افتُتِحَت جلسة ما بعد الظهر، كانت القاعة ما تزال غاصة.
الشاهد التالي هو فلاديمير بورتسيف، أعلن جورج.
أحضر جورج معه القوائم التي أعطاهُ بورتسيف في باريس، فبَسَطَها أمامه فوق الطاولة. أراد أن يضمن عدم تفويت أي بند من هذه الشهادة الهامة.

كان البروفسور ماطي راضيًا جدًا عن قراره بأن يقوم جورج باستجواب كل الشهود، وقد أدرك أن مجرد وجوده يمدُّ جورج بكل الدعم الذي يحتاجه. كانت تلك فرصة نادرة يرى فيها أداء أحد تلاميذه، وهو شديد الفخر به. تذكّر سالي ماير الذي شرح له المقولة اليهودية "لا يحسد المرء ابنه وتلميذه"، وفكّر: هذه المقولة وغيرها من المقولات المماثلة، ليست صادقة دائمًا، إذ أن بإمكانه تعداد أسماء بعض زملائه الذين ليسوا على استعداد للظهور في قضية بمعية طلابهم في قاعة المحكمة، خشية أن يتفوقوا عليهم في استرعاء الإعجاب.

أفاد بورتسيف أنه يقطن حاليًا في باريس، لكنه اختار أن يدلي بشهادته باللغة الروسية بينما وقف مقابله مترجمٌ. كان القاضي قد عرف من خلال الشهادات السابقة مَن هو هذا الشاهد، ففي صباح ذلك اليوم ذكر سباتيكوف في شهادته أن بورتسيف أقنعه بأن يعود إلى لقاء بينت الذي وصل باريس عام 1912. وبورتسيف هو مَن حثَّ دي شايلا على كتابة المقالات التي وصف فيها لقاءاته ببينت عام 1917.

اختصارًا للوقت، طرق القاضي لبَّ الموضوع: "ماذا تعرف عن **بروتوكولات حكماء صهيون**"؟

"علمتُ بوجود هذه البروتوكولات قبل 30 سنة، ومنذ ذلك الوقت لم أكفّ عن الاهتمام بها".

استعاد بورتسيف، بصوت جهوري، ذلك اليوم البارد في بطرسبورغ حين وقعت عيناه على **بروتوكولات حكماء صهيون** للمرة الأولى، أثناء الإعداد لجلسة هيئة تحرير مجلة بيلويا BYLOJE التي حرَّرها آنذاك.

مُكرِّرًا كل ما سبق أن قاله لجورج، أوضحَ بورتسيف للقاضي لماذا اتفق كل أعضاء هيئة التحرير، في ذلك اليوم، على أن البروتوكولات غير جديرة بأن تُذكر في مجلتهم ولو سلبيًّا، إذ أن مجرَّد ذكرها، ولو سلبيًّا، من شأنه أن يضفي عليها نوعًا من

صفة الاعتراف الشرعي. انتظر القاضي مُصغيًا، فقد كان واضحًا أن الشاهد لم يُكمِل إجابَتَه بعد.

"مع ذلك، أثارت الوثيقة فضولي، وقرَّرتُ أن أدرس الموضوع. لقد قضيتُ 15 سنة خارج روسيا، وكان لي أصدقاء كثيرون، ومما أثار استغرابي أن أحدًا منهم لم يسمع أبدًا بهذه البروتوكولات، الأمر الذي عزَّزَ شكوكي في كون الوثيقة مزوَّرة".

ذكر القاضي اسم رتشكوفسكي.

قال إنه لم يعرفه شخصيًّا، لكنه عرف عنه الكثير؛ بصفته محررًا صحافيًا فقد كانت له علاقات واسعة استطاع من خلالها معرفة الكثير عن تزييفات رتشكوفسكي. كما كانت له معرفة جيدة بمُساعِدِهِ بينت الذي علم منه أنه كان لرتشكوفسكي عميل آخر يُدعى غولوبينسكي متورطًا عمليًّا في تزوير البروتوكولات، وقد حصل أيضًا على مثل تلك المعلومات من قائد الشرطة بيلتسكي.

سأل بورتسيف القاضي إن كان بإمكانه أن يذكر المصادر التي أكّدَت له زيف البروتوكولات، وبعد أن أومأ القاضي برأسه بالإيجاب، استرسل مُفَصِّلا:

"وصلني تأكيد على زيف البروتوكولات من قائدين في الشرطة، الأول لوفوخين، وهو مَن زودَّني في حينه بالمعلومات عن الجاسوس الشهير آزاف، والثاني بيلتسكي، وهو مَن كان شريكه في حجرة السجن. كلاهما ذكر رتشكوفسكي وغولوبنسكي كمن قاما بتزوير البروتوكولات. وكان هناك مصدر أقلَّ ثقةً تحدّث عن مانويلوف أيضًا".

بعد استئذان القاضي، سأل جورج برونشفايغ الشاهدَ: لماذا لم يكشف عن أمر التزوير في المجلة التي حرَّرها في باريس؟ فأجاب أنه تم التشاور في الموضوع، غير أنه، بعد نشر مقالات فيليب غراقـز في التايمز اللندنية، أيقنوا أنه لم تعُد هناك ضرورة.

نظرًا لأن بيلتسكي كان من بين الذين "طبخوا" تلفيقة الدم ضد بيليس، فقد أراد أن يسمع من فمه لماذا لم يستخدموا البروتوكولات في تلك القضية؟ فأجاب أنه لم يكن على استعداد للمخاطرة باستعمال وثيقة عرف الجميع أنها زائفة.

ظهر من أسئلة القاضي أنه بات على دراية كبيرة بمواد القضية. "يبدو أن غولوبينسكي قد شارك في كتابة البروتوكولات في الدفتر ذي الغلاف الملطخ بالبقعة الزرقاء. هل تسنّى لك أن ترى بعينيك ذلك الدفتر، وهل لاحظتَ فيه خطوط يد مختلفة؟"
"في تلك الأيام"، تذكَّر الشاهد، "لم أكن على علم بتورُّط غولوبينسكي في تزييف البروتوكولات، ولم يتسنَّ لي رؤية الخط، لكني سمعتُ عن ذلك لاحقًا، وقد تحدثتُ بالأمر مع قائد الشرطة لوفوخين. سألني عن سبب اهتمامي بالموضوع، وأضاف: "هذا موضوع مفروغٌ منه".
حين سُئِل عن نيلوس أجاب أن هذا الرجل استخدم البروتوكولات حتى بعد أن اتضح له تمامًا زيفها. "هذا ما يجعله شريكًا في الجرم"، قال مُعلِنًا. خلافًا لسواه من الشهود، لم يكن على استعداد لأن يخفف الوطء عن نيلوس.
فيما تابع كلامه، راح جورج يتفحّص تسجيلاته. إن الشاهد لم يَسْهُ عن شيء. لكزَهُ ماطي لكزةً خفيفة في كتفه، لئلاّ يفوّت على بورتسيف متابعة أقواله.

"عام 1916 أوكِلَت إلى عميل للشرطة يدعى غولوبتشيف مهمة مُراقَبَتي، وقد التقيتُ به لاحقًا، عام 1920، في اسطنبول حيث تبادلنا الحديث عن الحرب وعن البلشفية. كما أني لقيته من مدة قصيرة في باريس، وفي هذه المرة تحدثنا عن البروتوكولات، فقال لي إن تزييفها قد تم ما بين 1896 و 1900. فهمتُ من كلامه أن التزييف قد تم من أجل التأثير على القيصر، الذي كان بطبيعة الحال معروفًا بتأييده للاساميين. أعجبَ القيصر في البداية، وكتب في الهوامش، كعادته، أن كل ما حدث في الثورة عام 1905 قد حدث طبقًا لهذه البروتوكولات، غير أن أوساطًا

مختلفة في القصر أبدت تشكّكها، فوافق القيصر على أن يقوم لوفوخين بتحقيق خاص، إلى أن اقتنع الجميع أخيرًا أن في الأمر تزييفًا. حتى رتشكوفسكي لم يكن قادرًا على نفي ذلك، لكنه تشبّث برأيه أن لا بدّ من استخدام البروتوكولات، فكان ردُّ القيصر المعروف "يجب ألاّ نعمل بالوسائل الباطلة من أجل الغاية السامية".

دهشَ جورج برونشفايغ مرارًا من تعاطف شخصيات روسية مرموقة مع موضوع البروتوكولات، فها هو بورتسيف، أسوة بسباتيكوف، يُبدي تأثرًا عظيمًا، حتى أنه رفع صوته قائلاً: "في نظري، هذه البروتوكولات كارثة لروسيا"!

أما من جهة المتهمين، فلم يطلب سوى المحامي روف توجيه الأسئلة إلى الشاهد، وقد أجاب بورتسيف بلهجة باردة برود الثلج: "لم أكن أبدًا عضوًا في حزب. كنت دائمًا رجل صحافة. لكنني لا أخفي مناصرتي لليسار".

"قابلت بينت عام 1918، وقد قال لي إنهم ألقوا عليه أيضًا مهمة مراقبتي. دعوتُهُ عام 1919 إلى بيتي. أما بالنسبة لمصداقيته، ففي تلك الأيام لم يبقَ ثمة سبب يجعله يرتاب، فكشف لي عن مختلف التفاصيل برغبة وحرية، وعلى هذا النحو تحدّث أيضًا عن رتشكوفسكي. علمتُ أن بينت قد التقى بصديقي سباتيكوف الذي اهتم جدًّا بهذا الموضوع. أنا الذي رتَّبتُ هذا اللقاء بينهما".

حان الآن الوقت لاستدعاء أحد أهم الشهود، مؤرِّخ شهير. فكَّروا بطلب استراحة قصيرة، إذ بدت على القاضي أمارات التعب، لكنهم تنازلوا عن ذلك، فهذه محكمة القاضي ماير، وهو من يقرّر وقت الاستراحة. كان قد أوضح لهم أنه من منطلق المسؤولية تجاه أصحاب الدعاوى الأخرى الذين ينتظرون بحث قضاياهم، فهو يعمل على التقدّم بسرعة قدر المستطاع، وهو لم يتوقع أن يطول بحث هذه القضية إلى هذا الحد. من جهتهم لم يشاءوا تركَ انطباع بأنهم يواجهون صعوبات في إدارة القضية.

توبعت الجلسة دون استراحة، فدُعي إلى منصة الشهود البروفسور بوريس نيقولييفسكي. وافق هذا الشاهد على أن يدلي بشهادته بالألمانية، لكنه طلب المعذرة سلَفًا إذا ما اضطرَّ إلى استعمال المصطلحات الروسية من حين لآخر. إنه كاتب في مهنته، ويقطن باريس حاليًا.

"لقد تناولتُ **بروتوكولات حكماء صهيون** كمؤرِّخ، وأنا ملمٌّ بكل ما عُرِفَ عنها"، قال مبادِرًا، "لكني أفضِّل الإجابة على أسئلة محدَّدة".
سأله القاضي: "هل تعلم كيف كُتِبَت هذه البروتوكولات؟ فهناك من يقول إنهم تبنّوها بالإجماع تقريبًا في الكونغرس الصهيوني في بازل عام 1897".

شاهد الادّعاء
المؤرّخ الروسي
بوريس نيقولييفسكي

"أرجوك، حضرة القاضي! لا تأخذ هذا الكلام بجدِّيّة. فهذا القول الخاطئ ورد للمرة الأولى في الطبعة الرابعة لكتاب نيلوس عام 1917، وقد تبناه بحماس أصحاب دور النشر الألمان بعد الحرب. لكن الكل كان يعلم أنه لم تكن هناك علاقة لهذه الوثيقة

بالصهيونية. ادَّعى ناشرو البروتوكولات الأوائل أنها ظهرت للمرة الأولى في التسعينيات من القرن التاسع عشر. وبحسب هذا الادعاء، سُرقت البروتوكولات من أرشيفات البناة الأحرار، من دائرة أطلقوا عليها اسم "مصر"، وأن الذي سرقها هو رجل يهودي يُدعى شبيرا، لصالح سيدة روسية اسمها غلينكا".

"تصوَّروا"، أضاف الشاهد بلهجة ساخرة، "في بداية التسعينيات، يهودي صغير، ثبتَ لاحقًا أنه مُزَوِّرٌ، يسرق البروتوكولات، وبعد ذلك بسنوات، في 1897، يتبناها الكونغرس الصهيوني! هل يمكن النظر إلى هذه القصة بعين الاعتبار"؟

أفاد الشاهد أن غلينكا انتمت إلى جهاز "الشرطة السرية الخاصة" الذي تم تشكيله بعد أن قرّروا أن الشرطة العادية غير قادرة على القيام بواجبها في حماية القيصر. وقد انتمت إلى عائلة مرموقة جدًّا وصاحبة عقارات.

كالكثيرين من زملائهم، تساءل محامو الدفاع أيضًا، كم من الشهود عليهم أن يُحضِروا بَعد، من أجل إثبات حقائق معينة؟ وهل في كثرة الشهادات ما يعزّز قناعة القاضي، أم تراه سوف يضجرُ، وربما يحوّل انتباهه عن القضية؟ إن القاضي قد عرف من هي السيدة غلينكا، فلماذا الإعادة والتكرار؟ سأل سالي ماير. لكن ليفشيتس أصرَّ. لكل واحد من هؤلاء الشهود وزنه النوعي الخاص، ومن المهم أن يظهروا كلهم كداعمين للحجة ذاتها، بكل تفاصيلها. وافقه البروفسور ماطي الذي قال غامزًا بشقاوة: "حين يشعر القاضي أنك تطيل الشرح، فإن لديه طرقه الخاصة للرمز إلى ذلك".

لكن القاضي ماير لم يُظهر علامات الضجر، حتى حين طلب لوسلي من الشاهد أن يصف طبيعة الصحيفة زناميا. بدأ ظهور هذه الصحيفة بعد المجازر في كيشينيف، وقد صدرت لمدة 6–8 أشهر فقط. كان محررها اللاسامي المعروف كروشبان نصيرًا متحمسًا لنظام القيصر. علم الشاهد أن كروشبان حصل من بلاقـيه على مخصص بقيمة 25,000 روبل. غاية الجريدة كلها كانت الدفاع عن مواقف كروشبان اللاسامية والتحريض للمجازر".

طلب لوسلي أن يسرد الشاهد ما يعلمه عن بوطمي، فقال الشاهد للقاضي إن بوطمي كان أيضًا قد أصدر البروتوكولات في عدة طبعات قبل الثورة.

"كان بوطمي صاحب أراضٍ في بسربيا، في المنطقة حيث عمل كروشبان، ومن المحتمل أن يكونا قد تعارفا. في أحد إصداراته للبروتوكولات وردت ملاحظات للمترجم شدّد فيها على أنَّ البروتوكولات رغم اسمها، ليس لها أية علاقة بالحركة الصهيونية. أراد المترجم أن ينفي ما جاء في مقدمة بوطمي عن أن هناك الكثير من المشتَرَك بين البروتوكولات والحركة الصهيونية. في إصداره عام 1906 لم يستخدم بوطمي الأصل وإنما استعمل نصًّا مترجَمًا عن البروتوكولات تم توزيعه بكميات هائلة.
أما ما يعلمه الشاهد عن الأميرة ردزيفيل فهو أنها كانت ابنة لأسرة أرستقراطية، وأن اسم عائلتها قبل زواجها كان رشبوسكي. شغل والدها منصبًا رفيعًا في قصر القيصر. عام 1882 أو 1883 تزوجت من الأمير ردزيفيل الذي عُرف كصديق لبسمارك، وكان له دور في الحرب بين ألمانيا وفرنسا. "لم أقابل السيدة أبدًا"، قال الشاهد، "لكنني نشرت مذكراتها بالفرنسية والألمانية. لن تجدوا عنها معلومة فاتتني".
هذه السيدة حاولت التدخل في شؤون الدولة. كان صالونها في ألمانيا من أشهر الصالونات. في المدة الأخيرة ظهرت رسائلها المتبادلة مع شخصيات هامة مختلفة في الصحيفة الفرنسية رڤـيو أونيفرسال Revue Universelle، يظهر من هذه الرسائل أنها أدارت صالونات مشابهة في باريس وبطرسبورغ أيضًا.

لاحظ القاضي أن هذا الشاهد لا يجود بالمعلومات، بل ينتظر السؤال بأدب، لكن إجاباته شاملة وواضحة.

وإذ سُئِلَ عن سوخوطين أجاب إن هذا الرجل أيضًا من عائلة أرستوقراطية. كان ألكسندر نيقوليفيتش سوخوطين مُشيرًا نبيلاً

في لواء تشرنو. شارك في تحرير نشرة يمينية متطرفة صدرت في موسكو. كان الرجل ذو آراء يمينية محافظة وشديدة التطرّف. شغل منصب مدير في لواء قروي صغير.
في هذه اللحظة خرج الشاهد عن عادته، فتوجّه إلى القاضي بسؤال: هل يؤذَنُ لي أن أقصَّ قصَّة صغيرة تُصَوّرُ شخصيَّة سوخوطين؟ فوافق الحاكم طبعًا.
ذات يوم حلَّ بفرس سوخوطين مرض شديد مُعدٍ، فأمرَ بعض المزارعين بإخلاء حظيرته، لكنهم رفضوا خشية انتقال العدوى إليهم. قرّر سوخوطين أن يلقّنَهم درسًا، فأخذ كل أبناء القرية واعتقلهم لمدة أسبوع! هذه القصة رُويَت فيما بعد في المحكمة وفي مجلس الشيوخ وأثارت ضجة كبرى "إنها تصف قبل كل شيء من كان ذلك الرجل".

في ردّه على أسئلة باومــچرتن أجاب الشاهد أن حركة البناة الأحرار قد حَظَرَها القيصر عام 1823 وعام 1826، فكانت غير قانونية في روسيا، غير أنه من المعلوم أن مَحْفَلَين استمرّا ناشطين داخل القصر، وقد راجت الشائعات أن القيصر نفسه انتمى لأحد المحفلين. كان هذان المحفلان مارتينِيَّين، ومن المعلوم أن فيليب كان مارتينيًّا أيضًا. افترض الشاهد أن الكل بات يعرف مَن كان فيليب، وفعلاً هزَّ الجميع رؤوسَهم.

يجدر أن نعرف لماذا ادَّعوا في البداية أن للبروتوكولات علاقة بالحركة الصهيونية ثم أنكروا ذلك. لقد ألمح بوطمي إلى ذلك في إصداره عام 1906، كما قال ذلك نيلوس بوضوح في إصداره عام 1917. فبحسب رأيه، يعود ذلك إلى السياسة الروسية، أو على الأصح، إلى سياسة الشرطة الروسية. كان لليهود دورٌ في الثورة الروسية، كما أن وزير الداخلية بلاڤــيه قد حاول في السنوات 1902-1903 التآمر مع قادة الحركة الصهيونية وتجنيدهم لمقاومة الثورة، فاستدعى رئيس الحركة الصهيونية، ثيودور هرتسل، إلى روسيا. وفعلا زار هرتسل روسيا واجتمع ببلاڤــيه. لذلك، سُمح للحركة الصهيونية أن تنشط في روسيا،

حتى أنه سُمح بانعقاد المؤتمر الصهيوني هناك، وهذا بالرغم من منع عقد مؤتمرات يشارك فيها يهود روسيا فقط. إن اجتماع هرتسل ببلاڤــيه قد سبب له ضَررًا عظيمًا، وقد وُزِّعت في ڤــيلنا منشورات وصفته بأنه عميل روسي سرّي. ونظرًا لدعم بلاڤــيه المالي لكروشبان فقد اضطر هذا إلى تأييد تقرّبه من الحركة الصهيونية، وبناء عليه قام بنشر كلمة المترجم في طبعة البروتوكولات التي صدرت في تلك الفترة، والتي تقول بأن لا علاقة ما بين البروتوكولات والحركة الصهيونية. بعد بضع سنوات، حين تبيَّن فشل التحالف مع الحركة الصهيونية، أُذن ثانيةً بربط البروتوكولات بالصهيونية.

هذه هي الحقيقة كلها، قال نيقولييفسكي باسطًا كَفَّيه بحركة تعبّر عن فقدان الحيلة، آملاً ان يستوعب القاضي أن الأمور جرَت على هذا النحو في روسيا تلك الأيام. لكنه لم يستنفذ بعد كل الموضوع: "تناول الأدبُ السؤال إن كان هناك تآمر بين الصهيونية والبلشفية. أسوة بالمئات السود سابقًا، يدّعي الستالينيون أن كل اليهود بلشفيون، وأن البلشفيين كلهم يهود. يعرف الجميع أن اليهود كانت لهم حركاتهم الثورية الخاصة، مثل "البوند". في السنوات ما بين 1917 و 1919. كان لهذه المنظمة صراع حاد مع البلشفيك. القول بأن كل القادة اليهود كانوا بلشفيين غير صحيح. مع ذلك، فقد كان بين البلشفيين بعض اليهود، لكن كان هناك آخرون، عملوا تحت أسماء مستعارة كانت لها نغمة يهودية.
هذه المعلومة، من فم رجل خبير، كانت جديدة، وقد أبدى القاضي اهتمامه بها.
يا لحسن الحظ، فكّر جورج، إن قاضينا هذا يحب أن يتعلم!

عندما ذكر لوسلي موت رتشكوفسكي الفجائي، تذكّر الشاهد أن ذلك حدث عام 1910 أو 1911، بعد أن اعتزل الرجل الأعمال العامة. "لا أعرف الكثير"، قال بحذر، "لكنَّ بعض الصحف

اعتقدت أنه تورّط، هو والجاسوس آزاف، باغتيال الوزير بلاڤـــيه".
لم يُنشَر نبأ موت رتشكوفسكي إلاّ بعد تفتيش دقيق في بيته. كان هناك من قال إنه مات بعد ذلك بشهور.

عرف الشاهد أيضًا اسم ألفرد روزنبرغ، ناشر البروتوكولات الألماني. إنه من إسلاندا. في السنوات الأولى، ما بعد الثورة، سكن في موسكو. هاجر عام 1919 إلى ألمانيا حيث أصبح ناشطًا في الحزب القومي الاشتراكي، لكنه حافظ على علاقاته بأوساط روسية يمينية.

حان الآن دور فيشر، وكعادته استهلَّ بتوجّهٍ عبثي إلى الشاهد. طلب الإجابة بـــ "نعم" أو "لا". كان جورج قد توقّع مثل هذا التكتيك، فأعدَّ الشاهد له. ليس على الشاهد الاستجابة لمثل هذا الطلب، فمن حقه الإجابة كيفما شاء.لا يحق لأحد أن يملي عليه نصَّ ردوده.
لكن السؤال الأول، وإن كان متوقعًا، قد أغاظه. ألا يغيرون أسلوبهم هذا إلى الأبد؟
س: هل أنت يهودي؟
جـــ: لستُ يهوديًا. كان والدي كاهنًا روسيًا، وكذلك كان جدّي.
حدّثني أبي أن رؤوس عائلتنا كانوا كهنَةً منذ سبعة أو ثمانية أجيال. كانت والدتي ابنة فلاح روسي تحوَّل إلى رجل أعمال.
فيشر: كثيرون من اليهود هم كهنة!
س: ما هي آراؤك؟
جـــ: أنا اشتراكي – ديمقراطي.
حين سُئل إن كان قد رأى في حياته البروتوكولات الأصلية، أجاب: لا يوجد أصل! إنه تزييف. لكنني أعتقد أني قرأت كل إصدارات البروتوكولات من زمن نيلوس وكروشبان. لا شأن لي بالإصدارات الألمانية، تهمّني الروسية فقط، فهي مصدر

الباقي كله. عليّ أن أضيفَ أن الترجمات زائفة أيضًا، فقد أدخلوا إليها ما يختلف عن التزييف الأصلي".

فيشر: سألتُ الشاهد إن كان قد قارن البروتوكولات بالنسبة للأصل، وأعني بالنسبة لبروتوكولات المؤتمر في بازل. تلك هي البروتوكولات الحقيقية!

الشاهد: لا شأن لي ببروتوكولات المؤتمر الصهيوني! لا علاقة لها بهذا التزييف المسمّى **بروتوكولات حكماء صهيون**.

القاضي: غدًا سيحضر شهود شاركوا في المؤتمر في بازل. يمكنك أن توجِّه إليهم هذا السؤال.

نيقوليفسكي: أكرّر وأشدّد: لا وجود لطبعات أصلية ألمانية، فكل طبعة منها مترجمة عن الروسية، والمصدر بحد ذاته تزييف.

فيشر: تلك تكهنات، وليست أدلّة. أنتَظرُ أن يثبتوا شيئًا في هذه المحكمة!

متجاهلاً إياه، توجه القاضي إلى الشاهد: "وما أمرُ الإصدارات بالإنجليزية؟"

"هي أيضًا تُرجِمَت عن الروسية".

فيشر: لم أحصل بعد على إجابة عن سؤالي. كيف قارنت هذه الطبعات مقابل الأصل؟

القاضي: إن كنتَ لا تعلم، فمن الذي يعلم؟ لقد قال لك الشاهد أن لا وجود للأصل.

فيشر: إن كان كذلك، يجب إنهاء هذه المنقاشة!

القاضي (بصبر): حين تسأل الشاهد عن البروتوكولات الأصلية، عليك أن تقول له ماذا تقصد، بأية لغة؟

فيشر: أنا أتكلم عن البروتوكولات الموجودة بناء على شهادة الرئيس الثاني للحركة الصهيونية. بروتوكولات الكونغرس الصهيوني.

القاضي: لا علاقة لتلك بموضوع بحثنا!

فيشر (بصلافة): هلاّ سمحتَ لي بأن أتِــمَّ؟

دهش الجميع مما أبداه القاضي من الصبر، محاولاً قدر استطاعته ألاّ ينجرف في نقاش غير محمود مع فيشر، مُدركًا أن هذا ما يريده الرجل.

سأل جورج الشاهد إن كان له علم بطبعة البروتوكولات المذكورة في كتاب لسلي فراي.

"أنا ملمٌّ بكل إصدارات البروتوكولات بالروسية، ما عدا تلك الواردة في كتاب السيدة فراي، الصادر عام 1895 أو 1896. بحسب علمي، فإن أحدًا لم يرَ تلك الطبعة".

فيشر: انتبهوا! كُتِبَ في المحضر أن الشاهد قال إن ثمة علاقة بين اليهودية والبناة الأحرار.

الشاهد: ليس هذا ما قلته. قلتُ فقط إن هذا ما ادّعاهُ بوطمي.

فيشر: هذا ليس صحيحًا!

جلس فيشر أخيرًا، فقام المحامي روف، وسرعان ما تبيّن أنه لا يختلف عن سابقه.

س: هل تستطيع أن تشرح لنا ما الفرق بين بروتوكولات 1894 وبين المؤتمر الصهيوني؟

القاضي:ألم تفهم؟ لقد استغربَ الشاهد من أن قسمًا منكم يدّعي أن البروتوكولات صدرت عام 1894 أو 1893، بينما يدّعي آخرون أنها كُتِبَت في المؤتمر الصهيوني عام 1897.

الشاهد: هذا صحيح.

روف: هل تعلم أن الأميرة ردزيفيل قد حُكم عليها بالسجن لأنها قامت بتزييف شيك أعطته للسير سيسيل رودس عام 1902 أو 1903 كما روَت لسلي فراي؟

جـــ: لا أعلم. كل شيء جائز. لكنني أذكّرك أن السيدة فراي بذاتها ادّعَت أن أحاد هعام هو من كتب البروتوكولات!

الآن بَدا التعب على القاضي أيضًا.

تبادلوا النظرات آملين أن تكون المناقشات قد انتهت لهذا اليوم، لكنهم لم يحظوا سوى باستراحة قصيرة. بدا الإرهاق على الشاهد أيضًا، لكنه لم يحظَ باستراحة، فقبل أن ينهض عن كرسيه، طلب

إليه القاضي، بالمناسبة، أن يتفحّص أثناء الاستراحة، الوثائق التي وصلت من الأرشيفات في روسيا وإبداء رأيه حول مصداقيتها. اعتذر جورج من الشاهد، فهو الذي كان قد اقترح ذلك، لكنه لم يتوقع أن يلقي القاضي هذه المهمة على الشاهد أثناء الاستراحة القصيرة. لا عليكَ، أجاب نيقوليفسكي، قائلاً إنه سيفعل ذلك بكل رغبة.

بانتهاء الاستراحة أعلن الشاهد أنه يصادق على كل الوثائق. ذكر على سبيل المثال التقرير الذي وقَّعه بلاخنوف بشأن مزاولات رتشكوفسكي. قال إن هذا التقرير تم نشره في صحيفة روسية/ألمانية، وهو على استعداد لإحضاره إلى المحكمة في يوم الغد. وأضاف يقول: "تعلمتُ شيئًا جديدًا من هذه الوثائق. عَلِمتُ من الوزير بلاڤـيه أن رتشكوفسكي أُقيلَ من وظيفته في باريس عام 1902، لكني الآن رأيتُ مستندًا يؤكد أنه حصل على معاش تقاعد مُعتبَر. أصادق على كل هذه الوثائق، ليس فقط استنادًا إلى معلوماتي العامة، وإنما لأني أعرفها جيدًا."

يظهر أن الحاضرين كلهم كانوا مُرهقين بالقدر ذاته. انتهى يوم النقاش الأول، وستُتابَع مناقشة القضية يوم الغد في الثامنة صباحًا. كان من الصعب التصديق أن المحكمة بدأت فقط في ذلك الصباح. لم يكادوا النهوض حتى اتضح أن لدى القاضي ملاحظة إضافية: يرجو أن يستمع في الغد إلى شهادات باقي الشهود كلها، وأمّا الخبراء فسيدلون بشهاداتهم يوم الأربعاء. قال باومـــجرتن ولوسلي إنهما جاهزان للاستعداد حتى في ساعات الليل.

كان لديه أيضًا ما يقول لفيشر: نظرًا لأن الخبير الذي اقترحوه، الخوري منخماير، غير موجود، فإنه على استعداد لأن يمنحهم مدة إضافية للعثور على خبير آخر. حِرصًا على أن يُظهِرَ محضر الجلسات كل الجهود التي بُذِلت من أجل العثور على خبير، اختارَ القاضي التفصيل: "حاولتُ بنفسي، مرّاتٍ لا حصرَ لها، إجراء الاتصالات الهاتفية للاهتداء إلى الخبير، طلبتُ

مساعدة الشرطة، استدعيتُ المتهم سيلفيو شنِل إلى مكتبي للتحدث بالأمر، لكنه لم يستجب لدعوتي".

هنا توجّه القاضي إلى المتهمين جميعًا: "بحسب تجربتي مع الجبهة الوطنية والحركة القومية الاشتراكية، لا يبدو لي أنني سأنجح في العثور على خبير يكون مقبولاً لديكم".

طلب فيشر أن توضع تحت تصرفه بروتوكولات الكونغرس الصهيوني في بازل. في توجُّهِهِ إلى القاضي بلهجة صلفة، تذمّر قائلاً: أفهم أنك قد قرّرتَ أن ليس لهذه البروتوكولات علاقة بالبروتوكولات التي نشرها فريطش. كان بوسعي أن أنهي في هذه اللحظة التعاون مع المحكمة، لكنني قررت ألاّ أفعل".
لم يكن من القاضي سوى أن ابتسم: "ستكون خسارة فادحة لو فعلتَ ذلك".

أظهر الجميع ضيق صدورهم بوضوح وقد وقفوا على أقدامهم، وحقائبهم في أيديهم، يتأهبون لمغادرة المكان.
قال فيشر إنه بحاجة إلى 30 بطاقة إضافية لأعضاء الحركة لدخول القاعة. من حقهم أن يحضروا.
لأول مرة يعلم القاضي بأن جمهورًا غفيرًا ينتظر في الخارج طوال النهار، وقد دهش إذ علم أنهم يوزعون بطاقات دخول إلى قاعته. لا يوجد مكان كافٍ، قال معتذرًا. ربما من الجدير أن تقترحوا أن يتناوب الناس الدخول من حين لآخر.
ثم نهض عن كرسيه وخرج مسرعًا، كمن يخشى أن يؤخّروه ثانية.

في غرفته في المستشفى، حاول إميل رآس أن يستعيد في ذاكرته تلك الأيام الموتّرة. أناطوا به مهمة شراء الصحف وإبلاغ الطاقم بردود فعل الصحافة وتعليقاتها. اتفقوا على أن يلتقوا في الغد في مقهى صغير قرب بناية المحكمة. صاحب المقهى الذي ازدهرت

أعماله إبّان فترة المحكمة، أبدى استعدادًا لفتح المقهى في ساعات الصباح الباكرة، على غير عادته.

حاولت أوديت إقناع جورج بالذهاب إلى البيت ليأخذ قسطًا من الراحة، ربما يستطيع أن ينام الليل الطويل. لكنه كان شديد التوتر. أراد أن يشارك زملاءه انطباعاتهم عن يوم المحكمة الأول. دعا ليفشيتس الشهودَ الذين قدِموا من خارج المدينة إلى بيته لتناول العشاء، واعدًا ألاّ يتأخر كثيرًا في عودته.

في الصباح أثلجت صدورهم التغطية اللائقة والمشجِّعة في الصحف. خصَّصت الصحف الكبرى صفحاتها الأولى لأخبار المحكمة. أعجِبَ الصحافيون جدًا بالشهود. ابتلع جورج وزملاؤه بنَهَمٍ كل كلمة في الصحف، حتى أنهم نسَوا النظر إلى ساعاتهم، فتأخروا عشر دقائق، وقد نالوا توبيخ القاضي لهم. محضر جلسة المحكمة يشير إلى أن الجلسة يوم 30 أكتوبر بدأت الساعة 08.10 صباحًا.

غصَّت القاعة من جديد، وعاد فتزاحم الجمهور المتوتر في الخارج. لوحظ حضور الشرطة. تقرر ألاّ يغامروا بالمفاجئات. كان جميع الأطراف حاضرين حين قام جورج باستدعاء الشاهد هنري شلوسبرغ إلى منصة الشهود. أفاد الشاهد أنه يبلغ الثانية والسبعين من عمره. وهو محامٍ سابق في سانت بطرسبورغ. يسكن حاليًا في باريس. على استعداد للإدلاء بشهادتة بالألمانية. كان شخصية بارزة في الجالية اليهودية في العاصمة الروسية. رغم كونه طالبًا متفوقًا في جامعة سانت بطرسبورغ فهو لم يوفق في القبول في مهنة التدريس لكونه يهوديًا، مع ذلك فقد كانت أوساط حكومية، من حين لآخر، تطلب مشورته القضائية، على نحو غير رسمي. ذات يوم استدعاه وزير المالية ويت وطلب منه إبداء رأيه في **بروتوكولات حكماء صهيون**. بالإضافة إلى عمله في المجال القضائي، كان شلوسبرغ نشيطًا في شؤون الجالية اليهودية، وخاصة في "مكتب الدفاع" الذي أقامه شُبَّان مثقفون من

اليهود من أجل حماية حقوق اليهود بالوسائل القانونية. تم اعتقاله ومصادرة أملاكه أثناء الثورة. فهاجر مثل الكثيرين غيره إلى باريس، وهناك تم انتخابه رئيسًا للجالية اليهودية الروسية.

سأله القاضي دون أية مقدِّمات إن كان على علم بتاريخ **بروتوكولات حكماء صهيون**.

تكلم الشاهد الألمانية الطليقة بلهجته الروسية.
سمع عن البروتوكولات للمرة الأولى في أواخر القرن التاسع عشر، عام 1899 أو 1900. عمل آنذاك محاميًا، ولكنه خصَّص الكثير من وقته للمؤسسات الخيرية الخاصة بالجالية اليهودية. وزير المالية ويت، والذي عُرف فيما بعد بـــ "چراف ويت"، استأجر خدماته عن طريق أحد كبار معاونيه، لإبداء رأيه في الوثيقة المسمّاة "**بروتوكولات حكماء صهيون**". أعطوه نوعًا من كراس كُتب بالآلة الكاتبة باللغة الروسية. في تقريره جزم بشكل قاطع أن البروتوكولات تزوير غبي. لأسفه الشديد، ترك ذلك التقرير، مع ما ترك من وثائق، حين اضطر إلى الهرب من روسيا عام 1920. وأردف رافعًا كتفيه، أنه لم يكن يتوقّع أن يكون بحاجة له في المستقبل.

طلب القاضي أن يعرفَ علامَ استند في تقريره.
"كنت مُلِمًا بالحقائق الأساسية وبكل ما له علاقة بالموضوع. لم أواجه صعوبة لأقرّر بالتأكيد أن أحدهم قد اختلق هذه الوثيقة". في الكراس ذاته، الذي بدا أكثر على شكل دفتر، والذي وُزِّعَ على كبار المسؤولين/الموظَّفين، لم يُذكر ما هو الأصل أبدًا، ولا اسم المؤلف. إنه يذكر جيدًا محتويات الكراس، فقد قام كروشبان، المعروف بتدبيره للمجازر، بإصدار الوثيقة في موعد لاحق. قال الشاهد إنه رأى الوثيقة مطبوعة في جريدة كروشبان وبعد ذلك في كتاب نيلوس. في ذلك الوقت كان على يقين، وهذا ما كتبه في تقريره أيضًا، من أن الوثيقة كُتِبَت لا لهدف التحريض على اليهود فقط، وإنما للتحريض ضد الحزب الديمقراطي أيضًا،

وخاصة ضد ويت وسياسته المالية. إصلاحات ويت عام 1899 تعرّضت للنقد الشديد من طرف الرجعيين. كان واضحًا أن بنودًا كثيرة من سياسة ويت في المجال الاقتصادي والمالي والزراعي ورد ذكرها في هذه البروتوكولات كجزء من "الخطة اليهودية". باعتقاده أنه يستحيل أن يكون ذلك الخيال وليد الصدفة. "إني على قناعة اليوم، كما في السابق، أنهم استغلوا اليهود لمهاجمة الحركة الليبرالية والمحافل الثورية، وخاصة ويت الذي كرهته الأوساط الرجعية. لم يدّخروا وسيلة في سبيل تشويه صورته في نظر القيصر. كان واضحًا لنا جميعًا أن للشرطة السرية يدًا في ذلك، وكانت كل الدلائل تشير إلى باريس، وفقط أشخاص مثل دريمونت وزمرته، ممن كانوا متورطين في التلفيق ضد درايفوس، و "كبار كهنة" اللاساميين في فرنسا، الذين لم يعرفوا شيئًا عن اليهود في روسيا، كان بإمكانهم أن "يُقَلقِلُوا" عن "البنوك اليهودية"! في روسيا عاش سبعة ملايين يهوديًا، وفقط عشرون أو ثلاثون منهم كانوا أثرياء بالمعنى الصحيح للكلمة. قلة ضئيلة انتمت إلى الأوساط الميسورة الحال، لكن الأغلبية عانت من فقر مدقع وكانت على حافة الجوع. لم يسمحوا لأنفسهم بأكل اللحوم إلاّ أيام السبت. وجَّهوا كل طاقاتهم لتحصيل لقمة العيش لعائلاتهم، ولم يكن يعنيهم بشيء أمر السيطرة على العالم. كان همّهم أن يعرفوا من هو قائد الشرطة في كييف أو في ريجا، وإن كان بالإمكان رشوته بمبلغ ضئيل من المال. كان ذلك أهم في نظرهم من تمليك ابن داود على العالم كله".

بيد راجفة رفع شلوسبرغ كوب الماء الذي فوق المنصة وجرع منه ظامئًا. وبعد أن وضع الكوب الفارغ مكانه، أخرج منديلاً كبيرًا أبيض وجفَّف عرق وجهه. ساد الصمت طوال الوقت في القاعة فلم يُسمع سوى صوتُ حفِّ أقلام الصحافيين التي تحرّكت بنشاط على الورق. وبعد أن هدأ رَوعُه قليلاً، أومأ برأسه إلى القاضي الذي سأله الآن ماذا يعرف عن نيلوس.

كل واحد عرف من هو نيلوس، ابتسم الشاهد بتسامح. لقد كتب الكتب الغيبية في مواضيع رهيبة، وخاصة في مجيء المسيح الدجَّال. كان يعلم شيئًا عن اعتقاد اليهود بمجيء المسيح، فأنتج "خبيصًا" كاملاً، من خلال استغلاله لهذا الاعتقاد الساذج، في سبيل ترسيخ نظريته حول مجيء المسيح الدجّال الذي سيحكم العالم.

هل الاسم رتشكوفسكي معروف للسيد؟
إنه يعرف ليس فقط الاسم، بل يعرف رتشكوفسكي شخصيًا. كان رجلاً استفزازيًا معروفًا، وقد اختلق الكثير من الوثائق على أنها صادرة عن اللاجئين الروس في فرنسا أو سويسرا، وادّعى أنها طُبِعَت في مطبعة ثورية سرّية، لكن كل من عرفه لم يصدِّقه. في هذه اللحظة رفع الشاهد عينيه نحو القاضي وقال: "كانت لي شخصيًّا في تلك الأيام علاقات جيدة بالأوساط الحاكمة، حتى أني عملتُ كمستشار غير رسمي في وزارة الداخلية، حسب طلب ستوليفين. كانت لديَّ أدلّة من مصادر موثوقة على أن تلك الأوساط قد خطَّطت لبعض تلك المجازر. "أجل"، عاد الشاهد فقال، "كلهم عرفوا من هو رتشكوفسكي، كان مستفزًّا خطيرًا".

لم يعرف غولوبينسكي، لكنه عرف مانويلوف، وعرف أنه كان عميلاً بارزًا لرتشكوفسكي. لفترة معينة شغل وظيفة نائبٍ لويت وبعدئذٍ لشطرومر.
ردًّا على سؤال لوسلي أجاب أن البروتوكولات ظهرت في ألمانيا عام 1919 وفيما بعد في فرنسا. لم يكن للبروتوكولات تأثير حقيقي في روسيا، فقد اعتبرها الكثيرون نكتة رديئة. حتى أن أسوأ الصحف اللاسامية نوفـيـيه فـريمْيا Novoje Wremia لم تذكرها أبدًا. عرف الناس كلهم أنها بِدعَةٌ من الشرطة السرية التي لا يجب الوثوق بوثائقها.

اتضح لهم أن القاضي بات على قناعة من أن لا علاقة ما بين البروتوكولات والكونغرس الصهيوني في بازل، لكن ليفشيتس

أصر على الاستماع إلى كل الشهود الذين دأب على استدعائهم لهذه الغاية. قال: لقد أتوا من البعيد، ومن الأفضل أن يشهدوا.

كان يوريس ماير أڤــنير متشرنوفيتش الشاهد التالي. شغل منصب عضو في مجلس الشيوخ مرارًا عديدة، وكان عضوًا في اللجنة التأسيسية لمؤتمر بازل التي تكوّنت من 23 عُضوًا. كرّر الشاهد أن كل الجلسات كانت مفتوحة، ولم تكن هناك جلسات سرّية. كان موضوع المؤتمر الأساسي أوضاع اليهود الصعبة في العالم، والمسألة الفلسطينية بالطبع، التي كان من المفروض أن تشكّل نقطة تحوّل في التاريخ اليهودي بناء على رؤيا هرتسل أبي الحركة الصهيونية.
ألم تكن هناك جدالات؟
طبعًا كانت! دار جدل حاد حول اللغة والأدب العبري. كما تناولوا السؤال: كم من اليهود يمكن توطينهم في فلسطين؟ وهل بالإمكان تحويلها إلى وطن قومي؟ وهل يمكن العمل في المجال القضائي أو في المجال السياسي؟ حول ذلك دار الجدل.
ألم تكن خلافات في الرأي بين هرتسل وأحاد هعام؟ سأل القاضي.
لقد أصبح خبيرًا بالحركة الصهيونية، همس ليفشيتس للدكتور ڤــينر.
"نعم، كانت هناك خلافات في الرأي، لكن ليس انقسامًا ولا مجابَهة".

هنا جاء السؤال التقليدي: أليس صحيحًا أن خطة للسيطرة على العالم قد وُضِعَت في بازل؟

أسوةً بسابقيه، ضبط الشاهد أعصابه بصعوبة. "للأسف الشديد، فأنا، كرجل دين، لا يمكن لي أن أحلف باسم الله، وإلاّ لكنت أقسمتُ باسمه، وعلى الملأ، إنها بدعة خبيثة! ليس فيها ذرّة من حقيقة! لو كانوا قد طرحوا مثل هذا الاقتراح، لكُنّا، أنا وباقي المشاركين في المؤتمر، نبدي معارضتنا الشديدة. كنت آنذاك في

الخامسة والعشرين من عمري، لكنني قمت بمهمة هامة. كنت عضوًا نشيطًا في اللجنة التنظيمية. لم تكن هناك جلسات سرّية، ولا يمكن أن يكون قد جرى بحث مواضيع دون عِلمي".

منذ بدأت الجلسة اختلسوا النظر إلى رزمة كبيرة وُضِعَت فوق طاولة القاضي، رزمة غريبة أثارت فضولهم. وكم كانت دهشتهم حين انحنى القاضي وأزال الغلاف الورقي عن الرزمة، مُعلنًا أنه توجّه شخصيًا إلى المكتبة الوطنية السويسرية طالبًا المحضر الرسمي للكونغرس الصهيوني في بازل عام 1897. المحضر الذي وصل إليه طُبع في ڤـيينا عام 1988. هنا طُلبَ من الشاهد تمييز المحضر، وقد فعل ذلك، ثم عاد وأكّد أنه لم يكن هناك محضر آخر لجلسات مؤتمر بازل.

اقترح ليفشيتس أن يقوم الشاهد بوصف مؤتمر بازل بكلماته الخاصة، وعاد إلى التذكير بأنه ستكون لمحضر جلسات هذه المحكمة أهمية تاريخية كبيرة. فإذا أبدى القاضي ضيق صدره بالأمر، فسوف يطلبون من الشاهد أن يكفَّ، لكن يبدو أن القاضي رغب باكتساب المعرفة في موضوع اليهودية والصهيونية، تلك المواضيع التي كانت غريبة عنه كليًّا. كلّما أظهر القاضي مزيدًا من الاهتمام ازدادوا سرورًا ورضىً.
حاليًّا أُتيحَ للشاهد الاستمرار، دون مقاطعة، رغم إبداء المتهمين لعلامات العصبية.
لا يُمكن القول إنه كان في المؤتمر تمثيلٌ لكل يهود العالم. كانت الحركة الصهيونية ما تزال صغيرة جدًّا، وكان لها صراع مع الحاخامات. كذلك كانت لدى قادة اليهود في ألمانيا معارضة، بمن فيهم المموّلون من أمثال البارون روتشيلد وهيرش. كانت تلك حركة شبابية صارعت جيل الآباء. "كنا ثوريين وقد جابهنا المؤسسة اليهودية".

تمثّل نجاح المؤتمر في محض الجدل العلني حول مشاكل اليهود، الذي جرى لأول مرة أمام الصحافة وأعين العالم. تمسَّك هرتسل

برأيه في أن المشكلة اليهودية ليست مشكلة اليهود وحدهم، لهذا يجب أن تُناقَشَ عَلَنًا. وأضاف الشاهد إنه غير معقول أبدًا أن تُنسَب إلى أحاد هعام خطة السيطرة على العالم، فقد كان أحد القادة الروحانيين في عصره، حتى أنه عارض فكرة الوطن القومي بمفهومه السياسي. دعا إلى إنشاء مركز روحي في فلسطين يكون ليهود العالم كلهم.

في هذه اللحظة وضع جورج أمام الشاهد تصريحًا مشفوعًا بالقسم مؤرّخًا 30 أغسطس 1933، بتوقيع 18 شخصًا شاركوا في مؤتمر بازل. توفيرًا لوقت المحكمة، سيكتفي بمصادقة الشاهد على مضمون التصريح. وضع الشاهد نظارتي القراءة على عينيه وقضى بضع دقائق ممعِنًا بالتصريح بدقة، وأخيرًا قال: كل شيء صحيح، كل شيء دقيق.

حين نهض فيشر على قدمية توقع الجميع العراقيل الجديدة. لم تَخِب توقعاتهم.
استهلَّ مُعلنًا بأن لديه شكًّا أن محضر مؤتمر بازل مزيَّف، وأنه يصرُّ على مقارنته بالأصل.
قال له القاضي، بلهجة بدا فيها الإرهاق، إن من حقه أن يستجوب الشاهد في هذا الموضوع.
هنا تدخّل الشاهد. لقد فقَدَ النسخةَ الأولى التي طُبِعَت في فـيـنّا. لديه في البيت نسخة عن الطبعة الثانية التي طُبعَت في براغ، وهي تطابق النسخة الأولى تمامًا.
فيشر: يُحتمل جدًا أن يكون هذا تزييفًا!
الشاهد: سيكون عليك إثبات مثل هذا الاتهام غير المعقول!
فيشر: نحن، القوميين الاشتراكيين، لنا شأن خاص بكشف الحقيقة!
الشاهد (بصبر شديد): قلت لك، الطبعة الثانية مطابقة في كل شيء للطبعة الأولى. إنها تقرير حرفي عن جلسات المؤتمر.

أخيرًا عيلَ صبرُ القاضي. لم يكد فيشر يوجه السؤال التالي، حتى طرق القاضي على الطاولة صارخًا "كفى"!

ساد الصمتُ لبضع ثوانٍ، إلى أن بادر الشاهد فتابع حديثه.
سبق وأن سمع عن **بروتوكولات حكماء صهيون**، لكنه قرأها بتمامها قبل سفره هذه المرة إلى بيرن. إنه أمر مستحيل حقًا؛ يعيش اليهود منذ ألفي سنة في شروط صعبة، أوضاعهم الاقتصادية، وخاصة في شرق أوروبا، كانت سيئة، إذ أنهم لم يحظوا بحقوق المواطَنة الكاملة. ليس من المعقول أبدًا أن يُنَمّي مثل هؤلاء الناس الفقراء، المضطهدين والمعزولين أحيانًا، أحلامًا بالسيطرة على العالم.

أثناء قراءتي للبروتوكولات شعرت بمرارة عظيمة، غير أني حين وصلت إلى الفصل الأخير، انفجرتُ بالضحك. سافرتُ كثيرًا إلى مختلف أنحاء العالم، زُرت الجاليات اليهودية في بلادٍ مختلفة، لم أسمع أبدًا يهوديًا يدّعي أنه من نسل الملك داود المباشر! لا يمكن لإنسان أن يثبت تسلسل نَسَبِه إلى ذلك العهد".
وإذ نزل الشاهد عن منصة الشهود، انتظر الجميع استراحة قصيرة، لكن القاضي نظر إليهم بجفاف طالبًا استدعاء الشاهد التالي.

الشاهد التالي هو پـــاول ميليوكوف.
كانوا شديدي الفخر لأنهم تمكنوا من إحضار شاهد مثله. يبلغ من العمر 75 عامًا، وقد أرهقه السفر، لكنه استجاب لدعوتهم بلا تردّد. هو أيضًا أجرى دراسة حول **بروتوكولات حكماء صهيون** التي تشكل وصمةً في تاريخ الشعب الروسي.

قدّم نفسة بتواضع كمؤرِّخ، خبير في التاريخ الروسي. كان قد نشر المقالات العلمية في باريس وفي روسيا. ذكر بالمناسبة أنه أصدر ثلاثة مجلدات بالفرنسية عن تاريخ روسيا.

لشدة تواضعه، لم يكشف ميليوكوف عن أنه كان في الماضي أحد مؤسّسي حزب "الداكيت" الليبرالي، وأنه شغل منصب وزير الخارجية في الحكومة المؤقتة التي حاولت إنقاذ النظام في روسيا قبل انهياره. نادى حزبه بالإصلاحات الدستورية وعارض بشدة سياسة الأوساط اليمينية الرجعية التي دعت، فيما دعت إليه، إلى زيادة ملاحقة اليهود. خجل أن يروي للمحكمة في بيرن بصوت واضح أنهم أطلقوا على حزبه ألقابًا بذيئة ومهينة واتّهموه بمساندة اليهود والبناة الأحرار.

شأنه شأن الكثير من رفاقه، هاجر هو أيضًا إلى باريس حيث حرر وأصدر جريدة خاصة بالشتات الروسي في الخارج. لقد سبقه اسمُه وذاع، حتى أن غرفة الصحافيين في باريس اختارته رئيسًا لها.

كانت للثورة أسباب كثيرة، قال ميليوكوف، لكنها لم تنبع عن اليهود أو عن البناة الأحرار. شارك في الثورة يهود، وربما بنسبة تفوق نسبة غيرهم، نتيجة اضطهاد النظام السابق لهم، وربما نتيجة كونهم أعلى ثقافة.

"لستُ يهوديًا"، أجاب ردًّا على سؤال القاضي وقد بدا على وجهه الاستغراب. "أنتمي إلى عائلة أرستقراطية أصلها من بروسيا".

أحسَّ القاضي أن عليه الاعتذار، "سألتُ فقط لكي أمنع الآخرين من توجيه هذا السؤال".

أصغى القاضي مقطّبًا جبينه حين وصف ميليوكوف اللاسامية التقليدية التي راجت بين الأوساط الحاكمة في روسيا، والأحداث التي أدّت إلى ظهور منظمة المئات السود، التي تمكّنت حتى من أن يكون لها تمثيل في الدوما الرابعة.

بدا عليه الاضطراب الشديد لأنه اضطر إلى تقديم صورة على هذا النحو من البشاعة عن الوطن الذي أحبّه. "أعود فأكرر أن اليهود لم يسببوا الثورة. لا يليق بالشعب الروسي أن يعزو فشله، أو حتى نجاحه، إلى أبناء الشعب اليهودي".

"الغريب في الأمر"، أضاف يقول، "هو أن البلشفيك قد تبنوا الآن كل الشعارات اللاسامية التي استخدمها قبلهم نظام القيصر السابق".

أما الكنيسة، فهي لم تمثّل أي مبدأ بشكل رسمي. حافظت على الحياد بالنسبة لأبناء الديانات الأخرى، لكنها ساندت النظام دائمًا. لمزيد الأسف، فقد حافظت الكنيسة على الحياد حتى في موضوع المشعوذين أمثال فيليب وراسبوتين.

إن صحيفته "آخر الأخبار" Derniere Nouvelle هي التي نشرت مقالات آرمند دي شايلا، وهو فخور بذلك، وهو يعرف ويحترم سباتيكوف وبورتسيف جدًّا.

وبطبيعة الحال، فقد سُئل في النهاية عن **بروتوكولات حُكماء صهيون**، فكان جوابه جازمًا. إنها تزييف بَشِع. لقد شوَّه المزيفون نصّ موريس جولي الجميل، الذي كان كاتبًا رائعًا. ليس فقط لأن أسلوبه كان أرقى بكثير من مستوى هؤلاء المزيفين، بل وأيضًا لأن جماعة هدَفهم لا تستطيعُ فهمه، لذلك فقد كُتِبَت الفقرات الخاصة باليهود بأسلوب مختلف.

إن قصة وجود حكومة يهودية سرية تهدف إلى السيطرة على العالم، سبق وأن نُشِرَت في روسيا حوالي عام 1880، أي قبل ظهور هذه البروتوكولات. بصفته مؤرِّخًا درس هذا الموضوع، باعتقاده أن البروتوكولات اختُلِقَت لتشكّل حجّة في سبيل ترسيخ هذه الفريَة.

إنها نظرية مثيرة للاهتمام، قال القاضي وكأنه يتحدث إلى نفسه، لكنه لم يقطع سَيل أقوال الشاهد.

"كنت عضوًا في الدوما لمدة 10 سنوات. واجهتُ هناك ممثلي المئات السود". في محضر كهذا لم يجرؤوا ولو لمرة واحدة على ذكر البروتوكولات، خشية أنَّ أي ذكر لهذه الوثيقة قد يستدعي تحقيقًا من شأنه أن يفضح أكاذيبهم. الأسلم، في نظرهم، أن يبقى الأمر مُضبَّبًا. لهذا السبب لم يرد ذلك الموضوع في محاكمة بيليس الشهيرة. لا يمكن أن يبقى التزييف حيًّا إذا انكشف في وضح النهار أمام هيئة قانونية، أضاف وهو ينظر عمدًا إلى عيني القاضي.

باومــــچرتن: هل تعرف مؤرِّخًا واحدًا يأخذ هذه البروتوكولات مأخذَ الجد؟

الشاهد: أبدًا، ولا بأي شكل من الأشكال! هذا لا يخطر في بال! والأمر صحيح بالنسبة لكل إنسان مثقَّف.

الغريب أن المتهمين لم يطلبوا توجيه أسئلة لهذا الشاهد، واكتفوا بالحركات المخجلة المحرجة.

في الغد نشرت كل الصحف أن أكثر الشهود إثارة في هذه القضية كان الحبر أهرنبرايس. أجل، كان هذا رئيس حاخامات ستوكهولم، حامل شهادة الدكتوراة في الفلسفة، شخصية مثيرة للإعجاب. ما إن فتح فاهُ حتى عرف القاضي أن أمامه شاهدًا مميَّزًا: هادئًا، أديبًا، حازمًا، مُحترمًا. استحوذ على انتباه الجمهور دون أن يرفع صوته.

كان سبب استدعائه الأساسي هو الادعاء بأنه ألّفَ **بروتوكولات حكماء صهيون**، وهو ادعاء من ضمن جملة ادعاءات، لكن كان بالإمكان دحضه بسهولة.

يجب أن تكون شهادته قصيرة ومركَّزة، اقترح البروفسور ماطي، لكنهم لم يقبلوا اقتراحه. يجب عدم تبذير هذا الشاهد واقتصار شهادته على الجانب التقني، قال ليفشيتس، إنها فرصة نادرة. لم يقابل أحدٌ سواه هذا الحبرَ وجهًا لوجه، لكن ليفشيتس عرفَهُ عن قُرب في بيته. أخيرًا وافقه الجميع.

الغريب أن القاضي لم يُبدِ أية إشارة تدل على الضجر، حتى حين أعاد هذا الحبر وردّد بأسلوبه الخاص ما سبق وقاله الشهود الآخرون. ليس فقط أنه شارك في مؤتمر بازل، بل كان أيضًا سكرتير اللجنة التي أعدَّت برنامج عمل المؤتمر، وكان هرتسل على رأس تلك اللجنة.

هو نفسه أرسل الدعوات إلى المندوبين، وقد ورد فيها بصريح العبارة، وبناء على توصيات هرتسل، أن كل جلسات المؤتمر ستكون عمومية. كما ورد في الدعوات أن المؤتمر لن يكون فيه أي حدث يتعارض وقوانين الدّوَل التي يحضر منها المشاركون

ولن يتعارض وواجباتهم كمواطنين في تلك الدول. تذكّر جيدًا لقاءه بهرتسل في فـــيِنَّا عام 1897، حيث تباحثا كثيرًا بشأن نص الدعوة. آمن هرتسل بأن شعوب العالم توّاقة إلى حل "المشكلة اليهودية" التي سبَّبت لهم مشاكل كثيرة، وسوف تؤيّد الشعوب حركتهم. أراد أن يتم ترتيب هجرة اليهود إلى فلسطين بطريقة قانونية، وقد تحقق هدفه مع صدور وعد بلفور.

هنا انتصب الشاهد بارتفاع قامته، "من حسن الحظ أن الأقدار هيَّأت لي فرصة المشاركة في ذلك الحدث الهام لشعبي. إن لقائي بهرتسل، وفرصة التعامل عن قرب مع هذا الرجل النقي النبيل، ذي الهامة العالية على المستوى العالمي، قد جعل من تلك الأيام أعظم أيام حياتي. كانت "القومَجية" والشوفينية بعيدة عنه كليًا. آمن من كل قلبه أنه لا يساعد على تخفيف معاناة إخوانه اليهود فقط، وإنما يعمل أيضًا على حل مشكلة أساسية وملحَّة لشعوب أوروبا".
بصوت مختنق وعينين دامعتين، قال بصوت راجف: "ما زلتُ أراه وكأنه يقف اليوم معي، ليدحض هذه الأكاذيب الواردة في **بروتوكولات حكماء صهيون**".

بعد أن هدأ قليلاً، ودون أن يحثَّه أحد، تناول من داخل حقيبته نسخة عن محاضر الكونغرس الصهيوني في بازل. كما أحضر معه طبعة جديدة لبروتوكولات حكماء صهيون صدرت مؤخرًا في ستوكهولم.
كم من النسخات لمحاضر الكونغرس الصهيوني تلزمنا بعد؟ فكر القاضي وهو يتوجه إلى الشاهد.

"تشمل البروتوكولات 24 فصلاً. هل كان بالإمكان تأليفها، أو بالأحرى قراءتها، أثناء الكونغرس؟ فقد كانت هناك جلسات المؤتمر العام وجلسات اللجان أيضًا".
"كان الأمر مستحيلاً، ففي تلك الأيام الثلاثة في بازل عملنا بمشقّة، وقضينا أنصاف الليالي في جلسات اللجان، التي كانت

هي الأخرى مفتوحة للجمهور والصحافة. كنا بحاجة إلى أيام تتألف من 88 ساعة لنتمكن من تبادل الآراء في أمر البروتوكولات! وأنا لا أتحدث فقط عن عدم الإمكانية من الناحية التقنية، فالأمر غير معقول أبدًا من كافة النواحي.
إن هذه البروتوكولات الزائفة لا تناقض روح هرتسل وأحاد هعام فحسب، بل إنها تناقض الروح اليهودية على الإطلاق!"

المقطع التالي من شهادته اقتبسته كل الصحف ونشرته في اليوم التالي كلمة بكلمة:
"ليست هذه محكمة تتناول تزييف **بروتوكولات حكماء صهيون،** ولا هي محكمة تتناول الصهيونية. إن ما يتم بحثه هنا هو تزييف اليهودية. إن حضرة القاضي يقاضي هنا التاريخ اليهودي، وطبيعة الشعب اليهودي وحياته على مدى 3000 سنة، وكل ما وجّهَه على مرّ الأجيال، وكل ما بذلنا في سبيله حياتنا. هنا في هذه المحكمة، في بيرن، تجري كتابة فصل في تاريخ الإنسانية. إنها المرة الأولى التي يُبحث فيها هذا الأمر في محكمة مستقلة في دولة متحضّرة. عيون الكثيرين من الناس في العالم تتوجّه في هذا اليوم إلى قاعة هذه المحكمة، بفضول وترقّب وتأثّر. هذه ليست دعوى خاصة بالجالية اليهودية السويسرية ضد السيد فيشر وجماعته، إنها دعوى اليهودية ضد مروِّجي الافتراءات علينا حيثما وُجِدوا. إن كل فرد منا، 16 مليون يهوديًا في العالم *(أجل، ذكّرتُ نفسي، فقبل الكارثة كان عدد اليهود ما يزال 16 مليون يهوديًا)*، يشعر بالمهانة المريرة لأن كرامته ديسَت عن طريق إشاعة هذه الكذبة الشنيعة التي لا تزول من العالم، وإنما تتفشّى وتنتشر من دولة إلى أخرى كالوباء المُعدي. سوف يدهش الخلق في المستقبل من الدَّرَكِ الذي انحدر إليه العالم، حتى أصبحت كذبة بشعة كهذه، وغباوة لا تستند إلى أساس، مقبولة لدى آلاف الناس".

لم يأتِ أحدٌ بحركة. حتى المتهمين طأطأوا رؤوسَهم غير قادرين على استيعاب وَطْءِ هذه الرسالة. هذا الشاهد، بقامته المنتصبة،

مُعتَدًّا واثِقًا، قد سبا الجميع بسحره. أحسّوا أنهم أمام رجل عظيم. مضت ثوانٍ كثيرة إلى أن كسر لوسلي حاجب الصمت. كان الجميع بحاجة إلى الاسترخاء بعد توتّر، وقد لاحظ هو ذلك.

هل قرأ الشاهد في كتاب هرمن غيطشه الفصل عن المدافن اليهودية في براغ؟
بدا الشاهد مَرِحًا: "لكنَّ الكل يعلم أنه لم يبق من الاثني عشر سِبطًا سوى اثنين بعد خراب الهيكل، أما باقي الأسباط العشرة فقد اختفت. وهذا سبب آخر يؤكد أن قصة غيطشِه عن الاثني عشر سبطًا خاطئة تمامًا. إن الحقيقة الصحيحة الوحيدة في ذلك الفصل هي أن في براغ مدافن يهودية حقًّا!"
منذ عهد التوراة لم تكن أية جماعة أو طائفة يهودية تؤمن أن أحدًا من سلالة داود سيعود ليملك على اليهود. من حيث علم الأنساب، لا يمكن أبدًا تحديد مثل هذا السليل.

اقترح لوسلي على المحكمة انتهاز فرصة تواجد دارس حكيم للتوراة بهذا المستوى الرفيع بينهم، ليتناول أيضًا التلمود. تردّد الشاهد قليلاً، خشية ألاّ يأذن له القاضي بإلقاء محاضرة. لكن القاضي ابتسم: "يتوقف ذلك على طول المحاضرة". بدا واضحًا أنه لا يريد تحديد هذا الشاهد.

كان قد أصدر مؤخّرًا كتابًا عن التلمود باللغة السويدية. ربما من الأفضل أن يَنْحى مَنحى النفي، فيذكر ما لا يمثله التلمود. التلمود، بصحيح العبارة، ليس ما يقال عنه في النشرات المعادية للسامية، وهو ليس ما يمكن استنتاجه من مقاطع يتم اقتباسها في خارج سياقِها. إنه مُختارات أدبية كُتبت على مدى ألف عام. الكلمة "تلمود" مصدرها الفعل "لَمَاد" (درَسَ/ تعلّم) لكنها تُستعملَ في هذا السياق لوصف تلك المجموعة الضخمة المحتوية على أفكار

الأحبار العلماء الذين أرادوا تفسير وشرح المشنا[5]. إنه أكثر الإنتاجات الأدبية إبداعًا في الثقافة البشرية، يعكس حياة الناس اليومية في حقبة معينة، وعاداتهم، ومعتقداتهم، وحتى خرافاتهم. إنه مصدر القانون، والتاريخ، والطب، والتجارة، والزراعة، والثقافة والعلوم. التلمود يتناول جميع الخبرات البشرية، على كافة المستويات.

أصغى القاضي مشدوهًا حين وصف الشاهد، بخبرة مدهشة، أسس التلمود. أنهى حديثه بقوله: "هذا هو التلمود، إبداع 2500 من الحكماء على مدى 1000 عام. إنه يمثّل حقبَةً كاملة من تاريخنا".

رغم كونهم ممثّلين عن طريق المحامين، فقد بدا أن المتهمين قد أوكلوا إلى فيشر استجواب الشاهد باسمهم. استهلَّ بتشويه أقوال الشاهد:
"قُلتَ إن البروتوكولات الحقيقية هي كُتُبُ اليهود المقدسة. فهلاَّ قرَّرتَ، هل هي الكُتب المقدّسة أم أنها بروتوكولات الكونغرس"؟
"لا بدَّ أنك تتفكَّه، لكن لا يضيرني التفكُّه، قُلتُ فقط إنك إذا أردتَ معرفة اليهودية عليك أن تقرأ كُتبَنا المقدَّسة، فهي في نظري بروتوكولاتنا الحقيقية".
وإذ أصرَّ فيشر على تكرار السؤال نفسه، توجّه إليه القاضي قائلاً إن بإمكانه الانصراف، فلا جدوى من إزعاجه بأسئلة تافهة كهذه.

كان البروفسور ماطي قلِقًا. همس في أذن جورج: كيف لا يبالون بإغضاب القاضي؟ بل إنهم يثيرونه فيضطر إلى إسماع مثل هذه الملاحظات. سوف يستغلونها لاحقًا للادعاء بأنه كان ضدَّهم طوال المحكمة. إنهم يودّون ليس فقط إبطال الشهود، فهو

[5] المشنا: مجموعة من الشرائع اليهودية المروية على الألسُن، كان اليهود وما يزالون يعتبرونها مصدراً من مصادر التشريع يأتى فى المقام الأول بعد التوراة. (المترجم).

يخشى أنهم يمهّدون لطلب تنحية القاضي. وافقه جورج، لكنه لم يعرف كيف يمكن الحيلولة دون ذلك.

كان واضحًا في هذه المرحلة أن المتهمين قد تبنّوا الادعاء بأن البروتوكولات قد كُتِبَت أثناء انعقاد المؤتمر في بازل. إن كان الأمر كذلك، سأل المُدّعون محاميَّهم، فلماذا نشمل في القضية البُناة الأحرار؟ لكن ليفشيتس عاد ليذكّرهم بالبعد التاريخي للقضية. ربما بدّلوا ادعاءهم في أحد الأيام، وأبرزوا من جديد حكاية التآمر اليهودي– الماسوني، وأضاف: إنها فرصة للكشف عن هذه الكذبة، ولا يجب تفويتها.

بناء على ذلك، استدعوا صقًّا من البناة الأحرار السويسريين الذين نفوا نفيًا باتًا أن حركتهم تطمع بالسيطرة على العالم، إن كان مع اليهود أو بدونهم. كان بين هؤلاء السيد طوبلر، ملك الشوكولادة، الذي اتهمه فلايشهاور في موعد لاحق بأنه أدلى بشهادة كاذبة. لم يتردّد طوبلر، فرفع ضده قضية تشهير، مقتبسًا عن تقريرٍ بوجهةِ نظرٍ كان قد أُبرزَ في قضية بيرن.

قبل نهوض القاضي عن كرسية طلب جورج برونشفايغ معالجة "أمر بسيط". قال إن المتهمين أشاعوا تلفيقًا بأن موريس جولي كان يهوديًّا. قالوا بكل ثقة إنه كان مختونًا، وكأنما كان في جعبتهم شاهدٌ قد عاينه عاريًا، وقالوا إن اسمه الحقيقي "مويشي يوئيل". أضاف جورج معتذرًا، وهو يمد يده للقاضي بنسخة من شهادة معمودية أصلية لموريس جولي، عثروا عليها بعد بحث طويل: "خسارة أننا نضطر إلى الانحدار لمثل هذا الدرَك". الشهادة التي تم العثور عليها في أرشيف بلدة مسقط رأسه Lons-de-Saunier تشهد بأن موريس، ابن فيليب لمبر جولي المحامي، وزوجته فلورنطين إليزابيث كورتوَا، من سكان البلدة ذاتها، قد وُلد في 22 سبتمبر 1829 وتعمَّد بحضور الشهود في 17 ديسمبر من السنة ذاتها، إذَنْ فهو مسيحي نقي صِرف. للقاضي الآن أن ينصرف إلى غرفته بمزاج صافٍ، قال

البروفسور ماطي لمرأى الابتسامة التي انفرجت بها شفتا القاضي ماير.

أفاد المتهمون أنهم لن يستدعوا في هذه المرحلة شهودًا آخرين. كان لوسلي وباومـــچرتن متعبَين ذابلَي العينين. أبلغا المحكمة بأنهما مستعدان للإدلاء بالشهادة يوم الأربعاء صباحًا، فقد سبق وأن تعهدا للمحاميَين ألاّ يكونا سببًا بتأخير المحكمة. من المعتاد أن يجري أحيانًا استجواب الخبير فور تقديمه لتقريره عن وجهة نظره، بَيْدَ أن القاضي ماير أعلمهم أن في هذه المرة سيشرح الخبيران وجهتي نظرهما من خلال شهادة شفهية قبل استجوابهما بشأنها. لقد سَرَّ ذلك الخبيرَين، فقد سبق وأن أعدّا وجهتي نظرهما، وقد طلبا الردّ على أقوال الشهود الذين أدلوا بشهاداتهم حتى ذلك الوقت. لهذا السبب وافق المدّعون على تمويل نفقات تسجيل المحضر بيد كَتَبَةِ الاختزال الذين اضطروا إلى العمل في ساعات الليل لفك رموز اختزالاتهم.

كذلك قضى لوسلي وباومـــچرتن الليالي في مطالعة محضر القضية، يرتشفان القهوة السوداء ويسجلان ملاحظاتهما. أمَّل ماطي وبرونشفايغ ألاّ يتجرأ المتهمون على طلب تمديد إضافي، حتى أنهما تناقشا فيما بينهما كيف يردّان فيما لو جاء طلب من هذا القبيل. عندما أبلغ المتهمون المحكمة، بعد الاستراحة، أنه لم يكن لديهم الوقت الكافي للعثور على خبير، طلب المحاميان استراحة إضافية للتشاور.

كان المتهمون نشيطين جدًّا في اليومين الأخيرين. علموا أن المُدَّعين سيحضرون الشهود المعتبَرين، لكنهم لم يتوقّعوا أنهم سيتركون ذلك الانطباع العظيم لدى المحكمة، والأهم من ذلك، الانطباع لدى الجمهور. كان السويسريون في طاقم الدفاع على جانب عظيم من القلق، وخاصة نتيجة اللهجة في الصحف السويسرية التي نشرت يوميًا التقارير الموسَّعة عن الشهادات في المحكمة. حذَّرهم محاموهم من أنهم لا يملكون في الواقع أية أدلة

لتعزيز دفاعهم، وأن المحكمة بعد استماعها لشهادتي الخبيرين، ستحكم بالتأكيد لصالح الادّعاء. كما أنهم خَشَوا، إن لم تتبدَّل اللهجة في الصحف ولدى الرأي العام، فستكون مهمتهم صعبة جدًا في الأيام الآتية. هذه ليست ألمانيا، قال بعضُهم لبعض.

حانت لحظة إبداء المقدرة القيادية، هكذا قرَّر فلايشهاور الذي جاء خصّيصًا من إرفورت. إنه يعجب كيف لم يستوعبوا حتى الآن علامَ تنطوي هذه القضية. الموضوع ليس **بروتوكولات حكماء صهيون**، قال مُرعِدًا، وليست سويسرا هي القضية، إنه صراع ما بين اليهود والعِرق الآري. الموضوع ليس موضوع كتاب بائس. إنه ينتظر هذه المناسبة منذ زمن طويل. هؤلاء المحامون السويسريون الساذجون قد انشغلوا على مدى شهور طويلة في جدال حول القانون والإجراءات، بينما كان هو غارقًا في تفعيل الحركة اللاسامية العالمية بواسطة مركز "الخدمة للشعب" Weltdienst. أصبح لديهم الآن فروع في بلادٍ كثيرة، وأعضاء متفانون على استعداد لنشر مبادئهم، وقد بدأت التبرعات تتدفق إلى حسابهم؛ رغم أن تجنيد الأموال يجري تحت مظلة محكمة بيرن، لكنه غير ملزم بتقديم التقارير أين تذهب الأموال. ڤــون رول الذي عارضه في هذا الموضوع قد تم عزله، وتِدْلي، الذي حلَّ محلَّه، متعاون تمامًا.

إنه ينتظر الآن بكل صبر أن ينتهوا من محاولاتهم الفاشلة في العثور على خبير، وهو يعلم أن من الضرورة بمكان أن يجعل القاضي يتأثر فيقتنع. هل فكَّروا للحظة أن عليهم إيجاد خبير ليشهد أن اليهود قد عقدوا فعلاً جلسات سرّية في بازل، حيث تم فيها نص خطتهم للتسلط على العالم؟
إنهم لا يدركون ما الذي يجري هنا، قال صارخًا. أخيرًا وصل أبناء العرق الآري إلى الحكم بقيادة هتلر، لكن لا يكفي التخلص من يهود ألمانيا. عليهم إقناع الناس في البلاد الأخرى، لذلك فإن في الحكومة الألمانية قسمًا خاصًّا يهتم بإيجاد السبل لنشر نظريتهم.

هذه المحكمة هدية من السماء. سيكون هنا تمثيل لكل الصحافة العالمية. "إنهم يتجاهلون ما نقوله في اجتماعاتنا ومؤتمراتنا، لكن بعد أن تم نشر كل الشهادات التي سمعناها حتى الآن بالتفصيل، لن يكون بإمكانهم تجاهل ما سوف نقوله حين ندلي بشهاداتنا من على منصة الشهود. كل ما سيقال هناك سوف يُنقَل إلى العالم كله". وحتى لو اتخذت بعض الصحف موقفًا غير مُستَحَب، فإنه يؤكد لهم أن صحفًا كثيرة غيرها سوف تصغي لما يقولون.
هل هم يريدون تضييع هذه الفرصة في جدل عقيم عن ضابط روسي مجنون من روسيا؟ الآن وقد أصبح المنبر لهم، عليهم أن يبرزوا اليهودي بكل قباحته، كمن يشكل خطرًا على السلام، وكمن يتآمر على استقرار المجتمع البشري في العالم كله.
من الضروري والحالة هذه، أن يتم تعيينه هو شاهدًا خبيرًا. صحيح أنه ليس خبيرًا بالبروتوكولات، قال بابتسامة وغمزة عين، لكن أنّى لهم أن يجدوا خبيرًا أفضل منه في موضوع اليهود؟

عرف المتهمون منذ زمن أن إرفورت قد استحوذت على قضية بيرن، وأن من يمسك بالخيوط هو فلايشهاور، مع ذلك فقد توهَّموا أنه سوف يدرك هو أيضًا أن قاضيًا سويسريًا لا يحتمل التكتيكات المتبعة في المحاكم الألمانية. أدركوا فجأة أنهم باتوا مقيّدين وأنهم كالدمى الراقصة على حبال يحركها فلايشهاور. لانعدام خيار بديل، أبلغوا المحكمة بأن فلايشهاور هو الخبير من طرفهم، لكنه بحاجة للوقت الكافي لإعداد تقرير بوجهة نظره.

أثار الأمر غيظ ليفشيتس وسالي ماير اللّذَين تذرّعا بالصبر حتى الآن إزاء استفزازات المتهمين. حان الوقت لإبلاغ القاضي بعنادٍ وإصرار أنه لم يعد هناك مبرر لأي تأجيل جديد، وأن الأمر لم يعد مقبولاً.
تدخّل البروفسور ماطي ثانية، سائلاً بلهجة رزينة: وماذا تستفيدون من ذلك؟ إنكم بهذا تؤدّون خدمة للمتهمين، فسوف

يدّعون أنهم حُرموا من الدفاع، فهم بارعون بنشر المعلومات المشوّهة، ولا بدّ أنهم سيشيعون أنهم لم يُمنَحوا حق إبداء رأيهم عن طريق خبير، فقط لأنهم لا يملكون المال كاليهود لينفقوا على شهود خبراء. ممنوع الاعتراض على أية ممارسة للشهود، قال بمزيد من القناعة، اتركوا الأمر لتقدير القاضي. وافقه على ذلك، بلا رغبة ظاهرة، كل من لوسلي وباومـــچرتن.

حين استجاب القاضي لطلب التمديد، تساءلوا أي نوع من الخبراء عليهم أن يتوقعوا؟ لقد عرفوا القليل عن الملازم أول أورليخ فلايشهاور، لكن سرعان ما تسنّى لهم التعرّف إلى الـــ Weltdienst في إرفورت.

منح القاضي المتهمين مهلة مدتها 6 أشهر للحصول على تقرير برأي خبير من طرفهم، فتم تعيين موعد الجلسة القادمة لتاريخ 29 أبريل 1935.

ارتقبَ جورج برونشفايع بفارغ الصبر إنهاء القضية ليتمكن من مزاولة حياته العادية.

انتابه شعور بالذنب تجاه إميل رآس الذي بذل جهدًا يائسًا للنهوض بمصلحتهما الصغيرة، والآن وقد أصبح أمامه متّسعٌ من ستة شهور، فسوف يعود إلى العمل في المكتب، وربما تمكّن أخيرًا من الزواج من أوديت التي انتظرته هي الأخرى بصبر عظيم. آن لهما أن يقيما عُشَّهما.

أما طاقم الدفاع فقد كانت لديه تخطيطات أخرى. يجب استغلال المدة جيدًا، قرّر فلايشهاور.

في المرحلة الأولى بدأوا بالهجوم المركَّز في الصحف على الخبيرَين، وبالأخص على لوسلي. عملوا على عزله مُسبقًا في أنظار الناس، وفي الوقت ذاته حاولوا زعزعة ثقته بنفسه، ففي الصحف التي كانت تحت سيطرتهم أو تأثيرهم نعتوه بـــ "الشاهد اليهودي".

لكنهم لم يكتفوا بذلك. في هذه الأثناء قاموا برفع دعوى ضد سلسلة من الشهود، كان من بينهم: حاييم وايزمن، شلوسبرغ، الحاخام أهــرنبرايس، مئير أڤــنير، بودنهايمر، فربشطاين، ميليوكوف، سباتيكوف ونيقولاييفسكي. وأما المدّعي فقد كان Oberstgruppenfuehrer Wuergler، وهو من الحركة القومية الاشتراكية في زوريخ، ذو سوابق في قضايا الغش، كان يباهي بأنه أصدر شخصيًا كتيبًا عن البروتوكولات يحمل غلافه رسومًا كاريكاتورية تنزف دمًا. اتهمَ الشهود كلهم بالإدلاء بشهادات كاذبة مطالبًا باعتقالهم حالاً.

في الثاني من يناير 1935، وذلك قبل يومين من رفض المحكمة للتهم الكاذبة التي لا أساس لها ضد الشهود، وصفت صحيفة ألمانية في برلين الدعوى ضد الشهود، بحروف بارزة، على أنها "حدث مثير في محكمة بيرن".

لم يتوقف المتهمون عند هذا الحد، ففي 17 مارس 1935، رفع المحامي روف دعوى أخرى ضد عدد من الشهود، وصفتها جريدة Weltdienst هي الأخرى بأنها حدث مثير آخر.

الخبراء

باقتراب 29 أبريل كانت الاستعدادات للفصل الأخير من المحكمة على أشدّها، أنذرهم ليفشيتس بأن تقرير فلايشهاور سيكون أسوأ وثيقة لاسامية شاهدوها في حياتهم، وقد يتم توزيعه على الناس على أنه مستند من ملفات المحكمة، مهما كانت نتيجة المحكمة.

ربما أنهم ساذجون، قال جورج وماطي، لكن ليس من المعقول أن يجرؤ داعية نازي على أن يقدّم للمحكمة نشرة دعائية من طرف واحد تحت ستار "وجهة نظر خبير". رغم علمهم التام بأن فلايشهاور ليس خبيرًا، لكن من المؤكد أنه سيبرز للمحكمة وجهة نظر أعدّها له أحد "الخبراء" نيابةً. رغم أن محامي المتهمين وجّهوا أحيانًا أسئلة مثيرة للسخرية، لكن من المؤكد أنهم لن يرضوا بتقديم مستند دعائي تحت ستار "تقرير خبير".

أعرب الدكتور ڤـينر عن استغرابه كيف أنهم ما يزالون مغفَّلين، قال: إن من يدير هذه القضية في الطرف الآخر ليس المتهمون ولا محاموهم، وليست الجبهة الوطنية السويسرية هي التي تُواجههم في المحكمة. إنها مواجهة ما بين اليهود وبين الرايخ الثالث، لا أكثر ولا أقل. قال إنه قد اختبر من زمن بعيد ممارسات النازيين. إنهم يمارسون قواعد اللعب الخاصة بهم. سوف يفاجئكم فلايشهاور، قال محذِّرًا، فترقبوا الأسوأ.

لكن ليفشيتس وڤـينر قد فوجئا هما أيضًا لمرأى وثيقة وصلت من المحكمة، ذات 600 صفحة مجلّدة على شكل كتاب. لم يكونوا بحاجة إلى قراءتها كلها، اكتفوا بتصفّحها ليكتشفوا أن فلايشهاور لم يحاول حتى استخدام لغة علمية لتمويه تهجماته السامَّة على اليهود. لقد ترقَّبوا الأسوأ حقًّا، لكن هذا أكثر سوءًا من الأسوأ!
قرأ عليهم الدكتور ڤـينر مقالات من جريدة ولتديينسْت Weltdienst جاء فيها أن اليهود خليط من أجناس مختلفة تجمَّعت فيه أسوأ صفات هذه الأجناس، النزعةُ إلى الشرِّ باديةٌ في وجوههم، عِرْقٌ عديمُ الأخلاق، ينتمون إلى عصابات إجرامية تحارب المسيحيين بلا هوادة.
بعد هذه التشخيصات الرهيبة يأتي الادعاء بأن لا يجب الاكتفاء بالعلاج الجزئي. "يجب اجتثاث اليهودي من مجتمعنا الحضاري. هناك طريقة واحدة لتحرير وطننا من هذا الوباء الخطير: إن إقصاء اليهودي كليًّا وعمليًّا 100% يتحقق فقط عن طريق القضاء عليه جسديًّا".
وكان هناك من اقترحوا وسائل أقل تطرُّفًا، مثل إخصاء اليهود، أو تجريدهم التام من حقوق المواطنة.
لشدّ ما كانت صدمتهم إذ اتضح لهم أن فلايشهاور استخدم في تقريره لهجة جريدة الولتديينسْت ذاتها.
قال جورج برونشفايغ إنه عازم على أن يلتمس من المحكمة، في جلستها القادمة، أن ترفض اعتباره خبيرًا. تمنّى له ماطي النجاح، مُنبِّهًا إلى أنه سوف يفشل؛ فكيف سينظر الناس إلى حقيقة أن

الشاهد الخبير الوحيد، الذي كان على استعداد للإدلاء بشهادته من طرف الدفاع، قد عزلته المحكمة؟ سيعلنون ذلك من فوق كل السطوح، ويدَّعون أن المحكمة لم تسمح لهم بإسماع صوتهم. "لدينا قاضٍ حكيم"، قال ماطي، "سوف يعضّ شفتيه، لكنه سوف يسمح لفلايشهاور بأن يدلي بشهادته، وسوف يصغي إليه بكل أدب".

اعتقدوا أن الناس قد فقدوا اهتمامهم بالأمر، لكن القاعة امتلأت من جديد، وتوافد الصحافيون من أنحاء العالم.

في هذه المرة اهتمَّ فلايشهاور بحجز صفَّين من المقاعد لمؤيديه الذين ظهروا كلهم بلباس عسكري موحَّد.

استهلَّ القاضي الجلسة بقراءة برقية من المتهم ثيودور فيشر: "لم يُسمَح لي بالاشتراك في الجلسة".

لم يكّلف نفسه حتى ببيان السبب، همس جورج.

أعلن القاضي أن كل الدعاوى التي رُفِعَت للمحكمة ضد الشهود قد تم رفضُها لعدم استنادِها إلى أي أساس، وليس هناك ما يدعو إلى مواصلة التحقيق في الموضوع.

نهض المحامي روف فورًا وطلب تأجيلاً إضافيًا، قائلا إنه يتوجَّب عليهم فحص هذا الأمر بتعمّق. هنا نفذ صبر البروفسور ماطي، غير أنه لم يكد ينهض حتى أعلن القاضي إنه يرفض الطلب.

توجّهت كل الأنظار نحو فلايشهاور الذي كان مُتَأَهِّبًا لتقديم وجهة نظره، بَيد أن برونشفايغ أعلمَ المحكمة أنه يودّ أولاً أن يوجه بعض الأسئلة.

تمحورَت أسئلة برونشفايغ حول وظيفة فلايشهاور في التنظيم اللاسامي Weltdienst، وعلاقاته الوثيقة بالزعماء النازيين في ألمانيا، والأدوار القيادية التي قام بها في المنظمات اللاسامية في أنحاء العالم. اعترف فلايشهاور، بمباهاة استعراضية ودون تردّد، بكل ما ذكر برونشفايغ من حقائق.

حسب توقعات ماطي، رفض القاضي التماس جورج؛ من حق المتهمين اختيار الخبير الذي يناسبهم، قال القاضي بلهجة جافة.
ها قد وجد فلايشهاور لنفسه منبرًا، همس جورج للبروفسور ماطي.

أفصح القاضي عن أن بحوزته منذ شهور تقريرَين بوجهتي نظر الخبيرين لوسلي وباومـــچرتن، والآن، وقد قُدِّمَ للمحكمة تقرير بوجهة نظر خبير من طرف الدفاع، فقد أصبح بالإمكان مباشرة المرحلة الأخيرة للقضية. سوف يتاح لكل واحد من الخبراء الإدلاء بشهادته الشفهية، وبعد ذلك يجيب على أسئلة القاضي وكلٍّ من الطرفين. فيما يلي تسلسل الشهادات: يشهد أولاً الخبير من طرف الادِّعاء، البروفسور باومـــچرتن، يليه الخبير من طرف المتهمين، السيد فلايشهاور، وأخيرًا الخبير من طرف المحكمة، السيد لوسلي. كما أعلن أنه يتعهّد بقراءة تقارير الخبراء الكتابية بإمعان، وبناء عليه فإنه يرجو من الخبراء أن يقولوا ما عندهم باختصار. غير أن ما حصل بالفعل قد تجاوز كل التوقعات؛ استغرقت شهادتا كل من باومـــچرتن ولوسلي بضعة ساعات، وأما فلايشهاور فقد وقف على منصة الشهود خمسة أيام بتمامها.

كان باومـــچرتن جاهزًا تمامًا. استهلَّ بالإعلان عن أن **بروتوكولات حكماء صهيون** ليست إلا وثيقة امتُصَّت من الهواء، ثم تابع واصفًا عملية التزييف. توقَّف عند الانتحال من كتاب موريس جولي، جاهدًا في الإشارة إلى الفقرات المتماثلة في الكتابين.
لو توخَّينا الدقَّة، فبالإمكان القول إن البروتوكولات في نصّها المعروف قد كُتِبَت ما بين عام 1890 و 1900. ليس بإمكانه، كخبير، أن يحدّد الزمن بدقّة، لكن للمحكمة أن تتوصل إلى استنتاج آخر على ضوء الشهادات التي استمعت إليها.

إنه حقًا عالِمٌ على جانب من الدقة المتناهية، همس البروفسور ماطي باسمًا.

يجب ألاّ نستبعد احتمال أن المزيّفين لجأوا إلى مصادر أخرى، غير كتاب جولي، أضاف الشاهد. ثمة مجال للظن أنهم استخدموا كتاب هرمن غيطشة، مثلا. إنه لم يعثر على دليل بأن غيطشِه قد استخدم كتاب جولي.

لا جدوى من تكرار ما سبق وأن قال في شهادته للمحكمة، قال باومـــچرتن بينما صدرت عن القاضي إيماءة توحي بالموافقة، لكنه يودّ التطرّق إلى بعض الأمور ذات الأهمية الخاصة. ليس فقط أن ذرّة من الحقيقة لم توجد أبدًا لتشهد على صحة هذه البروتوكولات، بل إنها تتعارض كليًا وروح اليهودية التي وهبت العالم مبدأ التوحيد. في تعليقه على مناورات اللاساميين، أذِنَ لنفسه بابتسامة متحفظة إذ قال: "لو انتمى يهودي إلى منظمة عالمية، لأشاروا إلى ذلك كدليل على وجود مؤامرة يهودية، أما إذا انتمى غير اليهودي إلى المنظمة ذاتها، لاعتبروه في الحال يهوديًا أو مؤيِّدًا لليهود".

ليس لليهود أية علاقة بالبناة الأحرار، وهم لا يسيطرون على العالم، تابع البروفسور أقواله بلهجة واثقة. إنهم ليسوا فقط غير موحَّدين تحت قيادة واحدة، بل إنهم شعب منقسم ومجزَّأ على نحو متطرِّف.

للحركة الصهيونية هدف واحد ووحيد، هو إقامة الوطن القومي للشعب اليهودي، وقد أثبتت ذلك ليس كلاميًا فقط وإنما عمليًّا أيضًا. في هذه اللحظة انتصب ملء قامته وصوّب نظرَهُ مباشرة إلى فلايشهاور: "إن من كتبوا هذه البروتوكولات قد توقّعوا بالفعل الدكتاتوريات الحديثة، لكن دكتاتورية مملكة داوُد لم تكن من ضِمنها".

معتذرًا إلى المحكمة، أفاد أن عليه التوقف برهةً عند ما في هذه الاتهامات من افتقار إلى المنطق؛ فالمعروف عن اليهود انتماؤهم الديني، بينما يُعرف عن البلشفيك أنهم ملحدون عديمو الدين. تُمثل البروتوكولات الرجعية، بينما البلشفية حركة ثورية. ما هذه إلاّ نماذج، قال وأضاف إن باستطاعته الاستمرار ليُظهر أن كل

الاتهامات المنسوبة إلى اليهود في هذه الوثيقة تفتقر إلى المنطق السليم، لكن بما أن كل شيء مكتوب في تقريره، فهو يأذنُ لنفسه بالتحوّل إلى موضوع آخر.
لو كانت البروتوكولات حقيقية، ولو كانت هناك حقًّا مؤامرة يهودية عالمية، لنتج عن ذلك أن كل التاريخ البشري هو مجرد خداع نظر، وما المؤرخون سوى ضحايا ساذجين أغبياء، إذ أنَّ من خلف الأحداث التاريخية التي يصفونها، يستتر أولئك الشيوخ العجائز، الممسكون بخيوط القياصرة والملوك والجنرالات والباباوات، ويخدعون الشعراء والفلاسفة. إنها نظرية خطيرة، لأنها تمس بالنسيج الاجتماعي والسياسي للمجتمع، وتحوّل الانتباه عن الأسباب الحقيقية للحدث، وتشوّه مفهوم الحرية، والليبرالية والمساواة الاجتماعية، وتتآمر على كل قيَم الحضارة الأوروبية.

أخيرًا، فهو متمسّك برأيه أن من الجائز تعريف البروتوكولات على أنها أدب بذيء بكل معنى الكلمة. كان تأثيرها محدودًا في روسيا، لأن الجميع عرفوا رتشكوفسكي وتزييفاته، لكنها نجحت في تسبيب المجازر هناك، ومن شأنها أن تفعل ذلك في البلاد الأخرى، عن طريق تحريض قسم من الشعب على القسم الآخر. إنه خطر حقيقي ملموس في كل مجتمع يريد المحافظة على قيَم الحرية والديمقراطية.
تحدّث البروفسور باومـــچرتن على مدى ثلاث ساعات، ثم أحنى قامته للقاضي وجلس في مكانه.

لم ينسَ إميل رآس وأوديت برونشفايغ حتى اليوم تلك الأيام الخمسة من شهادة فلايشهاور. أراد جورج أن تبقى أوديت في البيت. كانت تلك إحدى المرات النادرة التي أصرّت فيها وتشبّثت برأيها. قالت إنها ليست طفلة، ولا ضرورة لوقايتها وتوسيدها بالقطن... ستجلس في قاعة المحكمة وتعطيه الدعم بمحض وجودها. لكن ذلك كان كابوسًا حقًّا. تذكّر أوديت كيف كان القاضي يجزر فلايشهاور من حين لآخر، مُنبّهًا إياه أن عليه أن يخاطب المحكمة وليس الجمهور. كان يعتذر مبرِّرًا ذلك بأنه

معتاد على الخطابة في المناسبات العامة، وما هي إلا دقيقة أو اثنتين حتى يعود فيدير ظهره إلى القاضي ووجهه إلى الجمهور. إنها لا تذكر كل الشهادة، بيد أن إهانة واحدة دون سواها ما تزال عالقة في ذاكرتها، وإن لم تكن أسوأها. تجرأ فلايشهاور على القول في قاعة المحكمة إن الأطفال اليهود قذرون لأن أمّهاتهم يغسلنَهم بالبصاق، من أجل الاقتصاد بالماء والصابون!

دون الاستناد إلى مصدر ما، انتصب فلايشهاور على قدميه طوال خمسة أيام ليُسمِعَ بلهجته الواثقة تصريحات لا أساس لها: كان موريس جولي ماسونيًا، ويبدو أنه كان يهوديًا أيضًا، كان سليل المُكرَهين في إسبانيا ممن اضطرّوا إلى اعتناق المسيحية. دَعمًا لحجته، أبرز للقاضي صورة لموريس جولي وأخرى لكارل ماركس، حيث كان لكليهما لحيتان متشابهتان، على غرار الطراز في ذلك العهد. أما اكتشاف فيليب غراڤـــز فقد أسماه "خرافة تركية"، وأما شهادة دي شايلا فهي – "عملية تمويه يهودية".
هاجم كلَّ كِتابٍ دحضَ البروتوكولات. قال إن بعض أجزاء من البروتوكولات تمتدح اليهود، فلا يمكن أن يكون كاتبها معاديًا للسامية. وأما الشرطة فقد وُصِفَت بصورة سلبية، فكيف يمكن أن يكون الكاتب عميلاً للشرطة؟

دون شيء من خجل، استمرَّ يقتبس عن لسلي فراي التي نسبت البروتوكولات إلى أحاد هعام الذي، على حد تعبيرها، نادى بالصهيونية كرمز تتحقَّقُ من خلالة السيطرة على العالم، خلافًا لهرتسل، صاحب نظرية الصهيونية الواقعية، الذي أراد بادئًا إنشاء دولة يهودية، وبعدئذ السيطرة على العالم.

لم تشمل البروتوكولات كل الأفكار الواردة في حوارات موريس جولي، أوضحَ بتعابير جديّة، لأن اليهود في بازل كانوا على عَجَلٍ. البروتوكولات لا تستند إلى الفصل الوارد في كتاب غيطشِه. أسوة بموريس جولي، فإن غيطشه أيضًا استقى معلوماته من مستند سرّي، عريق العهد، يرجع أصله إلى روسيا،

يدعى "خطاب الحبر"، يعتمد على خطاب ألقاه أحد الأحبار عام 1859 في سبمبروبول. تجاهل كليًا حقيقة أن ذلك الفصل في كتاب غيطشه لم يكن ليعتبر أبدًا إلاّ أبداعًا أدبيًا، وقد كان مصدر إيحاء لـــ "خطاب الحبر" عام 1880، وليس العكس.

استمرَّ فلايشهاور في خطبته دون وعيٍ لتعابير الاستغراب والشجب الآتية من مقاعد الادّعاء:
لقد ثبتت مصداقية البروتوكولات من خلال أحداث السنوات العشر الأخيرة. الناس كلهم يعرفون أن اليهود سبَّبوا الحرب العالمية. هم من جاؤوا بالبلشفية إلى العالم. هم الذين نصّوا شروط اتفاقية السلام المخزية لألمانيا في فرساي. هم الذين أنشأوا عصبة الأمم، بهدف توحيد العالم تحت السيطرة اليهودية. "إن مكافحة اليهود في ألمانيا"، أعلن رسميًا، "ستستمر حتى النهاية".
البروتوكولات حقيقة تؤكدها كراهية اليهود لكل ما هو غير يهودي. ذكر كمراجع: يسوع الناصري، النبي محمد، نابوليون، كتاب الصلاة اليهودي، ڤــولطير، كانْت، واچـــنر، غيتِه، والمؤرّخ مومسان وغيرهم. واقتبس بحرية ودون تمييز عن مختلف الكتب اليهودية: التوراة، التلمود، وثائق من العصور الوسطى، الصحف والمجلات، علاوة على اقتباسات عن مشاهير الكُتَّاب اللاساميين مثل ألفرد روزنبرغ.

كل هذه الاقتباسات جُلّدت على حِدَةٍ وأرفِقَت كمُلحَق إلى التقرير.
الطقوس المعتادة في المحافل الماسونية وُصِفَت كلها وكأنها طقوس دينية يهودية.
أن شئتم الإثبات كيف يقوم اليهود بتدمير الاقتصاد، تكفي الإشارة إلى مقاطعة اليهود للبضائع الألمانية.
نعَتَ مشاهير اليهود بالمجرمين، ووصف السير فيليب ساسون، وزير الطيران البريطاني وسكرتير لويد جورج السابق، بأنه "تاجر مخدرات".
أخيرًا تناول "الخبير" القرارات القضائية.

الإصدار الألماني هامرفــيرلاغ Hammerverlag لا يمكن أن يعتبرَ تزييفًا، فهو ترجمة عن كتاب أجنبي. والكتاب الأجنبي ليس تزييفًا، لأن محتوياته تؤكدها معتقدات اليهود وتصرّفاتهم. حتى لو تأكّد الانتحال الأدبي، يجب ألاّ يكون له معنى قضائيًا. لا يجب، في أي حال من الأحوال، أن نعتبر البروتوكولات "أدبًا بذيئًا".

نظرًا لاقتباس فلايشهاور، بصورة مشوّهة وخارج سياق النص، مقاطع من نشرات لبعض الباحثين في "المقراء"[6]، توجّهت نقابتهم بكتاب عاجل إلى المحكمة، معبرة عن استياء أعضائها، مؤكدة أن الشهادة بحد ذاتها تزييف سافر. إنهم يمتنعون عن رفع دعوى ضد فلايشهاور في هذه المرحلة، راجين أن ينعكس الأمر في قرار حُكم القاضي في هذه المحكمة.

اقتبست الصحف عن شهادة فلايشهاور على نحو واسع، وكما كان متوقعًا، فقد حظيت بالثناء في بعض الصحف الأجنبية ذات التوجه النازي، وبالنقد الشديد في باقي الصحف.

وأخيرًا، وبعد خمسة أيام مرهقة، جاء دور لوسلي. سيكون هذا الشاهد الأخير، وعدَ جورج أوديت في الليلة الماضية. كانوا كلهم مرهقين، لكن النوم لم يكن بالأمر السهل. بحث جورج في ذاته وأعاد: هل كان بإمكانه أن يفعل أكثر ممّا فعل؟ أو أحسن ممّا فعل؟ اجتمع الكادر بعد ساعات الظهر. لم يعد على جدول أعمالهم أي موضوع للبحث والقرار. كانوا قبلئذٍ قد قرروا أن يتقاسم جورج والبروفسور ماطي التلخيصات بينهما. قام جورج حتى الآن بمعظم العمل في قاعة المحكمة، والبروفسور ماطي الفخور بتلميذه، قد أخلى له المسرح، لكن الجميع اتفقوا على أنهم بحاجة إلى محامٍ غير يهودي، ذي مكانة واعتبار، ليُسمِعَ خطاب التلخيص.

[6] المقراء (המקרא): كناية عن الكتاب المقدّس، بجميع أسفاره أو بعضها، لتمييزه عن التلمود.(المترجم).

عملوا الليالي الطويلة على النصِّ النهائي لخطابَي تلخيصهما، وكان واضحًا أنهما سيضطران إلى إدخال التعديلات بعد الاستماع إلى شهادة لوسلي؛ فهما وإن كانا قد قرأا تقريره بالتفصيل، إلاّ أنهما قد لاحظا في الأيام الأخيرة تقلبات في مزاجه. أثناء استماعه لشهادة فلايشهاور، ظهر أنه مستاء جدًّا وأن غضبه يتفاقم. "أحيانًا تجد غير اليهود أكثر حساسية منا للتهجمات اللاسامية"، قال ليفشيتس، "فنحن قد تعرّضنا منذ أجيال كثيرة لمثل هذه التهجّمات، واعتدنا معايشتها".
حين قال للوسلي ما يشبه هذه الأقوال، ردّ عليه بغضب: "إنها مشكلتكم. ليس من المفروض أن يعتاد المرء على معايشة تهجمات كهذه. إنه، ببساطة، أمر لا يطاق!"

علاوة على الغضب، أحس لوسلي بالخجل العميق من تحويل محكمة سويسرية إلى منبر لمثل هذه الدعاية اللاسامية الشريرة. تدنَّت لديه روح التسامح إلى دَرَكٍ لم يعهده من قبل. اجتهد في ضبط أعصابه ليدلي بشهادته على نحو هادئ يليق بخبير مثله. لكنه كان متوترًا، وبالتالي جاءت أقواله كرسالة شخصية شديدة التأثر.
لم يفُته استهلال شهادته بانحناءةٍ احترامًا للقاضي، أعلن بَعدَها أنه نظرًا لكَونِ كل واحد من الخبراء الثلاثة قد أعدَّ وجهة نظره باستقلالية تامة، فإن كل واحد منهم يتحمل المسؤولية الكاملة عن مضمون تقريره.
لكنه في هذه اللحظة فاجأ المحكمة بإعلان دراماتيكي: بلَغَهُ للتوِّ أن تقرير فلايشهاور على وشك الظهور كمقدمة لإصدارٍ جديد للبروتوكولات من منشورات "هامر" في ألمانيا. ليس هذا فحسب، بل إن هذا التقرير قد تم نشره كوثيقة مستقلة بذاتها في دول مختلفة تحت عنوان "البروتوكولات الحقيقية لشيوخ صهيون"، كل ذلك ولمّا تنتهِ المحكمة بعد. بدا القاضي مشدوهًا، وإن كان قد تسربل الصمت.

أدار الشاهد وجهه نحو مقاعِد المتهمين قائلاً: "أقترح أن نتحرّر كلنا من الضباب اللاسامي الخانق الذي عكّر أجواء هذه القاعة في الأيام الأخيرة، وأن نعود إلى الهواء النقي وإلى أجواء الحِكْمَة البشرية المعتدلة والتفاهم الإنساني".

كان شديد الثقة من أن ثمة تدخّلاً ألمانيًّا في إدارة هذه القضية. لهذا السبب فقط، يأذن لنفسه أن يتطرّق إلى السياسة في هذه القاعة. ليس بوسعه الامتناع عن ذكر الاستعمار الألماني، فهو منذ طفولته الباكرة يسمع الشعار "ألمانيا، ألمانيا فوق الجميع".

كان قد تفحّص بدقة كل مستند أمكن أن يحصل عليه، حتى قبل استماعه لمختلف الشهود؛ لقد حصل، لحسن حظّه، على وثائق كثيرة من الأرشيفات الروسية، وعليه أن يوضح أن استلام تلك الوثائق كان مشروطًا بإعادتها إلى موسكو بعد انتهاء المحكمة.

بإمكانه أن يؤكّد للمحكمة أنه لم يعثر ولو على وثيقة واحدة تثبت صحة البروتوكولات. الحقيقة هي أن الروس لم يخجلوا باستعمال الوثائق المزيفة ضد اليهود، لكن لم يكن هناك ما يدعوهم إلى التظاهر والتمويه في رسائلهم المتبادلة. لو أنهم وثقوا من صحة البروتوكولات، لكان من المتوقع أن يستخدموها على نطاق أوسع، ولكانوا قد ذكروها على الأقل في رسائلهم المتبادلة. على سبيل المثال، لا توجد كلمة واحدة عن البروتوكولات في مذكرات الجنرال غراسيموف الذي شغل منصب رئيس الأوخرانكا في السنوات 1905–1912، وهو الذي اعتُبِرَ أنه الرجل الذي لا يخفَى عنه أمر في روسيا، بينما يذكر في مذكراته، من جهة أخرى، أن القيصر أناط به فحص احتمال وجود مؤامرة بين البناة الأحرار والبلشفيك، وقد رفع إلى القيصر ردّه بأنه لا توجد في روسيا أية "دائرة يهودية ماسونية". في هذا السياق أيضًا لم يرد ذكر البروتوكولات ولو بالرمز.

لم يكن في نيَّته التحدث عن الكونغرس الصهيوني، قال لوسلي معتذرًا. كان يرجو ألاّ تثار هذه النظرية الكاذبة في قاعة المحكمة. لكن، نظرًا لتمسّك المتهمين وخبيرهم بها، فهو لا يسمح لنفسه أن يتجاهلها.

إن اللاساميين يدّعون منذ 15 سنة بأن البروتوكولات قد كُتبت أثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني في بازل عام 1897، ولتأكيد ادعائهم، فإنهم يقتبسون الواحد عن الآخر. وأضاف بلهجة ساخرة: بمقدورهم أيضًا الادعاء بأنها كُتبَت في اجتماع لعمَّالِ نظافةِ الحظائر!

صمتَ لوهلةٍ، ثم أضاف واصفًا بصوت هادئ، على نقيض ادعاءات المتهمين، حادثًا موثقًا:

في الخامس من أغسطس 1903، أي بعد أربعة أشهر من مجزرة كيشينيف الرهيبة، قام الزعيم الصهيوني ثيودور هرتسل بزيارة لروسيا في محاولة لتحسين أحوال اليهود هناك وللحصول على دعم القيصر للبرنامج الصهيوني. التقى مرّتين بوزير الداخلية بلاڤــيه، وحاول إقناعه بتوسُّط روسيا لدى السلطان التركي الذي كان قد أجرى معه محادثات حول توطين اليهود في فلسطين.

ذكَّر لوسلي القاضي أن فلسطين كانت آنذاك جزءًا من الإمبراطورية التركية.

استعدادًا لاستقبال هرتسل، ألقى بلاڤــيه على لوفوخين، قائد الأوخرانكا، مهمة إعداد تقرير عن الصهيونية.

أخرج لوسلي من حقيبته نسخة كانت بحوزته عن ذلك التقرير، قائلاً أنْ ليس فيه أي ذكر للبروتوكولات. بعد مضي أربعة أشهر على مجزرة كيشينيف التي جرى خلالها استعمال "خطاب الحبر" على نحو مثير للسخرية، وبعد أن وُزِّعَت نسخات عن البروتوكولات على كبار المسؤولين، لم ترد في التقرير الذي أعده لوفوخين كلمة واحدة عن مؤامرة يهودية!

كان ذلك في الواقع تقريرًا إيجابيًا مكَّن بلاقــيه من التعهد بدعم الاستيطان اليهودي في فلسطين. يمكن الجزم بشكل قاطع أنه لم يكن بتاتًا لدى الأوخرانكا أي مستند يؤكد صحة البروتوكولات، حتى ولا مستند سرّي. فهم أنفسهم لم يؤمنوا بخرافة المؤامرة اليهودية.

مدعومًا بوعد بلاقــيه، مسرورًا بما لقي لديه من استقبال حار، سافر هرتسل إلى بازل للمشاركة في المؤتمر الصهيوني السادس الذي افتُتح في 22 أغسطس.

كان ذلك المؤتمر صادمًا جدًا؛ حيث أن اقتراح هرتسل بتوطين اليهود في أوغندا، ريثما يُسمَح لهم بالعودة إلى صهيون، قد لاقى معارضة شديدة. لم يخطر ببال هذا الرجل، صاحبِ الرؤيا النبوئية، وأبي الصهيونية المعاصرة، أنه بينما كان يناقش هو ورفاقه وسائل إنقاذ اليهود من الاضطهاد، يقوم أحد الطبَّاعين في سانت بطرسبورغ بمراجعة وثيقة غاشمة ضد اليهود.

في آخر يوم للكونغرس الصهيوني، 28 أغسطس 1903، نُشر الجزء الأول من **بروتوكولات حكماء صهيون** في جريدة كروشبان. كان ذلك عبارة عن مراجعة عامة تسبق الإصدار الأول، قال لوسلي. ثم صدر كتاب نيلوس في أكتوبر 1905.

في تقريره حول وجهة نظره، تطرّق لوسلي بإسهاب إلى موريس جولي. لذا فهو لا يريد إضاعة وقت المحكمة في تكرارٍ لا لزوم له لما كتَبَ. ليس ثمة دليل على أن موريس جولي من أصل يهودي، ولم يكن كتابه إلاّ عبارةً عن إعلان الحرب على نظام حكم نابوليون الثالث. يتضحُ ذلك ليس من قرار المحكمة في قضية موريس جولي فحسب، وإنما أيضًا ممّا بحوزته من وثائق. استأذن لوسلي القاضي بأن يتطرق إلى إحدى تلك الوثائق. حين درس ماضي موريس جولي، قام بزيارات إلى أرشيفات الصحف الفرنسية من تلك الفترة الزمنية، ولشد ما كانت دهشته إذ عثر داخل رزمة أوراق قديمة، أُعِدّت للإبادة، في أرشيف الجريدة المعروفة "**فيغارو**"، على نَصٍّ كتابِ جولي. كتب سكرتير

التحرير بخط يده، على هامش الوثيقة، أن جولي قد اضطرَّ إلى طباعة كتابه خارج حدود فرنسا، لاحتوائه على نقدٍ لاذعٍ للنظام في فرنسا.
صرّح لوسلي أنه قام بنفسه بالمقارنة بين نصوص الكتابين، فوجد 176 مقطعًا تم نقلها عن كتاب جولي إلى **بروتوكولات حكماء صهيون**. حيثما ذكَر الكاتبُ سياسة نابوليون، أدخل المزيفون "اليهود"، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة التمويه عن طريق إدخال تعديلات في النص.

قال إنه خصَّص في تقريره فصلاً لمختلف ناشري البروتوكولات، وليس لديه ما يضاف. أسوةً بهتلر في كتابه "كفاحي" Mein Kampf، وعلى غرار فلايشهاو في تقريره وشهادته، حاول الجميع اللجوء إلى الأساليب القديمة لاستخلاص صحة البروتوكولات من محض وجودها. كان منهم من امتنع، من قبيل الحذر والوقاية، عن ضمان صحة البروتوكولات. أورد على سبيل المثال الناشر الفرنسي "لمبلين" الذي لم يطلب من قرائه أبدًا تصديق حقيقة البروتوكولات، بل على العكس، أعلن أنه على استعداد لنشر أي مادة تنفيها.

نظر لوسلي إلى القاضي للتأكُّد إن كان قد استوعب الأسلوب. يا لهذا الذكاء! قال وأردف: على هذا النحو يمكن لكل واحد أن يعلن للملأ، دون الحاجة إلى إثباتات، أن أعضاء التنظيم الفلاني مجرمون كلهم ودون البشر، وكل ما عليه فعله، لمنع رفع دعوى ضده، هو أن يعلن أنه يتيح للضحية الدفاع عن نفسها!

لمزيد أسفه، قال لوسلي، لم تتوفر له، خلال المدة القصيرة التي حُدِّدَت له، إمكانية الحصول على مستندات لدحض ادعاءات فلايشهاور، لكنه تمكَّن من الحصول على مستند واحد: رسالة من رئيس الحكومة الروسية سابقًا، كرنسكي، الذي كان فلايشهاور قد اتهمه بإخفاء البروتوكولات لكونه هو نفسه يهوديًّا! إن كرنسكي ليس يهوديًا، قال الشاهد وقد علتْ شفتيه ابتسامة وهو يمدُّ يده

بالمستند إلى القاضي. إنه سليل كهنة مسيحيين، ولم يكن في حكومته يهوديٌّ واحد، وفي ذلك الوقت لم يكن قد سمع عن **بروتوكولات حكماء صهيون.**

"سأتناول الآن شهادة فلايشهاور"، أردف لوسلي. لشديد أسفه، وشديد استنكاره، لم يكن مفرّ من التطرق إلى هذه الشهادة. إنها بمجرّد ذكرها تسبب له الألم. قال وهو ينظر إلى وجه القاضي ليلمحَ فيه بصيصًا من التفهّم.

كيف يُثبتُ السيد فلايشهاور ادعاءاته؟ إنه يقتبس عن البروتوكولات ليثبت أن اليهود أشرار، ثم يستخدم كونهم أشرارًا ليثبت صحة البروتوكولات!

لقد طوّروا لهم أسلوبًا خاصًّا، وهم يكرّرون استعماله حدَّ الغثيان. إنهم حتى يزيّفون الزّيف نفسه! كل واحد من الناشرين يجيز لنفسه إجراء تغييرات في النص. يكتبون المقدمات، ويقتبس بعضهم عن بعض كمصدَرٍ ومَرجِع. يشوّهون المصادر اليهودية ويوردونها خارج سياقها، ويتجاهلون بشكل منهجي كل الإثباتات العلمية التي تنفي نظرياتهم.

يبدو الأمر حقًّا مثل نكتة رديئة، قال بلهجة اليأس. فمن جهةٍ نراهم يصفون اليهود كحكماء، خبثاء، يجيدون حبك الأحابيل، ومن جهة أخرى فإن هؤلاء الحكماء انتحلوا إنتاجًا أدبيًا بمنتهى الوضوح، وبطريقة بدائية قابلة للكشف بكل سهولة. ألم يكن بإمكان هؤلاء اليهود الحكماء إعداد خطة خاصة بهم، دون اللجوء إلى سرقةِ قصة موريس جولي الرمزية؟!

وبعد سرقتهم الأدبية السافرة هذه، يستمرون بنشر الأكاذيب المفضوحة التي لا يصعب دحضُها.

لم يكتفِ فلايشهاور بأن ينسب جولي إلى أصل يهودي، بل هو، بحسب رأيه الفذ، قد انتمى أيضًا إلى محفل ماسوني معيّن في باريس! والحقيقة، قال لوسلي مدققًا في تسجيلاته، هي أن هذا المحفل المعيَّن قد أُنشئَ بعد وفاة جولي بـــ 48 عامًا. ثم كيف يستطيع هذا الرجل أن يتحدّث بالرّوح ذاتها عن البناة الأحرار

وعن منظمة "بني بريت"[7]، وهو يعلم ألاّ علاقة بينهما. هنا أشار بامتعاض إلى تقرير فلايشهاور، محاذرًا لئلاّ يلمسه، وأردف قائلاً: هذا التقرير كله أكاذيب. إنه ليس أكاديميًا، إنه جدَليٌّ يفتقر إلى الأساس. لم تُرَاعَ في إعداده قاعدة واحدة من القواعد التي توجِّهُ الباحثَ الموضوعي. إنه أكثر من منشور دعاية لاسامية! كان ينبغي ألاّ يُسمَح بإبرازه للمحكمة!

بدا في وجه لوسلي الحرج العظيم وهو يصف تاريخ اللاسامية في سويسرا، الذي لم يخلُ من شديد الاضطهاد لليهود، وحتى الاغتيالات: "لسنا بحاجة إلى العودة إلى تلك الممارسات!" قال بصوت متأثر، "هل نسمح لهتلر أن يُملي علينا سياستنا تجاه مواطنينا اليهود؟"، تساءل مُقتبسًا مقاطع من كتاب كفاحي، "هل عَشِيَتْ أبصارُنا حتى لا نلاحظ أن هتلر قد تبنّى "الخطة اليهودية"، وأنه ينفّذ عمليًّا ما يتّهم به اليهود؟"

"إن كانت هناك مؤامرة عالمية، فإن من يديرها هم القوميون الاشتراكيون الألمان، وهي تشكّل خطرًا علينا جميعًا"، قال محذّرًا. البروتوكولات إذًا، وثيقة بذيئة. إنها أدب بذيء بَشِعٌ وخطير، يحرّض لارتكاب الإجرام.

"بماذا أفادت اليهود هذه البروتوكولات؟" سأل، "من هم أولئك اليهود الذين سيطروا على العالم كله؟ هل هم برنهايم، هيرشل وليـــفـــي الذين تعلموا معنا في نفس الفصل؟ وخدموا معنا في نفس الوحدة في الجيش؟ هل هم اليهود الذين حاربنا إلى جانبهم وتبادلنا التعاون عند اللزوم؟ أين هو العِلْمُ الذي يفيدنا بأن في عروق شطرنيكل وهرمان، ودانكي ويوليوس شطرايخر يجري

[7] بني بريت: منظمة يهودية عالمية تأسست عام 1843 في الولايات المتحدة الأميركية. من بين الأهداف التي أعلنتها المنظمة يوم تأسيسها، أنها تسعى من أجل توفير المساعدات لليهود الذين يتعرضون لملاحقات لمجرد كونهم يهوداً، وتعمل المنظمة من أجل تعميق الميزات الروحانية اليهودية بين اليهود، وتقديم العون والمساعدة للفقراء من بينهم. (المترجم).

دم آري أطهر وأنقى من دم اليهود، والبناة الأحرار، والاشتراكيين، والديمقراطيين، وذوي الأفكار الحرة؟"
دهش الجميع إذ رفع الشاهد صوته وانتصب ملء قامته قائلاً: "لو كان ذلك كله صحيحًا، لما رغِبتُ بالعيش في هذا العالم ولو دقيقة إضافية واحدة".
بإيماءة من يده، وغصّة في صوته، أعلن لوسلي أن ليس لديه ما يُضاف. انتهت شهادتُه.

"ليتنا نستطيع التنازل عن تلخيصاتنا"، همس البروفسور ماطي لجورج، "فقد أحاط لوسلي بكل شيء".
لكن القاضي أعلن أنه سيستمع إلى التلخيصات في الغد صباحًا.
فاستقبلوا التأجيل بسرور؛ لم يكن بينهم من يرغب بقول شيء بعد لوسلي.

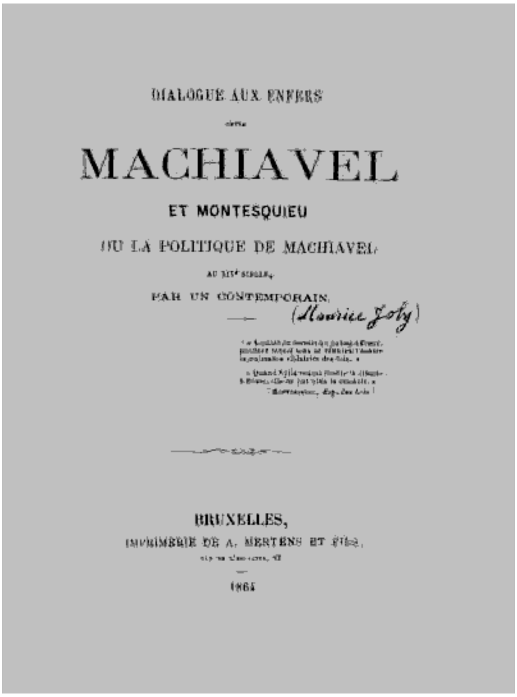
DIALOGUE AUX ENFERS
ENTRE
MACHIAVEL
ET MONTESQUIEU
OU LA POLITIQUE DE MACHIAVEL
AU XIXe SIÈCLE,
PAR UN CONTEMPORAIN.
(Maurice Joly)

BRUXELLES,
IMPRIMERIE DE A. MERTENS ET FILS,
1864

عن هذا الكتاب تم نقل مُعظم ما جاء في البروتوكولات

دامت استنتاجات جورج وتلخيصاته ستَّ ساعات. أبلغ القاضي أنه سيتناول في تلخيصاته موضوع البروتوكولات فقط، وسيتحدّث البروفسور ماطي عن المنشورات الأخرى ويتطرّق إلى الادعاءات القضائية.
أية منشورات أُخرى يعني؟ تساءل القاضي. كاد ينسى أن المدَّعين قد ذكروا في دعواهم مقالاً تشهيريًّا في إحدى الصحف.
كان جورج برونشفايغ يملك كل الخصال التي تميّز المحامين الكبار. والقاضي يدرك أن ذلك لا يُكتَسَبُ بالدراسة أو الخبرة. إنها هِبَة من الخالق. حين استمعوا إلى تلخيصات جورج أيقن رؤساء الجالية اليهودية أنهم أصابوا في مراهنتهم على إيداع هذه القضية التاريخية في عهدة محامٍ شاب غير متمرّس وغير معروف.
لقد بذل الكثير من التفكير، ليس في المضمون فحسب، بل وفي اللهجة ونغمة الكلام التي سيستعملها. كانت الحقائق جليَّة جدًا، بينما كانت ادعاءات الدفاع غير معقولة لدرجة أنه قرّر التعامل معها بنوع من السخرية. إذ كيف يمكن التعامل مع مثل هذه الترّهات بطريقة أخرى؟ قال للبروفسور ماطي الذي حذَّره من المبالغة، وذكّره أن القاضي حرص طوال المحكمة على معاملة المتهمين بفائق الأدب.
لكنه لم ينجح بذلك دائمًا، أجابه جورج، فقد فضحت أسارير وجهه أحيانًا نظرته إليهم.
"على كل حال، لا تقلق"، هدَّأ جورج من رَوعِ ماطي، "إن ما تراكم في داخلي من إحباط وغضب لا يمكّنُني من تأطير نفسي بالسخرية، فليس فيما يفعلون باليهود ما يُضحِك، وحتى لو أردتُ ذلك فإني لا أستطيع إخفاء غضبي".

في الليلة التي سبقت التلخيصات، تحدث جورج إلى شريكه أميل رآس. قال إن القاضي بات يعرف جيدًا كل حيثيات القضية، التي لم يتم نقضُها في أيٍّ من الشهادات. أمامه تقريران مفصّلان من

باومــــچرتن ولوسلي، وشهادتاهما الرائعتان ما زالتا طازجتين في ذاكرته. ألن يسيء استغلال صبر القاضي لو عاد ثانية فردَّد الحقائق والبيّنات؟

عليك أن تتصرّف طِبقًا لانطباعاتك، قال له إميل، لكن يجب ألاَّ تنسى أن الخُلاصات هي أهم اللحظات في القضية، ففي هذه المرحلة تُحاط القضية من كل جوانبها، وتُقدَّم البيّنات كلها في سياقها الصحيح. هذا ما يذكُرُه القاضي أكثر من أي شيء آخر حين يخرج من قاعة المحكمة ويبدأ التفكير بقرار الحكم. "إن الخطاب الذي ستلقيه غدًا سيتم الاقتباس عنه لسنوات عديدة. يجب أن تتناول القصة كلها. سيشكّل ذلك بطاقتك الشخصية. من يدري إن كان سيتسنّى لك مرّة أخرى الظهور في قضية بهذا الحجم وعلى هذا القدر من الأهمية التاريخية؟ لا تُهمل أي أمرٍ ذي علاقة لمجرَّد أنَّ لوسلي وباومــــچرتن قد تطرّقا إليه. إن ما يقالُ في هذه المحكمة سوف يُقتبس منه لسنواتٍ كثيرة. عليك أن تدأب لكي يقتبسوا عنك، فأنت جدير بذلك. لقد قُمْتَ بما فيه من المشقة ما يَفي".

"القضية ليست قضية شُهرتي"، أجاب جورج بهدوء.

جورج برونشفايغ كرئيس للجالية اليهودية في سويسرا

عندما قام ليدلي بأقواله، أُعجِبَ هو نفسُه ممّا كان لديه من الثقة بالذات، فأيقنَ أنه لا يمكن أن يكون على مستوى أعلى من الاستعداد.
"أقف هنا اليومَ"، قال، "لأتحدّث عن شيوخ صهيون. تلك الشخصيات الوهمية، ذات القدرة اللامحدودة، التي تقف منذ أجيال وراء كل حدث جهنّمي أتعَسَ شعوب العالم".
في هذه اللحظة رفع في الهواء الكتاب بحركة درامية. "لعلّك تظن، سيّدي القاضي، أن الكتاب قد ألّفهُ فريق من ذوي الأدمغة الأكاديمية، لكن مؤلفيه هم ثلاثة من الروس اللاساميين الرجعيين، كان بينهم اثنان عُرِفا كمن أعدّا المجازر لليهود. كنتُ أتوقع، سيدي القاضي، أن يحاولوا على الأقل أن يثبتوا لحضرتك صحة هذه الوثيقة الهزلية، لكنهم لم يفعلوا. ليتهم حاولوا على الأقل تنسيق ادعاءاتهم؛ سوف أبيّن في تتمّة كلامي أنهم لم يناقضوا بعضهم بعضًا فحسب، بل اختلقوا من حين لآخر ادعاءات جديدة ناقضت ادعاءاتهم السابقة.
قال إنه سوف يحاول الاختصار، لكن لا مفرَّ من العودة، بعض الشيء، على أمور بات يعلمها كل من في القاعة.
وإذ أومأ القاضي برأسه بالإيجاب، لخّص جورج الوقائع بخبرة عالية، متناولاً مقاطع من الشهادات، كما لو كانت أجزاء في لغز ضَخم راح يجمعها لبعضها، إلى أن انجلَت الصورة كاملة. وصف بلغة بليغة مثيرة كيف قام رتشكوفسكي وعملاؤه بتأليف البروتوكولات، وكيف نسخوا عن كتاب موريس جولي. أعاد نيلوس وأسرته إلى الحياة في قاعة المحكمة، وتطرّق إلى تورّط هنري فورد، من خلال حرصه على دمج الخلفية التاريخية والسياسية لكل مرحلة. اجتهد في أن لا يبدو واعِظًا. سبق وأن حذّره ماطي أن بإمكان الخبراء أن يلقوا المحاضرات المطوّلة في قاعة المحكمة، لكن القاضي لا يروقه الاستماع إلى مثل هذه المحاضرات من أفواه المحامين. تكلّمْ كمحامٍ، قال له أستاذه، فالمحامي يدّعي ولا يحاضر.

ما الذي يأسر ألباب الناس، ويجعلهم يجلسون على حواف الكراسي مشرئبين لئلا تفوتهم كلمة واحدة؟ سأل ليفشيتس نفسه وهو يجيل الطرف حوله. هل هو المظهر المادي المثير للإعجاب، القامة المنتصبة، النغمة الصوتية، سحر الشخصية؟ أم هي المقدرة على استعادة الأجواء، وإحياء الشخصيات التي لعبت دورًا في هذه القصة الخيالية، وسَرْدُ القصّة ببساطة ومصداقية، دون الضياع في بحر الوقائع؟ كلها مجتمعة، بل وأكثر، أجاب نفسه وهو لا يشعر كيف تمرّ الساعات.

تلك هي الحكاية كلها، قال جورج مختتمًا هذا الفصل من حديثه، باسطًا ذراعيه على الجانبين بحركة لا هي الثقة ولا هي الشك.
أصغى الجميع حابسي الأنفاس، أما هو فقد تريَّثَ برهةً ليتيح لهم التحرر من توترهم، لا بل للتهامس وجيرانهم. كان القاضي هو الوحيد الذي لم يأتِ بحركة، سوى أنه أومأ برأسه كمن يدعو جورج إلى الاستمرار.
لقد قضى الليالي الطويلة في تشكيل صورة ظهوره أثناء التلخيص. من الواضح أن البروتوكولات زائفة، ولم تكن تلك هي المشكلة الأساسية في نظره، فمن أجل إثبات أن الوثيقة هي "أدب بذيء" عليه دحض الادعاء بوجود مؤامرة يهودية، وإثبات الدوافع الحقيقية التي أدّت إلى إصدار تلك الوثيقة.

أدار وجهه، لأول مرّة، نحو المتهمين وقال بنبرة هادئة: أمام المحكمة ادّعاءان متناقضان، المرجو منها أن تقرر أيهما الصحيح وأيهما الكاذب. هل يشكل اليهود خطرًا على الإنسانية؟ وهل حقًّا يجتمع زعماؤهم في الخفاء للتآمر على هدم النظام السياسي والاجتماعي في البلاد المسيحية؟ وهل هم حقًّا في مراحل متقدّمة من تنفيذ خطتهم الشيطانية؟ وهل سيصحو العالم ذات يوم ليرى وقد تسلّط عليه أمير يهودا؟ حاول جاهدًا إخفاء السخرية في لهجته. إن كان الأمر كذلك، فإن قرار هذه المحكمة من شأنه أن ينقذ العالم، أما إذا كان ذلك كله كذبًا سافرًا وفرية بهدف التشهير، فإنها كذبة خطيرة لدرجة أن الأبرياء من الرجال والنساء

والأطفال، معرّضون ليكونوا ضحايا لها، ليس في سويسرا فحسب، وإنما في دول الجوار أيضًا، لا بل في العالم كله. هنا رفع من صوته قائلاً: إن كان الأمر كذلك، فإن من شأن هذه المحكمة ليس فقط إنقاذ كرامة شعب، بل إنقاذ حياة ما لا يُحصى من بني البشر.
"تلك هي، يا سيدي، المشكلة الحقيقية"، قال ووجهه إلى القاضي، "نظرًا لما يوضع هنا في كفّتي الميزان، فإني لا أستطيع تصورّ َ محكمةٍ تواجهُ مثل هذه المشكلة، أو قاضٍ ألقيَت على كاهله مسؤولية تفوقها ثِقَلاً".

إن قاضيًا يُطلَب منه أن يفصل بين الحق والباطل، إن لم يملك مقدرة خارقة، يقف أحيانًا إزاء مهمة مستحيلة. لكن الأمر يختلف في هذه الحال، أضاف آذنًا لنفسه بابتسامة خفيفة لتبديد التوتر. لقد أخذ الدفاع هذه القضية بنوع من الاستهتار بالمحكمة، ينطوي على إهانة للذكاء البشري؛ فهل ثمة متهم يجرؤ على وضع أكوام من الادعاءات التي لا أساس لها دون أن يدعمها ولو بجُزَيء من بَيِّنَة؟ هذا ما فعله المتهمون بالضبط، قال وهو يشير إليهم ببنان الاتهام. لقد قذفوا بالأوحال، أسمعونا الخطابات الوقحة، استغلّوا هذه المحكمة كمنبر لدعايتهم الشريرة، لكنهم لم يفعلوا الشيء الوحيد المشروع في هذه المحكمة: لم يأتوا بأية بيِّنة تدعم قصتهم الخيالية.

لو كانت هذه محكمة عادية تبحث أمر وثيقة زائفة، لأنهى المدّعون ادعاءاتهم في هذه المرحلة، حيث أن عبء الإثبات يقع على المتهمين؛ فمن يروّج فرية عليه إثبات صحتها. إن هؤلاء المدّعين – هنا أشار إلى ممثلي الجالية الجالسين خلفه – لا يُطلب منهم إبراز الأدلة لدحض الأكاذيب، لكنهم بادروا إلى فعل ذلك لأن هذه الكذبة قد جاوزت كل الحدود ونتجت عنها أضرار تفوق كل تقدير.
كان بإمكانهم ألاّ يبذلوا مزيدًا من الجهد، وأن يطلبوا من المحكمة الحكمَ لصالحهم، نظرًا لأن المتهمين لم يثبتوا دفاعَهم. لكن حُكمًا

كهذا، في نظرهم، عديم القيمة. إنهم يلتمسون من هذه المحكمة أن تحكم بشكل قاطع، واستنادًا إلى البيّنات التي أُبرِزَت للمحكمة، بأن **بروتوكولات حكماء صهيون** سرقة أدبية وقحة، وبأن الادعاء بوجود مؤامرة يهودية للسيطرة على العالم كذبة بشعة.

التلخيصات في قضية معقدة هي اختبار لكل محامٍ؛ فهو يقف أمام مئات، أو ربما آلاف الصفحات من المَحاضر، ويعارك أكوام الوثائق والمستندات، يحرص على التسهيل على القاضي الذي قد يسهو عن بند هام، يحاول جمع الحقائق وبنود القانون في مجموعة منطقية واضحة – كل ذلك، وأكثر منه بكثير، يُطلب من المحامي لإعداد خطاب تلخيص ناجح. إن فشلاً في مثل هذا الاختبار من شأنه أن يُودِي بكل ما أنجزه أثناء مناقشة القضية. يقوم برونشفايغ بعمل جيد، كتب ماطي في بطاقة إلى ليفشيتس، كمن يباهي بتلميذه. يا له من نصٍّ مكثَّف. فكّر ليفشيتس، لماذا لا يقول: يا له من نص "عبقري"؟

أحسَّ جورج أن الجمهور في قاعة المحكمة ينصتُ لكل كلمة يقولها، لكنه ينظر إلى القاضي. أخذ الآن يصف عملية التزييف، مُقتبسًا عن الأميرة ردزيفيل، وآرمند دي شايلا، وفيليب غراقــز، رابطًا ما بين رواياتهم والشهادات المثيرة التي استمعت لها المحكمة. ماذا لم يكن للمحامين أن يبذلوا في سبيل هذه الفرصة ليقدموا للمحكمة شهودًا من هذا النوع؟ هل سوف يتسنّى له مرة أخرى معالجة قضية كهذه؟
تحدّث جورج ساعة طويلة دون أن يقاطعه أحد. توقف الآن برهة وصبَّ الماء في كوب، من إبريق زجاجي أعدَّ سَلَفًا، وقبل أن يوجه الكلام إلى القاضي، وضع أمامه كومة من الأوراق. وصل الآن إلى فقرة هامة في تلخيصه، وهو واثق من نفسه، موقنًا أن كل قاضٍ لا بد وأن يقتنع من الحجج التي ينوي عرضَها.
من المهم أن نذكر، استهلَّ بصوت هادئ، أن هذه القضية تدور حول وثيقة. وهو يَوَدُّ الآن أن يتطرّق إلى تلك الوثيقة المجهولة

المسمّاة "**بروتوكولات حكماء صهيون**"، الوثيقة التي أطلّت ذات يوم فجأةً، من مكان مجهول.
تحدث إلى القاضي كما يتحدث المرء إلى صديقه، وكأنهما وحدهما في قاعة المحكمة، وكأن القاضي هو وحده الذي يفهم لغته. تكلّم برويّةٍ، مميّزًا كل كلمة عن الأخرى، معطيًا لكل كلمة نبرتها الخاصة.

لم يُعثر أبدًا على وثيقة أصلية، ورغم ذلك، فقد صدرت كل طبعات البروتوكولات وكأنها نسخة أمينة عن محاضر الجلسات السرية التي لم يتم التعرف على هوية أحد من الذين شاركوا فيها. لو أردنا فحص مصداقية هذه الوثيقة، لبرزت لنا على الفور عدة أسئلة: إن كانت هناك ذات مرة وثيقة أصلية كهذه، فأين اختفت؟ من رآها؟ بأية لغة كُتِبَت؟ أين ومتى كُتِبَت؟ من الذي كتبها؟ من كان "حكماء صهيون" أولئك الخفيّون ومن مثّلوا؟ لحسن الحظ، قال بسخرية ظاهرة، إن كل واحد من الناشرين، في كل اللغات، قد عرض إجابات عن هذه الأسئلة، وما علينا الآن سوى أن نتفحَّص هذه الإجابات، قال باسطًا يديه على الجانبين.

حتى لو كانت هناك طبعة واحدة فقط، لكان علينا أن نتفحّصها، فربما تكون كاذبة. فما هو الحال وعندنا طبعات عديدة متناقضة؟ أيها نطلب من المحكمة أن تعتمد؟ ترك السؤال يدوّي دون إجابة في أجواء المحكمة قبل متابعة أقواله. لاحظ التهامس يدور في القاعة، وأدرك أنه أثار الفضول.
هناك أمر واحد يتفق فيه الناشرون: أن البروتوكولات "الأصلية" لما يسمّى "**حكماء صهيون**" وصلت في مرحلة معينة، وبطريقة غير شرعية، ليد إنسان معيّن حوّلها بدوره لأيدي الغير. لكنَّ أحدًا لم يحاول أن يوضح ماذا كان مصير الأصل الذي نُقلَت عنه تلك النسخات والترجمات. وأضاف بروية كالغارق بالتفكير: نحن إذًا بصدد نسخات لوثيقة عَلِمنا عن وجودها من أفواه أشخاص لم يذكروا حتى أنهم رأوا الأصل في حياتهم.

لا يمكن لنسخة أن تحلَّ محلَّ الأصل، إلا إذا كان ثمة دليل قائم بذاته على أن مثل هذا الأصل كان قائمًا فعلاً، وعلى أن هذه النسخة مطابقة لذلك الأصل. فإذا كان اختلاف حول وجود المستند الأصلي، يستحيل أثبات وجوده عن طريق إبراز نسخة غير مصدَّقَة وغير مُعتَمَدَة.

حين سُئل الناشرون، باللغات المختلفة، عن المصدر الأصلي للبروتوكولات، أشاروا كلهم إلى نيلوس، ونادرًا ما أشاروا إلى بوطمي. المترجمون كلهم استعملوا الطبعات الروسية تلك. لقد تم تقديم كلٍّ من نيلوس وبوطمي كرَجُلَي دين، مستقيمين، وقد استقبل العالم إيمانهما بصحة البروتوكولات كضمان لصحتها. بناء عليه، يتوجب البدء بتفحّص تلك الإصدارات الروسية التي شكّلت بداية القصة كلها.

لا يكفي أن الظروف لم تهيّئ للمحكمة فرصة الاستماع إلى الشهود الذين، كما لو أنهم، سلّموا البروتوكولات إلى نيلوس أو بوطمي، بل إن هؤلاء الشهود ليسوا اليوم على قيد الحياة، ولا يمكن استدعاؤهم للشهادة. بناء على ذلك، ليس بإمكان القاضي أن يراهم على منصة الشهود، ويستمع لأقوالهم، ويستجوبهم بشأن التناقضات بين إصداراتهم المختلفة، غير أن ما يمكن للمحكمة أن تفعله هو أن تتمعَّن بما نشروا من الحكايات، وأن تقيّمها، وتقارنها ببعضها وبشهادات الآخرين، وأن تفحص مدى ما فيها من المنطق. يُرجى من المحكمة أن تفحص إلى ماذا أسندَ الناشرون الروس "الكفالة" الشخصية التي منحوها لهذه البروتوكولات.
إن من يقارن بين المقدمات المختلفة للبروتوكولات يستنتج على الفور التناقضات الجوهرية بين الإصدارات المختلفة في نقاط أساسية. تظهر التناقضات على نحو مثير للاستغراب، ليس بين إصدارات مختلف الناشرين فحسب، وإنما بين الإصدارات المختلفة للناشر ذاته.

بغية عدم الإثقال على المحكمة، أعدّ جورج قائمة بهذه التناقضات وقدَّمها للقاضي، وقدّم نسخة عنها للجمهور، حسب المتَّبَع.
هل المتهمون على استعداد لأن يقولوا للمحكمة ما هي الطبعة التي يختارونها، وأن يوضحوا لماذا يدعمون النسخة الفلانية بالذات؟ سأل جورج موجِّهًا الكلام إليهم.
هل سرَقت البروتوكولات الأصلية سيدة روسية نبيلة، أم أن التي سرقتها هي عشيقة أحد كبار الماسونيين؟
هل سلَّمها خائن يهودي إلى جاسوس روسي، أم أن الشرطة الروسية ضبطتها في بيت يهودي مجهول؟
هل هي سُرِقَت أم نُسِخَت؟
هل تم الحصول عليها من محفل ماسوني، أم من قاصَةٍ صهيونية، أم من بيت ثيودور هرتسل؟
هل عُثر على الأصل في فرنسا، أم في سويسرا، أم في فــيِنّا؟
هل أُحضِرَت إلى روسيا عام 1895، أم 1897، أم 1901؟
هل كُتبَت البروتوكولات "الأصلية" بالفرنسية، بالروسية أم بالعبرية؟
هل الذي ترجمها رجل مجهول أحضر الترجمة إلى بوطمي، أم أنها أُحضِرَت إلى نيلوس مُترجَمَةً عن الفرنسية، وقام هو بترجمتها إلى الروسية؟
هل تم تأليفها أثناء انعقاد الكونغرس الصهيوني في بازل عام 1897، أم أنها كانت موجودة قبل ذلك؟
هل الذي ألّفها هو ثيودور هرتسل، أم آشر غينسبورغ المعروف باسم "أحاد هعام"، أم هو الحبر أهرنبرايس، أم أنها محاضر جلسات "الجمهور" اليهودي؟
في هذا السياق، عليّ أن أشير، قال جورج، إلى أن هؤلاء القائلين بأن البروتوكولات قد كُتِبَت أثناء انعقاد الكونغرس الصهيوني، لم يوضحوا أبدًا لماذا لم تُكتَبْ بالألمانية، وقد كانت اللغة الرسمية في الكونغرس.

جمع جورج أوراقه، رتبّها بحركات بطيئة وأعادها إلى حقيبته، منتظرًا مرور بضع دقائق لتستقرَّ أقواله في وعي الحاضرين. لم

تكن هناك حاجة للإيضاح بأن كل النصوص التي قرأها عن المكتوب، على نحو استعراضي، منقولة عمليًّا عن مختلف إصدارات البروتوكولات.
حسب نظرات المتهمين، أيقن أنه حصل على نِقاط.

بهذا انتهى من الفصل الروسي، أفاد جورج، حان الوقت للتّطرّق إلى باقي الدول الأوروبية حيث بدأت البروتوكولات تنتشر عام 1919.

كانت أوروبا بعد الحرب ناضجة لاستيعاب وثيقة من هذا النوع؛ فنتيجة اليأس المتفشي بين الجماهير من نتائج الحرب، كان الناس على استعداد حتى لهضم ترّهات من هذا القبيل.
كانت البداية في ألمانيا، حيثُ أسعد اللاساميّين المتطرفين أن يتبنوا تزييفًا فاضِحًا يتهم اليهود بكل الفظائع التي ارتُكِبت في الحرب التي بدأوها هم، وبطبيعة الحال، بنتائج تلك الحرب. خيّم الصمت التام على القاعة حين تناول جورج برونشفايغ رزمة مستندات وراح يقرأ فيها وصفًا وأرقامًا عن خسائر اليهود في الحرب. "تلك هي الحرب التي يسميها السيد فلايشهاور 'المسلخ اليهودي'." واليوم تقف ألمانيا في مقدمة ناشري هذا التزييف المُريع. إلى أي مدى يسمحون لأنفسهم بهذه المساخر؟ صاح جورج بينما لوّح بنسخة من الجريدة الألمانية Voelkischer Beobachter مؤرخة 13 مارس 1933. عندما يقوم يهود الدول الأخرى بمقاطعة البضائع الألمانية، ردًّا على الاضطهاد الشديد لإخوتهم في ألمانيا، تصف الجريدة هذه المقاطعة بأنها تنفيذ للخطة اليهودية، وتستشهد باقتباس عن **بروتوكولات حكماء صهيون!**

لكنهم لا يكتفون باستغلال هذه الوثيقة البشعة ضمن حدود بلادهم، بل لا يكتفون بتصديرها إلى سويسرا، وها هم يقفون أمامنا في هذه القضية، يوجهون من وراء الكواليس خطوات الدفاع، ويجرؤون على أن يبعثوا إلينا داعية نازيًّا تحت ستار "الخبير".

لا تعدم هذه الدولة النازيين فيها، أضاف مطأطئًا رأسهُ بأسىً، ثم فاجأ الحاضرين إذ انتشل من حقيبته قائمة بفظائع ارتُكِبت في سويسرا ضد اليهود، بما فيها الاعتداء على المدافن اليهودية. يمكن لسويسرا الاكتفاء بما لديها من اللاسامية، قال بلهجة ساخرة، وهي ليست بحاجة لاستيراد السم الألماني من جارتها خلف الحدود.

في القسم الأخير لخطابه تناول جورج "تقرير الخبير" فلايشهاور. "استمعنا إلى أقواله على مدار خمسة أيام كاملة، ولم نقاطعه. نحن اخترنا بروفيسور ذا شهرة، أما هم، فمن أجل التهجّم على يهود سويسرا، استوردوا "خبيرًا" ألمانيًّا، أسمعَنا خطابًا تحريضيًا همجيًّا في قناع شهادة. من الجدير بالذكر أنهم لم ينجحوا في العثور على أي خبير سويسري على استعداد لدعم ادعاءاتهم". هنا استدار إلى فلايشهاور مشيرًا إليه بيده: "إن هذا الرجل قد أهان اليهود وشهَّر بهم في هذه القاعة على مدار خمسة أيام. اتهمَنا بشهادة الزور، بالاغتيال، بتسميم الآبار، بعمليات الخطف، بنشر الأدب البذيء، بالزنى، بالاعتداء الجنسي على الأطفال، بتلفيقات الدم، وبتعدد الزوجات وغيرها. إنه عمليًّا قام بنسخ الفصلين 6 و 7 من القانون الجنائي في بيرن، واتهم اليهود بكل الجنايات الواردة فيهما. لقد شعَّ فرحًا كلما توفر له دليل عن يهودي ارتكب جناية، وكأنما لا وجود لمجرمين بين المسيحيين، وكأن المسيحيين لا يرتكبون في هذه الأيام بالذات جرائم ضد الإنسانية، سيطالَبون بسببها، يومًا ما، بالمثول أمام محكمة التاريخ".
من خلال تصفحه لتسجيلاته، اقتبس جورج أناشيد ألمانية مجّدَت قتل اليهود. "هذا ما يريد السيد فلايشهاور أن نستورد من الدولة التي وراء الحدود".
لا تعني فلايشهاور حقيقة أن زعماء العالم، بمن فيهم رؤساء الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية، قد أقرّوا أن البروتوكولات مزوّرَة. هنا وضع جورج أمام القاضي وثائق وقّعها رجال كنيسة ألمان، وأضاف بهدوء: "اقتضى الأمر جرأة عظيمة لنشر مثل

هذه الوثائق في ألمانيا هذه الأيام، حيث الخطر يتهدد محض وجود الكنيسة".

أوضح للقاضي أنه كان بينهم من طلبوا عزل فلايشهاور كخبير، لكونه داعية شهيرًا للاّسامية، لكنَّ آخرين يعتقدون أن الشهادات التي أدلى بها شهودهم في المحكمة في غاية الإقناع، لدرجة أنه ليس حتى بمقدور إبليس نفسه أن ينكر حقيقتها. لم يدركوا ما بإمكان فلايشهاور أن يفعل، قال بلهجة المندهش، إنه قادر على تصوير الأبيض أسودَ والأخضرَ أحمرَ. رغم أن كل الرايخ الثالث يقف وراءه، فقد بدا هنا مثل داود الصغير مقابل جوليات الجبّار في زيٍّ اليهودية العالمية. لكن لا شك أن القاضي لن يقعَ في هذا الشرَك. لقد استخدم هذا الرجل كل الأسلحة الصَّدِئة المعروفة، بدءًا بفرعون وانتهاءً بتشمبرلين ويوليوس شطرايخر وكل ما بينهما، مزيّفًا تواريخ الأحداث التاريخية دون أن يرمش له جفن. تراه إذا افتقر إلى "الحجّة" يلجأ إلى توجيه الإهانات، ويدّعي فيما يدّعي بأن اليهود يدْعُون إلى معاملة المسيحيين معاملة الكلاب".

بدا عليه التأثر الشديد، لكنه أخَفضَ صوته بعد أن انتبه إلى إشارة من البروفسور ماطي.
لم تكتفِ الصحافة الألمانية بتغطية هذه القضية، بل إنها تتصرفُ وكأنَّ المحكمة ملكٌ لها. استغلّ فلايشهاور هذه المحكمة السويسرية من أجل بثِّ السموم الألمانية القومية-الاشتراكية ضد اليهود. لم يكن من المفروض السماح له بفعل ذلك!
في المقابل، فإن المدَّعين لم يعتمدوا على اليهود أو على من عُرِفوا كأصدقاء لليهود، فاختاروا البروفسور باومـــجرتن، وهم يدعمون وجهة نظر الخبير لوسلي، الذي عيّنته هذه المحكمة، دعمًا تامًا، فكلاهما خبيران موضوعيّان ذائعا الصيت، وكلاهما غير يهوديين.
استخدم فلايشهاور التلمود، بكل صلافة، ليثبت وجود مؤامرة يهودية. لا أجدُ ضرورة لإنكار أو نفي تلك الإدعاءات. لقد اعتبر

مشاهير العلماء التلمود كإنجاز مُدهش للحكمة البشرية، للحضارة والفكر. من السخرية بمكان محاولة الدفاع عنه في المحكمة، فالتلمود ليس بحاجة إلى ذلك.
اسمحوا لي، قال، أن اقتبس عن باحث معروف للتلمود، عالم ألماني يُدعى رويخلين، كثيرًا ما يقتبسون عنه. قال ذلك العالم: "لم يوجَد التلمود لكي يدوسه الجهلَةُ بأقدامهم القذرة ويباهوا بأنهم مُلمّون به".
إنه موسوعة، لا كتابًا مقدّسًا. نعم، إنه يحتوى على اصطلاحات لا تناسب المفاهيم الحديثة للأخلاق، لكن ذلك ينطبق على كل كتابات ذلك العهد. يقول التلمود إن العالم يقف على ثلاثة أمور: الصدق والعدل والسلام. لم يختر السيد فلايشهاور هذا الاقتباس"! لم يكتفِ بما نقل عن الأدب المعادي للسامية، فاقتبس عن وثائق زائفة لا وجود لها. تعمّد أن يتجاهل وبإصرار كلَّ حجّة تناقض ادعاءاته، حتى أنه زيّف اقتباسات من أقوال غيتّه.

كان واضحًا من لهجة جورج أنه يعتبر ذلك جريمة عُظمى.

ارتأى جورج أن أفضل السبل هي أن يُظهر فلايشهاور على نحوٍ مثير للسخرية. لكنه من حين لآخر غلبت عليه أمارات الجدّ واستشاط غضبا.
إن الانتحالَ الأدبيَّ بَيِّنٌ ظاهرٌ حتى للأعمى، لكن كيف ينظر إليه فلايشهاور؟ إذا استحال نفي الانتحال، فإن موريس جولي نفسه يهودي، وهذا ما ادّعاه أيضًا بالنسبة لفيليب غراقــز ولوسلي. بإمكان طفل صغير أن يميّز أن "خطاب الحبر" قد نُقلَ عن كتاب غيطشِه، عن الفصل الهزلي الذي يحتويه حول اللقاء في المدافن اليهودية في براغ. لكن فلايشهاور لم يجد صعوبة في العبث بالتواريخ وإظهار خطاب الحبر كمصدر لكتاب غيطشِه؛ فالتواريخ، مثلها مثل الحقائق، غير مُلزمة لهُ.

"انتشل فلايشهاور من قبعته، كما يفعل الساحر، أسماء منظمات يهودية: بني بريت، بني موشيه، آليانس – وكلها منظمات

محترمة، ظاهرة لعيون الناس، ذات سُمعة طيبة أكيدة – لكنه قدّمها كلها، ودون أي إثبات، كمنظمات تأتمر بأمر الحكومة الشيطانية اليهودية، وكَرُسُل لـــ "**شيوخ صهيون**".

رفع في هذه اللحظة صوته: "لا وجود لمؤامرة يهودية، لكنَّ هناك مؤامرةً لاسامية عالمية، تهدف إلى إبادة الشعب اليهودي، مؤامرة تعلن عن ذاتها في الوثائق، في الكتب، في المقالات، في الخطابات، في الرسوم الكاريكاتورية وفي الملصَقات. هؤلاء الشيوخ الآريون، المتمركزون في إرفورت، وعلى رأسهم هذا الرجل"، قال مشيرًا إلى فلايشهاور، "أقسموا على تدمير الحريات، ومكافحة الليبرالية، والاشتراكية، والديمقراطية. هذا التنظيم العالمي يستخدم ملاحقة اليهود في سبيل الدفع قُدُمًا بأهدافه الفاسدة، وهم يستغلون هذه القاعة لترويج مبادئهم ومخططاتهم".
"الحمد لله"، أضاف بصوت راجف لشدة التأثر، "أنه ما يزال هناك أناس مثل باومـــچرتن ولوسلي".

أوشك الآن على إنهاء خطابه، وراح يشدّد على كل كلمة: "إن من يحرّض على اليهود ويصوّرهم دون البشر، كحيوانات مفترسة، هو المسؤول عن الدماء المهراقة. حين تصطبغ الأرصفة بدماء اليهود، فسوف يُتّهم اليهود بذلك أيضًا، وليس قاتلوهم".

أدار وجهه عندئذ إلى اليهود بين الجمهور " نحن ندافع عن أنفسنا في مواجهة قوى الظلام. علينا أن نكافح حتى آخر نقطة من دمائنا، لكن علينا في الوقت ذاته أن نعلّم أطفالنا، كما نعلمهم في كل مدارس اليهود في سويسرا، أن كل إنسان خُلق على صورة الله، وأن كل إنسان قريبٌ لنا. لا تفعل لصاحبك ما تكرهه لنفسك، هذا ما تُعلمنا توراة إسرائيل". عاد فاستدار نحو القاضي: "إنَّ موكّليَّ قد أثقلوا عليَّ جدًّا حين أوصوني بالامتناع عن الرد على الاستفزازات. احتجتُ إلى الكثير من ضبط النفس وقهر الذات الصارم. وقد فعلتُ ذلك من منطلق ثقتي بأن العدل يُصنَعُ هنا، ومن منطلق إيماني باستقامة جهاز القضاء السويسري. أختتمُ

الآن، ومن الآن فصاعدًا نرتقبُ كلنا أن تمثّل مسيرة الديمقراطية في بيرن الثقة التي نوليها جميعًا بها. نُصلّي من أجل أن تظهر الحقيقة وتنتشر من هذه القاعة، لتضمن لنا جميعًا مستقبلاً أفضل، بعيدًا عن الكراهية والعنف، مُفعَمًا بروح محبة الإنسان".

خسارة أن القضية لم تنتهِ عند هذا الحد، فكّر ليفشيتس. لكنها لم تنتهِ. أثناء خروجهم من القاعة بدا على الجميع أنهم غارقون في التفكير. لم يكن حتى مجالٌ لتهنئة جورج. سيفعلون لاحقًا، في جو من الخصوصية، وليس أمام الجمهور.

وكما تنبأ إميل رآس، نشرت الصحف أجزاء كثيرة من خطاب جورج برونشفايغ التلخيصي. أما هو فقد كان أكثر إرهاقًا من أن يتمكن من مطالعة الصحف. انتظرَ بفارغ الصبر انتهاء المحكمة. أدرك في قرارته أنه قام بكل ما بوسعه، والآن بات كل شيء بيد غيره، لكنه استمع في اليوم التالي إلى تلخيص البروفسور ماطي.

استهلَّ البروفسور ماطي بقوله: "للأسف الشديد، فقد كانت اللاسامية موجودة دائمًا في سويسرا، غير أننا نشهد منذ عام 1933 نوعًا جديدًا من اللاسامية المستوردة من خارج الحدود. إن أصداء الانقلاب السياسي في الدولة المجاورة تدوّي أيضًا في سويسرا. في الدولة المجاورة تنمو أفكار جديدة، والأفكار، كما تعلمون، لا تخضع للجمارك. والدولة المجاورة معنيَّة بنشر هذه الأفكار خارج حدودها. لمزيد الأسف، فإن هذه الأفكار المسمومة تجد أحيانًا تربةً خصبةً في هذه البلاد".
"بين هذه الأفكار المستوردة نجد انبعاث الكراهية لليهود. في سويسرا ما يكفي من اللاسامية الراقدة. للناس أن يحبّوا أو يكرهوا الآخرين، طالما أنهم يعبِّرون عن آرائهم بشكل لا يتعارض مع القانون والقِيَم المألوفة. لكن الأفكارَ المستوردةَ من ألمانيا لا يجب أن تكون مقبولةً لدى أي مجتمع بشري يعيش ضمن نطاق القانون".

إن لليهود تاريخًا طويلاً حافلاً بالمعاناة، وهم لم يعتادوا الردّ بالتطرّف. حاولوا مكافحة هذه الظاهرة الجديدة بالتوجه إلى السُّلطات، لكنّها أحالتهم إلى المحكمة. "لذلك، سيدي القاضي، يتواجد هنا زبائني". أعلن ببساطةٍ وَقورَةٍ، وتكلّم كعادته بهدوء وبلهجة موزونة، كأنما يحاضر للطَّلَبَة. كان بروفيسور ذا صيت ذائع، وقد حظي باحترام المحكمة له أيضًا.
قال: لا بدَّ لي من الإشادة بالنظام القضائي السويسري، إزاء ما أظهرته المحكمة من الصبر من خلال استماعها للشهادات أيَّامًا طويلة. "إننا نتناول هنا موضوعًا في غاية الأهمية، يقتضي العناية القصوى".

في هذه اللحظة فاجأ البروفسور ماطي المحكمة إذ أعلن أن المدّعين يلغون دعواهم ضد ثلاثة من المتّهَمين، الذين لم تثبت تهمهم بالقدر الكافي. كان اتهامهم في حينه نتيجة عدم توفر المعلومات الكافية بشأن دَورِ كل فردٍ من الأفراد في القضية. بقي متهمان اعترفا بمسؤوليتهما عن المنشورات موضوع المحكمة: ثيودور فيشر وسيلــڤــيو شنِل.

"لكن الأهم من إدانة هذَين المتهمين"، قال البروفسور ماطي وهو يمسح نظارتيه، "هو شجب أفعالهما".

وكما توقّع الجميع، فقد افتتحَ بالحجج والتعليلات القضائية. بصوت جاف، يكاد يكون رتيبًا، ذكر البنود 14، 15 و16 من قانون مقاطعة بيرن الخاصة بـــ "الأدب البذيء". لم يكن من قبيل الصُّدَف استعمال المشرّع للمصطلح "بذيء" دون أن يجهد نفسه في تعريفِهِ. أحد القضاة الأمريكيين الكبار، حين طُلِبَ منه تعريف المصطلح "بورنوغرافيا" قال إنه لا يجد له تعريفًا مناسبًا، لكنه لا يجد أية صعوبة في تمييز البورنوغرافيا حين تصادفه. بهذه الروح يمكن للمحكمة، التي تناقش موضوعًا ذا أبعاد تاريخية، أن تقرّر أنه من الصعب تعريف "البذاءة" لكن من

السهل تمييزها. هل ثمة إصدار تليق به كنية "البذاءة" أكثر من **بروتوكولات حكماء صهيون؟**

لكي يُعتبَر النشر "بذاءة" ليس من المفروض أن يكون زائفًا، إذ أن نشر الوثائق الأصلية أيضًا، التي ليس فيها شيء من الكذب، قد تشكّل سببًا للتجريم والإدانة بموجب بنود القانون هذه. لكن، هنالك طبعًا أهمية عُظمى لحقيقة كون النشر كاذبًا، متخفّيًا في هيئة تخفي حقيقته. بناء على ذلك، لا يمكن للمحكمة الامتناع عن الحسم في موضوع هوية مؤلف البروتوكولات.

ادّعَوا طوال السنين أن البروتوكولات قد تم تأليفها في المؤتمر الصهيوني في بازل، حيث اجتمع قادة الشعب اليهودي ليخططوا لسيطرتهم على العالم المسيحي. لا عجب في أن المتهمين، على ضوء الشهادات المدهشة التي أُسمِعَت في هذه المحكمة، قد راحوا يبحثون عن أفكار بديلة؛ فهم يدّعون الآن بأن المؤامرة اليهودية كما وردت في البروتوكولات، هي جزء لا يتجزأ من الديانة اليهودية، من التقاليد، ومن الفلسفة المنعكسة في روح اليهودية، حتى وإن كانت الوثيقة ذاتها غير حقيقية.

موجِّهًا الكلام إلى القاضي مباشرة، كمن يخاطب زميلاً في المهنة، أضاف ماطي: "لا بدَّ أنك، سيدي القاضي، قد صُدِمتَ مثلي لكون أحدهم يتجرأ على مثل هذا الادّعاء السخيف أمام هيئة قضائية. هل يجرؤ أحد على الادعاء، مثلاً، بأن لوحة معيّنة قد رسمَها الرسَام هودلر، لمجرّد أنها لوحة جيدة تُشبه لوحة له، إن كان قد رَسَمها هو أو لم يرسمها؟"
البروتوكولات هي تزييف، إن كان موريس جولي من أصل يهودي أو لم يكن من أصل يهودي! وهي مزيّفة إن كان مؤلفها يهوديًا أو كان من الأغيار! يكفي التحديد أنها ليست من إنتاج الزعامة اليهودية!

في سبيل إثبات ادّعائهم بأن البروتوكولات كُتِبَت أثناء انعقاد موتمر بازل، كان بإمكان المتهمين أن يعملوا بحسب إحدى ثلاث طُرُق. هنا رفع ثلاث أصابع، وراح يقبضُها الواحدة تلو الأخرى وهو يعدد الطرق: عن طريق الاقتباس من بروتوكولات الكونغرس – لكنهم لم يفعلوا. عن طريق تقديم شهود شاركوا في تلك الجلسات السرية– ليس فقط أنهم لم يفعلوا هذا، بل إن المدّعين قد أحضروا صَفًّا من الشهود الذين شهدوا بالعكس، فحتى مسجّلي المحاضر ليسوا يهودًا. وأخيرًا، عن طريق شهادة خبير يقدم شهادة موثوقًا بها على مستوى أكاديمي لإثبات الادعاء – وطبعًا هم لم يفعلوا ذلك أيضًا.

إنه يتكلم بلهجة فيها حذلقة، وموضوعية، لكن هذه النغمة الأكاديمية صحيحة جدًّا، فكَّر جورج.
إن من يصرُّ على الاستمرار بهذا الكذب، يأخذ على نفسه المسؤولية الجنائية، أضاف ماطي. الوثيقة التي تصوّر أمّةً بكاملها كعصابة مجرمين لا بدَّ من اعتبارها مادّة بذيئة. ليس من حق مثل هذه المنشورات أن تنضوي تحت مظلة حماية حرية التعبير وحرية الصحافة. نأمل أن يساعد قرار هذه المحكمة على إبعاد منشورات من هذا النوع، وإلى الأبد، عن المسرح السويسري.
هنا أثار استغرابَ الجميع إذ رفع صوته هو الآخر، فقال:
"إن مصدر هذه المنشورات ليس عندنا، ولسنا بحاجة إليها. لسنا بحاجة إلى صحيفة مثل "شهود" (Eidgenossen) التي تقلّد الشطيرمر الألمانية".

وبينما ترك البروتوكولات لبرهة، استأذن بالتحدث عن مقال حذَّر الفتيات السويسريات من الرجال اليهود. قال إنه لم يقرأ في حياته شيئًا أكثر سوءًا وأشد إثارة للغضب. إن هذا المقال يصوّر اليهود كلّهم كمرتكبي جرائم جنسية! "لم يُكتَب هذا المقال بيد سويسري"، أعلن بتأثر وقد بدت على وجهه أمارات الغضب. "لقد جاءَنا من برلين! إن من يسمح لنفسه بنشر مثل هذه القذارة لا بدَّ وأنه يعتقد

بأن السويسريين أغبياء! إن نتائج هذه المحكمة لا تعني اليهود فقط، بل إنها تعني كل مواطن سويسري"!

أخفضَ القاضي نظره، وكأنه يشاطر في حرجه المتحدّث الذي استمرَّ بالتعبير عن غضبة.
"حين تقوم دولة مجاورة بإغراق سويسرا بمثل هذا المنشورات الإجرامية، فإن ذلك يشكل خطرًا على محض وجودنا. إن محاولة إقناعنا بأن نُجَرّدَ اليهود السويسريين من حقوقهم، لَهي استبداد مَحض.

بعد قليل من التريّث، عاد ماطي إلى نبرته الأكاديمية الهادئة.
"الحرية، وليس القمع، هي رمز التاريخ البشري الإنساني. إن عديمي المسؤولية من المواطنين السويسريين، الذين يحاولون بذرَ السموم، يقومون بعمل مجحف بحق وطنهم. نحن لا نريدُ أن نكون معلمين ومرشدين للشعوب الأخرى، غير أننا بالقدر ذاته لسنا تلاميذَ لهم. نحن ناضجون وطنيًّا بالقدر الكافي لنعرف كيف ندير سويسرا. إن عرفَتْ هذه المحكمة كيف تعيد الوعي لجماعة معينة من المواطنين السويسريين، وتبثُّ للجمهور رسالة واضحة بأن هذا ليس نهج سويسرا، عندئذ لا نكون قد بذلنا عبثًا الجهد والنفقات التي صرُفَت في معالجة هذه القضية".

كم كان صائبًا إشراك بروفيسور غير يهودي في هذه القضية، همس ليفشيتس لـــڤـــينر. وكم كان صائبًا اختيار البروفسور ماطي بالذات، أجاب ڤـــينر هامسًا هو الآخر.

في هذه المرة أعلن القاضي الاستراحة بدافع شعوره بأن اللاساميين يجب الاّ يدَّعوا شيئًا بعد خطاب ماطي المدهش هذا. كان شديد الفضول لسماع تلخيصاتهم. في هذه المرة سيتحدّث أمام المحكمة السويسرية محامون سويسريون، لا خبيرًا قادمًا من خلف الحدود. أتراهم هم أيضًا سيتعاطفون مع اللاسامية بطرازها الألماني؟

استهل الدكتور أورشبرونغ بادّعاء شَكليّ: إن مسؤولية الإثبات تقع على المُدَّعين، وهم لم يتمكنوا من إثبات كذب البروتوكولات. كرّر ما قاله فلايشهاور من خلال امتداح وجهة نظره. إنه على يقين من أن اليهود لو كانوا يعلمون أيّ خبير مُدهش سيختار المتَّهمون، لكانوا قد فكّروا مرَّتين قبل رفع دعواهم.

ليس لديه الكثير مما يضاف في موضوع البروتوكولات، قال محاولاً التهرّب من الموضوع الأساسي، لكن لديه الكثير مما يقال عن اليهود. إنهم بلا شك عِرق يختلف، وهم في الحقيقة يسيطرون على سويسرا. اللاسامية ليست مُنتَجًا ألمانيًا، وهي لم تُستورَد من هناك. يكفي أن نرى كيف يتزايد التأثير اليهودي على المسرح، السينما، الأكاديميا، الأدب، والصحافة – يجب إنهاء ذلك!
استيقظ أخيرًا أبناء الجنس الآري في العالم، فتنبّهوا إلى حقيقة أنهم يعانون منذ زمن طويل القهر والإذلال من قبل اليهود الذين يدعمهم، للأسف الشديد، الباحثون المسيحيون في التلمود. عُظَماء العالم، أمثال كانت ونابوليون وغيتِه وأمبرونن، سبق وأن حذَّروا من اليهود.

نظر بعضُهم إلى بعض مرتبكين لأنهم لم يسمعوا من قبل بالاسم الأخير. من هو أمبرونن هذا؟ همس جورج. سرعان ما اتضح لهم أن أمبرونن ليس سوى الدكتور زندر، رجل عُرف بمعاداته للسامية، لجأ إلى نشر كتاباته تحت اسم مستعار بعدَ إدانته في قضية باسمه الحقيقي.

تابع الدكتور أورشبرونغ حديثه متجاهلاً الضحكات الصادرة عن الجمهور.
يسرّه شخصيًا أن يرى اليهود يتجمّعون في أرض منعزلة، مثل مدغشقر، لكن دون تعريض العالم لوجودهم.
البروتوكولات إنتاج أكاديمي هام، وهو يأمل أن يتواجد تقرير فلايشهاور غداة هذه المحكمة في كل بيت سويسري. ليس

لمصداقية البروتوكولات أهمية، كما سبق وادّعى منذ بداية المحكمة، لكن المُدَّعين هم الذين أصرّوا متحمسين على تعزيز ادّعاء "البذاءة"، فاضطرّت المحكمة إلى تعيين الخبراء.
"إن البروتوكولات هنا"، أعلن بنبرة درامية، "وستبقى هنا إلى الأبد. هذا دليلٌ كافٍ على وجودها. على من يحاول نفيَها أن يثبتَ أنها كاذبة. وهذا لم يحصل"!

أبرز شهادتَي باومــچــرتن ولوسلي بصورة ساخرة، وهاجم تصريح الأميرة ردزيفيل لأنها أخطأت بالتاريخ. على المحكمة أن تتجاهل الصحافة، إذ أنها كلها بيد اليهود. قدَّم نفسه كديمقراطي حقيقي، يعارض المجازر، ويجب ألاّ تُنسَب إلى المتَّهَمين، فكل ما يفعله هؤلاء هو مجرّد التعبير عن رأيهم، ولهم الحرية في ذلك.
وماذا لو أن البروتوكولات لم تُكتَب في الكونغرس في بازل، وإنما في مؤتمر بني بريت، كما حدّد فلايشهاور، هل هذا سبب كاف لتجاهلها؟

فوجئ الجميع حين طوى أوراقه، ضمَّ عقبيه إلى بعضهما، وانحنى إجلالاً للقاضي. اتضح أنه أنهى خطاب تلخيصه.

جاء الآن دور المحامي روف، الذي سرعان ما تبيّن أنه أكثر حنكةً. اختصر في أقواله. قدّم نفسه كديمقراطي سويسري لا يمثّل الرايخ الثالث ولا الحركة القومية الاشتراكية، بل إنه حتى على استعداد لإبداء تفهمّه لتطلع اليهود إلى الدفاع عن كرامتهم وإثبات الحقيقة. ربما أنهم قد نجحوا في التقدم خطوة أخرى نحو الكشف عن حقيقة البروتوكولات، غير أن الشهود لم يعبّروا إلا عن آرائهم الشخصية، فلا يحق للمحكمة أن تستنتج منها ما هي الحقيقة الموضوعية. في هذه الأيام بالذات وصلت إلى مكتبي مادة جديدة من شأنها أن تسلط الضوء على القضية، لكن من الواضح أن إبرازها لهذه المحكمة قد بات متأخرًا.

"سوف نهتم بأن تتهيأ لك فرصة أخرى"، همس ليفشيتس بلهجة ساخرة.
بعد تشاور قصير أعلن برونشفايغ وماطي أنهما غير عازمين على استعمال حقهما في الرد على ادعاءات المتهمين. لا لزوم لإجهاد المحكمة، فقد قالا كل ما عندهما.

يوم الحساب

هطلت الأمطار في 14 مايو 1935. جهاز حفظ المظلات الذي وُضعَ في مدخل بناية المحكمة امتلأ سريعًا، وأخذ الناس يبحثون عن مكان يضعون فيه مظلاتهم القاطرة ماءً.
غصّت القاعة هذه المرّة ليس فقط بالصحافيين وذوي الشأن، وإنما أيضًا بالمحامين والقضاة وكبار الموظفين العموميين، وطبعًا بمحبّي الاستطلاع.
لا نهاية للمفاجئات في هذه القضية، فكّروا حين استهلَّ القاضي الجلسة بتبليغ.
أبلغ بلهجة رسمية أن رئيس المحكمة قد استدعاه بشأن شكوى قدّمها السيد فلايشهاور. ادَّعى الخبير الألماني في شكواه أن الخبير لوسلي قد أهان في شهادته الوطن الألماني، الرايخ الثالث، وأن القاضي لم يوبِّخه ولم يدافع عن كرامة دولة أجنبية.

إنه يأسف، قال القاضي ماير، لأن الخبير السيد فلايشهاور لم يجد من المناسب أن يتوجّه إليه بهذا الأمر قبل أن يزعج رئيس المحكمة. إن كان حقًّا قد أحبَطَ في الدفاع عن كرامة وطن فلايشهاور، فإنه ينتهز هذه الفرصة ليعتذر عن ذلك. وأردف قائلاً: بهذا تنتهي هذه القضية. أومأ فلايشهاور برأسه بمعنى الموافقة.
وأخيرًا حانت ساعة قراءة قرار الحكم.
قال بصوت واضح ولهجة موزونة، إنه توصَّل إلى استنتاجاته بناء على الأدلّة وسَير القضية وبناء على خبرته والمبادئ المقبولة لديه كقاضٍ وكإنسان.

يدور الاتهام حول نشر **بروتوكولات حكماء صهيون** ومقال في صحيفة "شهود" (Eidgenossen) يحذّر الفتيات السويسريات من اليهود.
هنا تحوّل إلى الوثيقة المسماة "**بروتوكولات حكماء صهيون**" التي قرأها بإمعان. إنها عبارة عن كتيب ينقسم إلى 24 جزءًا: مقدّمة، افتتاحية، النص الكامل لبروتوكولات حكماء صهيون، وفصل ختامي يصف اليهود بعبارات رهيبة ويوصي بـــ "العناية" بهم. هذا الفصل يصف اليهود كسلالة لطائفة من اللصوص، ذوي طبائع مشينة للغاية، ويدعو إلى إبادتهم عمليًّا. يُنسب إلى اليهود نشر الفساد الأخلاقي والروحاني، وتسميم الأجواء التي يتنفسون فيها. يوصَف اليهودي كمزيّف بالولادة، وجاسوس وخائن.

أفاد القاضي بشكل مفاجئ، أن بإمكانه اعتبار البروتوكولات مادة بذيئة، حتى بدون الاستناد إلى شهادات الخبراء حول مصداقيتها. الأقوال الواردة في الفصل التلخيصي من الطبعة التي أصدرها السيد فريطـــش، والموجودة أمامه، كان فيها ما يكفي. إن فيها تحريضًا على أعمال العنف وخلق أجواء المجازر.

مع ذلك، كانت شهادات الخبراء ضرورية، فبدونها كان من المحتمل الاستمرار بنشر هذه البروتوكولات، بحذف فصل الخاتمة، وعندئذ يستدعي الأمر إشغال المحكمة مرّة أخرى في مناقشة مصداقية هذه الوثيقة.

منذ عام 1921، حين تم نشر مقالات فيليب غراڤـــز في التايمز اللندنية، انتشرت في العالم آلاف النسخات من البروتوكولات، بإصدارات عديدة، دون أن تُذكر فيها السرقة الأدبية عن موريس جولي. هل يُعقَل أن السيدَين روزنبرغ وفريطش لم يسمعا بموريس جولي؟ سأل باستهزاء. إن المرة الأولى التي ظهر فيها اسم موريس جولي في الكتابات اللاسامية كانت بعد بدء هذه المحكمة. والآن يدّعون أن موريس جولي كان يهوديًّا.

حتى لو كان ذلك صحيحًا، فكيف يؤثر ذلك على حقيقة البروتوكولات؟ أليس من الواضح جدًّا أن كتابه يتحدّث عن نظام حكم نابوليون الثالث وليس عن الادعاء الذي جاء فيما بعد في ثوب مؤامرة يهودية للسيطرة على العالم؟ "لن أعجَبَ"، قال القاضي، "إن قام ناشرو البروتوكولات في المستقبل بالردّ على مقولة أن البروتوكولات انتحال أدبي بالادعاء بأن ميكافيللي كان يهوديًا هو الآخر، وأن خطته للسيطرة على العالم مطابقة للخطة اليهودية". إنه لا يوهم نفسه بأن يشكّلَ قرارُ حُكمِهِ مانعًا لنشر **بروتوكولات حكماء صهيون**، لكن ربما يكون ذلك الشرخ الأوّل في الجدار، والذي سيؤدي لاحقًا إلى انهياره. ربما يشكل ذلك الثلمة الأولى في درع أولئك الذين ما يزالون يصرّون على أن البروتوكولات حقيقية.

صحيح أن الشهود الذين قدّمهم الادعاء لم يكونوا دائمًا شهود عيان للوقائع التي وصفوها في المحكمة. لم تكن شهاداتهم دائمًا تستند إلى مشاهدة أو استماع، وكان هناك من أخطأوا في التواريخ أو في بند معيّن أو آخر، لكنهم كانوا موحَّدين في آرائهم في مواضيع كثيرة وأساسية وكانت شهاداتهم محطَّ ثقة المحكمة.

لقد أتيحَت الفرصة المتساوية لكل الأطراف ليختاروا خبراءهم. وقد جزم كلٌّ من باومـــچرتن ولوسلي أن البروتوكولات مزيَّفة وأنها انتحال أدبي، بينما أنكر فلايشهاور ذلك. هنا اقتبس القاضي قول الخبيرين الأوَّلين بشأن الانتحال الأدبي، وقرر أن نصَّ التزييف الأخير قد كُتب في التسعينيات من القرن الماضي (التاسع عشر)، استنادًا إلى وثيقة كانت قد كُتِبَت خلال الثمانينيات، وقد وصف الدور الذي قام به رتشكوفسكي وقرّر أن لا أساس لنسب البروتوكولات إلى الكونغرس الصهيوني في بازل.

مستندًا إلى الوثائق الروسية، قرَّر اعتماد وجهَتَي نظر الخبيرين بحذافيرهما، بما في ذلك التفسيرات القضائية.

يا للمفاجأة! قال ماطي وبرونشفايغ معًا بينما نظر الواحد إلى الآخر.

راح القاضي الآن يعلّل قرار رفضه لتقرير فلايشهاور:
1- نظرته العامة إلى اليهود.
2- ردوده على أسئلة القاضي.
3- الانعدام التام لأي دليل يدعم آراءه واستنتاجاته.
إنه صاحب دار النشر U.Bodung Verlag التي أصدرت المعجم اللاسامي Sigilla Vera والصحيفة اللاسامية WeltDienst واهتمَّت بنشرها في أنحاء العالم.

كان فلايشهاور أيضًا صديقًا مقرّبًا لناشر البروتوكولات، ثيودور فريطش المتوفّى، والذي أسماه القاضي "اللاسامي المحترف". قال القاضي إنه يرى من واجبه أن يوضح لماذا قبِلَ بتعيين فلايشهاور خبيرًا في المحكمة. لم يفلح المتهمون بالعثور على خبير سويسري، وهو لم يشأ أن يحرمهم من حقهم باختيار الخبير. لكن فلايشهاور قد بالغَ.

في وصفه لأساليب فلايشهاور قال القاضي إن هذا الرجل، الذي يدعو نفسه خبيرًا، قد جمع من كل العالم، الكتب والكراريس والمقالات والخطابات والإعلانات، ونقّب فيها باحثًا، على ضوء المصابيح، عن كل مقولة ضد اليهود، متخَطّيًا عن عمد وإصرار كل كلمة لصالحهم.

وصل الآن إلى إدعاء فلايشهاور بأن في البروتوكولات حقيقة مبطّنة. إن هذا التكتيك ينطوي على اعتراف بأن الوثيقة ليست أصلية، لكن علاوة على كل ذلك: فإن الرجل قد فشل في محاولته لإثبات مطابقة البروتوكولات للدين والفلسفة اليهودية.

لقد شوّه فلايشهاور التلمود، أحد أعظم الأعمال الرائعة التي صدرت حتى الآن. كيف يمكن الادعاء بأن هذا الكتيّب الصغير

يمثّل الروح اليهودية، والفلسفة اليهودية، التي يتضمنها 36 مجلَّدًا من التلمود؟
وقد شوّه مقتطفات من التلمود وقام باقتباسات في خارج سياقها. بل إنه اخترعَ من عقله مُقتطفات غير كائنة هناك. لكن فوق هذا كله، هل يُسمَح باقتباس آراء شخصية تم التعبير عنها في التلمود لإدانه شعب بكامله؟
لقد ادّعى أن في يوم ما، في مكان ما، قامت جماعة ما من اليهود، بالتخطيط للسيطرة على العالم. وفي المقابل، أثبت المدَّعون زيفَ الوثيقة وأنها انتحال أدبي. إن هذه البروتوكولات تصف مواطني سويسرا اليهود بأوصاف في غاية السلبية، لذا فهي تشكّل أدبًا بذيئًا.

في ختام قرار الحكم ذكر القاضي كلمات تم اقتباسُها لاحقًا في العالم كله وبمختلف اللغات:

"آمل أن يأتي يوم لا يستطيع فيه أحد أن يستوعب كيف استطاع، عام 1935، نحو اثني عشر شخصًا عاقلاً حكيمًا، أن يرهقوا أدمغتهم على مدى 14 يومًا، أمام محكمة في بيرن، بشأن مصداقية هذه "البروتوكولات"، التي برغم ما سبّبت من الأضرار وما زالت تسبب، ما هي إلاّ ترّهات تدعو للسخرية".

أثنى اليهود في العالم كله على قرار القاضي ماير الذي اقتبسته معظم الصحف. أحد أعضاء منظمة يهودية، كان قد شارك كمراقب في المحكمة، قال إن العنصر الأساسي في قضية سياسية هو أصداؤها، وليس القرار، وفي قضية بيرن، تحققت هذه المرة كل التوقّعات. لم يكن بالإمكان توقع قرار أفضل أو صدىً أوسع. لم يُعلن فقط أن البروتوكولات تزييف ومادة بذيئة، بل أن القاضي قد أجاد تعليل قراره بالحجج العلمية، وبحجج إنسانية لا تقل قدرًا".

أدهشهم جدًّا أن يقوم شخص من الأغيار بتفسير التلمود على هذا النحو المدهش. لم يحظَ قرار الحكم في جنوب أفريقيا بصدىً واسع في العالم، لذا فقد اعتبر الجميع أن هذه هي المرة الأولى التي تقوم فيها محكمة، يُقرّ الجميع بصلاحيتها واستقامتها، بالحكم بأن البروتوكولات كاذبة، بعد استماعها لشهود وادعاءات الطرفين، وقد حدث ذلك في سويسرا المعروفة كدولة حيادية. أخيرًا يوجد بيد اليهود سلاح شديد البأس في كفاحهم ضد اللاساميين. لم يسبق أن كان قرار حكم على هذا الجانب من القوة الأخلاقية، قال بعضهم لبعض. تحدث الكثير عن مفهوم الكفاح التاريخي بين اليهودية واللاسامية، بين مبدأ حقوق الإنسان كما تم نصّه في فرنسا عام 1789 وبين قوانين هتلر اللا-إنسانية عام 1933.

في نظرهم، كانت هذه هي الضربة الأولى التي تتلقاها الحركة القومية-الاشتراكية.

فصلُ الختام في بيرن – من الفائز؟

يبدو أن الفرحة كانت سابقة لأوانها. قدّم المتهمون دعوى استئناف، وفي 1 نوفمبر 1937، وبعد أربعة أيام من البحث والنقاش، أبلَغَت محكمة الاستئناف أنها ترفض التفسيرات القضائية التي أعطاها القاضي ماير لبنود القانون؛ حين تحدّث المشرّع عن "البذاءة"، قال القضاة في محكمة الاستئناف، كان يقصد البورنوغرافيا. وكان يهدف إلى حماية الصغار من المنشورات المخلّة بالأخلاق. ورغم بذاءة البروتوكولات، إلاّ أنها ليست "أدبًا بذيئًا" بالمعنى الذي قصده المشرع في القانون لعام 1916.

خلافًا للقاضي ماير، الذي تفهّم القيمة التاريخية لهذه المحكمة، فقد ركّز قضاة الاستئناف الثلاثة على الجوانب الإجرائية والقانونية. بالرغم من أنه يجوز في سويسرا تقديم بيّنات إضافية في الاستئناف، تم رفض تقديم رسائل تِدلي التي عُثر عليها بعد

انتهاء المناقشة في المرحلة الأولى، وقد وقف القضاة أيضًا على بعض الأخطاء الفنية في إدارة تلك القضية الطويلة والمعقّدة.

احتفل المتهمون بنجاحهم، وأبرزوا قرار حكم الاستئناف كمصادقة على **بروتوكولات حكماء صهيون** – إنها ضربة قاضية لليهود.

لكن المتهمين، كعادتهم، تجاهلوا روح القرار وما جاء فيه بصريح العبارة؛ ليس فقط أنهم لم يحظوا بشهادة "حسن السلوك"، لا هم ولا بروتوكولاتهم، بل إن قضاة الاستئناف أعربوا عن قبولهم التام لكل استنتاجات القاضي ماير الأساسية، وذلك رغم أنهم قد ألغوا قرار حكمه؛ فقد وافقوا على أن صحة البروتوكولات لم تثبت على الإطلاق. القاضي بيتر، الذي كان على رأس هيئة القضاة، اعترف بالحالة الصعبة التي وجد اليهود أنفسهم فيها. لو هوجِمَت ديانتهم هم، لناقشوا الأمر على الملأ، لكن كيف لجماعة أن تدافع عن نفسها في وجه وثيقة بذيئة تدّعي أن كل أفراد الجماعة من عِرقٍ دونٍ، ومن حثالة البشر؟ لمزيد الأسف، قال، لكنّ القانون القائم لا يوفر لهم الدفاع. إنه على يقين من أن الغالبية الغالبة من سكان سويسرا لن تتأثر بمثل هذا التشهير.
لكن لم تكن تلك نهاية الفصل، فللقضاة طرق كثيرة للتعبير عن رأيهم، وقد عبّرت هيئة القضاة الثلاثة بشكل واضح عن رأيها في البروتوكولات وناشريهم. فعلت ذلك عن طريق تغريم المستأنفين بتكاليف المحكمة في القضيتين، متجاهلة النهج المألوف بفرض تكاليف القضية على الطرف الخاسر. وقد قال القضاة بصريح العبارة: إن البرتوكولات هي في الواقع أدب بذيء، لكن ليس بموجب قانون العاشر من سبتمبر 1916، وبناء عليه فإن من اختصاص سلطات أخرى منع مثل هذه المنشورات، لأسباب سياسية. أما بخصوص التماس المستأنفين بفرض تكاليف القضية على الجالية اليهودية، فقد قال القضاة: "إن من ينشر مثل هذا

التشهير والإهانات الفائقة البشاعة، يغامر بتعريض نفسه إلى القضاء، وعليه أن يتكبّد التكاليف".

صُدِمَ المحامون اليهود والخبراء بقرار الحكم، وإن تكن المحكمة قد أدانت البروتوكولات، إلاّ أن القرار قد وضع سلاحًا خطيرًا بيد المعادين للسامية، ولو عن غير قصد. سرعان ما تبيّن لهم كم كانوا صائبين، ففي السنة ذاتها اتخذ موتمر "الخدمة للشعب" (Weltdienst) قرارًا بصحة البروتوكولات. تحوّل فلايشهاور إلى بطل في ألمانيا وإلى محاضر مرغوب به في دول كثيرة، وتحول التقرير الذي قدمه للمحكمة إلى بيان رسمي نُشرَ في جميع أنحاء العالم.

مع ذلك اعتُبرَت قضية بيرن فوزًا كبيرًا لليهود.
أصيبَ يهود سويسرا بخيبة أمل شديدة، ومعهم سائر المشاركين في المحكمة، المحامون، المستشارون، الشهود والخبراء. لكن الجهود لم تذهب عبثًا، حيث أن لقرار المحكمة أحيانًا تأثيرًا مفاجئًا.
تنتهي عادة مهمة المحكمة من الناحية الرسمية في الترجيح والحسم بأمر النزاعات في القضايا المدنية، وبإدانة أو تبرئة المتهمين في القضايا الجنائية. لكن القضاة يدركون أن لما يكتبونه في قرار حكمهم تكون أحيانًا اعتبارات تتجاوز حدود الفصل في قضية معينة. إن المحاكم المستقلة في المجتمع الديمقراطي تؤدي دورًا مميزًا، ليس فقط في مجال قرار الحكم المحدود بين الطرفين المتنازعين، بل تبدي رأيها في المواضيع الأخلاقية، وتحدد القيم السلوكية، وتعرّف معايير الأخلاقيات. قد يحدث أن يقول القاضي في قراره أقوالاً لها بحد ذاتها أهمية عامة، دون علاقة بموضوع القضية الذي كان السبب في قولها. إن مقولات مأثورة لبعض القضاة قد أصبحت جزءًا من الكلاسيكيات في بلادٍ كثيرة، حتى لو عبّرَت بداية عن رأي قلّةٍ أو وردت في قرار حكم تم استبداله عن طريق الاستئناف، وتبقى في الذاكرة زمنًا

طويلاً بعد أن تُنسى أقوال قضاة الأكثرية أو من ناقشوا الاستئناف.
هذا ما حصل لقرار حكم القاضي ماير، الذي يتم اقتباسه حول العالم حتى اليوم، بعد زمن طويل من غياب قرار محكمة الاستئناف في لُجَّة النسيان.
فهل يعني أحد إن كان التعريف القانوني لعبارة "الأدب البذيء" ينطبق على البروتوكولات؟ إن ما بقي من قضية بيرن هو الشهادات المدهشة وكلمات القاضي الخاتمة.
أما **بروتوكولات حكماء صهيون** فقد بقيَت بعد محكمة بيرن لأسباب لا علاقة لها بقرار محكمة الاستئناف.

قاعة المحكمة

جانب الادعاء

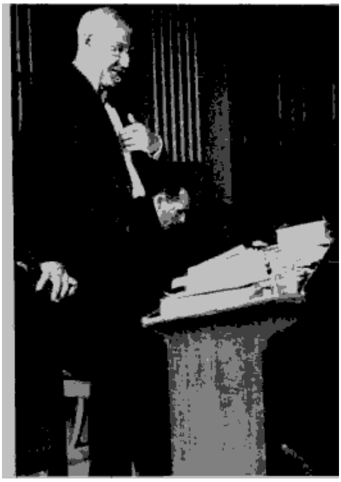

أورليخ فلايشهاور
الخبير من طرف المدَّعى عليهم

الفصل الثاني عشر

الكذبةُ حيَّةٌ تُرزَق

يابانيون يحملون هدية

عندما علمَ عمي داني، في إحدى زياراته لإسرائيل، أني أكتب كتابًا عن ***بروتوكولات حكماء صهيون****، قال لي "يجب أن تعلمي إن هذه البروتوكولات قد أنقذت حياتي".*

عمّي رجل ممتلئ سحرًا، يُعرَف بروح دعابته الرائعة، يفاجئني من مرة إلى أخرى بعبارة غريبة يتبعها دائمًا بحكاية من الواقع. العم داني قاصٌّ مطبوع منذ ولادته، والإصغاء إليه يُمتعُني جدًّا، لكنْ سرعان ما تبيّن لي أن قصة إنقاذ البروتوكولات لحياته كانت أبعد ما تكون عن الفكاهة.

داني هو الوحيد الذي سَلِمَ في عائلتنا من الكارثة. في الواقع، يكاد يصعب القول إنه بقي بعد الكارثة، فهو قد هرب في اللحظة الأخيرة. باقتراب اندلاع الحرب أرغمه والده، جدّي لوالدي، على ترك البيت والتشرّد لينجو بنفسه. وهكذا وصل إلى المركز اليهودي في فيلنا وانضمَّ إلى الكُتَّاب الديني الشهير في فيها، فنجا مع مجموعة كبيرة من اليهود بفضل القنصل الياباني المقيم في كوبانو عاصمة ليطا، تشيونا سوغيهارا، الذي خالف تعليمات حكومته ومنح تأشيرات لآلاف اليهود المشرّدين الذين وصلوا الصين، عن طريق سيبيريا واليابان، وفي نهاية الحرب حصلوا على تأشيرات الدخول إلى الولايات المتحدة.

كان أبي المولود البكر لأسرة ذات سبعة أولاد، وكان داني آخر العنقود. أبيدت أخواته الخمس في الكارثة مع عائلاتهن وذويهنَّ وأزواجهنّ وأطفالهن.

مع أن قصة إنقاذ اليهود على يد القنصل الياباني قد نُشِرَت ورُوِيَت مرارًا، لكني على يقين من أنَّ أحدًا لا يستطيع أن يرويها كما رواها عمّي في ذلك اليوم في أورشليم. من لقاءاتي السابقة بالعم داني، استنتجتُ أن الوصف الهزلي لمختلف الأحداث هو أحد الأساليب التي اعتمدها في سبيل مقاومة ذكريات فتوَّته المأساوية وفقدان كل أفراد عائلته. ما زلت أضحك دامعة كلما ذكرت حكاية عمي تلك عن اللقاء بين عابري سبيل يابانيين وبين مجموعة من طلاّب الكُتّاب الديني، بلباسهم التقليدي، وسوالفهم ترفرف في الهواء.

غرقتُ في حكايته لدرجة أني لم أفطن إلاّ في نهايتها إلى ***بروتوكولات حكماء صهيون.*** *اكتسى وجهه فجأة بمسحة من الجدّيَّة: "هل تصدقين أننا حين توجهنا إلى القنصل الياباني للحصول على التأشيرات، طلب أن يعرف شيئًا عن اليهود، فأحضر له أحدهم* ***بروتوكولات حكماء صهيون؟*** *خلافًا للأوروبيين، فقد أعجِبَ جدًّا بالخطة اليهودية. في نظر اليابانيين كانت الخطة اليهودية نموذجًا يُحتَذى به".*
ما زال عمّي إلى اليوم يعتقد أنه كان لبروتوكولات حكماء صهيون دور هام في قرار القنصل الياباني، وفي الطريقة العجيبة التي أنقذت حياته.

كنت قد نسيتُ تمامًا حكاية عمّي، إلى أن تحدثتُ ذات يوم إلى البروفسور بن-عامي شيلوني، رئيس قسم دراسات شرق آسيا في الجامعة العبرية في أورشليم/القدس. منذ أن عرف الناس عن اهتمامي بالبروتوكولات، أثير موضوعها دائمًا في حضوري، وكان مُحادثيَّ يذكرون قصصًا ذات علاقة بالموضوع، فحدثَ أن أحدهم ذكر قصة البروفسور شيلوني، وقد تسنّى لي فيما بعد أن أسمعها من فمه.

في أحد الأيام، عام 1978، كان عليه أن يستضيف جماعة من رجال الأعمال والمهن الحرة الذين قدموا من اليابان إلى إسرائيل

للمرة الأولى. أراد أن يفحص إمكانية ربط علاقات تجارية وتعاون في المجال الثقافي والمهني. إلمام البروفسور شيلوني، ليس باللغة اليابانية فحسب، بل بالحضارة والتاريخ والتقاليد اليابانية، قد ساعد المجموعة على معرفة الكثير عن إسرائيل خلال الزيارة.

بانتهاء الزيارة، أحيا البروفسور شيلوني حفل استقبال أعربت خلاله المجموعة عن شكرها وتقديرها، وقدمت له هدية بغلاف أنيق. عندما فتح الغلاف ساد الهدوء، فسارع هو إلى توجيه الشكر للضيوف حسب الأصول. نظر إلى الهدية ولم يستطع إخفاء حرجه. لو لم يكن خبيرًا بأصول الآداب اليابانية، لظنَّ أنها فكاهة رديئة، لكنه لم يفكّر حتى بمثل هذا الاحتمال. لماذا يقدّم أحدهم **بروتوكولات حكماء صهيون** كهدية إلى بروفسور يهودي؟ سرعان ما فُكّت رموز اللغز. قال له الضيوف إنهم أرادوا انتهاز زمن الرحلة إلى إسرائيل لمعرفة شيء عن اليهود، فتزوّدوا بنسخات عن البروتوكولات، وقد أدهشهم أن يتحققوا من خلال زيارتهم كيف أفلح اليهود في إسرائيل من تنفيذ خطتهم المفصّلة بكل وضوح في هذا الكتاب.

كان البروفسور شيلوني على علم باللاسامية الموجودة في اليابان، وبحقيقة أن الكتب المستندة إلى **بروتوكولات حكماء صهيون** تباع هناك بملايين النسخات. وكما هو الحال في الدول الأخرى، كان اليهود في اليابان أيضًا كبش الفداء، مسؤولين عن كل آفات المجتمع. لكن كانت هناك أيضًا أوساط نظرت إلى اليهود كرمز وقدوة تُحتَذى، واعتبروا اليهود شعبًا جديرًا بالإعجاب، حيث أن تأثيرهم في العالم أكبر من نسبتهم السكانية بشكل يفوق كل تقدير. من الصعب فهم اهتمامهم الدائم باليهود، فهو عبارة عن مزيج من الريبة والتقدير. في دولة يربو عدد سكانها عمّا يفوق المائة مليون مواطن، تكاد لا تجد بينهم ألف يهودي. لا يستطيع أحد أن يفهم وجود مشكلة يهودية في دولة خالية من اليهود

.

*مع ذلك فقد صُدم البروفسور شيلوني لقيام مجموعة مثقفة، ذات توجّه داعم لإسرائيل، بأن تقدم له، في أورشليم، **بروتوكولات حُكماء صهيون**، تعبيرًا عن تقديرها له.*
في ذلك المساء، تفحّص الهدية في غرفته.

*كانت تلك طبعة مميزة، ذات غلاف جلدي أحمر، تحمل عنوانًا بارزًا: "**البروتوكولات اليهودية**"، يدنوه عنوان ثانوي: "**المفتاح لفهم المشكلة اليهودية**". فتحَ الكتاب، فتبين له أنه مكتوب بلغتين. من اليسار إلى اليمين ظهر باللغة الروسية النص الكامل لكتاب نيلوس الصادر عام 1911، بما في ذلك المقدمة. تمت طباعة هذا النص بحروف صغيرة وانتشر على 64 صفحة. أما اليابانية فقط كُتبَت من الأعلى إلى الأسفل، في أعمدة تتجه من اليمين إلى اليسار، وقد احتل النص الياباني 226 صفحة من جانب الكتاب الأيمن. احتوى الكتاب مقدّمتين، للناشر وللمترجم، كما تضمّن صورًا لملوكٍ من الأغيار انتسبوا إلى البناة الأحرار، التنظيم الذي يعتبره اليبابانيون تابعًا لليهود، كما يحتوى صورًا لشخصيات يهودية، أو أنهم يعتبرونها يهودية، مثل كولومبوس، الرئيس روزفلت، روتشيلد، آينشطاين، طورتسكي، مندلسون وغيرهم. كانت تلك الطبعة السابعة لترجمة البروتوكولات المعروفة التي تمت عام 1938 على يد آيكيتشي كوبوتا، وتمت إعادة طبعها عام 1959. لكن ذلك لم يكن الإصدار الأول في اليابان.*

جيء بالبروتوكولات إلى اليابان للمرة الأولى عن طريق ضباط يابانيين شاركوا بالبعثة العسكرية إلى سيبيريا، التي تألفت من 75,000 جنديًا، لمساعدة الجيش الأبيض على استرداد نظام حكم القيصر. حين اندحروا أمام الحرس الأحمر، أقنعَهم زملاؤهم الروس أن اليهود ملامون في كل شيء، فهُم الذين سبَّبوا الثورة. لدى عودتهم إلى اليابان حملوا معهم نسخات عن **بروتوكولات حكماء صهيون**، من تلك التي وُزِّعَت لكل جنود الجيش الأبيض تحت قيادة الجنرال غريغوري سمنوف. كان بين العائدين الملازم

نوريهيرو يسوآه، المؤمن بصحة البروتوكولات، فقام بترجمتها إلى اليابانية عام 1924، ونشرها تحت عنوان "**الخطر اليهودي**". صدرت البروتوكولات منذئذٍ تحت مختلف العناوين في اليابان، رغم استنكار بعض الكتّاب لنشرها، لكن هذه الأصوات القليلة قد خمدَت خلال الحرب العالمية الثانية. بعد أن تبنَّت اليابان الإيديولوجية النازية، ظهرت في اليابان ترجمات عن الألمانية، وتحولت المؤامرة اليهودية إلى موضوع شعبي. لكنَّ انتهاء الحرب لم يُنهِ انتشار الدعاية اللاسامية؛ ففي عام 1986 ظهر كتابان بتغليف دقيق وزّعَا بملايين النسخات: "إذا عرفتَ اليهود، فهمتَ العالم"، و "إذا عرفتَ اليهود، فهمتَ اليابان". ادَّعى الكاتب، مسامي أونو، أن الخلاف حول موضوع التجارة بين اليابان والولايات المتحدة، وكذلك "أزمة الينّ"، مصدرهما المؤامرة اليهودية.

في السنة ذاتها، 1986، أصدر كينجي ياجيما، بروفسور في الاقتصاد الدولي في جامعة آؤُياما، كتابه "فن القراءة بين السطور في البروتوكولات اليهودية". حاول المؤلف طرح تفسير جديد "للبروتوكولات الحديثة لشيوخ صهيون"، فقرّر أن اليهود يخلقون عمدًا نزاعًا بين اليابان والولايات المتحدة. وكالعادة، جرى اتهام اليهود في هذا الكتاب أيضًا، بالثورة الروسية، وبالحربين العالميتين، وبحرب فييتنام، وبأزمة النفط، وبمشاكل التجارة اليابانية. كذلك كشفَ المؤلف لقرّائه عن أن الرئيس نيكسون ورئيس الحكومة طناكا ككوايي قد فقدا كرسي الحكم لأنهما عارضا اليهودي روكفلر بصورة علنيَّة. كما أنه أنذرَ بأن اليهود سيهدمون العلاقات اليابانية الأمريكية كليًّا خلال 10 سنوات، وبذلك تصل اليابان إلى عتبة المجاعة، والفقر والإفلاس، وأما اليهود فيصلون إلى أوج ازدهارهم.

منذ زمن بعيد لم يعُد الدبلوماسيون الإسرائيليون في طوكيو ليفاجَأوا بمثل ما اختبر البروفسور شيلوني؛ إذ أن **بروتوكولات حكماء صهيون**، المنتشرة بين الناس للتحذير من "المخطَّطات

اليهودية" ضد اليابان، تُعرَض في الوقت ذاته كموضوع يستحق التقدير والاقتداء به، وكخطة يجدر اعتمادُها – إنها وصفةٌ مُجَرَّبَة للنجاح!

البروتوكولات في الولايات المتحدة

عام 1964 عيّن مجلس الشيوخ الأمريكي لجنة لفحص **بروتوكولات حكماء صهيون.**
لاحظت اللجنة القضائية لمجلس الشيوخ، والتي بحثت موضوع انتشار الشيوعية، أن ثمة عناصر تشوّه مقاومة الشيوعية وتدَّعي بأن الخطر الحقيقي الذي يهدد الولايات المتحدة لا ينبع من الاشتراكية العالمية وإنما من "المخطط اليهودي" المفصَّل في **بروتوكولات حكماء صهيون.** هذا الادعاء المفتقر إلى المنطق، قد وجد له ما يكفي من المؤيدين، حتى نشأت هناك ضرورة لتعيين لجنة فرعية خاصة لتقصّي الأمر.

في السادس من أغسطس 1964، قرّرت اللجنة القضائية المصادَقة على تقرير اللجنة الفرعية الذي كان عنوانه "**وثيقة تاريخية مفبركة**"، كما قرّرت اعتماده، وطباعته ونشره كمستند رسمي صادر عن مجلس الشيوخ.
التقرير الذي أُقِــرَّ بإجماع تسعة أعضاء اللجنة الفرعية، وقَّعه كل من رئيس اللجنة، السناتور جيمس إيستلند من ولاية مسيسيبي، ونائب رئيس اللجنة السناتور توماس دافيد من ولاية كونيتكات.
في مستهل التقرير كتب كاتبوه: "في كل جيل وفي كل دولة تُطلُّ وثائق "تاريخية" مُفبركة على جمهور غافل عن هدف شرّير [...] الوثيقة الأكثر شهرة وعنادًا، من هذا النوع، هي **بروتوكولات حكماء صهيون.** بحسب هذه البروتوكولات يتَّضح أن الشيوعية العالمية ما هي إلاّ أداة بيد متآمرين يهود يتطلّعون إلى السيطرة على جميع الشعوب غير اليهودية في العالم".

جاء في التقرير أيضًا: بحسب هذه البروتوكولات، فإن العدو الحقيقي ليس الشيوعية العالمية وإنما هي اليهودية العالمية. هذا في الوقت الذي تنتشر في روسيا الكتب المطابقة تمامًا للبروتوكولات، والتي تساوي "اليهودية العالمية" بـــ "الراسمالية العالمية".

"رغم أن المسؤولين وذوي الخبرة، قد أعلنوا مرارًا وتكرارًا أن البروتوكولات "نكتة خبيثة" فإن عديمي الضمير ما يزالون ينشرونها، وما يزال يتبناها المفتقرون إلى الوعي. يصعب الامتناع عن القلق إزاء هذا الأسلوب الهزلي الذي تقوم فيه جماعات مختلفة، تدّعي أنها تعمل ضد الشيوعية، فتشيع الآراء المسبقة والكراهية بين الجمهور في أمريكا. إنهم بذلك يضعفون مكافحتنا الحقيقية للشيوعية".

وتقول اللجنة، مستخدمة كلمات متطرفة، إن البروتوكولات قد كُتبَت بنص مُهمَل وغير مفهوم، وإنها غير معقولة، صبيانية، مليئة بالتناقضات، وليست سوى حشو كلام، الغاية منه تشكيل "سلاح سيكولوجي". تعتبر اللجنة البروتوكولات أكبر تزييفات القرن [...] أحد أكثر التزييفات خَرَاقَةً وأكبرها في التاريخ الأدبي [...] وثيقة لاسامية تقليدية [...] بِدعَة وهمية لدماغ مريض".

كذلك قالت: "إن ناشري البروتوكولات يستخدمون تقنية "الكذبة الكبرى" الهتلرية. معتمدين على القلق المترسخ لدى الشعب الأمريكي من انتشار الشيوعية، مستغلين الآراء المسبقة التي لا أساس لها. يعرضون المفتاح – مفتاحهم هم – لفهم الكلام الفارغ في تلك البروتوكولات. ما لم يكتبه حتى مألّفو البروتوكولات الأصليون يقوله ناشرو البروتوكولات المعاصرون بلغة مثيرة".

جاء في خاتمة التقرير: "إن اللجنة الفرعية على قناعة من أن أولئك الذين يُبدون استعدادهم لتضليل الشعب الأمريكي، عن طريق الاستمرار بإشاعة هذا الهراء السافر الخبيث، يضرّون بالنضال الوطني ضد خطر الشيوعية ويشوّهونه. تؤمن اللجنة الفرعية بأن أولئك الرَّاغِـــيْنَ بالبرتوكولات، يروّجون لمعتقدات

سخيفة ليست أمريكية، وينشرون الكراهية والشقاق بين أبناء الشعب الأمريكي. يتخفّون بزّي محاربي الشيوعية الكاذب، وهم كالشيوعيين، يحرّضون طبقة اجتماعية على الأخرى، ويستخدمون الدين بذاته للتحريض على الدين، وبذلك يشوّهون النظام الأمريكي".

مُنذ ذلكَ صدرَت طبعات عديدة من البروتوكولات في كل أنحاء أمريكا، فمنذ عام 1990 صدر ما يزيد عن الثلاثين طبعة. في عام 1993 ظهرت طبعة جديدة لكتاب هنري فور "اليهودي العالمي". وقد تبنت النظرية القائلة بوجود "مؤامرة يهودية" جماعة معينة من المسيحيين المتزمِّتين، وجماعات من المليشيات اليمينية، ومنكري الكارثة، وحتى بعض الناشطين بين طائفة السود. يمكن الحصول على البروتوكولات في دكاكين الكتب التابعة للقوميين السود، يقتبس منها زعماؤهم، وقد تم توزيعها في مؤتمر ضخم عقد في نيويورك في أكتوبر 1996، وفي "مسيرة المليون" التي نظمتها منظمة "الأمة الإسلامية"، الواسعة الإعلام، في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة عام 1995.

الجناح العسكري للمليشيات اليمينة في الولايات المتحدة يخطط لمواجهة مع النظام الفدرالي، وبالذات مع سلطة القضاء والقانون، بغية تشكيل جهاز قضائي بديل. يدّعي هذا الجناح أن الحكومة الفدرالية عازمة على تجريد المواطنين من حقوقهم الدستورية وتسليط نظام عالمي جديد؛ فيتم من حين لآخر الاقتباس **عن بروتوكولات حكماء صهيون** من أجل إثبات أن اليهود يقفون وراء هذه الخطة الجهنمية.

في إعلان نُشِر في الصحف، عُرِضَت البروتوكولات للبيع لقاء دولار واحد، من خلال إيضاح بأن الترجمة تمّت على يد فيكتور مرسدن عن كتاب "البروفسور نيلوس" وأنها "أعظم الخطط الشيطانية في التاريخ البشري، وإثبات على أن الشيوعية هي خطة يهودية تهدف إلى استعباد الأغيار عن طريق الحروب

والثورات، والاستئثار بالحكم في خضم الفوضى الناجمة عن ذلك، بغية السيطرة على العالم عن طريق الألمعية الفائقة التي يدعيها أبناء هذا الشعب المختار. الخطة جارٍ تنفيذها، من حدث إلى آخر، بينما يقبعُ غير اليهود في بيوتهم فاقدي الحيلة، غير واعين للخطة العالمية التي تسير برتابة سريعة وقد باتت تحيط بالعالم".

في مقال نُشر في 16 مايو 1983، في التايمز اللندنية، تحت عنوان "تزييفات شوَّهَت التاريخ" ورد ما يلي:

"في أوروبا وفي جنوب أمريكا، وفي كل مكان تُبْعَثُ على هوامشه النازية والفاشية، تظهر البروتوكولات أيضًا. على ضوء ما أحدَثَته من المآسي، ونظرًا إلى ما لا تزال تحملُ من الإمكانيات السامة، يمكن اعتبارها أشدَّ التزييفات شرًّا وإن كانت أعظمها نجاحًا".

نقاش آخر في يوهانسبورغ

قرع جرسُ هاتفي في البيت ذات يوم، تمامًا في اللحظة التي عدتُ فيها من سباحتي الصباحية. كان على الخط صديقي هنري شكنوفسكي، وهو قاضٍ سابق من جنوب أفريقيا قدمَ ليتوطن في إسرائيل مؤخَّرًا، لكنه حادَثني من يوهانسبورغ، حيث قام بزيارة عائلية. كان ذلك عام 1991، وكانت جنوب أفريقيا تجتاز مرحلة أليمة لانتهاج نظام حُكم يخلّصها أخيرًا من وصمة الأبارتهايد. كان النظام الأبيض قد منع منذ سنوات عديدة نشر الكثير من الكتب "غير المقبولة"، أمّا الآن، فبموجب الإصلاحات العامة، أخذت تصدر من حين لآخر قوائم بكتب مختارة سُمِحَ بنشرها. كان هنري شديد التأثر حين رَوى لي كم كانت صدمته شديدة، هو وأصحابه، حين تبيّن لهم أن ***بروتوكولات حكماء صهيون،*** *التي أعتُبِرَت غير مقبولة بموجب قرار حكم صدر عام 1945، وكذلك عام 1979، تظهر في مكان بارز في قائمة الكتب التي تم السماح بنشرها.*

في قرارها من تاريخ 21 يوليو 1991، أقرّت لجنة النشر، بموجب الصلاحية المخوّلة لها قانونيًا، أن كتاب **بروتوكولات حكماء صهيون** لم يعد يُعتبر "كتابًا غير مقبول.

قلتُ لهنري إن مندوبًا لدولة إفريقية، في المؤتمر العام للأمم المتحدة، قد حدَّثَ في حضوري "أن اليهود مذنبون عن كون أخوتنا عبيدًا ورهائن في جنوب أفريقيا". من الآن فصاعدًا سوف يتهمون اليهود بإلغاء نظام الأبارتهايد، أجاب هنري بحزن.

قال هنري إن جماعة من المحامين اليهود تفحص إمكانية البدء باتخاذ إجراءات قضائية، وطلب معرفة رأيي. كان الجميع قلقين من التأثير السلبي لنشر البروتوكولات في ذلك الوقت، لكن كان هناك من اعتقدوا بأن اتخاذ الإجراءات القضائية من شأنه التسبُّب بضرر أعظم؛ فاليهود في جنوب أفريقيا كانوا في مقدمة النضال ضد الأبارتهايد، وكانوا بين الأوساط التي انتقدت حظر نشر الكتب، باعتباره سلاحًا بيد النظام الأبيض. تلك الأوساط قد رحَّبَت بإلغاء الحظر، و نادت بإلغاء الحظر الشامل، وليس الانتقائي، وبانتهاج حرية التعبير على النحو المعروف في الدول الحرّة والديمقراطية، فكيف سيبدو الأمر إذا عارض اليهود إلغاء حظر النشر على كتاب؟ ألا يبدون نتيجة ذلك في نظر الجمهور كمناهضين للحرية؟ ألن يكون هناك من يدّعي بأن اليهود ينادون بمبادئ التحرر وحرية التعبير طالما أن الأمر لا يمسّ بهم؟ ألن يدّعي أحد أن اليهود يدعمون حرية التعبير وقول كل شيء عن كل إنسان، طالما لا يقال شيء عن اليهود؟

لكن ما حال وثيقة قد ثبت زيفها؟ فكَّرت. هل تجيز حرية التعبير نشر كذبة خَطِرَة؟ ألم يحن بعد الوقت لنتمعّن كم من القوانين المقدّسة بحسب الدستور قد تبنَّينا حتى الآن دون تمييز؟ ألم يحن الوقتُ بعد للوقوف في وجه أفراد أو جماعات يَدْعُون جهارةً إلى الكراهية ويخترعون الأكاذيب المنطوية على التحريض على العنف، مستظلّين بمظلة الحقوق الدستورية التي يسيئون استغلالها

على نحو ساخر فاضح؟ كم من الضحايا الأبرياء يجب بعدُ أن يلحق بهم الأذى، لأننا نسمح لأشرارٍ أوغاد باستهدافهم؟

فوجئ هنري بردّي العنيف. لكن مَن الذي يقررّ ما الكذب وما الحقيقة؟

"ما رأيك في قرار حكم محكمة رسمية في جنوب أفريقيا؟"، سألته مُذكّرَةً.

يا للغرابة! فكّرت، كيف تعود البروتوكولات لتطلَّ، عن دون أي مكان في العالم، في دولة صدر فيها حكم رسمي قضى بزيفها قبل 57 سنة. أمَا من مجال للادّعاء بأنه قد تم البتُّ بشأن هذا الأمر، بشكل نهائي على يد محكمة ذات صلاحية، عن طريق التوجيه إلى سجلاّت الأحكام الصادرة في جنوب أفريقيا؟

في الثاني من أغسطس 1991، تمَّ تقديم اعتراض ضد قرار لجنة النشر، إلى لجنة الاعتراضات العليا في دائرة النشر، بشأن السماح بنشر **بروتوكولات حكماء صهيون**.

شارك في الاعتراض كل من لجنة الجالية اليهودية في جنوب أفريقيا، والفرع المحلي للمنظمة العالمية للمحامين ورجال القانون اليهود.

جاء في الاعتراض أن هذا النشر يقع ضمن ثلاثة أنواع من المنشورات التي تم تعريفها في البند 47-2 لقانون النشر القائل:

لغاية هذا القانون فإن النشر [...] يُعتبر غير مقبول إذا كان كله أو جزء منه:

يشهّر بمعتقدات دينية، أو يهينها، أو يمسُّ بمشاعر دينية تخصُّ فئة من مواطني الجمهورية؛

أو

يجعل فئة من المواطنين في وضع مُخزٍ أو مُهين؛

أو

يضرُّ بالعلاقات بين جماعات من السكان في الجمهورية.

إن الجالية اليهودية في جنوب أفريقيا، قال المحامون، هي بالطبع "فئة من مواطني الدولة" ولها حق الدفاع عن مصالحها، وحق

تمثيلها لهذه الغاية عن طريق ممثلين ينطقون باسمها أمام لجنة الاعتراضات.

خلافًا للمحكمة السابقة في يوهانسبورغ، لم يكونوا هذه المرة بحاجة إلى إدعاء شخص لَحِقَ به الضرر شخصيًا، حيث أنه يوجد اليوم قانون يحمي الجماعات والأقليات، يحق بموجبه، لكل جماعة تتعرّض مصالحها للخطر، التوجه شخصيًا أو عن طريق من ينوب عنها.
في عهد ما بعد الكارثة، قالوا، لا ضرورة لإعادة إثبات الخطر الذي تنطوي عليه **بروتوكولات حكماء صهيون**، فالأدلة واضحة على استغلال هتلر للبروتوكولات، وعلى استغلالها المتجدِّد من قبل جماعات النازية الجديدة التي تطل علينا من كل أنحاء العالم.

الوثيقة الرائعة التي قدَّمها المعترضون إلى لجنة الاعتراضات امتدت على 137 صفحة، وقد شملت تاريخ البروتوكولات، والكشوفات عن مصدرها، وبيانًا بالأضرار التي نتجت عنها، وكل ما قيل فيها من طرف الهيئات الأكاديمية المرموقة، والحكومات والبرلمانات والمحاكم.

في 21 نوفمبر 1991، أعلن أعضاء لجنة الاعتراضات السبعة، برئاسة د. و. موركل، قرارهم الذي بموجبه ألغي قرار لجنة النشر السابق. قرّروا بالإجماع أن **بروتوكولات حكماء صهيون** وثيقة "غير مقبولة" يتوجَّب ليس فقط منع نشرها، وإنما أيضًا منع حيازتها.

اجتمع المحامون بموكِّليهم لتدارس القرار.
لقد حققوا نجاحًا قانونيًا هامًا، وأوجدوا سابقة. أما من حيث التمثيل، فقد قررت اللجنة أن الجالية اليهودية تشكل جماعة لها أهميتها بين مواطني الدولة، ونظرًا لواقع أن الوثيقة كان من شأنها الإيهام بأنها وثيقة رسمية تمثل السياسة اليهودية، فإن للجالية اليهودية الحق المشروع بأن يكون لها تمثيل أمام اللجنة.

"سيكون منافيًا لطبيعة العدالة والمرونة والاستقامة، المتعارف عليها في المحاكم الإدارية، لو حُرِموا من هذا الحق". أضاف رئيس اللجنة ملاحظة من عنده: لو لم تطلب الجالية اليهودية تمثيلاً لها، لكان هو بنفسه قد بادر إلى الطلب منها تقديم تقرير بوجهة نظرها في الموضوع. كل تنظيم لرجال القضاء والقانون اليهود له شأن بالأمر، وظهوره أمام اللجنة أمر مشروع.

أبدوا فائق الرضى لاعتراف لجنة الاعتراضات بالخطر الذي تنطوي عليه البروتوكولات، فقد تكللت بالنجاح مساعيهم في إقناع اللجنة بأنه على ضوء تجربة الكارثة يتوجب على جنوب أفريقيا الوقوف مع غيرها من الدول ضد مثل هذه المنشورات، وها قد أعلنت جنوب أفريقيا الآن، وبشكل واضح، أن التشهير الذي لا يستند إلى أساس، ضد جماعة أو أقلية من السكان، لا يحميه القانون في إطار حرية التعبير. لقد تناولَت اللجنة بكل وضوح مشكلة اللاسامية.

خلافًا لما حصل في القضايا السابقة بموضوع البروتوكولات، لم يحتجّ المجيبون على الحقائق الواردة في اعتراض المحامين اليهود، والذي حظي بثناء عظيم ضِمنَ القرار، بل إنهم حتى اعترفوا بكون الوثيقة مزيفة وينطبق عليها التعريف "منشورات غير مقبولة". أما لجنة النشر التي كانت قد أذنَت بنشر البروتوكولات، فقد ادّعَت أنها توصَّلت إلى استنتاج بأن التاريخ قد تغلَّب على هذه الوثيقة، وبأن العلاقات بين اليهود وجيرانهم في جنوب أفريقيا حسنة لدرجة تحُول دون توقُّع أي خطر من وثيقة كهذه.

رفضت لجنة الاعتراضات هذا الادّعاء. قالت إن اللاسامية في تصاعد في بلاد كثيرة، وإن هذه الوثيقة هي "توراة اللاساميين"، وإن جنوب أفريقيا تعتَبر نفسها في مرحلة انتقالية حسّاسة، وتنظر بمزيد القلق إلى محاولات تصعيد الكراهية العنصرية، وهذه الوثيقة تعجُّ بالمقولات التي تمس باليهود وغير اليهود على

السواء، وتكمن فيها احتمالاتُ زيادةِ التوترِ العنصري، فإذا وقعت بأيدي أفراد من ذوي النوايا الشريرة، من شأنها أن تتحول إلى أداة لتحقيق نواياهم. إن في بعض مقاطع البروتوكولات ما يسبب الحرج الشديد لليهود ولغير اليهود، وإنَّ كَون الوثيقة كاذبة، في حين أنه من الممكن أن تنسب إليها أحداث من الواقع، هو أمر يزيد من خطورتها.

دائرة النشر التي وقفت إلى جانب الجالية اليهودية ضد قرار لجنة المنشورات، قد طرحت ادعاءً أساسيًا: تشكل البروتوكولات إهانة شديدة لغير اليهود من المواطنين، وتعرضهم للهزء والسخرية، فهي تبرز غير اليهود كأغبياء يفتقرون إلى العقل السليم، غارقين في السكر والبذاءات. هم الأشرار الحقيقيون في البروتوكولات. كانت المفاجأة حين تبنّت لجنة الاعتراضات هذا الادّعاء كحجة أخرى لرفض الكتاب وحظره، معلنة أن بإمكان جنوب أفريقيا العيش بدون نشره؛ فعلاوة على كونه لاساميًّا، فإن فيه تحريضًا على إبادة غير اليهود.

عودةً إلى روسيا – محكمة في موسكو

في عام 1993، وبالتدقيق 90 سنة بعد أن رأت ***بروتوكولات حكماء صهيون*** *النور لأول مرة في جريدة زناميا عام 1903، وبعد إصدار كتاب سرجي نيلوس عام 1905 بثمانية وثمانين عامًا، أثيرت البروتوكولات للمرة الأولى للمناقشة في محكمة روسية.*

ذات يوم من شهر يونيو 1996، وبعد مضي ثلاث سنوات على تلك المحكمة في موسكو، قرأتُ في إحدى الصحف عن الانتخابات التي باتت قريبة في روسيا. أحد أنصار جوغانوف الشيوعيين اتهم يلتسين بأنه "في جيب اليهود"، وقد كُنِّيَ اليهود بـــ "اليُوَيْهُود" (جيدكي). عادت لتُسمَعَ أصوات تقول بأن الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية الجارية في روسيا منذ السنوات العشر

الأخيرة ما هي إلا تجسيد للمؤامرة اليهودية. في اجتماعات انتخابية جماهيرية، تم تنظيمها لدعم جوغانوف، بيعت للمشاركين ***بروتوكولات حكماء صهيون.***

ساءلتُ نفسي إن كانت القاضية بليكوفا Belikova تُحدِثُ تغييرًا جذريًا لو أنها أظهرت نفس الجرأة التي أظهرها القاضي ماير قبل ستين عام في بيرن، فأعلنت بصريح العبارة زيفَ وكذب ***بروتوكولات حكماء صهيون؟*** *هل كانت تدري أنها تفوّت فرصة تاريخية لتصحيح ما ارتكبه شعبها من الظلم على مدى قرن من الزمن؟ أم أنها كانت تدري، لكنها اضطُرَّت إلى العمل بموجب إملاءات عُليا؟*

علمتُ بوجود قضية في موسكو من فم صديقة لي حضرَت المحكمة، وقد عرفتُها كسيدة مثقفة واسعة المعرفة، وقد دهشتُ حين طلبت إليَّ ألاَّ أذكر اسمها إن كنت سأكتب يومًا ما عن تلك القضية. بعد أن تحقَّقتُ من الوقائع، أيقنتُ أن طلبها نابع عن عقدة الشعور بالملاحقة.

الثورة البلشفية عام 1917 كانت بداية النظام الشيوعي في روسيا، والذي دام 74 عامًا. اختبرَتْ روسيا هزَّة عنيفة أثناء الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة التي تلتها، فقرّرت الآن أن تخترق الحواجز التي عزلتها عن العالم الغربي، وكانت تجتاز مرحلة بطيئة وأليمة نحو الديمقراطية، وذلك بعد أن تنازلت عن سيادتها على سائر الدول التي شكَّلت الكتلة السوفياتية. لكن **بروتوكولات حكماء صهيون** لم تُهمَل في غمرة هذه التحوّلات. في عهد روسيا القيصرية، تم ابتداع البروتوكولات من أجل تحميل اليهود مسؤولية قيادة الحركة الثورية، أما الآن فقد سخَّرها النظام الشيوعي لخدمة سياسته المعادية لليهود، وممارساته السياسية ضد إسرائيل ودعمه الدؤوب للعرب في الشرق الأوسط. انقلبت "المؤامرة اليهودية" إلى "مؤامرة صهيونية"، واستمرَّ اتهام اليهود بأنهم المسيطرون على الاقتصاد والمال عن طريق بنوكهم في "وول ستريت"، واستمرَّ الادعاء بأنهم يديرون حكومات وزعماء العالم ويغسلون أدمغة الجماهير المتحمّسَة، عن

طريق وسائل الإعلام التي تعود كلها إلى ملكية اليهود. تحولت صورة اليهودي البلشفيكي إلى صورة "اليهودي الرأسمالي القادر على كل شيء".

المؤامرة اليهودية التي وُصِفَت في الأصل بأنها موجهة ضد المسيحيين، أصبحت توصف الآن وكأنها موجهة ضد الإسلام أيضًا وضد البلدان العربية، بواسطة إسرائيل، في الطريق إلى السيطرة على العالم. ورغم حقدها على المانيا النازية، التي تسبَّبت قيادتها بموت ملايين الروس، تبنّت روسيا النظرية الهتلرية لتبرير نواقصها وفشلها. على غرار ما كان في عهد القياصرة، بقي اليهود الضحية الأقرب والأسهل، وبقيت نظرية المؤامرة اليهودية الأداة الأنجع لصرف انتباه الرأي العام عن كل تدهور أو مِحنَةٍ وطنية. كان ما يزال بالإمكان الاعتماد على العداء التقليدي الذي ساد في روسيا.

تحوَّلت الدعاية الروسية لتصبح أشدَّ وطأة إثر حرب الأيام الستة، حين قطعت كل دول الكتلة السوفياتية، عداك عن رومانيا، علاقاتها الدبلوماسية بإسرائيل.

في أغسطس 1967 نشرت عدة صحف روسية مقالاً بعنوان "ما هي الصهيونية؟" جاء فيه أن شبكة واسعة من المنظمات الصهيونية تنتمي إلى مركز واحد، لديها خطة موحدة، ومصادر تمويل ضخمة تفوق ما لدى المافيا الإيطالية، تعمل من وراء كواليس "المسرح العالمي". يتألف "الاتحاد الصهيوني العالمي" من ورشات معقّدة في مجال السياسة، والمال، والدين والتجارة، وهدفه المخفي هو استخدام كل الوسائل لإثراء الصهيونية العالمية. وقد دأب الوفد السوفييتي في الأمم المتحدة على إثارة "أطروحة" البروتوكولات في كل مناسبة، وخاصة بغية تعزيز القرار الذي يساوي الصهيونية بالعنصرية، والذي أقرَّه المؤتمر العام للأمم المتحدة في العاشر من نوفمبر 1975.

في نقد لكتاب عاموس أيلون هرتسل، كتبت صحيفة "Sovetskaia Kultura": "على حد تعبير هرتسل، أنه دُفِعَ في باريس إلى كتابة كتاب "**دولة اليهود**"، وهو الكتاب المعروف اليوم بتوراة الصهيونيين، وأن فكرة كتابة الكتاب أتته، على حد قوله، من العلاء، وكان أثناء الكتابة يسمع رفيف أجنحة النسور". في الواقع، قالت الصحيفة، حدث كل شيء على نحو أكثر بساطة: ذات يوم صادف هرتسل إلى جانبه كتاب الماسوني موريس جولي، الذي نُشر في سويسرا قبل 30 سنة تحت اسم مؤلف مجهول. اعتقد هرتسل أن مضمون الكتاب على جانب من الأهمية، وهكذا تحول الكراس، الذي كاد يُنسى، إلى انتحالٍ أدبي مجرَّدٍ من الحياء. سرق هرتسل عن جولي 18 موضوعًا، ونقلها دون أي تغيير تقريبًا، وعرضها كما لو كانت من إبداعه الخاص، وعلاوة على ذلك، فقد استخدم ثلاثين مقطعًا إضافيًا أدخل فيها تعديلات طفيفة".

هذا مثال من ضمن الكثير عن المواد التي نُشرَت في روسيا السوفياتية على الدوام، كتعبير عن السياسة الرسمية للنظام. وأما الجمهور، الذي لم يُسمح له بالوصول إلى المصادر الأجنبية، فقد لجأوا إلى تسميم أفكاره بالتحريض على اليهود وأتخموهُ بالأكاذيب والنظريات التي نقلوها عادة عن **بروتوكولات حكماء صهيون**.

أما اليوم فقد تم القضاء على النظام الشيوعي، فقام النظام الجديد ليس فقط بتجديد العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل، بل وأيضًا بتغيير سياسته تجاه اليهود وإلغاء التحديدات على التربية والثقافة اليهودية وعلى الهجرة اليهودية. الأسرى اليهود الذين ذاقوا أصناف العذاب في السجون وفي معسكرات العمل في سيبيريا السنين الطويلة، أُطلق سراحهم وسُمح لهم بمغادرة روسيا، لكن **بروتوكولات حكماء صهيون** ما زالت حية هناك، يقوم بنشرها الآن معارضو النظام الحالي، إن كانوا من اليمين المتطرف أو من اليسار الشيوعي.

في روسيا معارضة شديدة للنظام الجديد الذي فكّك الاتحاد السوفياتي، والحكومة الروسية تواجه صعوبات جمّة؛ ففي حين أثرَتْ نُخبَة هي قلّةٌ من الناس، فإن الجماهير تعاني من صعوبات اقتصادية، ويتساءل الكثيرون منهم ما إذا كانت الحرية التي ظفروا بها، والتي طالما تاقوا إليها، تستحق هذا الثمن. الوقت ملائم لاتهام اليهود من جديد، وما هو الأكثر مناسبة لهذه الغاية من **بروتوكولات حكماء صهيون**؟ ما بين ليلة وضحاها تحوَّل معارضو النظام إلى مؤيدين متحمسين لحرية التعبير!

بين المنظمات المعادية لليهود في روسيا تبرز منظمة بمياط، وهي منظمة متطرفة تدعم القومية الروسية بحماس. بدأت منظمة بمياط، عام 1991، بإصدار صحيفة تحمل اسم المنظمة، وقد نشرت في عدديها الأوَّلين مقاطع واسعة من البروتوكولات، أرفقتها برسوم كاريكاتورية بدت وكأنها أُخِذَت عن المنشورات الألمانية النازية. بالإضافة إلى مقاطع من البروتوكولات، وردت أيضًا ترجمة إلى الروسية لمقال كان قد نُشِرَ عام 1955 في بوينوس آيريس تحت عنوان "نظرية المؤامرة العالمية"، يُحَدِّدُ المقال أن البروتوكولات هي ترجمة عن العبرية القديمة، وأن ثمة شهادات لأشخاص ما يزالون على قيد الحياة، عاشوا في أوديسا عام 1890، وشاهدوا الوثيقة الأصلية.

في السابع من مايو 1991 نشرت جريدة "زه شمو" اليهودية قائمة بالصحف اللاسامية في روسيا، التي لم تخلُ إحداها من نشر المواد اللاسامية، ومن بينها صحيفة هامة مثل "برافدا". لم يأتِ أي ردّ مدَّة عام ونصف العام، إلاّ أن صحيفة بمياط، التي شملتها القائمة بطبيعة الحال، رفعت في 26 نوفمبر 1992 دعوى تشهير ضد الجريدة اليهودية ومحررها السيد غولنبولسكي. جاء في الادّعاء أنهم ليسوا معادين للسامية، والدليل على ذلك أنهم أصدقاء العرب الذين هم أيضًا ساميّون. إن وصفهم باللاسامية يُلحق ضررًا لا يُقدَّر بصورتهم في العالم، ولذا فهم يطالبون بتعويض، بلغ لاحقًا مبلغ 20 مليون روبل.

قال السيد غولنبولسكي إن محض نشر **بروتوكولات حكماء صهيون** هو بحد ذاته عمل لا ساميّ.

في 26 يناير 1993، فُتِح فصل جديد في ملحمة **بروتوكولات حكماء صهيون** الأليمة، في قاعة محكمة روسية، في الطابق الثاني من بناية قديمة في حي تشرموشكي في موسكو.

على كرسي القضاء جلست القاضية ڤـولنطينا قنسطنطينوڤـا بليكوڤـا، وإلى جانبها اثنان من الوجهاء، كما هو مألوف في الأنظمة والإجراءات المحلية.

أحسَّ اليهود أنهم يعودون على شريط معروف لهم حين عيَّنت المحكمة، هذه المرة أيضًا، خبراء ليدلوا بوجهة نظرهم إن كانت البروتوكولات حقيقية أو زائفة. وكما سبق وفعل القاضي ماير في بيرن، طلبت هذه المحكمة أيضًا أن يجيب الخبراء على أسئلة من ضمنها الأسئلة الأربعة التالية:

1- هل **بروتوكولات حكماء صهيون**، التي تبدو وكأنها تكشف عن مؤامرة يهودية للسيطرة على العالم، زائفة أم لا؟

2- هل استخدم هتلر **بروتوكولات حكماء صهيون** في كتابه "كفاحي" (Mein Kampf) وهل كان لها دور في الدعاية النازية؟

3- هل **بروتوكولات حكماء صهيون** تُعتبر أداة أساسية في الدعاية اليهودية، وهل شَكَّلت سلاحًا أيديولوجيًا للقيام بـــ "إبادة شعب" ضد اليهود، في روسيا (في المجازر) وفي ألمانيا؟

4- هل تشكّل الرسومات المعينة، التي رافقت نشر البروتوكولات في العددَين الأولين لصحيفة بمياط، دعاية مناوئة لليهود، من شأنها تأجيج الكراهية القومية والمساس باحترام الذات وتحقير الكرامة الوطنية؟

من خلال صيغة الأسئلة بدا أن القاضية تأخذ موضوع القضية بمنتهى الجديَّة.

المدّعي، وسيلييف ديمتري دمتريفيتش، محرر وناشر صحيفة بمياط، ارتدى للمناسبة بدلة أنيقة تليق برجال الأعمال، أما الجماعة الكبيرة من مؤيديه فقد ظهرت بالزيِّ الأسود. أفاد المحامي أكسلبند أنه يمثل الصحيفة اليهودية ومحررها غولنبولسكي المتواجد في القاعة. أكسلبند رجل طويل القامة، جميل الهيئة، ذو لحية دقيقة، وقف وانحنى إجلالاً للقاضية. اختار يهود موسكو عدم التواجد في قاعة المحكمة، إن كان ذلك لدواعٍ أمنيَّة أو كان نتيجة عدم المبالاة.

لم تكن القاضية راضية عن وجود المصورين الذين استدعتهم صحيفة بمياط. حين طلبت منهم الكفَّ عن التصوير (إنه ليس أمرًا، بل مجرّد رجاء مؤدّب – همس أكسلبند لموكِّلِه) ردَّ وسيلييف بقوله إنهم بحاجة للصور للاحتفاظ بها في أرشيفهم، ووعد: "لن تصل إلى مكان آخر". استمرّت آلات التصوير "بالتكتكة"، وبدت القاضية في حرج، لكنها لم تعلّق.

خُصِّصَت الجلسة الأولى للاستماع إلى جدال قصير حول مصطلح "اللاسامية". ادَّعى أصحاب الصحيفة بمياط بأن اليهود يشكّلون فقط 7% من مجموع العِرق السامي في العالم، وأنهم ليسوا ضد العرب، وأضاف أنهم عمليّا ليسوا ضد اليهود، هم فقط ينشرون حقائق معروفة وذائعة.

بدا الملل على الجميع، وقد واجهت القاضية صعوبة في المحافظة على النظام داخل القاعة. تجول الحاضرون من مؤيدي بمياط بمنتهى الحرية، صخبوا ولم يبالوا بإنذارات القاضية، وقهقهوا أحيانًا بأصوات عالية ساخرين من الشهود.

في 29 أكتوبر 1993 استمعت المحكمة بإنصات إلى شهادات ثلاثة خبراء. أما الخبيرة الرابعة، السيدة ملكوڤا Malkova

من معهد الأبحاث التابع لوزارة الداخلية، فقد استقالت. بَلغَ المدَّعي ومحاميه أنها تخشى على حياتها.

كان الخبراء الثلاثة الباقون كلهم من غير اليهود، وعلماء من الدرجة الأولى: ألكسندر كريلوف، خبير في علوم التاريخ من المعهد الجامعي للدراسات الآسيو-أفريقية في جامعة موسكو، ليونيل ددياني، مؤرّخ في الدين، وزويا كرخملنيكوفا، كاتبة ذائعة الصيت في المواضيع الدينية الأرثوذكسية الروسية.

حقّق الخبراء الثلاثة في **بروتوكولات حكماء صهيون** وأجمع ثلاثتهم على الرأي بأن الوثيقة زائفة وعلى جانب شديد من اللاسامية، تم تأليفها واستخدامها للتحريض على اليهود.

فاجأت شهاداتهم وسيلييف، فعلى حدِّ علمه أن اثنين على الأقل، هما كريلوف وددياني، تلفظا سابقًا كأعداء للصهيونية. حين اعتلى ددياني منصة الشهود حيّاه وسيلييف مباهيًا بأن في بيته رفّان ممتلئان بكتبه، وأنه يستقي منها المشورة بين الحين والآخر، بيد أنه لم يخطر بباله أنه أمام عالِمَين شهيرين قد عيَّنتهما المحكمة وأقسما على إبداء رأيهما المِهَني بكل صدق.

أبلغ كريلوف المحكمة بأن شهادتة تعبِّر عن آراء كل زملائه في المعهد، الذين دهشوا لطلب المحكمة هذا، فقد كانوا يعتقدون إن مسألة **بروتوكولات حكماء صهيون** قد فُصل أمرها منذ زمن لدى الشعب الروسي، فحتى جماعة المئات السود امتنعت عن ذكر البروتوكولات في قضية بيبليس، لأن ذوي الفكر والمعرفة في روسيا أيقنوا أن الوثيقة زائفة ولا أساس لها من الواقع.

كشف الشاهد أيضًا عن أنه خبير باللغة العبرية وأنه حقّق في الكثير من الوثائق اليهودية. قال إن في البروتوكولات ألفاظًا لا يمكن لأي يهودي أن يتلفَّظ بها.

ردًّا على سؤال معين، ومن خلال اقتباسه عن ألفرد روزنبرغ وعن كتاب هتلر، شرح الشاهد للقاضية بإسهاب كيف استخدم النازيون البروتوكولات في دعايتهم. إن هذا الكتاب يستند تمامًا إلى البروتوكولات، قال وهو يشير إلى كتاب "كفاحي" الذي اقتبس عنه.

حين سألته القاضية إن كان يتوجّب منع نشر البروتوكولات، لم يرتح لمحاولة إلقاء المسؤولية على كاهله، أجاب: "هذا القرار يعود إلى المحكمة، وليس إليَّ"، وأضاف على الفور: "هناك بالطبع مسؤولية الخبير الأخلاقية". كذلك أفضى للمحكمة بأنه درس تاريخ الصهيونية في جامعة موسكو على يد المحاضر يوري سرجيفيتش إيـڤـانوف، مؤلف كتاب "حاذورا، الصهيونية!"، المعروف بأنه كاتب لاسامي متطرف. حين سُئل هذا المحاضر ذات يوم، من قبل الطلبة، لماذا لم يستند في كتابه إلى **بروتوكولات حكماء صهيون** التي يطابق مضمونها آراءه إلى حد بعيد، ردّد لهم مقولة القيصر الشهيرة بخصوص البروتوكولات "يجب ألاّ نعمل بالوسائل الباطلة من أجل الغاية السامية"، أضاف الشاهد قائلاً: مرَّت سنوات لم يكن فيها بالإمكان العثور على البروتوكولات إلاّ في الأرشيفات، وهي اليوم تباع في كل مكان.

حين ارتقى ددياني منصة الشهود صرّح بأنه يوافق تمامًا على ما جاء في شهادة كريلوف. قال: لا حدود لترويج الأكاذيب، حتى أن أحد الكتاب، وقد كان ضابط إيقاع (طبّالاً)، بعد أن قرأ البروتوكولات قال إن نيلوس نفسه كان يهوديًّا.

سأله المحامي أكسلبند إن كان من المحتمل لرجل الشارع الذي يقرأ البروتوكولات أن ينمّي المشاعر المعادية لليهود؟

هذا سؤال بليغ، أجاب ددياني. إن الرجل الروسي، وبالذات إذا كان ثملاً، ونظرًا للصعوبات الي يواجهها في مثل هذه الأيام، سيفرغ غضبه على كل إنسان يبدو له يهوديًا يصادفه في طريقه.

لكن أكثر الشهادات إثارة كانت شهادة الأرثوذوكسية المتحمِّسة زويا كرخملنيكوفا، التي وقفت على منصة الشهود، بشعرها المُبْيَضّ، ولباسها البسيط، وأعلنت بإقناعٍ شديد: "أتيت لأشهد في هذه المحكمة بما يُملي ضميري". وبينما أشارت إلى وسيلييف أضافت: "أنت وأعضاء حزبك، سدَّدتم الإهانات ليس فقط إلى اليهود، بل إلى الشعب الروسي قاطبة، وبالأخصّ إلى المسيحية والكنيسة [...] البروتوكولات وثيقة زائفة شكَّلت الأساس لنظرية هتلر[...] قمتم بعمل مخالف للمسيحية وغير إنساني، عليكم التعبير عن الندامة كعادة المسيحيين[...] إن أساس المسيحية المحبة، لا الكراهية لأيِّ شعب، وبالأخص لليهود الذين كان يسوع، مسيحنا، واحدًا منهم".

في 26 نوفمبر عُقدت جلسة المحكمة الأخيرة. كانت التوقعات عظيمة، ولوحظ هذه المرة حضور اليهود الذين قالوا في أنفسهم: وأخيرًا سوف تعلن محكمة روسية زيف البروتوكولات. كانوا يأملون أن تستيقظ السلطات في هذه المرة وتمنع نشر البروتوكولات في روسيا، كما فعلت السلطات في فرنسا في مايو 1990، بعد الاعتداء على مدافن اليهود في كربنترز.

وفعلاً، شعر الحضور من اليهود بالارتياح في ذلك اليوم، لكنهم لم يتوقعوا ألاّ تكون تلك هي الخاتمة.

طبقًا للإجراءات المألوفة في روسيا، يشارك مندوب عن الادّعاء العام للدولة حتى في القضايا المدنية. حين أتيحت الفرصة لممثلة الادعاء العام لقول ما عندها، أعلنت بلهجة واثقة أن المطلوب من المحكمة أن تحكم بأن ما نشرته صحيفة بمياط مادة لاساميّة، وأن **بروتوكولات حكماء صهيون** زائفة.

بدت القاضية بلينكوفا راضية، أومأت برأسها، وقرّرت في الحال رفض دعوى بمياط وتغريم المدّعين بدفع المصروفات

للصحيفة اليهودية والمحامين بقيمة 250,000 روبل، كما أعلنت القاضية عن تأجيل تعليل قرار الحكم إلى موعد لاحق.

لم يتم استدعاؤهم إلى المحكمة بعد ذلك اليوم، لكن تعليل قرار الحكم قد وصلهم عن طريق البريد. بدا لهم واضحًا أن انقلابًا قد حدث في نظرة القاضية أثناء كتابة التعليلات، وأن الدلائل كلها تشير إلى أن التعليلات قد أمليَت عليها من فوق.

الحجة الوحيدة لترسيخ قرار الحكم كانت المادة 7 من "قانون وسائل الإعلام" الصادر عام 1990، والذي ينص بمنح حرية التعبير على نحو واسع. أمكن الاستنتاج من النص القصير أن في نطاق السماح بحرية التعبير التي منحها القانون للجميع، كان من حق بمياط أن تنشر ما نشرت، ومن حق الصحيفة اليهودية أن تكتب عن ذلك ما كتبت.
كلمة "اللاسامية" لم يرد ذكرها ولو لمرَّة واحدة.

أما بخصوص **بروتوكولات حكماء صهيون**، فقد جاء في القرار: قدّم الطرفان ادعاءاتهما المتناقضة، وذلك من حقهما، لكنها كانت مجرّد آراء شخصية، والآراء ليست بيّنات يُعتَمَدُ عليها. قرَّرت المحكمة أنها لا تملك صلاحية الحسم في موضوع حقيقة البروتوكولات.

وماذا بشأن الخبراء؟ ساءل الحاضرون بعضهم. إذا كانت آراء الخبراء الذين عينتهم المحكمة تُعتبر مجرَّد آراء شخصية، فما طعم تعيينهم؟ وأي معنى لبحث قضية طويلة كهذه؟ فمن أجل رفض الدعوى بناء على قانون حرية التعبير، لم يكن طعم لمناقشة القضية برمَّتها! قال بعضهم لبعض.

لم يكن لدى الناس أدنى شك في أن شيئًا ما قد حصل بعد جلسة المحكمة الأخيرة. فعندما أعربت مندوبة المدّعي العام عن رأيها الحازم، بدا واضحًا أن القاضية تتفق معها. ارتاب الجميع في أن

تكون القاضية قد أقدمت من ذاتها على هذا الفعل المفتقر إلى المنطق.
استأنف الطرفان إلى المحكمة البلدية في موسكو.
طلبَتْ بمياط إلغاء قرار الحكم، وطلب غلنبولسكي الحسم في الموضوع الذي ناقشته المحكمة.

اقتبس المحامي اكسلبند مادة معينة من القانون تُخوّل المحكمة صلاحية الحسم في أمر صحة وثيقة ما، وتعيين الخبراء لإبداء رأيهم المهني. قال: مع أن المحكمة قد استعملت هذه الصلاحية وقامت بتعيين الخبراء، إلاّ أنها بالتالي قد تجاهلت كليًّا رأيهم ذا المفهوم الوحيد، كما تجاهلت الوثائق العديدة التي أبرزها المدَّعى عليهم، والتي جُمِعَت من مختلف أنحاء العالم. وأضاف بحُرقة: في هذه القضية لا يمكن الاكتفاء برفض دعوى بمياط.

لكن النتيجة كانت جليَّةً سلفًا. انتدب الادعاء العام في هذ المرة مُدّعية غير الأولى، وكان واضحًا أنها والقاضية التي ترأست الهيئة، لم تقرأا الملف، ولم تكن لديهما أدنى فكرة عن الموضوع. بعد الاستماع إلى ادّعاءات الطرفين، خرج القضاة للتشاور. كان بين الجمهور مَن قال مازحًا: إن التشاور يتم عن طريق الهاتف مع المسؤولين.

بعد عودتهم إلى القاعة، أعلنوا أن الاستئنافَين مرفوضان، دون تعليل القرار.
لعلَّ نظام الحكم قد تبدَّل؟ قال اليهود لبعضهم. لكن موسكو ليست بيرن!

نظرة العالم الإسلامي

في أكتوبر 1976، في مقال نشرته صحيفة الشؤون الخارجية (Foreign Affairs)، كتب البروفسور برنارد لويس من جامعة بريستون، وهو أحد الخبراء المعروفين في الدراسات الإسلامية، أن **بروتوكولات حكماء صهيون** يجري اقتباسها في الأدب العربي في كل أنحاء العالم لدى تناول المواضيع اليهودية، ولم يقم أي كاتب عربي، على حد علمه، بدحض حقيقة البروتوكولات أو بإثارة الشك في صحَّتها.

لكن الدكتور عبد الوهاب المسيري، أستاذ الأدب الإنجليزي والمقارن في جامعة عين شمس، القاهرة، قد خالفه الرأي في مقال نشرتة الصحيفة إيّاها في أبريل 1977، حيث قال فيه إن مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت – إحدى أشهر المؤسسات الرائدة التي تنشر أدبًا يتعلق بالمشكلة اليهودية – لم يتناول أبدًا موضوع البروتوكولات، وإن كـــان قد فعل، فقد

غلاف لكتاب صدر في مصر عام 1986

تناوله بالسلب. وأضاف المسيري: "في بحث الدكتور رزوق في التلمود والصهيونية، أعرب عن معارضته الشديدة للنظر إلى "المؤامرة" اليهودية أو الصهيونية كما يراها آخرون من الكتاب العرب، مثل ش. العطية، مدير معهد الأبحاث الفلسطينية في بغداد، في التلفزيون العراقي في ربيع 1974، ومثل عبد الوهاب الكيالي، من الشخصيات الرائدة في منظمة التحرير الفلسطينية في دمشق". الكاتب نفسه شغل لمدة أربع سنوات منصب رئيس "وحدة الفكر الصهيوني" وعضو مجلس الخبراء بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية في دار الأهرام في القاهرة (1970 ــ 1975)، وقد نشر عام 1974 مقالاً بعنوان **بروتوكولات حكماء صهيون.** "في ذلك المقال تتبَّعتُ تاريخ ذلك الكراس، وذكرتُ بوضوح أن هناك من يعتقد بزيف البروتوكولات. علاوة على ذلك، قلتُ في المقال إن الاختلاف بين الجاليات اليهودية في العالم، من حيث التجربة التاريخية، ينفي النظرية التجريدية حول "المؤامرة اليهودية" أو "حكومة اليهود العالمية"".

"إن هذا كله"، كتب الدكتور المسيري، "يبيّن أن جميع المعاهد العربية تقريبًا، التي تهتم ببحث المواضيع اليهودية والصهيونية، تنظر سلبيًّا إلى البروتوكولات وتشير إليها كإحدى الوثائق اللاسامية التي لا تستحق الاعتبار".

لماذا يقول المسيري في نصّه "هناك من يعتقد بزيف البروتوكولات"؟ علّقَ البروفسور لويس. لماذا لا يقول بصراحة إن الوثيقة مزيّفة وقد كُتبَت للتحريض على اليهود؟

بعد مضيّ 18 سنة، وبعد وقت طويل من توقيع إسرائيل لاتفاقية السلام مع مصر، صدر كتاب شمعون بيرس "شرق أوسط جديد"، بمختلف الترجمات إلى العربية.

بيرس، مهندس اتفاقية السلام بين إسرائيل والفلسطينيين، والحائز على جائزة نوبل للسلام، قد وصف في كتابه رؤيا ازدهار الشرق الأوسط في زمن السلام. بيد أن المقدّمات، لمختلف الترجمات

إلى العربية، تضمَّنت ادعاءات بأن الشرق الأوسط الذي يراه بيرس ليس إلاّ وصفة للسيطرة اليهودية على المنطقة.

لقد بالغ أحد الكتَّاب غير المعروفين حين نشر في مصر طبعة أردنية للكتاب، فأورد في المقدمة فقرة كان قد سبق نشرها في كراسةٍ جدليةٍ بتوقيع الكاتبة سعاد منسي:
"حين اكتُشِفت **بروتوكولات حكماء صهيون** قبل 200 عام، وتمت ترجمتها إلى لغات عديدة، من ضمنها العربية، حاولت الحركة الصهيونية نفي وجود مؤامرة، مدَّعية أن الوثيقة زائفة، وقد حاول الصهيونيون شراء كل نسخات الكتاب، للحيلولة دون انتشاره بين الناس. والآن يزوّدُنا شمعون بيرس بإثبات قاطع على أن البروتوكولات حقيقية، وأن ما جاء فيها هو الحقيقة بعينها. إن كتابه هذا يشكّل خطوة أخرى في تنفيذ هذا المخطَّط الخَطِر".
تجاهلت الكاتبة، طبعًا، بعض الحقائق التي لا جدَلَ فيها: فالبروتوكولات لم تُكتَشَف قبل 200 عام، والحركة الصهيونية لم تكن قائمة قبل 200 عام.

في الواقع، تبنّت الدول الإسلامية **بروتوكولات حكماء صهيون** كجزء من أديولوجيتها المعادية للصهيونية، بما في ذلك النظرة اللاسامية. البروتوكولات التي كُتِبَت في البداية كنموذج لمؤامرة يهودية ضد المسيحية، قد اكتسَت منذ زمن زيَّ وثيقة معادية للعرب، وما يزال يُنظَرُ إلى اليهود كمن يريدون السيطرة على العالم، لكنهم يخططون، في المرحلة الأولى، للسيطرة على الدول المجاورة في الشرق الأوسط. هل "طُبِخَت" المؤامرة في المؤتمر الصهيوني الأول في بازل؟ قيامُ دولة إسرائيل، وانتصاراتها على العرب، بدعمٍ من الدول الأجنبية التي يوجّهها اليهود، كل ذلك يشكّل إثباتًا قاطعًا لصحة البروتوكولات وما تتضمّنه من الحقائق الثبوتية. خلافًا لحال الدول الأخرى، التي تنتشر فيها البروتوكولات فتقتبس عنها الحركات اللاسامية والعنصرية، شكّلت البروتوكولات في الكثير من الدول العربية جزءًا من

التيّار الرئيسي في الأدب، ويتم نشرها على يد دور نشر لها اعتبارها، وتقتبس عنها بإسهاب الصحف الرسمية وشبه الرسمية، كما يتم نشرها بين الجاليات المسلمة في بلاد الغرب، وفي أوساط الطلبة في مختلف الجامعات في العالم الثالث.

في كتابه "الساميون واللاساميون"، الصادر عام 1987، كتب البروفسور برنارد لويس: "إن تشويه صورة اليهود في النصوص العربية يتجاوز بكثير ما عُرِفَ في الأدب الغربي، ما عدا ألمانيا النازية؛ ففي دول الغرب، مقابل التشويه للتاريخ والدين والأدب اليهودي، يوجد أدب يزخم بالأبحاث العلمية الأكاديمية [...] هذه الأبحاث المعدِّلَة نجدها بقدر ضئيل في الأدب العربي".

عباس محمود العقاد، أحد مشاهير الكتّاب في مصر، كتب مقدمة الإصدار الأول للبروتوكولات في مصر، عام 1951. إلى ذلك الوقت، كانت قد صدرت عشر طبعات للبروتوكولات في البلاد العربية الأخرى. الغريب في الأمر، كتب العقاد، أن كتابًا رائعًا كهذا يصدر في مصر للمرة الأولى بنصّه الكامل، رغم أنه يتوجّب على كل الدول العربية معرفة ما يحتويه، بصفتها ضحية وعد بلفور وإقامة دولة اليهود على الأرض الفلسطينية. كما ذَكَرَ أن ناشري البروتوكولات في العالم كله يعملون بدافع الإيديولوجية، وليس بدافع الربح، وأن كل طبعة تنفُق من الأسواق خلال أسبوع.

أضاف المترجم مقدمة طويلة من عنده، كشف فيها لقرّائه العرب عن أن اليهود كانوا فعلاً قد وضعوا خطّتهم للسيطرة على العالم وتمليك ملك من نسل داوُد، في الكونغرس الصهيوني الأول في بازل عام 1897، وبحسب معلوماته، فقد شارك في ذلك الكونغرس "شيوخ صهيون الثلاثمائة كلهم".

وأما بشأن الادعاء بزيف البروتوكولات، فقد جاء في المقدمة: "الحقائق تتحدّث عن ذاتها".

تتحدث الصحافة العربية بشكل دائم عن السيطرة الاقتصادية باعتبارها جزءًا من الخطة اليهودية. في نوفمبر 1985 نشرت صحيفة "الاقتصاد" السورية مقالاً بقلم علي حاج بكري، جاء فيه أن اليهود والصهيونيين يحاولون منذ مئات السنين السيطرة على اقتصاد العالم طبقًا لما ورد في **بروتوكولات حكماء صهيون،** وهذه البروتوكولات يعتبرها اليهود رسالة من أنبيائهم، لها تأثير أوامر التوراة أو التلمود. وهو يقتبس مقاطع من البروتوكولات للدلالة على أهمية الذهب كمصدر قوة في نظر اليهود. تعمل "يد اليهود الخفية" للسيطرة على البنوك والإعلام وعالم التجارة والأعمال. انخفضت أهمية "الذهب الأصفر" مع الزمن، وقد أدّى "الذهب الأسود" إلى تزايد التأثير العربي. لهذا السبب يحاول الصهيونيون الآن السيطرة على حقول النفط في العالم، فعادوا إلى استخدام الخطّة المجرّبَة المفصّلة في البروتوكولات، محاولين إحداث أزمة عالمية، في المجال الاقتصادي وفي المجال السياسي على السَّواء. وإزاء هذه القدرة اليهودية، يجد العرب أنفسهم عديمي الخبرة والحيلة.

من أجل إقناع قُرّائه يقتبس بكري بشكل موسّع عن "وثائق تاريخية": كان وزير مالية نابوليون يهوديًّا، وقد أقنع الإمبراطور بغزو الديار المقدسة؛ كان رئيس الحكومة اليهودي ديزرائيلي وراء امتلاك بريطانيا لأسهم في قناة السويس؛ كان اليهود السبب في سقوط السلطان العثماني عبد الحميد عام 1908 على يد جماعة من اليهود تظاهرت باعتناق الإسلام؛ نجحت هذه "اليد الخفية" عام 1968 بإحداث أزمة مالية في فرنسا، عقابًا لدعم ديغول للعرب، وقد حصل ذلك أيضًا على يد جماعة تتصرّت من اليهود. حتى السياسة المصرية التي أدّت إلى عقد اتفاقية السلام مع إسرائيل هي ثمرة الأحابيل اليهودية. بين السنوات 1938-1948 دخلت في الإسلام 1200 أسرة يهودية، (على غرار توقّعات الرئيس بنيامين فرانكلين عام 1879)، وتمكن أبناؤها من احتلال مراكز قوة، لا تتناسب بأي شكل من الأشكال ونسبتهم من سكان مصر.

مما يثير الدهشة، أن استغلال البروتوكولات لم يقتصر على سوريا، التي هي في حالة حرب مع إسرائيل، بل شمل أيضًا دولاً وقَّعت معاهدات سلام مع إسرائيل، مثل مصر والأردن، حيث تباع هناك في دكاكين الكتب، وتدخل في البرامج التعليمية في المدارس، وتنشُر الصحف الرسمية وشبه الرسمية مقتطفات منها بين الحين والآخر.
خلال عملية السلام التي دعمتها مصر، ما بين إسرائيل والفلسطينيين، ظهرت في مصر طبعة جديدة للبروتوكولات، شملت مقدّمة جاء فيها أن البروتوكولات صحيحة وأن المؤامرة اليهودية حيّة وقائمة.

في 9 سبتمبر 1993، نشرت جريدة "أكتوبر" شبه الرسمية، مقتطفات واسعة من البروتوكولات، مشيرة إلى أنها تشكل تقريرًا حقيقيًا عن اجتماعات سرية تمّت من وراء الكواليس في الكونغرس الصهيوني الأول. وقد أوردت الجريدة سلسلة اقتباسات "من أفواه اليهود": "الحرب ضرورية لزيادة البلبلة التي تؤدي إلى الخضوع الأعمى"؛ "نحن ملوك الكون والآخرون كلهم عبيد لنا": "نحن الوحيدون خُلِقنا على صورة الله، الآخرون كلهم وحوش ضارية". هنا أيضًا يتم التشديد على "**حكماء صهيون الثلاثمائة**"، ويوصف نيلوس بأنه "عالم روسي"، تنبأ بإقامة دولة اليهود في فلسطين، وبسقوط الأنظمة الملكية في أوروبا، وبالحربين العالميتين اللتين ستُسْفِــران عن اشتداد ساعد اليهود. وقد حصل كل شيء حسب تنبؤاته. أعلن هرتسل أن البروتوكولات قد سُرِقَت، ويدَّعي اليهود بأنها زُيِّفَت، لكن البروتوكولات تُكرِّر ما قيل في التلمود و "تتحقق أمام أنظارنا".
بعد المقتطفات من البروتوكولات تأتي اقتباساتٌ عن هتلر الذي عَرِفَ أن اليهود يخدعون العالم، وتوقّع أنهم لن يكتفوا بدولة واحدة، بل يخططون للسيطرة على العالم. ينتهي المقال بالكلمات: "ألن يتَّعِظَ العالَمُ أبدًا؟!"

هناك أيضًا بعض الاتهامات التي تُذكّرُ بتلفيقات الدم. لا يكتفي اليهود في المرة هذه بقتل طفل مسيحي واحد، بل إن الصهاينة ينشرون المخدّرات ويجتذبون المصريين إلى مذاهب شيطانية؛ يُغرقون مصر بالفواكه والخضار المسمومة، ويصدّرون إلى مصر نوعًا من العلكة من شأنه إغراء النساء للقيام بعمليات السطو. وأما القتل والذبح وإبادة الشعب فإن مصطفى محمود يصفها في الأهرام على أنها "وصايا أساسية في الديانة اليهودية".

في 23 يناير 1997 اتهمت الأهرام إسرائيل بنشر فيروس الإيدز بين 305 من الشبان الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية. برغم اضطرار الجريدة إلى تكذيب الخبر على صفحتها الأولى بعد 4 أيام، عاد السيد رملاوي، ممثل السلطة الفلسطينية في لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة في جنّيف، ليثير القضية من جديد، وذلك في 11 مارس 1997. وقد سبق وأن أثيرت التهمة ذاتها على يد رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في رسالة إلى السكرتير العام للأمم المتحدة من تاريخ 4 أبريل 1983، حيث ادعى أن إسرائيل تسمّم 300 طفلاً فلسطينيًا في نطاق ما أسماه "إبادة شعب".

في يناير 1997 اقتبست صحيفة Egyptian Gazette عن البروتوكولات، لتدعمَ حجتها بأن الصهيونيين يتسلطون على اقتصاد مصر كجزء من خطّتهم للسيطرة على العالم. بعدما انتقدت الرابطة لمكافحة التشهير قيام صحيفة رسمية تملكها الحكومة، بدوافع لاسامية، بنشر ما زُعِمَ أنه "بحث علمي"، قامت الصحيفة بنشر مقتطفات موَسَّعة من "**بروتوكولات حكماء صهيون**"، الكتاب الذي تعتبرة مؤسسات كثيرة في العالم ككتاب يفصّل أهداف الصهاينة السرية الرئيسية ومخططاتهم.

في خطاب علنيّ عام، القاه رئيس حكومة ماليزيا، الدكتور مهاتير محمد يوم الجمعة 10 أكتوبر 1997، ادّعى أن اليهود يقفون من وراء هبوط قيمة العملة الماليزية، وأنهم يتآمرون على اقتصاد بلاده. كما كتبت جريدة NATION المحلية في عنوانها

الرئيسي: "رئيس الحكومة: اليهود غير سُعداء بتقدُّمنا". كانت قيمة العملة الماليزية (الرينجيت) قد انخفضت منذ شهر يوليو بنسبة 18% مقابل الدولار الأمريكي، فارتفعت أصوات تتهم الحكومة بانتهاج سياسة مالية خاطئة. الظرف مناسب لتوجيه الرأي العام نحو كبش الفداء المتوفِّر. لعلَّ الناس لم يسمعوا بأصحاب البنوك الثلاثمائة الذين تحدّث رتناو عنهم، لكن الوسيلة المجرَّبة في إلقاء مسؤولية الأزمة الوطنية على مجموعة أصحاب الأموال اليهود قد أثبتت نجاعتها في الماضي، وليس ثمه ما يمنع جدواها ثانية، حتى في بلد يخلو من اليهود. لكن "المؤامرة اليهودية" ليست موجهة هذه المرّة ضد المسيحية، وإنما ضد الدول الإسلامية. إنه لا يريد اتهام اليهود مباشرة، قال رئيس الحكومة، لكنه يظن أن لليهود جدول أعمالهم الخاص. وبالمناسبة، أضاف وكأنه فطن فجأةً، "نحن مسلمون، وهؤلاء الناس لا يُسعدهم نجاح المسلمين". إنهم ليسوا بحاجة إلى المسدسات والخناجر، يستخدمون سوق المال لنهب ماليزيا.

أثار الأمر حفيظة الصحافة العالمية، وقامت بعض الصحف بنشر أقوال الرئيس على صفحاتها الأولى. حذَّر زعماء المعارضة من أن رئيس الحكومة يسير فوق "حقل ألغام". بعدَ يومين، نشر الرئيس "توضيحًا": إنه لم يتهم اليهود، وكل ما فعله هو أنه ذكر، عَرَضًا، حقيقة أن مَن لهم يدٌ في هذا التلاعب المالي الدولي، الذي يدمّر بلاده، هم "بالصدفة" من اليهود، "ونحن بالصدفة مسلمون"، وأضاف أنه لا يجرؤ على اتهام اليهود، "إنهم العِرق الأقوى في العالم. ممنوع أن نشيع مثل هذه الاتهامات الوحشية، فسوف يلوُون يدَنا". أعرب عن أمله في أن لا تكون هناك محاولة تضعه في مواجهة مع اليهود. في توجُّه مباشر إلى ممثلي وسائل الإعلام، أضاف: "أرجوكم، لا تثقلوا عليَّ. لا يهمني أن أجد نفسي في موقف صعب، لكنهم يعتدون على عُملتنا ويتسببون بهبوطها"". نشرت الصحف أقواله "الإيضاحية" بكاملها. أبرزت صحيفة NATION في عنوانها الرئيسي: "توضيحٌ للكلام عن اليهود"، وفي عنوان فرعي: "لا اتهامات وحشية".

في 1 أغسطس 1994، اجتمعت، في جلستها السادسة والأربعين في جنيف، اللجنة الفرعية لحماية الأقليات ومكافحة التمييز ضدها، التابعة لهيئة الأمم. في خطاب ألقاه، يوم 3 أغسطس، السيد دافيد ليطمان، ممثل منظمة IFOR[8] التي تعمل على التقريب بين القلوب على المستوى الدولي، نبّهَ إلى أن **بروتوكولات حكماء صهيون**، وبعد 60 عامًا على أحداث الثلاثينيات الرهيبة، ما تزال تحظى بالنشر الواسع، وأنها صدرت في السنوات العشر الأخيرة، في بلاد كثيرة، منها: بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، إسبانيا، يوغوسلافيا، اليونان، بولندا وروسيا. لكنها، في البلاد الإسلامية بالذات، تحظى بطلب متزايد رهيب، وتَنشُرُ الكراهية. إن معظم الإصدارات، على حد قوله، مصدرها العربية السعودية، بينما يمكن العثور على الكتاب في أماكن أخرى في الشرق الأوسط وفي بلاد المغرب. قال إن إيران أيضًا تطبع كميات تكفي السوق المحلية، لكنها تهتم بالترجمات لتلبية طلب الأسواق في دُول الغرب. صحيفة "إمام" التي يصدرها قسم الإعلام في السفارة الإيرانية في لندن، نشرت البروتوكولات اعتبارًا من فبراير حتى مايو 1984 بتتابع، وألحقت بها تفسيرًا مفاده أن قد بات واضحًا الآن ما هو المفتاح لكل الأحداث الحاصلة في أنحاء العالم. "يبدو أن اليد الخفيَّة الصهيونية، تنشط في كل مكان منذ مئات السنين، تقترف جرائم، بقدر لا يُصدَّق، بحق المجتمع البشري وقيَمِهِ". بإمكان من يقرأ البروتوكولات فقط، أن يكتشف الحقيقة المروِّعَة للمجتمع البشري الفاسد، التي تشكّل العلامة التجارية للصهيونية".

"الصهيونية وباء لا بدَّ من القضاء عليه"، هكذا يقولون، وهذه الرسالة الواضحة تستوعبها المنظمات الإرهابية جيِّدًا. على غرار زمن المئات السود، وأيام الحكم النازي في ألمانيا، تصدر الإشارة بصريح العبارة: يخطّط اليهود للسيطرة على العالم؛ إنهم يقومون بالتنفيذ الفعلي لخطتهم؛ يجب أبادتُهم!

---

[8] IFOR: International Fellowship of Reconciliation

ليس غريبًا إذن، أن منظمة حماس، التي تباهي بتفعيل الإرهابيين الانتحاريين داخل إسرائيل، قد حدّدت في ميثاقها أنه يتوجّب على المسلمين، حسب أمر النبي، محاربة اليهود وقتلهم حيثُما وُجِدوا. جاء في الميثاق أن اليهود قد سيطروا على وسائل الإعلام العالمية وعلى المراكز المالية، عن طريق التحريض للثورات والحروب ودعم منظمات مثل البناة الأحرار، والشيوعية، والرأسمالية الصهيونية، والروتاري، واللاّيونز، وبني بريت إلخ. إنهم يفسدون المجتمع الإنساني كله بهدف تدميره، وينشرون شرورهم وفسادهم ويتسلطون على العالم عن طريق منظمات محبوبة لديهم مثل عصبة الأمم، والأمم المتحدة ومجلس الأمن.
إن مخططاتهم قد وردت بتفاصيلها في **بروتوكولات حكماء صهيون**.

البروتوكولات التي تم استخدامها في غسل أدمغة مرتكبي الجرائم في روسيا القيصرية، وأدمغة جزّاري هتلر في ألمانيا النازية، يستخدمها اليوم قادة منظمات الإرهاب لإقناع صغار شُبَّان العرب بالتضحية بحياتهم في عمليات انتحارية من أجل قتل اليهود، في سبيل إنقاذ وطنهم من السيطرة اليهودية، ليصبحوا بذلك "شهداء" مسكنهم الجنة الموعودة. يُقال إن بعضهم يحتفظ في جعبته بنسخة من **بروتوكولات حكماء صهيون**، كحجاب أو حِرزٍ يجلب له الحظ ويشد من عزيمته.

في إحدى الحالات، حين قام إرهابيون عرب باقتحام خيمة وطعن أحد الجنود الإسرائيليين، وعُثر فيما بعد على المكان الذي خبَّأوا فيه السلاح الذي سرقوه من الجنود، عُثر أيضًا على نسخات من **بروتوكولات حكماء صهيون**.
في 11 نوفمبر 1994، تأزّرَ هشام إسماعيل حمد بحزام من المتفجّرات، ركبَ درّاجته الهوائية مخترقًا نقطة الحراسة في حاجز غزة، وفجّر نفسه سوية مع ثلاثة جنود إسرائيليين.

قبل تلك الحادثة بستة أيام شارك هشام في لقاء شبه سرّي لمجموعة من النشطاء الذين اقسموا يمين الولاء لحركة الجهاد الإسلامي. حضر اللقاء الصحافي كانت تيمرمان، فكتب تقريرًا عن اللقاء في جريدة جروزلم بوست يوم 25 نوفمبر 1994، وفي جريدة التايمز في لوس آنجلس.

بناء على تقرير تيمرمان، صرّح أحد المشاركين، محمود أحمد: "الجهاد الإسلامي يعتبر إسرائيل والدول النازية كالولايات المتحدة، وبريطانيا وفرنسا، سرطانًا يجب اجتثاثه. هذا هو أحد آرائنا الرئيسية. نريد أن نذكّرَهم بأن التفجير في الأرجنتين كان فقط إحدى عمليات الجهاد الإسلامي. ونحن نعتزم الاستمرار بمثل هذه العمليات. هذه، في الواقع، استراتيجيتنا الأساسية".

هشام إسماعيل، الذي يبدو أنه أصبح في عداد المنتحرين، أضاف بصوت ناعم: "إن هاني عابد (منتحر سابق) أسكنه الله فسيح جنانه، لم يمت، إنه سعيد. لذلك تطلق النساء زغاريد الفرح؛ إنهن مسرورات لأنه بذل نفسه في سبيل الله". عند ذلك شرحوا لتيمرمان الخطة اليهودية للسيطرة على العالم، كما وردت **في بروتوكولات حكماء صهيون**. "يريدون تدمير العالم كله [...] نحن المسلمين لا يمكننا التسليم بذلك [...] ردّنا لا يقتصر على الكلام فقط".
بعد ستة أيام خرج هشام على دراجته قاصدًا الحاجز. تؤمن عائلته أنه شهيد صعد إلى السماء وأن الله قد استقبله بترحاب.

*ساءَلتُ نفسي إن كان بالإمكان اعتبار هشام ضحيّة من ضحايا **بروتوكولات حكماء صهيون**، إلى جانب الضباط اليهود الثلاثة الذين قتلهم بدم بارد. هل كان الشاب على استعداد للتضحية بحياته لو لم يقنعه قادته بذرائعهم المتزمتة، بأنه يكافح المؤامرة اليهودية المحيطة بالعالم، والتي تهدّد الشعوب الإسلامية بشكل مباشر؟*

كلما توالت السنين ازداد نشر البروتوكولات في البلاد الإسلامية، وتحولت نصوص المقدّمات لتصبح أكثر نباوةً وسمًّا. فكل طبعة، مهما كان مصدرها، تُنشر لكل قارئ للعربية، إن كان في البلاد الإسلامية والعربية أو كان من الجاليات الإسلامية في بلاد الغرب، حيث تباع علنًا في دكاكين الكتب، وتُنشر كمسلسلات في الصحف الرئيسية، مصحوبة أحيانًا برسوم كاريكاتورية من طراز شطريمر، وتُقدَّم أحيانًا كبرامج تلفزيونية، بما فيها البرامج التعليمية /التربوية، كما تنتشر على صفحات الكثير من المواقع على الإنترنت.

عام 2005 مضى قرن على الإصدار الأول لبروتوكولات حكماء صهيون على يد سرجي نيلوس في روسيا، لكنَّ تدفق البروتوكولات، ليس أنه لم يتوقف فحسب، بل إنه يزداد ويحتدّ، والمقدّمات التي تتهم اليهود بكل شيء توصَلُ اليوم بالعمليات الإرهابية في العالم، وبشكل خاص بتفجير البنايتين التوأمين في نيويورك، وبالحرب في العراق. تحولت البروتوكولات إلى موضوع رئيسي، ليس في الحديث السياسي عامة فحسب، بل أيضًا في دعاية المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل.

أذكرُ على سبيل المثال، طبعة مصرية من عام 2003 وطبعة سورية من عام 2005 قيل إنها حصلت على مصادقة وزارة الإعلام السورية.
كُتِبَ على صفحة الغلاف الخلفية للطبعة السورية التي استهدفت إثارة القراء: "هذا الكتاب يكشف عن الوجه الحقيقي للصهيونية العالمية، التي تسعى إلى السيطرة على العالم عن طريق الغش والخداع".
ضمن قائمة "ملامح البروتوكولات الرئيسية" تبرز العبارات التالية: "توجيه الرأي العام والصحافة، بعد التسلط عليهما"؛ تشجيع الإدمان على الكحول بين الأغيار"؛ "تحقير جميع الأمم غير اليهود"؛ و "إشعالُ حرب عالمية جارفة" على غرار ما يُسمّى "خَيَارُ شمشون"، في حال أن العالم كلّه وقف ضد اليهود.

في المقدمة السامَّة التي تعدّد الخصائص المميّزة لليهود، حُفظ المكان أيضًا لتلفيقة الدم، الخيانة، تجارة الرقيق، تجارة المخدّرات والدعارة.

أما السلطة الفلسطينية فإنها جديرة باهتمام خاص. إن ميثاق حركة حماس المستند إلى البروتوكولات، لم يَجرِ تعديله حتى بعد أن أصبحت الحركة حزبًا سياسيًا وتم انتخابها للقيادة من قِبل الشعب الفلسطيني. إن موقع السلطة الفلسطينية على الشبكة العنكبوتية "النكبة"، وإن كان يحذف البروتوكولات من إعلامه باللغة الإنجليزية، إلا أنه يستمرّ بنشرها باللغة العربية، داعيًا إلى قراءتها، واستخلاص النتائج من الخلفية التاريخية، بأن إقامة دولة إسرائيل ووجود مشكلة اللاجئين ليس إلاّ جزءًا من التنفيذ العملي لبروتوكولات حكماء صهيون.

أما التجديد الآخر الذي يميز رحلة البروتوكولات في القرن الحادي والعشرين، فهو إنتاج مسلسل تلفزيوني من عشرين فصل، يتم بثه في العالم الإسلامي خلال شهر رمضان، ساعة تكون المشاهدة على أشدّها، حين تجلس العائلة مجتمعة لتناول الإفطار وكسر صوم النهار. هكذا تم انتاج المسلسل المصري "فارس بلا جواد" عام 2002، ومسلسل سوري عام 2003، تبثه محطة "المنار"، ومسلسل آخر أنتِجَ في قطر. في كل هذه المسلسلات تلعب البروتوكولات دور البطولة وتشكل محور الموضوع. تموِّلُ الحكومات التكاليف الباهظة لإنتاج هذه المسلسلات، التي تُعرض على شكل مسلسلات شعبية، من أجل إيصالها إلى الجمهور على أوسع نطاق، وهكذا تصل رسالة البروتوكولات إلى الجماهير الغفيرة في كل أنحاء العالم، لتشمل ليس فقط القادرين على القراءة، بل وأيضًا كل من يشاهد التلفاز، من كل الأجيال وكل الطبقات.

أخيرًا يجدر ذكر إحدى النوادر التي لا تحتاج إلى الشرح.

في سنة 2003 أعيد افتتاح مكتبة الإسكندرية الشهيرة للجمهور، بعد أن تم ترميمها بشكل رائع بتمويل اليونسكو. الصحافية المصرية، جيهان حسين، لفتت الانتباه إلى أن في إحدى الخزائن الزجاجية المنتصبة في متحف المكتبة، والمخصَّصة للمخطوطات، وبالذات لكتب الديانات السماوية الثلاث، عُرِضَ جنبًا إلى جنب، كل من القرآن الكريم، العهد الجديد والتوراة. إلى جانب التوراة عُرِضَت الترجمة الأصلية الأولى لبروتوكولات حكماء صهيون، وقد لاحت على غلافها نجمة داود يلفُّ بها ثعبان.

في ردّه على استفسارٍ، أجاب مدير المتحف، الدكتور يوسف زيدان، أن **بروتوكولات شيوخ صهيون**، بالنسبة لليهود، تفوق التوراة من حيث أهميتها، إذ أنها تمثل دستورهم الحقيقي ونهج حياتهم.

فقط بعد تدخّل اليونسكو، التي موَّلت الترميم، وبعد أن تلقَّت وابلاً من الشكاوى، أُخرجَ كتاب البروتوكولات من الخزانة الزجاجية، الأمر الذي لقي النقد الشديد في الصحافة المصرية باعتبارة عملاً غير وطني وخضوعًا للصهاينة.

بهذا تحوَّل التزييف الروسي ابن المائة عام، في مستهل القرن الحادي والعشرين، إلى سلاح استراتيجي شديد القوة، لتشويه سمعة اليهود ونزع شرعية دولة إسرائيل. وأصبح المصطلحان "حكماء صهيون" و "المؤامرة اليهودية" رمزا شفرةٍ في الخطاب الدولي العام، في القضايا التي تتعدّى اللاسامية ضد اليهود، من شأنهما التأثير على سلوك الشعوب والدوَل.

المراجع والمصادر

لشرح الخلفية التاريخية، استعنت بكتب التاريخ المعروفة، التي لا أرى داعيًا إلى تعدادها، بيد أنه يجدر ذكر الحقائق التي استقيتها من رسائل متبادلة ومن مذكّرات شخصيات شهيرة مثل چـراف سرجي ويت، وپـاول ميليوكوف وموريس پـلاولوغ، الذين وردت أسماؤهم في الكتاب، بالإضافة إلى مواد استقيتها من كتاب الأميرة ردزيفيل "**القيصرة الأخيرة**" الصادر في إنجلترا عام 1928، لتضفي هذه المواد اللون على أحداثٍ حصلت في روسيا في ذلك الزمن. وهنالك كتاب آخر، أوصي به، يتناول تلك الفترة باختصار ووضوح، مُذهلٌ بما يحتويه من الصور، وهو الطبعة الإنجليزية لأفول سلالة رومانوف (***The Sunset of the Romanov Dynesty***)، من إعداد ميخائيل أوريشكميكوف ولودميلا بروستاي ويوري شلاييـف، وقد صدر عام 1992 في موسكو.

هذه الكتب، إلى جانب غيرها من كتب التاريخ، لم تُشمَل في قائمة المراجع، حيث أنها لا تتناول البروتوكولات بصورة مباشرة، فقد اقتصرت القائمة على الكتب والمقالات التي أفادتني عمليًّا، وإني أتوجه بالشكر إلى جميع المؤلفين الذين استعنتُ بكتاباتهم من أجل المقارنة التقاطعية للمعلومات الهائلة التي تراكمت على مدى عشرات السنين.

لم أكن لأتمكّن من كتابة هذا الكتاب لولا مساعدة الكثيرين ممن علموا بما أقوم به، فجادوا عليّ بالمعلومات، ومنهم الأصدقاء والمعارف، وغيرهم من الغرباء تمامًا. توجَّهتُ إليهم جميعًا بعميم شكري، ولن أثقل على القارئ في ذكر أسمائهم.

في وصفي للمحاكم التي جرت في الثلاثينيات وفي التسعينيات من القرن العشرين، اعتمدتُ بمنتهى الدقة على المواد الأصلية، التي شملت النصوص الحرفية والكاملة لمحاضر جلسات المحاكم، والتي حصلتُ عليها من مصادر مختلفة.

كانت وثائق محكمة بيرن، دون شك، مصدر معلوماتي الأساسي، فقد احتوت على أوراق العمل، والمستندات الرسمية، والتقارير والكشوفات، والرسائل المتبادلة، وحتى على تسجيلات وملاحظات تم تدوينها خطيًّا في مناسبات مختلفة. عندما رأيتها للمرة الأولى كانت مجلّدة بتجاليد سميكة حُفِظَت داخل خزانة صغيرة قديمة في مكاتب الجالية اليهودية في زوريخ، سويسرا، لكنها نُقِلَت كلّها، فيما بعد، إلى المعهد التاريخي في زوريخ:
Archiv fuer Zeitgeschichte der Eidgenoessich Technischen Hochschule (ETH)
وقد أتيح لي الاطلاع شخصيًّا على كيفية تصنيفها الدقيق ونقلها إلى شرائح (ميكروفيلم). بعد الانتهاء من العمل، أرسلوا لي ثلاث شرائح احتوت على 8000 صفحة من أرشيفات محكمة بيرن.

من حسن حظي أني وُفّقتُ في إجراء لقاءات شخصية مع أشخاص عاشوا في تلك الفترة وكان بإمكانهم تزويدي بمعلومات عن قضية بيرن، منهم المحامي إميل رآس، شريك جورج برونشفايغ، وأوديت أرملته، وصديق لها احتفظ طوال السنين بالصحف التي غَطّت محكمة بيرن، فأعطانيها.

كما حصلتُ من أوديت على كتاب موريس جولي الذي شكّل بيِّنَةً في قضية بيرن، علاوة على ملاحظات وانطباعات شخصية للمرحوم جورج، زوجها، منها ما كتبه فور انتهاء القضية ومنها ما كتبه قبل وفاته المفاجئة في أكتوبر 1973.

إميل راس، الذي أصبح هو الآخر في عداد الأموات، قد سَلمني مخطوطة كتابه الذي لم يرَ النور أبدًا، وسمح لي باستخدامها لغاية كتابة كتابي هذا. تشمل المخطوطة تفاصيل كثيرة سمعَها من شهود عيان، إلى جانب انطباعاته الخاصة. هذه المخطوطة، علاوة على محادثاتي مع كاتبها، قد مكنتني من "التلصُّص" من وراء كواليس المحكمة، لأصفَ الشخصيات التي كان لها دور في القضية.

أثناء كتابتي لهذا الكتاب، جعَلتُ من مكتبة ڤـينر في جامعة تل أبيب، في بعض الأحيان، بيتي الثاني. هناك أتيح لي الاطلاع على مواد كثيرة تتصل بقضية بيرن، وعلى أرشيف فراينوولد. غالبًا ما يتم استقاء المعلومات الحديثة عن إصدارات البروتوكولات، من مشروع البحث في اللاسامية، على اسم سيفان روط، في جامعة تل أبيب.

استقيتُ معلومات كثيرة عن الحال في الدول العربية من كتب ومقالات البروفسور برنارد لويس، الذي يعتبر أحد كبار الخبراء في هذا الموضوع، والذي كان لي شرف التحدث إليه حول كتابي، فأضفتُ الجديد إلى عِلمي، من فمه مباشرة. لقد أكّد لي أن البروتوكولات تباع في متاجر الكتب الرئيسة في العواصم العربية التي اعتاد أن يزورها من حين لآخر، كما أنه وجّهني إلى مصادر أخرى استقيتُ منها الحقائق الواردة في الكتاب.

وكما ذكرتُ في كتابي، فقد وصلني محضر جلسات المحكمة في جنوب أفريقيا من أحد المحامين المحليين، وأمّا باقي التفاصيل عن تلك القضية، عام 1934، فقد حصلتُ عليها من خلال اطلاعي على وثائق ومستندات في مكتبة الاتحاد الفدرالي الصهيوني في يوهانسبورغ، بفضل مساعدة العاملين فيها؛ كانت الأحكام التي أوردتُها قد نُشِرَت في الملفات الرسمية الجامعة للأحكام الصادرة في جنوب أفريقيا.

في حوزتي كل المواد التي تم تقديمها إلى دائرة النشر في جنوب أفريقيا، وذلك بفضل مشاركتي الشخصية في ذلك الإجراء؛ لكَوني رئيسة رابطة المحامين والحقوقيين اليهود الدولية، فقد استشارني المحامون في تلك القضية، وتطوّعوا لتقديم خدماتهم لي.
أما أسماء الذين زوّدوني بالمواد الخاصة بقضية موسكو، بما في ذلك الوثائق وشهادات شهود العيان، فأنا لم أذكرها، نزولاً عند طلبهم، لكنهم أهل لكل شكري وامتناني.

قام مستشاري للشؤون الروسية، الدكتور بوريس مورزوف، بمشط الأريشفات الروسية التي فتحت أبوابها للجمهور، وخاصة الأرشيف الحكومي الخاص بالفدرالية الروسية. فحَصَ المواد الروسية كلها بكل دقة، بما فيها تهجئة الأسماء الروسية المربكة. قام بوريس بتصوير نسخات عن كل الوثائق الأصلية من تلك الفترة، وكان بعضها قد كُتبَ بقلم الحبر ذي الريشة، ومنها وثائق ترى النور لأول مرة في كتابي؛ فحتى ذلك الحين لم يكن يُسمَح بالوصول إلى الأرشيفات في روسيا. قام بوريس أيضًا بتفحُّص وتصوير الكثير من المستندات في أرشيف IWO في الولايات المتحدة.

الوثائق المتعلقة بدور فيليب چــراڤــز وصحيفة التايمز اللندنية، وصلتني من أرشيفات التايمز، فاستحقَّت إدارة الصحيفة جزيل شكري لما وضعت تحت تصرّفي من الوثائق، آذنةً لي بمطالعتها وتصويرها.

التفاصيل الكاملة عن قصة هنري فورد وعن المقابلات التي أجريَت مع الأميرة ردزيفيل وهنرييتا هربلوت، وردتني من مكتبة الكونغرس في واشنطن، وبشكل خاص من أعداد صحيفة "العبري الأمريكي" التي غطّت باستمرار كل الأحداث ساعة حدوثها. كذلك فإن تقرير مجلس الشيوخ الأمريكي موجود في مكتبة الكونغرس وهو متاحٌ للجميع.

عثرَتْ لي رئيسةُ محكمة الاستئناف الفرنسية السابقة على ملف السجن الأصلي للسجين موريس جولي، لكنَّ محاولاتها للعثور على ملف المحكمة باءت بالفشل، وقد اتضح أن الأرشيف الذي يشمل الملف قد أُحرِقَ، فتم استقاء الكثير من المعلومات من مذكرات موريس جولي.

تسنّى لي، ذات يوم أحد، الدخول إلى محكمة بيرن لزيارة القاعة التي نوقشت فيها القضية. أثناء التنقيب في مكتبة المحكمة عثرتُ

على القانون القديم لكانتون بيرن لعام 1916، والذي يمنع نشر المواد البذيئة.
لا تشمل هذه القائمة جميع المصادر، حيث أني حصلتُ على مواد كثيرة من أفراد، مثل البروفسور ليفنيت الذي زوَّدني بمادة عن اليابان، كما أرسل لي باحثٌ من الولايات المتحدة الرسوم الكاريكاتورية اليابانية التي نُشِرَت في الكتاب.

اعتمدَتْ تفاصيل كثيرة في الكتاب على شهادات العيان.
تجوّلتُ على مدى سنوات عديدة في مختلف البلدان، ومن ضمنها: روسيا، سويسرا، فرنسا، الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا، وشاهدتُ بأم عيني الأماكن التي وصفتُها، والتي لم يطرأ تغيير جذري على الكثير منها. زرتُ بمعية بوريس القصور القيصرية في روسيا وديرَ أوبتينا بوستين، حيث عاش نيلوس وأصدر البروتوكولات لأول مرّة. كما زرتُ المكتبة الوطنية في باريس، في الحي الروسي، حيث أمكن العثور على البيت الذي سكنه رتشكوفسكي، وزرت البلدة الصغيرة التي انتقلَتْ إليها جولييت آدم، بعد أن تركَت باريس، فنقلت إلى هناك صالونها الشهير بكل قطع أثاثه الأصلية.

حيثما توجَّهتُ التقيتُ بأشخاص جادوا عليّ بمعلومات ومستندات مفاجئة. في متحف بطرسبورغ عاينتُ الهكتوغراف الذي، على حدّ قول بوريس، تم استعماله، في حينه، لإصدار طبعة البروتوكولات الأولى التي قُدِّمَت إلى حاكم موسكو.

SELECT BIBLIOGRAPHY
ON THE *PROTOCOLS OF THE ELDERS OF ZION* (and related subjects)

Aronsfeld, Ceasar C: 'The Text of the Holocaust: A Study of the Nazis' Extermination Propaganda, 1919-1945,' Marblehead: Micah Publications (1985)

Aronsfeld, Ceasar C: 'Protocols among the Arabs', Patterns of Prejudice 9, (July/August 1975)

Bernstein, Herman: 'The History of a Lie – "The Protocols of The Wise Men of Zion' . A Study'. (New York, 1921).

Bernstein, Herman: 'The Truth about the "Protocols of Zion" – A Complete Exposure'
(New York: Covici and Friede, 1935). (New edition: Ktav Publishing House, 1972)

Black, Edwin: 'The Anti-Ford Boycott' , Midstream (January 1986).

Cohn, Norman: 'Warrant for Genocide', Eyre & Spottiswoode, London (1967).

Curtiss, John Shelton: An Appraisal of the "Protocols of Zion", New York: Columbia University Press, 1942.

Goodman, David G. and Masanori Miyazawa: 'Jews in the Japanese Mind: The History and Uses of a Cultural Stereotype', New York: The Free Press (1995).

Graves, Philip: 'The Truth about the Protocols', Times of London, (August 16/17/18 1921).

Guggenheim, Willy (edited by): Juden in der Schweiz - Glaube-Geschichte-Gegenwart – Published by the Jewish Community of Switzerland (SIG) edition Kuerz Kuesnacht/Zuerich (1982).

Hans, Karmela: 'The Protocols of Zion, a secret source of Nazi ideology' FATPACKS - anti-Semitism a living history.

Holmes, Colin: 'New Light on the Protocols ', Patterns of Prejudice. Vol. 6 (November/ December 1977).

Institute of Jewish Affairs: ‘The Post-War Career of the Protocols of Zion.

Institute of Jewish Affairs: Anti-Semitism in Japan – Research Report, London, (1981).

Iroshnikov, Mikhail; Protsai, Liudmila; Shelayev, Yuri: ‘The Sunset of the Romanov Dynasty, Teppa Terra, Moscow (1992)
Johnson, George: ‘The Infamous “Protocols of the Elders of Zion” Endures’, The New York Times, (Sunday 26July 1987).

Kadish Sharman: ‘Jewish Bolshevism and the "Red Scare" in Britain’, The Jewish Quarterly Vol 34, (1987).

Kagedan ,Alan L: ‘Soviet Anti-Jewish Publications, (1979-1984).

Kohno, Tetsu: ‘The Jewish Question in Japan’.

Korey, William: ‘The Soviet "Protocols of the Elders of Zion": Anti-Semitic Propaganda in the U.S.S.R’ (August 1967-August 1977), Washington DC: Public affairs Division, B’nai B’rith (1977).

Korey, William: ‘The Freemason Zionist Plot ‘, Washington D.C., Midstream (June/July 1986).

Kuelling, Friedrich: ‘Bei uns wie Ueberall?’, (no publication date) printed by Jurist Druck, Zurich.

Lacey, Robert: ‘Ford – The Man and the Machine’, Boston: Little, Brown and Co (1986)

Lee, Albert: ‘Henry Ford and the Jews’. New York, Stein and day, (1980).

Lewis, Bernard: ‘Semites & Anti-Semites; An Inquiry into Conflict and Prejudice ‘, W.W. Norton & Company, New York - London (1986).
Litvinoff, Emanuel: ‘Soviet Anti-Semitism’, London’ (1974).

Litvinov, Barnett: ‘The Burning Bush – Anti-Semitism and World History’ London, Collins (1988).

Livingston, Sigmund: ‘Protocols of the Wise Men of Zion – A Spurious and Fraudulent Document Manufactured to Deceive and to Engender Religious and Racial Hatred’. Chicago: Educational Commission, B’nai B’rith (1934).

Loosli, Carl Albert: ‘Die Schlimmen Juden’, Pestalolozzi-Fellenberg, Bern (1927).

Luethi ,Urs: ‘Der Mythos von der Verschwoerung. Die Hetze der Schweizer Frontisten gegen die Juden und Freimaurer – am Beispiel des Berner Prozesses um die “Protokolle der Weisen von Zion” ‘, Basel and Frankfurt am Main (1992).

Newman, Elias: ‘The Fundamentalists' Resuscitation of the Anti-Semitic Protocol Forgery. The Tragedy of Tragedies and the Story of a Lie’. Augsburg Publishing House, Minneapolis (1934).

New York Times: ‘The Elders of Zion in Tokyo’ (February 5, 1995).

Raas, Emil and Brunschvig, Georges: ‘Vernichtung Einer Faelschung – Der Prozess um Die Erfundenen Weisen von Zion’, Die Gestaltung, Zurich 91938).

Radziwill, Catherina: ‘The Last Tzarina’, Longmans Green & Company, Toronto (1928)

Rollin, Henri: ‘L'apocalypse de notre Temps’, Gallimard, Paris (1939); New edition: Edition Alia, Paris (1991)

Samuel, Maurice: ‘The Great Hatred’, Alfred a. Knopf, New York (1988). New edition by Brown: Classics in Judaica, Lanham: University Press of America (1988).

Segel, Benjamin W.: ‘Die Protokolle der Weisen von Zion - kritisch beleuchtet , A Study, Philo-Verlag, Berlin (1926). Translated from German in 1934 by Sacha Czaczkes, entitled ‘The Protocols of the Elders of Zion - The Greatest Lie in History". New translation with an introduction by Richard S. Levy: ‘A Lie and a Libel – The History of he “Protocols of “The Elders of Zion”’, University Press of Nebraska, Lincoln (1995).

Streiker, L.D.: ‘Painful Tattoos’, Christian Century, vol. 84, (26 JULY 1967).

Sykes, Christopher: ‘The Protocols of the Elders of Zion’, History Today (1967).

Taguieff, Pierre Andre: ‘Les Protocoles des Sages de Sion - un faux et ses usages dans le siecle’, Paris (1992).

Tsigelman, Yaakov: ‘The Universal Jewish Conspiracy in the Soviet Anti-Semitic Propaganda’.
Tsigelman, Yaakov: ‘The Myth of the Jewish Menace in World affairs’ Macmillan Co, New York (1921).

United States Congress. Senate Committee on the Judiciary: ‘”Protocols of the Elders of Zion”’; A Fabricated “Historic” Document; A Report Prepared by the Subcommittee to Investigate the Administration of the Internal Security Act and Other Internal Security Laws’ US Government Printing Office, Washington DC (1964).

Wilson, Keith M.: ‘The Protocols of Zion and the Morning Post, 1919-1920’, Patterns of Prejudice vol. 19, no. 3, (1985).

Wistrich, Robert S: ‘Anti-Semitism – The Longest Hatred’, Methuen, London, (1991att).

Wolf, Lucien: ‘The Jewish Bogey’, London (1920).